مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع. ح

هنري ميللر

سكسوس

ثلاثية "الصلب الوردي"

(١)

ترجمة

أسامة منزلجي

اسم المؤلف : هنري ميللر
عنوان الكتاب : سكسوس
ثلاثية الصلب الوردي١
المترجم : أسامة منزلجي
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٢
الحقوق محفوظة

Author: Henry Miller
Title : Sexus
(The rosy crucifixion1)
Translator:Osama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2002
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

twitter @baghdad_library

هنري ميللر

سكسوس

ثلاثية " الصَلْب الوردي"

الجزء الأول

ترجمة
أسامة منزلجي

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع. ح

twitter @baghdad_library

الفصل الأول

أظن أني قابلتها للمرة الأولى في أمسية يوم خميس - في صالة الرقص - وفي صباح اليوم التالي أثبتُّ وجودي في مقر عملي، بعد أن نلت نحو ساعة أو اثنتين من النوم، وأنا أبدو كالسائر في نومه. مرّ النهار كالحلم. بعد أن تناولت وجبة العشاء استغرقت في النوم على المقعد الطويل وأفقت وأنا في كامل ملابسي عند نحو الساعة السادسة. كنت أشعر بأني نضر تماما، نقي القلب، وتستحوذ عليّ فكرة واحدة - أن أنالها بأي ثمن. وأثناء تنزّهي في الحديقة العامة أخذت أتساءل أي نوع من الزهور أبعث إليها مع الكتاب الذي وعدتها (وينسبرغ، أوهايو[1]). في ذلك الحين كنت أتقدم بخطى حثيثة نحو سن الثالثة والثلاثين. السن التي صُلب فيها المسيح. ثمة حياة بأكملها تمتد أمامي، إذا ما تحلّيتُ بالشجاعة الكافية للمجازفة بكل شيءٍ. في الواقع لم يكن لدي ما أجازف به: كنت أقف عند الدرجة السفلى من السلّم؛ فاشلاً بكل ما في الكلمة من معنى.

كان صباح يوم سبت حينئذ، ولطالما كان يوم السبت بالنسبة إليّ أفضل يوم في الأسبوع. فأنا أعود إلى الحياة بعد أن يسقط الآخرون

---

١ - وينسبرغ، أوهايو: رواية للكاتب الأميركي شيروود أندرسن (١٨٧٦ - ١٩٤١). ترجمة أسامة منزلجي. إصدار منشورات وزارة الثقافة السورية - ١٩٨٦.

منهكين من فرط التعب؛ أول يوم لي يصادف يوم عطلة اليهود. وطبعا لم تكن لدي أدنى فكرة عن أن ذلك الأسبوع سيكون الأسبوع الأجلّ في حياتي، وأنه سيدوم سبع سنوات كاملة. كل ما عرفته هو أن ذلك اليوم كان ميموناً وزاخراً بالأحداث. إن القيام بالخطوة القاتلة والتخلّي عن كل شيء، بحد ذاته انعتاق: لم يخطر ببالي قط أن أفكِّرَ في العواقب. كان الاستسلام المطلق وغير المشروط للمرأة التي أحب يعني أن أتحرر من كل قيد ما عدا الرغبة في فقدانها، وهذا أسوأ القيود قاطبة.

أمضيت فترة الصباح أقترض من هذا وذاك، وأرسلت الكتاب والأزهار، ثم جلست لأكتب رسالة طويلة لكي تُسلَّم عن طريق ساعٍ خاص. قلت لها فيها إني سأهتف لها في وقت لاحق بعد الظهر. وعند الظهيرة غادرت المكتب وقصدت المنزل. كنت شديد القلق، ويكاد نفاد الصبر يصيبني بالحمّى. كان الانتظار حتى الساعة الخامسة عذاباً مقيماً. خرجتُ من جديد إلى الحديقة العامة، وطرحت الأمر كله من ذهني وأنا أتمشّى بلا هدى على الهضبة المؤدّية إلى البحيرة حيث كان الأطفال يبحرون قواربهم. وعلى البعد كانت فرقة موسيقية تعزف الموسيقى؛ ذكّرتني بأيام طفولتي، وبأحلامٍ، وأشواقٍ، وندامات مكبوتة. وجرتْ في عروقي ثورة عارمة، متّقدة. وتذكّرت بعضاً من شخصيات الماضي العظيمة، وكل ما كانت قد أنجزته وهي في مثل سني. كانت كل الطموحات التي انطويتُ عليها قد تلاشت؛ لم يتبقّ لدي ما أقوم به إلا أن أضع نفسي رهن إشارتها. وفوق ذلك كله أردت أن أسمع صوتها. أن أعلم أنها ما تزال على قيد الحياة، وأنها لم تنسني بعد. كان أقصى ما جرؤت على الأمل فيه أن أتمكن من وضعِ نكلةٍ في شقها في كل يوم من

twitter @baghdad_library

أيام حياتي من الآن فصاعداً. لو أنها تعدني بذلك، وتفي بوعدها لي، لما همّني بعد ذلك أي شيء.

عند الساعة الخامسة أسرعت بالاتصال بها هاتفياً. أبلغني صوتٌ أجنبي، حزين بشكل غريب أنها غير موجودة في المنزل. حاولت أن أعرف متى ستعود لكن الخط كان قد انقطع. وجرفتني فكرة كونها بعيدة عن منالي إلى حافة الجنون. اتصلت بزوجتي لأقول لها إني لن أتناول طعام العشاء في المنزل. رحّبت بإعلاني هذا بطريقتها المعتادة المقززة للنفس، وكأنها لا تتوقع أن يصدر عني غير خيبات الأمل والتسويفات. قلت في نفسي وأنا أعلّق سماعة الهاتف " اختنقي بهذا يا قحبة. على الأقل أنا أعلم أني لا أرغب فيكِ، في أي جزءٍ منك، أحيّةً كنتِ أم ميتة ". كانت هناك حافلة مفتوحة تقترب؛ وبدون أن أعرف وجهتها قفزتُ على متنها وشققت طريقي إلى المقعد الكائن في آخرها. بقيت راكباً مدة تربو على الساعتين وأنا في نشوة عميقة؛ وحين لمحت محلاً لبيع المثلجات العربية يقع قبالة الشاطئ، ترجّلت، ومشيت إلى رصيف الميناء وجلست على رافدة طولانية تقع أسفل التكوين الشبكي الطنّان لجسر بروكلن. كان ما يزال أمامي عدة ساعات لأبددها قبل أن أجرؤ على التوجه إلى صالة الرقص. كنت أحدّق بنظرة خاوية إلى الضفة المقابلة وأفكاري تنجرف بلا توقف، مثل سفينة بلا دفة.

حين لملمت أخيراً شتات نفسي انطلقتُ وأنا أترنّح كمن يمشي تحت تأثير مخدرٍ. نجح في التسلُّل هاربا من طاولة العمليات. كل شيء بدا مألوفا ومع ذلك لم يكن له أي معنى؛ كان يستغرق تنسيق بضعة انطباعات بسيطة قد تعني، بعمليةٍ حسابيّةٍ عادية وبسيطة، طاولة،

كرسياً، بناءً، شخصا، وقتاً طويلاً جداً. إن الأبنية بدون أدواتها الآليّة أشدُّ إقفاراً من القبور، وحين تُترَك الآلات خاملة تخلق فراغاً أعمق من الموت نفسه. لقد كنت شبحاً يتنقّل في الفراغ. وسواء أجلست، أم توقّفتُ عن إشعال سيجارة، أم لم أجلس، أو أدخّن، سواء أفكّرت أم لم أفكّر، أو أتنفّس أم توقفت عن التنفُّس، سيّان. اسقطْ ميتاً وسوف يطأك الذي وراءك ويتابع طريقه؛ أطلق رصاصةً من مسدسٍ يطلق رجل آخر النار عليك أنت؛ اصرخْ توقظُ الموتى، الذين، ويا للعجب، يملكون بدورهم رئات قوية. حركة المرور اتجاهها الآن شرق غرب؛ وبعد دقيقة سيصبح اتجاهها شمالاً جنوباً. كل شيء يتقدّم بلا هدف وفقاً لقاعدةٍ ما ولا أحد يصل إلى أي غاية. يتمايلون ويترنّحون داخلين خارجين، صاعدين هابطين، بعضهم يسقط كالذباب. وآخرون يحتشدون كالبعوض. كُلْ وأنت واقف، مع شقوقِ وضْع النقود، ورافعات، ونكلات دبقة، تجشّأ، خلّل أسنانك، انقر قبعتك، تسكّع، انزلق، ترنّح، صفّر، انسف دماغك. في الحياة الآخرة سأكون صقراً يتغذّى على جيفة دسمة: سأجثم فوق ذرى الأبنية الشاهقة وأغوص كالطلقة لحظة أشمُّ رائحة الموت. الآن أنا أصفّر لحناً مرحاً - المناطق الواقفة فوق المعدة هادئة. مرحبا مَرَه*، كيف حالك؟ وتمنحني الابتسامة الغامضة، وهي تطوّقني بذراعيها وتعانقني بحرارة. سيحدث ذلك في فراغٍ تحت أضواءٍ ساطعة قوية مع ثلاث سنتيمترات من السرِّية تشكّل دائرةً غامضةً حولنا.

أرتقي الدرج وألج الحلبة، قاعة الرقص الكبرى لخبراء الجنس النشطين، التي تغصُّ بوهجٍ مخدع المرأة الدافئ. الأشباح ترقص الفالس وسط سديمٍ حلوٍ بلون العلكة، الركَبُ محنيَّةٌ قليلاً، والأوراك مشدودة،

* مَرَه : تلفظ تماماً كما تُلفظ بالعامية ، والمقصود طبعاً «امرأة» ، وهو أحد الأسماء التي يُطلقها ميللر على حبيبته

twitter @baghdad_library

وأكعابٌ تسبح في لونٍ أزرق باهت ضارب إلى الخضرة . وبين قرع الطبول أسمع سيارة الإسعاف تطلق رنين أجراسها في الأسفل، ثم سيارات إطفاء الحريق، ثم صفّارات الإنذار. لحن الفالس مخرَّمٌ بالأسى، ثقوب إطلاق الرصاص تنزلق على مسننات البيانو الميكانيكي الغارق بعيداً داخل بناءٍ يحترق وخالٍ من سُلَّم الهروب من الحريق. إنها ليست في الحلبة. لعلها مستلقية على السرير تقرأ كتاباً، ولعلها تضاجع مصارعاً، أو لعلَّها تركض كالمجنونة في حقلٍ من الجُذامة، بقدمٍ منتعلةٍ، وأخرى بلا نعل، وثمة رجل اسمه عرنوس الذرة يلاحقها بشبق. أينما تكون هي أقف أنا وسط ظلامٍ دامسٍ؛ وغيابها يقتلني.

أسألُ إحدى الفتيات إن كانت تعرف متى ستعود مَرَه. مَرَه؟ لم تسمع باسمها. كيف لها أن تعرف أي شيء عن أي شخص ما دامت لم تستلم عملها إلا منذ ساعة أو نحوها وتتصبَّب عرقاً كفرسٍ مدثّرة بستة أطقم من الملابس الداخلية الصوفية المبطّنة بجزّة صوفية. ألن أراقصها – سوف تسأل إحدى الفتيات الأخريات عن مَرَه. نرقص قليلاً رقصةَ العرق وماءِ الورد، وينتقل الحديثُ إلى مسامير الأقدام، والتهاب ورم إبهام القدمِ وتوسُّع الأوردة، والموسيقيون يختلسون النظر من خلال سديمِ مخدعِ النساء بعيونٍ هلاميةٍ، ووجوههم منبسطة بتكشيرة متجهِّمة. الفتاة التي هناك، فلوري، قد تستطيع أن تخبرك شيئاً عن صديقتي. لفلوري فم واسع وعينان بزرقة اللازورد؛ إنها هادئة كزهرة إبرة الراعي، بما أنها كانت قادمة لتوها من مهرجان من النكاح دام طوال فترة بعد الظهر. هل تعرف فلوري إن كانت مَرَه ستأتي قريباً؟ لا تظن ذلك... لا تظن أنها ستأتي أبداً هذا المساء. لماذا؟ تعتقد أن لديها موعداً مع أحدهم. الأفضل أن أسأل اليوناني – هو يعرف كل شيء.

اليوناني يقول نعم، مس مَرَه ستأتي ... نعم، فقط انتظر بعض الوقت. وأنتظر وأنتظر. الفتيات يتبخّرنَ، كجيادٍ تتعرّق وسط حقلٍ من الثلوج. حلَّ منتصف الليل. لا أثر لَمرَه. أتحرّك ببطء، وعلى مضض، نحو الباب. ثمة شاب بورتوريكي يزرّر فتحة بنطاله في أعلى الدرج.

في القطار النفقي أختبرُ قدرةَ بصري في قراءة الإعلانات التجاريّة على الطرفِ الأبعدِ من المقصورة. أستنطقُ جسدي لأتأكّد من أني مُعفَى من الأوجاعِ المورّثة للإنسان المتحضِّر. هل أنفاسي كريهة الرائحة؟ هل قلبي يضرب بقوة؟ هل لديّ مشط قدم هابط؟ هل مفاصلي متورِّمة بالروماتيزم؟ أما مِنْ التهاب في الجيوب؟ أما مِنْ التهاب في اللثّة؟ وماذا عن الإمساك؟ أو عن ذاك الشعور بالتعب بعد تناول طعام الغداء؟ أما من شقيقة، أو حمَّاض، أو التهاب في الأمعاء، أو اللمباغو، أو مثانة عائمة، أو مسامير في القدم أو التهاب في أصابعها، أو توسع في الشرايين؟ حسب ما أعلم أنا في أتمّ صحة، ومع ذلك ... حسن، في الواقع ينقصني شيء، شيءٌ حيوي...

إنني مضنى بالحب. مضنى حتى الموت. تكفي لمسة من قشرة الرأس وأقع صريعاً كجرذٍ مسموم.

جسمي ثقيل كما الرصاص حين أرتمي على السرير. وفي الحال انتقل إلى أعماق الحلم. هذا الجسد، الذي أضحى ناووساً[٢] بمقابض من حجر، يتمدّد ولا تندّ عنه أية حركة، ينهض الحالم ويخرج منه، كالبخار، ليبحر حول العالم. الحالم يفتش عبثاً بحثاً عن تكوينٍ وشكلٍ يناسبان جوهره الأثيري. وكخياط سماويّ، يجرّب جسداً بعد آخر، لكنها

---

٢ – الناووس : التابوت الحجري . – المترجم .

twitter @baghdad_library

جميعاً غير مناسبة. وأخيراً يضطر إلى العودة إلى جسده هو، ويلبس من جديد القالب الثقيل، ليصبح كالرصاص، ليستلقي منبطحاً ومتصلّباً، هامداً إلى الأبد، ليبدّد الضجر.

صباح يوم الأحد. أستيقظ نضراً كزهرة الربيع. العالم منبسط أمامي، سليم، نقي، بتول كالمناطق القطبيّة الشمالية. ابتلعت قدراً من البزموت وكلور الكلس للتخلّص من آخر أبخرة الكسل الثقيلة. سوف أتوجّه إلى منزلها مباشرة، وأقرع الجرس، وأدخل. ها أنا ذا، خذيني - أو اطعنيني طعنة نجلاء. اطعني القلب، اطعني المخ، اطعني الرئتين، والكليتين، والأحشاء، والعينين، والأذنين. إذا بقي عضو واحد حيّاً فقد قُضي عليك - قضي عليك بأن تكوني لي إلى الأبد، في هذا العالم وفي العالم الآخر وفي كل العوالم الآتية. أنا يائس في حبي، سالخ فروات الرؤوس، سفاح. أنا نهم، آكل الشعر، والشمع القذر، وكتل الدم اليابس، وكل شيء وكل ما تنسبينه إلى نفسك. أريني والدك، بطائراته الورقية، وأحصنة سباقه، وبطاقاته المجّانيّة لحضور الأوبرا: سآكلهم كلهم، سأبتلعهم أحياءً. أين الكرسي الذي تجلسين عليه، أين مشطك المفضّل، وفرشاة أسنانك، ومبرد أظافرك؟ هاتيها لكي ألتهمها بلقمة واحدة. تقولين إن لديك أختاً أجمل منك. أرنيها - أريد أن ألعق اللحم وأزيله عن عظامها.

أتوجّه إلى المحيط، إلى السبخة حيث بُني منزلٌ صغيرٌ من أجل حَضْن بيضة صغيرة، وبعد أن اتخذت الشكل المناسب عُمِّدت باسم مَرَه. ما أروع أن تفرّ قطرة واحدة صغيرة من قضيب الرجل وتعطي نتائج مذهلة هكذا! إنني أؤمن بالله الآب، ويسوع المسيح ابنه الوحيد، وبمريم

العـذراء المبـاركـة، وبـالروح القـدس، وبـآدم كـادمـيـوم، وبنيكـل الكروم، وبالأكـاسـيـد والميكروكـروم، وبطيـور الماء وببـقلة قـرّة العين، وبنوبات الصرَع، وبالطاعون الدّبليّ، وبـ devachan، وباقتران الكواكب السيّارة، وبدروب الدجـاج وبقـذف الرمـاح، وبالثـورات، وبانهـيـارات البـورصـة، وبالحـروب، والزلازل، والزوابع، وبـكالي يوغـا* وبالهـولا هولا**. أؤمن، أؤمن. أؤمـن لأن عـدم الإيمان يعني أن أغـدو كـالرصـاص، أن ارتمي منبطحاً متصلّباً، عاجزاً إلى الأبد، أن أهزل ...

أطلُّ على مشهدٍ معاصرٍ. أين حيوانات الحقل، والفيالق، والسماد، والورد الذي يزدهر وسط الدمـار؟ أرى خطوط سكك الحديد، ومـحطات الوقـود، وكتل الإسمنت المسلّح، والعـوارض الحديدية، والمداخن الطويلة، ومقـابر السيـارات، والمصانع، والمسـتودعـات، والمعـامل المعرِّقـة، وقطع الأراضي الخـاليـة. لا أرى في الأفق حـتى مـعـزاة. أراه بجـلاء وصـفـاء تامّين: ينضح بالقـفـار، وبالموت، الموت الأبدي. ومنذ ثلاثين عـامـاً وأنا أحـمـل صليب العـبـودية الحـديدي المذلّ، أخـدم ولكن بدون إيمان، أعـمـل ولكن لا أتقاضى أجوراً، آخذ قسطاً من الراحة ولكن لا أعرف السكينة. فلمـاذا ينبـغي أن أؤمن بـأن كل شيء سيـتـغـيّر فـجـأة، لمجرّد أن أنـالها، لمجرّد أن أحبّها وأكون محبوباً؟

لن يتغيّر أي شيء ماعدا نفسي.

لدى اقتـرابي من المنزل أشاهد امرأة في الفناء الخلفي تنشر غسيلاً. التـفتَ جانبُ وجـهـهـا نحوي؛ إنه بـلا أدنى شك وجه المرأة ذات الصـوت الأجنبي، الغـريب، الذي أجـابني على الهـاتف. لا أريد أن أقـابل هذه المرأة، لا أريد أن أعـرف مَنْ هي، لا أريـد أن أصدّق مـا كنتُ أتكهّن به.

* كالي يوغا : في الميثولوجيا الهندوسية هي مرحلة انحطاط العالم . المترجم .

** الهولا هولا : الرقصة الوطنية في جزر الهاواي . المترجم .

twitter @baghdad_library

أدور حول المبنى وحين أصل من جديد إلى الباب تكون هي قد ذهبت. وبصورة ما تذهب شجاعتي أيضاً.

أتردّد في قرع الجرس. وعلى الفور يُفتَحُ البابُ بحركةٍ سريعةٍ وتسدُّ العتبةَ جثّة شابٍ فارعِ القامة، ذي هيئة مهدِّدة. ليست موجودة، لا يعرف متى ستعود، مَنْ أنتَ، ماذا تريد منها؟ ثم وداعاً وبانغ! ويحدِّق البابُ إلى وجهي. أيها الشاب، ستندم. ذات يوم سأعود مع بندقية وسأنسف خصيتيك ... إذن هذا هو الأمر! الجميع متيقِّظ، الجميع يعرف ما يجري، الجميع مدرَّب ليتملَّص ويتهرَّب. مس مَرَه لا تكون أبداً حيث يُتَوَقَّع منها، ولا أحد يعرف أين يمكن أن يتوقَّع مكان وجودها. مس مَرَه تسكن الهواء: هي رمادٌ بركانيّ تذروه الرياح التجاريّة هنا وهناك. الهزيمة والغموض لليوم الأول من السنة السبتيّة. يوم أحد كئيب بين النصارى، بين الذين وُلِدوا عَرَضاً. الموت للإخوة النصارى كلهم! الموت للوضع الراهن الزائف!

مرّت بضعة أيام بدون أن تظهر أدنى إشارة إلى وجودها على قيد الحياة. في المطبخ، وبعد أن تنسحب زوجتي إلى مخدعها، أجلسُ وأكتبُ رسائلَ ضخمةً إليها. حينئذٍ كنا نسكن في حيّ محترم إلى حد المرض، ونشغل ردهة والطابق تحت-الأرضي من منزل كئيب مبني من الحجارة البنّية. وقد حاولت على فتراتٍ أن أباشر الكتابة لكن الكآبة التي أحاطت زوجتي بها نفسها كانت تفوق طاقتي على تحمّلها. ولم أنجح إلا مرة واحدةً في كسر السحر الذي رمته على المكان، وذلك حين أُصبتُ بحمّى شديدة استمرّت أياماً عدّة ورفضت أن أزور طبيباً، أو أن أتناول أي دواء، أو أي طعام. واكتفيتُ بالاستلقاء على سريرٍ مزدوج قائم في زاويةٍ من الغرفة في الطابق العلوي وأنا أقاوم هذيان الحمّى الذي هدّد

بأن تكون خاتمته الموت. ولم أكن قد أصبتُ بأي مرضٍ حقيقي منذ عهد الطفولة وكانت التجربة لذيذةً. كان المشي حتى المرحاض كالترنُّح خلال مسارات عابرة محيطات معقَّدة. عشت حيوات عِدَّة خلال أيام استمراره القليلة. وكانت تلك هي الإجازة الوحيدة التي حصلتُ عليها في ذلك الضريح الذي يدعى المنزل. المكان الآخر الوحيد الذي كنت أحتمله هو المطبخ. كان أشبه بزنزانة مريحة، وكالسجين كنتُ غالباً ما أجلس وحدي هناك حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل أخطّط للهرب. وهناك أيضاً كان صديقي ستانلي ينضم إليّ أحياناً، ينعق على سوءِ حظّي ويشلّ لديّ كل أمل بأشواكٍ خبيثةٍ لاذعة.

هنا كتبت أشدّ ما كُتِبَ من الرسائل جنوناً. إنَّ أي إنسان يعتقدُ أنه مهزوم، يائس، خالي الوفاض، يستطيع أن يستمدّ الشجاعة مني. كان لدي قلمٌ يصدرُ صريراً، وزجاجة حبر وورقة - وهي أسلحتي الوحيدة. كنت أدوِّن كل ما يخطر ببالي، سواء أكان له معنى أم لا. وبعد أن أودع الرسالة صندوق البريد أصعد إلى الطابق العلوي وأستلقي بجانب زوجتي، وعيناي مفتوحتان واسعاً، أحدّقُ إلى الظلام، وكأني أحاول أن أقرأ مستقبلي. وكم من مرة قلت لنفسي إنه إذا كان رجل صادق ويائس مثلي، يحبُ امرأة بكل كيانه، وكان مستعداً أن يقطع أذنيه ويرسلهما بالبريد إليها، إذا كان مستعداً أن يضخَّ دمَ قلبه ويصبّه على الورق، ويغرقها بحاجته إليها واشتياقه، ويحاصرها بلا انقطاعٍ، فلا يمكن أن ترفضه. إن أشدَّ الرجالِ قُبحاً وضعفاً، وتفاهةً لابد وأن ينتصر إذا كان مستعداً للتخلّي عن آخر قطرةٍ من دمه. لا امرأةً تستطيعُ أن تصمدَ في وجه هَبّة الحب الخالص.

twitter @baghdad_library

مرة أخرى ذهبت إلى صالة الرقص فوجدت رسالةً في انتظاري. مرأى خط يدها جعلني أرتعشُ. كانت قصيرةً ومقتضَبةً. ستقابلني في ساحة تايمز، أمام الصيدلية، عند منتصف الليل في اليوم التالي. وترجوني ألا أراسلها إلى منزلها.

كان في جيبي أقلّ من ثلاثة دولارات حين تقابلنا. حيّتني بحرارة ونشاط. لا تذكر أي شيء عن زيارتي للمحل أو للرسائل أو للهدايا. بعد أن تبادلنا بضع كلمات تسألني أين أودّ أن أذهب. لم يكن في رأسي أي اقتراح. فوقوفها أمامي بلحمها، تحدّثني، تنظر إليّ، كان حدثاً لم أكن قد استوعبته تماماً بعد. قالت، وقد هبّت لنجدتي " فلنذهب إلى محل جيمي كيلي ". أمسكت بي من ذراعي وجرّتني إلى حافة الطريق حيث كانت سيارة أجرة في انتظارنا. غصتُ في المقعد، يغمرني حضورها. لم أقم بأي محاولةٍ لأقبّلها أو حتى لأمسك بيدها. لقد جاءت - وهذه هي قمة السعادة. هذا هو كل شيء.

مكثنا هناك حتى الساعات الأولى من الصباح، ونحن نأكل، ونشرب، ونرقص. تحدّثنا بصراحةٍ وبتفاهمٍ. لم أعرف عنها، عن حياتها الحقيقية، زيادة عمّا كنتُ أعرفه سابقاً، ليس بسبب تحفّظها وإنما لأن الوقت كان مملوءاً إلى درجةِ أنه لا الماضي ولا المستقبل كانت لهما أية أهمية.

حين جاءت الفاتورة كدتُ أسقط صريعاً.

لكي أكسب مزيداً من الوقت طلبتُ مزيداً من المشروبات. وحين اعترفت لها بأني لا أحملُ أكثرَ من دولارين اقترحتْ أن أعطيهم شيكاً، وطمأنتني بأنها ما دامت معي فسوف يقبلونه دون أدنى شك. وكان لابد

أن أشرح لها أني لا أملك دفتراً للشيكات، وأني لا أملك غير راتبي. باختصارٍ، أدليتُ باعترافٍ شامل.

بينما كنت أعترفُ لها بحالتي المزرية خطرت لي فكرة. فاستأذنت وتوجّهتُ إلى كابينة الهاتف واتّصلتُ بالمركز الرئيسي لشركة التلغراف وناشدتُ مدير النوبة الليلية، وكان صديقي، كي يبعث إليّ بساعٍ على جناح السرعة مع ورقةٍ نقديّة بقيمة خمسين دولاراً. وكان ذلك مبلغاً كبيراً ولا يستطيع أن يقترضه من درج النقود، وهو يعلم أنه لا يمكن الوثوق مني، لكنني ألقيتُ على مسمعه قصةً معذِّبة ووعدته بكل إخلاصٍ أن أسدِّده قبل انقضاء اليوم.

اتّضح أن الساعي كان أحد أعزّ أصدقائي: إنه العجوز كرايتون، القسّ الإنجيلي السابق. بدت عليه الدهشة الحقيقية حين وجدني في مثل ذلك المكان في مثل تلك الساعة. وبينما كنت أوقّع على الورقة سألني بصوتٍ منخفضٍ إن كنتُ متأكداً من أن الخمسينَ دولاراً تكفي، ثم أضاف " أستطيع أن أقرضك مبلغاً من جيبي الخاص. سيسعدني أن أمدَّ لك يدَ المساعدة ".

سألته، وأنا أفكّرُ في المهمّة التي تنتظرني في الصباح " كمْ تستطيع أن توفّرَ لي؟ "

قال على الفور " أستطيعُ أن أعطيكَ خمسةً وعشرينَ أخرى "

أخذتها وشكرته بحرارة. سدّدتُ الفاتورة، ونفحت النادل بقشيشاً سخيّاً، وصافحتُ المدير، ومساعد المدير، والقبضاي، وفتاة الاحتفاظ بالقبعات، وحاجب الباب، والشحّاذ الذي يمدُّ يده. استقلينا سيارة أجرة، وبينما هي تستعدُّ للانطلاق، عمدت مَرَه بتهوّرٍ إلى امتطائي وباعدت ما

twitter @baghdad_library

بين ساقيها فوقي. غبنا في نكاحٍ أعمى، والسيارة تتمايل وتترنّح، وأسناننا يرتطم بعضها ببعض، ويعضُّ كلٌّ منا لسان الآخر، والسائل يتدفّق منها كالحساء الساخن. وأثناء مرورنا بساحةٍ مفتوحةٍ على الضفة الأخرى للنهر، عند انبلاج الفجر، لمحتُ نظرة الاندهاش على وجه رجل شرطة لدى مرورنا. قلتُ " طلع الفجر، يا مَرَه " ,أنا أحاولُ أن أفكّها برفق عنّي. توسّلتْ إليّ " انتظر، انتظر "، وهي تلهثُ تتشبث بي بعنفٍ، وبهذا دخلتْ في رعشةٍ جنسيّةٍ مطوّلةٍ حسبتُ معها أنها ستخلع أيري عني. وأخيراً انزلقتْ وتراختْ في زاويتها، وثوبها ما يزال مرفوعاً فوقَ ركبتيها. ملتُ عليها وعانقتها من جديد وبينما أنا أفعل أدخلتُ يدي في كسّها الرطب. تشبّثتْ بي كالعلقة وهي تمعّج طيزها الزلاّقة في تهتُّكٍ مسعورٍ. وشعرتُ بالسائلِ الساخنِ يسيل من بين أصابعي. كنتُ قد أدخلتُ أصابعي الأربعة في شقّها، محرّضاً الطحلب السائل الذي كان يخزُ بتشنّجاتٍ كهربائيّة وحصلت على رعشتين أو ثلاثة ومن ثم غاصت مستنزفةً، وهي ترفع ابتسامةً واهنةً إليّ كأنثى ظبي وقعت في الأسر.

بعد مرور بعض الوقت أخرجت مرآتها وبدأت ترشُّ البودرة على وجهها. وفجأة لاحظت تعبيراً ذاهلاً يرتسمُ على وجهها، تبعته التفاتة من رأسها. في اللحظة التالية كانت راكعةً على المقعد، تحدّق من النافذة الخلفيّة. قالت " أحدهم يلاحقنا، لا تنظر! ". وكنتُ من فرط الوهن والسعادة بحيث لم أبدي أي اهتمامٍ بالأمر. قلت في نفسي " إنها مجرّد هستيريا "، ولم أنطق بأي كلمةٍ واكتفيتُ بمراقبتها بانتباهٍ وهي تُصدِرُ أوامر سريعةً، مجنونة إلى السائق لكي يذهب في هذا الاتجاه وذاك، أسرع فأسرع، وهي تتوسّلُ إليه " أرجوك، أرجوك! " وكأنها مسألةُ حياةٍ

وموتٍ. ثم سمعته يقول، وكأن صوته قادمٌ من مكانٍ ناءٍ، من وسيلة نقل في الحلم " يا ست، لا أستطيع أن أسرع أكثـرَ من ذلك ... أنا لدي زوجة وطفل ... أنا آسف ".

أمسكتُ بيدها وضغطتها برفقٍ. فقامت بإيماءة مجهضة وكأنها تقول - " أنت لا تعلم ... أنت لا تعلم ... هذا فظيع ". لم تكن اللحظة ملائمةً لطرح الأسئلة عليها، وفجأة أدركت أننا في خطر. وفجأة فكّرتُ في الأمر، على طريقتي المجنونة. فكّرتُ بسرعةٍ ... لا أحدَ يلاحقنا ... هذا كله هلوسة وخيال ... لكن هناك مَنْ يلاحقها، هذا مؤكَّد ... لقد ارتكبت جريمة، جريمةٌ خطيرة، وربما أكثر من واحدةٍ ... لا شيء مما تقوله يضيف أي جديد ... إنني وسط شبكة من الأكاذيب ... أنا أعشق وحشاً، أشدٌّ الوحوشِ جمالاً قاطبةً ... يجب أن أتركها الآن، وفوراً، بدون أن أقدِّم أي تفسير ... وإلا قضي عليّ ... إنها عويصة، غامضة... لعلني علمتُ أن المرأة الوحيدة في العالم التي لا أستطيع أن أستغني عنها يلفّها الغموض ... اخرج فوراً اقفز ... انقذ نفسك!

شعرتُ بيدها على ساقي، تثيرني خِلسةً. كان وجهها مرتاحاً، وعيناها مفتوحتين واسعاً، باستدارةٍ تامّةٍ، تشعّان براءةً ... قالت: "لقد رحلوا. كل شيء على ما يرام الآن"

قلتُ في نفسي، لا شيء على ما يرام . إننا فقط في البداية. مَرَه، مَرَه، إلى أين تقودينني؟ الأمر ينذر بالسوء، بالشؤم، لكنني أنتمي إليك جسداً وروحاً، وسوف تأخذينني إلى حيث تشائين، ستسلّمينني إلى حارسي، مرضوضاً، مسحوقاً، محطَّماً. بالنسبة إلينا ليس هناك فهم نهائيّ. أشعر بالأرض تنزلق من تحت قدميّ ...

twitter @baghdad_library

لقد بقيت دائماً غير قادرةٍ على النفاذ إلى أفكاري. كانت تغوص إلى أبعد من الفكر: كانت تقرأ على العمياني، كأنها مزوّدة بهوائيّ. لقد أدركت أن قدري هو أن أدمَّر، وأني سأدمِّرها هي في نهاية المطاف. أدركت أنه مهما كانت اللعبة التي تدّعي ممارستها معي فستجدني كُفئاً لها. كنا نقترب من المنزل، فاقتربت مني ووجّهت نحوي كامل إشراق حبّها الساطع، وكأن في داخلها مفتاحاً تتحكّمُ فيه على هواها. كان السائقُ قد أوقفَ السيارة. أمرتْه أن يتقدّم على طول الشارع مسافةً أخرى ثم ينتظر. كنا نجلس متواجهين، متشابكي الأيدي، متلامسي الرُكب. واندلعت النار في عروقنا. بقينا هكذا بضع دقائق، وكأننا نؤدّي مراسم قديمة، لا يكسر صمتنا إلا هدير محرّك السيارة.

قالت، وهي تميلُ إلى الأمام باندفاعٍ من أجل عناق أخير " سأتّصل بك غداً ". ثم غمغمت في أذني - " إنني أعشقُ أغرب رجل على وجه الأرض. إنك تخيفني، إنك شديد الرقّة، ضُمَّني بقوة ... آمن بي دائماً... أكادُ أشعرُ أني مع إله ".

أعانقها، وأرتجفُ من دفء شغفها، ويقفز عقلي بعيداً عن العناق، وقد تكهربَ بالبذرة الصغيرة التي زَرَعَتْها فيَّ. وشيء كان مغلولاً، شيء كافح عبثاً ليؤكّد ذاته منذ أن كنتُ طفلاً وأخرج ذاتي إلى الشارع لتُلقي نظرة إلى الجوار، تحرَّر وانطلقَ إلى عنان السماء. كان كيانٌ جديد واستثنائيّ قد بدأ ينمو بسرعةٍ مرعبةٍ من قمة رأسي، من القمة الضخمة التي أحملها منذ الولادة.

بعد فترة ساعة أو اثنتين من الراحة أعود إلى المكتب. وكان قد ازدحمَ لتوّه بطالبيّ العمل. كانت الهواتف ترنُّ كالمعتاد. بدا لي حينئذ

أكثر من أي وقتٍ آخر أن من العبث تبديدُ حياتي في محاولةِ ترميم شرخٍ دائم. وكان موظفو عالم التلغراف المتعضّي الكوني قد فقدوا إيمانهم بي وبكامل العالم العجيب الذي كانوا يوحّدونه بالأسلاك، والكابلات، والبكرات، وأدوات طنّانة ويعلم المسيح ماذا أيضاً. الاهتمام الوحيد الذي أبديته كان في قبض الراتب - وفي العلاوة التي طال الحديثُ عنها واستحقَّ دفعها. وكان لديَّ اهتمامٌ واحد آخر، اهتمام سرّي، شيطانيّ، وهو في أن أتخلّص من ضغينةٍ كنتُ أكنُّها لسبيفاك، خبير الفعاليّة الذي جلبوه من مدينة أخرى خصيصاً ليتجسّسَ عليَّ. وحالما كان سبيفاك يظهر على مسرح الأحداث، مهما كان المكتب بعيداً نائياً، يصلني خبر وصوله. كنت أقضي الليالي يقظاً أفكّر كمحطِّم الخزائن - كيف أوقِعُ به، وأتسبَّبُ في طرده. وأقسمتُ على أن أتمسَّكَ بوظيفتي إلى أن أصرعه. كان يمتعني أن أبعثَ إليه برسائل زائفة تحت أسماء مستعارة وأنفحه بنصيحةٍ سيئةٍ، وأسربله بالسخرية وأُحدثَ فوضى عارمة. بل كنتُ أدفعُ بأناسٍ ليكتبوا إليه رسائلَ تهديد بالقتل، وأجعل كرلي، أداتي الرئيسية ليتّصلَ به هاتفياً بين حينٍ وآخر ويقول إن منزله يحترق أو إن زوجته قد نُقلَتْ إلى المستشفى - أي شيء يلخبط كيانه ويدفعه إلى القيام بعملٍ أحمق. لقد كنتُ موهوباً في مثل ذلك النوع الماكر من شن الحرب. موهبة نمّيتُها منذ أيام دكان الخياطة. فكلما كان والدي يقول لي - " الأفضل أن تشطب اسمه من السجل لأنه لن يسدِّدً ما عليه! " كنت أفسِّرُ هذا الكلام كما قد يفعل هنديٌّ يافعٌ شجاعٌ إذا ما سلّمه رئيس القبيلة العجوز سجيناً وقال له - " إليكَ ذا الوجه الشاحب، عذّبه!". (كان لديّ ألف طريقة وطريقة لتعذيب رجلٍ ما بدون أن أتورّطَ

twitter @baghdad_library

مع القانون. وبعض الرجال، الذين كرهتهم عن مبدأ، استمرّيتُ في تعذيبهم حتى بعد أن سدّدوا ديونهم بوقتٍ طويل. أحدهم، وكنتُ أضمرُ له كراهيةً خاصةً، مات متأثّراً بنوبة صرعٍ انتابته إبّانَ تسلُّمهِ إحدى رسائلي المهينة المغفلة الاسم والملطّخة ببراز القطط، والكلاب، بالإضافة إلى تشكيلة أو اثنتين أخريين، بما فيها التشكيلة الإنسانيّة الشهيرة).

لقد كان سبيفاك على الدوام النوع الذي يستهويني. وركّزتُ انتباهي الكونيَّ المتعضّي كله على خطةٍ واحدةٍ هي القضاء عليه. وحين كنا نتقابل تراني مهذّباً، مراعياً لرغباته، وتوّاقاً بجلاء للتعاون معه في المجالات كلها. ولم يحدث قط أن فقدتُ أعصابي وأنا معه، على الرغم من أن كل كلمة كان ينطقها تجعلُ دمي يغلي. وكنتُ أبذل كلَّ طاقتي لأدعمَ كبرياءه، وأنفخ أناه، بحيث أنه عندما تحين لحظة ثقب الحقيبة يسمع الضجّة الصادرة القاصي والداني.

قرابة الظهيرة اتّصلتْ مَرَه هاتفياً واستمرت المكالمة نحو ربع ساعة. وحسبتُ أنها لن تغلقَ السمّاعة أبداً. قالت إنها كانت تعيد قراءة رسائلي؛ قرأتْ بعضها بصوتٍ عالٍ على مسمع عمّتها، أو بالأحرى مقاطع منها. (كانت عمتها قد قالت إني حتماً شاعر. كانت قلقة بشأن المال الذي اقترضته. فهل في مقدوري أن أسدّده أم تحاول هي أن تقترض بعضاً منه؟ غريبٌ أن أكون فقيراً - إنني أتصرّفُ كرجلٍ ثريّ. لكنها سعيدةٌ لأني فقير. في المرة القادمة سوف نستقلُّ الحافلة ونذهب إلى مكانٍ ما. إنها لا تهتمُّ بالنوادي الليلية، وتفضّل عليها النزهة في الريف أو التمشّي على شاطئ البحر. الكتاب رائع - لقد باشرت قراءته هذا الصباح فقط. لم لا أحاول أن أكتب؟ إنها واثقة من قدرتي على تأليف

كتابٍ عظيم. لديها أفكار لتأليف كتاب ستفضي بها إليّ حين نتقابل ثانية. وإذا شئت، تقدّمني إلى بعض الكتّاب الذين تعرفهم - سوف يسعدهم كثيراً أن يساعدوني ...

وتُتابعُ هكذا دون توقف. كنت فرحاً وقلقاً في وقتٍ واحد. كانت تفضّل أن تدوّن كلامها على الورق. لكنها، كما قالت، نادراً ما تكتب رسائل. ولم أفهم سبب ذلك؛ كانت فصاحتها رائعة. كانت تقول أشياء لا على التعيين، معقّدة، تشبه اللهب، أو تنزلق بسرعة إلى عالمٍ عارضٍ من النسيان متبّلٍ بالألعاب النارية - إنجازات لغوية تثير الإعجاب يمكن لكاتبٍ متمرّسٍ أن يكافح ساعات ليحققها. ومع ذلك كانت رسائلها - أذكر الصدمة التي تلقّيتها حين فتحتُ الأولى بينها - صبيانية تقريباً.

غير أن كلماتها كانت تعطي أثراً غير متوقّع. وبدل أن أنطلق إلى خارج المنزل بعد تناول العشاء مباشرة في تلك الأمسية، كما كنت أفعل عادة، استلقيتُ على الأريكة في الظلام واستغرقتُ في تأمّلٍ حالمٍ عميق، " لِمَ لا تحاول أن تكتب؟ ". ظلّتْ هذه العبارة تضرب رأسي طوال النهار، وتتكرّر بإلحاح، حتى وأنا أشكر صديقي ماكغريغور على العشرة دولارات التي انتزعتُها منه بعد أن مارستُ عليه أشدّ أنواع التملّق والمداهنة إذلالاً.

وسط الظلام بدأتُ أعود بذاكرتي إلى المركز. بدأتُ أفكر في أسعد أيام طفولتي، أيام الصيف الطويلة حين كانت أمي تمسك بي من يدي، وتقودني عبر الحقول لأقابلَ صديقيَّ الصغيرين جوي وتوني. وفي عهد الطفولة من المستحيل النفاذ إلى سرّ ذلك الفرح الذي ينبع من الإحساس

twitter @baghdad_library

بالتفوّق. ذلك الإحساس الممتاز، الذي يتيح للمرء أن يشارك وفي الوقت نفسه أن يراقب مشاركته، بدا لي الموهبة الطبيعية التي يتمتع بها الجميع. ولم أكن أعي أني أستمتع بكل شيء أكثر من باقي الأولاد أقراني. ولم يتكشّف لي التناقض القائم بيننا إلا مع تقدّمي في السن.

قلت لنفسي، لابد أن الكتابة فعلٌ خلوّ من الإرادة. والكلمة، مثل تيارِ أعماق المحيط، يجب أن تطفو على السطح من تلقاء ذاتها. الطفل لا حاجة به إلى الكتابة، فهو بريء. أما البالغ فيكتب ليطرح السُّمَ الذي راكمه بسبب أسلوبه الزائف في الحياة. إنه يحاول أن يستردَّ براءته، ولكن كل ما ينجح في فعله (بالكتابة) أن يطعِّم العالم بفيروسِ إحساسه بخيبة الأمل. لا أحد يدوّن كلمة واحدة على الورق إذا لم يتحلَّ بالشجاعة لعيشِ ما يؤمن به. ذلك أن إلهامه يكون منحرفاً من منبعه. فإذا كان ما يرغب في إبداعه عالم من الحق، والجمال والسحر، فلماذا يضع ملايين الكلمات حائلاً بينه وبين واقعية ذلك العالم؟ لماذا يؤجّل الفعل - إلا إذا كان ما يريده، كغيره من الرجال، هو السلطة، والشهرة والنجاح. قال بلزاك " الكتب أفعالٌ إنسانيّة في حالة موتٍ ". ومع ذلك، بعد أن يدرك الحقيقة، يعمد إلى تسليم الجانب الملائكي فيه إلى الشيطان الذي يتلبّسه.

إن الكاتب يتودّد إلى الجمهور بصورة مخزية تماماً كما يفعل السياسي أو أي دجّال آخر؛ إنه يحب أن يتحسّس النبض العظيم، أن يعطي وصفة كما يفعل الطبيب، أن يكتسب مكانة تميّزه، أن يُعتَرَف به كقوة مؤثّرة، أن يتلقّى كأس التزلّف مترعةً، حتى وإن تأجّل ذلك ألف عام. إنه لا يريد عالماً جديداً يمكن تأسيسه فوراً، ذلك لأنه يعلم أنه لن يناسبه أبداً. إنه يريد عالماً مستحيلاً يكون فيه حاكماً - ألعوبة غير

متوّج تهيمن عليه قوى ليست له أي سيطرة عليها. إنه راض بالحكم بطريقة ماكرة وغادرة - في عالم الرموز التخيّلي - لأن مجرد التفكير في الاتصال بالوقائع الوحشية والجلفة يخيفه. صحيح أن له إلماماً أكبر بالواقع من غيره من الناس، إلا أنه لا يبذل أي جهد لفرض ذلك الواقع الأرقى على العالم بقوة القدوة. إنه قانع ومكتفٍ بالوعظ، بالسير بتؤدة في أعقاب المصائب والكوارث، نبيٌّ ينذر بالموت ودائماً لا يحظى بالتقدير، ودائماً يُرجَم، ويُنبَذ من قِبَل أولئك الذين مهما كانوا غير مؤهلين لأداء أعمالهم، فإنهم مستعدون وراغبون في تنكّب مسؤوليّة شؤون العالم. والكاتب العظيم حقاً لا يرغب في الكتابة: إنه يريد أن يكون العالم مكاناً يستطيع أن يعيش فيه حياةَ الخيال. وأول كلمة مرتعشة يدوّنها على الورق هي كلمة صادرة عن ملاكٍ جريح: ألم. إن عملية تدوين الكلمات تعادل تناول مُسكّن. وبينما المؤلّف يراقب نموّ الكتاب تحت يديه، يمتلئ بالأوهام والعظمة " أنا أيضاً فاتح - ربما أعظم الفاتحين قاطبةً! وعصر ازدهاري قادم. سوف أستعبد العالم - بسحر الكلمات... " Et cetera ad nausem (إلى آخره حتى الغثيان).

العبارة القصيرة - " لِمَ لا تحاول أن تكتب؟ " - ورّطتني، ومنذ البداية، في حمأةٍ من الفوضى لا خلاصَ منها . أردتُ أن أفتنَ لا أن أستعبد؛ أردتُ حياةً أرحب، وأخصب، ولكن ليس على حساب الآخرين؛ أردت أن أحرِّر مخيّلة الناس جميعاً فوراً لأنه دون دعم العالم كله، دون عالم موحّد المخيّلة، تصبح حرية المخيّلة شراً. لم أكن أضمر أي احترام للكتابة Per se (بذاتها) أكثر من احترامي لله Per se. لا أحد، لا مبدأ، لا فكرة، لها شرعية بحد ذاتها. الشيء الشرعي هو فقط المقدار

twitter @baghdad_library

- من كل شيء، حتى من الله - الذي يشترك البشر في إدراكه. إن الناس دائماً يقلقون حول مصير العبقري. أنا لم أقلق أبداً حول العبقري: العبقرية هي التي تهتم بالعبقري في الإنسان. أما اهتمامي فكان دائماً بالنكرة، بالإنسان الضائع وسط الزحام، الإنسان الشائع جداً، العادي جداً، بحيث أن لا أحد ينتبه إلى وجوده. العبقري لا يُلهِم عبقرياً آخر. بمعنى أن كل العباقرة طفيليون. إنهم يتغذّون من المصدر نفسه - دماء الحياة. وأهمّ شيء بالنسبة إلى العبقري هو أن يجعل من نفسه عديم الفائدة، أن ينغمس في التيار العام، أن يعود سمكة من جديد وليس فلتة من فلتات الطبيعة. وخطرَ لي أن فائدة الكتابة الوحيدة هي أنها تزيل الفروق التي تباعد بيني وبين أخي الإنسان. وحتماً لم أكن أريد أن أصبح فناناً، بمعنى أن أصبح كياناً غريباً، منفصلاً عن تيار الحياة.

إن أفضل ما في الكتابة ليس الجهد المبذول في تدوين الكلمات ورصفها معاً، وإنما الإجراءات التمهيدية، العمل الكادّ الذي يُنفّذُ بصمت، تحت الظروف كافة، في الحلم كما في اليقظة. باختصار في فترةِ حلم. لا أحد أبداً سبَقَ أن دوَّن ما نوى أن يقوله: إن الإبداع الحقيقي، الذي يحدث طوال الوقت، سواء أكان المرء يكتب أم لا يكتب، ينتمي إلى الدفق الأوّليّ: ليست له أبعاد، ولا شكل ولا عنصر زمن. في هذه الحالة التمهيدية، والتي هي إبداع وليست ولادة، ما يختفي لا يُدمَّر؛ وما كان موجوداً، خالداً، كالذاكرة، أو المادة، أو الله، يُستدعَى ويرتمي المرء فيه كسقوط غصين في تيارٍ من الماء. الكلمات، الجمل، الأفكار، مهما كانت دقيقة أو مبدعة، وأشدّ شطحات الشِعر جنوناً، وأعمق الأحلام، وأشدّ الرؤى هذياناً، ما هي إلا أحرف هيروغليفية بدائيّة نُقِشَتْ

بالألم والحزن إحياءً لذكرى حَدَثٍ لا يمكن روايته. في عالمٍ منظّم تنظيماً ذكياً لا حاجة للقيام بمحاولةٍ غير عاقلة لإحباط أحداثٍ خارقة. الحقيقة، لن يكون لذلك أي معنى، لأنه إذا ما كفَّ الناسُ عن إدراكه، فمَنْ سيقنع بالزائف في حين أن الحقيقي رهن إشارة الجميع؟ مَنْ سيرغب في أن يفتح المذياع ويُصغي إلى موسيقى بيتهوفن، مثلاً، في حين أن في وسعه أن يعيش نشوة الألحان التي كافحَ بيتهوفن كفاحاً يائساً ليدوّنها؟ إن العمل الفني العظيم، إذا حقّقَ أي شيء، فإنه يذكّرنا، أو فلنقل يجعلنا نحلم، بكل ما يتدفّق وغير مُدرَك. أي " الكون ". فلا يمكن فهمه؛ يمكن فقط أن نقبله أو نرفضه. فإذا قبلناه يعيد إلينا الحيوية؛ وإذا رفضناه نُدَمَّر. وما يبدو منه ظاهرياً لا يمثّله: إنه دائماً شيء أكثر لن تُقال فيه الكلمة الأخيرة أبداً. إنه كلّ ما نضعه فيه بدافع الجوع لِمَا نُنكره في كل يوم من أيام حياتنا. إذا قبلنا " أنفسنا " بشكلٍ كامل، فإن العمل الفني، أو في الواقع " كامل عالم الفن " سيموت من سوء التغذية. إن كلاً منا ينتقل دون قدمين على الأقل بضع ساعات في اليوم، وذلك حين تكون عيناه مغمضتين وجسمه منبطحاً. سوف يصبح فن الحلم أثناء اليقظة التامة ذات يوم القوة التي يتمتّع بها كل إنسان. وقبل ذلك بوقتٍ طويل لن يبقى للكتب وجود، لأنه حين يكون الناس يقظين تماماً وأيضاً يحلمون فإن قدراتهم على التواصل (بعضهم مع البعض الآخر ومع الروح التي تحرِّك الناس جميعاً) تتعزّز كثيراً بحيث تجعل الكتابة تبدو أشبه بأصوات أجشة وخشنة يصدرها أبله.

أفكّر في هذا كله وأعرفه، وأنا أستلقي في ظُلمة ذكرى يوم صيفيّ، دون أن أتفوّق، أو حتى أن أبذل محاولة فاترة لأتفوّق، في فن

twitter @baghdad_library

الكتابة باللغة الهيروغليفية البدائيّة. فقبل حتى أن أبدأ بذلك أشعر بالاشمئزاز من الجهود التي بذلها المتفوقون المعروفون. وبما أني خال من أي مقدرة أو معرفة لصنع حتى بوابة في واجهة الصرح الأرضي، فإني أنتقد الهندسة المعماريّة نفسها وأرثي لها. ولو أني حجر صغير في البناء الكاتدرائيّ الضخم لهذه الواجهة العريقة لكنتُ حتماً أشدَّ سعادة؛ لكانت لي حياة، حياة البناء كله، أو حتى جزء صغير جداً منه. لكني منعزل، همجيّ عاجز عن تنفيذ حتى رسمٍ بدائيّ، ناهيك عن مخطّط، للصرح الذي يحلم بسُكناه. إنني أحلمُ بعالمٍ جديد رائع ومبهر ينهارُ حالما تُضاءُ فيه الأنوار. عالم يتلاشى لكنه لا يموت، يكفيني أن ألزم السكون من جديد وأحدِّق بعينين مفتوحتين واسعاً إلى الظلام حتى يعود إلى الظهور ... إذن فهناك عالم داخلي لا يحمل أدنى شبه بأي عالم أعرفه. وأنا لا أدّعي ملكيتي الحصرية له - إن ملاك رؤاي فقط لي وحدي، من ناحية أنه فريد من نوعه. ولو أني أتكلّم لغة رؤاي الفريدة لن يفهمني أحد؛ إن أضخم الصروح قاطبة يمكن إنشاؤه ومع ذلك يبقى خفيّاً. وهذه الفكرة تتملّكني. فما فائدة إنشاء معبد خفيّ؟

أنجرفُ مع التيار - بسبب هذه العبارة الصغيرة. وهكذا أفكّر كلما برزت كلمة " كتابة ". وقد نجحتُ، بعد عشر سنين من بذل جهودٍ متفرّقةٍ في كتابة مليون كلمة أو نحوها. ويمكن القول أيضاً - إنها مليون ورقة عشب. وكانت عملية لفت الانتباه إلى ذلك المرج البائس مُذلّة. كل أصدقائي كانا يعلمون بأمر لهفتي إلى الكتابة - وهذا ما جعل رفقتي ممتعة بين حين وآخر: اللهفة. إد غافارني، مثلاً، الذي كان يدرس ليغدو قسيساً: كان يعقد اجتماعاً صغيراً في منزله خصيصاً لفائدتي، وذلك

لكي أهرش نفسي علناً وبذا أجعلُ من السهرة حَدَثاً. ولكي يبرهن على اهتمامه بالفن الراقي كان يعرِّج عليّ على فترات منتظمة إلى حدٍّ ما، ويحضّر شطائر باردة، وتفاحاً وبيرة. أحياناً كان يجلب حزمة من السيجار. كل ذلك لكي أملأ معدتي وأفيض بالكلام. ولو أنه كان يتّصفُ بذرّةٍ واحدةٍ من الموهبة لما حَلُمَ قط بأن يصبحَ قسيساً ... وكان هناك زابروفسكي، عامل التلغراف المجنون في شركة التلغراف الكونيّة المتعضّية لشمال أميركا: كان دائماً يتفحّص حذائي، وقبعتي، ومعطفي، ليرى إن كانت في حالة جيدة. لم يكن لديه الوقت للقراءة، ولا هو اهتمَّ بما أكتب، ولا صدّقَ أني سأحقّق أي شيء، لكنه كان يحب أن يسمع أخبار ذلك. كان يهتمُّ بالجياد، وخاصة جياد السباق. كان الإنصات إليَّ تسليةً غير مؤذية وتعادلُ ثمن وجبة دسمة أو قبعة جديدة، إذا لزم الأمر. كان يبهجني أن أحكي له حكايات لأن ذلك أشبه بالتحدُّث إلى رجلٍ موجود على سطح القمر. كان في استطاعته أن يقاطع أدقّ الاستطرادات لكي يسأل إن كنت أفضّل فطيرة التوت البرّي أم جبن الجرّة البارد لما بعد الوجبة ... وكان هناك كوستيغان البرجميّة[٣] من يوركفيل – صديقٌ وفيٌّ آخر وحسّاسٌ كخنزير عجوز. وكان يعرف ذات يوم كاتباً يعمل لصالح "صحيفة الشرطة"؛ وهذا جعله مؤهّلاً للسعي وراء صحبة النخبة. وكان بحوزته حكايات يحكيها لي، وتستحق الاستماع إليها، إذا ما تنازلت وتفضّلتُ وأصغيتُ إليه. كان كوستيغان يعجبني بطريقة غريبة. كان يبدو خاملاً تماماً، أشبه بخنزيرٍ عجوزٍ تغطّي البثور وجهه والشعر السلكيّ جسمه؛ كان غاية في اللطف، والرقة، بحيث أنه لو يتخفّى بزيّ

---

٣ – البرجميّة: قطعةٌ معدنيةٌ تُكسى بها البراجم (مفاصل الأصابع) في رياضة الملاكمة. – المترجم.

twitter @baghdad_library

امرأة لما عرفت أبداً أنه قادر على الإطاحة برجلٍ إلى الجدار وتسديد الضربات إلى رأسه. كان صلباً يستطيعُ أن يغنّي بصوتٍ عالي الطبقة، وأن يجمع مبلغاً كبيراً من المال يشتري به إكليلاً للجنازة. وفي مجال عمل التلغراف كان يُعتبر موظفاً هادئاً، يمكن الاعتماد عليه ويحمل همَّ الشركة في قلبه. وفي ساعات فراغه يصبح رعباً مقدّساً، وسوطاً مسلَّطاً على الحيّ. وكانت له زوجة اسمها قبل الزواج تيلي جوبيتر؛ بُنْيتُها تشبه نبات الصبَّار وتفرز الكثير من الحليب الدسم. كان يكفي أن أقضي أمسية معهما حتى يباشر ذهني في العمل كسهمٍ مسموم.

لا بد أنه كان لديَّ ما يقارب الخمسين من الأصدقاء والأتباع حولي. من بينهم ثلاثة أو أربعة كانوا يتفهّمون قليلاً ما أحاول أن أفعله. أحدهم، وكان مؤلِّفاً موسيقياً اسمه لاري هنت، يعيش في بلدة صغيرة في مقاطعة مينيسوتا. وذات مرة استأجرنا له غرفة صغيرة فوقع في حب زوجتي - لأني كنت أعاملها بصورة مشينة جداً. غير أنه أحبني حتى أكثر مما أحب زوجتي، وهكذا، لدى عودته إلى بلدته الهادئة بدأنا نتبادل الرسائل، التي سرعان ما أصبحت ضخمة الحجم. حينئذٍ أصبح يلمِّح إلى عودته إلى نيويورك في زيارة قصيرة. وفي ذلك الحين تمنّيتُ أن يعود ويأخذ زوجتي ويريحني منها. وقبل ذلك بسنواتٍ حين كنا قد باشرنا علاقتنا العاطفية التعيسة حاولت أن أدفعها إلى حبيبها السابق، وكان فتى من الشمال يدعى رونالد. ورونالد هذا كان قد قدم إلى نيويورك ليطلب يدها للزواج. وأنا أستخدمُ هذه العبارةَ الرفيعةَ لأنه كان من النوع الذي يمكن أن يقول شيئاً كهذا دون أن يبدو أحمق. حسن، تقابلنا نحن الثلاثة وتناولنا طعام العشاء في مطعمٍ فرنسي. وفهمتُ من

طريقته في رمق مود أنه مهتمٌّ بها أكثر، ولديه معها قواسم مشتركة أكثر مما يمكن أن أشترك به معها. وأعجبتُ به كثيراً؛ كان واضح المعالم، صادقاً حتى العظم، لطيفاً، مُراعياً للمشاعر، من النمط الذي يصلح أن يكون ما يسمّى بالزوج الصالح. ثم إنه انتظرها وقتاً طويلاً، وهذا ما نسيته، وإلا لما تزوجتْ من ابنِ حرامٍ عديم الفائدة مثلي لم يفدها بشيء... في تلك الأمسية وقع أمرٌ غريب، شيء ما كانت لتسامحني عليه لو علمتْ بأمره. فبدلَ أن أوصلها إلى المنزل عدت إلى الفندق مع حبيبها السابق. مكثتُ معه طوال الليل محاولاً أن أقنعه بأنه الأفضل بيننا، وسردتُ على مسامعه أشياء كثيرة عفنة عن نفسي، أشياء سبّبتُها لها ولآخرين، وناشدته، توسلت إليه كي يطالب بها. بل إني تماديتُ إلى حدّ القول إني أعلم أنها تحبه، وإنها اعترفت بذلك لي. قلت " لقد قبلتْ الزواج مني لأنه تصادف أن تقابلنا. وفي الواقع هي تنتظر منك أن تفعل شيئاً. امنح نفسك فرصةً ". ولكن لا، مستحيل أن يفعل. كنا مثل غاستون وألفونس في عرض التعرّي الهزلي: مثيرين للسخرية، وللشفقة، وأبعد ما نكون عن الواقع. كان من ذاك النوع من الأشياء التي يفعلونها في السينما ويدفع الناس نقوداً ليشاهدوها ... على أي حال، حين فكّرتُ في أمر زيارة لاري هنت المرتقبة أدركتُ أنني لن أكرّر تلك العبارة. كنت أخشى في الدرجة الأولى أن يكون قد عثرَ على امرأةٍ أخرى في تلك الأثناء. كان من الصعب عليَّ أن أغفر ذلك له.

كان هناك مكانٌ واحدٌ (المكان الوحيد في نيويورك) أستمتع في ارتياده، خاصةً إذا كنتُ في مزاجٍ منتعش، وهو محترَف صديقي ألريك في أطراف المدينة. وألريك عصفورٌ فاسق؛ جعلته مهنته على اتصال

twitter @baghdad_library

بمحترفات التعرّي، والعابثات بالأير، وبكافة أصناف الإناث المعذّبات جنسياً. ومن بين كل البجعات النحيلات الفاتنات اللائي كنَّ يرتدنَ محترفه ويتعرّينَ أعجبتني الملوّنات، وقد بدا أنه يغيّرهن كثيراً. ولم يكن سهلاً جعلهن يتّخذنَ وقفاتهن أمامنا. والأصعب من ذلك، بعد إقناعهنّ بالقيام بالمحاولة، دفعهنَّ إلى أن يدلّينَ سيقانهنَّ عبر ذراع الأريكة ليعرضنَ قليلاً من اللحم ذي لون السلمون. وكان ألريك مترعاً بالتصاميم الفاسقة، ودائماً يخرج بأساليب جديدة لإدخال طرفه، على حد تعبيره. وكانت تلك طريقة لإفراغ عقله من القذارات التي يكلَّفُ برسمها. (كان يتلقى مبالغ محترمة ليرسم علبة جميلة للحساء، أو كوز ذرة، من أجل أغلفة المجلات) أما ما كان يريد رسمه فعلاً فأكساس، أكساس دسمة، رطبة، يمكن إلصاقها على جدار الحمّام وبذلك تتحقق حركة الأمعاء اللذيذة، الممتعة. كان مستعداً أن ينفّذها بدون مقابل إذا ما وجد مَنْ يزوّده بالطعام ومصروف الجيب. وكما قلت قبل قليل، كان لديه ميلٌ إلى اللحم القاني. وبعد أن يضع الموديل في وضعٍ غريب - وهي تميلُ لتلتقط دبوس شعر، أو ترتقي سلّماً لتزيلَ بقعةً عن الجدار - يعطيني حزمة من الورق وقلم رصاص ويأمرني أن أجلس في بقعة مناسبة، وهناك أتظاهرُ بأني أرسمُ شكلاً إنسانياً (وهو أمرٌ يتجاوز قدراتي) وألتهمُ بعينيّ ما تتيحه لي الأجزاء التشريحية وأنا أغطّي الورقة برسومِ أقفاص العصافير، ورُقَع الداما، وثمار الصنوبر وخربشات الدجاج. وبعد فترةِ راحة قصيرة نساعد الموديل بدقّة على العودة إلى وضعها السابق. وهذا يحتّمُ علينا أن نقوم بمناورةٍ دقيقة، كخفض الردفين أو رفعهما، أو رفع قدم أعلى قليلاً، وفتح الساقين أكثر قليلاً، وما إلى

ذلك. وأسمعه يقول وهو يعالجها برشاقة لتكون في وضعٍ فاسقٍ، " أعتقد أن هذا الوضع جيد، يا لوسي. هل تستطيعين أن تثبتي هكذا، يا لوسي؟"، ثم تُصدِرُ لوسي أنيناً زنجياً تدلُّ به على أنها على ما يرام. ويقول وهو يرميني بغمزة ماكرة " لن نؤخِّرَكِ، يا لوسي "، ثم يوجِّه كلامه إليّ، مستخدماً لكنة طنّانة كان يستحيل على لوسي أن تتابعها أذنيها الأرنبيّتين " لاحظ الغمد الطولاني ". كان لكلمة " غمد " رنينٌ سحريّ، ممتع، على أذنيّ لوسي. وعندما قابلته في الشارع ذات يوم سمعتها تقول له - " ألا توجد تمارين للغمد هذا اليوم، مستر ألريك؟"

كانت القواسم التي أشتركُ فيها مع ألريك أكثر منها مع باقي أصدقائي. فبالنسبة إليّ كان يمثّلُ أوروبا، بتأثيرها المثقِّف، المُرقِّق. كنا نتحدَّثُ بالساعات عن عالمه الآخر حيث للفن بعض الصلة بالحياة، وحيث يمكنك أن تجلس بهدوء في العلن وتراقب ما يجري أمامك وتقلِّبُ أفكارك الخاصة. هل سأصلُ إلى هناك أبداً؟ هل سيفوت الأوان؟ كيف سأعيش؟ أي لغةٍ سأتكلّم؟ حين أفكِّرُ في الأمرِ تفكيراً واقعياً يبدو ميؤوساً منه. وحدهم أصحاب الأرواح المغامرة، الجسور، قادرون على إدراك تلك الأحلام. ألريك أدركها - مدة عام - بقوةِ تضحيةٍ قاسية. وظلَّ طوال عشر سنوات يقوم بالأعمال التي يكره أن يقوم بها، وذلك لكي يحقق حلمه. والآن انتهى الحلم وعاد إلى نقطة البداية. بل عاد إلى ما قبل ذلك بكثير، في الواقع، لأنه لن يستطيع أبداً أن يتكيَّف مع الروتين. بالنسبة إلى ألريك كان الأمر فترةَ استراحة: حلماً يتحوَّلُ إلى مرارة ودودةٍ ناخرةٍ مع مرور السنين. ما كنتُ لأستطيعُ أن أقدِّم أضحية من ذاك النوع، ولا أن أقنع بمجرد إجازةٍ أطويلةً كانت أم قصيرة. فلطالما

twitter @baghdad_library

كانت سياستي هي أن أحرق جسوري خلفي. ووجهي دائماً متّجهٌ نحو المستقبل. إذا ارتكبتُ خطأ يكون قاتلاً. وحين أنكفئ إلى الخلف أسقطُ سقطةً مباشرةً – وإلى أسفل السافلين. حارسي الوحيد هو مرونتي. وحتى الآن قفزاتي كلها كانت إلى الخلف. أحياناً كانت حركة الارتداد تشبه أداءً بالحركة البطيئة، لكن السرعة في نظر الله لا أهميّة خاصة لها.

في مُحتَرَف ألريك هذا، وقبل شهورٍ عديدة جداً، أنهيتُ تأليف كتابي الأول – الكتاب الذي يدور حول اثني عشر ساع. كنت أعمل في غرفةِ أخيه، حيث كان محررٌ مجلة قد أبلغني قبل ذلك، بعد أن قرأ بضعَ صفحاتٍ من قصةٍ غير مكتملة، قائلاً بكلب دم بارد إنني لا أتّصِفُ بأقلِّ قدرٍ من الموهبة، وإنني لا أعرف أي شيء عن الكتابة – باختصار، إنني فاشل تماماً وأفضل ما يمكنك أن تفعله، يا بنيّ، هو أن تنسى الأمرَ، وتحاولُ أن تكسبَ لقمة عيشك بشرف. وكان هناك مغفّل آخر كان قد ألّفَ كتاباً لاقى نجاحاً ساحقاً يدور حول يسوع النجار قال لي الكلام نفسه. وإذا كان لحوادث الرفض المؤسفة أي معنى فقد كان هناك التأييد البسيط لدعمِ نقدِ أصحابِ العقولِ البصيرة. وكنتُ أقول لألريك " مَنْ يكونون هؤلاء الخروات؟ لماذا ينتقدونني هكذا؟ ما الذي حققوه خلافَ أن يجمعوا المال؟ "

حسن، كنت أتحدَّثُ عن جوي وتوني صديقيَّ الصغيرين؛ مستلقياً في الظلام، غصيناً عائماً في التيار الياباني؛ عدتُ إلى التعويذة البسيطة، والقش الذي يشكّلُ حجارة البناء، والمخطّط الأوّليّ، المعبد الذي يجب أن يتلبّس لحماً ودماً ويظهرُ للعالم أجمع. نهضتُ وأدرتُ ضوءاً خافتاً. شعرتُ بالسكينة والصفاء، كزهرةِ لوتس تتفتّحُ. بدون تمشّي بخطى عنيفة جيئة وذهاباً، أو اقتلاع الشعر من جذوره. غصتُ

ببطءٍ في كرسي موجود عند الطاولة وبدأتُ أكتب بقلم رصاص. وصفتُ بكلماتٍ بسيطةٍ شعوري، وأنا أمسكُ بيد أمي وأمشي عبر الحقول التي يغمرها ضوء الشمس، وشعوري لدى مرأى جوي وتوني مندفعَين نحوي مفتوحَيّ الأذرعِ، ووجهاهما يشعّان بهجةً. وضعتُ الحجارةَ واحداً فوق آخر كأي بنّاءٍ آجر شريف. كان أمرٌ ذو طبيعةٍ شاقوليّة يحدث - ليس أوراق عنب تنبت بل شيء يُبنى، يُخطَّطُ له. لم أضغط على نفسي لأنهيه؛ وتوقفتُ حين قلتُ كل ما عندي. أعدتُ قراءة ما كتبت بهدوءٍ. وتأثّرتُ أيّما تأثُّر حتى أن عينيَّ تغرغرتا بالدموع. لم يكن مادة جديرة بتقديمها إلى محرِّر: كان مادة لا تصلح إلا لإيداعها الدرج، والاحتفاظ بها كتذكرة بالعمليات الطبيعية، كوعدٍ بالإنجاز.

في كل يوم نذبحُ أفضلَ دوافعنا، ولهذا نُصابُ بالغمّ حين نقرأ تلك الأسطر التي خطّتها يدُ كاتبٍ كبير ونشعر كأننا نحن مَنْ كتبها، كأنها براعمُ رقيقة خنقناها بسبب افتقارنا إلى الإيمان بقدراتنا الخاصة، بمعيارنا للحق والجمال. وأي إنسان قادر، إذا ما هدأت سريرته، وأصبحَ صادقاً بتهوّر مع نفسه. إننا جميعاً ننهلُ من النبع نفسه. ولا غموض حول نشأة الأشياء. نحن جميعاً نشكّلُ جزءاً من الخليقة، وكل الملوك، والشعراء، والموسيقيين؛ ليس علينا إلا أن ننفتح، أن نكتشف ما هو موجود أصلاً.

إن ما حَدثَ لي أثناء كتابتي عن جوي وتوني كان يعادلُ الوحي. لقد تبيّن لي أني قادرٌ على قول ما أريد أن أقوله - إذا لم أفكّر في أي شيء آخر، إذا ركّزتُ انتباهي عليه حصراً - وأيضاً إذا كنت أرغبُ في تحمُّلِ العواقب التي ينطوي عليها دائماً العمل النقي.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني

بعد ذلك بيومين أو ثلاثة قابلتُ مَرَه للمرة الأولى في وَضَحِ النهار. كنت في انتظارها في محطة لونغ آيلند في بروكلن، عند نحو الساعة السادسة من بعد الظهر، بالتوقيت الصيفي، وهي ساعة ازدحامٍ يضيئها نور الشمس بطريقةٍ غريبةٍ تشيعُ الحياةَ حتى في ذلك السرداب المظلم المسمّى غرفة الانتظار في محطة قطار لونغ آيلند. كنت أقف بالقرب من الباب حين وقع بصري عليها تعبرُ ممرَّ السيارات تحت خط القطار المرفوع؛ وكان نور الشمس ينفذ من خلال التكوين الشنيع بسهامٍ من غبار الذهب. كانت ترتدي ثوباً من القماش السويسري المنقّط الذي زاد من إبراز امتلاءِ جسمها، والنسيم يهبُّ رقيقاً متغلغلاً في شعرها الفاحم اللامع، فيعيثُ بوجهها المُجهَدْ الأبيض بياض الطباشير كرذاذِ بحرٍ يرتطمُ بجُرفٍ. وشعرت بتلك الخطوة الواسعة واللدنة، الواثقة جداً، والرشيقة جداً، بالحيوان الكامن فيها يخترق اللحم بحُسنٍ مزدهرٍ وجمالٍ هشٍّ. كانت تلك ذاتها النهاريّة، مخلوقة صحيحة الجسم، نضرة، تلبسُ ببساطةٍ متناهيةٍ، وتتكلّمُ كالأطفال.

كنا قد قرّرنا أن نمضي السهرة على الشاطئ. كنت أخشى أن يكون الجو شديد البرودة عليها وهي بذاك الرداء الخفيف، لكنها قالت إنها لا

تشعر بأي برد. كنا سعيدين بشكلٍ مخيف حتى أن الكلمات كانت تخرج من فمينا غير مفهومة. جلسنا محشورين معاً في مقصورة السائق، ووجهانا يكادان يتلامسان ومتوهجان بأشعة شمس الغروب الناريّة. ما أشدّ اختلاف هذا الركوب فوق أسطح المنازل عن ذاك الركوب المشحون بالقلق وبالوحدة ذات صباح يوم أحد وأنا متوجّه إلى منزلها! أيُعقل أن يكون العالم قد تلوَّنَ خلال تلك السحابة القصيرة من الزمن بألوان قوس قزح؟

تلك الشمس الناريّة المنحدرة نحو الغرب - ما أعظمها من رمز للبهجة والدفء! كانت تلسع قلبينا، وأضاءت أفكارنا، وجاذبت ما بين روحينا. استمرَّ دفئها طوال الليل، وفاضت عائدة من انعطاف الأفق في تحدٍّ للّيل. وسط ذاك الوهج الناريّ ناولتها المخطوط لتقرأه. ما كنت لأستطيع أن أنتقي لحظةً مناسبةً أكثر أو ناقداً أفضل منها. تكوَّنَ الأمر في الظلام، عُمِّدَ في النور. وبينما أنا أراقب تعبير وجهها غمرني شعور قويّ بالنشوة حتى أني أحسستُ كأني سلّمتُها رسالة من الخالق نفسه. لم أكن بحاجةٍ إلى معرفة رأيها، فقد قرأته على قسماتها. طوال سنوات عديدة بقيتُ أدلّل هذه الذكرى، وأنعشها في تلك اللحظات القاتمة التي تلي فصم علاقتي مع أي شخص، وأنا أزرعُ أرض علِّية موحشة في مدينة أجنبية جيئة وذهاباً، أقرأ الصفحات المكتوبة حديثاً وأكافح كي أتصوَّر على وجوه قرّائي القادمين كلهم تعبير الحب والإعجاب الصريحين. وحين يسألني الناس إن كان لديَّ تصوُّرٌ محدَّد لجمهور قرائي حين أجلس لأكتب أجيب بلا، ليس لدي أي تصوّر، غير أن الحقيقة هي أني أتمثَّلُ أمامي صورةَ حشدٍ غفيرٍ، حشد ليست له سِمة مميّزة، قد ألمح

twitter @baghdad_library

بين صفوفه هنا وهناك، وجهاً ودوداً: في ذلك الحشد أرى دفئاً مُحرقاً، بطيئاً، يتراكم، كان ذات مرة صورةً وحيدةً: أراه ينتشر، يتلظّى ناراً، ويتفاقم إلى حريقٍ هائلٍ. (المرة الوحيدة التي يتلقّى فيها الكاتب جائزته هي حين يأتيه أحدهم يحترق بهذا اللهب الذي غذّاه في لحظةِ عزلة. إن النقد الصادق لا يعني أي شيء: إن ما يريده المرء هو شغف عارمُ، نار مقابل نار)

عندما يحاول الإنسان أن يُنجِزَ عملاً يتجاوز قدراته المعروفة فمن العبث السعي وراء نيل استحسان الأصدقاء. الأصدقاء يكونون في أحسن حالاتهم في لحظات الهزيمة - على الأقل هكذا تقول لي تجربتي. ومن ثم إما أنهم يخذلونك كليّاً أو يتجاوزون أنفسهم. والحزن هو أوثق رباط - الحزن وسوء الحظ. ولكن أثناء اختبارك لقواك، وأنت تحاول أن تنجز عملاً جديداً، فإن أفضلَ صديقٍ جديرٌ بأن يُثبتَ أنه خائن. وتكفي طريقته في تمنّي حسن الحظ لك، عندما تطرح أمامه أفكارك الخيالية، لكي تثبط همّتك. إنه يؤمن بك فقط ما دام هو يعرفك؛ أما احتمال أن تصبح أكبر مما تبدو فأمر يثير قلقه. ذلك أن الصداقة تقوم على أساس التبادليّة. ويكاد يكون من قبيل القانون الثابت أنه حين ينطلق إنسانٌ في مغامرةٍ كبرى يتعيّن عليه أن يقطع كل روابطه، يجب أن يرحل إلى البرّية، وبعد أن ينتهي من مصارعتها يجب أن يعود ويختار له مُريداً، ولا يهمّ إن كان المُريد من نوعيّة رديئة: المهم أن يكون إيمانه مُطلقاً. فلكي تنبت بزرة يجب أن يُبدي شخصٌ آخر، فردٌ واحدٌ من بين الحشد، إيماناً. والفنانون، وأصحاب الرسائل الدينية العظام، يُبدون حِدّةً ذهن مذهلة في هذا المجال. وهم أبداً لا ينتقون الشخص المناسب لغرضهم،

وإنما دائماً يقع اختيارهم على شخص مغمورٍ، وغالباً مثير للسخرية.

إن ما أحبطني في بداياتي، ما اتضح أنه مأساة، أنني لم أتمكَّن من العثور على مَنْ يؤمن بي إيماناً مطلقاً، كإنسانٍ أو ككاتب. صحيح أنه كانت هناك مَرَه، غير أن مَرَه لم تكن صديقة، ولا شخصاً عاديّاً، بل كنا متّحدين. كنت بحاجةٍ إلى إنسانٍ من خارج الدائرة المفرغة من المعجبين الزائفين، ومشوّهي السمعة الحاسدين؛ بحاجة إلى إنسان يأتيني من المجهول.

بذل أليريك غاية جهده ليفهم ما ألمَّ بي، ولكن لم يكن في وسعه آنئذ أن يدرك ما قدِّرَ لي أن أكون. كيف لي أن أنسى الطريقة التي تلقّى بها الخبر عن مَرَه؟ حدث ذلك في اليوم التالي لذهابنا إلى الشاطئ. كنت قد توجّهت إلى المكتب كالمعتاد في الصباح، ولكن مع حلول الظهيرة كانت حمّى الإلهام قد تمكّنت مني فاستقلّيتُ الحافلة وخرجت إلى الريف. كانت الأفكار تتدفّق من رأسي. ومهما أسرعت في الكتابة كان غيرها يأتي حشوداً. وأخيراً وصلت إلى تلك النقطة التي يتخلّى عندها المرء عن كل أمل في تذكُّر أفكاره اللامعة ويكتفي بالاستسلام لترفِ تأليفِ كتابٍ داخل رأسه. وتعرف أنك لن تتمكن أبداً من تصيُّد تلك الأفكار، ولا حتى سطر واحد من كل الجمل المتلاطمة والمعشّقة بصورة رائعة وترشح من خلال رأسك كتسرُّب نشارة خشب من ثقب. في مثل تلك الأيام تكون مع أفضل صحبة يمكنك الحصول عليها - مع ذاتك المتواضعة، المدحورة، والمبتذلة التي تتهادى بخطى ثقيلة، وتحمل اسماً ويمكن التعرُّف إليها في السجلات العامة في حال وقوع حادثة أو موت. أما الذات الحقيقية، التي لها السيطرة، فتكاد تكون غريبة. إنها

twitter @baghdad_library

المملوءة بالأفكار، التي تُكتَبْ على الهواء، والتي، إذا ما أفرطْتَ في الافتتان بمآثرها، ستصادرُ في نهاية المطاف الذاتَ القديمةَ، البالية، وتستولي على اسمك، وعنوانك، وزوجتك، وماضيك، ومستقبلك. وطبعاً، حين تدخل على صديق قديم بغتةً وأنت على هذه الحالة من الخفّة والنشاط فلن يرغب في التسليم فوراً بأنَّ لك حياة أخرى، حياةً منفصلة لا نصيب له فيها. فهو يقول بسذاجة - " أظنك تتمتّع اليوم بروحٍ عالية؟ "، وتهزّ رأسك بشيء من الحياء.

قلت مفاجئاً إياه وهو يعمل على تصميم شوربة كامبل " انظر يا ألريك، يجب أن أقول لك شيئاً. أكاد أنفجر به "

قال، وهو يغمس فرشاة الألوان المائية في الوعاء الكبير الموضوع على المقعد إلى جانبه " حتماً، هيا قُلّ. أعتقد أنك لا تمانع أن أتابع العمل في هذا الشيء اللعين؟ يجب أن أنهيه هذه الليلة"

تظاهرتُ بأني لا أمانع لكني كنت مضطرباً، وخفضت صوتي لكي لا أزعجه كثيراً. " أتذكُر الفتاة التي أخبرتك عنها - الفتاة التي قابلتها في قاعة الرقص؟ حسن لقد قابلتها ثانية. ذهبنا إلى الشاطئ معاً مساء أمس..."

" كيف جرى الأمر ... أكان ممتعاً؟ "

فهمتُ من الطريقة التي مرّرَ بها لسانه على شفتيه أنه يتهيّأ لسماع حكاية لذيذة.

" اسمع يا ألريك، أتعرف ما معنى أن تقع في الحب؟ "

لم يتنازل حتى برفع بصره كإجابة، وغمغمَ وهو يمزج برشاقة وسرعة الألوان في الصحفة التنك بشيء عن أنه تتملّكه غرائز طبيعية.

تابعتُ، بلا ارتباك " أتعتقد أنك ستقابل ذات يوم امرأة تغيّر حياتك كلها ؟ "

كان جوابه " قابلت واحدة أو اثنتين حاولتا - ولكن ليس بنجاحٍ كبير، كما ترى "

" اللعنة! هلاّ تركتَ هذا الشيء لحظة؟ أريد أن أخبركَ أمراً ... أريد أن أقول لك أني عاشق، عاشق بجنون. أعرف أن هذا غباء مطبق، لكن هذه مختلفة - لم أمرَّ بمثل هذا من قبل. أنت تتساءل إن كانت جميلة. نعم، رائعة. ولكن لا يهمني أبداً ... "

" أوه، ألا يهمّك؟ حسن، هذا جديد "

" أتعرف ماذا فعلتُ اليوم؟ "

" لعلّكَ ذهبتَ إلى مسرح المنوعات في شارع هوستن"

" ذهبتُ إلى الريف. رحت أتجول كالمجنون ... "

" ماذا تقصد - أطرَدَتْكَ بهذه السرعة؟ "

" لا ، قالت لي إنها تحبني ... أعلم، يبدو كلاماً صبيانياً، أليس كذلك؟"

" ليس هذا ما قصدته بالضبط. كل ما أعنيه أنه قد يختلط عليك الأمر أحياناً. كل إنسان يتصرَّف بغرابة حين يعشق، وفي حالتنا قد تطول القصة. أعني لو لم يكن هذا العمل اللعين بين يديّ - لأصغيتُ إليكَ بمشاركةٍ أكبر. ألا تستطيع أن تعود إليّ في وقتٍ لاحق قليلاً؟ ربما نتناول طعام الغداء معاً، هه؟ "

" حسن، سأعود بعد ساعة أو نحوها. إياك أن تتهرّب مني يا ابن الحرام، لأني لا أحمل سنتاً واحداً "

twitter @baghdad_library

طرتُ أهبطُ الدرجَ ورأساً إلى الحديقة العامة. كنتُ كدراً. كان من الغباء أن أنفث غضبي العارم أمام ألريك، هذا الولد دائماً يبدو رائقاً مثل خيارة. كيف يمكنك أن تجعل شخصاً آخر يفهم ما يجري حقاً داخلك؟ لو كسرتُ ساقي لترك كل شيء. أما إذا كان قلبك مكسوراً من الفرح - يعني؛ هذا أمرٌ ممل، كما تعلم. يمكنك أن تصبر على الدموع أكثر من الفرح. الفرح مدمِّر: إنه يجعل الآخرين قلقين. " ابكِ تبكي وحدك " - العالم يبكي على الدوام. العالم غارق في الدموع. أما الضحك، فأمرٌ آخر. الضحك آنيّ - عابر. أما الفرح، الفرح نوعٌ من النزف المنتشي، نوع مشين من الرضا الفائق يفيضُ من كل سُمٍّ من كيانك. لا يمكنك أن تفرِح الناس بمجرّد أن تكون أنت نفسك فرحاً. على المرء أن يولِّدَ الفرح بنفسه: إما هذا أو لا يكون. الفرح يقوم على شيء شديد العمق لا يمكن فهمه أو التعبير عنه. لكي تغدو فرحاً يجب أن تكون مجنوناً في عالمٍ من الأشباح الحزانى.

لا أذكرُ أني رأيتُ ألريك مرةً فَرِحاً حقاً. يمكنه أن يضحك بلا تحفُّظ، ضحكاً صحّياً جيداً أيضاً. ولكن بعد أن يخمد يهبط دائماً دون المعدَّل بقليل. أما ستانلي، الأقرب شبهاً بالمرح نفسه فكان في وسعه أن يرسم ابتسامة عريضة من حمض الكربوليك. لم يكن مِنْ بين كل مَنْ عرفتهم مَنْ كان حقاً فرحاً من الداخل، أو حتى مَرِناً. صديقي كرونسكي، الذي أصبح الآن طبيباً مقيماً، كان سيُبدي هلعَه لو وجدني في مزاجٍ فائر. كان يتحدث عن الفرح والحزن كأنهما حالتان مَرَضيتان - كقطبين متقابلين في حلقة المسّ الانقباضي Manic-depressive.

حين عدتُ إلى المحترف وجدته مزدحماً بأصدقاء له وصلوا دون موعد مسبق. وكانوا كما سمّاهم ألريك من شبان الجنون الغض الطيب. أتوا

من فيرجينيا وكارولينا الشمالية بسياراتهم الرياضية الأنيقة وجلبوا معهم بضع جرار من براندي المشمش. لم أكن أعرف أياً منهم وشعرتُ للوهلة الأولى بعدم ارتياح، ولكن بعد شرب كأس أو كأسين انثنيتُ وانطلقتُ في الكلام. وذهلتُ حين علمتُ أنهم لا يفهمون ما أرمي إليه. والتمسوا عذري لجهلهم بطريقة خبيثة مربكة بقولهم إنهم مجرد فلاحين عاميين يعرفون عن الجياد أكثر مما يعرفون عن الكتب. ولم أذكر أني ذكرتُ شيئاً عن الكتب، غير أني سرعان ما اكتشفت أن تلك كانت طريقتهم الخاصة في توبيخي. ولا شك في أني كنت مثقفاً، أقول ما أريد. وهم كانوا بلا أدنى ريب قرويين، ينتعلون جزماً بمهاميز. وازداد الوضعُ توتّراً، على الرغم من جهودي في أن أتحدّث بلغتهم. وفجأة بات الأمر مثيراً للسخرية حين شاء أحدهم أن يلقي على مسمعي ملاحظة سخيفة حول والت ويتمن. وقضيتُ معظم النهار وأنا في حالةِ نشوةٍ، وكانت تلك النزهة الإجبارية قد صحّتني قليلاً، ولكن بوجود براندي المشمش الغزير والحديث الدائر بلا قيود أنعشني من جديد. كنت في مزاجٍ يؤهّلني لمقارعة أولئك الشبان الجنوبيين الطيبين، خاصة وأن ما كنت أنوي أن أفعله لأهرب قد أخمده المرح الصاخب الجلف. لذا حين حاول أحد الشبان المثقفين القادم من دورهام أن يقارعني بسؤالي عن الكاتب الأميركي المفضّل لدي كنت مستعداً له بالمطرقة والملقط. وكالمعتاد في مثل تلك الظروف كان الفوز من نصيبي.

ضجَّ المكان بالصخب. كان جليّاً أنهم لم يروا أحداً يبدي مثل ذاك القدر من الجدّية حول أمر غير ذي بال. وأغضبني ضحكهم. فاتّهمتهم بأنهم عُصبة من السكارى المدمنين، وبأنهم أولاد حرام متبطلون، جهلة،

twitter @baghdad_library

حاقدون، أولاد قوادين تافهون، الخ، الخ. نهض شاب طويل، نحيل، أصبح فيما بعد نجماً سينمائياً، وراح يهدِّد بأنه سيكسِّرني تكسيراً. واقترب أليك لنجدتي بطريقته الدمثة الناعمة، ثم مُلأت الكؤوس حتى آخرها وأُعلنَت الهدنة. في تلك اللحظة رنَّ الجرس وشقَّت صبيّة حسناء طريقها إلى الداخل. قدّمها لي على أنها زوجة أحد الأشخاص بدا أن كل الآخرين يعرفونه وقلقون عليه. نحّيتُ أليك جانباً لأعرف منه القصة، فأفضى إليَّ بالسر قائلاً " لديها زوج مشلول، تسهر على راحته ليلاً ونهاراً، وتأتي إليّ من حين إلى آخر لتشرب كأساً صغيراً - أعتقد أن الوضع تزداد وطأته عليها ".

وقفت جانباً وأخذت أقيّمها ببصري. وجدت أنها إحدى النساء الشبقات اللواتي ينجحن في إرضاء احتياجاتهن بينما هنّ يلعبن دور الشهيدات. وما كادت تجلس حتى دقّت الباب اثنتان أخريان، إحداهما عاهرة ما في ذلك شك، أما الأخرى فكانت مجرد زوجة أحدهم، وصدئة ومستهلكة أيضاً. كنت جائعاً كدب وأزدادُ ثمالة إلى حد متطرِّف. ومع وصول النساء فقدت كل استعدادي للقتال. فكّرتُ في شيئين اثنين فقط - الأكل والجنس. ذهبت إلى المرحاض وتركت الباب دون إغلاق سهواً. كنت قد تدفّقتُ قليلاً، بسبب انتصابٍ مؤذٍ أثاره البراندي، وبينما أنا واقف هكذا، أيري بيدي أوجّهه نحو الحوض بتقوّسٍ عالٍ، فتح الباب فجأة. إنها آيرين، زوجة المشلول، فكتمَتْ آهة تعجُّب وكادتْ تغلق الباب، إلا أنها لسبب ما، ربما لأنها وجدت أني هادئ تماماً ولامبال، توقفت عند عتبة الباب وبينما أنا أنهي تبوّلي أخذت تكلّمني وكأنَّ لا شيء غير عادي يحدث. قالت، وقد رأتني أنفض القطرات الأخيرة " ياله

من أداء، أتتدفّق هكذا دائماً؟ " أمسكتها من يدها ودفعتها إلى الداخل، ثم أغلقت الباب باليد الأخرى. توسّلت، وقد انتابها كل الرعب " لا، لا تفعل ذلك ". همستُ وأيري يحفُّ بثوبها " لحظة واحدة فقط ". أطبقت شفتيَّ على فمها الأحمر، وتوسلت إليّ محاولةً أن تتملّص من بين أحضاني " أرجوك، أرجوك، سوف تسبّب لي العار "، فأدركتُ أن عليَّ أن أدعها تذهب. تصرّفت بسرعة وغضب. قلت " سأدعك تذهبين. أعطني قبلة أخرى ".

أسندتها إلى الباب، ودون أن أزعج نفسي برفع ثوبها، طعنتها به مرة بعد مرة، قاذفاً كمية كبيرة على كل أنحاء ثوبها المخملي الأسود.

لم يلاحظ غيابي أحد. كان الشبان الجنوبيون يتحلّقون حول الفتاتين الأخريين، يبذلون جهدهم لخلب لبّهما بوجباتهم السريعة. سألني ألريك بخبث إن كنت قد رأيت آيرين.

قلت " أعتقد أنها ذهبت إلى الحمّام "

قال " كيف كان الأمر؟ أما زلت عاشقاً؟ "

رميته بابتسامة عنيدة ساخرة.

تابع قائلاً " لماذا لا تجلب صديقتك ذات مساء. يمكنني دائماً أن أختلق عذراً لجلب آيرين إلى هنا. يمكننا أن نتبادل الأدوار في مواساتها، ما رأيك؟ "

قلت " اسمع، أقرضني دولاراً. يجب أن آكل، أكاد أموت من الجوع"

كان لألريك دائماً طريقة خاصة في إظهار حيرته وارتباكه حين تطلب منه نقوداً. كنت مضطراً إلى اختصار الطريق هكذا وإلا تخلّصَ

twitter @baghdad_library

مني بأسلوبه الناعم الذي لا يمكن مقاومته في رفض الطلب. قلت، وأنا أمسكه من ذراعه " هيا، ليس هذا وقت التأتأة والتردد ". توجهنا إلى الصالة، وهناك ناولني دولاراً خلسة. وما كدنا نقترب من الباب حتى خرجت آيرين من الحمّام، فسألت، وهي تقترب مني وتمدُّ ذراعيها من ذراعينا " لا أظنك مغادراً الآن ". قال ألريك " نعم، يجب أن يذهب بسرعة الآن، لكنه وعدَ بأن يعود فيما بعد ". وبهذا أحطناها بذراعينا ورحنا نمطرها بالقبل.

قالت آيرين " متى سأراك ثانية؟ قد لا تراني هنا حين تعود. أودُّ أن أتبادل الحديث معك "

قال ألريك " حديث فقط؟ "

قالت، منهيةً الأمر بضحكة فاسقة " يعني، كما تعلم ... "

هذه الضحكة قبضت عليَّ من خصيتيّ. أمسكت بها مرة أخرى ودفعتها إلى الزاوية ومددتُ يدي إلى كسّها الذي كان يلتهبُ حرارة، وزلقتُ لساني إلى حنجرتها.

غمغمت " لماذا تذهب الآن؟ لم لا تبقى؟ "

تقدَّمَ ألريك لينال نصيبه، فقال وهو يلتصق بها كالعلقة: " لا تقلقي عليه. هذا العصفور لا يحتاج إلى أي مواساة. لديه أكثر مما في وسعه أن يتعامل معه "

أثناء خروجي لمحت آخر إشارة متوسّلة من آيرين، وقد انحنى ظهرها تقريباً إلى نصفين، وارتفع ثوبها فوق مستوى ركبتيها، ويد ألريك تتسلل إلى أعلى ساقها وتُطبِق على كسّها الحامي. غمغمت وأنا أهبط الدرج " يا لطيف! يا لها من عاهرة! ". كنت أوشك على السقوط

مغشياً عليَّ من فرط الجوع. أردت أن أتناول شريحة من اللحم مع كمية كبيرة من البصل ثم أن أشرب ملء كأس كبيرة من البيرة.

تناولت الطعام في خلفيّة حانة كائنة في الجادّة الخامسة، لا تبعد كثيراً عن منزل ألريك. ونلت ما أردت وتبقّى معي عشرة سنتات. وشعرت بالارتياح والحرية، بمزاجٍ يخوّلني قبول أي شيء. ولا بد أن مزاجي الطيب كان مرتسماً على قسمات وجهي، ذلك أن رجلاً كان ينزّه كلباً حيّاني تحية وديّة، أثناء وقوفي برهة عند ممر الباب لأملي بصري بالمشهد العام. حسبتُ أنه يظنني شخصاً آخر، وهو أمر كان يحدث لي كثيراً، ولكن كلا، كان يعبّر فقط عن ميل وديّ، لعله كان في مزاجٍ وضّاء يشبه مزاجي. تبادلنا بضع كلمات وسرعان ما انضممت إليه وإلى الكلب في المسير. قال إنه يقطن في الجوار وأنه إذا ما تفضّلتُ وشاركته شرب كأس وديّة فيمكنني أنْ أصحبه إلى شقته. وقد أقنعتني الكلمات القليلة التي تبادلناها بأنه سيد محترم مثقّف وحسّاس من المدرسة القديمة. بل إنه في الواقع أعلن فوراً أنَّه عاد لتوّه من أوروبا، حيث كان يعيش طوال عدد من السنين. وعند بلوغنا شقته كان يحكي لي قصةً عن علاقة عاطفية أقامها مع كونتيسة في فلورانسا. بدا أنّه يعتقد أنَّ من البديهي أني أعرف أوروبا. وعاملني على أني فنان.

كانت الشقة فخمة. وسرعان ما أحضر صندوقاً جميلاً من سيجار هافانا الممتاز وسألني إن كنت أفضّل أن أشرب شيئاً. شربت كأساً من الويسكي وجلست على أريكة مترفة. وانتابني إحساس بأن ذلك الرجل سوف يضع قبل أن يمرّ وقت طويل مبلغاً من المال في يدي. وأخذ يصغي إليّ وكأنه يصدِّق كل كلمة أنطقها. وفجأة غامر بسؤالي إن كنت كاتباً.

twitter @baghdad_library

لماذا؟ في الواقع لقد استشفَّ ذلك من أسلوبي في التلفُّت فيما حولي، من طريقتي في الوقوف، ومن التعبير المرتسم حول فمي - من أشياء صغيرة، دقيقة، تعطي انطباعاً عاماً بالحساسية والفضول.

سألته " وماذا عنك؟ ماذا تعمل؟ "

قام بإيماءة مستخفّة، وكأنه يقول، لم يعد لي أي شأن. " كنت رساماً ذات يوم، بل رساماً رديئاً. الآن لم أعد أقوم بأي عمل. أحاول أن أستمتع بوقتي "

هذا القول فجّرني. وأخذت الكلمات تتدفّق مني، كالقذائف الحارة. أخبرته عن وضعي، وعن اضطراب شؤوني، وكيف أن الأمور تحدث مع ذلك، وعن الآمال التي تحدوني، والحياة التي تنتظرني إذا ما وضعت يدي عليها، انتزعتها، نظّمتها، قهرتها. وقد كذبت قليلاً. كان من المستحيل أن أعترف له، لذاك الغريب الذي هبَّ إلى نجدتي بدون مقدمات، بأني إنسان فاشل تماماً.

ماذا ألّفتُ حتى الآن؟

عدة كتب، في الحقيقة، وحفنة من القصائد، ودفعة من القصص القصيرة. ورحت أثرثر بأقصى سرعة لكي لا يقبض عليَّ متلبساً في تشويه بديهيات تافهة، عن الكتاب الجديد الذي باشرت في كتابته - وسيكون إنجازاً رائعاً. سيضم أكثر من أربعين شخصية. وضعت له جدولاً ضخماً على الجدار، ما يشبه الخريطة للكتاب - يجب أن يراها ذات يوم. هل يذكر كيريلوف، الشخصية الواردة في إحدى روايات دوستويفسكي، الذي أطلق النار على نفسه أو شنق نفسه لأنه كان في منتهى السعادة؟ إنه أنا بحذافيري. سوف أطلق النار على الجميع -

بدافع من السعادة المحض ... اليوم مثلاً، ليته رآني قبل بضع ساعات. كنت مجنوناً بكل معنى الكلمة. أتدحرج على العشب على ضفة جدول؛ وأمضغ ملءَ فمٍ من العشب؛ أهرش نفسي ككلب؛ أزعق بأقصى ما في طاقتي؛ أقوم بحركات الشقلبة اليدوية؛ وحتى كنت أركع على ركبتيّ وأصلي، ليس طلباً لشيء ما، بل لأقدم شكري، الشكر لكوني حياً، لكوني قادراً على تنفُّس الهواء ... أليس رائعاً أن نتمكّن فقط من التنفّس؟

وتابعت سرد حوادث صغيرة مستمدّة من حياتي الموجزة: عن المحتالين الذين اضطررت إلى التعامل معهم، والمرضى بداء الكذب، والمنحرفين، والمشردين المضطربين عقلياً المقيمين في النُزُل، والمنخرطين في العمل الإنساني المنافقين والقذرين، وأمراض الفقراء، والفتية الهاربين الذين يختفون عن وجه الأرض، والعاهرات اللواتي يحاولن أن يشققن طريقهن ويؤدين أعمال الأبنية الرسمية، والمعتوهين، والمصروعين، واليتامى، وأولاد الإصلاحية، والمحكومين السابقين، والشبقات جنسياً.

تدلّى فمه مفتوحاً مثل مفصلة، وجحظت عيناه من رأسه: بدا أمام العالم أجمع أشبه بشرغوف ودودٍ ضُرِبَ بحجر. أترغب بكأسٍ أخرى؟

حتماً! ماذا كنتُ أقول؟ آه نعم ... في وسط الكتاب أنفجر. ولم لا ؟ هناك الكثير من الكتّاب الذين يستطيعون أن يصلوا بشيءٍ ما حتى النهاية دون أن يفلت منهم الزمام؛ والأمر يحتاج إلى رجلٍ، مثلي مثلاً، لا يهمه ما يحدث. دوستويفسكي لم يتمادَ كثيراً. كنت أبربر طوال الوقت. على المرء أن يبلغ حدّ الجنون! لقد اكتفى الناس من الحبكة المحكمة والشخصيات المحدّدة. الحبكة والشخصيات لا تصنع حياةً.

twitter @baghdad_library

الحياة لا توجد في الطابق العلوي: الحياة موجودة هنا الآن، في كل مرة تنطق الكلمة، كلما اندفعت في الكلام. الحياة هي قوة أربعمائة وأربعون حصان في آلة ذات اسطوانتين ...

هنا قاطعني. " في الواقع، يجب أن أقول إنك حتماً تتمتّع بالمقدرة ... أتمنى أن أقرأ أحد كتبك "

قلت، مدفوعاً بمحرِّك احتراق داخلي " سوف تقرأ. سأرسل إليك أحدها في غضون يوم أو يومين "

سمعنا قرعاً على الباب. حين نهض واقفاً ليفتحه شرح لي قائلاً إنه يتوقع قدوم شخص ما. ورجاني ألا أنزعج، إنها مجرد صديقة فاتنة.

ظهرت في ممر الباب امرأة باهرة الجمال. نهضتُ واقفاً لأحييها. بدت إيطاليّة. لعلها الكونتيسة التي تحدث عنها آنفاً.

قال " سيلفيا، من المؤسف جداً أنك لم تصلي قبل الآن بقليل. كنت أصغي إلى أروع القصص. إن هذا الشاب كاتب. أريدك أن تتعرّفي إليه"

اقتربت ومدّتْ لي يديها لأمسك بهما. قالت " أنا واثقة من أنك كاتب جيد جداً. أكاد أرى أنك قد عانيتَ "

" لقد عاش حياة غاية في الغرابة، يا سيلفيا. أشعر وكأني لم أبدأ بالعيش بعد. وماذا في اعتقادك يفعل ليكسب لقمة عيشه؟ "

التفتت إليّ وكأنها تريد أن تقول أنها تفضِّل أن تسمع ذلك من فمي. اضطربتُ. لم أكن مستعداً لمقابلة مثل تلك المخلوقة المذهلة، مفعمة بالثقة بنفسها، شديدة التماسك، وطبيعية إلى أقصى حدّ. وددتُ لو أنهض واقفاً وأضعُ يديَّ على وركيها، وأبقيهما هناك وأقول شيئاً

شديد البساطة، والصدق، كما يخاطب إنسان إنساناً آخر. كانت عيناها رقيقتين رقراقتين؛ عينين مستديرتين، سوداوين تتلألآن بالعطف والدفء. أيمكن أن تكون عاشقة لهذا الرجل الذي يكبرها سناً بكثير؟ من أي مدينة جاءت ومن أي عالم؟ شعرت أنه لكي أقول لها حتى كلمتين كان يجب أن يتوفر لدي مفتاح. وارتكاب أي خطأ سيكون قاتلاً.

بدت أنها تقيِّم ورطتي. سألتني، وهي تنظر أولاً إليه ومن ثم إليّ، " ألن يقدِّم لي أحدكما مشروباً؟ " ثم أضافت، تخاطبني، " أعتقد أن البورت مناسب ".

ثم قال مضيفي " لكنك لا تشرب أي شيء! ". ونهض يبغي مساعدتي. أصبحنا نحن الثلاثة وقوفاً. كنا واقفين ومتقاربين، وسيلفيا رافعة كأساً فارغة. قال " أنا سعيد لأنَّ الأمورَ أخذتْ هذا المنحى. ما كان يمكنني أن أجمع بين اثنين متنافرين مثلكما أنتما الاثنان. أنا واثق من أنكما ستتفاهمان "

شعرت بدوار حين رفعت الكأس إلى شفتيها. كنت واثقاً من أن ذلك سيكون بدايةً لمغامرةٍ من نوعٍ غريب. انتابني حدسٌ قوي بأنه سيجدُ عذراً ما ليتركنا وحدنا فترة من الوقت وأنها سترتمي بين أحضاني دون حتى أن تنطق بكلمة واحدة. شعرت أيضاً أني لن أقابل أياً منهما بعد الآن.

في الواقع، لقد حدث بالضبط كما تخيلت. فبعد مرور أقل من خمس دقائق على وصولها أعلن مضيفي أن لديه مهمة هامة جداً عليه أن يقوم بها واستأذن أن يغيب بعض الوقت. وما أن أغلق الباب وراءه حتى اقتربت مني وجلست على حجري، وهي تقول - " لن يعود هذه الليلة. الآن يمكننا أن نتحدث ". هذه الكلمات أفزعتني أكثر مما

twitter @baghdad_library

فاجأتني. ولمعت في ذهني كل الأفكار المحتملة. بل لقد فوجئت أكثر حين أضافت بعد برهة صمت - " وما رأيك بي، هل أنا مجرد امرأة جميلة، وربما أكون عشيقته؟ كيف تتخيّل حياتي؟ "

" أعتقد أنك إنسان خطر جداً "، أجبت بعفوية وصدق، " لن أُدهَش إذا ما اتضح لي أنك جاسوسة شهيرة "

قالت " لديك حدوس قوية جداً. كلا، لست جاسوسة، ولكن ... "

" في الواقع، لو كنتِ كذلك لما أخبرتني، أنا متأكد من ذلك. في الحقيقة لا أريد أن أعرفَ شيئاً عن حياتك. أتعلمين بماذا أتساءل؟ أتساءل ماذا تريدين مني. أشعر كأني واقعٌ في فخ "

" هذا كلام غير لطيف. الآن بدأتَ تتخيّل أموراً. لو كنا نريد شيئاً منك لتوجَّبَ علينا أن نعرفك أكثر، أليس كذلك؟ ". وسادت برهة صمت، ثم قالت فجأة: " أمتأكد من أنك لا تريد أن تكون أكثر من كاتب؟"

أجبت بسرعة " ماذا تعنين؟ "

" فقط ما قلت. أنا أعلم أنك كاتبٌ حقاً ... ولكن تستطيع أيضاً أن تؤدي أعمالاً أخرى. إنك من النوع الذي في استطاعته أن يقوم بأي عمل يشاء، ألستُ محقّة؟ "

أجبت " أخشى أن الأمر هو على العكس تماماً. إن كل ما فعلتُهُ حتى الآن انتهى بفشلٍ ذريع. حتى إنني لست واثقاً من أني كاتب، في الوقت الحاضر "

نهضت عن حجري وأشعلت سيجارة لنفسها. وبعد قليل من التردد بدت خلاله أنها تتمالك شتات نفسها لتخرج بكشف هام، قالت " لا يمكن أن تكون فاشلاً "، ثم أضافت، ببطء وتروٍّ " مشكلتك هي أنك لا

تتنكّب عـملاً يليق بطاقاتك. أنت بحاجة إلى مشاكل أكبر، مصاعب أضـخم. ولن يتـحسّن أداؤك إلى أن تزداد الوطأة عليك. أنا لا أعـرف ماذا تعمل لكني واثقة من أن حياتك الحاليّة لا تلائمك. أنت مقدَّرٌ لك أن تعيش حياةً محفوفة بالأخطار؛ تستطيع أن تخاطر أكثر من غيرك لأنك ... لعلك تعرف السبب ... لأنك مُصان "

هتفت " مُصان؟ أنا لا أفهم "

أجابت بهدوء " أوه نعم مُصان. طوال حياتك وأنت مُصان. فقط فكِّر لحظة ... ألم تقترب من حافة الموت مرات عدّة ... ألم تكن دائماً تجد من يمدُّ لك يد العون، شخصٌ غريبٌ عادة، في اللحظة التي كنت تشعر أن كل شيء قد ضاع؟ ألم تكن حينئذ قد ارتكبت عدة جرائم، جرائم لا أحد ارتاب في أنك ارتكبتها؟ ألست الآن مغموراً بشغفٍ على جانب كبير من الخطورة، بعلاقة عاطفية يمكن أن تؤدي إلى دمارك، لو لم تكن قد ولدت محظوظاً؟ أنا أعلم أنك عاشق. أعلم أنك على استعداد لتفعل أي شيء لتشبع شغفك ... إنك تنظر إليّ مستغرباً ... تتساءل كيف أعرف. إنني لا أتمتع بأي مواهب خاصة - ما عدا قدرتي على قراءة الكائنات البشرية من النظرة الأولى. اسمع، قبل بضع لحظات كنت تنتظر بشوق أن آتي إليك. كنت تعلم أني مستعدة للارتماء بين أحضانك، حالما يغادر المكان. وقد فعلت. لكنك شُللتَ - هل أقول انتابك شيء من الخوف مني؟ لماذا؟ ماذا يمكن أن أسبِّبَ لك؟ فلا مال لديك، ولا سلطة، ولا نفوذ. ماذا! توقعت أن أطلب منك؟ ". سكتت، ثم أضافت: " أأقول لك الحقيقة؟ "

هززت رأسي موافقاً وعاجزاً.

twitter @baghdad_library

" كنتَ تخشى أن أطلب منك أن تفعل شيئاً لأجلي وتعجز عن رفضه. كنتَ مرتبكاً، لأنه بما أنك تعشق امرأة واحدة، شعرتَ أنك معرَّض لتكون ضحية امرأة أخرى. إن ما تحتاج إليه ليس امرأة - بل أداة لتتحرّر بواسطتها. إنك تواق إلى عيش حياة أكثر مغامرة، تريد أن تكسر أغلالك. وكائناً مَنْ تكون المرأة التي تعشق إني أشفق عليها. سوف تبدو لك أنها الشخص الغريب، ولكن ذلك فقط لأنك تشك في نفسك. إنك أنت الأقوى. وسوف تكون دائماً الأقوى - لأنك لا تستطيع أن تفكِّر إلا في نفسك، في مصيرك. ولو كنتَ أقوى ولو بمقدار صغير لانتابني الخوف عليك. كان يمكن أن تتحول إلى متعصِّب خطير. لكن هذا ليس قدرك. أنت أعقل من ذلك بما لا يقارَن، وأفضل صحة. إنك تحب الحياة حتى أكثر من نفسك. أنت مشوَّش، لأنه كائناً مَنْ يكون أو ما يكون ما تَهِبُ نفسَكَ له لا يكفيك - أليس صحيحاً؟ لا أحد قادر على كبحك طويلاً: أنت دائماً تنظر إلى ما بعد موضوع حبك، بحثاً عن شيء لن تعثر عليه أبداً. سوف يتوجب عليك أن تفتش في داخلك إن كنت تأمل في التحرُّر من العذاب. أنا متأكدة من أنك تعقد صداقات بسهولة. ومع ذلك لا يوجد مَنْ تستطيع أن تقول أنه صديق لك. أنت وحيد. وسوف تبقى دائماً وحيداً. تريد أكثر بكثير مما في استطاعة الحياة أن تقدمه إليك ... "

قاطعتها " انتظري لحظة، من فضلك. ما الذي يدفعك إلى أن تقولي لي كل هذا ؟ "

سكتت برهة، وكأنها مترددة في الإجابة عن هذا مباشرة. قالت " أعتقد أني فقط أجيب عن سؤال يدور في ذهني. هذه الليلة يجب أن

أتخذ قراراً خطيراً؛ سوف أغادر في الصباح في رحلة طويلة. حين رأيتك قلت لنفسي - لعله الرجل الذي يستطيع أن يساعدك. لكني كنت مخطئة. ليس لدي ما أطلبه منك ... يمكنك أن تطوقني بذراعيك، إذا شئت ... إذا لم تكن خائفاً مني "

تقدّمتُ منها، أمسكت بها بإحكام وقبّلتها. أبعدتُ شفتيَّ ونظرتُ في عمق عينيها، وما زالت ذراعاي تحيطان بخصرها.

قالت، وهي تتحرّر مني برقة، " ماذا ترى؟ "

ابتعدتُ عنها ورحت ألقي عليها نظرة ثابتة، لبضع لحظات، قبل أن أجيب " ماذا أرى؟ لا شيء. لا شيء على الإطلاق. إن النظر في عينيكِ يشبه النظر في مرآة مظلمة. "

" أنت مضطرب. أليس كذلك؟ "

" إن ما قُلتِهِ عني - يُفزعني ... إذن فلستُ ذا عون لكِ، أليس كذلك؟ "

أجابت "لقد ساعدتَني، بصورة ما. أنت دائماً تساعد، بشكلٍ غير مباشر. لا يسعك إلا أن تشعَّ طاقة، وهذا شيء لا يستهان به. الناس يتّكلون عليك، لكنك لا تعرف السبب. بل إنك تكرههم لهذا، مع أنك تتصرف وكأنك لطيف ومتعاطف حقاً. حين جئت إلى هنا هذا المساء اضطربت قليلاً من داخلي؛ لقد فقدت تلك الثقة بالنفس التي أتمتع بها عادة. نظرت إليكَ ورأيتُ ... ماذا في اعتقادك؟"

" رجلاً غارقاً في أناه، في اعتقادي "

" رأيتُ حيواناً! شعرتُ أنك ستفترسني، لو أني أطلقت العنان لنفسي. وشعرت لبرهة أو اثنتين أني أريد أن أترك نفسي على هواها.

twitter @baghdad_library

أنت أردتَ أن تنالني، أن ترميني على السجادة. وما كان يرضيكَ أن تنالني بتلك الطريقة، أليس كذلك؟ لقد رأيتَ فيَّ شيئاً لم ترَهُ في أي امرأةٍ أخرى. رأيتَ القناعَ الذي هو قناعك ". سكتَتْ برهة. " أنت لا تجرؤ على أن تكشف عن ذاتك الحقيقية، ولا أنا أجرؤ. هذا ما يجمع بيننا. أنا أعيش حياة خطرة، ليس لأني قوية، بل لأني أعرف كيف أستغل قوة الآخرين؛ أخشى ألا أفعل ما أفعل لأني إذا توقفتُ عن ذلك سوف أنهار. أنت لا تقرأ أي شيء في عينيّ لأنه لا يوجد ما يستدعي القراءة. ليس لدي ما أمنحه لك، كما سبق أن قلتُ لك قبل قليل. إنك لا تبحث إلا عن فريستك، ضحيتك التي تسمن عليها. نعم، لعل أفضل ما يناسبك أن تكون كاتباً. وإذا ما قُدِّرَ لك أن تنفِّذ أفكارك قد تصبح مجرماً. لطالما أتيح لك أن تختار بين طريقين. إن ما يحول بينك وبين طرق الدرب الخاطئ ليس الحس الأخلاقي - إنه حسّك الغريزي في أن تفعل فقط الأفضل لك على المدى الطويل. أنت لا تعرف لماذا تتخلى عن مشاريعك اللامعة؛ تعتقد أنه الضعف، الخوف، الشك، لكنه ليس كذلك. إنك تنطوي على غرائز معادية للذكورة، تجعل كل شيء خاضعاً لرغبة الحياة. ولن تتردد في أن تنالني رغماً عن إرادتي، حتى وإن علمتَ أنك في فخ. فأنت لا تخشَ فخ الإنسان، بل الفخ الآخر، الفخ الذي سيضع قدمك في الاتجاه الخطأ الذي تأخذ حذرك منه. وأنت على حق ". مرة أخرى صمتت. " نعم، لقد قدَّمتَ لي خدمة كبرى. ولو لم أقابلك في هذه الليلة لاستسلمت لشكوكي "

قلتُ " إذن فأنتِ فعلاً مقْدمةٌ على القيام بعمل خطر "

هزّت كتفيها استخفافاً " مَنْ يدري ما هو الخَطِر؟ إن الشك هو

الخطر. سوف تمرُّ بأوقاتٍ عصيبة بسببه أكثر مني. وسوف تسبّب الكثير من الأذى للآخرين أثناء الدفاع عن نفسك ضد مخاوفك وشكوكك. بل إنك لستَ واثقاً في هذه اللحظة من أنك ستعود إلى المرأة التي تحبّ. لقد سمّمتُ عقلك، وسوف تتخلّى عنها إذا كنت واثقاً من قدرتك على أن تفعل ما تشاء دون مساعدتها. لكنك ستحتاج إليها وستسمّي هذا حباً. سوف تلجأ دائماً إلى هذا العذر وأنت تمتصّ الحياة من المرأة "

قاطعتها بشيء من الحرارة " هنا تخطئين، فأنا الذي امتُصَّتْ الحياة منه، لا المرأة "

" هذا أسلوبك في خداع نفسك، ذلك أن المرأة لا يمكنها أبداً أن تعطيك ما تريد وأن تبرهن به على أنك شهيد. المرأة تريد الحب وأنت عاجز عن إعطاء الحب. ولو كنت من النمط العاشق لأصبحت وحشاً؛ لكنك سوف تحوِّل إحباطكَ إلى شيء مفيد. نعم، تابع الكتابة مهما كانت النتائج. يمكن للفن أن يحوِّل القبيح جميلاً. وكتابٌ شنيعٌ أفضل من حياةٍ شنيعة. الفن مؤلم، مملّ، يرقِّق الطبع. وإذا لم تُمتْ وأنت تحاول، قد يحوّلك عملك إلى إنسان رقيق، لطيف المعشر. وأنت راشد بما يكفي بحيث لا تكتفي بالشهرة. هذا ما أراه. ولعلك بعد أن تعيش مدة كافية سوف تكتشف أن هناك شيئاً يقع ما وراء ما تسمّيه الآن حياة. قد تعيش أكثر لتعيش من أجل الآخرين. وهذا يعتمد على ما تفعله بعقلك ". (تبادلنا نظرة حادة) " ذلك أنك لست ذكياً كما تظن نفسك. هذه هي نقطة ضعفك، كبرياؤك العقلية المزهوّة. إذا اعتمدتَ حصراً على هذا سوف تُهزَم. إنك تمتلك كافة مزايا الأنثى، لكنك تخجل من الاعتراف بها لنفسك. تظن أنه لأنك قوي جنسياً فأنت مكتمل الرجولة، لكنك

twitter @baghdad_library

امرأة أكثر منك رجلاً. وفحولتك الجنسية هي الدلالة الوحيدة على امتلاكك طاقة أعظم لم تبدأ بعد باستخدامها. لا تحاول أن تثبت أنك رجل بتفجير طاقاتك في الغواية. النساء لا يخدعهن مثل ذاك النوع من القوة والسحر. فالنساء، حتى وهنَّ خاضعات فكرياً، دائماً سيدات الموقف. قد تُستَعبَد المرأة، جنسياً، لكنها تظل تسيطر على الرجل. سوف تمرُّ بأوقات عصيبة أكثر من باقي الرجال لأنه لا يهمك أن تسيطر على غيرك. سوف تحاول دائماً أن تسيطر على نفسك؛ والمرأة التي تحبها ستبقى أداة لك لتتدرَّبَ بها على ... "

هنا توقفت. ورأيت أنها توقعت مني أن أرحل.

قالت، وأنا أستعدُّ للرحيل " أوه، بالمناسبة؛ لقد طلب السيد مني أن أعطيك هذا " - وناولتني مغلّفاً مختوماً. " لعله شرح لك لماذا لم يستطع أن يغادر إلا بتلك الطريقة الغامضة ". أخذت المغلّف وصافحتها. ولو أنها قالت لي فجأة: " اركض! انفد بجلدك! "، لفعلتُ ذلك دون أن أطرح أي سؤال. كنت مرتبكاً تماماً، لا أدري لماذا جئت ولا لماذا أغادر. لقد انخرطتُ في الأمر برشاقة ممتطياً موجة من الزهوّ بدا منشؤها حينئذ بعيداً نائياً ولا أهمية له بالنسبة إليّ. لقد درت دورة كاملة من الظهر وحتى منتصف الليل.

فتحتُ المغلّف وأنا في الشارع. كان يضم ورقة مالية بقيمة عشرين دولاراً موجودة داخل ورقة كتب عليها " أتمنى لك حظاً سعيداً! ". لم أدهش بشكل عام. فقد توقّعتُ شيئاً من هذا القبيل حالما وقع بصري عليه...

بعد مرور بضعة أيام على تلك الحادثة كتبتُ قصة سمّيتها " فانتيزيا حرة " جلبتها إلى ألريك لأقرأها له بصوت عالٍ. كتبتها عفوياً،

دون التفكير في بداية أو نهاية، كنت أحملُ فقط صورة ثابتة طوال الوقت، صورة مصابيح يابانية تتأرجح. والـ Piece de resistance (العنصر الرئيسي) رفسة على القفا وجّهتها إلى البطلة على هيئة خنوع. هذه الإيماءة، الموجّهة إلى مَرَه، فاجأتني أكثر مما كان يمكن أن تفاجئ القارئ. رأى ألريك أن الكتابة ممتازة جداً لكنه اعترفَ بأنه لم يفهم منها أي شيء. وطلب مني أن أعرضها على آيرين، التي كان يتوقع وصولها لاحقاً. قال إن بها عرقَ انحراف. وفي وقت لاحق من تلك الليلة عادت معه إلى المحترف، بعد رحيل الآخرين، وكانت قد استنزفته حتى الموت. في اعتقاده أن ثلاث مرات يمكن أن ترضي أي امرأة، أما هذه ففي استطاعتها أن تبقيه منتصباً طوال الليل. قال " القحبة لا تكفّ عن القذف. لا عجبَ أن زوجها قد شلَّ - لا بد أنها انتزعت قضيبه منه "

أخبرته بما حدث في تلك الليلة بعد أن غادرت الحفلة على عجل. هزَّ رأسه من ناحية إلى أخرى، وهو يقول - " يا إلهي، تلك الأشياء لا تحدث لي أنا. لو أن أحداً غيرك أخبرني قصة كهذه لما صدّقته. يبدو أن حياتك برمتها مؤلّفة فقط من مثل هذه الحوادث. لماذا هذا، هلاّ أخبرتني؟ لا تضحك عليَّ، أعرف أنه يبدو من الحمق أن أطرح مثل هذه الأسئلة. أعرف أيضاً أني أشبه بالعصفور الحذر. وأنت تبدو منفتحاً على الآخر - أعتقد أن هذا هو السر. والناس يثيرون فضولك أكثر مما قد أفعل في أي وقت. إنني أملُّ بسهولة - أعترف بأن هذا عيب. كم من مرة حكيتَ لي عن الوقت الرائع الذي أمضيته - وذلك بعد أن غادرتُ. لكني واثق من أن شيئاً مما سردته عليّ سيحدث لي حتى وإن سهرت الليل بطوله ... وهناك شيء آخر فيك يحيّرني وهو أنك دائماً تعثر على

twitter @baghdad_library

شخصية مثيرة للاهتمام يتجاهلها أغلبنا. إن لديك طريقة لجعلهم ينفتحون عليك، لجعلهم يكشفون عما في سريرتهم. أنا ليس لدي الصبر على ذلك ... ولكن قل لي بصدق الآن، ألست نادماً قليلاً لأنك لم تُدخِل طرفك في ما اسمها؟ "

" تقصد سيلفيا؟ "

" نعم. تقول إنها كانت لولو*. ألا تعتقد أنه كان في إمكانك أن تمكث خمس دقائق أخرى وتحصل على ما كان قادماً إليك؟ "

" نعم، أعتقد ذلك ... "

" أنت إنسان غريب. أعتقد أنك تقصد أن تقول أنك حصلت على ما هو أكثر بعدم بقائك، أليس كذلك؟ "

" لا أدري. ربما فعلت، وربما لا. الحق أقول لك، كنت قد نسيتُ كل شيء عن نكاح المرأة حين جاء وقت رحيلي. لا يمكنك أن تنكح كل امرأة تقابلها، أليس كذلك؟ هذا رأيي. أنا الذي نُكِحْتُ على أعلى مستوى. ماذا كان في وسعي أن أحصل منها أكثر من ذلك لو أني نفّذتُ ما أردت؟ ربما كانت نقلت إليَّ مرضاً تناسلياً. ربما كنت خيّبتُ أملها. اسمع، أنا لا أقلق كثيراً إذا خسرت مضاجعة بين حين وآخر. تبدو وكأنك تحتفظ بما يشبه سجلاً للنكاح. لهذا أراك لا تحلّ عني، يا ابن الحرام. إنني أضطر أن أحفر فيك كما يفعل طبيب الأسنان لأحصل منك على دولار؛ ثم أنعطف في الشارع فيترك لي رجل غريب ورقة من فئة العشرين دولاراً على رف المدفأة. فكيف تفسِّرُ ذلك؟"

قال ألريك، راسماً تكشيرةً ساخرةً " لا تفسير له. ولهذا، أعتقد، لا تحدث لي أمور ... "، ثم أردف " ولكن أريد أن أقول ما يلي "،

* لولو: رائعة، بديعة!. – المترجم.

ونهض عن مقعده وعبس بسبب عناده الخاص " كلما وجدتَ نفسكَ في ضائقة حقيقية تستطيع دائماً أن تعتمد عليّ. في الواقع، إنني لا أقلق عادة كثيراً حول عوزك لأنني أعرفك جيداً بحيث أدرك أنك دائماً تجد مخرجاً، حتى وإن حدث وخذلتك "

" يجب أن أعترف بأن لديك ثقة عمياء بقدراتي "

"لا أقصد أن أكون قاسي القلب حين أقول مثل هذا. في الحقيقة، لو أني كنت مكانك لأصبْتُ بكآبةٍ شديدةٍ حتى عجزتُ عن طلب العون من صديق - كنت خجلتُ من نفسي. لكنك تأتي إلى هنا مبتسماً لتقول - " يجب أن أحصل على هذا ... يجب أن أحصل على ذاك". إنك لا تتصرف وكأنك تحتاج حاجة ماسة إلى المساعدة ".

قلت " ما أهمية هذا، أتريدني أن أركع على قدميّ وأتوسل كي تعطيني؟ "

" لا، ليس هذا، طبعاً. ها أنا أتكلم من جديد كأبله ملعون. لكنك تجعل الناس يحسدونك، حتى حين تقول إنك يائس. إنك تجعل الناس أحياناً يرفضونك لأنك تعتبر أن من البديهي أنهم يجب أن يساعدوك، أليس كذلك؟ "

" كلا، ألريك، ليس هذا ما أراه. ولكن لا بأس. هذا المساء سأدعوك لنتناول طعام العشاء "

" وغداً تطلب مني أجرة المواصلات "

" وهل في هذا ما يُضير؟ "

" كلا، إنه فقط أمر غريب " وضحك " منذ أن عرفتك، وأنا أعرفك منذ زمن طويل، وأنت تنهال عليّ - طلباً لنيكلات، ودايمات، وأرباع،

twitter @baghdad_library

ودولارات ... بل إنك في إحدى المرات حاولتَ أن ترغمني على إعطائك خمسين دولاراً، أتذكر؟ ودائماً أرفض طلبك، أليس كذلك؟ ولكن يبدو أن ذلك لا يهمك. وما زلنا صديقين. ولكن أحياناً أتساءل ما حقيقة رأيك بي. لا يمكن أن يكون لصالحي "

قلت بمرح " في الواقع أستطيع أن أجيب عن هذا الآن، ألريك. إنك..."

" لا، لا تقل لي الآن. وفّر كلامك! لا أريد أن أسمع الحقيقة الآن "

ذهبنا لتناول الطعام في تشايناتاون وفي طريق العودة إلى المنزل دسَّ ألريك ورقة نقدية بعشرة دولارات، فقط ليُثبِتَ لي أن قلبَهُ موجود في مكانه. وفي الحديقة العامة جلسنا وتبادلنا حديثاً طويلاً دار حول المستقبل. وأخيراً قال لي ما كان العديد من أصدقائي قد قالوه لي للتو - أنه لا يأمل خيراً في نفسه لكنه واثق من أني سأنطلق وأقوم بعمل مذهل. ثم أضاف بصدق شديد أنه لا يعتقد أني قد بدأت حتى بالتعبير عن نفسي، ككاتب. قال " إنك لا تكتب كما تتكلم. يبدو أنك تخشى أن تكشف ما في سريرتك. لو أنك تنفتح وتبوح بالحقيقة سيحدث ما يشبه شلالات نياغارا. دعني أقول لك بصدق - إنني لا أعرف أي كاتب في أميركا يحمل مواهب تفوق مواهبك. لطالما آمنت بك - وسأظل كذلك حتى وإن اتضح أنك فاشل. إنك لست فاشلاً في الحياة، أعرف هذا، مع أنها أشد أساليب الحياة جنوناً عرفتها. لو أني أفعل كل ما تفعله في حياتك خلال يوم واحد لما تبقّى لي وقت لأرسم ضربة واحدة ".

غادرته، شاعراً كما أشعر غالباً، أني ربما لم أقدِّر صداقته حق قدرها. لا أعرف ماذا كنت أتوقع من أصدقائي. الحقيقة هي أني لم أكن

راضياً عن نفسي، عن جهودي المخفقة، بحيث أنَّ لا شيء ولا أحد بدا لي على ما يرام. وحين أكون بين حشدٍ من الناس فإني غالباً أنتقي الشخص الأقل استجابة بينهم، فقط لأستمتع بمسحه من قائمتي. كنت أعلم علم اليقين أني بتضحيتي بصديق قديم سأحصل على ثلاثةٍ جُدُد بحلول اليوم التالي. وكان من المؤثّر أيضاً أن أصادفَ بعد ذلك أحدَ الأصدقاء المنبوذين وأجد أنه لا يكنُّ لي أي حقد، وأنه تواق وراغب في استعادة الروابط القديمة، ويحدث ذلك عادة على صورة دعوة على وجبة سخية وعرض لإقراضي بضعة دولارات. كنت دائماً أضمرُ نيّةَ مفاجأةِ أصدقائي ذات يوم بتسديد ديوني كلها. كنت غالباً ما أهدهد نفسي لأنام بجمع الدَين. ولا زال حتى يومي هذا يشكّلُ مبلغاً ضخماً، ولا يمكن تسديده إلا بضربة حظ غير متوقعة. وربما ذات يوم يموت أحد أقاربي الذين لم أسمع عنهم قط ويترك لي إرثاً، مقداره خمسة آلاف أو عشرة آلاف دولار، فأتوجه من فوري إلى أقرب مكتب تلغراف وأرسل سلسلة من الحوالات المالية إلى كل مَنْ هبَّ ودب. ويجب أن يتم ذلك بواسطة التلغراف لأني إذا احتفظت بالمبلغ في جيبي أكثر من بضع ساعات فسوف يتلاشى بإحدى الطرق البلهاء، غير المتوقعة.

لجأت إلى السرير في تلك الليلة وأنا أحلم بإرث مفاجئ. وفي الصباح كان أول ما سمعت عنه صدور علاوة – قد نحصل عليها قبل انصرام النهار. وكان الجميع مبتهجين. وكان السؤال الذي يشتعل في الأذهان – كم المبلغ؟ وبحلول الساعة الرابعة وصل. تلقّيتُ مبلغاً يقترب من ثلاثمائة وخمسين دولاراً. وأول إنسان أوليته عنايتي كان ماكغفرن، الخادم العجوز الذي يحرس الباب. (خمسون دولاراً على الحساب)

twitter @baghdad_library

واستعرضتُ القائمة. كان هناك ثمانية أشخاص أو عشرة في استطاعتي أن أوليهم رعايتي على الفور - هم أخوة من العالم الكوني المتعضّي كانوا طيبين معي. أما الباقون فكان ينبغي أن ينتظروا إلى يوم آخر - بمن فيهم الزوجة التي قررت أن أكذب عليها بخصوص العلاوة.

بعد أن تلقيت النقود بعشر دقائق كنت أعدُّ كي أنثر مبلغاً صغيراً في " عش الغراب "، حيث قررت أن أقوم بالخطوة الكبرى. تفحّصتُ القائمة من جديد لأتأكد من أني لم أغفل عن أي من الأشخاص الرئيسيين. كانوا مجموعة مثيرة للفضول، المحسنون إليّ أولئك. كان هناك زابروفسكي، عامل التلغراف المجنون، وكوستيغان، البرجميّة، وهيمي لويشر، العامل على لوحة المفاتيح، وأومارا، صاحبي القديم الذي جعلته مساعدي، وستيف روميرو من المكتب الرئيسي، والصغير كرلي، جاسوسي، وماكسي شناديغ، نصيري الوفيّ، وكرونسكي، الطبيب المقيم، وألريك طبعاً ... أه نعم، وماكغريغور، الذي كنت أسدِّد له بوصفه فقط استثماراً جيداً.

بعد استعراضهم جميعاً اتضح أنني يجيب أن أبدد ثلاثمائة دولار - مائتان وخمسون دولاراً كديون وخمسون ربما لإقامة وليمة. وهذا سيتركني على الحديدة، وهذا وضع طبيعي. ولو يتبقّى معي خمسة دولارات لذهبت إلى صالة الرقص لأقابل مَرَه.

كما كنت أقول، كانت مجموعة متنافرة ألّفتُ بينها، وكانت الوسيلة الوحيدة لجمعها في علاقة صداقة هي المرح. وطبعاً أولاً سدّدت لهم الدين كله. طبعاً كان ذاك أفضلَ طبقٍ مُشهٍّ. ثم تلا ذلك فوراً كؤوس الكوكتيل وبعد ذلك باشرنا بتناول الطعام. كنت قد أمرت بإعداد وجبة مدوّخة مع الكثير من المشروبات المرافقة لها. وكرونسكي، الذي لم يكن

متعوداً على الشرب، ثمل فوراً. واضطر إلى الخروج للتقيّؤ قبل وصول البط المشوي بوقت طويل. وحين عاد وانضمَّ إلينا كان شاحباً كشبح.: كان وجهه ملوّناً بألوان بطن ضفدع المتنوعة، ضفدع ميت وعائم فوق طَفَاوة مستنقع عفن. ورأى ألريك أنه إنسان عجيب - لم يقابل شبيهاً له في حياته كلها. من ناحية أخرى، كان كرونسكي يكره ألريك كره العمى، وسألني بصوت منخفض لماذا دعوت خراءً مهذباً مثل هذا. وماكغريغور كان يمقت كرلي الصغير مقتاً صريحاً - ولم يفهم كيف أصاحب مثل ذاك المحتال الحقير الحقود. وبدا أن أومارا وكوستيغان على علاقة ممتازة؛ كانا مستغرقين في نقاش مطوّل حول المزايا النسبية لجو غانز[٤] وجاك جونسن[٥]. كان هيمي لوبشر يحاول أن يحصل على بقشيش كبير من زابروفسكي، الذي أوضح أنه لا يعطي بقشيشاً بسبب مركزه.

وسط هذا كله تصادف أن دخل صديق لي سويديّ يُدعى لوندبرغ. وكان أحد الذين أدين لهم بمبلغ من المال ولم يضغط عليّ قط لتسديده. فدعوته للانضمام إلينا، ثم انتحيتُ بزابروفسكي جانباً واقترضتُ منه عشرة دولارات لأصفّي حسابي مع الوافد الجديد. وعلمتُ منه أن صديقي الحميم لاري هَنْتْ قد وصلَ إلى المدينة وهو مشتاق لرؤيتي. فألحّيتُ على لوندبرغ " أحضره إلى هنا، فكلما ازداد العدد تسلّينا أكثر ".

بينما المرح في أوجه، بعد أن غنّينا " قابلني هذه الليلة في أرض الأحلام " و" بعض من هذه الأيام "، لاحظتُ وجود شابين إيطاليين على طاولة قريبة منا بَدَوَا تواقين إلى المرح. فتقدّمتُ منهما وسألتهما إن كانا

٤ - جو غانز : ملاكم أميركي . - المترجم .

٥ - جاك جونسن (١٨٧٨- ١٩٤٦) : ملاكم أميركي . بطل العالم في الوزن الثقيل بين ١٩٠٨ - ١٩١٥ . - المترجم .

twitter @baghdad_library

يودّان أن ينضمّا إلينا. وبدا أن أحدهما موسيقي وأن الآخر كان ملاكماً محترفاً. وعرّفت بهما ومن ثم أفسحتُ لهما مكاناً بين كوستيغان وأومارا. وكان لوندبرغ قد خرج ليجري اتصالاً هاتفياً مع لاري هنت.

لا أدري كيف توصّلَ إلى فتح مثل ذاك الموضوع في مثل تلك المناسبة، ولكن لسبب ما دخل في خلد ألريك أن ينفحني خطاباً معقّداً حول أوتشيللو[٦]، وأصاخ الموسيقي الإيطالي سمعه، وأشاح ماكغريغور ببصره بعيداً مبدياً امتعاضه وفتح حديثاً مع كرونسكي حول العنّة، وهو موضوع كان يسرّ هذا الأخير أن يبحث فيه إذا رأى أن في إمكانه إثارة إزعاج مستمعه به. وقد لاحظتُ أن الإيطالي كان متأثراً بطلاقةِ لسانِ ألريك المرتجلة. وكان مستعداً للتضحية بذراعه الأيمن مقابل مقدرته على التكلّم بالإنكليزية بتلك الطريقة. وقد شعر أيضاً بالامتنان لظنّه أننا كنا نتحدث بكل ذاك الحماس عن أحد أبناء جلدته. ولما أدركت أنه أخذ يثمل بسماع اللغة رحتُ أغريه بالكلام قليلاً، وازدادت إثارتي فانطلقتُ في تحليقٍ مسعورٍ أتكلم عن عجائب اللغة الإنكليزية. والتفتَ كلٌّ من كرلي وأومارا لينصتا ومن ثم اقترب زابروفسكي إلى طرفنا من الطاولة وقرّبَ معه كرسياً، وتبعه لندبرغ، الذي أبلغني بسرعة أنه لم يتمكن من الاتصال بهنت. وكان الإيطالي في حالة من الإثارة حتى أنه طلبَ كونياكاً للجميع. ونهضنا واقفين وتبادلنا الأنخاب. وأصرَّ آرتورو، وهذا هو اسمه، على تقديم نخبه - بالإيطالية. ثم جلس وقال بحماس متّقد إنه عاشَ في أميركا مدةَ عشر سنوات ولم يسمع قط اللغة الإنكليزية تُلفَظ بهذا الشكل الرائع. قال إنه لن يتمكن بعد الآن من التضلّع فيها.

٦ – باولو أوتشيللو (١٣٩٧ – ١٤٧٥) : رسام إيطالي . أحد أبرز الفنانين الفلورنسيين في عصر النهضة . – المترجم .

وأراد أن يعرف إن كنا نتكلم هكذا عادة. واستمر هكذا، يكوِّم التقريظ فوق التقريظ، إلى أن أصبنا جميعاً بحب اللغة الإنكليزية ورحنا نتزاحم لإلقاء خطبة. وأخيراً صرت ثملاً بالفكرة إلى درجة أني نهضتُ واقفاً، وبعد أن جرعت مشروباً قوياً دفعة واحدة، باشرتُ بإلقاء خطبة مسعورة استمرت خمس عشرة دقيقة أو أكثر. وظل الإيطالي يؤرجح رأسه من ناحية إلى ناحية، وكأنما ليدلّ إلى أنه لم يعد يحتمل سماع أي كلمة أخرى، وإلى أنه يكاد ينفجر. وثبّتُّ عيني عليه وأخذت أغرقه بالكلام. ولابد أنها كانت خطبة مجنونة وفخمة لأنه بين الحين والآخر كانت تنطلق نوبة من التصفيق من الطاولات المحيطة بنا. وسمعت كرونسكي يغمغم إلى أحدهم قائلاً إني في حالة رائعة من الـ Euphoria (الخفة والنشاط). وهذه الكلمة أثّرت بي بقوة وأطلقتني من جديد. !Euphoria وتوقفت جزءاً من الثانية أثناء ما كان أحدهم يملأ كأسي ومن ثم عدتُ أحلّق، وأنساب بيسرٍ، أقذف كلمات مرحة تندفع في كل اتجاه. لم أكن قد قمت قبل ذلك قط بأية محاولة لإلقاء خطبة. ولو أن أحدهم قاطعني وأخبرني أني ألقي خطبة رائعة لصُعقت. كنت أشمخ ناشراً أشرعتي، في لغةٍ خليقةٍ بملك. الشيء الوحيد الذي كان يشغل تفكيري هو نهمُ الإيطالي لسماع اللغة الإنكليزية العجائبية التي لن يتوصل أبداً إلى التضلُّع فيها. ولم تكن لديّ أدنى فكرة عما كنت أتكلم. فلم أكن مضطراً إلى استخدام تفكيري - كنت ببساطة أغمس لساناً طويلاً كثعبان في قرن الوفرة وبشقلبةٍ موفّقة أعيدُ لفّه.

انتهى الخطاب باحتفاء. واقترب بعض الضيوف من الطاولات الأخرى مني لتهنئتي. وانفجرَ الإيطالي، آرتورو، باكياً. شعرت كأني ألقيت بغير

twitter @baghdad_library

قصدٍ مني، قنبلة. وارتبكت ولكن دون أدنى خوف من هذا العرض الخطابيّ غير المتوقّع. أردت أن أغادر المكان، أن أغادر وحدي وأستشعر ما كان قد حدث. وسرعان ما استأذنتُ بالرحيل، وانتحيتُ بالمدير جانباً، قلت له إني مضطر إلى المغادرة. وبعد تسديد الفاتورة وجدت أنه قد تبقّى معي ثلاثة دولارات. وقررت أن أغادر دون أي كلمة لأي شخص. يمكنهم أن يمكثوا هناك حتى يوم القيامة - أما أنا فكنت قد اكتفيتُ.

يمّمتُ وجهي شطر قلب المدينة. وسرعان ما وصلتُ إلى برودواي. وفي الشارع الرابع والثلاثين أسرعت خطاي. كنت قد أخذت قراري - سوف أتوجه إلى صالة الرقص. وفي الشارع الثاني والأربعين كان عليّ أن أشقّ طريقي بصعوبة خلال الزحام. كانت الحشود تثيرني: ثمة دائماً خطر الالتقاء مصادفة بشخصٍ ما والانحراف عن الهدف الذي أبغيه. وسرعان ما وجدتني أقف أمام المربع الليلي، وأنا ألهث قليلاً وأتساءل إن كان ما أفعله هو أفضل ما يمكن عمله. وفي دار الأوبرا المقابلة، كان اسم توماس برك من كوفنت غاردن أوبرا يتصدّر لائحة المغنين. وعلقَت عبارة " كوفنت غاردن " في ذهني حين استدرتُ لأصعد الدرج. لندن - سيكون رائعاً لو أصحبها إلى لندن. يجب أن أسألها إذا كانت تحب أن تستمع توماس برك يغنّي ...

حين ولجت المكان كانت تراقص رجلاً عجوزاً وسيماً. راقبتها بضع دقائق قبل أن تراني. اقتربت مني وهي تجرُّ شريكها في الرقص من يده، متورّدة الوجنتين. وقالت وهي تقدّمني إلى السيد كاروثرز الأبيض الشعر " أود أن تتعرف إلى صديق حميم لي ". وتبادلنا التحية بمودّة ووقفنا نتسامر بضع دقائق. ثم جاءت فلوري وقشّتْ كاروثرز وابتعدت.

قلت " يبدو لي رجلاً رائعاً. أعتقد أنه أحد معجبيك؟ "

" إنه طيب جداً معي - إنه يعودني حين أمرض. حاذر من أن تثير غيرته. إنه يحبّ أن يتظاهر بأنه عشيقي "

قلت " يتظاهر؟ "

قالت " هيا نرقص، سأحدثك عنه في وقت لاحق "

بينما كنا نرقص تناولت الوردة التي كانت تضعها وثبّتتها في عروة سترتي. قالت، وقد شمّت رائحة سُكري " لابد أنك كنت تستمتع بوقتك هذه الليلة ". فشرحتُ لها قائلاً إنها حفلة عيد ميلاد، وأنا أقودها إلى الشرفة لأتبادل معها بضع كلمات على انفراد.

" أتعتقد أن في وسعك أن تهرب غداً مساءً - ألن تصحبني إلى المسرح؟ "

ضغطت على ذراعي على سبيل دفعي إلى الموافقة. قلت، وأنا أضمها إليّ " هذه الليلة تبدين أجمل من أي وقت مضى "

غمغمت، وهي تسترق النظرات من حولها " انتبه إلى تصرفاتك. يجب ألا نطيل المكوث هنا. لا أستطيع أن أشرح لك الأمر الآن ولكن في الحقيقة إن كاروثرز شديد الغيرة ولا أستطيع أن أغضبه. ها هو قادم الآن... سوف أتركك "

أحجمت عمداً عن الالتفات على الرغم من أني كنت أتحرّقُ رغبة لتفحُّص كاروثرز عن قرب. وملتُ عبر الدرابزين الحديدي الرقيق للشرفة واستغرقت في بحرِ الوجوه المتموجة في الأسفل. حتى من ذاك العلوّ القليل يتّخذ الحشد ذلك المظهر اللاإنساني الذي يتبدّى في الوزن والعدد. ولولا وجود ذلك الشيء المسمّى لغة لما كان هناك ما يميّز هذا

twitter @baghdad_library

الخِضم المائج من الأجساد عن أشكال أخرى من الحياة الحيوانية. حتى هذه، حتى هِبَة الكلام القدسية، بالكاد تشكل فرقاً يُذكر. عمٌ كانوا يتحدثون؟ هل يمكن أن نسمّيه لغة؟ الطيور والكلاب أيضاً لديهم لغة، لعلها تفي بالغرض مثل لغة العامة. إن اللغة لا تبدأ إلا حين يبدأ الاتصال بين البشر بالتعرّض للخطر. إن كل ما يقوله هؤلاء الناس بعضهم إلى بعض، وكل ما يقرؤونه، كل ما ينظّمون حياتهم به لا معنى له. وبين هذه الساعة وألف ساعة أخرى في ألف ماض مختلف لا وجود لتباين جوهري. وفي جذر الحياة الأرضية ومدّها يتخذ هذا الموكب المسار الذي تتّخذه كل المواكب الأخرى السابقة واللاحقة. قبل دقيقة استخدمتُ كلمة " غيور ". إنها كلمة شاذة، خاصة وأنت تنظر إلى أحد السوقة، وحين ترى التزاوج التصادفيّ، حين تدرك أن أولئك المتشابكي الأذرع سوف يفترقون على الأغلب بعد ذلك بقليل. إنني لم أكن آبه بعدد الرجال الذين يعشقونها ما دمت أشكّل أحد أعضاء الحلَقة. وشعرتُ بالرثاء لكاروثرز، رثيتُ له لأنه وقع ضحية الغيرة. ولم أكن قد وقعت قط فريسة الغيرة. لعلي لم أنطوِ دهري على اهتمامٍ كافٍ. والمرأة الوحيدة التي رغبتُ فيها رغبة يائسة تخلّيت عنها بكامل إرادتي. إن امتلاك امرأة، امتلاك أي شيء، هو في الواقع لاشيء: العيش مع شخص هو المهم، أو العيش مع الممتلكات. هل يمكنك أن تظل إلى الأبد في علاقة حب مع أشخاص أو أشياء؟ إن في إمكانها أيضاً أن تسلّم بأن كاروثرز كان يعشقها بجنون - فأي فرق يشكل حبها لي؟ إذا كانت المرأة قادرة على إلهام رجل واحد بالحب فيجب أن تكون قادرة على إلهامه لآخرين. ليس جريمة أن تحب وتحب. الجريمة الحقيقية هي أن تدفع

شخصاً ما إلى الاعتقاد أنه أو أنها الإنسان الوحيد الجدير بحبها.

انتقلتُ إلى الداخل. كانت ترقص مع رجلٍ آخر. وكان كاروثرز واقفاً وحده في إحدى الزوايا. اقتربت منه تحدوني رغبة في نفحه قليل من السلوى وانخرطت في حديث معه. إن كان حقاً يعاني من آلام الغيرة فلا شك في أنها لم تبد عليه. وأعتقد أنه عاملني بشهامة حتى أني تساءلت إن كان حقاً غيوراً أم أنها فقط كانت تحاول دفعي إلى هذا الاعتقاد لتُخفي عني أمراً ما. والمرض الذي أشارت إليه - إن كان حقاً على ذاك الجانب من الخطورة فمن الغريب أنها لم تأتِ على ذكره قبل ذلك. والطريقة التي ألمحتْ بها إليه جعلتني أظن أنه اكتُشف في عهدٍ قريب جداً. لقد اعتنى بها. أين؟ ليس في منزلها حتماً. وثمة أمر صغير آخر خطرَ على بالي: كانت قد كررت على مسمعي وألحّت على ألا أراسلها إلى منزلها. لماذا؟ ربما لأن لا منزل لها. وتلك المرأة التي كانت في الفناء تنشر الغسيل - قالت إنها ليست أمها. فمن كانت إذن؟ حاولت أن تُدخِلَ في خَلَدي أنها كانت إحدى الجارات. كانت حسّاسة حول موضوع أمها. لقد كانت عمّتها هي التي تقرأ رسائلي، وليس أمها. والشاب الذي فتح لي الباب - أكان أخوها؟ هي قالت إنه أخوها، لكنه بلا ريب لا يشبهها. ثم أين كان والدها طوال النهار، بما أنه لم يعد الآن يربّي خيول السباق أو يطلق طائرات الورق من سطح المنزل؟ من الواضح أنها لم تكن تحب أمها كثيراً. بل إنها ذات مرة أطلقت تلميحاً واضحاً إلى أنها ليست واثقة من أنها أمها.

قلت لكاروثرز بعد أن غلبت البرودة على حديثنا الهش " إن مَرَه فتاة غريبة، أليست كذلك؟"

twitter @baghdad_library

أطلق ضحكة قصيرة حادة، ثم أجاب، وكأنما ليريح بالي بشأنها " إنها مجرد طفلة، في الواقع. وطبعاً لا يمكنك أن تصدِّق كلمة واحدة مما تقول "

قلت " نعم، هذا هو الانطباع الذي تركته لديّ "

قال كاروثرز " لا يوجد في ذهنها غير الاستمتاع بوقتها "

عندئذ بالضبط اقتربت مَرَه منا، وأبدى كاروثرز رغبته في الرقص معها، فقالت وهي تمسك بيدي " لكنني وعدته بهذه الرقصة "

" لا، لا بأس، ارقصي معه! وعلى أية حال يجب أن أرحل. آمل أن أراك قريباً "، وانسبتُ خارجا قبل أن تجد فرصة لإبداء الاحتجاج.

في الأمسية التالية وصلت إلى المسرح قبل الوقت، واشتريت بطاقتين لمقعدين في الصف الأمامي. وكان في البرنامج عدة أسماء مفضّلة لدي، من بينهم تريكسي فريكانزا، جو جاكسون، وروي بارنز. لابد أنه كان برنامجاً يضم كل النجوم.

انتظرتُ نصف ساعة بعد الوقت المحدّد ولم يظهر لها أثر. وكنت أتحرَّقُ شوقاً لمشاهدة العرض حتى أني قررت ألا أنتظر أكثر. وفي اللحظة التي كنت أتساءل ماذا أفعل بالبطاقة الزائدة إذا بزنجي وسيم يمرُّ بي يبغي الاقتراب من شباك حجز المقاعد، استوقفته لأسأله إن كان يقبل بطاقتي. وبدت عليه الدهشة حين رفضتُ قبول نقود منه. قال " حسبتُ أنك مُضارب "

بعد انقضاء فترة الاستراحة ظهر توماس برك أمام أضواء مقدّم خشبة المسرح. وقد ترك لدي تأثيراً قوياً، لأسبابٍ لن أعرف كنهها أبداً. ثمة عدد من المصادفات لها صلة باسمه وبالأغنية التي غناها في تلك

الليلة - أغنية " ورود البيكاردي ". دعني أعود بك سبع سنين منذ أن وقفت في الليلة السابقة وأنا متردِّد عند أسفل الدرج المؤدي إلى صالة الرقص ...

كوفنت غاردن. أذهبُ إلى كوفنت غاردن بعد وصولي إلى لندن ببضع ساعات، وأقدّم إلى الفتاة التي أخذتها لأرقص معها وردة ابتعتها من سوق الزهور. وكان في نيّتي أن أتوجه مباشرة إلى أسبانيا، لكن ظروفاً اضطرتني إلى أن أتوجه مباشرة إلى لندن. وقادني وكيل شركة تأمين يهودي من بغداد، من دون كل الأماكن، إلى دار أوبرا كوفنت غاردن، وكانت قد حُوِّلَتْ إلى صالة رقص مؤقتاً. وفي اليوم السابق لمغادرتي لندن قمت بزيارةٍ إلى منجِّم إنكليزي يقطن بالقرب من كريستال بالاس. وكان علينا أن نجتاز ملكيّة شخص آخر لنصل إلى منزله. وبينما نحن نجتاز الأرض المحيطة بمنزله أنبأنا بشكلٍ عابر أن المكان يخصُّ توماس برك، مؤلّف كتاب " ليالي المنزل الجيري ". وفي المرة التالية التي حاولت فيها الذهاب إلى لندن، ولم أنجح، عدت إلى باريس عن طريق بيكاردي وكلما اجتزتُ تلك الأرض المبتسمة أقف وأبكي من شدة الفرح. وفجأة، أتذكّر الإحباطات، والخيبات، فتتحوّل الآمال إلى يأسٍ، وأدرك للمرة الأولى معنى " الترحال ". وهي التي جعلت أول رحلة أمراً ممكناً، واصبح القيام بالثانية لا مفرٌ منه. وقدِّرَ لنا ألا نتقابل أبداً بعدها. وبتُّ حراً بمعنى جديد تماماً - حراً في أن أغدو الرحّالة الأبدي. وإذا كان في الإمكان القول إن هناك شيئاً واحداً مسؤولاً عن الهيام الذي تملّكني واستولى عليّ على مدى سبع سنين طوال فهو أداء توماس برك لتلك الأغنية الرومانسية الصغيرة. في الليلة الفائتة فقط كنت أواسي

twitter @baghdad_library

كاروثرز. والآن، وأنا أصغي إلى الأغنية، أبتلي فجأة بالخوف والغيرة. إنها تحكي عن الوردة الوحيدة التي لا تموت، الوردة التي يكنزها المرء في قلبه. وبينما أنا أصغي إلى الكلمات ينتابني إحساس بأني سأفقدها، سأفقدها لأني أحببتها حباً جماً، من هنا تكوَّنَ لدي الخوف. وكاروثرز، على الرغم من لا مبالاته، قَطَرَ قطْرةً من السُم في عروقي. كاروثرز أحضر لها وروداً؛ وهي أعطتني الوردة التي كان هو قد ثبّتها بدبوس على خصرها. دار المسرح تضجُ بالتصفيق. إنهم يرمون بالورود إلى خشبة المسرح. وهو يتهيّأ لإعادة أداء الأغنية. الأغنية نفسها - " ورود البيكاردي ". إنها العبارة ذاتها التي سيصل إليها الآن، الكلمات التي تطعنني وتتركني متوحداً ويائساً - " ولكن هناك وردة واحدة لا تموت في البيكاردي.. .,إنها الوردة التي أكنزها في قلبي! "، وأعجز عن تحمُّل المزيد، فأندفع إلى الخارج، أندفع عبر الشارع وأوجّه خطاي نحو صالة الرقص.

إنها في الحلبة، تراقص شاباً أسمر البشرة يضمّها إليه بقوة. وحالما تنتهي الرقصة أهرع إليها، وأسألها " أين أنت؟ ما الأمر؟ لماذا لم تأتي؟ "

ترسم علائم الدهشة لأني شديد الانزعاج من أجل أمر تافه كهذا. " ما الذي أعاقها؟ ". أوه، إنه لا شيء على الإطلاق. لقد تأخّرتُ في الخروج، كانت حفلة صاخبة ... ليس مع كاروثرز ... لقد تركها بعد فترة قصيرة من ذهابي. لا، فلوري هي التي أعدّتْ الحفلة. فلوري وهانا - ألا أذكرهما؟ (ألا أذكرهما؟ فلوري الشبقة بالنساء، وهانا السكيرة. كيف يمكن أن أنساهما؟) نعم، لقد شربنا كثيراً وطلب أحدهم منها أن

تقوم بحركة الانفساخ البهلوانية فحاولت ذلك ... والحقيقة أنها تأذّتْ قليلاً. هذا كل شيء. كان يجب أن أخمِّن أن أمراً ما قد وقع لها. إنها ليست من النوع الذي يعطي مواعيد ولا يوافيها - هكذا ببساطة.

سألتها " ومتى أتيت إلى هنا ؟ "، وأنا أقول لنفسي إنها تبدو سليمة معافاة، وهادئة ومتماسكة بشكلٍ غريب، في الحقيقة.

كانت قد وصلت فقط قبل بضع دقائق. ما الفرق؟ كان صديقها جيري، الملاكم السابق والذي يدرس الآن القانون، قد صحبها لتناول طعام العشاء. وكان موجوداً في الحفلة في الليلة السابقة وكان لطيفاً بحيث سمحت له بتوصيلها إلى المنزل. وسوف تقابلني بعد ظهر يوم السبت في " القرية "(*) - في محل باغودا لتقديم الشاي. والسيد تاو، مدير المحل، هو صديق وفيّ لها. وتريد مني أن أقابله. إنه وديع.

قلت إني سوف أنتظرها وسأوصلها إلى المنزل، عن طريق نفق المشاة هذه المرة إذا لم يكن لديها مانع. فناشدتني ألا أزعج نفسي - سوف أعود إلى المنزل في وقت متأخر جداً وما إلى ذلك. فأصررت. ولاحظت أنها لم تفرح كثيراً لذلك. والحقيقة هي أن انزعاجها كان واضحاً. وسرعان ما استأذنت للذهاب إلى غرفة الملابس. وكنت واثقاً من أنها ذاهبة للاتصال بالهاتف. ومرة أخرى تساءلت إن كانت حقاً تعيش في ذلك المكان المدعو المنزل.

عادت مع ابتسامة ودّية، قائلة إن المدير سمح لها بالمغادرة باكراً. وفي إمكاننا أن نغادر على الفور، إذا شئنا. علينا أولاً أن نتناول لقمة في مكان ما. وفي طريقنا إلى المطعم، وخلال فترة تناول الطعام كلها، ظلت مستمرة في كلامٍ متلاحق عن المدير وعن تصرفاته الصغيرة

* - القرية: أو الڤيليج: منطقة الحانات والمرابع الليلية.

twitter @baghdad_library

الكريمة. إنه يوناني ذو قلب رقيق. وما فعله من أجل بعض الفتيات لا يصدَّق. ماذا تعني؟ مثل ماذا؟ حسن، خذ فلوري، مثلاً. حين أجْرَتْ فلوري عملية إجهاض - وكان ذلك قبل أن تقابل صديقها الطبيب. لقد دفع نك تكاليف كل شيء؛ بل إنه أرسلها إلى الريف لتقضي هناك بضعة أسابيع. وهانا، التي اقتلعت أسنانها كلها ... حسن، لقد أهداها نك طقماً جميلاً من الأسنان الصناعية.

سألت بلطف، وما الذي كان يدعو نك إلى إزعاج نفسه.

تابعت كلامها قائلة " لا أحد يعلم أي شيء عن نك. وهو لم يعمد قط إلى التودّد إلى الفتيات. إنه شديد الانهماك في أعماله. إنه يدير مربعاً للقمار في الضاحية، ويضارب في البورصة، ويملك حماماً عمومياً في كوني آيلند، ولديه اهتمام بمطعم كائن في مكان ما ... إنه من الانشغال بحيث لا يفكّر في مثل هذه الأمور "

قلت " يبدو أنك إحدى المفضّلات لديه، تدخلين وتخرجين على هواك"

قالت " إن نك يفضلني على العالم كله، ربما لأني أجذب نوعاً من الرجال يختلف عما تجذبه بقية الفتيات "

سألتها على عجل " ألا ترغبين في أن تقومي بعملٍ آخر لكسب لقمة عيشك؟ أنتِ لم تُخلقي من أجل هذا النوع من الأعمال - وأعتقد أنك لهذا السبب تحققين نجاحاً باهراً. ألا يوجد عمل آخر تفضّلين تولّيه، قولي لي؟ "

دلّت ابتسامتها على مبلغ سذاجة سؤالي. " لا أظنك تعتقد أني أقوم بهذا العمل لأني أحبه؟ إني أقوم به لأني أكسب نقوداً منه أكثر مما

أفعل في أي مكان آخر. إني أتكفَّل بمسؤوليات كثيرة. لا يهمّ ماذا أعمل - يجب أن أكسب مقداراً معيّناً من المال في كل أسبوع. ولكن دعنا من هذا الحديث، إنه مؤلم جداً. أنا أعرف بماذا تفكّر، لكنك على خطأ. الجميع يعاملونني وكأني ملكة. بقية الفتيات غبيات. أنا أستخدم عقلي. وكما تلاحظ إنَّ كل معجبيَّ من العجائز في الغالب ... "

" مثل جيري، تقصدين؟ "

" أوه جيري، إنه صديق قديم. جيري لا يُحسَبْ "

أسقطتُ الموضوع. وجدتُ أنَّ من الأفضل ألا أتعمّق في استجوابي. غير أنه كان هناك أمر واحد أقلقني، وقد خضت فيه بأرقّ أسلوبٍ ممكن. لماذا كانت تهدر الوقت مع عاهرتين مثل فلوري وهانا؟ "

ضحكت. ببساطة، لأنهما أفضل صديقتين لها. إنهما مستعدتان لفعل أي شيء لأجلها، إنهما يعبدانها. وعلى المرء أن يجد مَنْ يمكنه أن يعتمد عليه في وقت الشدّة. إن هانا مستعدة أن ترهن طقم أسنانها إكراماً لها لو تطلب منها ذلك. وبمناسبة الحديث عن الأصدقاء كانت هناك فتاة رائعة تودُّ أن تعرّفها إليّ ذات يوم - نوع مختلف تماماً، أرستقراطي تقريباً. اسمها لولاً. فيها عرق ملوَّن قليلاً، لكنه لا يكاد يُلاحَظ. نعم، إن لولا صديقة عزيزة عليها جداً. وهي متأكدة من أنها ستعجبني.

اقترحتُ على الفور " لِمَ لا نحدِّد موعداً للّقاء؟ يمكننا أن نتقابل في محترف صديقي ألريك. وأريدك أن تتعرّفي أيضاً إليه "

قالت إن ذلك سيكون أمراً رائعاً. بيد أنها لا تستطيع أن تعرف متى سيتم اللقاء، بما أن لولاً دائماً تقوم بجولات. لكنها سوف تحاول أن

twitter @baghdad_library

تستعجل الأمر. إن لولاّ هي عشيقة أحد مصنّعي الأحذية الأثرياء؛ وهي ليست دائماً حرة. ولكن صحبة لولا رائعة - ولديها سيارة سباق. قد نستقلّها ونذهب إلى الريف ونقضي الليل في مكان ما. لولاّ لها أسلوبها الخاص. وفي الواقع هي فقط متعجرفة قليلاً. وذلك بسبب دمها الملوّن. ويجب ألا تفشي أمر معرفتي بهذا. أما بالنسبة إلى صديقي ألريك - ينبغي ألاّ أفوه بكلمة واحدة عن الأمر له.

" لكنه يحب الفتيات الملوّنات. سوف يُجنّ بلولاّ "

قالت مَرَه " لكن لولاّ لا تريد أن تُحب لذاك السبب. سوف ترى - إنها شديدة الشحوب وجذابة جداً. لا أحد يشكّ في أن فيها نقطة دم ملوّن واحدة "

" حسن، آمل ألاّ تكون شديدة الكياسة "

قالت مَرَه على عجل " لا داعي للقلق حول هذا. فهي حالما تنسى نفسها تصبح مرحة جداً. أؤكد لك أنها لن تكون أمسية مملّة "

قطعنا المسافة من محطة النفق إلى منزلها سيراً على الأقدام. وفي الطريق توقفنا تحت إحدى الشجيرات وبدأنا نلتحم بقوة. مددتُ يدي تحت ثوبها وأخذت هي تعبث بفتحة بنطالي. اتكأنا على جذع الشجرة. كان الوقت متأخراً ولا يرى إنسان واحد في الأفق، وكان في إمكاني أن أضاجعها على جانب الطريق مباشرة، عند اللزوم.

كانت قد أخرجت أيري وبدأت تباعد ما بين ساقيها لتتيح لي أن أدكّه في بيته وفجأة وَثَبَتْ علينا من بين الأغصان التي تعلونا قطة سوداء ضخمة، وهي تزعق وكأنما من فرط الإثارة الجنسية. وكدنا نسقط صرعى من شدة الخوف، لكن القطة كانت حتى أشد خوفاً منا لأن

مخالبها انغرزت في معطفي. وفي غمرة فزعي انتفضت كالمجنون مبتعداً فحصلت في المقابل على الخربشة والعض. وكانت مَرَه ترتعش كورقة في مهب الريح. مشينا حتى بلغنا بقعة خالية واستلقينا على العشب , وخشيتْ مَرَه من أن أتلوَّث، فتسلّلت إلى المنزل وعادت مع بعض اليود واللوازم. واستلقيت أنا في انتظار عودتها.

كانت ليلة دافئة وتمددت على طولي أنظر عالياً إلى النجوم. ومرّت امرأة بالقرب مني لكنها لم تلاحظ وجودي. كان أيري متدلياً إلى الخارج وقد بدأ يثار من جديد بفعل النسيم الدافئ. ومع عودة مَرَه كان ينتفض ويقفز. ركعتْ إلى جانبي مع الضمادات واليود. وكان أيري يحدِّق إلى وجهها مباشرة، فمالت عليه والتهمته بنهم. دفعتُ بالأغراض جانباً وجررتها فوقي. وبعد أن أطلقت قذيفتي ظلت هي تصل من ذروة ارتعاش إلى أخرى، حتى حسبتُ أنها لن تكفّ أبداً.

استلقينا على ظهرينا واسترخينا بعض الوقت عرضةً للنسيم الدافئ. وبعد قليل اعتدلت في جلستها وداوتني باليود. ثم أشعلنا سيجارتين وجلسنا نتبادل أطراف الحديث بهدوء. وأخيراً قررنا أن ننطلق. أوصلتها إلى باب منزلها وبينما نحن واقفان هكذا نتعانق تمسّكتْ بي بعنف وراحت تحفّ بي بخفّة ونشاط. قالت " لا يمكنني أن أدعك تذهب الآن "، وبهذا ارتمت عليّ، تقبّلني بولَه وتمدّ يدها إلى فتحة بنطالي بدقة إجرامية. وهذه المرة لم نزعج نفسينا بالبحث عن بقعة خالية من الأرض، وإنما ارتمينا منهارين على الرصيف تحت شجرة ضخمة. ولم يكن الرصيف مريحاً كثيراً – كان عليّ أن أزحف وأنتقل مسافة بضعة أقدام حيث كان يوجد شيء من التربة الطرية. وكانت هناك بالقرب منها بركة ماء موحل

twitter @baghdad_library

صغيرة وكنت أرغب في أن أخرجه ثانية وأن أنتقل مسافة إنش آخر أو نحوه، ولكن عندما حاولت أن أخرجه أصابها مسٌّ. وتوسلت إليّ " إياك أن تخرجه ثانية، إنه يثير جنوني. نكني، نكني! "، وصمدتُ لأجلها فترة طويلة. وكما حدث من قبل، راحت تصل إلى ذروة الارتعاش مرة بعد مرة، وهي تطلق صراخاً طويلاً حاداً وتنخر مثل خنزير مطعون في حنجرته. بدا فمها وكأنه غدا أكبر، وأوسع، وفاسقاً تماماً؛ وكانت عيناها تتقلبان في محجريهما، وكأنها تعاني من نوبة صرع. أخرجته برهة لأبرِّده. غمستْ يدها في البركة الصغيرة المجاورة لها ورشّتْه ببعض رذاذ الماء. وكان شعوراً رائعاً. بعد ذلك ارتكزت على يديها وركبتيها، وتوسلت إليّ كي ألجها من الخلف، فأتيتها من الخلف وأنا على أربع؛ مدّت يدها من تحت وقبضت على أيري وزلقتْه فيها. دخلَ مباشرة حتى الرحم. ندت عنها أنّةٌ قصيرة من مزيج الألم والمتعة. قالت، وهي تلوي طيزها وتديرها. " أدخله مرة ثانية مباشرة ... هيا، لا يهمني إن آلمني "، وبهذا اندفعت إلى الخلف نحوي بميلٍ مسعور. وكان لدي انتصاب هائل هادئ حتى حسبت أني لن أستطيع أن أقذف قط. ثم، بما أني لم أكن قلقاً على فقداني له، كنت قادراً على أن أراقب العمل كمراقب محايد. فكنتُ أسحبه حتى أكاد أخرجه ثم أدير رأسه وأديره حول بتلاته الحريرية الرطبة، ثم غمسته إلى الداخل وأبقيته هناك مثل سدادة. وأحطتُ حوضها بكلتا يديّ، ورحتُ أخرج وأدخل على هواي. وأخذت تتوسل إليّ " اعمل، اعمل، وإلا سأجنّ!"، فألهبني هذا، وبدأت أعمل فيها كمكبس، داخلاً خارجاً على طوله ودون انقطاع، وكانت هي أوه- أه- أوه- أه! ومن ثم بانغو! قذفتُ كحوت.

نفضنا التراب عنّا وعدنا أدراجنا إلى المنزل من جديد. وعند المنعطف توقفت جامدة، ومن ثم استدارت لتواجهني مباشرة، وقالت وهي ترسم ابتسامة تكاد تكون قبيحة - " والآن وصلنا إلى القذارة! "

نظرتُ إليها مذهولاً " ماذا تقصدين؟ عمَّ تتكلمين؟ "

قالت، دون أن تتخلّى عن تلك الابتسامة الغريبة " أقصد أني بحاجة إلى خمسين دولاراً. يجب أن أحصل عليها غداً. يجب، يجب ... والآن هل فهمت لماذا لم أردْ أن ترافقني إلى المنزل؟ "

" ولماذا ترددتِ في طلبها مني؟ ألا تعتقدين أن في وسعي أن أجمع خمسين دولاراً إذا كنت بحاجة ماسّة إليها؟ "

" لكني بحاجة إليها في الحال. هل في إمكانك أن تحصل على مبلغ كهذا بحلول الظهيرة؟ لا تسألني ما حاجتي إليه - الأمر عاجل، عاجل جداً. أتظن أن في إمكانك أن تحصل عليه؟ أتعدني؟ "

أجبتُ، متسائلاً وأنا أتكلم كيف لي بحق الجحيم أن أحصل عليه بهذه السرعة " طبعاً أستطيع".

قالت، وهي تمسك بكلتا يديّ وتشدّ عليهما بحرارة " أنت رائع. أكره أن أطلب منك. أعرفُ أنك لا تملك نقوداً. إني دائماً أطلب نقوداً - ويبدو أن هذا هو كل ما أحسِنُ عمله - أن أجمع نقوداً للآخرين. أكره هذا، ولا حيلة أخرى لي. أنت تثق بي، أليس كذلك؟ سوف أعيدها إليك في غضون أسبوع "

" لا تتكلمي هكذا مَرَه، لا أريد أن أستعيدها. أريدك أن تطلبي مني كلما احتجت. قد أكون فقيراً ولكن في وسعي أن أجمع المال أيضاً بين حين وآخر. وأتمنى لو أستطيع فعل المزيد. أتمنى لو أستطيع أن أخرجك من ذلك المكان الملعون - لا أحبّ أن أراك هناك "

twitter @baghdad_library

" لا تتكلم عن هذا الآن، أرجوك. اذهب إلى البيت وخذ قسطاً من النوم. قابلني غداً في الثانية عشرة والنصف أمام الصيدلية في ساحة تايمس. في المكان الذي تقابلنا فيه من قبل، أتذكر؟ يا إلهي، لم أكن أعرف حينئذ كم ستصبح مهمّاً في حياتي. حسبتك مليونيراً. أنت واثق من أنك لن تخذلني غداً؟ "

" أنا واثق يا مَرَه "

* * *

المال يجب دائماً أن يُجمع بسرعة وأن يُسدَّد على فترات منتظمة متَّفقٌ عليها، إما بالوعود أو نقداً. وأعتقد أن في وسعي أن أجمع مبلغ مليون دولار إذا أعطيتُ وقتاً كافياً، وأنا بهذا لا أعني وقتاً نجميّاً وإنما الوقت الزمني المعتاد للأيام، والشهور، والسنين. أما جمع نقود بسرعة، حتى مقدار أجرة ركوب، فهي أصعب مهمة يمكن إسنادها إليّ. ومنذ أن تركت المدرسة وأنا أستجدي وأقترض دون انقطاع تقريباً. وكثيراً ما قضيت يوماً كاملاً أحاول أن أجمع دائماً؛ وفي أوقات أخرى كانت تُحشَرُ في يدي فواتير ضخمة دون حتى أن أفتح فمي. وأنا لا أعرف الآن ولم أعرف قط منذ أن بدأت أي شيء عن الاقتراض. أعرف أن ثمة أناساً معيّنين يجب ألا تطلب منهم، بأي حال من الأحوال، أي عون. وثمة آخرون أيضاً سوف يمنعون عنك تسعاً وتسعين مرة ويستسلمون في المرة المائة. ولعلهم بعد ذلك لا يمنعون عنك أي شيء. وهناك فئة توفّرها لأوقات الطوارئ الحقيقية، لعلمك أن في مقدورك أن تتّكل عليها، وحين يأتي الطارئ وتلجأ إليها تجد أنك قد خُدِعتَ بقسوة. فليس هناك على الأرض إنسان واحد يمكنك أن تعتمد عليه بشكل مطلق. ولكي تحصل

على لمسة كرم سريعة فإن الإنسان الذي لم تقابله إلا مؤخراً، الذي بالكاد تعرفه، هو في المعتاد الذي يُعتَبَر رهاناً مأموناً. الأصدقاء القدامى هم الأسوأ: إنهم قساة القلوب ولا خير يرجى منهم. النساء، أيضاً، خذها قاعدة، هنَّ في العادة قساة القلوب ولا مباليات. وبين الحين والآخر تظن أنك، إذا ثابرت، فسوف تقابل مصادفة شخصاً تعرفه، لكن فكرة التطفُّل والحثّ بغيضة جداً بحيث أنك تطرحه من تفكيرك. العجائز هم في الغالب على هذه الشاكلة، ربما بسبب التجربة المُرَّة.

لكي تنجح في الاقتراض عليك أن تكون ممسوساً بالموضوع، كما في أي شيء آخر. فإذا استطعت أن تسخِّر كل طاقاتك له، كما في أداء تمارين اليوغا، إن صحّ التعبير، من كل قلبك، دون حساسية مفرطة وتحفّظات من أي نوع، يمكنك أن تعيش حياتك كلها بدون أن تكسب قرشاً واحداً شريفاً. وطبعاً سيكون الثمن فادحاً جداً. وعند الضرورة يكون أفضل شيء هو اليأس. وأفضل السُبُل هو أغربها. ومن الأسهل، مثلاً، أن تقترض من شخصٍ أقلّ منك قدراً. ومن الضروري جداً أيضاً أن تكون راغباً في تعريض نفسك للشبهة، وألا تتحدّث عن الحطّ من قدرك، وهذا أمر Sine qua non (لابد منه). والرجل الذي يقترض يُعتَبَر دائماً متّهماً، دائماً يُعتَبَر لصاً ضمناً. لا أحد يستعيد ما أقرَضَهُ، حتى وإن دُفِعَ المبلغ مع فائدة. ومَنْ ينتزع حقه فهو دائماً يستعيده أقلّ، حتى وإنْ ليس بأكثر من ضغينة أو حقد. إن الاقتراض شيء إيجابي، والإقراض سلبي. وربما ليس من المريح أن يكون المرء مقترضاً، إلا أنه أيضاً شيء مبهج، منورٌ، نابض بالحياة. إن المقترض يأسى المُقرِض، على الرغم من أن عليه غالباً أن يصبر على إهانته وأذاه.

twitter @baghdad_library

في الأساس، المقترض والمُقرِض هما شخص واحد. ولهذا لا يمكن لأي قدر من التفلسف أن يستأصل الشر. لقد خلق كل منهما لأجل الآخر. ومهما كانت الحاجة ملحّة، والشروط مجنونة، سيبقى هناك دائماً إنسان مستعد لأن يُصغي، لأن يدفع المبلغ المطلوب. والمقترض الجيد يقوم بعمله كالمجرم الجيد. مبدأه الأول هو ألا يتوقع أبداً أن ينال أي شيء بدون مقابل. إنه لا يريد أن يعرف كيف يحصل على المال بأقل الشروط بل على العكس تماماً. فعندما يلتقي الرجال المتوافقون يدور بينهم فقط أقل الكلام. إنهم يتبادلون الأحاديث بالمعنى الظاهري، كما يقولون. والمُقرض المثالي هو الإنسان الواقعي الذي يعرف أن الوضع غداً قد ينعكس ويصبح المقترض مُقرِضاً.

كان هناك شخص واحد فقط أعرفه يرى الأمر بصورته الصحيحة وذاك الرجل كان والدي. لقد كان الشخص الذي كنت دائماً أدّخره للّحظة الحرجة. وكان الوحيد الذي لم أخفق في أن أسدِّد له دينه. وهو ليس فقط لم يكن قط يردّني خائباً بل وكان يلهمني بأن أهبَ الآخرين بالطريقة نفسها. كنت كلما اقترضت منه أصبح مُقرِضاً بشكل أفضل - أو، يجب أن أقول واهباً، لأني لم أكن ألحّ على أن يسدِّد لي. وليس هناك إلا طريقة واحدة لردّ اللفتات الطيبة وهي معاملة مَنْ يأتون إليك حزانى معاملة طيبة. إن تسديد الدين غير ضروري على الإطلاق، ما دام الأمر يتعلّق بمسك الدفاتر الكونيّ (أشكال مسك الدفاتر الأخرى كلها متلافة وتنطوي على مفارقة تاريخية). قال صاحبنا الطيب شيكسبير " لا تكن مقترضاً ولا مُقرِضاً " معبِّراً عن أمنية إنجاز من عالم مدينته الفاضلة الحالم. وبالنسبة إلى الواقفين على الأرض ليس الاقتراض والإقراض

فقط أمرين أساسيين وإنما يجب أن يتضخّمان إلى أبعاد غير عادية. والإنسان العملي حقاً هو الأحمق الذي لا ينظر إلى اليسار ولا إلى اليمين، الذي يعطي بلا نقاش ويطلب بلا حياء.

باختصار، ذهبتُ إلى والدي وبدون كثير تردُّد طلبت منه مبلغ خمسين دولاراً. ودُهِشتُ إذ اكتشفتُ أنه لا يملك ذلك القدر في المصرف لكنه أبلغني على عجل بأن في إمكانه أن يقترض المبلغ من أحد الخياطين الآخرين. سألته أن يتلطّف ويفعل ذلك إكراماً لي فقال حتماً، طبعاً، انتظر دقيقة.

قلت وأنا أهمُّ بوداعه " سأسدِّد لك في غضون أسبوع أو نحوه "

أجاب " لا عليك من هذا. ادفع متى شئت. آمل أن تسير الأمور الأخرى كلها معك على ما يرام "

* * *

عند تمام الساعة الثانية عشرة والنصف سلّمتُ النقود إلى مَرَه. وعلى الفور انطلقتْ راكضة، بعد أن وَعَدَتْ بأن تقابلني في اليوم التالي في حديقة باغودا تي روم. أعجبتني فكرة أن أقوم بعملٍ صغير من أجل نفسي وهكذا هرعتُ خبباً إلى مكتب كوستيغان لأطلب مبلغاً صغيراً . لم يكن موجوداً، لكن أحد الموظفين الذي خمّن طبيعة مهمتي، تبرَّعَ بمساعدتي. قال إنه يريد أن يشكرني لما فعلته لأجل قريبه. قريب؟ لم أتذكّر مَنْ علّه يكون قريبه. قال " ألا تذكر الفتى الذي صحبته إلى المصحّ النفسي؟ كان فتى هارباً من كنتكي - والده كان خياطاً، أتذكُر؟ وقد أبرقت إلى والده تقول إنك ستعتني بالفتى إلى أن يصل. ذاك كان قريبي "

twitter @baghdad_library

تذكّرتُ ذاك الفتى جيداً. كان يريد أن يصبح ممثلاً - كانت غدده معطّلة عن العمل. وفي المصحّ قالوا إنه مجرم ابتدائي. كان قد سرقَ بعض الملابس التي تخصُّ زميلاً أثناء وجودهما في دار نيوز بويز. كان فتى رائعاً، أقرب إلى الشاعر منه إلى ممثل. وإذا كانت غدده معطّلة عن العمل فغددي كانت غير منتظمة في عملها. وقد سدّد للمحلّل النفسي رفسة على خصيته ليؤلمه - ولهذا حاولوا أن يُثبِتوا أنه مجرم. وحين سمعت عن الأمر ضحكت حتى كاد رأسي ينفجر. يبدو أنه استخدم هراوة في ضرب ذلك المُحلل النفسي الساديّ ... على أي حال، كانت مفاجأة سارة حين اكتشفت أن لي صديقاً في خادم غرفة الملابس. وأسعدني، أيضاً، حين سمعته يقول إن في استطاعتي أن أحصل على المزيد كلما احتجتُ إلى مبلغ صغير. في الشارع قابلت مصادفة خادم غرفة ملابس سابق يعمل الآن ساعياً. أصرَّ على أن ينفحني بطاقتيّ حضور حفلة ستُقام تحت رعاية اتحاد السَحَرَة والمشعوذين في مدينة نيويورك، كان هو رئيسه. قال " ليتك تستطيع أن تدبِّر لي عملَ خادم غرفة ملابس من جديد. إن لديَّ الآن الكثير مما يتطلَّب الانكباب على إنجازه بما أني أصبحتُ رئيس الاتحاد بحيث لم أعد أستطيع أن أفي عمل الساعي حقّه. ثم إن زوجتي ستلد طفلاً جديداً قريباً. لِمَ لا تزورنا - لدي خدع جديدة سأريك إياها. الصبي الصغير يتعلّم ليصبح المتكلِّم من بطنه؛ وسوف أخصّص له نمرة على خشبة المسرح في غضون سنة أو نحوها. يجب أن نتدبّر لقمة عيشنا بطريقة ما. كما تعلم، مهنة السحر لا تدرُّ دخلاً كبيراً. وأنا أتقدّم في السن ولم أعد أقوى على العمل المرهق. لقد خُلِقتُ للحياة المهنية. أنت تتفهَّم قدراتي وخصوصياتي

الشخصية. إذا جئت إلى الحفلة سأقدِّمكَ إلى ثورستن العظيم - لقد وعد بأن يحضر. يجب أن أذهب الآن - معي رسالة إبلاغ عن وفاة ويجب أن أسلّمها "

أنت تتفهّم قدراتي وخصوصياتي الشخصية. توقّفتُ عند الناصية ودوّنتُ هذه الجملة على ظهر مغلّف. حدث ذلك قبل سبع عشرة سنة. ها هي. كان اسمه فوخز. غرهارد فوخز من مكتب F.U . هو نفسه الاسم الذي يحمله قاطف ثمار في هنسكي في غليندايل حيث كان يقيم جوي وتوني[٧]. وكنت أقابل الشخص الآخر من آل فوخز وهو يجتاز أرض المقبرة، حاملاً على كتفه كيساً من روث الكلاب، والطيور والقطط. كان يجلبه إلى أحد مصانع العطور في المنطقة. وكان دائماً يفوح برائحة نتنة. كان أخرق قذراً وشريراً، أحد أفراد قبيلة أصيلة من الهسّ[٨] المتهوّرين. فوخز وكونتز - اثنان فاسقان كانا يُشاهَدان في كل ليلة في حديقة لوبشر يشربان البيرة بالقرب من فريش بوند رود. كان كونتز مصاباً بالسلّ، ويعمل اختصاصياً في أمراض الجلد. كانا يتبادلان الحديث بلغةٍ مبهمة وهما يشربان البيرة من وعاءين كريهيّ الرائحة. وكان حي ريدجوود[٩] هو محجّهم. ولم يكونا يتكلّمان الإنكليزية إلا إذا اضطرا إلى ذلك. لقد كانت ألمانيا هي إلههم والقيصر هو المتحدّث باسمها. حسن، أتمنى لهما حظاً تعيساً! فليموتا كألمانيين قذرين - إذا لم يكونا قد ماتا فعلاً! ومع ذلك، غريب أن يعثر الإنسان على توأم لا ينفصلان يحملان مثل تينك الاسمين. يجب أن أقول إنهما يمثلان ظاهرة فريدة...

---

٧ - جوي وتوني : صديقا ميللر من أيام الطفولة . - المترجم .

٨ - الهسّ : ولاية في ألمانيا . - المترجم .

٩ - حيّ ريدجوود : موجود في منطقة بر وكلن . يضم خليطاً من الألمان والأميركيين . - المترجم .

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث

نحن الآن بعد ظهيرة يوم سبت، الشمس مشرقة وساطعة وحادة، وأنا أرشف من الشاي الصيني الخفيف في حديقة الطاو الخاص بالدكتور ووتشي هاتشي. أعطاني للتو قصيدة طويلة عن الأم كُتِبَتْ على ورق لفّ المفرقعات النارية. يبدو أشبه بنمط متفوّق من الرجال - وليس من النوع الذي يسهل التواصل معه. أودّ أن أسأله شيئاً عن الطاو[10] الأصلي ولكن تصادف أني في ذلك الوقت، أقصد من الماضي، لم أكن قد قرأت " الطاو ته تشينغ[11] ". ولو أني كنت قد قرأته لما احتجتُ إلى أن أطرح عليه أي سؤال - ولما كنت جالساً في حديقته أنتظرُ المرأة التي اسمها مَرَه. ولو أني كنت أتّصف بما يكفي من الذكاء بحيث أقرأ تلك القطعة الموجزة من الحكمة العريقة لوفّرتُ على نفسي الكثير جداً من الكرب الذي حلَّ بي وأهمُّ الآن بالتحدُّث عنه.

بينما أنا جالس في الحديقة، في عام ١٧ ق.م، تتوارد إلى ذهني أفكار مختلفة كلّياً. ولكي ألتزم جانب الصدق التام، أقول إنني لم أعد أذكر أي فكرة منها في اللحظة الراهنة. أتذكّر بإبهام أني لم أحب

١٠ - فلسفة الطاو : فلسفة صينية ، وتعني الطريق القويم ، وتقول بالمبدأ الأول الذي ينبثق منه كل وجود وتغيّر في هذا الكون . أسسها الفيلسوف الصيني لاو- تزو (٦٠٤ ؟ - ٥٣١ ق . م) - المترجم .

١١ - " طاو ته تشينغ " : المؤلَّف الذي وضعه الفيلسوف لاو- تزو ويشرح فيه فلسفة الطاوية . - المترجم .

القصيدة التي تحكي عن الأم - لقد فوجئت بأنها محض هراء. والأدهى من ذلك أني لم أحب الصينيّ التافه الذي ألّفها - أذكرُ هذا بجلاء تام. أعلم أيضاً أن حنقي يتفاقم لأنه بدا أني سأنتظر طويلاً. (لو أني تشرّبتُ شيئاً من الطاو لما فقدت أعصابي. لكنتُ جلستُ في مكاني قانعاً كبقرة، ممتنّاً لأن الشمس مشرقة ولأني على قيد الحياة). اليوم وأنا أكتب هذا لا الشمس هنا ولا مَرَه، وعلى الرغم من أني لم أصبح بعد بقرة قانعة، أشعر أني حيّ بكل معنى الكلمة ومنسجم مع العالم.

أسمعُ جرس الهاتف يرنُّ في الداخل. ثمة صينيّ تافه صفيق، لعلّه أستاذ فلسفة، يخبرني بلغة شبيهة بقرقعة عيدان الأكل أن هناك سيدة تودُّ أن تتحدث إليّ عبر الهاتف. إنها مَرَه، وإذا صدَّقتُها فهي قد استيقظت من النوم لتوها. تقول لي إنها تعاني من آثار سُكْر الليلة السابقة. وكذا حال فلوري. الاثنتان تقاومان حالتهما بالنوم في فندق قريب. أي فندق؟ لا تريد أن تقول. فقط انتظر نصف ساعة ريثما تلبس وتتبرّج. لا أرغب في الانتظار مدة نصف ساعة أخرى. إن مزاجي عَكِر. أولاً السُكر ومن ثم الآثار المتخلّفة عنه. ثم مَنْ ينام معها أيضاً في السرير، أريد أن أعرف. لا يمكن أن يكون رجلاً يبدأ اسمه بحرف ك، صح؟ إن هذا لا يعجبها. وهي لا تسمح لأي إنسان أن يكلّمها بهذا الأسلوب. حسن، أنا أتكلم بهذا الأسلوب، أتسمعين؟ قولي لي أين أنتِ وسأكون عندك في الحال. إذا كنت لا تريدين أن تخبريني إذن اذهبي إلى الجحيم. لقد سئمت من ... ألو، ألو، مَرَه!

لا جواب. يبدو أن كلامي أصابها في الصميم. إنها فلوري، تلك العاهرة الحقيرة هي المسؤولة عن الأمر. فلوري وغطاء يديها المبطّن

twitter @baghdad_library

بالفرو ويسبِّب الحكّ. ماذا تقول حين يكون ما تسمعه عن فتاة كله هو أنها لا تستطيع أن تجد أيراً ضخماً بما يكفي ليناسبها؟ وحين تنظر إليها ترى أن نكاحاً جيداً يكفي لأن يهلكها. وزنها ١٠٣ باوند مع جورب في قدميها. مائة وثلاثة باوندات من اللحم الشَرِه. وفنانة سكِّيرة حتى أخمص قدميها. وعاهرة أيرلندية. بل عاهرة حقيرة جداً، إذا أردت رأيي. تتكلم بلهجة مسرحية وكأنها تتظاهر بأنها كانت ذات يوم إحدى بنات زيغفيلد فوليز[١٢].

مضى أسبوع ولم أسمع كلمة من مَرَه. ثم، وبدون سابق إنذار اتصلت هاتفياً. بدت مكتئبة. هل لي أن أقابلها على العشاء في مكانٍ ما، تريد أن تحدّثني في أمر ما هام جداً. كان في صوتها جاذبية لم أعهدها من قبل.

في " القرية "، وبينما أنا في عجلة من أمري لألحق بموعدي، مَنْ سأصادف غير كرونسكي. أحاول أن أتخلّص منه ولكن بلا طائل.

يسألني وهو يرسم تلك الابتسامة الرقيقة، الساخرة، التي يستدعيها في اللحظة غير المناسبة " ما الداعي إلى العجلة؟ "

أشرح له أن لدي موعداً.

" وهل ستتناول العشاء؟ "

أقول بوضوح " نعم، سأتناول الطعام، ولكن وحدي "

" أوه كلا، هذا غير صحيح، مستر ميللر. أنت بحاجة إلى رفيق، أتبيَّن هذا بوضوح. لست في حالة معنوية جيدة اليوم ... تبدو قلقاً. آمل ألا يكون الأمر يتعلّق بامرأة؟ "

---

١٢ – فلورنز زيغفيلد (١٨٦٩ – ١٩٣٢) : منتج مسرحي أميركي . كان معروفاً باسم زيغفيلد فوليز . – المترجم .

" اسمع يا كرونسكي، لدي موعد مع شخص ما ولا أريدك أن تكون موجوداً "

" كيف تسمح لنفسك، مستر ميللر، أن تتحدّث بهذه اللهجة مع صديق حميم؟ أنا أصرُّ على مصاحبتك. سوف أدفع ثمن الوجبة - لا أظنك سترفض هذا، ماذا؟ "

ضحكتُ رغماً عني. " حسن، اللعنة، اتبعني إذن. قد أحتاج إلى مساعدتك. أنت لا تُحسن معاملتي إلا في وقت الحاجة. اسمع، إياك والتهريج. سوف أقدِّمك إلى المرأة التي أحب. قد لا تحب كتبك، لكني مع ذلك أريد أن أعرِّفك بها. سأتزوجها ذات يوم. ولكن بما أنه يبدو أنني لا أستطيع أن أتخلّص منك، فقد تتعوَّد على تحمُّلك الآن ولاحقاً. لدي حدس بأنها لن تعجبك "

" كلامك يبدو جدّياً جداً، مستر ميللر. يجب أن أتخذ خطوات لحمايتك "

أجبت، وأنا أضحك بهمجيّة " إذا بدأت بالتطفُّل سأضربك على رأسك. عندما يتعلّق الأمر بهذه المرأة فأنا غاية في الجدّية. أعتقد أنك لم ترني في مثل هذه الجدّية من قبل، أليس كذلك؟ ولا أراك تصدّقني، صح؟ حسن، فقط راقبني. سأقول لك إلى أي درجة أنا جادّ ... إذا ما قاطعتني فسوف أقتلك بدمٍ بارد "

دُهِشتُ إذ وجدتُ أن مَرَه قد سبقتني إلى المطعم. كانت قد انتقت مائدة منعزلة في ركنٍ معتم. قلت " مَرَه، هذا صديقي القديم، الدكتور كرونسكي. لقد أصرّ على مصاحبتي. أتمنى ألا يكون لديك مانع ". وكم كان مبلغ دهشتي حين رحّبت به بكل ودّ. أما كرونسكي، فحالما وقعت

twitter @baghdad_library

عـيناه عليـها تخلّى عن نظرته الشذراء وعن مزاجه. وكـان صـمتـه مؤثّراً أكثر. ففي الحالة العادية، عندما أقدّمه إلى امرأة، يصبح مهذاراً ويصدر ضجيجاً أشبه بالرفيف بأجنحته الخفيّة.

مَـرَه أيضـاً كـانت هادئة هدوءاً غـيـر مـألوف؛ بدا صـوتهـا مـهـدهداً ومنوّماً.

مـا كـدنا نطلب الطعـام ونتـبـادل بضع كلمـات مـهـذّبة حـتـى قـال كرونسـكي، وهو يرمق مَرَه بنظرة ثابتـة ومستغـيثـة: " لقد حدث أمر، بل يبـدو لي أمـراً مـأساوياً. إذا كنتِ تريدين مـني أن أغـادر فـسـأغـادر في الحـال. والحق أقـول، أفـضّل أن أبـقى. لعلـني أكـون ذا عـون. أنا صـديق لهذا الرجل وأرغب في أن أكون صديقاً لك. أقولها بصدق "

كـان كلامـاً مؤثّراً. وكـان واضـحـاً أن مَرَه قـد تأثّرت، وأجـابت بودٍ غامر.

قـالت، وهي تمدُّ يدها عـبـر المائدة دلالـة على الثـقـة والتـصـديق " ابق في كل الأحـوال. إنك بحـضـورك تسهّـل عليَّ الكلام. لقد سـمـعت الكـثـيـر عنك، ولكن أعـتقد أن صـديقك لا ينصفك "، ورفـعت بصرها إليَّ مؤنِّبة، ثم ابتسمت بودّ.

قلت على عـجل " كلا، صـحيح أني لم أعطك صـورة صـادقـة له "، ثم التـفتُّ إليـه " أتعلم يا كرونسـكي، أنت تتّصف بشـخـصيـة كـريهـة جداً ومع ذلك ... "

قال، وهو يرسم تكشيراً ساخراً " هيا، هيا، لا تبدأ معي هذا الأسلوب الدوسـتـويفـسـكيّ. كـنت تنوي أن تقـول أني أمـثّل عـبـقـريتـك الشـريرة. نعم، أعـتـرف بأن لي تـأثيراً شـيطانيـاً غـريب الأطوار عليك، لكـني لست مـشـوّشـاً

بشأنك كتشوّشك أنت بشأني. أنا بكل صدق أحبك. وسأنفِّذ كل ما تطلبه مني إذا رأيت أنك جادّ في طلبك - حتى وإن سبّب الأذى لإنسان عزيز على قلبي. إنني أضع مقامك فوق كل من أعرف، أما لماذا فهذا ما لا أعلمه، فأنت لا تستحق ذلك. أما الآن وحالاً فسأعترف بأني حزين. أرى أنكما متحابان وأعتقد أن كلاً منكما خُلِقَ للآخر، ولكن ..."

" لكنك تظن أنها ليست متحمّسة كثيراً للفكرة، أليس كذلك؟ "

قال، بجدّية مخيفة " لا أستطيع أن أؤكّد الآن. إن كل ما أراه هو أنكما متكافئان "

قالت مَرَه بتواضع جمّ " أحقاً تعتقد أني جديرة به؟ "

نظرتُ إليها مذهولاً. لم أكن لأصدِّق أبداً أنها يمكن أن تقول مثل ذلك الكلام لشخص.

كلماتها ألهبت كرونسكي. قال هازئاً " تقولين جديرة بهذا؟ إن السؤال يجب أن يكون: هل هو جدير بك أنت؟ هل قام بأي عمل يجعل أي امرأة تشعر بأنها جديرة به؟ إنه حتى لم يباشر أي عمل - إنه في سبات. لو كنتُ مكانك لما وضعتُ ذرة من إيماني به. إنه حتى ليس صديقاً مخلصاً، فما بالك أن يكون عاشقاً أو زوجاً. مسكينة يا مَرَه، لا تزعجي رأسك بمثل هذه الأشياء. ادفعيه إلى أن يفعل شيئاً، انخسيه، جرِّيه إلى حافة الجنون إن كان لابد من ذلك ولكن اجعليه يشرِّع أبوابه! وإذا كان لابد من أن أقدم لك نصيحة صادقة، بما أني أعرفه وأحبه، لقلت ما يلي: مزِّقيه، عاقبيه، انخسيه إلى أقصى حد! فإذا لم تفعلي تضيعين - سوف يلتهمك. ولا أعني بهذا أنه إنسان سيئ، وليس لأنه يتعمّد الإيذاء ... أوه، كلا! إنه يفعل ذلك من باب اللطف. إنه حتى

twitter @baghdad_library

يجعلك تصدّقين أنه يحوز على اهتمامك الذي يكمن في قلبك حين يُدلّي صنارته إلى داخلك. إن في استطاعته أن يمزقك إرباً بابتسامته ويقول لك إنه يفعل ذلك لصالحك. هو الشيطاني، لا أنا. أنا أدّعي، أما هو فيعني كل ما يفعل. إنه أقسى ابن حرام مشى على قدمين - والغريب في الأمر أنك تحبينه لأنه قاسٍ، أو لأنه صادق في قسوته. إنه ينذركِ مسبقاً حين ينوي أن يسدِّد ضربته. يخبرك عنها وهو يبتسم. وبعد أن يضرب ضربته يُنهضك ويدفعك إلى الأمام برقّة، ويسألك إن كان قد آلمك كثيراً وما إلى ذلك - وكأنه ملاك. ابن الحرام! "

قالت مَرَه بهدوء " طبعاً أنا لا أعرفه كما تعرفه أنت، ولكن ينبغي أن أعترف بأنه لم يكشف لي قط هذا الجانب من طبيعته - حتى الآن، على أي حال. كل ما أعرفه عنه أنه رقيق وطيّب. وآمل أن يبقى هكذا دائماً معي. إنني لست فقط أحبه، وإنما أؤمن به كشخص. وأنا على استعداد للتضحية بكل شيء لكي أسعده ... "

قال كرونسكي، وكأنه يتجاهل كلماتها " ولكن هل أنت سعيدة كثيراً الآن؟ قولي لي، ماذا فعل ليجعلك - "

قالت بشجاعة وحيوية " لم يفعل أي شيء. إنه لا يعرف ما أشكو منه"

قال كرونسكي، مبدِّلاً نبرة صوته ومرقّقاً عينيه بحيث بات أشبه بجرو ودود، يثير الشفقة " حسن، ألا تخبرينني أنا ؟ "

قلت " لا تضغط عليها، سوف تخبرنا في الوقت المناسب "، وكنت أثناء الكلام أنظر إلى كرونسكي. وفجأة يتغيَّر تعبير وجهه، ويشيح بوجهه. أنظر إلى مَرَه فأرى دموعاً تترقرق في عينيها؛ ثم بدأت تنهمر

بغزارة. وسرعان ما استأذنت وذهبت إلى المغسل. نظر كرونسكي إليّ وهو يبتسم لي ابتسامة لا روح فيها. نظرة سمكة بطلينوس مريضة وتحتضر تحت ضوء القمر.

قلت " لا تتعامل مع الأمر بمأساوية. إنها من النوع الشجاع، وسوف تنجو"

" هذا ما تقوله أنت! أنت لا تعاني. أنت تنفعل عاطفياً وتسمّي ذلك معاناة. إن تلك الفتاة في أزمة، ألا ترى؟ وتريد منك أن تفعل شيئاً لأجلها - لا أن تكتفي بالانتظار ريثما تمرُّ الأزمة. فإذا لم تدعمها أنت سأفعل أنا. هذه المرة لديك امرأة حقيقية. والمرأة الحقيقية، يا مستر ميللر، تتوقع شيئاً من الرجل - وليس فقط كلمات وإيماءات. إذا أرادت منك أن تهرب معها، أن تترك زوجتك، وطفلتك وعملك، أنا أقول افعل. أنصت إليها وليس إلى حاجاتك الملحّة الأنانية! ". وعاد يسترخي على مقعده وأخذ يخلّل أسنانه. بعد برهة صمت، قال - " أتقول إنك قابلتها في صالة للرقص؟ في الواقع، يجب أن أهنئك على سلامة حسّك في تمييز القطعة الأصلية: إن تلك الفتاة يمكن أن تجعل منك شخصاً هاماً، إذا ما منحتها الفرصة. أقصد، إذا لم يكن الأوان قد فات. يجب أن تعلم أن أوانك قد شارف على الانتهاء. يكفي أن تمرَّ عليك سنة أخرى مع زوجتك تلك وينتهي أمرك ". بصق على الأرض باشمئزاز. " أنت محظوظ ؛ تحصل على الأشياء بدون أن تبذل أي مجهود في سبيل ذلك. إنني أعمل كابن حرام وما أن أدير ظهري حتى ينهار كل شيء "

قلت مازحاً " ذلك لأني غوي[١٣] "

---

١٣ - غوي : بلغة اليديش ، لقب مَن ليس يهودياً . - المترجم .

twitter @baghdad_library

" أنت لست غوياً. أنت يهودي أسود؛ أحد أولئك الجنتلمانات الرائعين الذين يسعى كل يهودي لأن يرقى إليهم. أنت ... أوه، أحسنت بذكر هذه النقطة. مَرَه يهودية طبعاً، أليس كذلك؟ هيا الآن، لا تتظاهر بأنك لا تعرف. ألم تخبرك بهذا بعد؟ "

كانت فكرة أن مَرَه يهودية من رابع المستحيلات حتى أني ببساطة ضحكت في وجهه مباشرة.

" أتريد مني أن أبرهن لك على هذا؟ "

قلت " لا يهمني ماذا تكون، لكني متأكد من أنها ليست يهودية "

" ماذا تكون إذن؟ لا أظنك تسميها آرية صافية؟ "

أجبته " أنا لم أسألها قط. اسألها أنت إن شئت "

قال كرونسكي " لن أسألها، لأنها قد تكذب عليّ أمامك - ولكن سأخبرك إن كنت محقاً أم مخطئاً عندما نتقابل في المرة التالية. أعتقد أني أعرف اليهودي حين أراه "

" لقد اعتقدت أني يهودي حين رأيتني أول مرة "

على هذا ضحك بلا تحفّظ. " إذن فأنت حقاً صدّقت ذلك؟ الله، شيء جميل. أيها الأحمق الطيب، لقد قلت لك هذا فقط لأمدحك. لو أن فيك قطرة دم واحدة يهودية لقتلتك فوراً، احتراماً لقومي. أنت يهودي؟... الله، الله ... "

وأخذ يدير رأسه من جانب إلى جانب والدموع تنهمر من عينيه وعاد يقول " أولاً اليهودي إنسان ذكي، وأنت، أنت حتماً لست كذلك. واليهودي صادق - اعلم هذا! فهل أنت صادق؟ هل فيك مقدار ذرة من الصدق؟ واليهودي لديه إحساس. اليهودي دائماً متواضع، حتى وهو متكبِّر ... ها قد عادت مَرَه الآن. أغلق الموضوع "

قـالت مَـرَه، وهي تجلس " أنتـمـا تتـحـدثان عني، صح؟ لماذا لا تواصلان الحديث. لا مانع عندي "

قال كرونسكي " أنت مخطئة. لم نكن نتحدث عنك قط ... "

قـاطعتـه " إنـه كـاذب، كنا نتـحدث عنك. كـل مـا فـي الأمـر أننا لم نصل في الحديث بعيـداً. أتمنى منك يا مَـرَه أن تحكي له عـن عـائلتك – أقصد، عن الأمور التي حكيتها لي "

اكفهرّ وجـهـهـا. قـالت مع مظهـر من التـوتر فـشلت في إخـفـائه " لِمَ اهتمامك بعائلتي؟ ليس في عائلتي ما يثير الاهتمام "

قال كرونسكي بصراحة " لا أصدق هذا. أعتـقد أنك تخفين أمراً ". النظرة التـي تبادلاها أربكتني. وكـأنهـا أعطتـه إشـارة كي يتـابع بـحذر. لقد فـهم كل منهمـا الآخر على نحوٍ سرّي، بطريقة أقصتـني. وعادت إلى مخيلتـي صورة حيـوية لامرأة في فنـاء منزلها الخلفي. تلك المرأة لم تكن جارة، كـمـا حـاولت أن تلمِّح. لعلها زوجة أبـيـهـا؟ حـاولتُ أن أتذكّـر مـا أخبرتني به عن أمها الحقيقية ولكني سرعان ما ضللت طريقي في المتاهة المعقّدة التي نسجتهـا حول هذا الموضوع المؤلم بشكلٍ واضح. التـفتت إليّ وقالت " ماذا تريد أن تعرف عن عائلتي؟"

قلت " لا أريد أن أطلب منك أي شيء يمكن أن يسبّب لك التعاسة، ولكن إذا كان الأمر ليس سرّياً فهل لك أن تحكي لنا عن زوجة أبيك؟ "

سألها كرونسكي " من أين أتت زوجة أبيك؟ "

قالت مَرَه " من فيينا "

" وأنت، هل ولدتِ أيضاً في فيينا؟ "

" كلا، أنا ولدت في رومـانيا، في قريـة جبلية صغيـرة. لعلي أنحدر من سلالة غجرية؟ "

twitter @baghdad_library

" تقصدين أن أمك كانت غجرية؟ "

" نعم، هناك حكاية تفيد بذلك. يُقال إن والدي هرب منها عشيّة زواجه إلى زوجة أبي. وأعتقد أن هذا هو سبب كراهية أمي لي. إنني خروف العائلة الأسود "

" وأظنك مولعة بأبيك؟ "

" إنني أعبده. إنه يشبهني. الآخرون غرباء عني - ليس بيننا أي قاسم مشترك "

قال كرونسكي " وأنت التي تعيلين العائلة؟ "

" مَنْ قال لك هذا؟ فهمت، إذن هذا ما كنتما تتحدثان عنه حين... "

" كلا، مَرَه، لا أحد أخبرني. إنني أراه مرتسماً على وجهك. إنك تضحين بنفسك - لهذا أنت تعيسة "

قالت " لن أنكر، إنني أفعل ذلك إكراماً لوالدي. إنه رجل مريض، ولم يعد في مقدوره أن يعمل "

" وما خطب أخوتك؟ "

" لا شيء. فقط كسالى. لقد أفسدتهم بالتدليل. في الواقع، لقد هربت وأنا في السادسة عشرة من عمري: لم أستطع تحمُّل الحياة في المنزل. ابتعدتُ مدة عام؛ وحين رجعتُ وجدتهم في حالٍ من البؤس. إنهم عاجزون. أنا الوحيدة التي تملك روح المبادرة "

" وأنت تعيلين العائلة بأكملها؟ "

قالت " أحاول أن أفعل. أحياناً أرغب في الاستسلام - إنه عبء يثقل كاهلي. لكني لا أستطيع. إذا رحلتُ سيموتون جوعاً "

قال كرونسكي بحِدّة " هراء، هذا بالضبط ما ينبغي أن تفعليه "

" ولكن لا أستطيع - طالما والدي على قيد الحياة. سوف أفعل أي شيء، سوف أتاجر بجسدي، لكي لا أراه في حال من العوز "

قال كرونسكي " لن يمانعوا إذا فعلت. اسمعي يا مَرَه، لقد وضعتِ نفسك في وضعٍ زائف. لا يمكنك أن تتنكبي المسؤولية كلها. دعي الآخرين يتولّون أمر أنفسهم. خذي والدك وارحلي - سوف نساعدك على الاعتناء به. إنه لا يعلم من أين تحصلين على النقود، أليس كذلك؟ ولا أظنك أخبرته أنك تعملين في صالة للرقص؟ "

" لا، لم أخبره. إنه يظن أني أمثّل في المسرح. لكن أمي تعلم "

" ولا تمانع؟ "

قالت مَرَه، مع ابتسامة صغيرة " تمانع؟ إنها لا تعترض على أي شيء أفعله ما دمت أنفق على البيت. تقول إني فاسدة وتلقّبني بالعاهرة. تقول إني مثل والدتي "

قاطعتها. قلت " مَرَه، لم أكن أعلم أن الوضع على هذه الدرجة من السوء. إن كرونسكي محقّ، ينبغي أن تتحرّري. لِمَ لا تنفّذي ما اقترحته عليك - اتركي العائلة وخذي والدك معك؟ "

قالت " كنت أتمنى ذلك، لكن والدي لم يترك أمي. إنها تسيطر عليه - جعلت منه طفلاً "

" ولكن ماذا لو علِمَ بطبيعة عملك؟ "

" لن يعلم أبداً. لن أسمح لأي كان أن يخبره. لقد هددتني والدتي مرة بأن تخبره: قلت لها إني سأقتلها إن فعلتْ "، ثم ابتسمت بمرارة " أتعلم ماذا قالت أمي؟ قالت إني كنت أحاول أن أسمّمها "

هنا اقترح كرونسكي أن نواصل حديثنا في البلدة في المنزل صديق

twitter @baghdad_library

له مسافر. قال إن في وسعنا أن نقضي الليل هناك إذا شئنا. وفي القطار تبدّل مزاجه؛ عاد من جديد ساخراً، ممازحاً، شيطانياً، وهو التافه الشاحب الوجه. وكان هذا يعني أنه يعتبر نفسه مغوياً، مفوّضاً لرمي الحِسان بسهام نظراته. كان العرق يتصبّب من وجهه، ويُذوي ياقته. أصبح كلامه محموماً، مشتّتاً، وكله معاً يفتقر إلى التسلسل. كان على طريقته المشوّهة يحاول أن يخلق جواً دراميا؛ يلوِّح بذراعيه بحركات رخوة، مثل خفّاشٍ مخبول حوصِرَ بين الضوء الساطع لمصدرين من النور الكشّاف.

شعرت بالاشمئزاز عندما شاهدت مَرَه تتسلّى بذاك المشهد. قالت " إنه مجنون تماماً، صديقك هذا، لكنه يعجبني "

سمع كرونسكي الملاحظة، فابتسم ابتسامة عريضة مأساوية ,اخذ العرق يجري بغزارة أكبر. وكلما اتّسعت ابتسامته ازداد تهريجاً ومسخرةً، وازداد مظهره كآبة. لم يكن يريد قط أن يظنه أحد كئيباً. لقد كان كرونسكي، ذاك الضخم، الحيوي، الصحيح، المرح، المتهاون، المتهور، الخالي البال، الذي يحلُّ مشاكل الجميع كلها. كان في استطاعته أن يتكلم على مدى ساعات طوال - بل وأيام إذا كانت لديك الشجاعة الكافية للإصغاء إليه. كان يستيقظ وهو يتكلّم، وعلى الفور ينغمس في نقاشات مماحكة، تدور دائماً حول مصير العالم، حول طبيعته البيوكيميائية، وتركيبه الفيزيائي الفلكي، وهيئته الاقتصاد - سياسيّة. إن العالم في وضعٍ كارثيّ، هو يعلم هذا، لأنه كان دائماً يجمِّع الحقائق حول نقص البترول، أو يقوم بأبحاثٍ عن حالة الجيش السوفيتي أو عن وضع مستودعات أسلحتنا وتحصيناتنا.

كان يقول، وكأنها حقيقة ترقى فوق أي جدال، إن جنود الجيش السوفييتي لا يستطيعون أن يشنوا حرباً هذا الشتاء لأنهم لا يملكون إلا الكثير جداً من المعاطف، والكثير جداً من الأحذية، الخ. كان يتكلم عن الكربوهدرات، والدهون والسكّر، ويتكلم عن مؤن العالم وكأنه هو الذي يدير شؤون العالم. كان يعرف عن القانون الدولي أكثر من معرفة أشهر رجالات السلطة عنه. ولم يكن هناك أي موضوع تحت الشمس إلا ويبدو أنه يلمُّ به إلماماً تاماً وشاملاً. ولما كان حينئذ مجرد طبيب مقيم في مستشفى المدينة، ولكن في غضون بضع سنوات سوف يغدو طبيباً جراحاً أو محلّلاً نفسياً مشهوراً، أو ربما شيئاً آخر، لم يكن يعرف بعد ماذا سيختار أن يكون. ويسأله أصدقاؤه ساخرين " لماذا لا تقرر أن تصبح رئيس الولايات المتّحدة الأميركية؟ "، فيجيب، متهكّماً " لأني لست أبله. أتظنون أن ليس في مقدوري أن أصبح رئيساً للولايات المتحدة لو أردت؟ اسمعوا، لا أظنكم تعتقدون أن تبوّؤ منصب رئيس الولايات المتحدة الأميركية يتطلّبُ ذكاءً؟ كلا، أنا أريد عملاً حقيقياً. أريد أن أساعد الناس، ولا أريد أن أخدعهم. لو يتاح لي أن أحكم هذا البلد فسأنظّف البيت من أعلاه وحتى أسفله. أولاً سأخصي أمثالكم ... " ويستمر على هذا المنوال مدة ساعة أو ساعتين، ينظّف العالم، وينظّم شؤون البيت الكبير، ويمهّد الطريق لسواد الأخوّة الإنسانية ولإقامة إمبراطورية الفكر الحر. وكان في كل يوم يتّقد حماساً حول وضع الرقيق في ساحل الذهب[١٤]، ويعطيك سعر سبيكة الذهب بنصف الصَدَفة أو أي معلومة إحصائيّة ملفّقة لا تصدّق والتي تجعل الناس بغير قصد يكره

١٤ – ساحل الذهب : الاسم السابق لدولة غانا ، وحتى عام ١٩٥٧، – المترجم .

twitter @baghdad_library

بعضهم بعضاً ويبتكرون أعمالاً تافهة لأناسٍ ضعفاء، غائري الصدور، في مجال إعطاء المعلومات المالية، فيزيدون بذلك أعباء الاقتصاديات السياسية المعنوية. وفي يوم آخر تراه في أشدّ حالات الغضب والاحتجاج بشأن معدن الكروم أو البرمنغنات، لأن ألمانيا أو رمانيا احتكرت السوق لسبب أو لآخر مما يعيق عمل الأطباء الجرّاحين في الجيش السوفييتي عندما يحلّ اليوم العظيم. أو يكون قد جمع آخر المعلومات حول وباء جديد مروّعٍ سوف يحطُّ العالم المتحضّر إلى دركٍ من الفوضى إذا لم نتصرّف على الفور وبحكمة قصوى. وهو لا يفهم كيف يشقُّ العالم المترنّح طريقه بدون قيادة الدكتور كرونسكي. ولم يكن ينتاب الدكتور كرونسكي أي ظل من الشك بشأن تحليله لأحوال العالم. فحالات الانقباض، والرعب، والفيضانات، والثورات، والأوبئة، هذه الظواهر كلها كانت تحدث ببساطة لتعزّز حكمه على الأمور.

كانت النكبات والكوارث تشيع فيه المرح؛ كان ينقُّ ويضحك مثل علجومٍ عالميّ في حالة جنينية. ولا أحد كان يسأله كيف تسير أموره الشخصية. الناحية الشخصية لم تكن على ما يرام. حالياً هو يقطع الأذرع والسيقان، بما أنَّ لا أحد يتحلّى بحِدّة الذهن بحيث يطلب منه شيئاً أفضل من هذا. كانت زوجته الأولى قد توفيت متأثّرة بخطأ طبّي وزوجته الثانية سوف تصاب بالجنون إذا ما علمت بما كنا نتحدث عنه. كان في استطاعته أن يضع مخططاً لأجمل نماذج المنازل من أجل إقامة الجمهورية الجديدة للإنسانية. ولكن الغريب في الأمر أنه لم يستطع أن يخلّص عشه الصغير من بق الفراش وأنواع الهوام الأخرى، وبسبب انشغاله بأحداث العالم، وتصحيح أوضاع أفريقيا، وغوادالوب،

وسنغافورة، الخ. كان بيته دائماً في حالة اضطراب بسيط، أي بعبارة أخرى، الأطباق قذرة، والأسرّة مشوّشة والأثاث يتداعى، والزبد يتعفّن، والمرحاض مسدود، وأحواض الاستحماس ترشح، والأمشاط القذرة منتشرة على الطاولة، وبشكل عام كانت حالةٌ من الخراب مُرضية، بائسة، مجنونة باعتدال تتبدّى في شخص الدكتور كرونسكي الذي كان هو ذاته قالباً من قشرة الرأس، والأكزيما، والبثور، والقروح، وقوسيّ القدمين الهابطين، والثآليل، والأكياس الدهنية، وبخر الفم، وسوء الهضم واضطرابات ثانوية أخرى، ليس بينها ما هو خطير لأنه ما أن يؤسّس للنظام العالمي سوف يختفي كل ما يتّصل بالماضي ويشرق الإنسان ببشرة جديدة مثل حَمَلٍ حديث الولادة.

الصديق الذي كان يأخذنا إلى منزله كان فناناً، كما أبلغنا. وكونه صديقاً للعظيم الدكتور كرونسكي كان يعني أنه فنان غير عادي، ولن يتم الاعتراف به إلا مع بداية الألفية القادمة. وكان صديقه معاً رساماً وموسيقياً - وعظيماً في كلا المجالين. لن نتمكن من سماع موسيقاه، بسبب غياب صديقه، ولكن سوف نتمكن من مشاهدة لوحاته - يقصد بعضها، لأن الكمَّ الأعظم منها قد دُمِّر. وسألته عَرَضاً عمّا يفعله صديقه في الوقت الراهن. إنه يدير مزرعة نموذجية من أجل الأطفال المتخلّفين في قلب براري كندا. وكان كرونسكي قد نظَّمَ هذا العمل بنفسه غير أنه كثير الانشغال في تدبُّر الأمور بحيث يزعج نفسه بالتفاصيل العملية للإدارة. ثم إن صديقه كان مسلولاً، وفي الغالب أنه سيضطر إلى أن يبقى هناك إلى الأبد. وكرونسكي يبرق له بين حين وآخر لينفحه نصيحة عن هذا الأمر أو ذاك. إنها فقط البداية - وقريباً سوف يفرغ

twitter @baghdad_library

المستشفيات والمصحات من نزلائها، ويثبت للعالم أجمع أن الفقراء يمكنهم أن يعتنوا بالفقراء، والضعفاء يمكنهم أن يعتنوا بالضعفاء، والمعاقين بالمعاقين، والمتخلفين بالمتخلفين.

سألته، وهو يدير مفتاح النور وتظهر على الجدار كمية هائلة من القيء ذات اللون الأخضر المائل إلى الاصفرار.

قال كرونسكي " هذا واحد من أعماله المبكّرة. إنه يحتفظ بها لأسباب عاطفية. لقد أودعت أفضل أغراضه في المخزن. ولكن ها هنا واحدة تزوّدك بفكرة ما عمّا في استطاعته أن يفعل ". وأخذ يتأملها بفخر، وكأنها عمل من إنجازه الخاص. " رائعة، أليست كذلك؟ "

قلت " بل فظيعة. إنه مصاب بعقدة خرائيّة؛ لابد أنه ولد في مجرور، وسط بركة من بول الجياد البائت في يوم شباطيّ كثيب بالقرب من مصنع لإنتاج الغاز "

قال كرونسكي حاقداً " هذا الكلام ليس غريباً عنك، فأنت لا تعرف الرسام الحقيقي حين تراه. أنت تبدي إعجابك بثوريّ الماضي. أنت رومانسي "

أصرّيت قائلاً " قد يكون صديقك ثورياً لكنه ليس رساماً. إنه لا ينطوي على أي حب؛ هو فقط يكره، وزيادة على ذلك أنه عاجز حتى عن رسم ما يكره. ومصاب في عينيه .،أنت تقول إنه مسلول: أنا أقول إنه مصفور[١٥]. صديقك هذا يفوح نتانة، وكذا منزله. لم لا تفتح النوافذ؟ إن الرائحة المنبعثة من هذا المكان توحي وكأن كلباً قد مات هنا"

"تقصد خنازير غينيّة. كنت أستخدم المكان كمختبر، ولهذا تراه

---

١٥ – مصفور : مصاب بالصفراء . – المترجم .

يفوح بشيء من النتانة. إن أنفك فائق الحساسية، مستر ميللر. أنت إنسان محبّ للجمال"

سألته " هل يوجد هنا ما يُشرَب؟ "

طبعاً لا يوجد، ولكن كرونسكي تبرَّع بالخروج مسرعاً ليحضر مشروباً ما. فقلت " أحضر نوعاً قوياً. إن هذا المكان يثير الرغبة في التقيّؤ. لا عجب أن ابن الحرام المسكين أصبح مسلولاً"

خرج كرونسكي مسرعاً وهو في حال من الارتباك، ونظرت إلى مَرَه "ما رأيك؟ هل ننتظره أم ننصرف؟ "

" أنت شديد الفظاظة. كلا، سننتظر. أودّ أن أسمع المزيد من حديثه - إنه مثير للاهتمام. وهو بحق يقدِّرك تقديراً عالياً. أرى ذلك من طريقته في النظر إليك "

قلت " إنه يثير الاهتمام فقط في المرة الأولى. بصراحة، إنه يضجرني حتى اليباس. إنني أستمع إلى مثل هذا الكلام منذ سنين عديدة. إنه محض هراء. قد يكون ذكياً لكن فيه برغي محلول في مكان ما. وذات يوم سوف ينتحر، علِّم على كلامي. ثم إنه يجلب النحس. فكلما قابلت ذاك الرجل تسوء أحوالي. إنه يحمل الموت معه أينما توجّه. ألا تشعرين بذلك؟ فإذا لم يكن ينعق فهو يهذر كقرد. كيف تصادقين رجلاً كهذا؟ إنه يريد أن يجعلك صديقة أحزانه. ولا أدري ما الذي يتآكله. إنه قلق على العالم. والعالم لا يهمني أبداً. إنني لا أستطيع أن أقوِّم العالم، ولا هو يستطيع ... ولا أي إنسان، فلماذا لا يحاول أن يعيش؟ قد لا يكون العالم بالسوء الذي يظن إذا ما حاولنا أن نستمتع أكثر قليلاً. كلا، إنه يكدّرني "

twitter @baghdad_library

عاد كرونسكي مع نوع رديء من المشروبات ادّعى أنه كل ما استطاع أن يجده في مثل تلك الساعة. وهو نادراً ما يشرب أكثر من مقدار صغير لذلك لا يهمّه إن تسمّمنا أم لا. وهو يأمل في أن نتسمّم، كما قال. كان مكتئباً. وبدا أنه سيمضي الليل بطوله وهو في حالة اكتئاب. ومَرَه، كالبلهاء، أشفقت عليه. تمدّد على الأريكة ووضع رأسه على حجرها. وبدأ مساراً آخر، غريب الأطوار - الحزن اللا شخصي للعالم. لم يكن نزاعاً وقدحاً كما حدثَ من قبل بل أنشودة، أنشودة مسجّلة على الديكتافون[١٦] موجّهة إلى ملايين المخلوقات التعسة في كافة أرجاء العالم. وكان الدكتور كرونسكي دائماً يعزف ذاك اللحن وسط الظلام، ورأسه مرتاح في حجر امرأة ما، ويداه تجرّان السجادة.

بينما رأسه يستكين في حجرها مثل أفعى سامة منتفخة، كانت كلماته ترشح من فمه مثل غاز يتسرّب من أير نصف مفتوح. كان المشهد يمثّل غرابة أطوار ذرّة إنسانية لا يمكن اختزالها، النفس التحتية التي تتجول في قبو البؤس الجماعي. ولم يعد للدكتور كرونسكي وجود: لم يبق غير الألم والعذاب، يعملان عمل الإلكترونات السالبة والموجبة في الفراغ الذري اللا متناهي لشخصية ضائعة. وسط هذه الحالة من العطالة المؤقتة حتى الصبغة السوفيتيّة المعجزة للعالم كانت عاجزة عن قدح شرارة حماس فيه. والذي يتكلم كانت الأعصاب، والغدد الصمّاء، والطحال، والكبد، والكلى، وأوردة الدم الدقيقة الواقعة بالقرب من سطح الجلد. والجلد نفسه كان مجرد حقيبة تجمع فيها كتلة مشوّشة وقذرة

---

١٦ - الديكتافون : أداة فونوغرافية تسجّل ما يُملَى عليها من كلام لكي يُسمع لاحقاً ويدوّن على الورق (يستعملها رجال الأعمال) - المترجم .

من العظام، والعضلات، والألياف، والدم، والدهن، والسائل اللنفاوي، والصفراء، والبول، والروث، وما إلى ذلك. كانت الجراثيم تعجُّ في هذه البطن النتنة؛ وسوف تحرز الجراثيم الانتصار مهما أبدع ذاك القفص الذي يحوي المادة الرمادية الباهتة في تشغيل عقله. كان الجسد رهين الموت، والدكتور كرونسكي، الشديد النشاط في عالم الإحصاءات الدقيق الملاحظة، كان يصبح قملة يجب أن تُسحق تحت ظفرٍ قذر حين يتخلّى عن قوقعته. ولم يتبدَّ للدكتور كرونسكي، خلال نوبات الانقباض البولتناسلي تلك، أنه قد يكون هناك منظوُر إلى الكون يتخذُ من خلالهِ الموتُ هيئةً أخرى. كان قد نزع أحشاءً، وشرَّحَ وقطّع إرباً الكثير جداً من الجثث بحيث بات للموتِ وجود صلب جداً - أي، قطعة لحم ميت ملقاة على لوحِ الموتى. وانطفأ النور وتوقفت الآلة، وبعد فترة من الوقت بدأ المكان يفوح نتانة. Voila هكذا بكل بساطة. في الموت يتحوّل أجمل المخلوقات التي يمكن تصوّرها إلى مجرد قطعة أخرى من الرصاص الفائق البرودة. وكان قد نظر إلى زوجته، بُعيد بداية الغنغرينا؛ وصرح أنها كان يمكن أن تكون سمكة قدّ، على الرغم مما تتّصف به من جاذبية. وغطى على تفكيره في الألم الذي كانت تكابده معرفتُهُ ما كان يجري داخل الجسد. وكان الموت قد شقّ طريقه إليها وكان عمله متعة للناظر. وكان يشدّد قائلاً إن الموت حاضر أبداً. الموت يلطي في الزوايا المظلمة، بانتظار أن تسنح اللحظة المناسبة ليرفع رأسه ويضرب ضربته. وقال، إن هذا هو الرابط الحقيقي الوحيد الذي يجمعنا - الحضور المستمر والدائم للموت فينا جميعاً.

أُخِذَتْ مَرَه تماماً بهذا كله. كانت تمسِّد شعره وتخرخر بنعومة بينما السيل المنتظم للغاز المرتّل يخرج من بين شفتيه الغليظتين الشاحبتين.

twitter @baghdad_library

وكان انزعاجي من التعاطف الجليّ الذي أبدته للمتألم أكثر من ضيقي برتابة سرد حظه العاثر. ثم اكتشفت أن صورة كرونسكي الرابض كمعزاة مريضة هزلية بشكل واضح. كان قد ابتلع عدداً كبيراً جداً من علب التنك، وتغذّى بقطع السيارات التالفة. كان مقبرة من الحقائق والأرقام تمشي على قدمين. كان يحتضر متأثراً بعسر هضم إحصائي.

قلت بهدوء " أتعلم ماذا عليك أن تفعل؟ عليك أن تنتحر - الآن، هذه الليلة. ليس لديك ما تعيش من أجله - لِمَ تخدع نفسك؟ بعد قليل سنغادرك وأنت اقتل نفسك. أنت إنسان أحمق مغرور، ولابد أنك تعرف وسيلة تنفّذ بها ذلك بدون أن تُحدث الكثير من الفوضى. أعتقد، بحق، أنك تدين بهذا إلى العالم. وفي الواقع إن كل ما تفعله هو أنك تجعل من نفسك شخصاً مزعجاً "

هذه الكلمات كان لها ما يشبه الأثر الكهربائي على الدكتور كرونسكي المتألم. في الواقع لقد قفز واقفاً على قدميه بحركة واحدة وكأنه دلفين. ثم صفّقَ بيديه ورقص بضع خطوات برشاقةِ حيوانٍ ثديي مصاب بورم عرقوبيّ. كان منتشياً كانتشاء حفّار مجرور عندما يعلم أن زوجته قد أنجبت طفلاً آخر.

" إذن فأنت تريدني أن أقتل نفسي، مستر ميللر، هه؟ لِمَ العجلة؟ أتغار مني؟ حسن، سوف أخيّب ظنك هذه المرة. سوف أبقى على قيد الحياة وأجعل حياتك بائسة. سوف أعذّبك. وذات يوم سوف تأتيني وتتوسّل إليّ كي أعطيك شيئاً يبعد عنك الأذى. سوف تتوسل إليّ وأنت راكع على ركبتيك وسوف أرفض طلبك "

قلت، وأنا ألاطفه أسفل ذقنه " أنت مجنون "

أجابني، وهو يربت على رأسي الأصلع " أوه، كلا، لست كذلك! أنا فقط عصابيّ قليلاً، كاليهود كلهم. لن أقتل نفسي أبداً، لا تخدع نفسك. سوف أمشي في جنازتك وأضحك عليك. وقد لا تقام لك جنازة. لعلك ستكون مديناً لي إلى درجة أنك ستوصي لي بجثتك عندما تموت. يا مستر ميللر، حين سأبدأ بتقطيعك إرباً لن يتبقّ منك أي شيء "

تناول سكين تقطيع الورق الموضوع على آلة البيانو ووضع طرفه المدبّب على حجابي الحاجز. اقتفى أثر خط حزٍّ وهمي وأخذ يلوّح بالسكين أمام عينيّ.

قال " إليك كيف سأعمل في أحشائك. أولاً سأخرج الهواء الرومانسي كله الذي يجعلك تعتقد أنك تعيش حياة فاتنة؛ بعد ذلك سوف أسلخ جلدك وكأنك أفعى لكي أبلغ أعصابك الهادئة، المرتاحة وأجعلها ترتعش وتنتفض؛ سوف تكون أكثر حياة وأنت تحت حدّ السكين منك الآن؛ سوف تبدو غريب الأطوار وأنت بساقٍ واحدة والأخرى مبتورة ورأسك موضوع على رف مدفأتي وفمك مثبّت على تكشيرة أبدية "

التفت إلى مَرَه " أتظنين أنك ستبقين على حبك له حين سأعدّه لدخول المختبر؟ "

أعطيته ظهري وتقدّمت من النافذة. كانت تطلُّ على مشهدٍ خلفي نموذجي في حي البرونكس: أسيجة خشبية، وأعمدة الغسيل، وحبال الغسيل، وبقع معشوشبة رثة من الأرض، وصفوف من المنازل معدّة شققاً للإيجار، وسلالم الحريق، الخ، الخ. وأشكال إنسانية تجوس ذهاباً وإياباً أمام النوافذ مرتدية أنواعاً مختلفة من الملابس. كانت تتهيّأ للعودة إلى بيوتها لكي تنجز رتابة الغد العبثية. قد يتمكن واحد من بين مائة ألف

twitter @baghdad_library

من الإفلات من المصير العام؛ أما الباقون فسيكون من الرحمة إذا ما وجد الواحد منهم مَنْ يذبحه أثناء نومه. والاعتقاد بأن هؤلاء الضحايا البؤساء يؤمنون بأنهم يخلقون عالماً جديداً هو محض جنون. وتذكرت زوجة كرونسكي الثانية، التي وصلت في نهاية المطاف إلى حالة الجنون المطبق. كانت من هذه النواحي. كان والدها يدير محلاً لبيع القرطاسية؛ وأمها تلازم السرير طوال النهار وتداري رحماً مسرطناً. أخوها الأصغر كان مصاباً بمرض النوم، والآخر كان مشلولاً، والأكبر بينهم كان مختلاً عقلياً. وكان جديراً بدولة منظّمة عقلياً أن تجعل العائلة بأكملها غير فعالة والمنزل معها ...

بصقت باشمئزاز من النافذة.

كان كرونسكي واقفاً إلى جانبي، وذراعه تحيط بخصر مَرَه. قلت، وأنا أرمي قبعتي خارج النافذة " لم لا تقفز بعدها ؟ "

" ماذا، وأثير جلبة حتى يتجمّع الجيران؟ كلا يا سيدي، ليس أنا. يبدو لي، يا مستر ميللر، أنك أنت التوّاق إلى الانتحار. فلم لا تقفز أنت؟ "

قلت " لا مانع عندي، شريطة أن تقفز معي. دعني أريك مدى سهولة الأمر. هات، أعطني يدك ... "

قالت مَرَه " أوه، كفى! أنتما تتصرفان كالأطفال. حسبت أنكما ستساعداني على حلّ مشكلتي. إن لدي هموماً حقيقية "

قال كرونسكي باكتئاب " لا يوجد حلول. من المستحيل مساعدة والدك لأنه لا يريد أن يتلقّى مساعدة. إنه يريد أن يموت "

قالت مَرَه " لكني أريد أن أعيش، وأرفض أن أصبح كادحة "

" هذا ما يقوله الجميع، ولكن لا فائدة منه. وإلى أن نقلب هذا النظام الرأسمالي العفن لن يوجد أي حل لـ ... "

قاطعت مَرَه قائلة " هذا الكلام كله هراء. أتظن أني سأنتظر حتى حدوث ثورة لكي أعيش حياتي؟ يجب أن أقوم بعمل الآن. إذا لم يبق أمامي لحلّ المشكلة غير أن أعمل كعاهرة - فسوف أفعل - عاهرة ذكية، طبعاً "

قال كرونسكي " لا وجود لعاهرات ذكيات. إن المتاجرة بالجسد دلالة على ضعف العقل. لِمَ لا تشغِّلي عقلك؟ سوف تمضين وقتاً أفضل إذا أصبحت جاسوسة. هذه فكرة جيدة! أعتقد أني أستطيع أن أدبِّر لك شيئاً في هذا الاتجاه. لدي معارف كُثُر في الحزب. طبعاً، سوف يتوجب عليك أن تتخلّي عن فكرة العيش مع هذا المخلوق ". وهزَّ إبهامه باتجاهي " لكن سيدة محترمة مثلك " ونظر إليها، محدِّقاً بإعجاب وإطراء، من رأسها وحتى قدمها، " تستطيع أن تنتقي صورة كونتيسة أو أميرة؟ المدة مائة أسبوع والتكاليف كلها مدفوعة ... لا بأس بهذا، ما رأيك؟ "

قالت مَرَه " إنني أفعل ما هو أكثر من ذلك الآن، بدون المجازفة بتصويري "

هتفنا معاً " ماذا؟ "

ضحكت. " أتظنان أن هذا يجلب مبلغاً طيباً؟ إنني بحاجة إلى أكثر من ذلك بكثير. لو أردت لتزوجت مليونيراً غداً؛ لقد قُدِّمت إليّ عُروضٌ عِدَّة حتى الآن "

قال كرونسكي " لم لا تتزوجي من أحدهم ومن ثم تطلقيه بسرعة.

twitter @baghdad_library

يمكنك أن تتزوجي واحداً إثر آخر وتصبحي أنت نفسك مليونيرة. ماذا يدور في خلدك؟ لا أظنك تقصدين أن تخبريني أن لديك شكوكاً حول هذا الموضوع؟ "

لم تدرِ مَرَه كيف تجيب عن هذا السؤال. كل ما فكّرت في قوله هو أن من الفحش أن تتزوج من رجل عجوز منبوذ، من أجل ماله.

قال مؤنباً " أتعتقدين أن في استطاعتك أن تكوني عاهرة! إنك لا تقلّين سوءاً عن هذا الرجل هنا - ثم إنه فاسد بفعل الأخلاقية البورجوازية. اسمعي، لِمَ لا تدّربينه ليكون قوّادك! سوف تشكلان زوجاً رومانطيقياً رائعاً في عالم الجنس السفلي. افعلي هذا! ربما أستطيع أن أدبِّر لك بعض الزبائن بين حينٍ وآخر "

قلت، وأنا أرسم له ابتسامة رقيقة وودّية " دكتور كرونسكي، أعتقد أننا سنستأذنك بالرحيل الآن. أؤكد لك أننا أمضينا أمتع الأمسيات وأشدّها تثقيفاً. وحين تصاب مَرَه بالسفلس للمرة الأولى فإنني حتماً سأستدعيك لتقديم خدماتك الخبيرة. أعتقد أنك قدّمت حلولاً لمشاكلنا كافة وبدقّة مثيرة للإعجاب. حين ترسل زوجتك إلى المصحة تعال وامضِ بعض الوقت معنا - سوف تسعدنا بوجودك، فأنت ملهمٌ ومسلٍّ، هذا أقل ما يُقال فيك "

قال يناشدنا " لا تذهبا الآن، أريد أن أتحدث معكما بجدّية "، والتفت إلى مَرَه، " قولي بالتحديد كم يلزمك فوراً؟ يمكنني أن أقرضك ثلاثمائة دولاراً، إن كان هذا يفي بالغرض. ويجب أن أستعيدها في غضون ستة أشهر، لأنها ليست ملكي. اسمعي، لا تذهبي الآن. دعيه هو يرحل - أريد أن أخبرك بعض الأشياء "

نظرت مَرَه إليّ وكأنها تسألني إن كان هذا مجرد كلام من جانبه.

قال كرونسكي " لا تسأليه النصيحة، أنا صادق معك، ومعجب بك وأريد أن أساعدك "، ثم وجّه قذائفه نحوي " هيا، اذهب إلى بيتك، ماذا تنتظر؟ لن أغتصبها "

سألتُها " أأذهب؟ "

قالت " نعم، افعل من فضلك. فقط أريد أن أعرف لماذا انتظر الأبله كل ذاك الوقت ليخبرني بهذا؟ "

كانت تنتابني شكوك حول الثلاثمائة دولار غير أني غادرت مع ذلك. وفي القطار النفقي، وأنا أواجه فرسان ليل المدينة الكبرى المحطّمين، غصت في استبطانٍ عميقٍ، كما يحدث للبطل في الروايات الحديثة. ومثلهم، تساءلتُ أسئلة عقيمة، وطرحت مشاكل لا وجود لها، ووضعت خططاً للمستقبل لن تتجسَّد أبداً، وشككت في كل شيء، بما في ذلك في وجودي. بالنسبة إلى البطل الحديث الفكرُ لا يوصِلُ إلى أي هدف؛ عقله مِصْفاةٌ يغسل فيها خضروات الفكر البائتة. يقول لنفسه إنه عاشق ويجلس في النفق المتحرك يحاول أن يجري كمياه المجرور. يتسلّى بأفكارٍ سارّة. فمثلاً خذ هذه: يتصوّر مثلاً أنه راكع على الأرض ويداعب ركبتيها: أو أنه يحرِّك مخلبه المبلّل بالعرق والشبيه بمخلب خنزير على طول لحمها المنعش: أو يقول لها بلغة دبقة كم هي فريدة من نوعها؛ إن الثلاثمائة دولار لا وجود لها ولكن إذا استطاع أن يحصل عليها، إذا استطاع أن يجعلها تباعد ما بين ساقيها أكثر قليلاً، سيحاول أن يجمع لها مبلغاً؛ وبينما هي تزلق عشها أقرب فأقرب، آملة أن يكتفي بمصّهِ وألا يضطرها إلى ان تقوم بالعملية كلها، تقول لنفسها

twitter @baghdad_library

إنه ليس في الأمر خيانة ذلك أنها حذّرت القاصي والداني وبصراحة مطلقة أنها إذا ما اضطرت إلى فعل ذلك فستفعله " ويجب " أن تفعل شيئاً. إن الله يساعدها، وهذا حقيقي جداً وملحّ جداً. ويمكنها أن تنجو بفعلتها هذه بسهولة كافية لأنه لا أحد يعرف كم مرة تركت نفسها تُنكح من أجل حفنة قليلة من الفكّة؛ إن لديها عذراً جيداً، لأنها لا تريد لأبيها أن يموت ميتة كلب. إنه يحشر رأسه بين ساقيها الآن، ولسانه محموم؛ وتنزلق هي إلى أسفل أكثر وتحيط بإحدى ساقيها عنقه؛ السائل يتدفّق ويعذّبها شبقٌ لم تعرف مثيلاً له من قبل: هل سيظل هكذا يثيرها ولا يشبعها طوال الليل؟ تُمسِك رأسه بيديها وتمرِّر إصبعها خلال شعره الدهنيّ؛ تضغط كسّها على فمه؛ تشعر أنها تقذف، وتتلوى وتتمعّج، وتشهق، وتشد شعره. وتزعق لنفسها " أين أنت؟ أعطني ذاك الأير الضخم! "، وتشدُّ بحركاتٍ مسعورة ياقته، وتجذبه بعنفٍ لينهض عن ركوعه؛ وفي الظلام تزلق يدها كحنكليز إلى داخل فتحة بنطاله المنتفخة، وتحتضن خصيتيه الضخمتين المتورّمتين بكلتي يديها، وتتتبّع بالإبهام والإصبع عنق الدجاجة المتصلّب لأيره حيث يغوص داخل المجهول؛ إنه بطيء وثقيل وسرواله الداخلي أشبه بحيوان الفظّ؛ ترفع ساقيها عالياً، وتدلّيهما من حول عنقه. أدخلهُ، يا كثير الجلبة! ليس هناك - هنا! تحيطه بقبضتها وتقوده إلى الإسطبل. أوه، هذا لذيذ. أوه! أوه! أوه! يا ربي! هكذا لذيذ، أبقهِ في الداخل. توقف، توقف. أدخله أعمق، ادفعه كله ... نعم، هكذا، هكذا. أوه، أوه! ويحاول أن يبقيه. يحاول أن يفكر في شيئين في وقت واحد. ثلاثمائة دولار ... ثلاثة أوراق نقدية خضراء الظهر. مَنْ سيعطيه لي؟ يا يسوع، هذا رائع. يا

يسوع، تمهَّل الآن! تمهَّل! إنه يحسُّ ويفكّر في الوقت نفسه. يحسُّ بحيوان بطلينوس صغير بلا صدفته ينفتح وينغلق، بزهرة عطشى تشدُّ على رأس أيره. لا تتحركي، يا بنت الحرام أنت، وإلا قذفت. افعل ذلك مرة أخرى! يا يسوع، ياله من كسّ! يتحسَّس مكان حلمتيها، يمزّق الثوب ليفتحه، يلعق الحلمة بنهم. لا تتحرك الآن، فقط مصّ، نعم هكذا، هكذا. على مهل الآن، على مهل! يا يسوع، ليتنا نبقى مستلقيين هكذا طوال الليل. أوه، يا يسوع، إنني أقذف. تحركي، يا شرموطة! هاته ... أسرع، أسرع. آه، آه، سيس، بووم، بلام!

يفتح بطلنا عينيه ويعود من جديد إلى نفسه - أي إلى الرجل المعروف ها هنا بأنا، الذي يرفض أن يصدِّق ما يرويه له خياله. لعلهما منخرطان في حديث طويل، هكذا أقول لنفسي، وأنا أسدل الستار على البديل الممتع. إنها لن تسمح لكابوس ثقيل، غزير العرق، ومزيّت كذاك أن يلمسها. لعله حاول أن يقبّلها لكنها تعرف جيداً كيف تعتني بنفسها. تُرى هل ما زالت مود يقظة؟ ينتابني هياج جنسي. وبينما أنا أمشي في طريقي إلى المنزل أفتح فتحة بنطالي وأخرج أيري. كس مود. إنها بالتأكيد تستطيع أن تنكح حين تقرر. أنالها وهي شبه نائمة، وعيناها غائبتان. فقط مستلقية بهدوء متضامّة على نفسها كملعقة. أضع المفتاح في القفل وأدفع البوابة الحديدية. حديد بارد يصطدم بأير ينتفض. يجب أن أتسلل وأعتليها، وأزلقه فيها بينما هي تحلم. أصعد بهدوء إلى الطابق العلوي وأنزع ملابسي. أسمعها وهي تتقلّب، أحتويها بكل جسمي. تتظاهر بأنها غائبة عن الوعي، ميتة أمام العالم. لن أسرع كثيراً وإلا استيقظت. يجب أن أفعلها وكأنما في نومي وإلا شعرت

twitter @baghdad_library

بالإهانة. أقحمتُ رأسَه في الشعر السائب. وهي هامدة همود الموتى. إنها تريده، تلك الشرموطة، لكنها ترفض أن تفشي ذلك. حسن، العبي دور الكلب الميت! حرَّكتُها قليلاً، نتفه زغيرة. استجابت كزند من الخشب مشبّع بالماء. سوف تظل متمددة بتثاقل هكذا متظاهرة بالنوم. نعم، أدخلته حتى منتصفه. يجب أن أحركها بحركة محورية مثل الرافعة، لكنها قابلة للحركة وكل شيء سهل وليِّن، رائع أن تنكح زوجتك وكأنها حصان ميت. أنت تعرف كل تموُّج في البطانة الحريرية؛ يمكنك أن تأخذ وقتك وأن تفكّر في أي أمر تشاء. إن الجسد جسدها لكن الكسّ لكَ. الكس والأير، متزوجان، أي والله، حتى وإن كان الجسدان كل منهما يتجه في طريقٍ مختلفة. وفي الصباح سوف يتواجه الجسدان وقد طرأ عليهما تغيُّر بسيط؛ سوف يتصرّفان وكأنهما مستقلان، وكأن الأير والشيء الآخر ما هما إلا عضوان للتبوّل. وبما أنها نائمة لا تعترض على الطريقة التي ألجها فيها. وحصلت على واحد من تلك الانتصابات الخرساء، الخالية من الإحساس، وكأن أيري مجرد خرطوم من المطاط بلا فوهة. وبأطراف أصابعي أستطيع أن أحركها على هواي. وأفرغ شحنة فيها وأبقيه فيها، أقصد خرطوم المطاط الضخم. إنها تنفتح وتنغلق كزهرة. إنه عذاب، لكنه النوع الصحيح من العذاب. تقول الزهرة: ابق هنا، يا ولدي! الزهرة تتكلم كإسفنجة سكرى. تقول الزهرة: إنني آخذ هذه القطعة من اللحم لكي أرعاها إلى أن أستيقظ. وماذا يقول الجسد، بينما السارية المستقلّة تتحرك على محمل الكريات؟ الجسد مجروح ومذلّ. الجسد يفقد اسمه وعنوانه مؤقتاً. الجسد يرغب في أن ينتزع الأير من مكانه ويحتفظ به كما يفعل الكنغارو، وإلى الأبد. إن مود ليست

هذا الجسد المنطرح وطيزه باتجاه السماء. الضحية العاجزة لخرطوم المطاط. إن مود، لو أن المؤلف هو الله وليس زوجها، ترى نفسها واقفة على مرج أخضر وقفةً تنمُّ عن عدم رضاها، وتحمل مظلة حمراء جميلة. وثمة يمام جميل رمادي اللون ينقر حذاءها. هذه اليمامات الجميلة، كما ترغب في اعتبارها، تقول بلغتها الهديلية، كم أنت مخلوقة كريمة، سمحة. إنها تتبرّز برازاً أبيض طوال الوقت، ولكن بما أنها يمامات أرسلتها السماء العالية، فالجزء الأبيض هو مجرد كعك ملائكيّ وكلمة خراء كلمة سيئة اخترعها الإنسان حين ارتدى الملابس وتحضَّر. ولو أنها تنظر نظرة محدِّقة أثناء تبريكها يمامات الله الصغيرة لشاهدت امرأة فاجرة لا تعرف الحياء تقدِّم إلى رجلٍ عارٍ الجزءَ الخلفيّ من جسدها، تماماً كما تفعل بقرة أو فرس في الحقل. إنها لا تريد أن تفكر في هذه المرأة، خاصة وهي في ذاك الوضع المشين. إنها تحاول أن تبقي العشب الأخضر محيطاً بها وأن تبقي المظلّة مفتوحة. ما أمتع الوقوف عارياً معرّضاً لأشعة الشمس الساطعة وتبادل أطراف الحديث مع صديق وهميّ! مود تتكلم الآن بنبرة كيّسةٍ، كما لو أنها ترتدي البياض من رأسها إلى أخمصها ونواقيس الكنيسة تقرع: إنها موجودة في زاويتها الخاصة جداً من الكون، تشبه راهبة ترتّل المزامير بلغة العميان. تنحني لتمسِّد رأس يمامة، الفائق النعومة والغزير الريش، والشديد الدفء بفعل الحب، وكأنه قطعة من الدماء ملفوفة بالمخمل. الشمس مشرقة وضّاءة والآن، آه ما أمتع هذا، هي تدفئ أطرافها الخلفية الباردة. وكملاكٍ رحيمٍ تباعد ما بين ساقيها: اليمامة ترفرف بين ساقيها. اليوم ما زال يوم أحد ولا يوجد أحد في هذه الزاوية من الكون. مود تتحدّث إلى مود. تقول إذا ما أتى

twitter @baghdad_library

ثور واعتلاها لن تتزحزح إنشاً واحداً. لذيذ، أليس كذلك يا مود، هكذا تهمس لنفسها. شعور لذيذ جداً. لم لا آتي إلى هنا كل يوم وأقف هكذا ؟ إنه لشيء رائع يا مود. تنزعين ملابسك كلها وتقفين على العشب؛ تميلين لتطعمي اليمامات ويرتقي الثور التل ويضع عضوه الرهيب داخلك. أوه يا الله، لكن أخذه بهذه الطريقة لذيذ جداً. العشب الأخضر النظيف، ورائحة جلده الدافئ، وذاك الشيء الناعم الطويل الذي يحركه دخولاً وخروجاً - أوه يا الله، أريد أن ينكحني كما ينكح بقرة. أوه يا إلهي، أريد أن أنكَح وأنكَح وأنكَح ...

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع

في الأمسية التالية عرَّجَ صديقي القديم ستانلي عليَّ. ومود تبغض ستانلي، ولسبب وجيه، ذلك أنه كلما نظر إليها رماها فجأة بشتيمة خرساء. وكان لسان حال نظرته الصريح جداً يقول - " إذا ما وجدتُ تلك العاهرة في منزلي فسوف أهوي بالفأس عليها وأقطّعها ". وستانلي مترعٌ بأحقاد دفينة. وهو يبدو الآن نحيلاً وهزيلاً كما بدا لدى مغادرته سلاح الفرسان في فورت أوغلثورب قبل سنين. وما يبحث عنه هو قتلُ شخصٍ ما. ويمكن أن يغتالني، أنا أفضل أصدقائه، إذا ضَمِنَ أن يفلت بفعلته. إنه شديد القسوة على العالم. وزاخر بحقد وروح انتقامية متراكمين. وقد جاء إليّ ليتأكد من أني لا أحرز أي تقدّم، إني أتدهور أكثر فأكثر. ويقول " لن تحقق أي شيء. أنت مثلي - ضعيف. وليس لديك طموح ". إننا نشترك في طموح واحد، ونستخفُّ به: الكتابة. قبل خمس عشرة سنة كان لدينا أمل أكبر، عندما كنا نتبادل الرسائل. وكان فورت أوغلثورب مكاناً لستانلي؛ لقد جعل منه سكيراً، ومقامراً، ولصاً. وهذا جعل رسائله مثيرة للاهتمام. لم تكن تدور أبداً حول الحياة العسكرية، وإنما حول كتّاب رومانطيقيين، وغرباء، حاول أن يقلّدهم في أسلوب كتابته. ما كان ينبغي على ستانلي أن يعود إلى الشمال؛ كان

يجب أن يترجّل من القطار في محطة تشيكاموغا، وأن يتدثّر بأوراق التبغ وروث البقر، ويتخذ له زوجة هندية. لكنه بدل ذلك عاد أدراجه إلى الشمال إلى القاعة الجنائزية، واتخذ فتاة بولونية بدينة زوجة، بمبيضين خصبين، وكبّلته بنسلٍ من البولونيين الصغار، وحاول عبثاً أن يكتب رسائل وهو واقف فوق حوض المطبخ. ونادراً ما كان ستانلي يتكلّم عن أي شيء بصيغة الحاضر؛ كان يفضّل أن ينسج حكايات لاتصدّق عن رجال أحبهم وأعجب بهم في صفوف الجيش.

كان ستانلي يتّصف بخصال البولونيين السيئة كلها. كان تافهاً، لاذعاً، عنيفاً، كريماً كرماً زائفاً، رومانطيقياً مثل كديش متهدِّم، مُخلِصاً كأحمق وغادراً بعمق حتى أسفل قدمه. وفوق ذلك كله، كان ببساطة يأكله الحسد والغيرة.

ثمة شيء واحد أحبّه في البولونيين - لغتهم. إن اللغة البولونية، حين يتكلّمها العقلاء، أدخل في حالة نشوة، ويثير جرْس اللغة عندي صوراً غريبة تحتوي دائماً مروجاً بأعشابٍ أوراقها حَسَنَةُ التكوين وتلعب فيها الزنابر والأفاعي دوراً كبيراً. وأذكر أياماً من الماضي البعيد حين كان ستانلي يدعوني فيها لزيارة أقربائه؛ كان يحمّلني لفافة من النوتات الموسيقية لأنه أراد أن يتباهى بي أمام أولئك الأقرباء الأثرياء. وأذكر ذلك الجو جيداً لأنني في حضور أولئك البولونيين الزائفين تماماً، والمعسولي الألسنة، والمغالين في التهذيب. والمدّعين، كنت دائماً أشعر بعدم ارتياح كامل. ولكن حين كانوا يتجاذبون أطراف الحديث تارة بالفرنسية، وتارة أخرى بالبولونية، كنت أسترخي في جلستي وأراقبهم مبهوراً. كانوا يرسمون على وجوههم ابتسامات بولونية غريبة، مختلفون

twitter @baghdad_library

في ذلك كل الاختلاف عن أقاربنا، الذين كانوا برابرة حمقى في أعماقهم. كان البولونيون أشبه بأفاعٍ واقفة تضعُ ياقات الدبور. ولم أعرف أبداً عمّا كانوا يتحدثون ولكن كان دائماً يبدو لي وكأنهم يعملون وبكل تهذيب على قتل أحدهم. كانوا جميعاً مزوّدين بخناجر وسيوف عريضة يقبضون عليها بأسنانهم أو يلوحون بها مهدّدين بضراوة ويهجمون راعدين. لم يكونوا ينحرفون عن طريقهم بل يسيئون معاملة النساء والأطفال، ويسمّرونهم بمسامير ضخمة وهم متلفعون بأعلام البطولة المضرّجة بالدماء. يحدث هذا كله طبعاً، في غرفة الجلوس أثناء رشف كوب من الشاي الثقيل، والرجال يلبسون قفازات بلون الزبد، والنساء يدلّين نظارتهن السخيفة ذوات الأيدي. كانت النساء دائماً ذوات جمال أخاذ، من نوع الحوريات الشقراوات اللواتي جُمعن قبل قرون أثناء الحملات الصليبية. كنَّ يهمسن بكلماتهن المتعددة الألوان والطويلة بأفواه صغيرة، حسّية شفاهها ناعمة كأزهار إبرة الراعي. هذه الهجمات الغاضبة بالأفاعي وبتلات الورد أشاعت نوعاً مُسكِراً من الموسيقى، ثرثرة فولاذية يمكنها أيضاً أن تسجّل أصواتاً شاذة كالنشيج وسقوط تدفّقات المياه.

في الطريق إلى المنزل كنا دائماً نجتاز بقعاً موحشة، معتمة من الأرض مرصّعة بصهاريج الغاز، والمداخن المدخّنة، ورافعات الحنطة، ومبانٍ لإيواء العربات ومستحلبات بيوكيميائية أخرى من حضارتنا المجيدة. وقد حمل إليّ الطريق إلى المنزل حقيقة أني مجرد نكرة، قطعة أخرى من فضلات نتنة مثل أكوام النفايات المحترقة في قطع الأرض الخالية. وطوال الطريق هناك كانت تفوح رائحة النتانة الحادة من المواد

الكيميائية والنفايات والفضلات المحترقة. كان البولونيون يشكلون عرقاً قائماً بذاته وتشبّثتْ لغتهم بي كأطلالٍ مدخّنةٍ من ماضٍ لم أعشه قط. إذن فكيف خمّنت أني سأمخر ذات يوم عباب عالمهم الغريب في قطار مملوء باليهود يرتعدون خوفاً كلما خاطبهم بولوني؟ نعم، سيقدَّر لي أن أخوض صراعاً بالفرنسية (أنا، النكرة الحقير من بروكلن) مع نبيل بولوني - لأني لم أتحمّل رؤية أولئك اليهود ينكمشون مرتعدين من الخوف. وسوف أسافر إلى عزبة كونت بولوني لأراقبه وهو يرسم لوحات جيّاشة بالعواطف من أجل " صالون الخريف ". كيف كان لي أن أتخيّل مثل ذلك الاحتمال، وأنا أجتاز المستنقعات مع صديقي ستانلي النكد والهمجي؟ كيف كان لي أن أصدّق أني، أنا الضعيف، المجرّد من الطموح، سوف أتمرّد على سكوني ذات يوم، وأتعلّم لغة جديدة، وأسلوباً جديداً في الحياة، وأحبه، وأتوه، وأفكّ ارتباطاتي كلها، وأستعيد في ذاكرتي ما أخوض فيه الآن وكأنه كابوس حكاه لي أبله في محطة للقطار في ليلة قارسة البرد أثناء تغيير القطار وأنا في حالة نشوة؟

في تلك الليلة بالذات تصادف أن زارني الصغير كرلي. ومود لم تكن تحب كرلي، بغضّ النظر عن الإثارة التي منحها إياها حين داعب بخبث مؤخرتها عندما انحنت لتضع اللحم في الفرن. وطالما ظن كرلي أنه كان يفعل مثل تلك الأشياء دون أن يلاحظه أحد؛ وكانت مود دائماً تسمح للناس أن يفعلوا معها تلك الحركات وكأنها تحدث مصادفة؛ وكان ستانلي يبيّن بوضوح تام أنه لم ير أي شيء، ولكن تحت الطاولة كان في الإمكان رؤيته بجلاء وهو يصبُّ حمض النتريك على برجمات أصابعه الوقحة الصدئة. من جهتي، كنت ألاحظ كل شيء، حتى التشققات الجديدة في

twitter @baghdad_library

الجدار المجصّص الذي كنت أحدّق إليه بتركيز وأنا وحدي بحيث كان في إمكاني، إذا ما أتيح لي الوقت اللازم، أن أعيد، بأقصى سرعة، وبدون أن تفوتني فاصلة أو شحطة، قراءة كامل تاريخ الجنس البشري المؤدي حتى الإنش المربّع ذاك من الجص الذي كانت عيناي تتركّزان عليه.

في تلك الليلة بالذات كان الجو خارج المنزل دافئاً والعشب حريري الملمس. لا موجب للمكوث في المنزل ليغتال كل منا الآخر بصمت. مود تواقة إلى انتقالنا من منزلنا؛ فنحن ندنّس الحرَم. ثم إنها ستحيض في غضون يوم أو يومين وهذا سيجعلها أشد ميلاً إلى البكاء، والحزن والكآبة. وأفضل ما يمكنني أن أفعله هو أن أخرج من المنزل فقد يشاء الحظ وتصدمني سيارة شاحنة؛ كان ذلك سيكون مصدر راحة غامرة لها حتى أني أكاد لا أصدق الآن أني لم أقم بذلك الأمر الصغير وأطوّق عنقها بمنّة. لابد أنها أمضت ليالٍ عِدة جالسة وحدها تصلّي لكي أعود إليها ممدّداً على نقّالة. لقد كانت من ذلك النوع من النساء اللواتي، إذا ما حدث أمر كهذا، يقلن بصراحة تامة - " الحمد لله لأنه فعلها أخيراً! "

مشينا إلى الحديقة العامة وتمددنا على ظهرينا فوق العشب القصير. كانت السماء تفيض وداً وسكينة، كطاسٍ بلا حدود، شعرت بارتياح غريب، وبانفصال، وصفاء جدير برجل حكيم وفوجئت بستانلي يعزف لحناً مختلفاً. كان يقول إني أدين لنفسي بفترة راحة، وإنه بوصفه صديقاً لي سوف يساعدني على فعل ما لا أستطيع فعله وحدي.

تمتم " دع الأمر لي، سأتدبر الأمر لك "، ثم أضاف، " ولكن لا تأتِ إليّ بعد ذلك وتقول إنك ندمت "

سألته كيف ينوي أن يتدبر الأمر؟

أفهمني أن هذا ليس من شأني. قال " أنت يائس، أليس كذلك؟ تريد أن تتخلّص منها، هذا كل شيء، صح؟ "

هززت رأسي موافقاً وابتسمت، ابتسمت لأنه بدا من رابع المستحيلات أن يكون ستانلي، من بين الناس جميعاً، شديد الثقة بنفسه في إعداد مثل تلك الضربة الحاسمة. لقد تصرّف وكأنه قد خطّطَ للأمر كله قبل وقت طويل، وكأنه كان فقط في انتظار أن تسنحَ اللحظةُ المناسبة ليفتح الموضوع. وطلب أن يعرف المزيد عن مَرَه - فهل أنا واثق كل الثقة بها؟

قال، ببرود دمه المعتاد " والآن عن الطفلة، سيكون هذا صعباً عليك. لكنك ستنسى أمرها بعد فترة من الزمن. أنت لم تقصد أن تكون أباً. ولكن، إياكَ أن تأتي إليّ وتطلب مني أن أصحِّح الوضع مرة أخرى، أتفهم؟ عندما سأنجز هذا العمل سيكون ذلك مرة وإلى الأبد. أنا لا أؤمن بالإجراءات الجزئية. الآن، لو كنت في مكانك لذهبت إلى تكساس أو ما شابه من الأماكن. وإياك أن تعود إلى هنا! يجب أن تبدأ من جديد، وكأنك باشرت حياتك للتو. تستطيع أن تفعل هذا، إذا شئت. " لا أستطيع، أنا في فخ ". لهذا تراني أريد أن أساعدك. أنا لا أفعل هذا إكراماً لك - أنا أفعله لأني أحب أن أفعله. بل يمكنك أن تنسى وجودي وأنت منهمك فيه. ولو كنت في مكانك لنسيت الجميع "

كان كرلي مفتوناً. طلب أن يعرف وعلى الفور إن كان يستطيع أن يرافقني.

انفجر ستانلي قائلاً بوحشية " لا تأخذه معك، مهما فعلت! إنه فاسد - سوف يقف عائقاً في طريقك، لا أكثر. ثم، إنه لا يمكن الوثوق منه "

twitter @baghdad_library

تأذّى كرلي وأبدى تألّمه.

قلت " اسمع، لا تزيد الطين بلّه؛ أنا أعرف أنه فاسد، ولكن ماذا يهمّ ... "

قال ستانلي بفظاظة " من ناحيتي، أنا لا أتصنّع الأشياء، ولا أريد أن أراه بعد الآن. يمكنه أن يرحل ويموت لا يهمني. أنت متهاون - لهذا تراك واقعاً في فوضى عارمة. أنا ليس لدي أي صديق، أنت تعلم ذلك. ولا أريد أياً منهم. أنا لا أفعل أي شيء لأي إنسان من باب الشفقة. إذا تألّم فهذا أمر يؤسف له، ولكن عليه أن يبتلع ما به قدر استطاعته. أنا جادّ فيما أقول. جادّ حقاً "

" كيف أعرف أني أستطيع أن أثق فيك في معالجة هذا الأمر كما ينبغي؟ "

" لست مضطراً إلى وضع ثقتك فيّ. ذات يوم - لن أقول متى - سيحدث هذا. ولن تعرف كيف يحدث. سوف تفاجأ مفاجأة عمرك. ولن تستطيع أن تغيّر تفكيرك لأن الأوان سيكون قد فات. سوف تصبح حراً شئت أم أبيت - هذا كل ما أستطيع أن أقوله. إنها آخر خدمة أقدمها إليك - بعد ذلك عالج أمرك بنفسك. إياك أن تكتب إليّ قائلاً إنك تكاد تموت جوعاً لأني لن أوليك آذاناً صاغية. اغرق أو اسبح، هذا هو واقع الحال"

نهض واقفاً ونفضَ الغبار عن ملابسه. قال " أنا ذاهب، اتفقنا؟"

قلت " أوكيه "

قال، قبل أن يهمّ بالرحيل " اعطنا ربع دولار "

لم يكن معي ربع دولار. التفت إلى كرلي. هزّ رأسه إيجاباً، لكي يشير إلى أنه فهمني، لكنه لم يأتِ بأي حركة ليسلّمه القطعة.

قلت " هلاً أعطيته إياها. سأردّها إليك حالما نصل إلى المنزل"

قال كرلي، وهو يرمي ستانلي بنظرة احتقار " له؟ فليستجدها!"

أدار ستانلي ظهره ومشى مبتعداً. كانت له مشية متبخترة، جديرة براعي بقر. حتى من ظهره بدا أشبه بقاطع طريق.

غمغم كرلي " ابن الحرام قذر! أتمنى لو أطعنه بسكين "

قلت " حتى أنا أكاد أكرهه. سوف يذوي ويموت ولن يلين. لا أدري لماذا يفعل هذا لأجلي - إنه ليس من شيمه "

" ما أدراك ما الذي سيفعله؟ كيف تثق في رجل كهذا؟ "

قلت " كرلي، إنه يريد أن يقدِّمَ لي معروفاً. لدي حدس بأن النتيجة لم تكن سارة، لكنني لا أجد مخرجاً آخر. أنت ما زلت صغيراً، ولا تدري فحوى الأمر. أشعر بشيء من الارتياح. إنه منعطف جديد "

قال كرلي بمرارة " إنه يذكّرني بوالدي. إنني أكرهه، أكره أحشاءه. أودّ لو أراهما معاً مشنوقين من مشنقة واحدة. أود لو أحرقهما، ابنيّ الحرام القذرين "

بعد ذلك ببضعة أيام كنت جالساً في محترف ألريك أنتظر وصول مَرَه مع صديقتها لولا جاكسن. لم يكن ألريك قد قابل مَرَه بعد.

كان يقول، مشيراً إلى لولا " أتظن أنها جيدة؟ أعتقد أننا لن نضطر إلى إطالة المراسيم. ماذا"

قرون الاستشعار هذه التي ينصبها ألريك كانت تسلّيني كثيراً. كان يحب أن يضمن أن الأمسية لن تذهب سدى. لم يثق فيّ أبداً حين يتعلّق الأمر بالنساء، أو بالأصدقاء؛ في رأيه المتواضع كنت شديد التهوّر قليلاً.

twitter @baghdad_library

مهما يكن، حالما وقع بصره عليهما شعر بالاطمئنان. في الواقع لقد ارتبك تماماً. تنحّى بي جانباً على الفور تقريباً ليهنّئني على ذوقي.

كانت لولاّ فتاة غريبة الأطوار. كان فيها عيب واحد - معرفتها أنها ليست طاهرة نقيّة. وهذا جعل من الصعب التعامل معها، على الأقل في المراحل التمهيدية. وغالت قليلاً في العمل على إثارة إعجابنا بثقافتها وحسن تنشئتها. وبعد أن شربنا بضعة كؤوس أصبحت مستعدة تماماً لترينا مدى لدانة جسدها. لقد كان ثوبها أطول من أن يُظهِر بعضاً من الروائع التي كانت تواقة إلى عرضها. اقترحنا عليها أن تخلع ثوبها، ففعلت، كاشفة عن جسد مترهّل برزت محاسنه بارتدائها جورب من الحرير الصافي وصدرية للثديين، وسروال تحتيّ بلون أزرق باهت. وقرّرت مَرَه أن تحذو حذوها. وحثثناهما للتو على التخلّص من صدريتيّ الثديين. وكان هناك ديوان ضخم جثمنا عليه نحن الأربعة ونحن في حالة عناق مشترك بلا تمييز بين رجل وامرأة. أطفأنا الأنوار وأدرنا أسطوانة. ورأت لولا أن الجو حارّ إلى درجة لا يمكنها أن تحتفظ على جسدها غير جورب الحرير.

كنا موجودين على مساحة ياردة مربعة لكي نرقص عليها لحماً إلى لحم. وبالكاد كنا قد تبادلنا الشركاء، وبالكاد كنت قد دفنت رأس أيري في بتلات لولاّ القاتمة، وإذا بجرس الهاتف يرنّ. إنه هيمي لوبشر يخبرني بنبرة صوت كئيبة وملحّة أن السُعاة قد أعلنوا الإضراب. قال " يجب أن تكون حاضراً في صباح الغد الباكر، هـ. م. لا أحد يدري ماذا سيحدث. ما كنت لأزعجك لولا سبيفاك. إنه يفتّش عنك. يقول إنه كان عليك أن تعلم أن الفتية سيضربون. لقد استأجر لتوه أسطولاً من سيارات الأجرة. غداً ستحدث فوضى جحيميّة "

قلت " لا تدعه يعلم أنك اتصلت بي، سأحضر في الصباح الباكر "

قال هيمي بصوت حاد " هل تقضي وقتاً ممتعاً؟ ألا أمل لي في أخذ نصيبي من الحفل الذي تقيمون؟ "

" أخشى أنْ لا يا هيمي. إذا كنت تبحث عن شيء مميّز أستطيع أن أنصحك بواحدة موجودة في مكتب - I. Q أنت تعرفها صاحبة الثديين الكبيرين. إنها تنتهي من عملها عند منتصف الليل"

كان هيمي يحاول أن يخبرني شيئاً حول العملية الجراحية التي ستجرى لزوجته. ولم أفهم ما قال ذلك لأن لولاّ كانت قد انزلقت عليّ وأخذت تدلّل أيري. قطعت المحادثة من منتصفها وعلّقت السماعة وتظاهرت بأني أشرح للولا طبيعة المكالمة. كنت أعرف أن مَرَه ستكون في إثري فوراً.

بالكاد كنت قد أدخلته حتى منتصفه، ومال ظهر لولا إلى الخلف حتى كاد ينقسم قسمين، وما أزال أتكلّم عن السعاة الفتيان، عندما سمعت ألريك ومَرَه يتململان. تراجعت ورفعت سماعة الهاتف ورحت أهتف وأغمغم عشوائياً. وكم كانت دهشتي عظيمة حين سمعت صوتاً نسائياً ناعساً يردّ - " أهذا أنت، يا حبيبي؟ كنت للتو أحلم بك".

قلت، نعم؟ وتابعتْ، وكأنها ما زالت نائمة " عجِّل بالعودة إلى المنزل، هلاّ فعلت يا حبيبي؟ إنني أنتظر، وأنتظر. قل لي إنك تحبني..."

قلت، بصوتي العادي الواضح " سآتي في أسرع وقت ممكن، يا مود. السُعاة مضربون. ليتك تتّصلين ... "

أتاني صوت المرأة المجفل " ما هذا؟ ما ذا تقول؟ ما هذا؟ "

" أقول أرسل بعض السُعاة إلى مكتب D.T واطلب من كوستيغان أن ... " وأُغلقَ الخط.

twitter @baghdad_library

كان الثلاثة مستلقين على الديوان. كنت أشمُّ رائحتهم في الظلام. قال ألريك بصوت مخنوق " آمل ألا تكون مضطراً إلى المغادرة ". كانت لولا منبطحة فوقه، وذراعاها تطوقان عنقه. مددتُ يدي بين ساقيها وقبضت على أير ألريك. كنت راكعاً على ركبتيَّ، في وضعٍ جيد لأعالج لولا من الخلف في حال قررتْ مَرَه فجأة أن تذهب إلى المغسلة. رفعتْ لولا نفسها قليلاً ثم غاصت على أير ألريك مطلِقةً نخيراً وحشياً. وكانت مَرَه تجرُّ نفسها نحوي. تمدّدنا على الأرض بجوار الديوان وانهمكنا. وبينما نحن كذلك فتح باب الصالة، وفجأة أُشعِلَ الضوء، وإذا بأخي ألريك أمامنا وبصحبته امرأة. كانا ثملين قليلاً ومن الواضح أنهما عادا في ساعة مبكرة ليقوما بقليل من النكاح الهادئ وحدهما.

قال ند، وهو واقف عند ممر الباب يتفحّص المشهد وكأنه قضية عادية " لا تتوقفوا بسببنا ". وفجأة أشار إلى شقيقه وصرخ - " يا إلهي! ماذا حدث؟ إنك تنزف! "

نظرنا جميعاً إلى أير ألريك الدامي: كان بدءاً من سرّته وحتى ركبتيه كتلة من الدماء. كان موقفاً محرجاً للولا.

قالت، والدم يسيل على فخذيها " آسفة، لم أحسب أن الوقت قد حان "

قال ألريك " لا بأس. وماذا في بعض الدماء بين حين وآخر؟ "

ذهبتُ معه إلى المغسلة، وفي الطريق توقّفتُ برهة لكي أتعرّف إلى فتاة شقيقه. كان جمالها يكاد يذوي. مددت يدي لنتصافح، وفي طريق يدها لتقابل يدي مرّت مصادفة على أيري. هذه الحركة أشاعت شيئاً من الارتياح بين الجميع.

قال أليك، وهو يغتسل باجتهاد " عمل رائع. ما رأيك في أن أقوم بها مرة أخرى؟ أقصد، لا ضرر من تلويث رأس أيرك بقليل من الدم، أيوجد ضرر؟ أشعر كأني أودُّ أن أقوم بمحاولة ثانية. ما رأيك؟ "

قلت بمرح " إنه جيد للصحة. كنت أتمنى لو أكون مكانك "

قال، وهو يمرِّر لسانه بفسوق على شفته السفلى " ما كنت لأمانع على الإطلاق. أتظن أنك تستطيع أن تفعلها؟ "

قلت " ليس هذه الليلة. أنا ذاهب الآن. يجب أن أكـــون نشطاً ومتأنقاً غداً "

" هل ستأخذ مَرَه معك؟ "

" حتماً. قل لها أن تأتي إلى هنا دقيقة. هلاَّ فعلت؟ "

حين فتحت مَرَه الباب كنت أرشُّ البودرة على أيري. وعلى الفور التحمنا بقوة.

" ما رأيك أن نجرّبها في المغطس؟ "

أدرت صنبور الماء الحارة ورميتُ فيه قطعة من الصابون. فركت فرجها بالصابون بأصابع مدغدغة. في تلك الأثناء كان أيري يمضغ شفتيها، وأذنيها، وشعرها. وتلألأت عيناها كأنما ضربتها حفنة من النجوم. كل جزء منها كان أملس وصقيلاً وثدييها على استعداد للانفجار. خرجنا، وتركتها تمتطيني وجلست على حافة المغطس. كنا نقطر ماءً. مددتُ إحدى يديّ لتناول المنشفة ورحت أجففها من الأمام وإلى أسفل. تمددنا على ممسحة الحمّام وطوّقت عنقي بساقيها. أخذت أديرها كإحدى تلك الدمى المقطوعة السيقان التي تمثّل مبدأ الجاذبية.

بعد ذلك بليلتين كنت في مزاجٍ عكر، وقد استلقيت على الأريكة

twitter @baghdad_library

في الظلام، وكانت أفكاري تنتقل بسرعة من مَرَه إلى الحياة التلغرافيّة العقيمة واللعينة. وكانت مود قد أتت إليّ لتخبرني شيئاً فأخطأتُ وأخذت أمرِّر يدي بلا اهتمام إلى أعلى ثوبها بينما كانت واقفة هناك تشتكي من شيء ما. فخرجت وهي تشعر بالمهانة. لم أكن أفكر في أن أنكحها - لقد فعلت ذلك بحركة طبيعية، كما يداعب المرء قطة. فحين تكون يقظة لا يمكنك أن تلمسها بتلك الطريقة. والأمر الثابت أنه لا يمكن نكحها على جناح السرعة. كانت ترى أن النكاح متعلّق بالحب: الحب الشهواني، ربما. لقد وقعت أحداث كثيرة منذ أيام معرفتي الأولى بها، حين كنت أبرمها حول رأس أيري وأنا جالس على مقعد البيانو. الآن أصبحت مثل طباخة تعدُّ قائمة طعام صعبة. أصبحت تتخذ قرارها بتروٍّ، وتجعلني أعلم بطريقتها الماكرة المكبوتة أن الوقت قد حان للقيام بها. لعلها لهذا السبب جاءت إليّ قبل قليل، على الرغم من أن أسلوبها كان حتماً غريباً في التوسُّل لبلوغها. على أي حال لم أهتمّ بما إذا كانت تريدها أم لا. ولكن فجأة خطرت كلمات ستانلي في بالي، وبدأت أرغب فيها بشدة. ورحت أردّد لنفسي " هيا انتهز فرصتك الأخيرة ". في الواقع، قد أصعد إلى فوق وأعالجها أثناء نومها الكاذب. وتذكّرت سبيفاك كان يراقبني كصقر خلال الأيام الأخيرة. كان حقدي على حياة العمل في مجال البرق متركِّزاً في حقدي عليه. كان الكون المتعضّي اللعين متجسِّداً. يجب أن أصقله بطريقة ما قبل أن يطردوني من العمل. ورحت أفكر في وسيلة لأستدرجه إلى رصيف مرفأ مظلم وأحضر معي صديقاً أطوّقه بمنّة وأجعله يرميه في المياه. وفكرت في ستانلي. إن ستانلي خليق بأن يستمتع بالقيام بعملٍ كهذا ...

إلى متى سيبقيني في حالة من القلق والتوتر؟ تساءلت. وأي شكل سيتّخذ هذا القرار؟ أكاد أتخيّل مَرَه تأتي لتقابلني في المحطة. سوف نبدأ حياة جديدة معاً، صح! ولم أجرؤ على تصوّر نوع تلك الحياة. قد يجمع لنا كرونسكي ثلاثمائة أخرى. وأصحاب الملايين أولئك الذين تحدّثت عنهم، لابد أن يفيدونا بشيء. وبدأت أفكر بلغة الآلاف - ألف لوالدها العجوز، وألف لتكاليف سفري، وألف لتعيننا على الحياة بضعة أشهر. وحالما أصل إلى تكساس، أو إلى مكانٍ نبذه الله، سوف أصبح أكثر اطمئناناً، وأتوقف بعض الوقت في مكاتب الصحف معها - كانت دائماً تترك انطباعاً طيباً - وأطلب السماح لي بكتابة صورة وصفيّة صغيرة، وأصادف رجال أعمال وأريهم كيف يكتبون إعلاناتهم. وفي ردهات الفنادق سأقابل حتماً شخصاً ودوداً يوفّر لي فرصة. إنّ البلد كبير شاسع، وثمة الكثير من الذين يشعرون بالوحدة، والكثير من الكرماء المستعدّين للعطاء، إذا ما قابلوا مَنْ يستحق. سوف أكون صادقاً وصريحاً. لنفرض أننا وصلنا إلى ميسيسيبي ونزلنا في فندق متداعٍ قديم. يتقدّم رجل مني من قلب الظلام ويسألني عن حالي، رجل يتحرّق إلى التحدّث. سوف أقدمه إلى مَرَه. وسنتمشّى ذراعاً بذراع ونتجوّل تحت ضوء القمر. والأشجار مختنقة بالنباتات المتعرّشة، والمغنولية تتعفّن على سطح التربة، الجو مشبّع بالرطوبة، والحرارة، يجعل الأشياء تتعفّن - والناس أيضاً. سوف أكون بالنسبة إليه كالنسمة العليلة التي تهبُّ من الشمال. سوف أكون صادقاً، وصريحاً، ومتواضعاً تقريباً. سوف أكشف أوراقي فوراً. هذا هو أنت يا رجل، وهذا هو الوضع. إنني أحب هذا المكان، وأودّ لو أمكث هنا طوال البقية الباقية

twitter @baghdad_library

من حياتي. وهذا سيخيفه قليلاً، إذ لا يمكنك أن تبدأ بالتحدّث على هذا المنوال مع رجلٍ من الجنوب هكذا بلا مقدمات. " ماذا تقصد؟ "، ثم سأتكلم من جديد بكل صراحة، بنعومة وتأني، وكأني مزمار سُدَّ طرفه بإسفنجة مبللة. سأعزف له لحناً صغيراً أشبه برياح الشمال الباردة، أشبه بصفير مصنع مُصقعٍ في صباح شديد البرودة. يا سيد رجل، أنا لا أحب البرد. لا أحبه البتّة يا سيدي! أريد أن أقوم بعملٍ شريف، أي شيء يعينني على الحياة. " هل لي أن أدخل في الموضوع مباشرة؟ " لا أظنك ستحسبني مجنوناً، ماذا؟ المكان موحش في الشمال. نعم يا سيدي، الخوف والوحشة يسببان الحزن. نقيم في غرف صغيرة، نأكل بالسكاكين والشوك، ونحمل ساعات يد، وأقراص علاج الكبد، وفتات خبز، وسجقاً. لا أدري ماذا سنفعل هناك، بشرفي، يا سيد. إننا من فرط الخوف بحيث نقول شيئاً، شيئاً حقيقياً. لا تنم ... ليس بعمق. ندور طوال الليل ونصلّي كي تحلَّ نهاية العالم. إننا لا نؤمن بأي شيء: نكره كل شيء، ويسمّم أحدنا الآخر. كل شيء متراصّ وصلب، كل شيء مثبّت بحديد حامٍ وقاس. لا نعمل أي شيء بأيدينا. نبيع. نبيع ونشتري. نبيع ونشتري، هذا كل شيء، يا مستر ...

يتراءى لي بوضوح السيد العجوز واقفاً تحت شجرة دانية الأغصان يمسح قوسه المحموم. إنه لا يهرب مني، كما فعل آخرون. لن أدعه يفعل! سوف أقنعه بالسحر - طوال الليل، إذا رغبت في ذلك. أجعله يمنحنا جناحاً شرحاً في المنزل الكبير القريب من النهير. سوف يظهر الزنجي حاملاً صينية، ويقدّم لنا جلاّباً بنكهة النعناع. سوف نتأقلم. " هذا هو بيتك، يا بنيّ؛ امكث فيه قدر ما تشاء ". لا أرغب بخداع رجل كهذا. كلا، إذا

عاملني رجل بهذه الطريقة سوف أكون مخلصاً له، وحتى النهاية المريرة ...

لقد كان كل شيء واقعياً جداً بحيث أنني شعرت بأن عليّ أن أخبر مَرَه عنه فوراً. دخلت المطبخ وباشرت كتابة رسالة. " عزيزتي مَرَه- لقد حُلّت مشاكلنا كلها ... " وتابعت وكأن كل شيء واضح وحاسم، تراءت لي مَرَه مختلفة حينئذ. رأيتني واقفاً تحت أشجار ضخمة أتحدث إليها بطريقة أدهشتني. كنا نمشي متشابكي الذراعين خلال نباتات حديقة المطبخ، ونتحدث كما يجدر بالبشر. كان هناك قمر كبير أصفر اللون ساطع وكانت الكلاب تنبح في إثرنا. وخيّلَ إليّ أننا متزوجان وأن الدماء تجري عميقة وهادئة بيننا. سوف تلتمس مني إحضار بجعتين من أجل البركة الصغيرة الموجودة في خلفية المنزل. لا حديث عن المال، لا أضواء نيون، ولا شوبسوي[١٧]. كم هو رائع أن يتنفّس المرء طبيعياً، بلا استعجال، لا يبغي بلوغ أي هدف، ولا يقوم بأي عمل هام - فقط لكي يحيا! هذا ما تراه هي أيضاً. لقد تغيّرت. مَرَه. أضحى جسمها أكثر امتلاءً، وثقلاً؛ تتحرك ببطء، وتتكلم بهدوء، وأصبحت تلزم الصمت فترات أطول، وهذا كله حقيقي تماماً وطبيعي. ولو أنها تتجول وحدها أنا واثق من أنها ستعود وهي كما هي، لم يطرأ عليها أي تغيير، رائحتها أذكى، وخطوها أكثر ثباتاً وثقة.

" أتفهمين، يا مَرَه؟ أترين كيف سيكون عليه الأمر؟ "

كنت هناك، أدوِّن كل شيء بصدق، أكاد أبكي من روعته، وإذا بي أسمع مود تقرقع بخطاها القصيرة خلال الصالة. جمعت الأوراق معاً وطويتها. وضعت قبضة يدي فوقها وانتظرت أن تقول شيئاً.

---

١٧ - شوبسوي : صنف صيني من الطعام ، قوامه لحوم وخضار مفرومة . - المترجم .

twitter @baghdad_library

سألتني - مباشرة وبثقة " إلى مَنْ تكتب؟ "

أجبتها بهدوء " إلى شخص أعرفه "

" أظنه امرأة "

" نعم؛ هي امرأة، فتاة، لمزيدٍ من الدقة ". قلتها بتثاقل، ورصانة، وما أزال مشبّعاً بالنشوة، بصورتها واقفة تحت الأشجار الضخمة، والبجعتان تعومان بلا هدف على صفحة البركة الساكنة. قلت في نفسي، إذا أردتِ أن تعرفي فسأخبرك. لا أدري لماذا ينبغي أن أخبر مزيداً من الأكاذيب. أنا لا أكرهك كما كنت ذات مرة. أتمنى لو أنكِ تحبين مثلي - لكانت الحياة أيسر. لا أريد أن أسبب لك الألم. أريد فقط منك أن تدعيني أثبتُ وجودي.

" أنت تحبها. لست مضطراً إلى الإجابة - أعلم أن الأمر كذلك "

" نعم، هذا صحيح - أنا عاشق فعلاً. لقد وجدت الإنسانة التي أحبها حقاً "

" ليتك تعاملها بشكل أفضل من معاملتك لي "

قلت، وما أزال محافظاً على هدوئي، وما أزال آمل في أن تصغي إليّ حتى النهاية،" أتمنى ذلك. إننا لم نتبادل الحب حقاً يا مود، هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟ "

أجابت " أنت لم تكنَّ لي أي احترام - ككائن بشري. إنك تهينني أمام أصدقائك؛ وتعاشر نساءً أخريات؛ ولا تُبدي أي اهتمام بطفلتك "

" مود، أتمنى لو أنك ولو مرة واحدة لا تتكلمي بهذا الأسلوب. أتمنى لو أستطيع أن أتحدث عن الأمر بلا إحساس بالمرارة "

" أنت تستطيع - لأنك سعيد. لقد وجدتَ دمية جديدة "

" الأمر ليس كذلك، يا مود. اسمعي، لنفرض أن كل ما تقولين صحيح - فما الفرق الآن؟ لنفرض أننا على متن قارب وأنه يغرق ... "

" لا أفهم لماذا علينا أن نلجأ إلى الافتراض. أنت ستعاشر امرأة أخرى وسأبقى وحدي أكدُّ وأتعب، وأتولّى وحدي المسؤوليات كلها "

قلت، وأنا أرنو إليها بحنان حقيقي " أعلم هذا، وأريد منك أن تحاولي أن تغفري لي ذلك - أتستطيعين؟ ما نفع بقائي؟ لن نتعلم أبداً كيف يحب أحدنا الآخر. ألا نستطيع أن نفترق ونحن أصدقاء؟ لا أقصد أن أتركك مع الورطة. سوف أحاول أن أساهم بنصيبي - أنا جادّ "

" ما أسهل الكلام. أنت دائماً تعِدُ بأعمال تعجز عن إنجازها. سوف تنسى ما جرى بيننا حالما تخرج من المنزل. أنا أعرفك. لا أستطيع أن أكون كريمة معك. لقد خدعتني بشكل مرير، منذ البداية. كنت أنانياً، أنانياً بكل معنى الكلمة. لم أكن أصدّق أنه يمكن للكائن البشري أن يصبح بتلك القسوة، وانعدام الرحمة، وبعيداً تماماً عن الإنسانية. في الحقيقة، إنني الآن أكادُ لا أعرفك. هذه هي المرة الأولى التي تتصرّف بها على ..."

"مود، إن ما سأقوله فظ، ولكن لابد أن أقوله. أريد منك أن تفهمي شيئاً. ربما يجب أن أمرَّ بهذا لكي أتعلّم كيف أعامل امرأة. الخطأ ليس كله خطأي - إن للقدر أيضاً يداً فيه. في الواقع، حالما وقع نظري عليها عرفت ..."

قالت مود، وقد استولى عليها فضول الأنثى " أين قابلتها ؟ "

" في صالة للرقص. إنها راقصة مأجورة. تبدو سيئة، أعلم. ولكن لو رأيتها ... "

twitter @baghdad_library

" لا أريد أن أراها. لا أريد أن أسمع المزيد عنها. كنت فقط أتساءل "، ثم رمتني بنظرة مشفقة سريعة، " وتظن أنها المرأة التي ستوفّر لك السعادة؟ "

" أنتِ تسمّينها امرأة - إنها ليست كذلك، هي مجرد صبيّة صغيرة"

" وهذا أسوأ. آه، ما أشد حماقتك! "

" مود، الأمر ليس كما تظنين. يجب ألا تطلقي أحكاماً، أنا جادّ. كيف تدّعين المعرفة؟ على أي حال لا يهمني. لقد اتخذت قراري. "

هنا طأطأت رأسها. بدت حزينة ومرهقة بصورة تعصى على الوصف، كحطام إنسان معلّق من خطّاف تعليق اللحم. أخفضت بصري إلى الأرض، فلم أعد أقوى على تحمّل مرأى وجهها.

بقينا جالسين هكذا بضع دقائق، وكل منا لا يجرؤ على رفع بصره. سمعت شهقة وعندما رفعت عينيّ رأيت وجهها يرتعش ألماً. ثم وضعت ذراعها على الطاولة ورمت برأسها إلى أسفل، وهي تبكي وتجهش، وتضغط وجهها على الطاولة. ملتُ عليها ووضعت يدي على كتفها. حاولت أن أتكلم لكن الكلمات اختنقت في حنجرتي. ولما لم أدر ماذا أفعل رحت أفرك يدي على شعرها، وأداعبه برقة، وكأنّها كائن غريب عني، كأنَّ الرأسَ يخصّ حيواناً غريباً، جريحاً عثرت عليه في الظلام.

نجحت في أن أغمغم " هيا، هيا، إن هذا لن يفيد أبداً "

تضاعف نشيجها. عرفت أني قلت الكلام غير المناسب. لم أستطع أن أكبح نفسي. ومهما فَعَلَتْ - حتى لو قَتَلَتْ نفسها - ما كان ذلك ليغيّر الوضع. توقعتُ ذرفَ الدموع. توقعتُ أيضاً قليلاً أن أفعل هذا

الشيء الصغير - أن أداعب شعرها وهي تبكي وأقول كلاماً غير مناسب. كان ذهني متركّز على الهدف. لو أنها تنهي الموقف وتذهب لتنام فسأتمكن من إكمال الرسالة؟ كان في إمكاني أن أضيف حاشية عن كيِّ الجرح. كان يمكن أن أقول بفرح صادق ممزوج بالحزن - " انتهى ما بيننا ".

هذا ما كان يجري في رأسي وأنا أداعب شعرها. لم أكن دهري أشد نأياً عنها عندئذ. وبينما كنت أشعر بشهقاتها وهي تهزّ جسمها. شعرت أيضاً بالسرور وأنا أتخيّل كيف ستبدو رائقة بعد مرور أسبوع على ذلك. قلت في نفسي " سوف تشعرين كأنك امرأة جديدة. أما الآن فأنت تعانين كل هذا الكرب - وهو حق وطبيعي، طبعاً، ولا ألومك عليه - ولكن فلننه الأمر! ". لابد أني قد هززتها بحركة توكيد على أفكاري، لأنها في تلك اللحظة انتصبت فجأة في جلستها، وبعد أن رمتني بنظرة ضارية، عاجزة، من عينيها المخضلتين بالدموع، أحاطتني بذراعيها وشدّتني إليها في عناق مسعور، شغوف. " لن تتركني الآن، أليس كذلك؟ "، وأجهشت بالبكاء، وقبّلتني بشفتين نهمتين، مالحتيّ الطعم. " عانقني أرجوك. شدّني إليك، يا إلهي، كم أنا ضائعة! ". كانت تقبّلني بشغف لم أعهده منها من قبل. كانت تصبّ جسدها وروحها في قُبَلها - وكل الحزن الذي يقف حائلاً بيننا. زلقتُ يدي تحت إبطها ورفعتها لتقف على قدميها. كنا متقاربين كأشدّ ما يكون العشاق، نتمايل كما لا يتمايل إلا الحيوان البشري حين يهِب نفسه بأكملها لآخر. انزلق الكيمونو كاشفاً عنها وإذا بها عارية تماماً تحته. أنزلتُ يدي إلى أسفل مؤخرتها الصغيرة، وفوق ردفيها المكتنزين، ثم حشرت أصابعي عميقاً داخل

twitter @baghdad_library

شقّها الكبير، وشددتها إليّ، وأنا أمضغ شفتيها، وأعضُّ شحمتيّ أذنيها، وعنقها، وألعق عينيها، وجذور شعرها. أضحت رخوة وثقيلة، مغمضة العينين، مغمضة العقل. ارتخت وكأنها توشك أن تقع على الأرض. رفعتها وحملتها عبر الصالة، ثم ارتقيت الدرج إلى الطابق العلوي ورميتها على السرير. انطرحت فوقها، كالمشدوه، وتركتها تنزع عني ملابسي. استلقيت على ظهري كالميت، والشيء الوحيد الحي فيّ كان أيري. أحسست فمها يُطبق عليه وأخذ الجورب في قدمي اليسرى ينزلق ببطء. مرّرت أصابعي خلال شعرها الطويل، وزلقتها حول ثدييها وتحتهما، وتحسّست بطنها الناعم والمطاطي القوام. كانت في الظلام تقوم بما يشبه حركة الدولاب. ركب ساقاها على كتفيّ والتصق فرجها بشفتيّ. جذبت طيزها فوق رأسي، كما يفعل المرء بدلو من الحليب ليروي ظمأه الذي جعله كسولاً، ورحت أرشف وأمضغ وأعبُّ كأبله. كانت من فرط الحماوة حتى أن أسنانها أخذت تضغط بشكل خطر على رأس أيري. وسط ذلك الشبق المسعور، المزّق الذي كانت منهمكة فيه انتابني الخوف من أن تغرز أسنانها أعمق، وتعضّ على طرفه حتى تقطعه. وكان لابد لي من أن أدغدغها حتى ترخي فكّيها. بعد ذلك كان العمل سريعاً، ونظيفاً - لا دموع، ولا عبارات حب، ولا وعداً بهذا الأمر أو ذاك. " ضعني على خشبة النيك ونكني! "، هذا ما كانت تطلبه. وقد نفّذت الأمر بغضب بارد. قد تكون آخر مرة. كانت قد أضحت للتو غريبة عني. كنا نقارف الزنى، الشهواني، السفاحي الذي يحب الكتاب المقدس أن يتحدث عنه. فإبراهيم ولج سارة أو لياندر و " عرفها ". (وهذا التشديد على الكلمة الأخيرة من الطبعة الإنكليزية للكتاب المقدس

غريب). لكن الطريقة التي كان أولئك الشيوخ الأجلاّء الشبقون يعالجون زوجاتهم الصغيرات أو العجائز، وأخواتهم، وأبقارهم وأغنامهم، كانت إلى حدٍ بعيد أسلوب معرفة. لابد أنهم كانوا يلجون بكل كيانهم، مع كل ما يتّصف به الفاسقون العجائز من مكر ودهاء. شعرت كأني إسحاق يزني مع أرنب داخل معبد. كانت هي أرنباً أبيض ذا أذنين طويلتين؛ تحمل بيض عيد الفصح داخلها، ثم تطرحه واحدة بعد أخرى في سلة. ورحت أتأمل داخلها مطوّلاً، وأدرس كل صدع، وشق، وتمزّق، كل نتوء ناعم، مستدير انتفخ حتى أصبح بحجم محارة منكمشة. اقتربت وأخذت فترة راحة، وهي تقرأه على طريقة بريل (من خصائص نيويورك) بأصابعها الفضولية. جثمت على أربع كأنثى حيوان، تتلوى وتصهل باستمتاع جليّ. لم تنطق كلمة بشرية واحدة، ولم يكن هناك ما يدل على أنها تعرف أي لغة غير لغة الشدّ - والجذب -ونفخ -الصفّارة - تحت اللثة. كان السيد القادم من الميسيسيبي قد اختفى تماماً؛ كان قد قفل عائداً إلى أرض النسيان المستنقعية التي تشكل الأرضية الدائمة للقارات. بقيت بجعة واحدة، شبه زنجية بشفتيّ بطة بلون أحمر ياقوتيّ مثبتتين إلى رأس أزرق باهت. قريباً سنكون في ترف، سيحدث الانفجار، وستمطر السماء أطايب. الدفقة الأخيرة، جرٌّ الرماد المحشور، الأبيض من فرط حرارته، ومن ثم قطعتان من الخشب متمدّدتان جنباً إلى جنب تنتظران الفأس. نهاية رائعة. دفق ملوكي. كنت أعرفها وكانت تعرفني. سوف يعود الربيع من جديد والصيف والشتاء. سوف تتأرجح بين ذراعيّ رجل آخر، وتغيب في نكاح أعمى، ثم الصهيل، فالانفجار، فالجثوم والارتخاء - ولكن ليس معي. أنا أدّيتُ واجبي، منحتها

twitter @baghdad_library

الطقوس الأخيرة. أغمضت عينيّ وتظاهرت بالموت أمام العالم. نعم، سوف نتعلم أن نعيش حياة جديدة، مَرَه وأنا. يجب أن أنهض باكراً وأخفي الرسالة في جيب معطفي. غريب أحياناً كيف تنتهي الأمور. وتظن دائماً أنك سوف تدوّن الكلمة الأخيرة في دفتر الحسابات بتنميق متباهٍ؛ ولا تفكر أبداً في الإنسان الآلي الذي يغلق الحساب وأنت نائم. إن الأمر كله أشبه بالقيد المزدوج الأشدّ صرامة. إنه يشيع القشعريرة فيك، وهو محسوب بطريقة مثاليّة.

* * *

ينهال الفأس. الاجترارات الأخيرة. إنه قطار شهر العسل السريع والجميع ركبوا: ممفيس، تشانانوغا، ناشفيل، تشيكاموغا، مروراً بحقول القطن الثلجية البياض ... تماسيح تتثاءب في وسط الوحل ... آخر ثمرة مشمش تتعفّن على المرج ... القمر بدر، والخندق عميق، والأرض سوداء، سوداء، سوداء.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس.

صباح اليوم التالي كان أشبه باليوم التالي لانتهاء عاصفة - الإفطار كالمعتاد، وشيء من الشعور بالسعادة، وانطلاقٌ إلى النفق، ووعدٌ بأن أصحبها إلى السينما بعد تناول طعام العشاء. بالنسبة إليها كان ربما مجرد كابوس سوف تبذل أقصى جهدها لتنساه في سياق النهار. وبالنسبة إليّ كان خطوة نحو الحرية. لم يتطرّق أي منا إلى الموضوع بعد ذلك. إلا أنه كان حاضراً طوال الوقت وجعَلَ الأمورَ أيسر بيننا. لم أعرف ما كان يدور في خلدها، غير أن ما كانت تفكر فيه كان شديد الوضوح ولا لَبْسَ فيه. وكلما رضخت لأحد مطالبها أو أوامرها كنت أقول لنفسي " عظيم، أهذا كل ما تريدين مني؟ سوف ألبّي كل ما تطلبين إلا أن أمنحك وهمَ أني سأعيش معك طوال البقية الباقية من حياتي "

حينئذ كانت قد أضحت أكثر تساهلاً مع نفسها فيما يخصّ إشباع طبيعتها البهيمية. وكثيراً ما كنت أتساءل عن الأعذار التي تنتحلها لنفسها للمرور بتلك النوبات الأكثر من زيجيّة السابقة واللاحقة للزواج غير المتكافئ. لا شك في أنها كانت تؤديها من أعماق قلبها وروحها. حينئذ كانت مُضَاجِعَة أفضل مما كانت عليه في الأيام المبكرة حين

اعتادت أن تضع وسادة تحت طيزها وتحاول أن تقبِّل السقف. أعتقد أنها كانت تنكح بيأس. كان نكاحاً للنكاح نفسه وليذهب كل شيء آخر إلى الجحيم.

مضى أسبوع ولم أر مَرَه مَرَّة واحدة. كانت مود قد طلبت مني أن أصحبها إلى أحد مسارح نيويورك، يقع قبالة صالة الرقص. جلست طوال فترة العرض أفكر في مَرَه القريبة جداً والبعيدة جداً. فكرت فيها بإلحاح وبلا انقطاع بحيث أني أثناء مغادرة دار المسرح رفعت صوتي مفصحاً عن اندفاعٍ لم أقوَ على كبحه. قلت، مشيراً إلى صالة الرقص " ما رأيك أن تصعدي إلى هناك وتقابليها ؟ ". كان قولاً مناسباً مني وحالما خرج من فمي شعرت بالرثاء لأجلها. نظرتْ مود إليّ وكأني وجَّهتُ إليها لكمةً بقبضة يدي. وعلى الفور اعتذرتُ، ثم أمسكتُها من ذراعها وقدتُها بحركةٍ سريعة بعيداً في الاتجاه المعاكس وأنا أقول - " كانت مجرد فكرة عابرة، لم أقصد أن أؤذيك. ظننت أنك ربما كنت فضولية. لا أكثر ". لم تدلِ بأي جواب. ولم أبذل أي جهود أخرى لأهدِّئ الوضع. وفي القطار النفقي شبكت ذراعها بذراعي وتركتها ترتاح هناك، وكأنها تودّ أن تقول - " إنني أتفهَّم الأمر. فقط كنتَ قليل اللباقة والمراعاة لمشاعري ". في طريقنا إلى المنزل توقفنا في محل بيع المثلجات المفضّل لديها وهناك، وأثناء تناولنا طبقاً من المثلجات الفرنسية الشغوفة بها، أصبحت على استعداد تام لفتح حديثٍ مقتضب يدور حول توافه عائلية، مما يدل على أنها طرحت الحادثة من تفكيرها. المثلجات الفرنسية، التي تعتبر تناولها ترفاً، مقرونة بفتح جرح جديد، جعَلَتْها في مزاجٍ عاطفي. وبدل أن تخلع ملابسها فوق في غرفة النوم، كما تفعل عادة، ولجت

twitter @baghdad_library

الحمّام، المجاور للمطبخ، وتركت الباب مفتوحاً وهي تنزع عنها ملابسها قطعة فقطعة، على مهل، عمداً، كأي متعرّية محترفة، وفي النهاية نادت عليّ بينما كانت تمشط شعرها المنسدل لتريني علامة زرقاء اللون موجودة على فخذها. كانت واقفة هناك عارية إلا من حذائها وجوربها، وشعرها ينهمر غزيراً على ظهرها.

تفحّصتُ العلامة بعناية، لأني كنت أعرف أن هذا ما تريده، وأنا أتلمّسها هنا وهناك وكأنما لأرى إن كان هناك أي بقع رقيقة أخرى ربما تكون قد غفلت عنها؛ في الوقت نفسه حافظت على جريان نار الاستفسارات الموسوسة بصوت عادي، هادئ مما أتاح لها أن تستعد للقيام بنكاح بارد دون أن تعترف لنفسها بأن هذا ما كانت تفعله. ولو أني قلت لها، كما فعلت، بصوت طبيب متمرّس، هادئ، متكاسل - "أعتقد أن من الأفضل أن تستلقي على الطاولة في المطبخ حتى أستطيع أن أتفحّصك بصورة أفضل" - لفعلتْ ذلك بدون اللجوء إلى الملاطفة، ولباعدتْ ما بين ساقيها وتركتني أقحم إصبعي بدون أي إحساس مفاجئ، لأنها حينئذ تذكّرتْ أنها منذ السقطة التي حدثت لها قبل بعض الوقت وثمة نتوء صغير داخلها، على الأقل هذا ما ظنّته؛ وذاك النتوء يسبّب لها القلق؛ فربما لو أدخلُ إصبعي برقّةٍ متناهيةٍ قد تستطيع أن تقتفي أثره، الخ، الخ. ولم يبدُ على الإطلاق أنها انزعجت حين اقترحت عليها أن تستلقي هناك برهة، على الطاولة، بينما أنا أنزع عني ملابسي لأني بدأت أشعر بالحر وأنا واقف في المطبخ بجوار المدفأة المستعرة، "الخ... الخ ". وهكذا نزعت ملابسي، كلها ما عدا جوربي وحذائي، ومع انتصابٍ جديرٍ بخرقِ طبق تقدّمتُ بهدوء وتابعت عملياتي. أو

بالأحرى، كنت أنا بدوري حينئذ قد أخذت أعي أشياء من الماضي، كالنتوءات، والرضوض، والبقع، والثآليل، والوحمات، الخ، وهل لها أن تتلطّف وتقوم هي بإجراء فحص ٍعليّ بالمرة، ثم نأوي إلى السرير لأن الوقت أصبح متأخراً وأنا لا أريد أن أتعبها.

الغريب في الأمر أنها لم تكن متعَبَة قط، باعترافها، ونزلت عن الطاولة وأخذت تعصر بكل عناية ودقّة أيري ثم خصيتيَّ ثم منبت أيري، وذلك كله بمناورات ثابتة، وحذرة ومرهفة حتى أني كدت أقذف في عينها. بعد ذلك غلبها الفضول لتعرف بكم أنا أطول قامة منها، فوقفنا ظهراً إلى ظهر ثم بطناً إلى بطن، حتى حينئذ، وهو ينتفض بين ساقيها كمفرقعة نارية، تظاهرت بأنها تفكر بالأقدام والإنشات، قائلة إنها يجب أن تخلع حذاءها لأن عقبيها كانا عاليين، الخ.. الخ. وهكذا جعلتها تجلس على كرسي المطبخ وخلعتُ لها حذاءها وجوربها، ومكافأة لي لتقديم هذه الخدمة لها بكل تهذيب، داعبتْ قضيبي، وكان من الصعب عليها أن تفعل ذلك وهي في وضعها ذاك، لكني حرّضتُ خطتها بكرمٍ بالاقتراب ورفع ساقيها عالياً بزاوية مناسبة؛ ثم، وبدون أي تحرُّك زائد، رفعتها عالياً من مؤخرتها، وحشرته فيها حتى غمده وحملتها إلى الغرفة المجاورة وهناك رميتها على الأريكة، غرزته فيها من جديد ورحت أعمل بكل قوة وزخم، وقابلتني هي بالعزم نفسه وهي تتوسل إليّ كي أبقيه، وأطيل الأمر، أن أبقيه فيها إلى الأبد، ثم خطر لها أخيراً أن تنتظر قليلاً ريثما تنزلق إلى الخارج وتنقلب، ثم تنهض على ركبتيها، وغاص رأسها نحو الأسفل، وطيزها تتمعّج بحركة مسعورة، وصوتها الأجشّ المقرقر يقول بلغة إنكليزية صراحةً واعترافاً لنفسها ولأذنيها لتسمعان

twitter @baghdad_library

وتدركان: " أدخله على طول ... أرجوك، أرجوك افعل... أنا حامية".

نعم، أحياناً كانت قادرة على أن تتلفّظ بمثل هذه الكلمات، كلمات سوقية جديرة بأن تجعلها تدور حول نفسها من فرط الرعب سخطاً فيما لو أنها في كامل وعيها، أما الآن فبعد القليل من المزاح، والفحص الفرجيّ بالإصبع، ومنافسات رفع الأثقال والقياس، بعد إجراء المقارنة بين الرضوض، والعلامات والنتوءات وأشياء أخرى، وبعد المعالجات العَرَضيّة للأير والصَفَن والمثلجات الفرنسية اللذيذة والـfaux pas (الزلّة) الطائشة التي ارتكبتها خارج دار المسرح. ناهيك عما جرى داخل مخيّلتها منذ المجاهرة القاسية التي وقعت قبل بضع ليالٍ، فإن كلمة مثل "حامية" كانت الكلمة المناسبة تماماً لتدلّ إلى درجة حرارة فرن بسمر الفولاذي ووصفت بها كسّها الملتهب. كانت إشارة منها لكي أنشط فيها ولا أوفّر شيئاً. وكانت تعني ما يشبه ما يلي: " بغضّ النظر عمّا كنته هذا المساء أو في الأمس، بغضّ النظر عن رأيي في نفسي أو مهما كنت أمقتكَ، بغضّ النظر عمّا ستفعله بهذا الشيء غداً أو بعد غد، الآن أريده وأريد كل ما يتعلّق به: أتمنى لو كان أكبر وأضخم وأطول وأغزر إنتاجاً: أتمنى لو أقتلعهُ، أبقيه فيّ: لا يهمني كم نكحتَ من النساء، أريدك أن تنكحني أنا، تنكح كسّي، تنحكني حتى تهلكني، أن تنكح، وتنكح وتنكح. أنا حامية، أتسمع؟ أنا حامية إلى درجة أني أستطيع أن أقتلعه. احشره على طول، أقوى، وأقوى. اكسر أيرك الكبير أبقه هناك في الداخل. أنا حامية، أقول لك..."

عادةً بعد مثل تلك المباريات أستيقظُ وأنا مكتئب. أنظر إليها وهي ما تزال بملابسها، وذاك التعبير المبتذل، اللاذع، المشدود والمقيت

المرتسم حول فمها، أتأمّلها، بلا مبالاة، ونحن على مائدة الإفطار، حين لا أجد أي شيء آخر أنظر إليه. وأحياناً أتساءل لماذا لا أصحبها ذات مساء لنتمشّى ثم أرميها من رصيف الميناء. وبدأت أتطلّع كغريقٍ يتعلّق بقشّة إلى ذاك الحلّ الذي كان ستانلي قد دلّني عليه ولم يكن حتى ذلك الحين قد ظهر له أي أثر. وزيادة على ذلك كله كتبتُ رسالةً إلى مَرَه أقول فيها إن علينا أن نجد لنا مخرجاً سريعاً وإلا قتلتُ نفسي. لابد أنها كانت رسالة جيّاشة العاطفة لأنها حين اتصلت بي هاتفياً قالت إن من الملحّ أن تقابلني على الفور. حدث ذلك بعد تناول طعام غداء أحد تلك الأيام المحمومة حين كان يبدو أن كل شيء ليس على ما يرام. كان المكتب مزدحماً بطالبي العمل وحتى لو كان لدي خمسة ألسنة وخمسة من الأذرع وخمسة وعشرون جهاز هاتف بدل ثلاثة عند مرفقي، لما تمكّنت من استخدام عدد كاف من طالبي العمل الذين نحتاجهم لملء الوظائف التي شغرت فجأة وبلا أي مبرر وبين ليلة وضحاها. حاولت أن أؤجّل موعد مَرَه حتى المساء لكني لم أستطع. وافقت على مقابلتها بضع دقائق في العنوان الذي ذكرته، قالت إنه شقة صديقة لها حيث لن يزعجنا أحد. وكانت تقع في منطقة " القرية ".

تركت جمهرةً من طالبي العمل واقفين عند الحاجز، ووعدت هيمي، الذي كان يتحدث بهياج في الهاتف طالباً " بيانات شحن "، بأني سأعود في غضون بضع دقائق، وقفزت إلى سيارة أجرة واقفة عند زاوية الشارع وترجّلت منها أمام بيت دمية تتصدّره حديقة منمنمة. جاءت مَرَه لتفتح الباب وهي بثوبٍ بلون موف فاتح ومن تحته كانت عارية تماماً. طوقتني بذراعيها وقبلتني بشغف.

twitter @baghdad_library

قلت، وأنا أبعدها عني لكي ألقي نظرة على المكان " إنه عش صغير رائع "

قالت " نعم، أليس كذلك؟ إنه يخصّ كاروثرز. إنه يقطن في الشارع نفسه مع زوجته؛ وهذا مجرد عرين صغير يلجأ إليه بين حين وآخر. أحياناً أنام هنا حين يتأخر الوقت كثيراً للعودة إلى المنزل "

لم أقل شيئاً. استدرت لأنظر إلى الكتب - كانت الجدران مسدودة بإحكام بها. ومن زاوية عيني رأيت مَرَه تنتزع شيئاً من الجدار - بدا أشبه بصفيحة من ورق اللفّ.

قلت، بدون فضول حقيقي وإنما متظاهراً به " ما هذا؟ "

أجابت " لا شيء، مجرد صورة تخطيطية له طلب مني أن أتخلّص منها "

" دعيني أراها! "

" لا أظنها تثير اهتمامك - فلا قيمة لها " - وبدأت تجعدها.

قلت وأنا أقبض على ذراعها وأختطف الورقة من يدها، " دعيني أراها مهما تكن ". مددتها وذهلت إذ رأيت أنها رسم كاريكاتيري لي وخنجرٌ يخترق قلبي.

قالت " لقد قلت لك إنه غيور. إنها لا تعني أي شيء - كان ثملاً حين رسمها. كان يكثر من الشرب مؤخراً. وقد اضطررت إلى أن أراقبه جيداً. في الواقع إنه مجرد طفل كبير. يجب ألا تظن أنه يكرهك - إنه يتصرَّف هكذا مع كل مَنْ يُبدي أقل اهتمامٍ بي "

" قلت ِ إنه متزوج. ما الأمر - أليست علاقته بزوجته على ما يرام؟"

قالت مَرَه، بنبرةٍ شبه رصينة " إنها مريضة "

" أتجلس على الكرسي نقّال؟ "

أجابت، وقد غمرت ابتسامة واهنة لا تقاوَم شفتيها " لا-ا-ا-ا، ليس بالضبط. أوه، لماذا نتحدث عن هذا الآن؟ ما الفرق؟ أنا لا أحبه. لقد قلت لك ذات مرة أنه شديد اللطف معي؛ والآن جاء دوري لأعتني به - إنه بحاجة إلى مَنْ يدعمه "

" إذن فأنت تنامين هنا بين وقت وآخر - بينما يمكث هو مع زوجته، أليس كذلك؟ "

" هو أيضاً ينام هنا أحياناً: يوجد سريران صغيران، إذا لاحظت ". ثم قالت متوسلة " أوه، أرجوك، دعنا من الحديث عنه. ليس في الأمر ما يستدعي قلقك، ألا ترى، ألا تصدِّقني؟ ". اقتربت مني ,أحاطتني بذراعيها. وبدون مقدمات رفعتها وحملتها إلى الأريكة. رفعت ثوبها عالياً، وبعد أن باعدت واسعاً ما بين ساقيها، زلقت لساني إلى داخل شقها. وفي الحال جعلتني فوقها. وبعدما أخرجت أيري مدَّت كلتا يديها وفتحت كسّها لي لأزلقه فيه. وعلى الفور تقريباً حصلتْ لها رعشة ثم أخرى، ثم أخرى. نهضت واقفة واغتسلت بسرعة. وفور انتهائها حذوت حذوها. لدى خروجي من الحمّام كانت مستلقية على الأريكة وسيجارة بين شفتيها. جلست هناك بضع دقائق واضعاً رأسي بين ساقيها، وأتحدث إليها بهدوء.

قلت " يجب أن أعود إلى المكتب ولم تتح لنا الفرصة لنتحدث "

ناشدتني، وهي تعتدل في جلستها وتضع يدها بحبٍ على أيري " لا تذهب الآن ". أحطتها بذراعي وقبّلتها مطوّلاً بشغف. كانت أصابعها قد

twitter @baghdad_library

عادت إلى فتحة بنطالي وتمدّها بحثاً عن أيري وإذا بنا فجأة نسمع أحدهم يعالج قبضة الباب.

قالت " إنه هو "، وهي تقفز بسرعة لتقف على قدميها وتتوجّه صوب الباب. ثم قالت بسرعة وهي تندفع لتقابله " ابق حيث أنت، لا بأس ". لم يكن لديّ من الوقت ما يكفي لأزرّر فتحة بنطالي. نهضت واقفاً وسوّيتُ هندامي بحركة اعتيادية بينما اندفعت بين أحضانه مطلقة صيحة دهشة مبتهجة بلهاء.

قالت " لدي زائر. طلبت منه أن يأتي. سوف يرحل سريعاً "

قال " مرحبا " وهو يتقدم ليحييني ماداً يده وابتسامةً لطيفة ترتسم على شفتيه. لم يبدِ أي دهشة غير عادية. في الواقع، لقد بدا أكثر لطفاً بكثير مما كان ليلة قابلته للمرة الأولى في صالة الرقص.

قال، وهو يفكّ رباط لفافة أحضرها معه، " لا أظنك مُصِراً على الرحيل فوراً، أليس كذلك؟ يمكنك أن تشاركنا شرب كأس صغيرة، أليس كذلك؟ ماذا تفضّل - الويسكي أم الجودار؟ "

قبل أن أتمكن من قول نعم أو لا كانت مَرَه قد انسلّت خارجة لتحضر بعض الثلج. وقفت مديراً ظهري جزئيّاً له بينما كان منشغلاً بالزجاجات،وأثناء ما كنت أتظاهر باهتمامي بكتابٍ موضوع على الرف أمامي، زرّرتُ خلسةً فتحة بنطالي.

قال " آمل ألا يكون لديك اعتراض على المكان. إنه مجرد معتزَل، ملجأ، أستطيع فيه أن أقابل مَرَه وأصدقاءها القلائل. تبدو جميلة بهذا الثوب، ألا تظن؟ "

قلت " نعم، إنه جذّاب "

قال، مومئاً باتجاه رفوف الكتب " ليس هناك الكثير، الجيد منها موزّع في أرجاء المنزل كله "

قلت، وقد أسعدني أني استطعت أن أحوِّل مجرى الحديث إلى هذا الاتجاه " تبدو لي مجموعة جيدة جداً "

" عرفت أنك كاتب -مَرَه أخبرتني "

أجبت " ليس بالضبط. أودّ أن أكون كذلك. لعلك أنت نفسك كاتب، هل أصبتُ؟ "

ضحك. قال، منتقصاً من قدر نفسه، وهو يعاير المشروبات " أوه، أعتقد أننا كلنا نبدأ هكذا. لقد خربشت بعض الأشياء أيام شبابي - أشعاراً في معظمها. يبدو أني لم أعد قادراً على أن أفعل أي شيء، ما عدا الشرب "

عادت مَرَه مع الثلج. قال " تعالي إلى هنا " وهو يضع الثلج على الطاولة ويطوّق خصرها بذراعه، " أنت لم تقبّليني بعد ". رفعت رأسها عالياً وتلقّت بهدوء القبلة اللزجة باللعاب التي زرعها على شفتيها.

قال، وهو يصبّ السائل الفوّار في الكؤوس، " لم أستطع تحمّل المكتب. لا أدري لماذا أذهب إلى ذاك المكان اللعين - ليس لدي ما أفعله غير أن أظهر بمظهر الشخصية الهامة وأن أوقّع باسمي على أوراق سخيفة ". تناول جرعة طويلة، ثم ارتمى على كرسي موريس، وأشار لي كي أتخذ مجلساً. نخر قليلاً، مثل رجلِ أعمال متعب، وإن كان واضحاً أنه لم يقم بأقل عمل " آه، هذا أفضل ". أومأ إلى مَرَه. قال، وهو يربت على ذراع الكرسي " اجلسي هنا دقيقة. أريد أن أتحدث معك. لدي أخبار طيبة لك "

twitter @baghdad_library

كان مشهداً مثيراً جداً للاهتمام بعدما كان قد حدث قبل ذلك ببضع دقائق. تساءلت لحظة إن كان يقوم بدور تمثيلي أمامي. حاول أن يضغط رأسها نحو الأسفل ليعطيها قبلة لزجة أخرى لكنها قاومتها، قائلة - " أوه هيا، إنك تتصرّف بحماقة. كفاك شرباً أرجوك. سوف تثمل فوراً وبعد ذلك لن أستطيع أن أتحدث معك "

وضعت ذراعها على كتفه ومررت أصابعها خلال شعره.

قال، ملتفتاً إليّ " أترى كم هي مستبدّة. أعانَ اللهُ الرجلَ المسكينَ الذي سيتزوجها! ها أنا أهرع إليها حاملاً نبأً طيباً و ... "

قاطعته مَرَه " حسن، ما هو؟ لم لا تنطقه؟ "

قال كاروثرز، وهو يربت على ردفها بحنان " امنحيني فرصة وسوف أخبرك "، ثم التفت إليّ " بالمناسبة، ألا تصبّ لنفسك كأساً؟ صبّ لي أيضاً واحداً - أقصد، إذا استطعت أن تحصل على إذنها. لا كلمة لي في هذا المكان. إنني مجرد مصدر إزعاجٍ عام "

هذا النوع من المزاح وتبادل إطلاق النار كان يعِدُ بأن يتواصل إلى ما لا نهاية. وكنت قد قررت أنه قد فات أوان العودة إلى المكتب - لقد قضي على فترة بعد الظهيرة. فقد عدّلَ الكأس الثاني مزاجي ورغبت في البقاء والتفرُّج على المشهد كله. لاحظت أن مَرَه لم تكن تشرب. شعرت أنها أرادتني أن أغادر. لقد أصبح النبأ الطيب مسألة ثانوية، ثم نُسيَ تماماً. أو لعله أفضى به إليها خلسة - بدا أنه قد تخلّى عن الموضوع بسرعة كبيرة. ربما بينما كانت تناشده أن ينقل إليها الخبر قرصت ذراعه محذِّرةً إياه أن يفعل. (نعم، ما هو الخبر الطيب؟ وتلك القرصة التي تحذّره من أن يفصح به أمامي) كنت مشوّشاً تماماً. جلست على الأريكة

الأخرى ورحت أقلب الغطاء سراً لأرى إن كانت هناك ملاءات عليه. لا يوجد. سوف أسمع لاحقاً حقيقة الفرشة. كان ما يزال أمامنا درب طويل نقطعه.

كان كاروثرز سكيراً حقاً - وسكير ممتع، وودود أيضاً. أحد الذين يثملون ويصحون على فترات. أحد الذين لا يفكرون أبداً في الطعام. أحد الذين يتمتعون بذاكرة ممتازة، ويلاحظون كل شيء بعين صقر ومع ذلك يبدون غائبين عن الوعي، غارقين وموتى بالنسبة إلى العالم.

فجأة سألها، هكذا بلا مقدمات " أين ذهب رسمي؟ " وهو يثبّت نظره على البقعة حيث كان معلّقاً على الجدار.

قالت مَرَه " أنزلته "

زمجر، ولكن ليس بشكل بغيض جداً " هذا ما أراه. أردت أن أريه لصديقك "

قالت مَرَه " لقد شاهده لتوه "

" أوه، أحقاً؟ حسن إذن، لا بأس. إذن لن نخفي أي شيء عنه، أليس كذلك؟ لا أريد منه أن يحمل أي أوهام عني. أنت تعلمين أنه إذا كنت لا أستطيع أنا أن أنالك فلن تدعي أي رجل آخر يفعل، أليس هذا صحيحاً؟ فيما عدا ذلك كل شيء على ما يرام. إنها تريد أن تنتقل إلى هنا - فقط مدة أسبوع أو اثنين. قلت لها يجب أن أتحدث معك حول الأمر - أنت تديرين المكان "

قالت مَرَه تختبره " إنه بيتك. تستطيع أن تفعل به ما تشاء. ولكن، إذا أتت هي، سأغادر أنا. لدي بيتي الخاص لأعيش فيه؛ لقد جئتُ إلى هنا فقط لأعتني بك ولأمنعك من أن تقتل نفسك بالإفراط في الشرب"

twitter @baghdad_library

قال، ملتفتاً إليّ " غريب كيف تمقت هاتان الفتاتان كل واحدة الأخرى. وحق الله إن فاليري مخلوقة جديرة بأن تُعبَد. صحيح إنها مجردة من العقل، لكن هذا ليس بالعائق الكبير؛ إن لديها كل شيء آخر يرغبه الرجل. في الواقع، لقد احتفظت بها مدة عام أو أكثر؛ وقد سارت علاقتنا بشكل ممتاز - إلى أن جاءت هذه " وأومأ برأسه باتجاه مَرَه " بيني وبينك أعتقد أنها تغار من فاليري. يجب أن تقابلها - ستقابلها إذا مكثت مدة أطول. لدي حدس بأنها ستأتي قبل انصرام النهار "

ضحكت مَرَه كما لم أكن قد سمعتها تضحك من قبل. كانت ضحكة خسيسة، بشعة. قالت موبّخة " تلك الحمقاء، إنها لا تستطيع أن تنظر إلى رجل بدون أن تقع في ورطة. إنها إجهاضٌ يمشي على قدمين... "

قال كاروثرز مع تكشير أبله ثابت " تقصدين صديقتك فلوري "

قالت مَرَه غاضبة " أتمنى منك أن تخرج اسمها من هذا الأمر "

سألها كاروثرز، متجاهلاً ملاحظتها " أراك قابلت فلوري، أليس كذلك؟ هل عرفت دهرك عاهرة أشد منها حقارة وفسقاً؟ ومَرَه تحاول أن تجعل منها سيدة محترمة ... " وانفجر بالضحك. " غريب أمر أولائي العاهرات اللواتي تنتقيهن. خذ عندك روبرتا - إنها عاهرة أخرى هائجة. دائماً تراها تتنقّل بسيارة ليموزين. قالت إن كليتها منحرفة عن موضعها، غير أن حقيقة الأمر كانت ... حسن، بيني وبينك، كانت مجرد متسكّعة كسول. لكن مَرَه أصرّت على أن تأخذها تحت جناحها، بعد أن طردتها، ثم تعهدتْها. في الحقيقة يا مَرَه، وأنت الفتاة الذكية، كما تعتبرين نفسك، إنك أحياناً تتصرّفين كحمقاء. إلا إذا " - ورفع

بصره ليتأمّل السقف - " ما الذي يجعل امرأتين تتقاربان. المثل القديم يقول الطيور على أشكالها تقع ومع ذلك. الأمر غريب. أنا أعرف فاليري، وأعرف فلوري وأعرف هذه، أعرفهن جميعاً - مع ذلك، لو أنك تعصرني فسوف ترى أني لا أعرف عنهن أي شيء، لا شيء. إنهن ينتمين إلى جيلٍ يختلف عن الجيل الذي نشأت معه؛ إنهن أشبه بنوع آخر من الحيوانات. أولاً، ليس لديهن حسّ أخلاقي، ولا واحدة منهن. إنهن يرفضن أن يروَّضن؛ الأمر أشبه بالعيش في معرض للوحوش. إنك تدخل إلى بيتك فتجد شخصاً غريباً ينام في سريرك - فتعتذر لتطفّلك. أو قد يطلبن منك نقوداً لكي يرافقن صديقاً إلى فندق لتمضية ليلة، وإذا ما وقعن في ورطة يتوجّب عليك أن تجد لهنَّ طبيباً. الأمر مثير لكنه أحياناً يكون مصدر إزعاج لعين أيضاً. لذلك من الأفضل أن يربّي المرء أرانب".

ماذا ؟ قالت مَرَه، محاولة أن تجعل الأمر فكاهياً " هكذا يتكلّم حين يثمل. هيا تابع، أخبره أكثر عنا. أنا متأكدة من أنه يستمتع "

لم أكن واثقاً تماماً من أنه كان ثملاً. لقد كان أحد أولئك الرجال الذين يتكلمون بتراخٍ سواء أكانوا ثملين أم صاحين، بل إنهم في الواقع يتفوّهون بأشياء أشد غرابة وهم صاحون: إنهم في المعتاد رجال يشعرون بالمرارة، خائبو الأمل، يتصرّفون وكأنما لم يعد هناك أحد قادر على إثارة دهشتهم؛ إلا أنهم في قراراتهم عاطفيون بكل معنى الكلمة، ينقعون جهازهم العاطفي المعطوب بالكحول لكي ينفجروا بالبكاء في لحظة غير متوقعة. النساء يجدنهم ذوي سحر استثنائي لأنه ليست لديهم أي مطالب، ولا يُظهرون أي غيرة حقيقية، على الرغم من أنهم في ظاهرهم

twitter @baghdad_library

قد يمرون بتقلبات العواطف كافة. وغالباً، كما في حالة كاروثرز، يكبّلون بزوجات معاقات وعنيدات، مخلوقات يسمحن لأنفسهن بسبب ضعفهن (الذي يطلقن عليه اسم شفقة أو ولاء) أن يكنّ عبئاً على أحد مدى الحياة. إذا حكمنا عليه من كلامه، فإن كاروثرز لم يجد أي صعوبة في العثور على الصبايا الجذابات ليشاركنه عش حبه. وأحياناً كانت تعيش معه اثنتان أو ثلاث في وقت واحد. وربما كان يضطر إلى أن يتظاهر بالغيرة والتملّك، لكي لا يتعرّض للاستغلال التام. أما زوجته، كما اكتشفت لاحقاً، فكانت مريضة فقط إلى هذا الحد - بحيث أن غشاء بكارتها كان ما يزال سليماً لم يمسّ. وظل كاروثرز يحتمل هذا كشهيد. ولكن فجأة، حين أدرك أن السنين تتقدّم به، بدأ يعيش حياة طائشة جديرة بطالب مدرسة. ثم أخذ يدمن الخمر. لماذا؟ هل اكتشف أنه أكبر سناً بكثير من أن يستطيع إرضاء شهوة فتاة شابة صحيحة الجسم؟ هل بدأ فجأة يشعر بالندم على سنوات تقشّفه؟ وكانت مَرَه طبعاً، وهي التي أعطته هذه المعلومة، مبهمة وهادئة عن عمد حول هذا الموضوع. إلا أنها اعترفت بأنها كثيراً ما نامت معه على الأريكة نفسها، تاركة لي أن أخمّن أنه من الواضح أنه لم يحلم قط بأن يتحرّشَ بها. ومن ثم بعد ذلك مباشرة تضيف أن الفتيات الأخريات كان يسرّهن كثيراً طبعاً أن ينمن معه؛ والمعنى الكامن طبعاً هو أنه كان " يتحرّشُ " فقط بمن يرغبن في أن يتعرضن للتحرّش. ولم أر أي سبب معيّن يمنع مَرَه من أن ترغب في أن تتعرض للتحرش. أم هل كان من المفروض عليّ أن أعتقد أنه لن يتحرّش بفتاة تهتم من كل قلبها بخيره؟ حين هممتُ بالاستئذان بالرحيل دارت بيننا مجادلة اتّسمت بالتوتّر الشديد. كان يوماً وليلة جنونيين.

وكنت قد ثملتُ واستغرقت في النوم على الأرض. حدث ذلك قبل تناول وجبة العشاء، والسبب يعود إلى أني كنت أشعر بجوعٍ شديد. ووفقاً لأقوال مَرَه فإن سلوكي أثار غيظ كاروثرز؛ وقد استغرق منها ثنيه عن نيّته في كسر زجاجة على رأسي وقتاً طويلاً. ولكي تهدِّئ من ثورة غضبه استلقت معه على الأريكة فترة من الوقت. لم تقل إن كان قد حاول أن " يتحرّش " بها أم لا. على أي حال لقد اكتفى بأن أخذ سنة من النوم؛ وحين أفاق كان يشعر بالجوع، وطلب الطعام فوراً. وأثناء فترة نومه نسي أن لديه زائراً؛ ولدى رؤيته لي متمدّداً على الأرض ومستغرقاً في النوم عاودته ثورة الغضب. ثم خرجا معاً وتناولا وجبة دسمة؛ وفي طريق عودتهما إلى المنزل أقنعته بشراء بضع شطائر وقهوة لأجلي. وأنا أذكر الشطائر والقهوة - كأني أشاهد فصلاً إضافياً خلال فترة تعتيم. ومع وصول فاليري كان كاروثرز قد نسي أمري. وهذا أيضاً أذكره، وإن كان بصورة مبهمة. تذكرت أني رأيت فتاة شابة تدخل ومن ثم تطوّق كاروثرز بذراعيها. أذكر أن أحدهم ناولني كأساً من الشراب ومن ثم غبت في سبات. وبعد ذلك؟ بعد ذلك، كما قالت مَرَه، دارت مشاحنة قصيرة بينها وبين فاليري. وثمل كاروثرز ثمالة عمياء وأخذ يترنّح في طريقه إلى الشارع ثم اختفى.

قلت " لكنك كنت جالسة في حجره حين أفقت! "

نعم، هذا صحيح، اعترفَتْ، ولكن ذلك حدث بعد أن خرجت تبحث عنه، في أرجاء منطقة " القرية " كلها، إلى أن عثرت عليه أخيراً يرتقي درج إحدى الكنائس، وأعادته إلى المنزل بسيارة أجرة.

" لابد أنه يشغل الكثير من تفكيرك حتى تتكبّدي كل تلك المشقة."

twitter @baghdad_library

لم تنكر. لقد سئمت الخوض في هذا الموضوع مراراً وتكراراً معي.

إذن هكذا انقضت تلك الليلة. وماذا عن فاليري؟ فاليري غادرت للتو، بعد أن هشّمت مزهرية باهظة الثمن. وماذا كانت سكين تقطيع الخبز تلك تفعل إلى جواري. أردت أن أعرف. تلك؟ أوه، إنها إحدى حماقات كاروثرز. كان يتظاهر بأنه سيقتلع قلبي من بين أضلعي. إنها حتى لم تكلّف نفسها مغبّة أخذ السكين من يده. إنه مسالم، كاروثرز هذا. إنه لا يؤذي ذبابة. ومع ذلك، قلت في نفسي، كان من الحكمة أكثر لو أيقظتني. وتساءلت، ماذا حدث أيضاً. المسيح وحده يعلم ماذا جرى أثناء فترة غيابي عن الوعي. فإذا كان في استطاعتها أن تدعني أدكّها، وهي تعلم أن كاروثرز قد يصل في أي لحظة، فإنها تستطيع حتماً أن تتركه " يتحرّش " بها بعض الوقت (ولو حتى لتهدئته)، حين رأت أني غائب في سبات عميق ولن أعود إلى رشدي.

على أي حال، كانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً وكان كاروثرز غارقاً في النوم على الأريكة. كنا واقفين في ممر باب في الجادّة الخامسة نحاول أن نتوصّل إلى قدر من التفاهم. أنا أصرُّ على أن تدعني أرافقها إلى منزلها؛ وهي تحاول أن تشرح لي أن الوقت قد تأخر كثيراً.

" لكني سبق أن أوصلتك إلى المنزل في وقت متأخر أكثر من هذا ". كنت قد صمّمت على ألا أدعها تعود إلى عرين كاروثرز.

ناشدتني " أنت لا تفهم؛ أما لم أتردّد على المنزل منذ عدة أسابيع، وأغراضي كلها هناك "

" إذن فأنت تعيشين معه. لماذا لم تقولي هذا من البداية؟ "

" أنا لا أعيش معه. أنا فقط أمكث هناك مؤقتاً إلى أن أجد لي

مكاناً أعيش فيه. لن أعود إلى بيتي أبداً. لقد نشب شجار عنيف بيني وبين أمي، فغادرت وقلت لهم إني لن أعود أبداً "

" ووالدك - ماذا قال؟ "

" لم يكن موجوداً حين وقع الشجار. أعلم أنه محطَّم الفؤاد، لكني لم أستطع أن أتحمّل أكثر من ذلك "

قلت " آسف، إذا كان الأمر على هذا الشكل. وأعتقد أنك مفلسة أيضاً. دعيني أعيدك - لابد أنك مرهقة من فرط التعب "

باشرنا السير خلال الشوارع الخالية. وفجأة توقفت وأحاطتني بذراعيها. قالت، وهي ترنو إليّ بعينين تترقرقان بالدمع " أنت تثق بي، أليس كذلك؟ "

" طبعاً أثق بك. لكني أتمنى أن تجدي مكاناً آخر تسكنين فيه. إن في إمكاني دائماً أن أتدبّر إيجار غرفة. لم لا تتيحين لي الفرصة لأساعدك؟"

قالت بإشراق " أوه، لم أعد بحاجة الآن إلى أي مساعدة. في الواقع، كدت أنسى أن أنقل إليك النبأ المفرح! نعم، أنا مسافرة وسأغيب بضعة أسابيع - إلى الريف. إن كاروثرز يرسلني إلى كوخه الكائن في الغابة الشمالية. نحن الثلاثة ذاهبون - فلوري وهانا بل وأنا. ستكون إجازة حقيقية. لماذا لا تنضم إلينا؟ ستحاول، أليس كذلك؟ ألست سعيداً؟ ". سكتَتْ لكي تمنحني قبلة، ثم أضافت " في الحقيقة، إنه ليس سيئاً. هو نفسه لن يرافقنا. يريد أن يستضيفنا. ولو أنه على علاقة حب، أعترف بهذا. إنه يخشاك - أنت شديد الجدّية. عليك، في المقام الأول، أن تتوقع منه أن يتحلّى بقدر من المشاعر. ولو أن زوجته كانت ميتة لكان بدون أدنى شك طلب الزواج مني - ليس لأنه يحبني وإنما

twitter @baghdad_library

لأنه يريد أن يحميني. أتفهم الآن؟ "

قلت " كلا، لم أفهم. ولكن لا بأس. أنت حتماً بحاجة إلى إجازة؛ أتمنى أن تستمتعي هناك. أما بالنسبة إلى كاروثرز، فمهما تقولين عنه، فأنا لا أحبه، ولا أثق به. ولست واثقاً أبداً من أنه يتصرّف من منطلق دوافع كريمة، كما قلت. أتمنى لو يموت، هذا كل شيء، ولو في استطاعتي أن أسمّمه لفعلت - دون أن يرف لي جفن "

قالت، ونحن واقفان عند الباب نتبادل عبارات الوداع " سوف أكتب رسالة لك في كل يوم "

قلت ,أنا أقرِّبها مني وأهمس كلماتي في أذنها " مَرَه، اسمعي، كان لدي الكثير أقوله لك اليوم وقد تبخّر كله "

قالت بحرارة " أعلم، أعلم "

تابعتُ قائلاً " قد تتبدّل الأمور بعد ذهابك. يجب أن يحدث أمرٌ ما سريعاً - لا يمكننا أن نستمر هكذا إلى الأبد "

قالت بنعومة، وهي تشدُّ نفسها عليّ بحبّ " هذا ما أفكر فيه أنا أيضاً. إنني أكره هذه الحياة. أريد أن أفكر في الأمر مليّاً وأنا هناك وحدي. لا أدري كيف تورطتُ في هذه الورطة "

قلت " عظيم، قد نتوصل إلى حلٍ ما. سوف تكاتبينني، لقد وعدتني؟"

قالت، وهي تستدير لترحل " طبعاً سأفعل ... كل يوم "

وقفتُ هناك برهة بعد أن دخلت المنزل، أتساءل إن كنت أحمق إذ تركتها ترحل، أتساءل إن لم يكن من الأفضل أن أجرّها إلى الخارج وأندفع شاقاً طريقاً ما، بزوجة أو بلا زوجة، بعمل أو بلا عمل. وانطلقت، وما أزال أناقش الأمر في رأسي، لكن قدميّ جرّتاني إلى البيت.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس

وهكذا انطلقتْ إلى الغابة الشمالية. في الواقع، لقد وصلوا لتوّهم، برفقتها فأرا الخيل تينك وكل شيء رائع. ثمة اثنان من سكان الغابة يرعيان شؤونهم، ويعدّان وجباتهم، ويبينان لهم كيف يتنقلون بخفّة وسرعة، وعزفا القيثارة والهرمونيكا لهم في الرواق الخلفي ليلاً عندما تلألأت النجوم، وما إلى ذلك - هذا كله كان محشوراً على خلفيّة البطاقة البريدية المصوّرة التي تبيّن كيزان الصنوبر الرائعة التي تسقط من أشجار الصنوبر هناك في أعالي ولاية " مين ".

على الفور توجّهت إلى عرين كاروثرز لأرى إن كان ما يزال في البلد. وكان موجوداً فعلاً وقد دُهشَ تماماً لرؤيتي، ولم يُسرّ قط لذلك. تظاهرت بأني جئت لأستعيد كتاباً حاز على إعجابي في تلك الأمسية. فأبلغني بجفاف أنه تخلّى عن عادة إعارة كتبه. كان صاحياً تماماً وكان جليّاً أنه قد صمَّمَ على أن يتخلّصَ مني بأسرع وقت ممكن. وقد لاحظت، لدى استئذاني بالرحيل، أنه علّق صورتي التي يخترق فيها خنجرٌ قلبي. ولاحظ أني قد لاحظت وجودها لكنه لم يعلّق بأي شيء.

شعرت بشيء من المذلّة غير أني ارتحتُ كثيراً في الوقت نفسه. إنها المرة الوحيدة التي قالت فيها الحقيقة! كنت من شدّة البهجة حتى

أني اندفعت قاصداً المكتبة العامة، وفي الطريق اشتريت دستة من الأوراق ومغلّفاً، وجلست هناك حتى حان وقت إغلاق الأبواب أكتب رسالة مطوّلة. طلبت منها أن تتصل بي هاتفياً - لم أطق صبراً حتى أتلقّى ردّها بالبريد. بعد أن أرسلت الرسالة كتبت برقية طويلة وأبرقتها إليها. بعد ذلك بيومين، حين لم يصلني أي خبر منها، أرسلت برقية أخرى، أطول، وبعد أن أبرقتها جلست في بهو فندق ماكالبان وكتبت لها رسالة حتى أضخم من الأولى. في اليوم التالي تلقّيتُ رسالة قصيرة، حميمة، رقيقة، تكاد تكون حمقاء. لا ذكرَ للبرقية الأولى. هذا جعلني أستشيط غضباً. لعلها أعطتني عنواناً زائفاً. ولكن لِمَ تفعل ذلك؟ على أي حال، الأفضل إرسال برقية أخرى! أطلب فيها عنواناً كاملاً لعيناً ونمرة أقرب هاتف إليها. ألم تستلم البرقية الثانية والرسالتين؟ " انتظري وصول الرسائل والبرقيات التالية. اكتبي لي كثيراً. أبرقي عند الضرورة. أعلميني حال عودتك. أحبك. أنا مجنون بك. رئيس الوزراء يتكلم"

يبدو أن " رئيس الوزراء " أحسن سبك الخدعة. سرعان ما وصلت برقية إلى الصياد غلان، تبعتها رسالة موقّعة باسم فيكتوريا[١٨]. كان الله ينظر من خلف كتفيها وهي تكتب. لقد شاهدَتْ غزالاً وتبعَتْهُ خلال الغابة وضلّتْ طريقها. عثر عليها ساكنو الغابة وأعادوها إلى البيت. إنهم قوم بسطاء رائعون، وقد تولّعت بهم كل من هانا وفلوري. بمعنى، أنهما ذهبتا لتجذّفا القوارب معهم وأحياناً كانتا تنامان معهم في الغابة طوال الليل. سوف تعود في غضون عشرة أيام. إنها لا تتحمّل الابتعاد

١٨ - الصياد غلان وفكتوريا : من شخصيات روايات الروائي النرويجي كنوت هامسن (١٨٥٩ -١٩٥٢) - المترجم .

twitter @baghdad_library

عني أكثر من ذلك. ثم ما يلي: " أنا عائدة إليك، أريد أن أكون زوجتك". هكذا ببساطة، كما عبّرت عنه. وجدت ذلك رائعاً. إن أشد ما زاد من حبي لها فيض صراحتها، وبساطتها، ووضوحها وصدقها. أرسلت لها ثلاث رسائل متتالية، منتقلاً من مكان إلى مكان، يحركني هياج نشوتي.

انتظرتُ عودتها على أحرّ من الجمر. كانت قد قالت إنها ستعود في مساء يوم الجمعة. سوف تتصل بي هاتفياً في محترف ألريك حال وصولها إلى المدينة. وحلّ مساء يوم الجمعة وجلست هناك حتى الساعة الثانية صباحاً بانتظار مكالمتها الهاتفية. قال ألريك، الشكّاك دائماً، لعلّها كانت تقصد يوم الجمعة التالي. عدت إلى المنزل وأنا في حالة اكتئاب تام ولكن حتماً سأسمع أخبارها في الصباح. وفي اليوم التالي اتصلت بألريك هاتفياً عدة مرات لأسأل إن كانت قد وصلته أي كلمة منها. كان ضجراً، ولا يهمّه الأمر بتاتاً؛ وكاد يكون خجلاً مني، كما شعرت. عند الظهيرة، ولدى مغادرتي المكتب، قابلت ماكغريغور مصادفة مع زوجته يركبان سيارة سبور جديدة. لم نكن قد اجتمعنا منذ أشهر عدة. وأصرّ على أن أتناول طعام الغداء معهما. حاولت أن أتملّص من الدعوة، لكني لم أستطع. قال " ماذا ألمّ بك؟ أنت لست على سجيتك. أعتقد أنها امرأة أخرى، يا إلهي، متى ستتعلّم أن تعتني بنفسك؟"

خلال تناول وجبة الغداء أبلغني أنهما قررا أن يتوجّها إلى لونغ آيلند، ربما لقضاء ليلة هناك في مكانٍ ما. فلمَ لا أنضم إليهما؟ قلت إن لدي موعداً مع ألريك. قال " لا بأس، أحضر صديقك ألريك معك. إنني لا أميل إليه، ولكن إن كان هذا يسعدك، نأخذه معنا، ولم لا؟ ". حاولت

أن أخبره أن ألريك قد لا يرغب في الانضمام إلينا. أبى أن يتراجع. قال " سوف يأتي. دع هذا الأمر لي. سوف نذهب إلى رأس مونتوك أو إلى جزيرة شلتر وسوف نكتفي بالاسترخاء وأخذ قسط من الراحة - سوف يفيدك هذا. أما بالنسبة إلى جين التي تقلق عليها، انس أمرها! إن كانت تحبك فسوف تأتي وحدها. عاملهن بخشونة، هذا هو شعاري، أليس كذلك يا تس؟ ". ووكز زوجته وكزة في أضلعها قطعت أنفاسها.

كانت تس مولوي من النوع الذي يسمّى بالخرقاء الأيرلندية الطيبة القلب. وكانت من أشد مَنْ قابلت من النساء بُعداً عن التكلُّف، مشرقة مغطاة بآثار الجدري، وشعرها هزيل وخيطي (في طريقها إلى أن تغدو صلعاء)، لكنها مرحة وكسول، ودائماً على استعداد للشجار على الفور. وقد تزوجها ماكغريغور لأسباب عملية صرف، وهما لم يدّعيا قط أنهما متحابان. ولم يحدث بينهما أي انجذاب حيواني، كما شرح لي بُعيد ارتباطهما بالزواج، بما أن الجنس لم يكن يعني لها أي شيء. لم تكن تمانع في أن تُهز بين حين وآخر، لكنها لم تكن تستمتع بالأمر. وكانت تسأله طوال الوقت " ألم تنته؟ ". وإذا ما استغرقت العملية منه وقتاً طويلاً كانت تطلب منه أن يحضر لها مشروباً أو شيئاً تأكله " وقد ثار غضبي عليها ذات مرة حتى أني جلبت لها صحيفة لتقرأها. قلت لها " والآن هيا اقرأي ولا توفري حتى المسلسلة الهزلية! "

حسبت أننا سنجد مشقّة في إقناع ألريك بالمجيء معنا. ولم يكن قد قابل ماكغريغور إلا بضع مرات وفي كل مرة كان يهزّ رأسه وكأنه يقول - " إنني محتار! ". وما أدهشني أن ألريك رحّب بماكغريغور بودٍ ضافٍ. كان موعوداً بتلقّي مبلغ ضخم لرسم علبة بازيلاء جديدة كان

twitter @baghdad_library

سينفذها في الأسبوع التالي وكان في مزاجٍ حسن يخوّله أن ينحّي العمل بعض الوقت. وكان قبل قليل قد خرج لشراء عددٍ من زجاجات المشروب. وطبعاً، لم تصله أي مكالمة هاتفية من مَرَه. وكان رأي ألريك أنها لن تتّصل، ليس قبل أسبوع أو اثنين. "خذ اشرب كأساً!"

أعجب ماكغريغور بغلاف مجلة كان ألريك قد انتهى للتو من رسمه. كان يمثّل رجلاً يحمل حقيبة عصي الغولف يهمّ بالانطلاق إلى المروج. وجدها ماكغريغور مفعمة بالحياة. قال بأسلوبه المعتاد المفتقر إلى اللباقة " لم أكن أعلم أنك على هذا القدر من الجودة. كم تتقاضى مقابل عمل كهذا، إذا جاز لي أن أسأل؟ " فأخبره ألريك وازداد احترامه له. في تلك الأثناء كانت زوجته تدقق النظر في لوحة بالألوان المائية أعجبتها. سألته " أأنت مَنْ رسم هذه؟ ". أومأ ألريك بالإيجاب. قالت " أريد أن أشتريها. كم تريد ثمناً لها؟ " قال ألريك إنه يسعده أن يهديها إياها بعد أن ينتهي منها. فزعقت " تقصد أنها لم تنته بعد؟ تبدو لي منتهية. لا يهمني، سآخذها في كل الأحوال، كما هي هكذا. هل يكفيك عشرين دولاراً مقابلها؟ "

قال ماكغريغور، وهو يكزها وكزة كنطح الثور على فكيها ممازحاً مما أسقط الكأس من يدها " والآن اسمعي أنت يا بلهاء، الرجل يقول إنها لم تنته بعد، فماذا تريدين أن تفعلي، أن تجعليه كاذباً؟ "

قالت " أنا لم أقل إنها انتهت وأنا لم أصفه بالكاذب. لقد أعجبتني كما هي وأريد أن أشتريها "

" إذن اشتريها بحق المسيح، ودعينا ننتهي من الأمر! "

قال ألريك " كلا، في الحقيقة لا أستطيع أن أدعك تأخذينها في هذا

الظرف. ثم إنها جيدة ليست كما ينبغي بحيث تصلح للبيع - إنها مجرد اسكيتش"

قالت تس مولوي " لا يهم، أنا أريدها. سأعطيك ثلاثين دولاراً ثمناً لها "

تدخّلَ ماكغريغور " قبل دقيقة قلت عشرين دولاراً. ماذا ألمَّ بك، أمجنونة أنتِ؟ ألم تشتري لوحة من قبل؟ اسمع، ألريك، الأفضل أن تدعها تشتريها وإلا فلن نتحرّك من هنا. أريد أن أصطاد بعض السمك قبل انقضاء النهار، ما رأيك؟ طبعاً هذا العصفور " - مشيراً بإبهامه إليّ - " لا يحب صيد السمك؛ يريد أن يجلس ويستغرق في كآبته، ويحلم بالحب، ويُمعن النظر في السماء وما شابه من الخراء. هيا، دعونا نذهب، نعم، أحسنت صنعاً، خذ معك زجاجة - قد نأخذ منها جرعة قبل أن تصل إلى هناك "

أنزلت تس لوحة الألوان المائية عن الجدار وتركت ورقة بقيمة عشرين دولاراً على الطاولة.

حذّرها ماكغريغور " الأفضل أن تأخذيها معك. لا أحد يدري من يمكن أن يقتحم المكان أثناء غيابنا "

بعد أن قطعنا مسافة قصيرة تذكّرت أنه كان ينبغي أن أترك رسالة لَمَره عند جرس الباب. قال ماكغريغور " أوه، دعك من هذه الفكرة! أعطها شيئاً تقلق عليه - إنهن يحببن ذلك، هه توتس؟ ومرة أخرى وكز زوجته في أضلعها.

قالت " إذا وكزتني هكذا مرة أخرى فسوف ألفُّ هذه الزجاجة حول رقبتك. أنا جادّة "

twitter @baghdad_library

قال، وهو يرمي نظرةً إلى الخلف نحونا مع ابتسامة مشرقة كأنها مطليّة بالنيكل، " إنها جادّة. لا يمكنك أن تنخسها كثيراً، أليس كذلك يا توتس؟ نعم، إن مزاجها طيب - وإلا لما تحمّلتني حتى هذا اليوم، صح يا طفلتي؟ "

" أوه، اخرس! انتبه إلى أين تقودنا. لا نريد لهذه السيارة أن تتهشّم كما حدث للأخرى "

زعق " تقولين لا نريد؟ يا إلهي، يعجبني هذا. هل لي أن أسأل مَنْ الذي اصطدم بشاحنة الحليب على طريق هامستيد الرئيسية في وضح النهار؟ "

" أوه، انس الأمر! "

ظل الجدال ناشباً بينهما هكذا حتى بعد أن تجاوزنا جامايكا بمسافة. وفجأة كفّ عن إزعاجها ومضايقتها، ثم نظر في المرآة وبدأ يحدثنا عن مفهومه للفن وللحياة. كان يرى أنَّ لا بأس في الانخراط في مثل هذا العمل - يقصد رسم اللوحات وما إلى ذلك من الخزعبلات - ما دام الإنسان موهوباً به. وفي رأيه أن الفنان الجيد يستحق ما ينال من نقود. والبرهان على ذلك أنه نالها، إذا لاحظت. إنَّ كل مَنْ يتمتّع بميزةٍ جيدة يحظى بالتقدير، هذا ما أراد التعبير عنه. أليس كذلك؟ قال ألريك إن هذا هو رأيه أيضاً. ليس دائماً، طبعاً، وإنما بشكل عام. وتابع ماكغريغور يقول، إنَّ هناك طبعاً أشخاصاً مثل غوغان ويعلم الله إنهمْ كانوا فنانين جيدين، ولكن فيهم خصلة غريبة، خصلة تجعلهم معادين للمجتمع، إن شئت، تعيق حصولهم على التقدير الفوري. ولا يمكن وضع اللوم على الرأي العام، أليس كذلك؟ إن بعض الناس ولدوا تعساء،

هكذا يرى هو الأمر. خذه هو مثلاً. طبعاً هو ليس فناناً، لكنه ليس فاشلاً أيضاً. وهو، على طريقته، يشبه أي شخص آخر، وربما أفضل قليلاً. ومع ذلك، ولكي يثبت كيف أنَّ كل شيء يمكن أن يكون غير مؤكّد، لم ينجح أي عمل جرّب فيه يده. وأحياناً كان محامٍ مشبوه حقير يتفوّق عليه. ولماذا ؟ لأنه هو، ماكغريغور، لم يرضخ ويلجأ إلى القيام بأعمال مشبوهة. ثمة أشياء لا تقوى على القيام بها، أصرّ على ذلك. كلا يا سيدي! وضرب بقوة على المقود مشدّداً. ولكن هذا هو أسلوب الاشتراك في اللعبة، وهم يفلتون من العقاب أيضاً. ولكن ليس إلى الأبد! أوه كلا!

تابع قائلاً " والآن خذ عندك ماكسفيلد باريش. أعتقد أنه غير محسوب، ولكن مع ذلك أعطاهم ما أرادوا. في حين أن رجلاً كغوغان كان عليه أن يكافح من أجل الحصول على كسرة خبز - وحتى بعد أن مات بصقوا في عينه. إنه لعبة غريبة، الفن، أعتقد أنه مثل أي شيء آخر - تقوم بفعله لأنك تحبه وهذه هي أبعاده، ماذا ؟ والآن خذ عندك ذاك الابن الحرام الجالس إلى جانبك - نعم أنت! " قال هذا، مبتسماً لي من خلال المرآة " إنه يظن أن علينا أن نظل ندعمه ونرعى شؤونه إلى أن يؤلّف تحفته الفنية. إنه لا يفكر أبداً في أن يجد وظيفةً ما حتى ذلك الحين. أوه كلا، إنه لا يعفّر يديه الناصعتيّ البياض بهذه الطريقة. إنه " فنان ". حسن، لعله كذلك، لا يهمني. ولكن عليه أولاً أن يثبت ذلك. ألست على حق؟ هل دعمني أحد لأني أظن أني محام؟ لا بأس في أن يحلم الإنسان - كلنا نحلم - ولكن هناك إيجاراً يجب أن يدفع "

كنا قد مررنا للتو بمزرعة لتربية البط. قال ماكغريغور " والآن إليك

twitter @baghdad_library

ما أحب. لاشيء أحبُّ إلى نفسي من أن أستقر وأربي البط. لمَ لا أفعل؟ لأني أتمتع بما يكفي من الحس السليم بحيث أعرف أني لا أعلم أي شيء عن تربية البط. لا يكفي الإنسان أن يحلم بعملٍ ما - يجب أن ينفّذه! الآن هنري هذا، لو أنه خطر بباله أن يربي بطاً، لجاء إلى هنا وأخذ يحلم بهذا. أولاً يطلب مني، طبعاً، أن أقرضه بعض المال. يجب أن أعترف بأنه يتمتّع بالكثير من الحسّ في هذه النقطة. إنه يعلم أن عليه أن يشتريه قبل أن يعمل على تربيته. إذن، حين يريد شيئاً، فلنفرض الآن أنه بط، فإنه يكتفي بالقول بدون تفكير " أعطني بعض المال. أريد أن أشتري بطة! ". الآن هذا التصرُّف أسمّيه غير عمليّ. هذا حلم ... إذ كيف أستردُّ مالي؟ أتظن أني قطفته من الأشجار؟ وحين أقول له أن يذهب ويعمل للحصول عليه يغضب. يعتقد أني أقف ضده. أأقول الحق - أم أفتري عليك؟ " ومرة أخرى يرسل إليّ ابتسامة مطليّة بالنيكل من خلال المرآة.

قلت " لا بأس، لا تأخذ الأمر بكل هذه الجدّية "

" بكل هذه الجدّية؟ أتسمع هذا؟ يا إلهي، إذا كنت تظن أني أسهر الليالي من شدّة القلق عليك فأنت مخطئ خطأً محزناً. إنني فقط أحاول أن أقوِّمك. أحاول أن أضفي شيئاً من الحسّ السليم إلى تفكيرك. طبعاً أنا أعلم أنك لا تريد أن تربّي بطاً، ولكن عليك أن تعترف بأن أفكارك تتّصف أحياناً ببعض الجنون. يا إلهي، أتمنى ألا تكون قد نسيت حين حاولت أن تبيعني موسوعة يهودية. تصوَّر، لقد أرادني أن أوقّع على شراء مجموعة لكي يحصل على عمولة، ومن ثم أن أعيدها بعد فترة من الوقت - هكذا ببساطة. وكان من المفترض أن ألفّق لهم حكاية كان قد طبخها لي في التو واللحظة. هذا هو نوع العبقرية التي يتّصف به في

مجال الأعمال. وأنا المحامي! هل تتصورونني أوقع باسمي على عرضٍ زائف كذاك؟ كلا، وحقّ الله، كنت سأحترمه أكثر لو أنه قال لي إنه أراد أن يربّي بطاً. أنا أفهم إنساناً يريد أن يربّي بطاً، أما أن يحاول التخلّص من موسوعة يهودية برميها إلى أعزّ أصدقائه - فهذا عمل قاس، هذا إذا لم أقل إنه غير قانوني ولا يقبل التبرير. لكن هذا " قضية أخرى " - إنه يعتقد أن القانون كله فاسد. يقول " أنا لا أؤمن به "، وكأن إيمانه أو عدمه لهما أي أهمية. وحالما يقع في ورطة يهرع فوراً إليّ، ويقول " افعل شيئاً، أنت تعرف كيف تتعامل مع هذه الأمور "، وهي مجرد لعبة يلعبها عليّ. إنه يعتقد أن في وسعه أن يعيش بمنأى عن القانون، ولكن لعنني الله إن لم يكن طوال الوقت متورّطاً في مشكلة ما. وطبعاً لا يفكر لحظة واحدة في أن يدفع لي مقابل أتعابي، أو حتى مقابل الوقت الذي هدرته معه. لأنَّ من الواجب عليّ أن أفعل تلك الأشياء الصغيرة لأجله حباً بالصداقة. أترى ما أعني؟ "

لا أحد نطق بأي كلمة.

تابعنا الانطلاق في صمتٍ فترة من الوقت. مررنا بمزيدٍ من مزارع تربية البط. فتساءلت بعدَ كم من الوقت يُصابُ المرءُ بالجنون إذا ما ابتاع بطة واستقرَّ معها في لونغ آيلند. والت ويتمن ولد هنا في مكانٍ ما. وما أن خطرَ اسمه على بالي حتى أردت، مثلما حدث في مسألة شراء البطة، أن أزور مسقط رأسه.

سألت بصوتٍ عالٍ " ما رأيكم بزيارة مسقط رأس والت ويتمن؟ "

زعق ماكغريغور " ماذا؟ "

زعقت " والت ويتمن! لقد ولد في مكان ما من لونغ آيلند. فلنذهب إلى هناك "

twitter @baghdad_library

صرخَ ماكغريغور " أتعرف أين يقع؟ "

" كلا، ولكن يمكننا أن نسأل "

" أوه، اللعنة على هذا! حسبتُ أنك تعرف المكان. إن الناس هنا لا يعرفون مَنْ كان والت ويتمن. أنا نفسي ما كنت عرفته لو لم تكن تكثر الحديث عنه كالجحيم. كان شاذاً قليلاً، أليس كذلك؟ ألم تقل لي أنه كان يعشق سائق حافلة؟ أم أنه كان عاشقاً للزنوج؟ لم أعد أذكر أي شيء"

قال ألريك، وهو ينزع فلين الزجاجة " ربما كلاهما "

كنا نجتاز إحدى البلدات. قال ماكغريغور " يا إلهي، وكأني أعرف هذا المكان! أين نحن بحق الجحيم؟ ". توقفنا عند حافة الرصيف وحيّينا أحد المارّة " هيه، ما اسم هذه المدينة؟ " فأخبره الرجل. قال " أسمعتم هذا؟ كنت أخمّن أني أعرف هذه القذارة. يا يسوع، ما أجمل السفلس الذي أصبت به هنا ذات يوم! هل أستطيع أن أعثر على المنزل يا ترى. أودّ أن أتجوّل في الجوار لأرى إن كانت تلك العاهرة الصغيرة الجميلة جالسة في الشرفة. يا إلهي، إنها أجمل بدعة صغيرة. وما أبرعها في النكاح! إنها واحدة من تلك العاهرات المثيرات، الحاميات دائماً - كما تعلم، تعطيه لك كله، تفركه في وجهك مباشرة. لقد جئت إلى هنا تحت سيول الأمطار تلبيةً لموعد معها. كل شيء كان رائعاً. كان زوجها غائباً في رحلة وكانت هي تتحرّق شوقاً إلى طرف أحدهم ... أنا أحاول الآن أن أتذكر مِنْ أين التقطتها. ما أعرفه جيداً هو أني أمضيتُ وقتاً طويلاً في إقناعها بالسماح لي بزيارتها. حسن، على أي حال، أمضيت وقتاً رائعاً - لم أخرج من السرير مدة يومين كاملين. لم أكن أنهض حتى

لأغتسل - " هذه هي المشكلة ". يا إلهي، أقسم أنك لو رأيت ذاك الوجه إلى جانبك على الوسادة لحسبتَ أنك مع مريم العذراء. كان في إمكانها أن تقذف تسع مرات بدون توقف. ومن ثم تقول - " افعلها ثانية، مرة أخرى ... أشعر أني " فاسقة " ". حلوة هذه، هه؟ أعتقد أنها لم تكن تعرف معنى الكلمة. على أي حال، بعدها ببضعة أيام بدأ يحكّني ثم احمرَّ لونه وتورَّم. لم أصدِّق أني أصبت بالسيلان. ظننت أن برغوثاً عضّني. ثم بدأ القيح يسيل. يا إلهي، إن البراغيث لا تسبّب قيحاً. حسن، قمت بزيارة طبيب العائلة، فقال " هذا جميل؛ من أين حصلت عليه؟ "، فأخبرته. قال " ينبغي أن تجري فحصاً للدم، قد يكون سفلساً "

أنَّت تس " يكفي حديثاً عن هذا، أليس لديك حديث ممتع على سبيل التغيير؟ "

قال ماكغريغور، مجيباً على هذا " حسن، يجب أن تعترفي بأني كنت نظيفاً منذ أن تعرَّفت إليك، صح؟ "

أجابت " الأفضل أن تكون كذلك، وإلا ساءت صحتك "

قال ماكغريغور، مكشراً من خلال المرآة مرة أخرى " إنها دائماً تخشى أن أنقل إليها الهدية. اسمعي يا توتس، الجميع يصاب بالمرض في وقت من الأوقات. اشكري ربك أني أصبت به قبل أن أقابلك - أليس صحيحاً يا ألريك؟ "

قالت تس بنزق " أوه أحقاً؟ ". كان يمكن أن يستتبع ذلك مشاحنة لو لم نكن قد وصلنا إلى قرية صغيرة رأى ماكغريغور أنها مكان جميل للتوقف فيه. كان يفكر في التبرُّز. ثم إنه كان هناك نُزُل على الطريق

twitter @baghdad_library

قريب يقدم طعاماً جيداً، إذا ما صدّقت ذاكرته، فأنزلنا جميعاً من السيارة. قال " ألا تريدان أن تتبوّلا؟ هيا! ". تركنا تس واقفة على جانب الطريق كمظلّة ممزقة ودخلنا لنفرغ مثاناتنا. أمسك بنا معاً من ذراعينا، وقال " بيني وبينكما، يجب أن نمكث هنا هذه الليلة. سوف يحتشد هنا جمع غفير؛ فإذا أردتما أن ترقصا أو أن تشربا كأساً أو اثنين معاً، فهذا هو المكان المناسب. لن أخبرها الآن أننا سنمكث - قد تثير زوابعها. سوف نذهب إلى الشاطئ أولاً ونسبح. وحين تشعران بالجوع قولا فوراً ومن ثم فجأة سنتذكّر نُزُلَ الطريق - مفهوم؟ "

تمشّينا إلى الشاطئ. كان مقفراً. اشترى ماكغريغور ملء جيب من السيجار، وأشعل واحداً، ثم خلع حذاءه وجوربه وراح يخوض في المياه وهو يدخّن سيجاراً ثخيناً. قال " شيء ممتع أليس كذلك؟ على المرء أن يعود طفلاً مرة كلّ حين "، وجعل زوجته تخلع حذاءها وجوربها. وخاضت في المياه كبطّة كثيفة الشعر. تمدَّدَ ألريك على ظهره على الرمال باسطاً ذراعيه وساقيه وأخذ غفوة. وتمدّدتُ هناك أراقب ماكغريغور وزوجته يقومان بحركاتهما الغريبة الخرقاء. وتساءلت إن كانت مَرَه قد وصلت وماذا ستعتقد حين تكتشف غيابي. أردت أن أعود بأسرع وقت ممكن. لم يكن يهمّني نُزُل الطريق والجياد السريعة التي تأتي إلى هنا لترقص. كان لديّ إحساس داخلي بأنها ستعود، وبأنها جالسة على عتبة باب بيت ألريك بانتظاري. أردت أن أتزوج من جديد، أردته بشدّة. ما الذي أغراني بالمجيء إلى هنا إلى هذا المكان المهجور؟ كنت أكره لونغ آيلند، ولطالما كرهتها. اللعنة على ماكغريغور وبطّاته! كان مجرد التفكير فيها يثير جنوني. وإذا ما حدث وصار عندي بطّة سأسمّيها ماكغريغور، ثم

أربطها إلى عمود النور وأطلق النار عليها من مسدس كاليبر-٤٨. سوف أظل أطلق النار عليها إلى أن تموت ومن ثم أقطّعها بفأس. اللعنة على بطّاته! أيري في البط! قلت هذا لنفسي، أيري في كل شيء!

مع ذلك ذهبنا إلى نُزُل الطريق. وألغيت فكرة الاعتراض. كنت قد وصلتُ إلى حالة من اللا مبالاة منشؤها اليأس. وتركت نفسي أنساق مع التيار. وكما يحدث غالباً حين تلين وتترك أمر سوقك إلى إرادات الآخرين المتضاربة مع إرادتك، حدث أمرٌ لم نكن قد اتفقنا عليه. كنا قد انتهينا من تناول الطعام وبدأنا بشرب الكأس الثالثة أو الرابعة؛ وكان المكان مكتظاً بروحٍ أليفة، والكلّ في أحسن حالاته، وفجأة، على مائدة قريبة منا، نهض شاب واقفاً وكأس في يده وخاطب الموجودين. لم يكن ثملاً، كان فقط في حالة من الخفة والسرور، كما يحلو للدكتور كرونسكي أن يصفها. كان يشرح بهدوء ويُسر أنه سمح لنفسه أن يجذب الانتباه إليه وإلى زوجته التي أرفع كأسي لها، ولأنهما يحتفلان بذكرى زواجهما الأولى، ولأنهما سعيدان بذلك أرادا أن يعلم الجميع بهذا ويشاركوهما سعادتهما. قال إنه لا يريد أن يبعث الضجر في نفوسنا بإلقاء خطبة، وأنه لم يلق في حياته أي خطاب، وأنه لا يحاول أن يلقي خطاباً الآن، ولكن عليه فقط أن يحيط الجميع علماً بمبلغ سعادته وسعادة زوجته، وأنه لعله لن يشعر بمثل تلك السعادة مرة أخرى. قال إنه مجرد نكرة، وإنه يعمل ليكسب لقمة عيشه ولا يكسب الكثير من النقود (لم يعد أحد يفعل ذلك)، لكنه يعرف شيئاً واحداً وهو أنه سعيد، وأنه سعيد لأنه عثر على المرأة التي أحبها، ولا زال يحبها كما أحبها دائماً، على الرغم من أنهما متزوجان منذ عام كامل. (ابتسم) قال إنه

twitter @baghdad_library

لا يخجل من الاعتراف بذلك أمام العالم كله. قال إنه لا يستطيع كبح جماح نفسه لإخبارنا بذلك، حتى وإن بعث في نفوسنا الضجر، لأنه حين يكون الإنسان سعيداً يرغب في أن يشاركه الآخرون السعادة. قال إنه من الرائع أن توجد مثل تلك السعادة في حين أن العالم مملوء بالأشياء الخاطئة، ولكن ربما تزيد السعادة إذا ما أفشى الناس شعورهم بالسعادة للآخرين بدل أن ينتظروا ريثما يثق أحدهم بالآخر في أوقات الأسى والحزن. قال إنه يريد أن يرى السعادة بادية على الجميع، وأنه حتى وإن كنا جميعاً غرباء أحدنا عن الآخر، فإننا في هذه الأمسية متّحدون معه ومع زوجته وإذا ما قبلنا مشاركتهما فرحهما العظيم فإن ذلك سيضاعف من سعادتهما.

كان من فرط استغراقه بفكرة أن على الجميع أن يشاركوهما فرحتهما بحيث ظل يتكلّم مدة عشرين دقيقة أو أكثر، متنقلاً من نقطة إلى أخرى كرجلٍ جالس على آلة البيانو ويرتجل العزف. لم يكن يشكّ لحظة واحدة في أننا جميعاً أصدقاؤه، وفي أننا سنصغي إليه بهدوء إلى أن يفضي بكل ما عنده. لم يبد أي مما قال سخيفاً، وإن كانت كلماته مغرقة في الرومانسية. لقد كان صادقاً بكل ما في الكلمة من معنى، وجاداً، ويتملّكه تماماً إدراكه بأن نيل السعادة هو أعظم نعمة يفوز الإنسان بها. ليست الشجاعة ما دفعه إلى الوقوف ومخاطبتنا، إذ كان من الواضح أن التفكير في النهوض على قدميه وإلقاء خطابه الطويل والمرتجَل كان مفاجئاً له كما لنا. وفي ذلك الوقت كان، دون علمٍ منه، يوشك أن يغدو مبشّراً، تلك الظاهرة العجيبة في الحياة الأميركية التي لم تنل قط نصيبها من الشرح الوافي. أيُّ إحساسٍ بالعزلة تمكّن من

أناسٍ مسَّتهم رؤيا، أو صوت مبهم، أو إلحاحٍ داخلي لا يقاوَم - هناك آلاف فوق آلاف منهم في بلدنا - ولَكَمْ من الوقت، جعلهم ينهضون، وكأنما من نشوةٍ عميقةٍ، وخلقوا لأنفسهم كياناً جديداً، وصورة جديدة للعالم، وإلهاً جديداً، وسماءً جديدة؟ نحن متعوّدون على أن نرى أنفسنا ككتلة ديموقراطية عظمى، مترابطة بروابط مشتركة من دم ولغةٍ، ومتّحدةً اتحاداً لا ينفصم بكافة أنماط الاتصال التي يمكن لإبداع الإنسان أن يبتدعها؛ فنحن نرتدي الملابس ذاتها، ونتبع نظام الحِمية ذاته. نقرأ الصحف ذاتها، ومتشابهون في كل شيء ماعدا الأسماء، والأوزان والأرقام التي نحمل؛ نحن الشعب الأشدّ تنظيماً في العالم، نسدُّ الطريق على شعوب بدائيّة معيّنة متخلّفة في تطورها. ومع ذلك - مع ذلك وعلى الرغم من كل الدلائل الظاهرية على أننا متعاضدون، ومتكافلون، ومتوادّون، ومتعاونون، ومتعاطفون، حتى الإخاء، فإننا شعب معزول، مبتلٍ بالكآبة،سربُ مصابُ بالجنون يتلاطم في سُعرٍ من الحماس، نحاول أن ننسى أننا لسنا ما نظنُّ أنفسنا، ولسنا متّحدين حقاً، ولا يُخلِّصُ أحدنا الآخر، ولا ننصت حقاً، ولسنا أي شيء مهما كان، وإنما فقط أرقامُ نتنقّل بخطى متثاقلة تدفعنا يدُ خفيّة بحسابات لا تهمّنا في شيء. وفجأة، بين حين وآخر، يأتينا شخص يقظ، منفصل، إذا صحّ التعبير، عن الغراء العبثي الذي نلتصق به - الهراء الذي نسمّيه الحياة اليومية وهو ليس بحياة بل توقفُ أشبه بالغشية فوق تيار الحياة العظيم -وهذا الشخص الذي، لأنه لم يعد يشترك في النمط العام، يبدو لنا مجنوناً جنوناً مطبقاً، يجد نفسه يتمتّع بقدرات غريبة وتكاد تكون مرعبة، يكتشف أن في إمكانه أن يُبعد آلافاً لا حصر لها عن القطيع، يحرّرهم

twitter @baghdad_library

من سلاسلهم، ويجعلهم يقفون على رؤوسهم، ويملأهم بالفرح، أو بالجنون، ويدفعهم إلى أن ينبذوا أصدقاءهم وأقرباءهم، أن ينكروا نداءهم الباطني، ويغيّروا شخصياتهم، وملامحهم، بل وأرواحهم ذاتها. وما هي طبيعة هذا الإغواء الطاغي، هذا الجنون، هذا " الخبل المؤقّت "، كما يحلو لنا أن نسمّيه؟ ماذا غير الأمل في العثور على السكينة والفرح؟ إن كلَّ مبشّرٍ يستخدم لغةً مختلفةً لكنهم جميعاً يتحدثون عن الشيء نفسه (أن نكفَّ عن السعي، أن نكفَّ عن الكفاح، أن نكفَّ عن أن يركب كلٌّ منا على كتفيْ غيره، أن نكفَّ عن الاندفاع في كل اتجاه سعياً وراء تحقيق أهداف باطلة متذبذبة) وفي لمح البصر يتكشّف السرّ الأعظم الذي يأسر الحركة الخارجية، ويهدهد الروح، ويحقق التوازن، ويجلب الصفاء والتوازن ويضيء الوجه بلهبٍ ثابت، هادئ، لا يخبو أبداً. وعندما يحاولون أن يفشوا السر يصبحون مصدر إزعاج لنا، بحق. وننأى بأنفسنا عنهم لأننا نشعر أنهم ينظرون إلينا بتعطُّف؛ ولا نحتمل التفكير في أننا لسنا على قدم المساواة مع أي إنسانٍ، مهما كان متفوقاً علينا. لكننا لسنا متساوين؛ نحن في الغالب متدنّون، وإلى حدٍ بعيد، متدنّون خاصة بالنسبة إلى الهادئين والمتمالكين أنفسهم، إلى البسطاء في أساليبهم، والراسخين في إيمانهم. إننا نمتعض مما هو ثابت وراسخ، مما هو منيع في وجه تملقاتنا، ومنطقنا، ومبادئنا المنظّمة، وأشكال ولائنا العتيقة.

بينما كنت أصغي إليه قلت في نفسي، لو زاد مقدار السعادة قليلاً فسيصبح ما يسمّى بالإنسان الخطر. خطر، لأنه لكي يصبح سعيداً على الدوام يجب أن يضرم النار في العالم. فأن تجعل العالم يضحك أمر،

وجعله سعيداً أمر مختلف تماماً. لا أحد نجح حتى في إنجاز ذلك. والشخصيات العظيمة التي أثّرت في العالم في الخير أم في الشر كانت دائماً شخصيات مأساوية. حتى القديس فرانسيس الأسيزي كان مخلوقاً معذّباً. وبوذا، بهاجسه حول القضاء على المعاناة، في الواقع، لم يكن بالضبط إنساناً سعيداً. لقد كان أكثر من ذلك، إذا شئت: كان صافياً، وعندما مات، كما يقال، توهّجَ جسده كله وكأن نقيّ عظامه نفسه كان يتلظى ناراً.

ومع ذلك، يبدو لي أن مما يستحق المحاولة أن نجعل العالم كله أكثر سعادة، من باب التجريب، أو التمهيد (إن شئت) لتلك الحالة الأشدّ إعجازاً التي يبلغها الأتقياء. أنا أعرف أن كلمة " سعادة " ذاتها أصبح لها جرس بغيض، خاصة في أميركا؛ فهي تبدو بلهاء وبلا معنى؛ لها جَرْسٌ أجوف؛ هي المَثَل الأعلى للضعيف والعاجز. إنها كلمة مستعارة من الأنكلو- ساكسون، وقد شوّهناها وجعلنا منها شيئاً لا معنى له. حتى ليخجل الإنسان من استخدامها بجدّية. ولكن لا سبب وجيهاً يجعلها كذلك. فالسعادة مشروعة كالحزن، والكل، فيما عدا أصحاب الأرواح المحرّرة الذين عثروا بحكمتهم على ما هو أفضل، أو أكبر، يرغب في أن يكون سعيداً وعلى استعداد، إذا ما استطاع (وإذا ما عرف السبيل إلى ذلك!)، أن يضحّي بكل شيء لبلوغها.

لقد أعجبني خطاب الشاب، على الرغم من تفاهته لدى تفحّصه عن قرب. وقد حظي بإعجاب الجميع، والجميع أحبوه وأحبوا زوجته. الكل شعر بالارتياح، وأصبحوا أكثر تواصلاً، واسترخاءً، وتحرّراً، وكأنه حقننا بجرعة مخدِّرة. أخذ الناس يتبادلون الأحاديث عبر الموائد، أو ينهضون

twitter @baghdad_library

ويتصافحون أو يتبادلون الربت على الظهر. نعم، إذا ما تصادف وكنت إنساناً جاداً جداً، ومهتمّاً بمصير العالم، ومكرّساً نفسك لغاية راقية (كتحسين ظروف الطبقات العاملة أو تخفيض نسبة الأميّة بين السكان الأصليين)، فقد يبدو أن هذه الحادثة الصغيرة تتلبّس أهمية مبالَغٌ فيها تماماً. إن إظهاراً صريحاً، وشاملاً لسعادة غير متكلّفة يسبّب الإزعاج لبعض الناس؛ والبعض يفضّلون أن يكونوا سعداء سراً، ويعتبرون الإظهار العام لفرحهم مدّعياً أو بذيئاً قليلاً. أو ربما هم ببساطة منغلقون داخل نفوسهم بحيث يعجزون عن فهم الوداد والتواصل. على أي حال، لا وجود لذوي الأرواح الرقيقة بيننا؛ كان حشداً متوسط الحجم مكوّناً من أناس عاديين، أي أنهم يملكون سيارات. بعضهم كان ثرياً دون أدنى شك والبعض الآخر ليس فاحش الثراء، ولكن لم يكن بينهم أي معوز، لا أحد منهم كان مصروعاً، لا أحد منهم كان مسلماً أو زنجياً أو مجرد شخص أبيض تافه بسيط. كانوا عاديين، بالمعنى العادي للكلمة. أي كانوا يشبهون ملايين الأميركيين الآخرين، لا يميّزهم شيء، بلا أي سمة خاصة، لا ينطوون على أي هدف عظيم. وفجأة بعد أن انتهى، يبدو أنهم أدركوا أن كلاً منهم يشبه الآخر، لا أفضل، ولا أسوأ، فطرحوا عنهم القيود الحقيرة التي كانت تعزلهم ضمن مجموعات صغيرة، ونهضوا تلقائياً وبدؤوا يمتزجون معاً. وسرعان ما فاضت الكؤوس بالشراب، وصدحت الحناجر بالغناء، ثم باشروا الرقص، رقصوا كما لم يرقصوا من قبل؛ بعضهم نهض ورقص ولم يكن قد هزَّ ساقاً منذ سنين مضت، وبعضهم الآخر رقص مع زوجته؛ وبعضهم رقص وحده، ورؤوسهم تدور، ثملة بما تشعر من رشاقة وحرية؛ والبعض غنى وهو يرقص؛ والبعض الآخر أشرق وجهه بالبهجة في وجه كل مَنْ وقعت عينه عليه مصادفة.

مذهلٌ كم يمكن لإعلانٍ بسيط، صريح، عن الفرح، أن يترك من أثر. إن كلماته لم يكن لها أي أهمية بحد ذاتها، كانت مجرد كلمات عادية بسيطة يمكن لأي كان أن يستحضرها في التو واللحظة. وكان في رأي ماكغريغور، الشكّاك دائماً، الذي يعمل جاهداً دائما على تقصّي الزلاّت، أنه بحق شاب شديد الحذق، ولعله شخصية مسرحية، وأنه قد تعمَّدَ أن يظهر بسيطاً وساذجاً، لكي يخلق أثراً بليغاً. ومع ذلك لم يكن لينكر أن الخطاب قد وضعه في مزاجٍ رائق. لقد أراد ببساطة أن يُعلمنا أنه ليس ممَّن يُخدَعون بسهولة. تظاهر بأنه جعل مزاجه حسناً، ليُعلمنا أنه لم يُخدَع، حتى وإن كان قد استمتع بالأداء برمّته.

شعرت بالرثاء لأجله إن كان ما قاله صحيحاً. لا أحد يشعر بالانبساط إلا إذا كان مستغرقاً تماماً. لعل من قبيل النعمة أن يكون المرء ذكياً، أما أن يضع ثقته الكاملة في شيء، أن يكون ساذجاً إلى درجة البلاهة، أن يستسلم بلا أي تحفّظ، فهذه إحدى متع الحياة السامية.

حسن، كنا جميعاً من شدة السرور بحيث أننا قررنا أن نعود إلى المدينة ولا نبيت كما كنا قد خططنا. غنينا بأعلى ما أوتيت رئاتنا من قوة طوال الطريق. حتى تس غنّت، صحيح بنشاز، ولكن بنشوة وبلا أي تحفّظ. ولم يكن ماكغريغور قد سمعها تغني قبل ذلك؛ كانت دائماً أشبه بأيلِ الرنّة ن من حيث القدرة الصوتيّة. كان كلامها محدوداً، يقتصر على النخر الأجشّ، يقطعه على فترات أنين الموافقة أو عدم الموافقة. وانتابني حدس داخلي بأنه، وسط معاناتها المبرحة لذاك الانشراح الخارق، ربما خطر لها أن تصدح بالغناء (لاحقاً) بدل أن تطلب كالمعتاد

twitter @baghdad_library

كأساً من الماء أو تفاحة أو شطيرة من لحم الخنزير. وكدت أتصوّر التعبير المرتسم على وجه ماكغريغور، فيما لو أنها نفّذت ذاك العمل المثير. كان التعبير سيسجّل ذهولَ اللا مصدِّق. (ماذا أيضا، بحق المسيح؟)، لكنه في الوقت نفسه كان يمكن أن يعني - " تابعي، ارفعي عقيرتك، جرّبي الطبقة العالية على سبيل التغيير! ". كان يحب أن يقوم الناس بأفعالٍ غير متوقّعة أبداً. كان يحب أن يكون قادراً على الاعتقاد بوجودِ أمورٍ معيّنةٍ، شريرة لا تكاد تصدِّق يمكن للناس أن يفعلوها وما كان ليتخيّل حدوثها مطلقاً. كان يحب أن يعتقد أنه لا وجود لأي شيء هو من فرط الشر، والبذاءة والحقارة، بحيث يعجز الكائن البشري عن ارتكابه في حق أخيه الإنسان أو ضده. كان يفخر بأنه يتمتّع بعقلٍ متفتِّح، عقل متقبِّل لأي شكلٍ مزعومٍ للحماقة، أو القسوة، أو الخيانة أو الضلال. كان يسير على هدى الافتراض القائل: إن كل إنسان في قرارة قلبه ابن حرام زائف، أناني وقاسي القلب، وهذه حقيقة برهنَ عليها العدد المحدود بشكل مُعجزِ للقضايا التي لفتت انتباه الرأي العام في قاعات المحاكم. ولو أنه كان في الإمكان التجسّس على كل إنسان، وتعقّبه، ومطاردته، واستجوابه، وتوقيفه، وإجباره على الاعتراف، لكنا جميعاً، برأيه الصادق، في السجن. ويؤكد لنا أن أسوأ المنتهكين هم القضاة، ورجال الحكومة، وآمرو السجون، ورجال الدين، والمربّون، والعمال المحسنون. أما في مجال مهنته، فقد قابل واحداً أو اثنين كانا صادقين موسوسين، يمكن الاعتماد على كلمتهم؛ أما الباقون، الذين تضمّهم مهنته ودون أي استثناء، فكانوا أحطّ مِنْ أحطّ المجرمين، حثالة الأرض، أحقر ثفالة إنسانية وقفت على قدمين. لا، إنه لا يؤخذ بأي قذارة تقدّمها هذه

المخلوقات للاستهلاك العام. إنه لا يعرف لماذا كان أميناً وصادقاً مع نفسه؛ فهذا لا يُطعِم خبزاً. إنه هكذا وكفى، كما يعتقد. ثم إن لديه نقاط ضعف أخرى، وهنا يبدأ بتكديس أخطائه كلها، أو التي اعترف بوجودها، أو تخيّل وجودها، والنتيجة لائحة هائلة، بحيث أنه بعد أن ينتهي يرغب المرء في سؤاله لماذا أزعج نفسه باستبقاء ميزتيّ الصدق والأمانة.

فجأة يقول: " إذن ما زلت تفكر فيها؟ "، ويدير رأسه قليلاً ويلوي الكلمات مخرِجاً إياها من زاوية فمه. " في الحقيقة، إني أرثي لحالك. لا حلّ لديك إلا الزواج منها. إنك حتماً شَرِه إلى تلقّي التعذيب. وعلى ماذا ستعيش - ألم تفكّر في هذا؟ أنت تعرف أنك لن تحتفظ بعملك هذا طويلاً - لابد أنهم الآن قد علموا بأمرك. وأتعجّب كيف أنهم لم يطردوك منذ وقت بعيد. لاشك في أنك قد ضربت رقماً قياسياً - منذ متى وأنت فيه، ثلاث سنوات؟ أذكر كيف كانت فترة ثلاثة أيام تعتبر وقتاً طويلاً. وطبعاً إذا كانت هي الفتاة المناسبة فلن تقلق بشأن الاحتفاظ بالعمل - هي ستعيلك. وسيكون ذلك وضعاً مثالياً، أليس كذلك؟ حينئذ ستتمكّن من تأليف تلك التحف الفنيّة التي لا تني تعِدنا بها. وأعتقد، وحقّ المسيح، أنَّ هذا هو سبب توقك الشديد إلى الخلاص من زوجتك: إنها تعلم بأمرك، وتتابعك باستمرار. يا إلهي، لابد أنه يمقتك كثيراً أن تنهض في صباح كل يوم وتتوجّه إلى العمل! كيف تفعل ذلك، هلاّ أخبرتني؟ كنت من قبل من فرط الكسل بحيث يصعب عليك أن تنهض لتتناول وجبتك ... اسمع، ألريك، لقد رأيت ابن الحرام هذا يلزم السرير طوال ثلاثة أيام متواصلة. ولا شيء به - فقط لا يحتمل التفكير في مواجهة العالم. أحياناً يكون ملتاعاً من الحب. أو مجرد ممسوساً بالانتحار.

twitter @baghdad_library

هذا ما كان يحب أن يفعله - يهدّدنا بالانتحار " (ينظر إليّ من خلال المرآة) " نسيت تلك الأيام، أليس كذلك؟ الآن يريد أن يعيش... لا أدري لماذا ... لا شيء تغيّر ... كل شيء قذر كعهده دائماً. الآن يتحدّث عن إعطاء شيء للعالم - تحفة فنّية، ولا أقلّ. إنه لا يستطيع أن يمنحنا حتى كتاباً عادياً لأنه يروج. آه لا، هو لا يفعل ذلك! يجب أن يكون فريداً من نوعه، شيئاً لم يسمع أحد بمثله. حسن، أنا أنتظر. أنا لا أقول إنك لن تكتبه، ولا أقول ستكتبه. أنا فقط أنتظر. وفي تلك الأثناء ستستمر بقيّتنا في كسب لقمة عيشها. نحن لا نستطيع أن نقضي عمرنا كله في محاولة إنجاز تحفة فنيّة " (يسكت ليستردّ أنفاسه) " أتعلم، أحياناً أشعر وكأني أرغب في أن أؤلّف أنا نفسي كتاباً - فقط لأبرهن لهذا الرجل أنه ليس من الضروري أن يجعل المرء من نفسه سعداناً ليؤلّف مثل ذاك العمل الفني. أعتقد أني لو شئت لأنجزت كتاباً خلال ستة أشهر - وفوق ذلك، دون أن أهمل عملي. أنا لا أقول إنه سيفوز بجائزة. ولا أتبجّح بكوني فناناً. إن ما يغيظني في هذا المخلوق هو أنه واثق تماماً من أنه فنان. إنه متيقّن من أنه متفوّق بدرجة لا متناهية علي، فلنقل مثلاً، هرغيشايمر[19] أو درايزر[20] - ومع ذلك ليس لديه أي شيء لعين ليُثبت به كلامه. إنه يريد منا أن نصدّق هذا على الثقة. وإذا طلبت منه أن يريك شيئاً ملموساً كمخطوط، يتكدّر. أتتصوّرني أحاول أن أؤثّر على قاضٍ بالقول إني محام مفوّه حتى بدون أن أكون قد نلت شهادة؟ أنا أعلم أنك لا تستطيع أن تبرز شهادة أمام أي إنسان لتبرهن له على أنك كاتب، ولكن مع ذلك يمكنك أن

١٩ - جوزيف هرغيشايمر (١٨٨٠ - ١٩٥٤) : روائي أميركي . له " رأس جاوا " . - المترجم
٢٠ - ثيودور درايزر (١٨٧١ - ١٩٤٥) : روائي أميركي . له " الأخت كاري " .- المترجم .

تُبرز مخطوطاً، أليس كذلك؟ يقول إنه قد ألّفَ عدة كتب حتى الآن - حسن إذن، أين هي؟ هل رآها أحد؟ "

هنا يقاطعه أليك ليدلي بكلمة لصالحي. كنت جالساً وظهري مستند إلى مقعدي الوثير وأنا أضحك ضحكاً مكبوتاً. كنت مستمتعاً بالإصغاء إلى تلك الشطحات الماكغريغورية المطوّلة.

قال ماكغريغور " حسن، لا بأس، إذا قلت إنك رأيت مخطوطاً سأسلّم بما تقول. إنه لم يعرض عليّ أبداً أي شيء، ابن الحرام. أعتقد أنه لا يكنُّ أي احترامٍ لأحكامي. كل ما أعرفه هو أنك حين تصغي إليه وهو يتكلّم تظن أنه عبقري. أذكر أي كاتب - لا أحد يناسبه. حتى أناطول فرانس ليس جيداً. إذا كان ينوي أن يضع هؤلاء المؤلّفين في الصف الثاني فهو يصوِّب عالياً جداً. في رأيي، إن رجلاً مثل جوزيف كونراد ليس فقط فناناً بل أستاذ. إنه متفوّق. ومن ثم، بحق المسيح، أتدري بماذا اعترفَ لي ذات يوم؟ اعترفَ بأنه لم يقرأ أي شيء لملفيل! ، وقال إن ذلك لا يهمّ. فكيف يمكن أن تقنع واحداً كهذا؟ أنا أيضاً لم أقرأ أي شيء لملفيل، ولكن لعنني الله إن كنت أصدِّق أنه أفضل من كونراد - ليس قبل أن أقرأه على أي حال "

قال أليك " في الواقع، قد لا يكون مجنوناً أبداً. إن كثيراً من الناس ممّن لم يشاهدوا أي لوحة لجيوتو[٢١] متأكدون تماماً من أنه أفضل، مثلاً، من ماكسفيلد باريش[٢٢]"

قال ماكغريغور " هذا أمر مختلف. فلا شك هناك حول قيمة أعمال

---

٢١ - جيوتو ، أو جيوتو دي بوندونه (١٢٦٧ ؟ - ١٣٣٧ ؟) : رسام فلورانسي ، تحرّر من التقليد البيزنطي في الرسم ، وكوّن له شخصية مستقلّة أكثر دراميّة وطبيعية . - المترجم

٢٢ - ماكسفيلد باريش (١٨٧٠ - ١٩٦٦) : رسام أميركي . عُرِفَ بجدارياته . - المترجم

twitter @baghdad_library

جيوتو، أو أعمال كونراد. أما ملفيل، كما أعرفه، فهو أشد غموضاً. والجيل الحالي قد يجده متفوقاً على كونراد، غير أنه معه ذلك قد يخبو كمذنَّب في غضون مائة عام أو مائتين. وحين أعادوا اكتشافه مؤخراً كاد يكون خامد الذكر "

قال أليك " وما أدراك أن شهرة كونراد لن تخبو في غضون مائة عام أو مائتين؟ "

" لأنَّ لا ريب في ذلك. إنها قائمة على أساس إنجازٍ صلب. والإعجاب به عالميّ، وتُرجِمَ حتى الآن إلى لغات كثيرة. وهذا القول ينطبق أيضاً على جاك لندن و أو. هنري[٢٣]، وهما بلا ريب كاتبان أقلّ شأناً لكن ذكرهما سيدوم بلا شك، إن كنت أعرف عمّا أتكلم. إن الجودة ليست كل شيء. الرواج الشعبي لا يقلّ أهمية عن الجودة. أما عن القدرة على البقاء، فالكاتب الذي يرضي العدد الأكبر - على افتراض أنه يتّصف بقدرٍ من الجودة وليس مجرد كاتب مأجور - يصمد أطول بدون أدنى شك من الكاتب الأرقى، والأنقى. إن الغالبية تستطيع أن تقرأ لكونراد؛ ولكن ليس الجميع يقرؤون ملفيل. وحين نأتي إلى حالة فريدة، مثل لويس كارول[٢٤]، فأنا أراهن، بالنسبة إلى الشعوب المتكلّمة بالإنكليزية، على أنه سيصمد أكثر من شيكسبير ... "

بعد برهة تفكير تابع قائلاً " والآن الرسم يختلف قليلاً، بالنسبة إلى طريقتي في التفكير. فاستحسان رسم جيد يتطلّب أكثر من استحسان كتاب جيد. ويبدو أن الناس يعتقدون أنه لأنهم يعرفون القراءة

---

٢٣ - أو. هنري: الاسم المستعار للكاتب الأميركي ويليم سيدني بورتر (١٨٦٢ - ١٩١٠). - المترجم.

٢٤ - لويس كارول (١٨٣٢ - ١٨٩٨): رياضي وكاتب لقصص الأطفال. إنكليزي. له " أليس في بلاد العجائب". - المترجم.

والكتابة في استطاعتهم أن يميّزوا كتاباً جيداً من آخر رديء. حتى الكتّاب، أقصد الجيدين منهم، لا يتّفقون حول التمييز بين الجيد والرديء. ولا الرسامون يتّفقون في هذا المجال، حول اللوحات. ومع ذلك ثمة ما يوحي إليّ بأن الرسامين عموماً أكثر اتفاقاً حول توفّر المزايا أو الافتقار إليها في أعمال رسامين شهيرين من اتّفاق الكتّاب في مجال الكتابة. وحده رسامٌ تافه ينكر قيمة أعمال سيزان، مثلاً. لكن خذ عندك حالة ديكنز أو هنري جيمس، وانظر إلى الاختلاف المذهل في وجهات النظر بين الكتّاب والنقّاد المتمكّنين فيما يخصّ مزاياهما الخاصة. ولو أنه يوجد اليوم كاتب غريب الأطوار في عالمه كغرابة أطوار عالم بيكاسو لأدركت على الفور ما أرمي إليه. وحتى لو لم يحب الناس أعماله، فإن أغلب مَنْ يعرفون ولو قليلاً عن الفن يتّفقون على أن بيكاسو هو عبقرية عظيمة. والآن خذ عندك جويس، الشديد غرابة الأطوار ككاتب، هل ناله أي شيء من مقام بيكاسو؟ وإذا استثنينا القِلّة المثقفة، إذا استثنينا النفّاجين الذين يحاولون أن يجاروا كل شيء، تقوم سمعته، كما هي عليه اليوم، إلى حد بعيد على أساس كونه فلتة. وأنا أوافق على أن عبقريته مُعتَرَفٌ بها، لكنها ملوّثة، إن صح التعبير. إن بيكاسو يستحقّ احترامنا، حتى وإن لم يكن دائماً مفهوماً. أما جويس فأشبه بالأضحوكة؛ تزداد شهرته بالذات لأنه " لا يمكن " عموماً أن يكون مفهوماً. إنه مقبول كفلتة، كظاهرة، مثل عملاق كارديف ... وثمة أمر آخر، ما دمنا في سياق الحديث - مهما بلغت جرأة الرسام العبقري، فيمكن إدراك فهمه بشكل أسرع من فهم كاتب من الوزن نفسه. وفي أحسن الحالات، يستغرق تقبُّل رسام ثوري ثلاثين أو أربعين عاماً؛ بينما

twitter @baghdad_library

يستغرق الأمر من الكاتب قروناً أحياناً. وبالعودة إلى ملفيل - ما أعنيه هو: أنه استغرق منه ستين عاماً أو سبعين لكي يصل إلى منزلته. وما نزال لا نعرف إن كان سيحافظ عليها؛ فقد يسقط في الإهمال بعد جيلين أو ثلاثة. إنه يتمسَّك بأسنانه وفقط في بعض النقاط، إذا جاز التعبير. لقد حفر كونراد بأصابع يديه وقدميه؛ والآن أصبح لديه جذور في كل مكان؛ وأنت تزيح هذا كله ببساطة. أما عن استحقاقه مكانته، فهذا أمر آخر. أعتقد أنه إذا عُرِفَت الحقيقة فسوف نكتشف أن كثيراً من الرجال قُتِلوا أو غيّبهم النسيان وكانوا يستحقون أن يبقى ذكرهم حياً. أعلم أن من الصعب البرهان على ذلك، ولكني أشعر أن ثمة قَدْراً من الحقيقة فيما أقول. ويكفي أن تنظر حولك في الحياة اليومية لتلاحظ أنَّ الأمر نفسه يحدث في كل مكان. أنا نفسي أعرف، في مجال عملي، عدداً من الرجال الذين يستأهلون أن يترأسوا المحكمة العليا؛ لكنهم أخفقوا، وانتهوا، ولكن ماذا يبرهن هذا؟ هل يبرهن على أنَّهم ما كانوا ليصبحوا أكثر من العجائز التافهين الذين نراهم جالسين على المقعد الآن؟ لا يمكن وجود أكثر من رئيس واحد للولايات المتحدة يُنتَخَبْ مرةً كل أربع سنوات؛ فهل هذا يعني أنَّ الرجل الذي يتصادف انتخابه (عادة بصورة غير عادلة) هو أفضل من أولئك الذين هُزِموا أو من آلاف النكرات الذين حتى لم يحلموا قط بالترشّح للمنصب؟ كلا، يبدو لي أنَّ مَنْ يفوزون بمنصبٍ شَرَفي غالباً ما يتّضح أنهم الأقل جدارة به. أما المستحقون فيتراجعون إلى المراكز الخلفية، إما بسبب تواضعهم أو بدافع احترامهم لأنفسهم. إن لينكولن لم يرغب قط في منصب رئيس الولايات المتحدة؛ لقد فُرِضَ عليه؛ زُجَّ به فيه حرفياً، وحق المسيح. ولحسن الحظ

أنه اتّضح أنه الشخص المناسب - ولكن كان يمكن أن يكون الوضع غير ذلك. إنه لم يُنتَخَب لأنه كان الشخص المناسب. على العكس تماماً. ولكن اللعنة، إنني أنحرف عن مسار الموضوع. لا أدري ما الذي أطلق لساني ... "

سكت فترة كافية لإشعال سيجار جديد، ومن ثم باشر ثانية.

" هناك فقط شيء واحد أريد أن أقوله. لقد عرفت الآن ما الذي أطلق لساني. إنه ما يلي - إنني أرثي لحال مَنْ وُلِدَ ليكون كاتباً. لهذا تراني أعنِّفُ هذا المخلوق بشدّة؛ إنني أحاول أن أثبط همّته لأني أعلم ما يواجهه. لو أنه يمتلك أي شيء جيد فقد فسد. إن رساماً واحداً في إمكانه أن ينجز عدداً من الرسومات خلال عام - هذا ما سمعته. أما الكاتب - أحياناً يستغرق منه تأليف كتاب عشر سنوات، وإذا كان جيداً، في رأيي، يستغرق منه عشر سنوات أخرى ليعثر على ناشر له، وبعد ذلك يتوجّب عليه أن يسمح بمرور ما لا يقل عن خمس عشرة إلى عشرين سنة قبل أن يلاحظ الجمهور وجوده. أي تقريباً مدة الحياة كلها - من أجل إخراج كتاب واحد، انتبه. فكيف سيعيش في تلك الأثناء؟ حسن، سوف يعيش كما يعيش الكلب عادة. والشحاذ، بالمقارنة معه، يعيش حياة مَلَكيّة. لا أحد يقبل أن يتولّى هذا العمل إذا عَلِمَ ما ينتظره. أما أنا فأقول إنَّ الأمر كله جنون. أقول بصراحة إنَّ الأمر لا يستحق المشقة. إنَّ الفن لا يُنجَز أبداً بهذه الطريقة. وواقع الحال هو أنَّ الفن أضحى ترفاً في هذه الأيام. وفي استطاعتي أن أعيش حياتي بدون أن أقرأ أي كتاب أو أتأمّل أي لوحة. إنَّ بين أيدينا أعمالاً أخرى كثيرة جداً نؤديها - لا نحتاج إلى كتب ولوحات. الموسيقى نعم - سوف

twitter @baghdad_library

نحتاج إلى الموسيقى دائماً. وليس بالضرورة الموسيقى الجيدة - فقط موسيقى. على أي حال، لم يعد هناك مَنْ يؤلِّف موسيقى جيدة ... في رأيي، العالم كله ينهار. لست بحاجة إلى الكثير من الذكاء لتعيش وفق ما تسير به الأمور. وفي الحقيقة، كلما قلَّ ذكاؤك كنت أفضل حالاً. وقد رتَّبنا أمورنا إلى درجة أنَّ الأشياء أصبحت تُجلَبْ إليك على طبق. وكل ما أنت بحاجة إلى معرفته هو كيف تؤدي عملاً صغيراً بشكل مقبول؛ انضمّ إلى إحدى الاتحادات، أنجِز أقلّ قدر ممكن من العمل، فتحصل بالنتيجة على معاش تقاعدي عندما تصل إلى سن الشيخوخة. فإذا كانت لديك ميول محِبّة للجمال فلن تستطيع أن تنخرط في العمل الروتيني المستنزف. الفن يجعلك قلقاً، نزقاً. ونظامنا الصناعي لا يستطيع أن يسمح لهذا أن يحدث - لذا يقدّمون لك بدائل صغيرة مهدِّئة ليجعلوك تنسى أنك مخلوق آدمي. وأؤكد لك أنه قريباً لن يبقى أي أثر للفن. سوف تضطر إلى أن تدفع للناس نقوداً لتجعلهم يرتادون المتاحف أو يحضرون حفلاً موسيقياً. أنا لا أقول إنَّ الوضعَ سيستمرُّ هكذا إلى الأبد. كلا، فحالما يضعون الأمور في نصابها، فسيسير كل شيء بسلاسةٍ ويسرٍ، فلا يعود أحدٌ يصرخُ محتجّاً، ولا يبقى أحد قلقاً أو متذمّراً، وينهار الوضع. إن الإنسان لم يخلق ليكون آلة. والغريب في كل أنظمة الحكم اليوتوبيّة (المثالية) هذه هو أنها دائماً تعِدُ بتحرير الإنسان - لكنها تحاول أولاً أن تدفعه إلى العمل كساعة الثمانين يوماً، ويطلبون من الفرد أن يصبح عبداً لكي يؤسّس لقيام حرية الجنس البشري. منطق عجيب. أنا لا أقول إنَّ النظام الحالي أفضل حالاً. في الحقيقة، من الصعب تخيُّل ما هو أسوأ مما لدينا الآن. لكني أعلم أنَّه لن

يتحسَّن إذا ما تخلّينا عن الحقوق الضئيلة التي نحظى بها الآن. أعتقد أننا لا نريد مزيداً من الحقوق - بل نريد أفكاراً أعظم. يا إلهي، حين أرى ما يحاول المحامون والقضاة أن يحافظوا عليه أشعر بالتقزّز. ليس للقانون أي علاقة بالحاجات الإنسانية؛ إنه مهنة تؤديها ثُلّة من الطفيليين. يكفي أن تلقي نظرة على أحد كتب القانون وتقرأ فقرة (لا على التعيين) وبصوت عال. إذا كنت في كامل قواك العقلية فسترى أنها تبدو أشبه بكلام المجانين. بل هي جنون فعلاً، وحق الله، أنا متأكد! ولكن يا إلهي، إذا بدأت باستجواب القانون فسيتوجَّب عليّ أن أستجوب أيضاً أشياء أخرى. سوف أجنّ إذا مل تمعّنت في الأشياء بعينٍ صافية. لا يمكنك أن تفعل ذلك - لا تستطيع إذا أردت أن تبقى مواكباً للعصر. يجب أن تحدِّق بعينين شبه مغمضتين وأنت تواصل مسيرك؛ يجب أن تتظاهر بأن لهذا مغزى، يجب أن تدعُ الناس يفترضون أنك تعرف ما أنت فاعل. " ولكن لا أحد يعرف ماذا يفعل! ". إننا ننهض من النوم في الصباح لا " لنفكّر " فيما سنفعل. لا يا سيدي! إننا ننهض ونحن في حالة ضبابيّة ونجرُّ أقدامنا جراً خلال نفقٍ مظلمٍ ولا نزال نعاني من سُكر الليلة الفائتة. ونشترك في اللعبة. نعرف أنها لعبة زائفة وقذرة ولكن لا حيلة لنا فيها - لا خيار لنا. لقد ولِدنا في تركيبة معيّنة، ونحن محكومون بها: نستطيع أن نجري عليها تعديلات صغيرة هنا وهناك، كما نفعل بقارب يتسرّب الماء إليه، ولكنك لن تعيد بناءه من جديد، لا وقت لذلك، يجب أن تصل إلى الميناء، أو هكذا تتخيّل أن هذا ما يجب أن تفعله. وطبعاً، لن نصل أبداً إلى هناك. سوف يغرق القارب قبل ذلك، علِّم على كلامي. والآن لو أني مكان هنري هذا، لو أني

twitter @baghdad_library

شعرت بما يشعر من ثقة من أنه فنان، أتعتقد أنه سيهمّني أن أبرهن على ذلك للعالم؟ أبداً! لن أدوِّن سطراً واحداً على ورقة؛ سوف أكتفي بتقليب أفكاري، وأحلامي، وأترك الحال على هذا المنوال. سوف أتولّى أي عمل كان، أي شيء يبقيني على قيد الحياة، وسأقول للعالم: " أيري فيك، جاك، لن تستطيع أن تثقل كاهلي! لن تجعلني أجوع لكي أبرهن على أني فنان. لا يا سيدي - أنا أعرف ما أعرف ولا أحد يستطيع أن يقنعني بعكس ذلك "، كنت سأشقُّ طريقي في الحياة، ولا أفعل إلا أقل القليل. فإذا ما كانت لدي أفكار جيدة، غنية وناضجة فسأستمتع بها وحدي. لن أحاول أن أقحمها في حناجر الناس. كنت سأتظاهر بالبلاهة طوال الوقت، وأوافق على كل شيء، سأكون ختماً مطاطيّاً، سأتركهم يطأونني إذا شاؤوا ذلك. فقط طالما أني أعلم علم اليقين أني إنسان استثنائي. سأتقاعد وأنا في كامل حيويتي؛ لن أنتظر حتى أبلغ من العمر أرذله، حتى يستنزفونني ومن ثم يطيّبون خاطري بجائزة نوبل ... أعلم أن كلامي يبدو مخبولاً قليلاً. أعلم أنه ينبغي إضفاء شكل وجوهر على الأفكار. لكني أتكلم عن المعرفة والوجود وليس عن الفعل. وقبل أي شيء، الإنسان لا يصير شخصية ذات شأن إلا " لتكون " تلك الشخصية - إذ لا متعة في أن تكون في حالة صيرورة طوال الوقت، أليس كذلك؟ حسن، لنفرض أنك قلت لنفسك - اللعنة، لن أصير فناناً، أنا أعرف أني فنان، وسأكتفي بـ " كوني " فناناً - فماذا عندئذ؟ ماذا يعني ذلك، أن تكون فناناً؟ هل يعني أن عليك أن تؤلف كتباً أو أن ترسم لوحات؟ أفهم منك أن هذا شيء ثانوي - إنه الدليل الوحيد على أنك " فنان " ... ماذا تقول يا هنري إذا كتبتَ أعظم كتاب في العالم

ومن ثم ضيّعتَ المخطوط فور انتهائك من كتابته؟ وماذا لو أنَّ لا أحد علم بأنك كنت تعمل على تأليف هذا الكتاب العظيم، ولا حتى أقرب أصدقائك المقرّبين إليك؟ في تلك الحالة ستصبح مثلي أنا الذي لم أضع لمسة ريشة على ورق، أليس كذلك؟ ولو أننا متنا نحن الاثنان فجأة، عند هذه النقطة، فلن يعرف العالم مَنْ منا كان الفنان. حينئذ سأكون أنا قد أمضيتُ وقتاً ممتعاً وتكون أنت قد هدرتَ حياتك كلها هباءً "

هنا لم يعد في إمكان ألريك أن يتحمّل أكثر من ذلك، فقال محتجّاً " بل الأمر على العكس، الفنان لا يستمتع بالحياة بالتهرُّب من القيام بعمله. أنت الذي سيكون قد بدّد حياته سدى. الفن ليس أداءً إفرادياً؛ إنه عمل سيمفوني يؤدى في الظلام مع ملايين المشاركين وملايين المستمعين. والاستمتاع بفكرة جميلة لا يقارَن بالاستمتاع بإعطائها شكلاً تعبيرياً - تعبيراً " دائماً ". في الواقع، يكاد يكون من رابع المستحيلات الإحجام عن إضفاء شكل تعبيري على فكرة عظيمة. فما نحن إلا أدوات في يد قدرة عظيمة. نحن مبدعون بترخيصٍ، بمنّةٍ إلهيّة، إذا جاز التعبير. لا أحد يبدع وحده، من ذاته ولذاته. الفنان أداة تسجّل شيئاً موجوداً فعلاً، شيئاً ينتمي إلى العالم برمّته وهو مُجبَرٌ، إن كان فناناً حقاً، على أن يعيده إلى العالم. إن احتفاظ المرء بأفكاره الجميلة لنفسه أشبه بعازف كمان يجلس بين صفوف فرقة موسيقية وهو مكتوف اليدين. عاجز عن العزف!. أما بالنسبة إلى الصورة التمثيلية التي أعطيتها، عن مؤلّف يفقد عمل حياته المخطوط، والذي أود أنا أن أقارنه بموسيقي مبدع كان يعزف ضمن فرقة موسيقية طوال الوقت، ولكن وحده في غرفة أخرى، حيث لا يسمعه أحد. غير أن هذا لا يغيّر

twitter @baghdad_library

قط من حقيقة أنه عضو في الفرقة، ولا يحرمه من المتعة التي يستمدها من متابعة قائد الفرقة أو من سماع الموسيقى التي تصدرها آلته. وأفدح خطأ ترتكبه أن تعتقد أن الاستمتاع شيء غير مكسوب، وأنك إذا عرفت أن في إمكانك أن تعزف على الكمان فكأنك تعزف فعلاً. لا أدري لماذا أزعج نفسي وأناقش الأمر، هذا سخفٌ محض. أما عن المكافأة، فأنت دائماً تخلط بين تقديم التقدير والمكافأة. إنهما شيئان مختلفان. فحتى إذا لم تتلقَّ أجراً على عملك، فإنك على الأقل تحصل على إشباع الرغبة في العمل. ومن المؤسف أننا تشدِّد كثيراً على تلقّي أجر مقابل أعمالنا - إن هذا غير ضروري مطلقاً. ولا أحد يعرف هذا هنا أكثر من الفنان. والسبب في أنه يعيش حياة شديدة البؤس يعود إلى أنه يختار أن يقوم بعمله مجاناً. إنه ينسى، كما تقول، أنَّ عليه أن يعيش. ولكن هذا نعمة حقيقية. فمن الأفضل كثيراً أن تنشغل بأفكارٍ رائعة على أن تهتم بتدبير وجبتك التالية، أو الإيجار، أو حذاء جديد. وطبعاً حين تصل إلى النقطة حيث لابد لك من أن تأكل، وأنت لا تملك ثمن أي شيء تأكله، حينئذ يصبح الأكل هاجساً. لكن الفرق بين الفنان والشخص العادي هو أنَّه بعدما يحصل الفنان على وجبة طعام يعود فوراً إلى عالمه اللا محدود، وحين يكون في ذلك العالم يصبح ملكاً، في حين أنَّ إنسانك التافه العادي هو مجرد محطة للتزوّد بالوقود وليس بينهما غير الغبار والدخان. وحتى لو فرضنا أنك لست إنساناً عادياً، وإنما شخصاً ثرياً، في وسعه أن ينغمس في نزعاته، ونزواته، وملذاته: أتظن ولو للحظة واحدة أن المليونير يستمتع بالطعام أو بالشراب أو بالنساء كما يستمتع فنان جائع بها؟ ولكي تستمتع بأي شيء يجب أن تكون على

استعداد لتقبُّله؛ يتضمّن ذلك قدراً من التحكُّم والانضباط، ويمكن أن أقول أيضاً، العفّة. ويتضمّن، قبل أي شيء الرغبة، والرغبة شيء ينبغي أن تغذّيه بالحياة القويمة. أنا أتحدث الآن وكأني فنان، ولكني لست كذلك حقاً. أنا مجرد رسام إعلانات تجارية، ولكن لدي من المعرفة بالموضوع ما يؤهلني للقول إني أحسد الرجل الذي يتحلّى بالشجاعة ليكون فناناً - أنا أحسده لأني أعرف أنه أغنى بما لا يقارَن من أي كائن بشري آخر. وهو أغنى لأنه يبذل ذاته، لأنه يهبُ " نفسه " بلا انقطاع، ولا يعطي فقط عملاً ونقوداً وهدايا. أنت ما كنت لتصبح فناناً، أولاً وقبل أي شيء، لأنك تفتقر إلى الإيمان. ما كان يمكن أن تحصل على أفكار جميلة لأنك تقتلها أولاً بأول. أنت تنكر متطلبات صنع الجمال، أي الحب، حب الحياة ذاتها، وحب الحياة لذاتها. أنت ترى النقص، الدود، في كل شيء. أما الفنان، حتى حين يستبين نقصاً ما، فإنه يعمل على إزالته، إذا حقّ لي أن أعبِّر هكذا. وهو لا يحاول أن يدَّعي أن الدودة هي زهرة أو ملاك، بل يدمج الدودة في شيء أكبر. إنه يعلم أن العالم ليس مملوءاً بالدود، حتى وإن شاهد ملايين أو بلايين منها. أما أنت فتشاهد دودة صغيرة جداً فتقول - " أنظر، أترى كم أن كل شيء عفن! " أنت لا ترى أبعد من الدودة ... حسن، اعذرني، لم أقصد أن أعبّر بهذا الشكل الساخر جداً أو الشخصي جداً. ولكن آمل أن تكون قد فهمت ما أرمي إليه ... "

قال ماكغريغور برشاقة ومرح " لا بأس على الإطلاق. أمر جيد أن يسمع الإنسان الرأي الآخر مرة كل حين. لعلك على صواب. لعلي مفرط التشاؤم. ولكن هكذا أنا. أعتقد أني سأكون أكثر سعادة بكثير إذا رأيت الأمر من وجهة نظرك - لكني لا أستطيع ذلك. ثم إني يجب أن

twitter @baghdad_library

أعترف بأني لم أقابل دهري فناناً أصيلاً. وسيكون من دواعي سروري أن أتبادل الحديث مع أحدهم ذات يوم "

قال ألريك " حسن، طوال حياتك وأنت تتحدث مع أحدهم دون أن تعلم. كيف يمكنك أن تميّز فناناً أصيلاً إذا قابلته وأنت عاجز عن تمييزه في صديقك هذا ؟ "

قال ماكغريغور " أنا سعيد لأنك قلت هذا. والآن بعد أن دفعتني نحو الحقيقة سوف أعترف بأني حقاً مؤمن بأنه فنان. لطالما كان هذا رأيي. أما عن الإنصات إليه، أيضاً أؤمن بما قلته عنه، وبجدية تامة. ولكن مع ذلك لدي شكوكاً. في الواقع، إذا أطلتُ الإنصات إليه ينسفني. أنا أعلم أنه على حق، ولكن كما قلت لك من قبل - إذا أردت أن تستمر في الحياة، إذا أردت أن تعيش لا يمكنك أن تسمح لنفسك بحمل مثل تلك الأفكار. طبعاً هو على صواب! وأتمنى أن أكون في مكانه في أي يوم، هذا الكلب المحظوظ. إذ علامَ حصلتُ مقابل كل كفاحي؟ أنا محام. ماذا يعني هذا ؟ كان يمكن أيضاً أن أكون قطعة من خراء. طبعاً أودّ لو أكون في مكانه. غير أني لست فناناً، كما قلت. أعتقد أن مصيبتي هي أني لا أستطيع أن أبتلع حقيقة أني مجرد نكرة آخر... "

twitter @baghdad_library

الفصل السابع.

في البلدة وجدت ملاحظة موضوعة على جرس باب ألريك، من مَرَه. لقد وصلت بُعيد مغادرتنا، وجلست على الدرج تنتظرني ساعات عدة، إذا صدَّقتُ كلامها. ثمة حاشية تبلغني فيها أنها ذهبت إلى روكاواي مع صديقتيها. المطلوب مني أن أتصل بها إلى هناك بأسرع وقت ممكن.

وصلت عند الغسق ووجدتها في انتظاري في المحطة؛ كانت ترتدي ثوب سباحة وفوقه ارتدت معطفاً واقياً من المطر. وكانت فلوري وهانا تقضيان وقتهما في النوم في الفندق؛ وقد أضاعت هانا طقم أسنانها الجديد الجميل. وكانت في حالة انهيار عصبي. قالت إن فلوري ستعود إلى الغابة من جديد؛ لقد وقعت في حب عنيف مع بيل، أحد سكان الغابة الخلفية. ولكن عليها أولاً أن تجري عملية إجهاض. إنها مسألة عادية جداً - بالنسبة إلى فلوري على أي حال. الشيء الوحيد الذي أزعجها هو أن عضوها كان يزداد ضخامة مع كل عملية إجهاض تجريها؛ وقريباً لن تستطيع أن تقبل أقل من الزنوج.

قادتني إلى فندق آخر لكي نقضي فيه الليل معاً. جلسنا نتحدث بعض الوقت في غرفة الطعام الكئيبة مع كأس من البيرة. بدا منظرها غريباً وهي بالمعطف الواقي من المطر - كانت أشبه بشخص أُخرِجَ جراً

من منزل يحترق في منتصف الليل. كنّا نتحرّق شوقاً للمضاجعة ولكن حرصاً منا على ألا نثير الريبة كان لابد لنا أن نتظاهر بأننا في عجلة كبرى من أمرنا. كنت قد فقدت كل إحساس بالمكان: وكأن لقاءنا يتم في غرفة مظلمة تقع على شاطئ الأطلسي عشيّة الخروج الكبير[٢٥]. ثم ولج شخصان أو ثلاثة آخرون بهدوء إلى الغرفة، رشفوا مشروباتهم، وتبادلوا أحاديث مختلسة بهمسٍ خافت. ثم دخل رجل حاملاً ساطوراً مدمّى لقطع اللحم، ودجاجة مقطوعة العنق من قائميها؛ كان الدم يقطر على الأرض، مخلّفاً أثراً متعرّجاً - أشبه بمرور عاهرة سكرى تحيض بلا أي كابح.

أخيراً قادونا إلى غرفة صغيرة تقع في نهاية رواقٍ طويل. كانت أشبه بالطريق الأخير لكابوس، أو بالنصف المفقود للوحة لشيريكو[٢٦]. كان الرواق يشكّل محور عالمين منفصلين تماماً؛ فإذا اتجهت يساراً بدل أن تتجه يميناً قد لا تعثر على طريق عودتك أبداً. وتعرّينا وسقطنا على السرير الحديدي الصغير ونحن نتفصّد عرقاً جنسياً. وباشرنا كمصارعين تُرِكا لينفكّا عن بعضهما في حلبة خالية بعد أن أطفئت الأنوار وتفرّق الجمهور. كانت مَرَه تكافح مسعورة لتحصل على رعشة جنسية. كانت قد نجحت بصورة ما في أن تنفصل عن عضوها الجنسي؛ كان الوقت ليلاً وهي ضائعة في الظلام؛ كانت حركاتها أشبه بحركات حالمٍ يجاهد يائساً للعودة إلى جسده الذي بدا يستسلم. نهضت لأغتسل، لأبرّده بقليلٍ من الماء البارد. لم تكن توجد مغسلة في الغرفة. وعلى ضوءٍ أصفر منبعث

---

٢٥ - الخروج الكبير : بالمعنى التوراتي للكلمة . - المترجم .

٢٦ - جيورجيو ده شيريكو (١٨٨٨ - ١٩٧٨) : رسام إيطالي سريالي . - المترجم .

twitter @baghdad_library

من لمبة تكاد تكون خامدة نظرت إلى نفسي في مرآة مشروخة؛ كنت أشبه بجاك الخنّاق وهو يبحث عن قبعة من القش داخل وعاء التبوّل. استلقت مَرَه منبطحة على السرير، تلهث وتتفصّد عرقاً؛ كانت أشبه بجارية مضروبة مؤلّفة من قطع مثلّمة من الميكا. انزلقت داخل بنطالي ومشيتُ أترنّحُ في الرواق الشبيه بالقمع بحثاً عن غرفة الاغتسال. وقف الرجل الأصلع، العاري حتى خصره، أمام الحوض الرخامي يغسل بدنه وتحت إبطيه. انتظرت بصبر حتى انتهى، ثم نخر كحيوان الفظ وهو يؤدي وضوءه؛ بعد أن فعل فتح علبة تحوي بودرة التلك ونثر منها بغزارة على جذعه المجعّد والجاف كجلد فيل.

رجعت فوجدت مَرَه تدخّن سيجارة وتداعب نفسها. كانت تتحرّق، من فرط الرغبة. وباشرنا من جديد، هذه المرة جرّبنا أسلوب الكلاب، ومع ذلك لم ننجح. بدأت الغرفة تميد وتهيج، والجدران تتعرّق، والحشيّة المصنوعة من القش كادت تلمس الأرض. وبدأ الأداء يتّخذ كافة أوجه وأبعاد الكابوس. ومن نهاية الرواق تناهى أزيز متكسِّر صادر عن مُصابٍ بالربو، بدا أشبه بنهاية ريح عاتية تهبُّ من خلال جحر الجرذ المتموِّج.

حين أوشكت أن تقذف سمعنا أحدهم يعبث بالباب. انزلقتُ عنها وأبرزت رأسي إلى الخارج. كان أحد السكارى يحاول أن يعثر على غرفته. بعد ذلك ببضع دقائق، وبينما كنت في غرفة الغسل أبرِّدُ أيري من جديد برذاذ من الماء، كان ما يزال يفتّش عن غرفته. كانت النوافذ التي تعلو الأبواب مفتوحة كلها وتصدر منها أصوات متنافرة شخيريّة تشبه ظهور يوحنا آكل الجراد. ولدى عودتي لكي أواصل محنة أيري

شعرت وكأنه مصنوع من أربطة مطاطيّة قديمة. ولم أكن أشعر بأي شيء في طرفه؛ كان الأمر أشبه بإقحام قطعة من الشحم داخل ماسورة الصرف. وزيادة على ذلك لم يكن قد تبقّى أي قدر من الشحنة في البطارية، ولو أن أي شيء حدث حينئذ لكان من طبيعة الديدان الصفراوية المطاطيّة، أو كسقوط قطرة من القيح في محلولٍ مخفَّف من جبن القدر. وما أثار دهشتي أنه ظل متصلّباً كمطرقة؛ فَقَدَ كل مظهر العضو الجنسي؛ بدا يشبه بشكل مقزّز للنفس أداةً رخيصةً من مخزن الخمسة شلنات وعشرة سنتات، وأشبه بقطعة ذات لون برّاق من عدّة صيد بدون طعم. وعلى تلك الأداة البرّاقة والزلاّقة كانت مَرَه تتلوى كسمكة حنكليز. لم تعد امرأة حامية، ولا حتى امرأة؛ بل كانت مجرد كتلة غير محدّدة الشكل تتلوّى وتتمعّج كقطعة من طعم طازج ينظر إليه مقلوباً من خلال مرآة محدّبة في بحرٍ متلاطم.

كنت قد كففت منذ وقت طويل عن الاهتمام بالتواءاتها؛ فيما عدا الجزء مني الذي كان داخلها ورصيناً كخيارة وبعيداً نائياً كنجم الكلب. كان الأمر أشبه برسالة آتية من مسافة بعيدة تنقل خبر موت شخص نسيته منذ زمن بعيد. وكل ما كنت أنتظره هو أن أشعر بذلك الانفجار المخفق بشكل لا يُصدَّق لنجوم رطبةٍ هبطت إلى الأرض من رحمٍ أشبه بحلازين ميتة.

قرابة الفجر، بالتوقيت الشرقي القياسي، تبيَّنت من ذلك التعبير الحليبيّ المكثّف المرتسم حول الفك أنه يحدث. ومرَّ وجهها بكل تحوّلات الحياة البوليّة المبكِّرة، ولكن بحركةٍ عكسيّةٍ. ومع آخر شرارة تنطفئ أنهرَ مثل حقيبة مثقوبة، وكانت العينان والمنخران ينفثان كثمرة بلّوط مشويّة

twitter @baghdad_library

في بحيرة بالكاد يتموَّجُ سطحها الشاحب. سقطتُ مبتعداً عنها وغصتُ فوراً في غيبوبة انتهت مع اقتراب المساء مع قرعٍ على الباب ومناشف جديدة. أطللتُ من النافذة فشاهدت مجموعة من الأسقف المطليّة بالقار ومنقّطة هنا وهناك بيمامات رماديّة. ومن شاطئ المحيط وصلني هدير الأمواج متبوعاً بسيمفونيّة المقلاة ذات الصفيحة المعدنيّة الحانقة تُبرِّد تحت رذاذ بدرجةِ مائة وتسع وثلاثين مئويّة. كان الفندق يئزُّ ويخرخر كذبابة المستنقع الضخمة والهاجعة وسط عزلة غابة صنوبر. وعلى طول محور الرواق كان هناك مزيدٌ من الارتخاء والارتداد خلال تلك الأثناء. فئة عالم (أ) إلى اليسار كانت مملوءة حتى آخرها ومؤجّرة، كتلك الحمّامات العمومية الضخمة القائمة على طول المشى التي تنكفئ على نفسها، في موسم الإقفال، وتزفر لهاثاً من خلال التصدّعات والشقوق التي لا يحصى عددها. والعالم الآخر المجهول الاسم إلى اليمين كان قد هُرِسَ تماماً بمطرقة سقّاطة، ولا شك، على يد مهووس حاولَ أن يبررِّ وجوده كعامل باليومية. كانت الأرضية لزجة وزلقة، وكأنَّ جيشاً من حيوان الفقمة ذات زِمامٍ منزلق كان يتنقّل عليها جيئة وذهاباً إلى غرفة الغسل طوال النهار. وهنا وهناك كنتَ تجد باباً مفتوحاً يكشف عن وجودِ حوريات ماء بلاستيكية بشكل عجيب وغريب يجحن في إقحامِ دواليبهن الثدييّة الثقيلة في شباك صيد سمك خرافيّة الشكل مصنوعة من زجاج مغزول وشرائط من الطمي الرطب. وكانت آخر ورود الصيف تبهت ألوانها لتغدو كضروع مصابةٍ بتضخُّم درقي ذات أذرع وسيقان. وقريباً سينتهي الوباء وسيستعيد المحيط سِمة عظَمته الهُلاميّة، ووقاره الدبق، وعزلته الكئيبة والحاقدة.

تمدّدنا في تجويفِ كثيبٍ رمليّ يتقيّح مجاورٍ لسريرٍ من الحشيشة المنتّنة المتمايلة على جانب طريق مرصوفةٍ بالحصباء تهبُّ عليه الرياح وفوقه يتدحرج رُسُل التَقَدُّم والتنوير مع قرقعةٍ مألوفة ومهدِّئةٍ للأعصاب تصاحبُ حركةَ البصق والضراط المتنقّلة السهلة والتي هي بِدَعٌ من قصدير منسوجة معاً بإبرِ نسجٍ من فولاذ. كانت الشمس تغرب في الغرب كالمعتاد، ليس بعظمة وإشعاع ولكن باشمئزاز، كعجّة رائعة محاطةٍ بسُحُبٍ من المخاط والبلغم. كان غروباً مثالياً للحب الذي تبيعه محلات العقاقير أو تؤجّره بين دفّتيّ كتب الجيب السهلة التداول. نزعتُ حذائي ووضعت على مهلٍ إصبعَ قدمي الكبرى في أول ثلمٍ من فرج مَرَه. كان رأسها يميل نحو الجنوب، ورأسي نحو الشمال، وكنا نريحهما بأيدينا المطويّة، وكان جسدانا مرتخيين ويعومان بارتياح في انجرافٍ مغناطيسيّ، كغصنين هائليّ الحجم معلّقين على سطح بحيرة من الغازولين. ولو أن زائراً من عصر النهضة جاءنا على غفلة، لظنَّ أننا مطرودان من لوحةٍ تمثِّلُ النهاية العنيفة للحاشية الجرباء لدوجٍ[٢٧] سيباريسي[٢٨]. كنا مستلقيين على حافّة عالمٍ متهدّمٍ، بما أن التكوين كان بمثابة دراسةٍ عاجلة للرسم المنظوري والرسم التقصيري[٢٩] كان فيه شكلانا المتمددان تفصيلاً من مشهدٍ تشرّديّ.

كان الحديث مفكّكاً تماماً، يخرج مغمغماً ويسقط بصوتٍ مكتوم كطلقةِ رصاص تقابل عضلاً وأوتاراً. لم نكن نتحدّث، كنا ببساطة نوقف

---

٢٧ دوج: هو القاضي الأول في عصر النهضة. - المترجم.

٢٨ سيباريسي: نسبةً إلى مدينة سيباريس، وهي مدينة إغريقية قديمة في جنوب إيطاليا. - المترجم.

٢٩ الرسم التقصيري: الذي قُصِّرَت خطوطه بغية إبراز الصورة للعين. - المترجم.

twitter @baghdad_library

أعضاءنا الجنسية في منطقة الوقوف الحرّ لآلات صنع العلكة الشبيهة بالإنسان على حافّة واحةِ الغازولين. ويهبط الليل بشاعرية على المشهد، كجرعة من سُمّ التومين مغلّفة ببندورة عفنة. سوف تعثر هانا على أسنانها الاصطناعية خلف جهاز البيانو الميكانيكي؛ وسوف تستعمل فلوري فتّاحة علبٍ صدئة لتجعل الدم يتدفّق.

الرمل الرطب يعلق بجسدينا متشبّثاً كورق جدران موضوع حديثاً. ووصلنا من المصانع والمستشفيات القريبة عبقٌ مقبولٌ لمواد كيميائية مستهلكة، وشعرٌ منقوع في البول، وأعضاء لا لزوم لها مقتَلَعَة وهي حيّة ومتروكة لتتعفّن ببطء إلى الأبد داخل أوعية مختومة مصنَّفة بعناية ووقار فائقين. فترة نوم شفقي وجيزة بين ذراعيّ مورفيوس[٣٠] كلب الداشهند[٣١] الدانوبي.

حين عدت إلى البلدة سألتني مود بأسلوبها المهذّب الجدير بسمكة إن كنت قد أمضيتُ عطلة ممتعة. ولاحظت أني أبدو مهزولاً، وأردفت أنها تفكّر في أن تأخذ هي نفسها إجازة؛ فقد تلقّت دعوة من صديقة حميمة من الراهبات لتمضية بضعة أيام في منزلها في الريف. ورأيت أنها فكرة ممتازة.

بعد ذلك بيومين رافقتها والطفلة حتى المحطة، وسألتني إن كان لدي مانع في الركوب معهما جزءاً من الطريق. ولم أر سبباً يمنعني من فعل ذلك. ثم إني ظننت أن لديها أمراً هاماً تفضي به إليّ. فركبت القطار ومكثت معهما مسافة في الطريق إلى الريف، وتحدثنا عن أمور

٣٠ مورفيوس : إله الأحلام عند الإغريق . – المترجم .

٣١ كلب الداشهند : كلب ألماني صغير طويل الجسم قصير القوائم – المترجم .

لا أهمية لها وكنت طوال الوقت أتساءل متى سنتطرّق إلى موضوعها. ولم يحدث أي شيء. وأخيراً ترجّلت من القطار ولوّحت مودّعاً. فألحّتْ على الطفلة قائلة " قولي وداعاً للبابا؛ لن تريه قبل عدة أسابيع". باي-باي-باي-باي! ولوّحت لهما بكل طيبة قلب، كأي بابا من الضواحي يودّع زوجته وابنته عند السفر. قالت، عدة أسابيع. هذا رائع. رحت أتمشّى جيئة وذهاباً على الرصيف بانتظار القطار وأفكّر في كل الأمور التي سأقوم بها في أثناء غيابها. سوف تفرح مَرَه. وكأننا سنقضي شهر عسل خاص: في إمكاننا أن نفعل مليون شيء رائع خلال فترة عدة أسابيع.

في اليوم التالي استيقظت وأنا أتوجّع بشكل فظيع من ألم في أذني. اتّصلتُ هاتفياً بمَرَة وألححتُ عليها كي تقابلني في عيادة الطبيب. وكان الطبيب هو أحد أصدقاء زوجتي الشيطانيين. كاد ذات يوم أن يتسبّب في مقتل طفلتنا بأدوات تعذيبه القروسطية. والآن جاء دوري. تركت مَرَه تجلس أثناء المعاينة على مقعد بالقرب من المدخل المؤدي إلى الميدان.

بدا الطبيب مبتهجاً لرؤيتي؛ ودخل معي في نقاشٍ أدبي زائف، بينما كان يغلي أدواته. ثم جرّبَ قفصاً زجاجياً يعمل بالكهرباء كان أشبه ببطاقة شفافة لكنها في الواقع كانت بدعة شيطانية همجيّة لمصّ الدماء كان ينوي أن يجرّبها بوصفها نقرة بإصبع اليد تؤدي إلى الموت.

كان أطباء كثيرون قد عبثوا بأذني حتى أني في ذلك الوقت كنت قد أصبحتُ خبيراً تماماً بهم. فكل إغارة جديدة عليها كانت تعني أن ثمة عظمة ميتة تقترب أكثر فأكثر من الدماغ. وأخيراً سوف يحدث الاتحاد الكبير، ويصبح الخشاء[٣٢] أشبه بفرس صغير بريّ، ويحدث تناغم من

---

٣٢ – الخشاء : العظم الناتئ خلف الأذن .– المترجم .

twitter @baghdad_library

المناشير الفضيّة والمطارق الفضيّة، وسوف أشحن إلى بلدي بوجه ملويّ إلى أحد الجانبين مثل راوية محترف للحكايات مصاب بشلل نصفي.

قال " طبعاً أنت لم تعد تسمع أي شيء بتلك الأذن؟ "، وهو يدخل سلكاً حامياً داخل عمق جمجمتي بدون أي كلمة إنذار.

أجبت، وأنا أكاد أنزلق عن المقعد من فرط التألّم " لا، لا أسمع شيئاً "

قال، وهو يعالج صنارة سمك شيطانية الشكل " الآن هذا سيسبّب لك بعض الألم "

استمرّ الأمر على هذا المنوال، وكل عملية جراحية كانت أشد إيلاماً من التي قبلها، إلى أن خرجت عن طوري من شدة الألم ووددت أن أرفسه في أحشائه. ولكن بقي هناك القفص الكهربائي: كانت مهمّته أن يروي القنوات، ويستخرج آخر ذرة من الصديد، ثم يطلق سراحي إلى الشارع لأثب كجوادٍ قزم.

قال، وهو يشعل سيجارة لكي يفسح لي المجال لألتقط أنفاسي " إنها عملية قذرة. أكره أن أجريها. إذا ازداد الوضع سوءاً يجب أن تدعني أجري لك عملية جراحية "

جلست لكي يجري عملية الغسل. أقحم فم خرطوم ثم أدار المفتاح. شعرت وكأنه يروي مخّي بمحلولٍ من حامض البروسيك. كان القيح يخرج ومعه سيل خفيف من الدم. وكان الألم موجعاً.

هتف، لما رأى أن لوني قد شحب كثيراً، " أهي مؤلمة إلى هذا الحد ؟"

قلت " بل أكثر من هذا. إذا لم تكفّ فوراً فسوف أحطّمه. أفضّل

أن يكون لدي خشاء ثلاثي وأبدو كضفدع معتوه "

أخرج فوهة الخرطوم ومعها بطانة أذني، ومخيخي، وإحدى كليتيّ ونقي عصعصي.

قلت " سلمت يداك. متى أعود مرة أخرى؟ "

رأى أنه من الأفضل أن آتي في الغد - فقط لتقصّي مقدار التقدُّم.

حين رأتني مَرَه ارتعبت. أرادت أن تصحبني إلى منزلها على الفور لترعاني. كنت من فرط الإرهاق بحيث أتحمّل اقتراب أي شخص مني. ودّعتها على عجل " ألقاك غداً! "

مشيت أترنّح كسكران إلى المنزل وانهرت على المقعد الطويل، وغصت في النوم كالمخدّر. استيقظت عند الفجر. كنت بأحسن حال. نهضت وخرجت لأتمشّى في المنتزه. كانت البجعات قد بدأت تنتعش ولا وجود لخشاءاتها.

حين يتوقف الألم تبدو الحياة رائعة، حتى بدون نقود أو أصدقاء أو طموحات عالية. فقط لمجرد أن تتنفّس بيسر، أن تمشي بدون أن تنتابك نوبة مفاجئة أو ألم حادّ. حينئذ كانت البجعات غاية في الجمال. والأشجار أيضاً. حتى السيارات. الحياة تتقدّم بسرعة كبيرة؛ والأرض حبلى وتمخض على الدوام حقولاً مغناطيسيّة جديدة في الفضاء. انظر كيف تحني الريح أوراق العشب الصغيرة! إن كل ورقة خضراء صغيرة واعية؛ كل شيء يستجيب. ولو أن الأرض نفسها كانت تتألم لما استطعنا أن نفعل أي شيء. إن الكواكب لا تصاب أبداً بألم الأذن؛ إنها منيعة، على الرغم من أنها تحمل في داخلها من الألم والمعاناة ما يعقد اللسان.

twitter @baghdad_library

للمـرة الأولى في حـيـاتي وصلت إلى المكتب قـبل بدء الدوام. اشتغلت بحماس قرطاجي بدون أن أشعر بأوهى تعب. وفي الموعد المحدّد قابلت مَرَه. مرة أخرى كانت جالسة على مقعد المنتزه، وفي البقعة ذاتها.

في هذه المرة اكتفى الطبيب بإلقاء نظرة على الأذن، وأزال قذارة جديدة، استخدام مرهماً مهدِّئاً، وانتزعها. غمغم " تبدو جيدة. عُد بعد أسبوع "

كنت ومَرَه في حالة نفسية عالية. تناولنا طعام العشاء في نزل على الطريق وشربنا معه بعض الشيانتي. كان مساءً منعشاً، مناسباً تماماً للتمشّي فوق الهضاب. وبعد بعض الوقت استلقينا على العشب وأخذنا نحدّق عالياً إلى النجوم. سألت مَرَه " أتعتقد أنها ستبتعد حقاً عدة أسابيع؟ "

كان ذلك أروع من أن يصدَّق.

قلت " قد لا ترجع أبداً. لعل هذا ما كانت تريد أن تبلغني به حين طلبت مني أن أركب معها مسافة من الطريق. لعل شجاعتها خانتها في اللحظة الأخيرة "

رأت مَرَه أنها ليست من النوع الذي يقدّم مثل تلك التضحية. كانت ترتدي ثوبها السويسري المنقّط والقاسي القماش الذي كنت أحبه كثيراً. من تحته لم تكن تلبس أي شيء. نزلت عن حجري برهة ورفعت ثوبها ثم امتطتني. ومارسنا نكاحاً محكماً رائعاً. بعد أن انتهينا بقينا بعض الوقت كما كنا لا ننفكّ، فقط يمضغ كلٌ منا شفتيّ الآخر وأذنيه.

ثم نهضنا، وعند حافة البحيرة اغتسلنا بمناديلنا. كنت بالكاد بدأت أجفّف أيري بطرف قميصي حين قبضت مَرَه فجأة على ذراعي وأشارت

إلى شيء يتحرّك خلف أكمة. كل ما استطعت رؤيته وميض شيء لامع. أسرعت بتثبيت أزرار بنطالي ثم أمسكتُ مَرَه من ذراعها وعدنا أدراجنا على درب الحصباء وانطلقنا نسير ببطء في الاتجاه المقابل.

قالت مَرَه " أنا واثقة من أنه كان رجل شرطة. هذه أفعالهم، أولئك المنحرفين. دائماً يختبئون في الأكمات ويتجسّسون على الناس "

سرعان ما سمعنا، تأكيداً لكلامها، وقع خطى ثقيلة لشرطي بطيء الفهم.

قال " مهلاً، أنتما الاثنان، إلى أين تظنان أنكما ذاهبان؟ "

قلت، متظاهراً بأني منزعج " ماذا تقصد؟ نحن نتنزّه، ألا ترى؟ "

قال " حان وقت التنزّه. أما أنا فأنوي أن أعود بكما إلى مركز الشرطة. ماذا تظنان هذا - مزرعة خيل؟ "

تظاهرت بأني لم أفهم عمّ يتحدث. وكونه شرطياً أثار غضبي.

قال " ولا كلمة. الأفضل أن ترحل مع هذه السيدة من هنا قبل أن أرسلكما إلى السجن "

" إنها زوجتي "

" هكذا إذن ... تقول زوجتك؟ والآن، أليس هذا جميلاً؟ تقومان فقط ببعض الغزل والحب، هه؟ وتغسلان أعضاءكما الخاصة علناً أيضاً - لعنني الله إن كنت قد شاهدت شبيهاً لهذا في حياتي. لا تتعجّلا في الرحيل. أنت مذنب بارتكاب إثم خطير، يا ولدي، وإن كانت هذه حقاً زوجتك فهي متورّطة معك أيضاً "

" اسمع يا هذا، لا أظنك تعني ... "

قاطعني آمراً " ما اسمك؟ " ومدَّ يده لإخراج دفتره الصغير.

twitter @baghdad_library

أخبرته.

" وأين تقيم؟ "

أخبرته.

" وما اسمها هي؟ "

" مثل اسمي - إنها زوجتي، أخبرتك "

قال، وهو يرميني بنظرة قذرة " أخبرتني حقاً. حسن، والآن، ما هي مهنتك؟ هل تعمل؟ "

أخرجتُ محفظتي وأريته بطاقة مروري إلى الشركة الكونية الشيطانية التي كنت أحملها معي دائماً وتخولّني الانتقال مجاناً بكافة القطارات النفقية، والحافلات المرفوعة والأرضية في المدينة العظمى نيويورك. هرش رأسه لدى مرآها وأرجع قبعته إلى خلفيّة رأسه " إذن فأنت مدير التوظيف؟ إنه منصب مسؤول جداً بالنسبة إلى شاب مثلك ". صمت ثقيل. " أعتقد أنك تريد أن تحتفظ بعملك فترة أطول، أليس كذلك؟ "

فجأة تراءى لي اسمي مكتوباً في عناوين صحف الصباح. يمكن للمراسلين أن يجعلوا منه قصة مشوّقة إذا شاءوا. لقد حان الوقت ليفعلوا.

قلت " اسمع، أيها الشرطي، لنناقش الأمر برويّة. أنا أقطن في الجوار - ما رأيك أن تصحبني إلى منزلي؟ لعلني وزوجتي كنا متهوّرين قليلاً - نحن متزوجان من فترة بسيطة. ما كان ينبغي أن نتمادى هكذا في مكان عام، لكن الدنيا كانت ظلاماً ولا أحد في الجوار ... "

قال " حسن، قد يكون هناك سبيل إلى حل المشكلة. لا أظنك ترغب في فقدان عملك، أليس كذلك؟ "

قلت، وأنا أتساءل في الوقت نفسه كم معي من النقود في جيبي وإن كان سيستهين به أم لا. " كلا، لا أرغب "

كانت مَرَه تعبث في محتويات حقيبتها.

" لا داعي للاستعجال يا سيدتي. أنت تعلمين أنك لا تستطيعين أن ترشي شرطياً يخدم القانون. وبالمناسبة، إلى أي كنيسة تتردد، إذا لم أكن شديد الفضول؟ "

أجبته بسرعة، وأعطيته اسم الكنيسة الكاثوليكية في حيّنا.

" إذن فأنت أحد رعايا الأب أومالي! حسن، لماذا لم تقل هذا منذ البداية؟ طبعاً، لم تكن تريد أن تسبب العار للأبرشية الآن، أليس كذلك؟ "

قلت له سأموت إذا ما سمع الأب أومالي بالأمر.

" وتزوجت في كنيسة الأب أومالي؟ "

" نعم، يا أبـ أقصد أيها الشرطي. تزوجنا في شهر نيسان الماضي "

كنت أحاول أن أعدّ النقود التي في جيبي دون أن أخرجها. بدا لي أنه لم يكن معي أكثر من ثلاثة دولارات أو أربعة. كنت أتساءل كم تستطيع مَرَه أن تجمع. وبدأ الشرطي بالسير فلحقنا به. وسرعان ما توقف فجأة. أشار أمامه بهراوته. ومع هراوته العالقة في الجو ورأسه المائل قليلاً، باشر حواراً إفرادياً بطيئاً حول تاسوعية ستتلى في كنيسة " سيدة الزافرة[٣٣] " أو ما شابه، قائلاً وهو يمدّ يده اليسرى إن أقصر طريق للخروج من المنتزه هي المباشرة وأذكّرك بأن تُحسِن سلوكك وما إلى ذلك.

أقحمنا مَرَه وأنا بضعة أوراق مالية في يده، وشكرناه للطفه، ثم انطلقنا بسرعة البرق.

---

٣٣ – الزافرة : هي نصف القنطرة التي يُدعَم بها جدار ما . – المترجم .

twitter @baghdad_library

قلت " أعتقد أنه من الأفضل أن تأتي معي إلى البيت، فإذا لم يكفه ما أعطيناه فقد يعود لزيارتنا. أنا لا أثق في أولاد الحرام القذرين أولئك ... الأب أومالي، تفوه! "

هرعنا إلى المنزل وأقفلنا على نفسينا. كانت مَرَه ما تزال ترتجف. أخرجت قليلاً من نبيذ بورت كنت أخفيه في الخزانة.

قلت، وأنا أجرع ملء كأس " أفضل ما يمكن أن يحدث الآن أن تعود مود وتفاجئنا "

" أتظن أنها تفعلها؟ "

" لا أحد يعلم ماذا يمكن أن تفعل إلا الله "

قالت مَرَه " أعتقد أن من المستحسن أن ننام هنا، لا أحب أن أنام في سريرها "

أنهينا شرب النبيذ ثم خلعنا ملابسنا. خرجت مَرَه من الحمّام مرتدية كيمونو مود الحريري. أجفلت حين رأيتها في ثوب مود. قالت، وهي تطوقني بذراعيها " أنا زوجتك، أليس كذلك؟ ". أثارتني حين قالت ذلك. ثم راحت تتجول في أرجاء الغرفة وتتفحّص الأشياء.

سألتني " أين تكتب؟ أعلى تلك الطاولة الصغيرة؟ "

أومأت إيجاباً.

" يجب أن تكون لديك طاولة كبيرة وغرفة خاصة بك. كيف يمكنك أن تكتب هنا؟ "

" لدي واحدة كبيرة في الطابق العلوي "

" أين؟ في غرفة النوم؟ "

" كلا، في الردهة. المكان فوق كئيب بشكل رائع - أتحبّين أن تشاهديه؟ "

قالت على عجل " لا، أفضّل ألا أصعد إلى فوق. سأظل أفكّر فيك وأنت جالس هنا في هذا الركن عند النافذة ... أهذا هو المكان الذي كتبت فيه كل تلك الرسائل؟ "

قلت " لا، كنت أكتب لك في المطبخ "

قالت " أرني، أرني بالضبط أين كنت تجلس. أريد أن أرى كيف تبدو "

أمسكتها من يدها وقدتها عائداً إلى المطبخ. جلست وتظاهرت بأني أكتب لها رسالة. مالت عليّ ووضعت شفتيها على الطاولة وقبّلت البقعة التي تطوقها ذراعاي.

قالت " لم أحلم قط بأني سأزورك في منزلك. غريب أن أشاهد المكان الذي ترك أثراً بليغاً على حياتك. إنه مكان مقدس. أتمنى لو نستطيع أن نأخذ هذه الطاولة معنا وهذا الكرسي - وكل شيء - حتى المدفأة. أتمنى أن ننقل الغرفة كلها وننشئها داخل منزلنا. إن هذه الغرفة لنا "

أوينا إلى النوم على الديوان في الطابق الأرضي. كانت ليلة دافئة وقد غصنا في النوم على الفور. وعند حوالي الساعة السابعة صباحاً وبينما كنا مستلقين متعانقين، دُفِعَ البابُ الدوار بعنف وإذا بزوجتي العزيزة تَمْثُلُ أمامنا، ومعها صاحب المنزل الذي يقطن في الدور العلوي، وابنته. وضُبطنا بالجرم الفاضح. قفزتُ خارجاً من السرير وأنا عار تماماً، واختطفتُ منشفةً كانت معلّقة على السرير الكائن بالقرب من المقعد الطويل وتلفّعت بها وانتظرت صدور الحكم. أشارت مود إلى شاهدها كي يتقدّم وينظر إلى مَرَه، التي كانت مستلقية هناك وتشدّ الملاءة على صدرها.

twitter @baghdad_library

قالت مود " سوف أطلب منك أن تتفضّل وتُخرِجَ هذه المرأة من هنا بأسرع وقت ممكن ". قالت هذا واستدارت على عقبيها وهبطت الدرج مع شاهديها.

هل كانت تنام في الطابق العلوي في سريرنا طوال الليل؟ إذا كان الأمر كذلك، لماذا انتظرتْ حتى الصباح؟

" لا عليك يا مَرَه. لقد نضجت الأمور الآن. ويمكننا أيضاً أن نمكث ونتناول طعام الإفطار "

ارتديت ملابسي على عجل وهرعت خارجاً لأحضر بعض لحم الخنزير المملح والبيض.

قالت، وهي تجلس إلى المائدة وسيجارة بين شفتيها، تراقبني أعِدُّ طعام الفطور " يا إلهي، لا أفهم كيف تأخذ الأمر بكل هذا الهدوء؟ أليس لديك أي مشاعر؟ "

" طبعاً لدي. شعوري هو أن كل شيء قد أحرز نجاحاً باهراً. إنني حرّ، ألا تدركين هذا؟ "

" والآن ماذا ستفعل؟ "

" سأتوجه إلى عملي، هذا أولاً، وفي هذا المساء سأزور ألريك - قد تقابلينني هناك. لدي إحساس داخلي يقول إنَّ صديقي ستانلي وراء كل ما حصل. سوف نرى "

في المكتب بعثت برقية إلى ستانلي أطلب منه فيها أن يقابلني عند ألريك في ذلك المساء. وخلال النهار تلقّيت اتصالاً هاتفياً من مود تقترح فيها أن أجد لنفسي غرفة. وقالت إنها ستحصل على الطلاق بأسرع وقت ممكن. لا تعليق على ما حصل، فقط تقرير عملي صرف.

وكان مطلوباً مني أن أُعلِمها متى أرغب في أخذ حاجياتي.

تلقّى ألريك الأمر بجدية. لقد كان هذا يعني تغييراً في الحياة وبالنسبة إليه كل تغيير يطرأ على أسلوب الحياة هو أمر خطير. من ناحية أخرى كانت مَرَه متماسكة تماماً وقد بدأت لتوها تتطلّع إلى الحياة الجديدة. بقي أن تنتظر لترى كيف سيتلقى ستانلي الأمر.

رنّ جرس الباب فور وصولنا وإذا به هناك، يبدو شريراً كالمعتاد، وثملاً كأحد الباباوات. لم أكن قد رأيته وهو على تلك الحال منذ سنين. كان قد قرر أنها مناسبة على درجة قصوى من الأهمية وأنه يجب أن يحفل بها. وكان من المستحيل الحصول على أي تفاصيل منه. قال " قلت لك أني سأجد لك حلاً. لقد وقعت في الورطة كوقوع ذبابة في خيوط عنكبوت. وعالجت الأمر معالجة مثالية. أنا لم أطرح عليك أي أسئلة. كنت على معرفة تامة بما ينبغي فعله "

تناول جرعة كبيرة من الدورق الذي كان يحمله في جيب معطفه الداخلي. حتى انه لم يزعج نفسه بخلع قبعته. لابد أنه حينئذ ظهر كما كان يبدو وهو في فورت أوغليثورب. كان من النوع الذي يمكن أن أتجنبه، إذا ما رأيته على حالته تلك.

رنّ جرس الهاتف. كان الدكتور كرونسكي يسأل عن " مستر " ميللر. صاح " تهانينا! أنا قادم إليك لأراك بضع دقائق. لدي ما أقوله لك "

قلت " بالمناسبة، أتعرف أحداً لديه غرفة زائدة للإيجار؟ "

" هذا بالضبط ما سأتحدث معك بشأنه. لدي مكان اخترته لك - هناك في برونكس. يخصّ صديقاً لي - طبيب. تستطيع أن تشغل

twitter @baghdad_library

جناحاً كاملاً من المنزل لك وحدك. لِمَ لا تأخذ مَرَه معك؟ سوف يعجبك. لديه غرفة للعب البليارد في الطابق الأرضي، ومكتبة جيدة، و ... "

سألته " أهو يهودي؟ "

" يهودي فقط؟ إنه صهيونيّ وفوضويّ، وتلموديّ ومحترف إجهاض. رجل رائع لعين - وإذا كنتَ في ضيق فسوف يعطيك قميصه. لقد مررت للتو على منزلك - هكذا علمت بما جرى. بدت زوجتك مهتاجة إلى حد الجنون. سوف تعيش حياة مرتاحة جداً على النفقة التي ستضطر إلى دفعها لها "

أخبرت مَرَه بما قاله لي. قررنا أن نلقي نظرة على المكان فوراً. كان ستانلي قد اختفى. وظنَّ ألريك أنه ربما ذهب إلى المرحاض.

ذهبت إلى المرحاض وطرقت على الباب. لا جواب. دفعت الباب حتى أفتحه. كان ستانلي متمدِّداً في حوض الاستحمام وهو بكامل ملابسه، وقبعته تغطي عينيه، والقنينة الفارغة في يده. تركته حيث وجدته.

هتفت لألريك ونحن خارجان " أعتقد أنه رحل "

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن

البرونكس! كنا قد وُعِدنا بجناح كامل من منزل - فإذا به خدعة كبرى، مملوءة بالريش وببعر الإوز. إنها فكرة كرونسكي عن المأوى.

كانت فترة انتحاريّة بدأت بالصراصير وشطائر البسطرمة الحارّة وانتهت، على صورة نيوبرغ*، في مكان ضيق على ريفر سايد درايف حيث بدأت السيدة كرونسكي الثاني أداء مهمتها غير المرحِّب بها في إضافة منظر تزييني شاسع إلى باقي الحماقات.

قررت مَرَه بتأثير من كرونسكي أن تغيِّر اسمها مرة أخرى - من مَرَه إلى مونا. وقد حدثت تغييرات أخرى، أبلغ دلالة نشأت أيضاً هنا في نواحي البرونكس.

كنا قد قدمنا ليلاً إلى مخبأ الدكتور أونيريفيك. كان قد هطل ندف من الثلج وكان زجاج الباب الأمامي الملوّن قد تغطّى بعباءة من الثلج النقي. لقد كان بالضبط من نوع الأمكنة الذي تصوّرت أن كرونسكي جدير بأن يختاره لنقضي فيه " شهر عسلنا ". حتى الصراصير، التي بدأت تعدو صاعدة وهابطة الجدران حالما تُضاء الأنوار، بدت مألوفة - ومقدَّرةً علينا. وطاولة البليارد، القائمة في إحدى زوايا الغرفة، كانت في أول الأمر مربكة، ولكن حين فتح ابن الدكتور أونيريفيك الصغير

---

* نيوبرغ : مدينة تقع في شمال ولاية أوريغون في الولايات المتحدة . - المترجم

فتحة بنطاله بحركة اعتيادية ليتبوّل عند ساق الطاولة بدا كل شيء كما ينبغي تماماً أن يكون.

كان الباب الأمامي يُفتح مباشرة على غرفتنا، المجهّزة بطاولة بليارد، كما قلت، وبسرير نحاسي واسع ذي الحفة محشوّة بزغب العيدر، وطاولة للكتابة، وآلة بيانو كبيرة، وحصان خشبي للأطفال، ومستوقد، ومرآة مشروخة مغطاة ببراز الذباب، ومبصقتين وأريكة. وكان هناك عدد إجمالي لا يقلّ عن ثمانية من النوافذ في غرفتنا اثنتان منها كان لهما ظلّتان يمكن أن تخفضا إلى ثلثيّ المسافة؛ والأخرى كانت عارية تماماً مزيّنة بخيوط العنكبوت. كانت ممتعة جداً. لا أحد كان يرن الجرس أو يطرق على الباب قبل أن يدخل؛ الجميع كانوا يدخلون بلا استئذان ويشقّون طريقهم ويتجولّون على هواهم. كانت "غرفة تطلّ على منظر جميل" من الداخل ومن الخارج.

هنا بدأنا حياتنا معاً. يا لها من بداية ميمونة! الشيء الوحيد الذي كان ناقصاً هو بالوعة نستطيع أن نتبوّل فيها على صوت الماء الجاري. وكان يمكن لآلة قيثار أن تدخل أيضاً، خاصة في تلك المناسبات المضحكة حين يتهادى أفراد عائلة الدكتور أونيريفيك، بعد أن تعبوا من الجلوس في غرفة الغسيل في الطابق السفلي، يتهادون وهم يرتقون إلى غرفتنا كطيور الأوك[٣٤] والبطريق ويراقبوننا في صمت تام ونحن نأكل أو نستحمّ أو نتضاجع أو يزيل كلٌ منا القمل من شعر الأخر. ولم نكن نعرف أي لغة يتكلمون. كانوا صامتين كالأيائل ولا شيء قادراً على إثارة خوفهم أو دهشتهم، ولا حتى مرأى جنين أجرب.

---

٣٤ – طائر الأوك : يعيش في البحار الشماليّة ، يشبه البطريق .المترجم .

twitter @baghdad_library

كان الدكتور أونيريفيك دائماً مشغولاً جداً. اختصاصه أمراض الأطفال، غير أن الأطفال الوحيدين الذين لاحظنا وجودهم خلال فترة مكوثنا كانوا في الطور الجنيني وكان يقطّعهم إرباً صغيرة ويرمي بهم إلى المجارير. وكان هو لديه ثلاثة أطفال. وثلاثتهم كانوا خارقين، وعلى هذا الأساس كان يسمح لهم بالتصرُّف على هواهم. الأصغر بينهم، في نحو الخامسة من العمر لكنه لتوّه ممتاز في الجبر، وسوف يصبح دون أدنى شك مهووساً بالإحراق وأيضاً رياضياً خارقاً. وقد أضرم النار مرتين في المنزل. وآخر مأثرةٍ له كشفت عن ميلٍ إبداعيّ: أن يضرم النار في عربة أطفال تحمل وليداً غضّاً ومن ثم يدفع بها أسفل التلّ نحو زقاق مزدحم بحركة المرور.

نعم، مكان جميل لبدء حياة جديدة. وكان هناك غومبال، ساعي سابق كان كرونسكي قد انتشله من شركة البرق الكونيّة الشيطانية حين بدأت تلك المؤسسة تتخلّص من مستخدميها اللا قوقازيين. وبما أن غومبال ينحدر من السلالة الدراويدية[٣٥] وقاتم اللون كالإثم، فقد كان أول الواصلين إلى البوابة. كان رقيقاً، وغاية في التواضع والاحتشام، ومخلصاً وإيثاريّاً - إلى درجة تكاد تكون مؤلمة. وقد أفرد الدكتور أونيريفيك بكل حبور مكاناً له في منزله الشاسع - كمنظّف ممجَّد للمداخن. أما أين كان غومبال يتناول طعامه وينام فظلّ سراً. كان يتنقّل بدون أن يثير أي ضجيج وهو يؤدي واجباته، ويلغي نفسه، حين يرى ذلك ضرورياً، بخفّة شبح. وكان كرونسكي يعتزّ بأنه أنقذ بشخص هذا

٣٥ - الدراويديون : سلالة هندية قديمة تقطن جنوب الهند وشمال جزيرة سريلانكا ، يعرفون بالتاميل . يتحدثون عشرين لغة . - المترجم .

المنبوذ عالماً من الدرجة الأولى. قال لنا بنبرة مؤثّرة " إنه يدوِّن تاريخ العالم ". ولم يذكر أنه، بالإضافة إلى أدائه واجباته كسكرتير، وممرِّض، وخادم في غرفة النوم، وغاسل للصحون وصبي ساعي، كان غومبال أيضاً يذكّي نار الفرن، وينقل الرماد، ويجرف الثلج، ويغطي الجدران بالورق ويدهن باقي الغرف.

لا أحد حاول أن يقارع مشكلة الصراصير. كانت هناك ملايين منها مختبئة تحت الأجزاء البارزة من البناء، والكساء الخشبي، وورق الجدران. وكان يكفي أن تضيء الأنوار حتى تتدفّق أرتالاً، طابوراً بعد طابور، من الجدران، والسقف، والأرض، والشقوق والصدوع - جيوش حقيقية منها تستعرض نفسها، تنتشر، تناور، وكأنها تطيع أوامر صرصار متفوّق برتبة مدرِّب عسكري خفي. في أول الأمر كان الوضع مثيراً للاشمئزاز، ثم أضحى يثير الغثيان، وأخيراً، كما مع باقي المظاهر الغريبة، المزعجة، التي ميّزت منزل الدكتور أونيريفيك، قبلنا جميعاً وجودها بوصفه محتوماً.

كان جهاز البيانو نشازاً تماماً. وزوجة كرونسكي، المخلوقة الرعديدة، الشبيهة بالفأر التي كان فمها دائماً يبدو ملتوياً بابتسامة مستنكرة، كانت تجلس وتتدرّب على السلّم الموسيقي لتلك الآلة، غير مدركة طبعاً للأصوات الشنيعة التي تصدرها أصابعها الرشيقة، وكان الاستماع إلى عزفها لمقطوعة " بروكارول " مثلاً، معذِّباً. كانت وكأنها لا تسمع الجرْس البغيض، والأنغام المتنافرة؛ كانت تعزف وهي ترسم سيماء الصفاء الكلّي، جذلة الروح، مخدّرة الأحاسيس ومسحورة. كان هدوءاً سامياً لم يخدع أحداً، ولا حتى هي، وفي اللحظة التي تتوقف

twitter @baghdad_library

أصابعها عن الحركة تعود إلى حقيقتها - عاهرة صغيرة، حقيرة، وضيعة، محتقرة وحاقدة.

الغريب في الأمر أن كرونسكي كان يتظاهر بأنه عثر في زوجته الثانية هذه على جوهرة. كان يمكن أن يكون الأمر مثيراً للشفقة، إن لم أقل مأساوياً، لو لم يكن شخصية مثيرة للسخرية. كان يطفر حولها مثل خنزير بحر يحاول أن يكون مشاغباً. ولم تكن ملاحظاتها الساخرة وتعليقاتها اللاذعة تعمل إلا على تنشيط الشكل الأخرق المتأمل، الذي كان يخفي روحاً مفرطة الحساسية. ويأخذ يتمعَّج ويلتوي كدلفين جريح، واللعاب يسيل من فمه، والعرق يتصبَّب من جبينه ويغمر عينيه الشديدتيّ الميوعة. كان مشهداً فظيعاً ما يعرضُهُ علينا في مثل تلك المناسبات؛ وعلى الرغم من أنه كان يثير شفقتنا إلا أننا كنا نضحك، ونضحك إلى أن تطفر الدموع من عيوننا.

لو أن كرلي كان حاضراً لتوجّه نحوه بوحشية، وسط أدائه المهرّج الغريب، وصبَّ جام غضبه عليه. لقد كان يكنُّ لكرلي كراهية لا تفسير لها. وفي مثل تلك اللحظات، كان ذلك الحسد أو الغيرة التي أثارت غضبه الجامح تجعله يتصرَّف كرجلٍ ممسوس. وكقطة ضخمة كان سيدور حول كرلي المسكين، يوبِّخه بسخرية، ويضايقه، ويلسعه بتعنيفه، وقذفه، وإهانته، إلى أن يزبد فمه بكل معنى الكلمة.

ويقول هازئاً " لمَ لا تفعل شيئاً، لِمَ لا تقول شيئاً؟ ضُمَّ قبضتيك! وجِّه لي لكمة، لِمَ لا تفعل؟ أنت لا تُحسِن إلا الصراخ، أليس كذلك؟ ما أنت إلا دودة، وغدٌ، أضحوكة "

كان كرلي سينظر إليه بخبث ويرسم ابتسامة امتعاضٍ، ولا ينطق

بأي كلمة، وإنما سيتّخذ وضعيّة ويتهيّأ للضرب إذا ما حدث وفقد كرونسكي السيطرة على نفسه.

لا أحد كان يفهم لماذا كانت تلك المشاهد تجري. خاصة غومبال. كان جليّاً أنه لم يشهد مثل تلك المواقف من قبل في أرض وطنه. كانت تتركه متألماً، وجريحاً، ومصدوماً. وقد شعر كرونسكي بذلك بقوة، وكره نفسه أكثر من كراهيته لكرلي. وكلما ازداد احترامه لغومبال اجتهد أكثر لكي يحظى بحظوة عند الهندوسي.

كان يقول لنا " إنه إنسان رائع حقاً. أنا مستعد أن أقدّم أي خدمة لغومبال - أي شيء "

كانت هناك أشياء كثيرة يمكن أن يفعلها كي يخفِّف عن هذا الأخير أعباءه، غير أن كرونسكي كان يعطي انطباعاً بأنه عندما يحين الوقت المناسب سوف يقوم بعملٍ رائع. وحتى ذلك الحين لن يرضيه أي شيء أقلّ منه. كان يكره أن يرى مَنْ يقدِّم يد العون لغومبال، ويقول مزمجراً " أتحاول أن تريح ضميرك، هه؟ لِمَ لا تعانقه وتقبِّله؟ أتخشى التلوُّث، قُلْ؟ "

ذات مرّة، فقط لكي أزعجه، فعلت بالضبط ما يلي: اقتربت من غومبال. وأحطته بذراعي، وقبَّلته على جبينه. نظر كرونسكي إلينا بخجل. كنا جميعاً نعلم أن غومبال مصاب بالسفلس.

ثم هناك الدكتور أونيريفيك نفسه، طبعاً، الذي مثَّل حضوراً شعر به جميع مَنْ في المنزل، وليس كائناً بشرياً. ماذا كان يجري في غرفة مكتبه تلك الكائنة في الطابق الثاني؟ لا أحد كان يعلم. وكان كرونسكي، بأسلوبه الدقيق، الميلودرامي، يعطي تصورات خيالية فظّة

twitter @baghdad_library

عن عمليات إجهاض وإغواء، أحجية من الصور المقطوعة لا يمكن إلا لمسخ أن يعيد تجميعها. وخلال المناسبات القليلة التي اجتمعنا فيها فوجئت بأن الدكتور أونيريفيك ليس أكثر من رجل لطيف، طيب القلب، مع قدر ضئيل من المعرفة واهتمام عميق بالموسيقى. ولم أره يفقد اتزانه إلا خلال دقائق وجيزة. كنت أقرأ كتاباً من تأليف هيلير بيلوك[٣٦] يتناول اضطهاد اليهود على امتداد العصور، ومجرَّد ذكر عنوان الكتاب جعله يبدو وكأنه يقف أمام علم أحمر يرفرف وقد ندمت على الفور لارتكابي هذا الخطأ الفاضح. وحاول كرونسكي بطريقة شيطانية أن يوسِّع الصدع. كان وهو يقوِّس حاجبيه وينتفض ويتلوى كما يفعل عادة، كأنه يقول " لماذا نؤوي هذا الخطر المستتر؟". لكن الدكتور أونيريفيك حَوَّلَ أنظارنا عن الموضوع بأنْ عاملني وكأنّي مجرد أحمق ساذج آخر وقع في حبائل التحايل الشرعي لعقلٍ كاثوليكي مريض.

تبرّع كرونسكي بعد انسحاب الطبيب فقال " كان مضطرباً هذه الليلة. في الواقع، إنه يسعى وراء قريبته ذات الاثني عشر ربيعاً، وزوجته تنهال عليه بالنقد. فهي تهدّده بأن تسلّمه إلى النائب العام إذا لم يكفَّ عن ملاحقة الفتاة. إن الغيرة تصيبها بالجنون ولا ألومها. ثم إنها تكره التفكير في عمليات الإجهاض التي تجري في كل يوم، تحت سمعها وبصرها، وتلوث منزلها، إذا جاز التعبير. وتُقسِم على أن عقله ليس سليماً، وعقلها هي أيضاً، إذا لاحظت. وإذا أردت رأيي، أقول إنها تخاف أن يعمَدْ ذات ليلة إلى بقر بطنها. إنها تنظر إلى يديه طوال الوقت، وكأنه دائماً يأتي إليها قادماً مباشرة بعد ارتكابه جريمة قتل "

٣٦ – هيلير بيلوك (١٨٧٠ – ١٩٥٣) : شاعر ومؤرّخ وكاتب مقالة إنكليزي . معروف خاصة بأشعاره للأطفال . – المترجم

صمت برهة ليترك مجالاً لتلك الملاحظات كي تُستوعَب. ثم تابع قائلاً " وثمة أمر آخر يرهق تفكيرها؛ الضحك يزداد علواً ... قريباً ستغدو امرأة شابة. ومع زوجٍ كهذا يمكنك أن تدرك ما يزعجها. ليس فقط فكرة سفاح القربى - وهي مرعبة حقاً - وإنما التفكير أبعد من ذلك، في أنه ... في أنه سيأتيها ذات ليلة ويداه تقطران دماً ... اليدان اللتان قتلتا روحاً موجودة داخل رحم ابنتها ... قصة معقّدة، أليس كذلك؟ لكنها ليست مستحيلة. ليس مع ذلك الرجل! ذلك الرجل الرائع. رجل رقيق وحسّاس، حقاً. إنها على حق. والذي يزيد الأمر سوءاً أنه أشبه بالمسيح. فلا يمكنك أن تتحدّث معه عن الهوس بالجنس لأنه لن يعترف بأي كلمة تقولها. إنه يدّعي أنه بريء براءة مطلقة. لكنه عويص. ذات يوم ستداهمه الشرطة وتعتقله - وسوف تتكشّف أمور قذرة كثيرة، سترى ..."

كنت أعلم أن الدكتور أونيريفيك أتاح لكرونسكي أن يواصل دراساته الطبّية. وكنت على علم أيضاً بأن على كرونسكي أن يجد وسيلة خارقة لتسديد دين الدكتور أونيريفيك عليه. لا شيء كان سيناسبه أكثر من أن يرى صديقه محطّماً تماماً. حينئذ سوف يهبُّ كرونسكي لإنقاذه بأسلوبٍ رائع. سوف يفعل شيئاً غير متوقَّع بأي حال، شيئاً لا أحد فعله لشخصٍ آخر. هكذا كان يفكّر. في تلك الأثناء، عن طريق نشر الإشاعات، والتشهير بصديقه والافتراء عليه، والقضاء على سمعته، وإنما كان يعجِّل في سقوطه المحتوم. كان متلهّفاً حتماً للبدء في العمل على صديقه، ليعيد تأهيله، ليسدِّد له أضعافاً مضاعفة ما أبداه له من عطف وذلك بإدخاله إلى المدرسة. كان مستعداً أن يهدم البيت فوق رأس صديقه لكي ينقذه من

twitter @baghdad_library

بين الحطام. وجهة نظر غريبة. إنه أشبه بغالاهاد[٣٧] منحرف. متطفِّل. بل متطفّل بامتياز. دائماً يتصرّف بأسوأ أسلوب ليجعل الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ وذلك لكي يتقدَّم هو، كرونسكي، ويقلب الوضع بسحر ساحر من حالٍ إلى حال. ومع ذلك، لم يكن الامتنان ما يسعى إليه وإنما التقدير، تقدير القدرات المتفوّقة، تقدير فرادته.

حين كان ما يزال طبيباً مقيماً كنت أزوره أحياناً في المستشفى التي يقوم بخدمته فيها. كنا نلعب البليارد مع أطباء مقيمين آخرين. وكنت أزور المستشفى فقط حين أكون في مزاجٍ يائس، أو حين أحتاج إلى وجبة طعام أو إلى قرضٍ من بضعة دولارات. كنت أمقت جوّ المكان العام؛ كنت أمقت رفاقه، وسلوكهم، وحديثهم، وحتى أهدافهم في الحياة ذاتها. لم يكن فن الشفاء العظيم يعني أي شيء لهم؛ كانوا يفتّشون عن عملٍ مريح وكافٍ، لا أكثر. أغلبهم لم يكن لديه أي ميلٍ إلى الطب بقدر كره السياسي لممارسة الحكم. بل إنهم حتى كانوا يفتقرون إلى ذلك الشرط الأساسي الذي يحتاجه الطبيب - حب الإنسانية. كانوا نكدين، لا قلوب لهم، متقوقعين داخل ذواتهم إلى أقصى حد، وليس لديهم أي اهتمام بأي شيء غير ترقيتهم. كانوا أشد غِلظة من جزّار في مسلخ.

كرونسكي كان متآلفاً جداً مع ذلك المحيط. كان أكثر معرفة من الآخرين ويبزّهم في الحديث، وفي مستوى الذكاء، وفي علوّ الصوت. كان أفضل في لعب البليارد، وفي لعب الكرابس[٣٨]، وفي الشطرنج، وفي كل شيء. كان يعرف كل شيء ويحب أن يتقيّأ تلك المعرفة كلها، أن يستعرض نفسه في طول ذلك القيء وعرضه.

---

٣٧ – غالاهاد : في أسطورة الملك آرثر . هو أشدّ فرسان المائدة المستديرة علواً في الأخلاق ، وابن الفارس لانسلوت . يوصف باسمه كل ذي نقاء ونبالة .– المترجم .

٣٨ – لعبة الكرابس : لعبة قمار بنردين . – المترجم .

من الطبيعي أنه كان مكروهاً بشدّة. وقد نجح، على الرغم من خِصاله البغيضة، في أن يحيط نفسه بأناسٍ من نوعه من الناحية الاجتماعية. ولو أنه اضطرّ إلى العيش وحده لانهار. كان يعلم أنه غير مرغوب: لا أحد كان يسعى إليه إلا ليطلب معروفاً منه. لو أنه وحيد لجلب إدراكه لبلواه إليه لحظات مريرة. لقد كان صعباً معرفة كيف يقيِّم نفسه، ذلك لأنه في حضور الآخرين كان يفيض حيويّة، ومرحاً، وصخباً، وتبجُّحاً بالشجاعة، والعظمة والفخامة. كان يتصرّف وكأنه يتمرّن على أداء دورٍ تمثيليّ أمام مرآة خفيّة. كم كان يحب نفسه! نعم، وكم من كراهية كانت تكمن خلف تلك الواجهة، ذاك الـ amour propre! (احترام الذات) " يا لرائحتي الكريهة! " - لابد أن هذا ما كان يقوله لنفسه في كل ليله حين ينفرد بنفسه في غرفته. " ولكن ما زال أمامي عملٌ رائع أنفّذه ... فقط راقبني! "

كانت تنتابه فترات من الاكتئاب، يصبح معها موضع شفقة - يصبح شيئاً مجرداً من الإنسانية، شيئاً لا ينتمي إلى عالم الحيوان، وإنما إلى مملكة النبات. كان يغطس أسفل مكان ما ويستسلم للتعفُّن. في مثل تلك الحالة كان يُنبت أوراقاً خبيثة، وكأنَّه ثمرة بطاطا عملاقة وعفنة تُرِكَتْ لتفنى في الظلام. لا شيء كان قادراً على إيقاظه من سباته. كان أينما وُضِعَ يمكث، خاملاً، في حالةِ تأمُّل كئيب دائم، وكأنَّ العالمَ يقتربُ من نهايته.

المعروف أنه لم يكن يعاني من مشاكل خاصة. كان وحشاً ظهرَ فجأة من مملكة النبات بدون أن يمرَّ بمرحلة الحيوان. وكان جسمه، المعدوم الحسّ تقريباً، محاطاً بعقلٍ يتحكَّم فيه كالطاغية. حياته العاطفية كانت كتلةً

twitter @baghdad_library

واهيةً يغرفُ منها مثل قوقازي ثمل. كانت رقّته من النوع الذي يتّصف به آكلو لحم البشر؛ لم يكن يطلب إلحاحات القلب ومثيراته بل القلب نفسه، ومعه، إذا أمكن، الأحشاء، والكبد، والبنكرياس وأجزاء أخرى طريّة، وقابلة للأكل من الجسم الإنساني. في مثل تلك اللحظات المجيدة لم يكن فقط يبدو متلهّفاً لالتهام موضوع رقّته بل لدعوة الآخرين أيضاً للاشتراك في التهامه. كان فمه يتحرّك ويتمعّج في تعبيرٍ عن نشوةٍ فكّيّةٍ حقيقية؛ ويظل يجتهد إلى أن تغدو روحه ذاتها مادة إسفنجية هلاميّة. كان حالةً من حب مرعبة، مرعبة لأنها لا تعرف حدوداً. كانت تخمةً أو نهماً، أثراً متخلّفاً عن حالةٍ قديمةٍ جداً من النشوة - الذكرى الباقية عن سرطانات وأفاعٍ، عن جماعها المطوّل. في مادة العصور اللزجة البروتوبلازمية، والمنسيّة منذ زمن سحيق.

والآن، في قاعة الصراصير، كما سمّيناها، كانت عجّة جنسيّة لذيذة تُعدُّ نفسها وكلنا تذوّقناها، كلٌ على طريقته الخاصة. كان يحيط بجو المؤسسة شيء معويّ، لأنه كان مؤسّسة أكثر منه بيتاً. كان مستوصفاً للحب، إن صح التعبير، حيث تنبت الأجنّة كالأعشاب الضارة، وكالأعشاب الضارة تُنتَزَع من جذورها أو تقطّع بالمنجل.

لا أدري كيف سمح مدير الاستخدام في شركة البرق الكونيّة الشيطانيّة العظمى لنفسه أن يقع في شرك وكر الجنس المشبّع بالدماء ذاك ويُحتَجَز هناك. وحالما ترجّلت من القطار في المحطة المرفوعة وانطلقت أهبط الدرج متوجّهاً إلى قلب حيّ البرونكس أصبحت شخصاً آخر. لم يكن يفصلني عن مؤسسة الدكتور أونيريفيك أكثر من مسافة بضع أبنية، كانت كافية لتشويشي، لتتيح لي الوقت لأغوص في دور

العبقري الحسّاس، الشاعر الرومانسي، الصوفي السعيد الذي عثر على حبيبته الحقيقية ومستعد لأن يضحّي بحياته من أجلها.

كان هناك تنافر مخيف بين هذه الحالة الكيانيّة الداخلية الجديدة والجو الجسدي للحيّ الذي كان يتوجّب عليّ أن أغوص فيه في كل ليلة. في كل مكان كانت الجدران الكالحة والرتيبة تلوح على البعد مخيفةً؛ خلفها تعيش أُسَرٌ تقوم حياتها كلها على أساس إيجاد عمل. هم عبيد كادُّون، صبورون، طموحون، هدفهم الوحيد الانعتاق. وفي أثناء ذلك يصبرون على أي شيء متناسين المشقّة، منيعين ضد القبح. إنهم أرواح بطوليّة صغيرة هاجسها الانعتاق من نيرِ عبوديّةِ العملِ بحدّ ذاته لم يكن يعمل إلا على تضخيم قذارة حياتهم وبؤسها.

أي برهان لدي على أنَّ الفقرَ كان قادراً على أن يحمل وجهاً آخر؟ ليس لدي غير الذكرى المبهمة، المشوّشة عن طفولتي في الدائرة الرابعة عشرة - بروكلن. ذكرى طفل وجد مأوى، وحظي بكل الفرص المتاحة، ولم يعرف غير الفرح والحرية - إلى أن بلغ العاشرة من عمره.

لماذا ارتكبتُ ذلك الخطأ الفادح وتحدثت مع الدكتور أونيريفيك؟ لم يكن في نيتي أن آتي على ذكر اليهود في تلك الأمسية - كنت أنوي أن أتحدث عن " الدرب إلى روما "، كتاب بيلوك الذي ألهبَ حماستي. كان رجلاً حسّاساً، وعالماً، تاريخُ أوروبا بالنسبة إليه كان ذكرى حيّة، وقد قرّر أن يسافر سيراً على قدميه من باريس إلى روما لا يحمل معه أكثر من حقيبة ظهر وعصا مشي ضخمة. وقد فعل. وفي الطريق وقعت كل الأحداث التي تقع دائماً في الطريق. وكان ذلك أول إدراك لي للفرق بين سير العمل والهدف، أول وعي لي بحقيقة أنَّ هدف الحياة هو

twitter @baghdad_library

عيشها. كم حسدت هيلير بيلوك على مغامرته! ولا أزال حتى يومي هذا أرى في زوايا صفحاته المسودات المدوّنة بالقلم الرصاص عن الأسوار والأبراج، عن بريجات الهجوم والمعاقل. يكفي أن أفكر في عنوان هذا الكتاب حتى أراني جالساً من جديد في الحقول، أو واقفاً على جسر طريف من العصور الوسطى، أو آخذاً غفوة على ضفة قنال هادئ في قلب فرنسا. لم أكن قد حلمت مرة أنَّ في إمكاني أن أشاهد تلك الأرض، أن أتجوّل في تلك الحقول، أن أقف على تلك الجسور نفسها، وأن أتبع مسار تلك القنوات نفسها. لا يمكن لذلك أن يحدث لي أنا! فأنا هالك.

حين أفكر الآن في الحيلة التي حرّرتني، حين أفكر أنني تحرّرت من ذلك السجن لأن حبيبتي أرادت أن تتخلّص مني، ترتسم على قسماتي ابتسامة حيرى، مرتبكة، حزينة. ما أشدّ اضطراب وتعقيد كل شيء! إننا ممتنّون لأولئك الذين طعنونا في الظهر؛ ونفرُّ هاربين من أولئك المستعدّين لمساعدتنا؛ ونهنّئ أنفسنا لحسن حظنا، ولا يخطر ببالنا أنه يمكن لحظنا الحسن أن يكون ورطة سوف يستحيل علينا أن نخرج منها. وننطلق إلى الأمام ورؤوسنا تلتفت إلى الخلف؛ نندفع اندفاعاً أعمى نحو الفخ. ولا نهرب أبداً، إلا نحو طريق مسدودة.

أخترقُ حيّ البرونكس، مسافة خمسة أبنية أو ستة، مدة ومسافةً كافيّين لأتحوّل إلى فتّاحة قناني. سوف تكون مونا هناك في انتظاري. سوف تعانقني عناقاً حاراً، وكأننا لم نتعانق من قبل. لن يكون أمامنا أكثر من ساعتين نمضيهما معاً ومن ثم سوف نغادر - ستذهب إلى صالة الرقص حيث ما زالت تعمل بالأجرة. ولدى عودتها في الساعة الثالثة أو

الرابعة صباحاً سأكون غارقاً في النوم. سوف ترغي وتزبد إذا لم أكن مستيقظاً، إذا لم أحطها بذراعيَّ بحبٍ عارم وأقل لها إني أحبها. وفي كل ليلة يكون لديها الكثير لتخبرني به ولا وقت لذلك. وفي الصباح، حين أغادر، تكون هي مستغرقة في النوم. ونأتي ونذهب مثل قطارين على خطّين حديديّين منفصلين. هذه هي بداية حياتنا معاً.

أحبها، قلباً وجسداً. هي كل شيء بالنسبة إليّ. ومع ذلك فهي أبعد ما تكون شبهاً بالنساء اللواتي حلمت بهنّ، أو بتلك المخلوقات المثالية التي ألّهتُها وأنا صبي. لم تكن تشبه أي شيء مما استحضرته من أعماقي. إنها صورة جديدة بكل معنى الكلمة، شيء أجنبي، ساقه القدرُ إلى طريقي من كونٍ مجهول. حين أرنو إليها، بما أني تعوّدت على أن أحبها جزءاً بعد جزء، أجد أنها تفلت مني بكُلّيتها. إن حبي يتجمَّع كمبلغٍ من المال، أما هي، التي أسعى إليها بحبٍ نهِم، يائس، فتفلت مني مثل إكسير الحياة. إنها مُسَخَّرة لي كلها، إلى حد الخنوع، لكنني لا أملكها. بل أنا المملوك. يملكني حبٌ لم أعرف مثيلاً له من قبل - حب غامر، حب شامل، حب أظافر أصابع قدميّ نفسها والقذارة الكامنة تحتها - ومع ذلك فيديّ ترفرفان دائماً وأبداً، ودائماً وأبداً تقبضان وتتشبّثان، وتشدّان على لا شيء.

ذات مساء لدى عودتي إلى المنزل لاحظت من زاوية إحدى عينيّ واحدة من تلك المخلوقات الحسّية، الناعمة من حيّ الأقليات وكأنها تخرج من بين صفحات العهد القديم. كانت إحدى أولائي اليهوديات التي تحمل اسم راعوث أو استر. أو ربما ميريام.

ميريام، نعم! هذا هو الاسم الذي كنت أفتّشُ عنه. لماذا كان هذا

twitter @baghdad_library

الاسم رائعاً في نظري؟ كيف أمكن لمثل هذه التسمية البسيطة أن تثير مشاعر مشبوبة هكذا؟ هكذا بقيت أتساءل.

ميريام هو سيد الأسماء. لو أمكنني أن أشكّل النساء كافة في صورة مثالية كاملة، لو أخلع على تلك الصورة المثالية كل الصفات التي أبحث عنها في امرأة، فإن اسمها سيكون ميريام.

كنت قد نسيت كلياً المخلوقة الجميلة التي ألهمتني هذه التأملات. كنت أقتفي أثرَ شيءٍ ما، ومع ازدياد سرعة خطوتي، وبينما وجيب قلبي يزداد جنوناً، تذكرت فجأة وجه، وصوتَ، وقوامَ، وإيماءاتَ الميريام التي عرفتها صبيّاً في الثانية عشرة، ميريام بنتر، كما كانت تسمّي نفسها. لم تكن تتجاوز الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة، لكنها كانت كاملة الأنوثة، حيّة متوردة، فوّاحة كزهرة - و - ممنوعاً لمسها. لم تكن يهودية، ولا كانت حتى توحي من بعيد بذكرى تلك المخلوقات الأسطورية الوارد ذكرها في العهد القديم. (أو لعلّي لم أكن حينئذ قد قرأت العهد القديم) كانت صبيّة ذات شعر كستنائي طويل، وعينين واسعتين، صريحتيّ النظرة، وفمٍ وافرٍ كان يحيّيني بمودّة كلما تقابلنا في الشارع. كانت دائماً مطمئنّة، ودائماً تهِبُ نفسها، دائماً تتفجَّرُ صحة وطيبة؛ وفوق ذلك كانت حكيمة، وعطوفاً، ومتفهّمة إلى أقصى الحدود. معها لم يكن ضرورياً القيام بتمهيدات خرقاء: كانت دائماً تأتي نحوي تشعُّ بذاك الفرح الداخلي السرّي، دائماً ترغب في المزيد. كانت تبتلعني بأكملي وتحملني معها؛ تطوّقني كأمٍ، تدفئني كخليلة، وترسلني كجنّيّة. لم أكن أضمر في نفسي أي فكرة قذرة عنها: لم أشتهها قط، لم أتق مرة إلى مداعبتها. لقد أحببتها حباً جماً، حباً كاملاً، حتى أني في كل

مرة كنت أقابلها أولدُ من جديد. وكل ما كنت أطلبه هو أن تبقى على قيد الحياة، أن تكون من هذه الأرض، أن تكون في مكانٍ ما، في أي مكان، من هذا العالم، ألاّ تموت أبداً. لم آمل في أي شيء، لم أرد أي شيء منها. كان مجرد وجودها كافٍ تماماً. نعم، كنت أهرع إلى داخل المنزل، أختبئ، وأشكر ربي بصوت عالٍ لأنه أرسل ميريام إلى هذه الأرض إلينا. ما أعظمها من معجزة! وأي نعمة في أن أحبَّ هكذا!

لا أدري كم من الوقت استمرَّ هذا. ليست لدي أدنى فكرة عما إذا كانت قد وَعَتْ تدلُّهي بحبها أم لا. ما همَّني؟ لقد كنت عاشقاً، أعيش العشق. ما أعظم أن نستسلم بكلّيتنا، أن نسجد أمام الصورة القدسية، أن نموت ألف ميتة متخيّلة وميتة، أن نمحو كل أثر للذات، أن نرى الكون كله مجسَّداً ومحفوظاً في الصورة الحيّة لكونٍ آخر! ونقول، إنه مراهق. هراء! هذه هي بزرة الحياة المستقبليّة، البزرة التي نخبّئها، ندفنها في داخلنا، نخنقها ونكبتها ونبذل أقصى جهدنا لندمِّرها أثناء انتقالنا من تجربة إلى أخرى ونرتبك ونتخبَّط ونضيِّع سبيلنا.

حين قابلتُ مَثَلي الأعلى الثاني - أونا غيفورد - كنت تقريباً مريضاً. لم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة وكان الألم ينهشني. كيف أشرح هذا؟ كانت ميريام قد خرجت من حياتي، ليس بصورة درامية، وإنما بهدوء، بلا تفاخر. اختفت هكذا ببساطة، لم يبق لها أي أثر. بل إني لم أفهم معنى ما حدث. لم أفكر فيه. كان الناس يأتون ويرحلون؛ والأشياء تظهر وتختفي. كنت مع السيل، كالآخرين، وكان كل شيء طبيعي على الرغم من إبهامه. كنت قد بدأت عادة القراءة، القراءة بنهم. كنت أنكفئ إلى الداخل، أنغلقُ على ذاتي، كما تنغلق الأزهار أثناء الليل.

twitter @baghdad_library

لم تجلب أونا غيفورد غير الألم والأسى. أردتها، احتجتُ إليها، ولم أستطع العيش بدونها. لم تكن تقول نعم أو لا. لسبب بسيط هو أني لم أكن أجرؤ على أن أطرح الأسئلة عليها. كنت أقترب من سن السادسة عشرة وكنا ما نزال من تلاميذ المدرسة - كنا سنتخرّج في العام التالي. فكيف يمكن لفتاة في مثل سنك، وليس بينك وبينها أكثر من تحية بانحناءة من الرأس، أو تحديق، أن تكون المرأة التي تستحيل الحياة بدونها؟ كيف تحلم بالزواج قبل أن تتجاوز عتبة الحياة؟ ولكن لو أني حينئذ فررت مع أونا غيفورد، وأنا في سن الخامسة عشرة، لو أني تزوجتها وأنجبت منها عشرة أطفال، لكان ذلك تصرُّفاً مصيباً، مصيباً تماماً. ماذا يهمّ إن أصبحت شيئاً مختلفاً اختلافاً كليّاً، إذا ما غصتُ إلى أسفل السافلين؟ ماذا يهمّ إن كان هذا يعني بلوغ الشيخوخة قبل الأوان؟ كانت لي حاجة إليها لم تلبَّ أبداً، وتلك الحاجة كانت أشبه بجرحٍ أخذ يتّسع ويتّسع إلى أن أضحى حفرةً فاغرة. ومع استمرار الحياة، وتفاقم حِدَّة تلك الحاجة اليائسة، جررتُ كل شيء إلى داخل الحفرة واغتلته.

حين قابلت مونا لم أكن أعي كم كانت تحتاج إليّ. ولا أنا أدركت التغيير العظيم الذي أحدثته على حياتها، وعاداتها، وخلفيتها، وماضيها، لكي تقدّم لي صورة مثاليّة لنفسها قدَّرتْ بسرعة هائلة أني رسمتها لها في ذهني. كانت قد غيّرت كل شيء - اسمها، مسقط رأسها، أمها، منشأها، أصدقاءها، أذواقها، وحتى رغباتها. وكان خليقاً بها أن تغيّر اسمي أيضاً، وقد فعلتْ. الآن أصبح اسمي فال، تصغيراً لسم فالانتاين، ولطالما خجلت من حمله - بدا لي اسماً مخنثاً

- ولكن بعد أن خرج من بين شفتيها أصبح هو الاسم المناسب لي. لا أحد غيرها ناداني بفال، على الرغم من أنهم جميعاً سمعوها تناديني به دائماً. وبالنسبة إلى أصدقائي بقيت كما كنت دائماً؛ لم يتأثّروا بمجرد تغييرٍ في الاسم.

بالنسبة إلى التحولات ... أذكر بحيوية الليلة الأولى التي أمضيناها في مسكن الدكتور أونيريفيك. كنا قد أخذنا دشاً معاً، ونحن نرتجف اشمئزازاً من مشهد أعداد الصراصير الغفيرة التي غزت الحمّام. اندسسنا في السرير تحت لحاف زغب العيدر. وكنا قد قمنا بمضاجعة مشبوبة في تلك الغرفة العامة الغريبة المملوءة بالأشياء العجيبة. وفي تلك الليلة اقترينا كثيراً من بعضنا. كنت قد انفصلت عن زوجتي وكانت هي قد انفصلت عن أهلها. لم نكن نعرف لماذا قبلنا أن نعيش في ذلك المنزل الهمجي؛ ولو كنا بكامل حواسنا الواعية لما حلمنا في اختيار مثل ذاك الموقع. لكننا لم نكن نملك حواسنا الواعية. كنا محمومين بالحماس لبدء حياة جديدة، وكنا نشعر بالذنب، نحن الاثنان، للجرائم التي ارتكبناها لكي ننطلق في المغامرة الكبرى. ومونا شعرت به أكثر مني، في البداية. شعرت أنها مسؤولة عن انفصالي. وما انفصلت عنه في الواقع كان طفلتي، وليس زوجتي، وقد أسفت مونا لأجلها. كان ذلك يعذّب ضميرها. فهذا الأمر كان يقترن، بدون شك، بأني سوف أستيقظ ذات صباح وأدرك أني قد ارتكبت غلطة. وأخذتْ تجتهد كي تصبح لا غنى عنها، كي تحبني بتفانٍ شديد، بتضحية كاملة بالذات، لكي تمحو الماضي. لم تفعل ذلك عن عمد، بل إنها لم تكن حتى تعي ما تفعل. غير أنها تشبثت بي بقوة، بقوة يائسة بحيث أني حين أفكر في الأمر

twitter @baghdad_library

الآن تطفر الدموع من عينيّ، لأن ذلك لم يكن ضرورياً: كنت محتاجاً إليها حتى أكثر من احتياجها إليّ.

وهكذا، بينما كنا نوشك أن نستغرق في النوم في تلك الليلة، وبينما كانت تتقلّب لتدير ظهرها لي، انزلق الغطاء عنها ولاحظت، من وضعية الجثوم الحيوانية التي اتخذتها، طبيعة ظهرها الضخمة. مرّرت كلتا يديّ على لحمها، داعبت ظهرها كما يداعب المرء لحم خاصرة لبوءة. الغريب في الأمر أني لم أكن منتبهاً إلى ظهرها الرائع. كنا قد نمنا معاً مرات كثيرة واستغرقنا في النوم في كافة الأوضاع، لكنني لم ألاحظ شيئاً. الآن، في هذا السرير الضخم الذي يبدو وكأنه يعوم في نور الغرفة الكبيرة الكامد، أصبح ظهرها محفوراً في ذاكرتي. لم أكوِّن أفكاراً محدَّدة عنه - كانت فقط أحاسيس من الاستمتاع المبهم بالقوة والحيوية اللتين تتمتع بهما. كان في وسعها ان تدعم العالم بظهرها!. لم أصغْ دهري عبارة شديدة التحديد كهذه. غير أنها كانت حاضرة، الفكرة، في منطقة غامضة، مبهمة من وعيي. وبعبارة أصحّ على أطراف أصابعي.

تحت الدش ضايقتها مداعباً حول بطنها الذي كان يزداد اتساعاً، وأدركت على الفور أنها حسّاسة إلى أقصى حد بشأن التعليق على شكلها العام. غير أني لم أنتقد لحمها الغزير - بل ابتهجت لاكتشافي هذا. كنت أرى أنه مبشّر. ثم، وتحت بصري، بدأ هذا الجسد، الذي كان غزيراً وافراً، ينكمش. كان العذاب الداخلي قد بدأ يحصِّل ضريبته. في الوقت نفسه بدأت النار التي تضطرم فيها يشتد أوارها. وكان لحمها سيُستهلك بفعل الولَه الذي يضنيها. وعنقها القوي والمستدير، الجزء الذي كان محطّ إعجابي من جسمها، أخذ يزداد نحولاً باطراد، إلى أن

أصبح رأسها أشبه برأس نبات قاوانيا[٣٩] عملاق يتهادى على ساقه الضعيف.

سألتها، وقد أفزعني هذا التحوّل السريع " أأنتِ مريضة؟ "

قالت " طبعاً لا! إنني أنقص وزني "

" لكنك تبالغين كثيراً، يا مونا "

قالت " هكذا كنت وأنا صغيرة. من الطبيعي بالنسبة إليّ أن أكون نحيلة "

" لكني لا أريدك نحيلة. لا أريدك أن تتغيّري. انظري إلى عنقك - أتريدين أن تصبح لديك رقبة هزيلة؟ "

قالت. وهي تقفز لتنظر إلى نفسها في المرآة " رقبتي ليست هزيلة "

" أنا لم أقل أنها كذلك، مونا ... لكنها ستصبح هكذا إذا بقيت على هذا النظام المتهور "

" أرجوك فال، لا تفتح هذا الموضوع. أنت لا تفهم ... "

" مونا، لا تقولي هذا. أنا لا أنتقدك. أنا فقط أريد أن أحميك "

" أنت لا تحبني وأنا هكذا ... أليس كذلك؟ "

" مونا، أنا أحبك كيفما كنت. أنا أحبك. أعبدك. ولكن أرجوك تعقّلي. أخشى أن تتلاشي، أن تتبخّري في الهواء. لا أريدك أن تمرضي... "

" لا تكن سخيفاً، فال. لم أكن مرة في حياتي أفضل مني الآن "

ثم أضافت " بالمناسبة، هل ستقوم بزيارة الصغيرة في يوم السبت القادم؟ ". ولا تذكُر أبداً زوجتي أو الطفلة بالاسم. أيضاً، تُفضِّل أن

---

٣٩ - نبات القاوانيا : نبات ذو زهرات كبيرة حمراء أو قرنفلية أو بيضاء . - المترجم .

twitter @baghdad_library

تعتقد أني سأقوم بزيارة الطفلة وحدها خلال تلك الحملات الأسبوعية على حيّ بروكلن.

قلت إني أعتقد أني سأذهب ... لماذا، أ ثمة ما يمنع ذلك؟

قالت " لا، لا! " وهي تهزّ رأسها بعنف بطريقة غريبة وتشيح بوجهها لتفتّش عن شيء ما في درج طاولة الكتابة.

وقفت وراءها، وهي تميل إلى الأمام، وأحطت خصرها بذراعيّ.

" مونا، قولي لي ... هل تتألمين كثيراً حين أذهب إلى هناك؟ اصدقيني القول. لأنه إن كان الأمر كذلك، فلن أذهب بعد الآن. على أي حال كان لابد لهذه الزيارات أن تنتهي ذات يوم "

" أنت تعلم أني لا أريدك أن تكفّ عن الذهاب. هل سبق لي أن قلت عكس ذلك؟ "

قلت، وأنا أخفض رأسي وأحدِّق بإمعان إلى السجادة " لا-ا-ا، لا-ا-ا، أنت لم تقولي أي شيء. ولكن أحياناً أتمنى لو تفعلين ... "

صرخت بحدّة " لماذا تقول هذا؟ "، بما يشبه الحنق، " ألا يحقّ لك أن تزور ابنتك؟ لو كنت مكانك لفعلت "، ثم سكتت برهة، ولما لم تستطع أن تكبح نفسها، انفجرت قائلة: " لو كانت ابنتي لما تركتها. لما تخلّيتُ عنها، مقابل أي شيء! "

" مونا! ماذا تقولين؟ ماذا تقصدين بهذا؟ "

" فقط هذا. لا أفهم كيف تستطيع أن تفعل. إنني لا أستحق مثل هذه التضحية. لا أحد يستحق "

قلت " فلنقفل الموضوع. سوف نتفوّه بأشياء لا نقصدها. ها أنا أقولها لك، إنني لا أندم على أي شيء. لم يكن في الأمر تضحية،

افهمي هذا. أنا أردتك وحصلت عليكِ. أنا سعيد، يمكنني أن أنسى كل إنسان إذا لزم الأمر. وأنت العالم بأسره بالنسبة إليّ. وتعلمين هذا "

قبضت عليها وجررتها نحوي. فانهمرت دمعة على وجنتها.

" اسمع، فال. أنا لا أطلب منك أن تتخلّى عن أي شيء، ولكن..."

" ولكن ماذا؟ "

" ألا تستطيع أن تقابلني مرة كل حين ليلاً بعد أن أنتهي من عملي؟ "

" عند الساعة الثانية صباحاً؟ "

" أعلم ... إنها حقاً ساعة لعينة ... لكني أشعر بوحشة فظيعة بعد أن أغادر صالة الرقص، خاصة بعد أن أكون قد رقصت مع كل أولئك الرجال، تلك المخلوقات الحمقاء، الرهيبة، التي لا تعني لي أي شيء.. وأعود إلى البيت فأجدك نائماً. على ماذا أحصل؟ "

" لا تقولي هذا، أرجوك. نعم، سأقابلك طبعاً. سأقابلك - بين وقت وآخر "

" ألا تستطيع أن تأخذ غفوة بعد العشاء و ... "

" حتماً أستطيع. لماذا لم تقولي في وقت مبكر؟ أنانية مني ألا أفكر في هذا "

" لست أنانياً، فال "

" إنني شديد الـ... اسمعي، ما رأيك أن ألحق بك هذا المساء؟ سوف أعود، وآخذ غفوة، ثم أقابلك عند وقت الإقفال "

" أواثق من أن ذلك لن يرهقك؟ "

" لا، مونا، سيكون رائعاً "

twitter @baghdad_library

غير أني، وأنا في طريق عودتي إلى المنزل بدأت أدرك معنى أن أنظِّم وقتي بذلك الشكل. فعند الساعة الثانية كنا نتناول الطعام في مكان ما. ثم نركب مدة ساعة في المواصلات المرفوعة. وفي السرير كانت مونا تثرثر قبل أن تستغرق في النوم. عندها تكون الساعة قد بلغت الخامسة وبحلول الساعة السابعة سيتوجّب عليّ أن أنهض من جديد وأتوجّه إلى العمل.

أخذت أتعوَّد على تبديل ملابسي في كل ليلة، استعداداً للموعد في صالة الرقص. وهذا لا يعني أني كنت أتوجه إلى هناك في كل ليلة - كلا، لكنني كنت أذهب قدر استطاعتي، فأرتدي ملابسي القديمة - قميص الخاكي، وحذاء الموكاسان، وأتباهى بإحدى عصي المشي التي سرقتها مونا من كاروثرز - وهكذا أفرض جانبي الرومانسي. كنت أعيش حياتين: واحدة في شركة التلغراف الشيطانية الكونية وأخرى مع مونا. أحياناً كانت فلوري تنضم إلينا في المطعم. كانت قد وجدت لها عشيقاً جديداً، طبيباً ألمانياً بدا، وفقاً لكل التقديرات، أنه يملك قضيباً هائل الحجم. كان الوحيد الذي استطاع أن يرضيها، هذا ما أوضحته. مَنْ كان يظن أن تلك المخلوقة ذات البنية الهشّة والوجه الأيرلندي النموذجي، نمط برودواي بامتياز، تحمل بين ساقيها شقاً كبيراً يكفي لإخفاء مرزبّة - أو أنها تعشق النساء بقدر عشقها للرجال؟ كانت تحب كل ما له علاقة بالجنس. الآن أصبح شقّها متجذراً في عقلها. وظل يتمدّد ويتمدّد إلى أن لم يعد هناك حيِّز، في العقل أو في الشق، لأي شيء آخر غير أير سوبر-إنساني.

ذات مساء، وبعد أن أوصلت مونا إلى مقرّ عملها، انطلقت أجوب الشوارع الجانبية. فكّرت في أن أشاهد فيلماً سينمائياً ومن ثم أقابل

مونا بعد انتهاء العرض. ولدى اجتيازي أحد الأبواب سمعتُ أحدهم ينادي اسمي. التفتُّ وإذا بفلوري تقف في المدخل ومعها هانا بل، وكأنهما تختبئان من شخص ما. ذهبنا إلى مكان عبر الشارع لنتناول مشروباً. كانت الفتاتان تتصرفان بعصبيّة وقلق. قالتا إنهما مضطرتان إلى تركي بعد بضع دقائق - وأنهما قبلتا تناول المشروب من باب المآنسة. ولم أكن قد انفردت بهما قبل ذلك وكانتا مضطربتين، وكأنهما تخشيان أن تكشفا عن أمور ينبغي ألاّ أعرفها. وبكل براءة تناولت يد فلوري التي كانت مستقرّة في حجرها وشددت قليلاً عليها، لكي أطمئنها - على ماذا لا أدري. وكم ذهلت حين شدّت هي عليها بحرارة، ثم مالت إلى الأمام وكأنها تنوي أن تفضي بأمرٍ سريٍ لهانا، ثم أفلتت قبضتي وراحت تعبث بفتحة بنطالي. في تلك اللحظة دخل رجل حيّتاه بعاطفة مسرفة. قدّمتاني إليه على أني صديق. كان اسمه موناهان. قالت فلوري، وهي توجّه إليّ نظرة تذوب رقّة: " إنه مفتش مباحث ". وما أن جلس الرجل حتى قفزت فلوري واقفة وقبضت على ذراع هانا وانطلقت معها مسرعة بعيداً عن المكان. وعند الباب لوّحتا مودّعتين، ثم هرعتا تقطعان الشارع باتجاه ممرّ الباب الذي كانتا تختبئان فيه.

قال موناهان " تصرّفٌ غريب "، ثم سألني، وهو ينادي على النادل " ماذا ستشرب؟ ". طلبت كأساً أخرى من الويسكي ونظرت إليه نظرة خالية من أي معنى. لم تعجبني فكرة أن أُترَك مع مفتش شرطة. لكن موناهان كان يفكر في أمرٍ آخر؛ بدا سعيداً لأنه عثر على مَنْ يتبادل الحديث معه. ولما لاحظ عصا المشي والبذلة المهلهلة استنتج على الفور أني فنان في مجالٍ ما.

twitter @baghdad_library

" مـلابسك توحي بأنك فنان " - يقـصـد رسـامـاً - " لكنك لست فناناً. يداك شديدتا الرقة ". أمسك يديّ وتفحّصهما بسرعة. ثم أضاف " ولستَ موسيقياً أيضاً. حسن، لم يبق غير احتمال واحد - أنت كاتب!"

أومأت بالإيجاب، وأنا أتأرجح ما بين التأمّل والتوتّر. كان أيرلندياً من النمط الذي تثير صراحته المباشرة عدائي. وتنبّأت بحدوث تحدٍ لا مفر منه، " لماذا؟ ولِمَ لا؟ كيف؟ ماذا تعني؟ ". وكما يحدث دائماً بدأت بلطف وتسامح. سايرته. لكنه لم يكن يريد مني أن أسايره - أراد أن أجادله.

لم أكن قد نطقت كلمة واحدة ومع ذلك وفي غضون بضع دقائق كان قد بدأ يهينني وفي الوقت نفسه يخبرني كم هو معجب بي.

قال، وهو يطلب مزيداً من المشروب، " أنت تمثّل بالضبط الشخص الذي أحبّ أن أقابله. أنت تعرف أكثر مني، لكنك لا تتكلّم. لعلّك تعتبرني غير جدير بك، تراني تافهاً. هنا أنت مخطئ! لعلّي أعرف أشياء كثيرة لا تخطر ببالك. ربما في إمكاني أن أخبرك ببعض الأشياء. لِمَ لا تطرح سؤالاً عليّ؟ "

ماذا أقول؟ لم يكن هناك ما أردت أن أعرفه - على الأقل، ليس منه. أردت أن أنهض وأرحل - بدون أن أؤذيه. لم أرد أن تعيدني تلك الذراع الطويلة والكثيفة الشعر بدفعة قوية إلى الجلوس على مقعدي لأتعرّض لإعجابه الصبياني المفرط واستجوابه القاسي وجداله وإهانته. ثم إني كنت أشعر بدوار بسيط. كنت أفكر في فلوري وفي مدى غرابة سلوكها - كنت ما أزال أشعر بيدها تعبث بفتحة بنطالي.

قال " تبدو شارد الذهن. حسبت أن الكُتّاب سريعو الخاطر جداً،

ودائماً حاضرو البديهة. ما الأمر - ألا تريد أن تآنسني؟ ألا تحب خلقتي؟ اسمعْ " - وحطَّ يده الثقيلة على ذراعي - " افهم ما يلي ... أنا صديق! أريد أن أتبادل الحديث معك. وأنت ستخبرني بما عندك ... بكل ما لا أعرف. سوف تجعلني أكثر حكمة. لعلّي لن أفهم كل شيء دفعة واحدة، لكني سأصغي إليك. لن ترحل من هنا قبل أن نحسم هذه المسألة، أتفهم ما أعني؟ ". وبهذا رسم لي واحدة من تلك الابتسامات الأيرلندية الغريبة، هي مزيج من الودّ، والصدق، والارتباك والعنف. كانت تعني أنه سوف يحصل على ما يريد مني وإلا طرحني أرضاً. ولسبب ما غامض كان مقتنعاً بأنَّ لدي شيئاً يحتاج إليه حاجة ماسّة، حلاً ما للغزِ الحياةِ سوف يفيده، حتى وإن لم يتمكّن من فهمه فهماً تاماً، وقت الحاجة.

في تلك الأثناء كان الرعب قد مسّني. كان موقفاً من النوع الذي أعجزُ تماماً عن التعامل معه. كان في إمكاني أن أغتال ابن الحرام بدمٍ بارد.

لكمةً ذهنيّة، هذا ما كان يريده مني. لقد ملَّ إرهاق الشخص الآخر بالاستجواب - أراد شخصاً يباشر عمله معه.

قرّرت أن أهجم مباشرة، أن أفرغه بثقب إحدى رئتيه ومن ثم أتّكل على أساليبي الذكية.

" إذن تريد مني أن أتكلم بصراحة، أليس كذلك؟ "، ونفحته ابتسامة بريئة.

ردّ قائلاً " طبعاً، طبعاً. هات ما عندك! أنا مستعد "

قلت، وما أزال أرسم الابتسامة الخالية من المعنى، المطمئنة، "

twitter @baghdad_library

حسن، أولاً، أنت مجرد قملة وتعلم هذا. أنت خائف من شيء ما، ولا أدري بعد ما هو، ولكن ستصل إليه. أمامي تتظاهر بأنك تافه، نكرة، ولكن أمام نفسك تدّعي أنك ذكي، شخصية هامة، رجل متين. أنت لست خائفاً من أي شيء، صح؟ هذا محض هراء وأنت تعلم ذلك. أنت مترع بالخوف. تقول إنك مستعد للتلقّي. تلقّي ماذا؟ لكمة على الفكّ؟ طبعاً تستطيع، إذا كنت تحمل وجهاً كوجهك. ولكن هل تستطيع أن تتحمّل سماع الحقيقة؟ "

رماني بابتسامة متألّقة، قاسية. دلَّ وجهه، الذي تضرَّجَ بحمرة قانية، على أنه كان يبذل أقصى جهده ليسيطر على نفسه. أراد أن يقول " نعم، تابع! "، لكن الكلمات خنقته. اكتفى بالإيماء، إيجاباً ثم شغَّل الابتسامة الكهربائية.

" أظنك قضيت على جرذان عديدة بيديك المجرّدتين، أليس كذلك؟ كان أحدهم يثبِّت الرجل وأنت تنهال عليه إلى أن يصرخ صرخة الموت ويزرقّ لونه. وتنتزع اعترافاً منه ومن ثم تنفض الغبار عن نفسك وتجرع عدة كؤوس من الشراب. لقد كان مجرّد جرذ ويستحق ما ناله. غير أنك جرذ أضخم منه، وهذا ما ينهشك. أنت تحب أنْ تؤذي الناس. لعلك وأنت طفل كنت تنزع الأجنحة عن الذباب. أحدهم سبّب لك الأذى ذات مرة ولا تستطيع أن تنسى ذلك ". (شعرت به يجفل لدى سماعه هذا) " وتتردّد على الكنيسة بانتظام وتعترف، لكنك لا تقول الحقيقة. أنت تدلي بأنصاف الحقائق. لا تقول للأب أي ابن عاهرة قذر وعفن هو. بل تكتفي بالاعتراف بآثامك الصغيرة. لا تصارحه بالقول إنك تستمتع أيما استمتاع عندما تضرب الأشخاص الذين لا حول لهم ولا قوة ولم يسبّبوا

لك أي أذى. وطبعاً أنت دائماً تضع عطايا سخيّة في الصندوق. " رشوة لشراء السكوت! " وكأنّ ذلك يمكن أن يُسْكِتَ ضميرَك! الجميع يقولون يا لك من رجل رائع - ما عدا أولاد الحرام المساكين الذين تتعقّبهم وتستجوبهم. وتقول لنفسك إنه عملك، ويجب أن ينفّذ هكذا وإلا ... من الصعب عليك أن تتصوّر نفسك تقوم بعملٍ آخر إذا ما فقدت عملك هذا، أليس كذلك؟ ما هي مصادر قوتك؟ ماذا تعرف؟ ما نفعُكَ؟ طبعاً، تستطيع أن تكون كنّاساً للشوارع أو جامعاً للقمامة، وإن كنتُ أشكُّ في أنك تملك الشجاعة لتقوم بذلك. لكنك لا تعرف أي شيء مفيد، هل تعرف؟ أنت لا تقرأ، ولا تصاحب إلا أشباهك. واهتمامك الوحيد هو السياسة. مهمة جداً، السياسة! لا أحد يدري متى يحتاج المرء إلى صديق. قد تقتل ذات يوم شخصاً غير الشخص المقصود، فماذا يحدث حينئذ؟ ليست مشكلة، سوف تدفع أحدهم إلى الكذب لصالحك، شخص مستعدٌّ أن يفعل أي شيء لأجلك - دودة حقيرة مثلك لا تتمتّع بذرّة واحدة من الرجولة أو بقبسٍ من الكياسة. وسوف تردّ له المعروف ذات يوم - أقصد أنك سوف تطيح بأحدهم، إذا ما طلب منك ذلك "

سكتُّ مدة ثانية واحدة.

" إذا أردتَ حقاً أن تعرف رأيي، سأقول إنك اغتلتَ حتى الآن مجموعة من الرجال البريئين. سأقول إنك تحمل من المال في جيبك مقداراً كفيلاً بخنق حصان، سأقول إن ضميرك مثقل - وها أنت هنا لكي تغرقه. سأقول إنك تعرف لماذا نهضَتْ تينك الفتاتين فجأة وهرعتا تقطعان الشارع. سأقول إننا لو نتوصّل إلى معرفة كل شيء عنك، ستصبح مؤهّلاً للذهاب إلى الكرسي الكهربائي ... "

twitter @baghdad_library

انقطعت أنفاسي دون مبالغة، فتوقفت عن الكلام ورحت أدلّك فكي بحركة آليّة، وكأني مندهش لاكتشافي أنه ما زال سليماً. ولم يستطع موناهان أن يكبح نفسه أكثر من ذلك، فانفجر في قهقهة مفزعة.

قال " أنت مجنون، مجنون كبقّ الفراش، لكنك تعجبني. تابع، زدني من كلامك. قل أسوأ ما عندك - أريد أن أسمعه ". وبهذا نادى على النادل وأمر بجولة أخرى من المشروب، ثم أضاف " أنت على حق في شيء واحد؛ إنني أحمل مالاً في جيبي. أتحب أن تراه؟ "، وأخرج لفافة من الأوراق الخضراء، وأخذ يرفرفها تحت أنفي، مثل غشّاش في ورق اللعب. " تابع الآن، هات ما عندك! ... "

مرأى الأوراق المالية شتّتَ أفكاري. لم يبق عندي غير فكرة واحدة هي كيف أفصله عن بعضٍ من رشوته الحرام.

باشرت قائلاً، متلبّساً نبرة صوت مختلفة " إن ما قلته لتوي كان بالفعل من قبيل الجنون. ويدهشني أنك لم تسدّد ضربة إليّ. وأعتقد أن أعصابي مرهقة ... "

قال مونوهان " لست مضطراً إلى أن تقول هذا لي أنا "

لبَّستُ صوتي مزيداً من النبرة الاسترضائية، وتابعت بصوتٍ هادئ " دعني أحكي لك قليلاً عن نفسي "، وببعض اللمسات أوجزتُ وضعي في المزلجة الشيطانية الكونية، وعلاقتي بأوورورك، مخبر الشركة، وطموحي لأصبح كاتباً، وتردّدي على جناح المضطربين عقلياً، وما إلى ذلك. حكيت له ما يكفي لإعلامه أني لست حالماً. وقد أثّرَ فيه ذكر اسم أوورورك. وكان رئيس موناهان في العمل هو أخو أوورورك (كما علمت جيداً) وكان يخشاه.

" وأنت تصاحب أورورك؟ "

قلت " إنه صديق كبير لي. رجل محترم، ويكاد يكون بمثابة الأب لي. تعلّمت منه شيئاً عن الطبيعة الإنسانية. إن أورورك إنسان كبير يؤدي عملاً صغيراً. موقعه الحقيقي في مكان آخر، لا أدري أين. إلا أنه يبدو راضياً بما هو عليه الآن، على الرغم من أنه يرهق نفسه بالعمل. وما يغيظني هو أنَّ لا أحد يقدِّره حق قدره "

واصلت كلامي على هذا المنوال، أمجِّدُ فضائل أورورك، مُغفِلاً برهافة شديدة المقارنة ما بين مناهج أورورك في العمل وتلك التي يتبنّاها رجل المباحث.

كانت كلماتي تعطي الأثر المقصود، وكان موناهان وبجلاء يذبل ويرقّ كإسفنجة.

أخيراً انفجر قائلاً " لقد أخطأتَ فهمي. أنا أملك قلباً كبيراً كغيري من الناس، كل ما في الأمر أني لا أظهِرَهُ. لا يمكن للرجل أن يتنقّل مستعرضاً ذاته - ليس في هذا النوع من الأعمال. ونحن لسنا جميعاً مثل أورورك، أوافقك على هذا، لكننا بشر، وحق المسيح! أنت مثاليّ، هذه هي مشكلتك. وتبغي الكمال ... "، ورماني بنظرة غريبة، وغمغم بينه وبين نفسه. ثم تابع بصوت هادئ، واضح " إنك كلما تكلمتَ أعجَبْتَني أكثر. أنت تتمتّع بسِمَةٍ كنت أتمتع بها ذات يوم. حينئذ كنت أخجل منها ... كما تعلم، يخشى المرء أن يبدو مخنثاً أو ما شابه. إن الحياة لم تفسدك - هذا ما أحبه فيك. أنت تدرك فحوى الأمر ومع ذلك لم تتحوّل إلى إنسان بغيض أو خسيس. وقبل قليل قلتَ بعض الأشياء السيئة جداً، والحق أقول لك، أوشكت أن أسدّد لك ضربة. لِمَ لمْ أفعل؟

twitter @baghdad_library

لأنك لم تكن تخاطبني: كنت تتوجّه إلى كل مَنْ يشبهني ممَّن حادوا عن جادة الصواب في مكان ما. يبدو كلامك شخصياً، لكنه ليس كذلك. أنت تخاطب العالم طوال الوقت. كان ينبغي أن تصبح واعظاً، أتدرك هذا؟ أنت وأورورك تشكّلان فريقاً جيداً. أنا جادّ. إن أمثالنا لديهم عمل يقومون به ولا يستمدّون أي متعة من أدائه؛ أما أمثالكما فيعملون لمجرد المتعة. زيادة على ذلك ... حسن، لا عليك ... اسمع، اعطني يدك ... ". مدَّ يده ليتناول يدي الحرّة وقبض عليها بشدّة. " كما ترى " - أجفلتُ حين زاد الضغط - " كان في استطاعتي أن أعصر يدك حتى تغدو عجينة. ولم أكن لأضطرّ إلى التمهيد. كان في إمكاني أن أجلس هكذا، أتحدث إليك، وأنظر إليك مباشرة، ومن ثم أسحق يدك حتى تصبح عجينة. هذه هي قوتي "

أرخى قبضته وسحبتُ يدي بسرعة. كانت خَدِرَة، مشلولة.

تابع قائلاً " أمر سهل، كما ترى. هذه قوة حيوانية بلهاء؛ أما أنت فتتمتّع بقوة من نوع آخر، وأنا أفتقدها. أنت تستطيع أن تصنع مني لحماً مفروماً بلسانك ذاك. أنت صاحب عقل "، أشاح ببصره، وكأنما بشرود. قال، كالحالم " كيف حال يدك؟ لا أظنني آلمتك؟ "

تحسّستها بيدي الأخرى. كانت رخوة وعاجزة.

" أعتقد أنها بخير "

أخذ يمعن النظر فيّ، ثم انفجر يقول بخفّة " أنا جائع. فلنتناول شيئاً من الطعام "

نزلنا إلى طابق سفلي وتفحّصنا المطبخ قبل أن نأكل. وطلب مني أن أتبيّن مدى نظافة كل شيء: أخذ يتنقّل في المكان يلتقط سكاكين التقطيع والسواطير، ويرفعها عالياً في وجه الضوء لكي أتفحّصها وأستحسنها.

لوّح بأحد السواطير وهو يقول " كان يجب أن أقطع أحدهم ذات مرة بواحد من هذه. أشقّه نصفين، بسهولة شديدة "

أمسك ذراعي برقّة وقادني ونحن عائدان نرتقي الدرج. قال " هنري، سنكون من الأصحاب. وسوف تخبرني المزيد عن نفسك - سوف تدعني أساعدك. أنت لديك زوجة - وجميلة أيضاً ". ارتجفت رجفة لا إرادية. شدّ قبضته على ذراعي وقادني إلى المائدة.

" هنري، فلنتحدث بصراحة على سبيل التغيير. أنا أعرف بعض الأشياء، وإن كان لا يبدو عليّ ذلك ". فترة صمت. " أبْعِدْ زوجتك عن ذلك المربّع! "

كدت أقول: " أي مَربّعْ؟ "، لكنه تابع قائلاً " يمكن للرجل أن يتورّط في أشياء كثيرة، ويخرج منها نظيفاً - أحياناً. أما المرأة فأمرها مختلف. ليست لائقة رؤيتها تعمل هناك، مع أولئك التافهين المخمورين، ما رأيك؟ فتِّش عن سبب تمسُّكها بالعمل هناك. لا تغضب الآن ... أنا لا أحاول أن أجرح مشاعرك. أنا لا أعرف أي شيء عن زوجتك - أقصد، ليس أكثر مما سمعت ... "

قلت بلا تفكير " إنها ليست زوجتي "

قال بنعومة، وكأن هذا تفصيل ليست له أي أهمية " حسن، كائناً ما كانت بالنسبة إليك، أبعدها عن ذلك المربع! أقولها لك كصديق. أنا أعرف عمَّ أتحدث "

بدأت أجري حساباتي، بسرعة، وتشنّج. انتقلَ ذهني بسرعة عائداً إلى فلوري وهانا، إلى خروجهما المفاجئ. هل كانت ستحصل مداهمة، اجتياح - أم تفتيش عام؟ هل كان يحاول أن يحذّرني؟

twitter @baghdad_library

لابد أنه خمَّن ما كان يدور في ذهني، ذلك أن ما نطق به بعد ذلك كان: " إنْ كان لابد لها من أن تعمل دعني أحاول أن أجد لها شيئاً ما. يمكنها أن تتولّى عملاً آخر، أليس كذلك؟ إنَّ فتاة جميلة مثلها ... "

قلت " دعنا من هذا الموضوع، وشكراً على فكرتك "

تابعنا تناول الطعام صامتين فترة من الوقت. ثم، بدون أي مناسبة، أخرج موناهان حزمة الأوراق المالية الضخمة وانتشل منها ورقتين من فئة الخمسين دولاراً. وضعهما إلى جانب طبقي. قال " خذهما، وضعهما في جيبك. لِمَ لا تدعها تجرِّب العمل في المسرح؟ ". ثم أخفض رأسه ليجرف ملء شوكة من السباغيتي إلى فمه. أخذت الورقتين النقديّتين وحشرتهما بهدوء داخل جيب بنطالي.

حالما تمكّنت من التحرّر منه انطلقت لأقابل مونا أمام صالة الرقص. كنت في مزاج غريب.

كان رأسي يدور قليلاً وأنا أنطلق بمرحٍ باتجاه برودواي. كنت قد قررت أن أبتهج وأفرح، على الرغم من أنه كان يخيّل إليّ أنَّ لدي سبباً لأكون عكس ذلك. فالوجبة وجرعات ما قبل الفراق التي نجح موناهان في دفعها إليّ أنعشتني بصورة ما. شعرت أني ضخمٌ ومترف، وفي مزاجٍ يسمحُ لي بالاستمتاع بأفكاري الخاصة، بأني " منتشٍ "، على حد تعبير كرونسكي. ولطالما كان هذا يعني لي أن أكون سعيداً دون أي سبب مفهوم. فقط سعيد، وأعرف أني سعيد، وأبقى سعيداً مهما قالوا عني وفعلوا. لم يكن فرحاً بسبب الكحول؛ قد تكون كؤوس الويسكي ساهمت في تكوين مزاجي، ولكن لا أكثر. لم يكن ذلك ذاتاً تحتيّة تبرز - بل كانت ذاتاً تأتي من فوق، إذا صح لي أن أقول هذا. ومع كل خطوة

اتخذتها كانت تنطلق أبخرة الكحول؛ ويزداد صفاء ذهني بصورة مخيفة.

أثناء مروري بدار المسرح ألقيت نظرة سريعة على لائحة الإعلانات فتذكّرت وجهاً مألوفاً. عرفته، عرفت اسمه وكل شيء عنه، ودهشت ولكن - ولأكن صادقاً هنا أقول إني كنت من فرط الدهشة مما يحدث داخلي بحيث لم يتح لي الزمان أو المكان لأصاب بالدهشة بسبب ما حدث لشخصٍ آخر. سوف أعود إليه، وهو امرأة، لاحقاً، بعد أن يزول الشعور بالانتشاء. وبينما أنا أعدُ نفسي بهذا، مَنْ قابلت مصادفة غير صديقي العزيز بيل وودرَفْ.

مرحباً، مرحباً، كيف حالك، نعم الحمد لله، لم أرك منذ مدة طويلة، ماذا تفعل في هذه الأيام، كيف حال زوجتك، أراك في وقتٍ لاحق، نعم أنا مستعجل، طبعاً سألقاك، إلى اللقاء، وداعاً ... هكذا مضى اللقاء، رات - ا - تت - تت. جسمان صلبان يرتطمان في حيِّزٍ في توقيت خاطئ، يتلامسان معاً، يتبادلان التذكارات، يوصلان الأرقام الخطأ، يطلقان الوعود ويؤكدان تلك الوعود، ينسيان، يفترقان، يتذكّران من جديد ... بعجلةٍ، بحركة آليّة، بلا معنى، وماذا يضيف هذا كله بحق الجحيم؟

بعد مرور عشر سنوات بدا وودرف كما كان دائماً. أردت أن ألقي نظرة إلى نفسي في المرآة - بسرعة. عشر سنوات! وأراد أن يسمع الأخبار كلها بمنتهى الإيجاز. ابن حرام أبله! ذو نزعة عاطفية. عشر سنوات. عدت بذاكرتي عبر السنين، على طول رواقٍ ملتوٍ وُضعَت مرايا على كلا جانبيه. وصلت إلى تلك البقعة بالضبط إلى الزمان والمكان المحدَّدين حيث ثبتت صورة وودرف في ذهني والتي سأبقى أتذكّره بها ما

twitter @baghdad_library

حيـيت، حـتى فـي العـالم الآخـر. لقـد ثُبِّتَ هناك، وكـأنه عـيِّنة مـجنَّحـة موضوعة تحت المجهر. هناك كان يدور عاجزاً حول محوره. وهناك تدخّلت " هي " - تلك التي وَمَضَتْ صورتها في سماء مخيِّلتي لدى مروري بدار المسرح. إنهـا المرأة التي كـان مدلّهاً بحبهـا، التي لم يسـتطع أن يعـيش بدونهـا، وكـان على الجمـيع أن يسـاعـدوه على التوددُّ إلـيهـا، حـتى أمـه وأبوه، حتى صهره البروسي البغيض الذي يكرهه من أعماقه.

إيدا فـرلين. ولدت لتـحـمل هذا الاسم. كـانت بـالضـبط مـثـل رنين اسمـهـا - جـميلة، تـافـهـة، مـتـكلِّفـة، خائنة، أفـسـدهـا الـتدليل، والدلاعـة والغنج. جميلة كدمـية درسدن، فيـما عدا أنَّ لـها ضفـائر فاحمة وانحـرافاً في روحـهـا كـانحـرافِ سِحنة إنسـانِ جـاوا. هذا إن كـان لهـا روح أصـلاً! كـانت تعـيش بجـسـدهـا وحـده، بحـواسـهـا، بشـهـواتهـا - وكـانت تدير العـرض، عـرض الجـسـد، بإرادتـهـا الصـغـيـرة الاسـتـبدادية التي فـهـمـهـا المسكين وودرف على أنها قوة هائلة في شخصيتها.

إيدا، إيـدا ... كـان يهلكنا وهو يمضغ آذاننا بالتـحدُّث عنها. كـانت رقـيقـة بطريقـة منحـرفـة، كإحدى عـاريات كـراناك[٤٠]. الجسم رائـع الحسن، والشـعـر أسـود فـاحم، والروح تميل نحـو الخلف، كـحـجـرٍ يغـادر مـوضـعـه المصري. كـانا أثنـاء تـبـادل الغـزل يثـيـران شـجـاراً مـخـزيـاً؛ كـثـيـراً مـا كـان وودرف يتـركـهـا وهي تبـكي. وفي اليـوم التـالي يرسـل إليـهـا أزهارَ السـحلبـيـة أو قـلادة جـمـيلة أو علبـة ضـخـمـة من الشـوكـولاة. وكـانت إيدا تبتلع كل شيء، مثل عرّافة. كـانت بلا قلب ولا تشبع.

أخيراً أقنعـهـا بعـد إلحاح بقبـول الزواج منه. ولابد أنـه رشـاهـا، لأنـه

٤٠ – لوكاس كراناك (١٤٧٢ – ١٥٥٣) : رسام، وحفّار على الخشب. ألماني. – المترجم.

كان واضحاً أنها تمقته. وبنى عشاً صغيراً جميلاً للحب كلَّفه أكثر من طاقته بكثير، واشترى لها ملابس وأشياء أخرى كانت تشتهيها، وكان يصحبها إلى المسرح مرات عدّة في الأسبوع، ويحشوها بالحلوى، ويجلس إلى جانبها ويمسك بيدها عندما تنتابها آلام الطمث، ويستشير طبيباً مختصّاً إذا ما أصيبت بالسعال، وبشكل عام لعب دور الزوج المدلّه، الشغوف.

كان كلما أغدقَ عليها قلّ اهتمامها به. كانت حيواناً متوحشاً من رأسها وحتى أخمصها، وشيئاً فشيئاً عرفنا أنها كانت باردة جنسياً. وطبعاً لم يصدِّق أحد منا هذا، ماعدا وودرف. وقد مرَّ بالتجربة نفسها لاحقاً، مع زوجته الثانية، ولو أن الله أطال في عمره لمرَّ بها مع زوجة ثالثة فرابعة. مع إيدا كان افتتانه شديداً جداً، بحيث لو أنها فقدت ساقيها لما غيَّر ذلك من افتتانه قيد أنملة - في الواقع، كان يحبها أكثر من ذي قبل.

على الرغم من مثالب وودرف هذه كلها كان شديد الحرص على صداقاته. فقد احتفظ بصداقة على الأقل ستة منا بكل إخلاص ووضع كامل ثقته فيهم. وكنت أحد هؤلاء - بل صديقه الأكثر حميميّة، في الواقع. حظيتُ بامتياز الدخول إلى بيته والخروج منه متى أشاء؛ وكان في استطاعتي أن آكل، وأنام، وأستحمّ، وأحلق ذقني هناك. وأصبحت أحد أفراد العائلة.

كرهتُ إيدا منذ البداية، ليس بسبب سلوكها مع وودرف، وإنما بدافعٍ غريزي. إيدا بدورها كانت تبدو منزعجة في حضوري. لم تكن تعرف بالضبط كيف تعاملني. فأنا لم أنتقدها قط ولا حتى امتدحتها؛ كنت

twitter @baghdad_library

أتصرَّف وكأنها زوجة صديقي، لا أكثر. ولم تكن راضية عن موقفي هذا، طبعاً. أرادت أن تخضعني لسيطرتها، أن تجعلني أمشي على حبل مشدود، كما فعلت مع وودرف ومع متوددين آخرين إليها. والغريب في الأمر أني لم أكن مرة منيعاً ضد مفاتن امرأة كما كنت معها. فأنا تجاهلتها، كإنسان، مع أني كثيراً ما تساءلت كيف هي جنسياً. تساءلت حول ذلك بحياد، غير أن تساؤلي وصلها بصورةٍ ما، وتغلغل فيها.

أحياناً، بعد تمضية أمسية معهما، كانت تتذمر علانية قائلة إنها لا تريد أن تُترَك وحدها معي. ويكون وودرف على عتبة الباب، يتأهَّب للتوجه إلى العمل، وتتظاهر هي بالقلق. وأكون أنا متمدّداً على السرير أنتظر كي تُحضِرَ لي طعام الإفطار. ويقول وودرف لها: " لا تقولي هذا، يا إيدا، لن يؤذيك - إني أأتمنه على حياتي "

أحياناً كنت أنفجر ضاحكاً وأصرخ: " لا تقلقي يا إيدا، لن أغتصبك، أنا عنين "

تزعق، متظاهرة بالهستريا " أنت عنين؟ أنت لست عنيناً. أنت فاسق "

يقول وودرف " احضري له طعام الإفطار! "، وينطلق إلى عمله.

كانت تكره مجرد فكرة أن تخدمني وأنا في السرير. ولم تكن تفعل ذلك إكراماً لزوجها ولم تكن تفهم لماذا ينبغي عليها أن تقوم به لأجلي. وتناول طعام الإفطار في السرير هو أمر لم أفعله دهري، إلا في منزل وودرف. كنت أفعله خصيصاً لأزعجها وأذلّها.

كانت تقول " لماذا لا تنهض وتأتي إلى المائدة؟ "

" لا أستطيع - لدي انتصاب "

" أوه، كفاك كلاماً عن ذاك الشيء. ألا تفكّر إلا في الجنس؟ "

كانت كلماتها تعبِّر ضمناً عن أن الجنس بالنسبة إليها شيء مفزع، قذر وبغيض ببساطة، غير أن سلوكها كان يشير إلى العكس تماماً. لقد كانت عاهرة شبقة، وباردة فقط لأنها تحمل بين أضلعها قلب عاهرة. وإذا مرّرت يدي بين ساقيها وهي تضع الصينية على حجري تقول " أيعجبك هذا؟ تحسَّس قدر ما تشاء، ما دمت قد فعلت. أتمنى أن يشاهدك بيل، لكي يرى أي صديق صدوق له "

ذات يوم قلت لها " لماذا لا تُخبريه؟ "

" الأبله لن يصدِّق. سيعتقد أني أحاول أن أثير غيرته "

وأطلب منها أن تعدَّ الحمَّام لي، فتتظاهر بالتردُّد لكنها تنفِّذ طلبي. وذات يوم، بينما كنت جالساً في حوض الاستحمام أنظِّف نفسي بالصابون، لاحظت أنها نسيت أن تحضر المناشف. فناديتها " إيدا، احضري لي بعض المناشف! "، فولجت الحمّام وناولتنيها. كانت ترتدي رداء استحمام من الحرير وبنطالاً قصيراً من الحرير. وبينما هي تنحني فوق الحوض لتضع المناشف على المنصب انزلق رداء الاستحمام كاشفاً عن جسدها، فانتصبْتُ مرتكزاً على ركبتيّ ودفنت رأسي بين ثدييها. حدث الأمر بسرعة كبيرة حتى أنه لم يتح لها الوقت أن تتمرّد، أو حتى أن تتظاهر بالتمرُّد. وفي الحال جررتها إلى الحوض، بجوربها وكل شيء. زلقت الرداء عنها ورميته على الأرض. وتركت الجورب عليها - كان يجعلها تبدو أشدّ فسقاً، وأقرب إلى نمط كارناك. استلقيت على ظهري وجعلتها فوقي. كانت حامية كعاهرة، تعضني في كل مكان، وهي تلهث، وتشهق، وتتلوى كدودة في صنارة. وأثناء ما كنا نجفّف أنفسنا

twitter @baghdad_library

انحنَتْ وبدأت تقضم أيري برفق. جلستُ على حافة الحوض وركعتْ هي عند قدميّ وأخذت تلتهمه. بعد قليل جعلتُها تقف على قدميها ثم تنحني؛ وأعطيتها إياه من الخلف. كان لها كس صغير رطب طابقني كالقفّاز. عضضتُ مؤخّر عنقها، وشحمتيّ أذنيها، والنقطة الحسّاسة على كتفها، وبينما كنت أنسحب منها تركتُ آثار أسناني على طيزها البيضاء الجميلة. لم ينطق أي منا بأي كلمة. وبعد أن انتهينا ذهبت إلى غرفتها وبدأت ترتدي ملابسها. سمعتها تترنّم بنعومة لنفسها. وأذهلني تماماً أنها كانت قادرة على التعبير عن رقّتها بتلك الصورة.

منذ ذلك اليوم أصبحت تنتظر رحيل وودرف لكي تنطرح عليّ.

ذات مرة سألتها " ألا تخشين أن يعود عودة غير متوقّعة ويجدك معي في السرير؟ "

" لن يصدِّق عينيه. وسيعتقد أننا نهرِّج "

" لن يعتقد أننا نهرِّج إذا ما شعر بهذا " ونخعتها بقوةٍ جعلتها تشهق.

" يا إلهي، ليته يعرف كيف ينالني! إنه شديد اللهفة. إنه يُخرِجه مثل عصا المكنسة ويقحمه قبل أن يتاح لي أن أشعر بأي شيء. إنني أكتفي بالتمدُّد وأتركه يقوم بالعمل كله - وينتهي في لمح البصر. أما معك فإني أحمي حتى قبل أن تلمسني. والسبب، أعتقد، يعود إلى أنك لا تأبه للأمر. أنا لا أعجبك، أليس كذلك؟ "

قلت، وأنا أسدِّد لها طعنة قوية " أنا يعجبني هذا. أحب كسّك يا إيدا ... إنه أفضل ما فيك "

قالت " كلب، يجب أن أكرهك على قولك هذا "

" لِمَ لا تكرهينني إذن؟ "

غمغمت، وهي تتضامّ أكثر معي وتجتهد في عملها حتى الهذيان، " أوه، كفاك كلاماً عن هذا، فقط أبقه هناك وشدّني إليك. خذ، عضّ ثديي ... ليس بقوة ... نعم، هكذا "، وتناولت يديّ وضغطت أصابعي داخل شقّها. تمتمت، وعيناها تدوران في محجريهما، وأنفاسها تزداد قصراً " هيا، افعل، افعل! "

بعد قليل، وعلى مائدة الغداء، قالت " هل أنت مضطر إلى الذهاب الآن؟ ألا نمكث مدة أطول؟ "

" تريدين أن أقحمه مرة أخرى، أليس كذلك؟ "

" ألا تستطيع أن تحسِّن من ألفاظك؟ يا إلهي، لو تسمعك أذن بيل تقول هذا! "

" أظنك لا ترتدين ملابس داخلية، صح؟ أنت عاهرة، أتدركين هذا ؟"

نزعتُ عنها ثوبها وجعلتها تجلس هكذا عارية ريثما كنت أنهي شرب قهوتي.

" العبي به قليلاً ريثما أنهي هذا "

قالت " أنت قذر "، لكنها فَعَلَتْ كما أمرتُها.

" افتحيه بإصبعين من أصابعك. أحب أن أرى لونه. من الداخل يشبه المرجان. مثل أذنيك تماماً. تقولين إن بيل لديه قضيب رهيب. لا أدري كيف ينجح في إدخاله ". قلت هذا وأنا أمدُّ يدي وأتناول شمعة موضوعة على طاولة الزينة إلى جانبي وأعطيتها إياها.

" دعينا نرى إن كان في وسعك أن تدخليها كلها "

twitter @baghdad_library

مـدّت ساقـهـا الأخـرى فـوق الذراع الأخـرى للأريـكة وباشـرت في إدخالها. كانت تراقب نفسها عن كثب، وشفتاها منفرجتين وكأنها على شفا أن تحصل على رعشة جنسية. وبدأت تتحرّك خلفاً وأماماً، ثم تحرِّك مؤخرتها بحركة دورانيّة، ودفعت كرسيها أكثر إلى الخلف، ثم ركعتُ ورحتُ أراقب.

" أنت تدفعني إلى فعل أي شيء، أيها الشيطان القذر "

" ألا تحبّين ما تفعلين؟ "

كادت تنجح. سحبتُ الشمعة إلى الخارج وزلقتُ ثلاثة من أصابعي داخل كسّها.

قرَّبتْ رأسي وعضّتْ شفتيَّ. " أليس كبيراً إلى حدٍ يكفيك؟ "

نهضت واقفاً وحللتُ فتحة بنطالي. وفي الحال أخرجَتْه وأدْخَلَتْه في فمها، وأخذت تلتهمه، وتلتهمه، كصقرٍ جائع. وقذفتُ في فمها.

قالت، وهي تختنق وتبقبق " يا الله، لمْ أفعل مثل هذا من قبل "، وهرعت إلى الحمَّام، وكأنها ابتلعت سُمَّاً.

ولجتُ إلى الداخل وارتميتُ على السرير. أشعلتُ سيجارة وانتظرتها لتنضمّ إليّ؛ كنت أعلم أنها ستكون علاقة طويلة الأمد.

عادت مرتدية ثوب الحمّام الحريري، ولا شيء تحته. قالت، وهي تزيح الأغطية جانباً وتغوص معي " انزع ملابسك ". ولبثنا هناك يلاطف كلٌ منا الآخر، وكسّها ينضحُ سائلاً.

قلت " رائحتك مُسكِرة. ماذا فعلتِ؟ "

أبعدَتْ يدي عنها ووضعتها أمام منخري.

قلت " لا بأس بها. ما هذا؟ "

" خمنٍ! "

نهضتْ باندفاعٍ، ومضت إلى الحمّام ثم عادت مع زجاجة عطر. رشّت بعضاً من محتواها في يدها وفَركَتْ بها أعضائي التناسلية؛ ثم نثرتْ بضعَ قطراتٍ على شعر العانة. لسعتني كالنار. فقبضت على الزجاجة ونقعتها بمحتواها، من رأسها إلى أخمصها. ثم أخذتُ ألعقُ تحت إبطيها، وأمضغ شعر حول كسّها، وأزلق لساني كالأفعى داخل شق بين فخذيها. فتخبّطت كأنما تنتابها تشنّجات عنيفة. استمرَّ الأمر هكذا إلى أن حدث لدي انتصاب هائل بحيث أنه حتى بعد أن ولجتها به ظلَّ منتصباً كمطرقة. وهذا أثارها حتى الجنون. أرادت أن تجرب أنواع الأوضاع كافة وفعلت ما أرادت. ووصلت إلى الرعشة مرات عدّة متتالية وكادت تفقد وعيها خلال ذلك. مدّدتُها على طاولة صغير وعندما أوشكت أن تنفجر حملتُها ورحت أطوف بها أرجاء الغرفة؛ ثم أخرجته منها وجعلتها تسير على يديها، وأنا أمسك بها من فخذيها، وبين حين وآخر أُخرجه منها لكي أثير جنونها أكثر.

كانت شفتاها قد مُضِغَتا حتى اهترأتا وكان جسدها مغطّى بالعلامات الخضراء والزرقاء، وكان في فمي طعمٌ غريبٌ لغراء السمك والقنال ٩٧٦ ونصف. وبدا أيري أشبه بخرطوم مرضوض؛ مدلّى بين ساقيّ، وأطول بمقدار إنش أو اثنين من طوله الاعتيادي ومنتفخاً حتى لم أعد أتعرّف عليه. وحينما وصلت إلى الشارع شعرت بوهنٍ في ركبتيّ، فلجأتُ إلى إحدى الصيدليات وابتلعتُ كمية من الحليب المملّت. قلت في نفسي، نكاحُ مَلَكيّ، وتساءلتُ كيف ستكون ردّة فعل وودرف حين سأقابله ثانية.

twitter @baghdad_library

وقعتْ سلسلة من الأحداث السريعة لوودرف. أولاً فَقَدَ عمله في المصرف. ثم فرّت إيدا منه مع أحد أعزّ أصدقائه. وحين اكتشف أنها ظلت تضاجع الرجل قبل أن تفرّ، استولى عليه اكتئاب شديد حتى أنه ظل مدة عام وهو في حالة ضياع تامّ. وبعد ذلك صدمته سيارة فانشقّت جمجمته. ثم أصيبت أخته بالجنون، وأضرمت النار في المنزل فاحترقت هي وأطفالها أحياءً.

لم يفهم لماذا حدثت هذه الأمور كلها له، بيل وودرف، الذي لم يؤذِ أحداً في حياته.

كنت أصادفه بين حين وآخر في شارع برودواي فنتوقف عند ناصية أحد الشوارع ونتحدث قليلاً. لم يكن يعطي أدنى تلميح إلى أنه كان يشكّ في أني كنت أعبث مع محبوبته إيدا. أصبح الآن يتكلّم عنها بمرارة، بوصفها عاهرة ناكرة للجميل لم تظهر له أي قبس من عاطفة. ولكن كان جليّاً أنه ما يزال على حبه لها. إلا أنه بدأ يعاشر فتاة أخرى، مقلّمة أظافر، ليست جميلة مثل إيدا، لكنها مخلصة وجديرة بالثقة، كما قال. وقال " أريد منك أن تقابلها ذات يوم ". فوعدته بأن أفعل – ذات يوم. ثم، عند الفراق، قلت له " ما هي أخبار إيدا، ألديك علم؟ "

" إنها تعمل في مجال المسرح. يبدو أني خُدِعتُ بها وأخِذْتُ بمنظرها – لم تكن تتمتع بأي موهبة، وإلا للاحظتها "

إيدا فرلين. كنت ما أزال أفكر فيها وفي تلك الأيام الحرة والرخيّة من الماضي وأنا أتّخذ لي موقفاً عند مدخل صالة الرقص. تبقّى لدي بضع دقائق لأبدّدها. وكنت قد نسيت أمر النقود التي في جيبي. كنت ما أزال مثبّتاً بقوة إلى الماضي. وأتساءل إن كنت سأتوقّف ذات يوم عند

دار المسرح وألقي نظرة إلى إيدا من منتصف الصف الثالث، أو أرتقي إلى غرفة ملابسها ونتبادل حديثاً حميماً قصيراً بينما هي تتبرَّج. وتساءلتُ إن كان جسدها ما يزال أبيض ناصعاً كما كان. حينئذ كان شعرها الفاحم طويلاً ويتدلّى على كتفيها. كانت بالفعل كسّاً ساحراً. كسٌ صرف، هذا ما كانت عليه. وكان وودرف شديد الارتباك معه وهو الشديد البراءة، شديد التدلّه. وأذكر أنه قال ذات مرة أنه كان يقبّل طيزها في كل ليلة، ليريها أي عبد مخلص هو. والغريب أنها لم تتبوّل عليه قط. لقد استحقّ ما نال، ذلك الأبله!

ثم تذكّرت شيئاً أثار ضحكي. فالرجال دائماً يعتقدون أنَّ الحصول على أير ضخم هو أحد نِعَمَ الحياة العظمى. يعتقدون أنه يكفي أن يهزّه الرجل في وجه امرأة حتى تصبح ملكاً له. حسن، إن كان هناك مَنْ يملك أيراً ضخماً فهو بيل وودرف. كان أير حصان بكل معنى الكلمة. وأذكر أول ما رأيته - لم أكد أصدِّق عينيّ. كان ينبغي أن تكون إيدا عبدة له، إن كان كل ذاك الحديث عن الأير الضخم صحيح. لقد ترك أثره عليها بدون أدنى شك، ولكن بطريقة خاطئة. لقد أثار رعبها الشديد. جمّدها. وكان كلما زاد من إقحامه وإدخاله، يزداد انكماشها. وكان في إمكانه أيضاً أن ينكحها من بين ثدييها، أو من تحت إبطيها. كانت يمكن أن تستمتع بهذا أكثر، ولاشك في ذلك. ومع ذلك، لم تكن مثل هذه الأفكار تخطر ببال وودرف. كان سيعتقد أنها مهينة. فلا يمكنه أن يطلب من المرأة التي يؤلّهها أن تسمح له أن ينكحها من بين ثدييها. ولم أسأله أبداً كيف حصل على أيره. لكن طقس لعق الطيز ذاك يجعلني أبتسم. صعبٌ أن يكون المرء مجنوناً بحب امرأة ومن ثم يكتشف أن الطبيعة قد خدعته خدعة خسيسة.

twitter @baghdad_library

إيدا فرلين. كان لدي إحساس داخلي ينبئني بأني سأقوم بزيارتها قريباً. لن تكون كما كانت ذات كسّ ناعم، يجب ألاّ أخدع نفسي. سيكون الآن قد سُحِلَ جيداً، إن كنت أعرف إيدا. ومع ذلك، إن كان قد تَبقّى فيه أي سائل، إن كانت طيزها ما تزال ناعمة، ملساء الملمس، فإنها تستحق أن أجرّبها مرة أخرى.

بدأت أحصل على انتصاب جراء تفكيري هذا.

انتظرت مدة نصف ساعة أو أكثر، ولا أثر لمونا. قررت أن أرتقي إلى الطابق العلوي لأستعلم. علمت أنها عادت إلى المنزل باكراً - بسبب إصابتها بآلام الشقيقة.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع.

لم أعرف سبب مغادرتها صالة الرقص باكراً إلا في مساء اليوم التالي، بعد العشاء. كانت قد تلقَّتْ رسالة من البيت فانطلقت خارجة لتزور والديها. لم أضغط عليها لتتكلّم، لعلمي بمدى تكتُّمها فيما يخصُّ حياتها الأخرى تلك. ولكن، لسبب ما، كانت توّاقة إلى أن تفضي بما في صدرها. وكالمعتاد، راحت تدور وتلفّ بدوائر مبهمة . وكان صعباً فهم أي شيء من حكايتها. كل ما استطعت أن أفهمه هو أنهم في محنة - وكانت تقصد بـ " هم " العائلة كلها، بما فيها ثلاثة أخوة وزوجة أخيها.

سألتها ببراءة " هل يعيشون جميعاً تحت سقفٍ واحد؟ "

قالت، وقد توتّرت بشكل غريب " لا أهميّة لهذا ولا علاقة له بالأمر "

لم أنطق بأي كلمة بعض الوقت. ثم غامرت وسألتها عن أختها، التي كانت قد أخبرتني أنها حتى أجمل منها - " غير أنها عادية جداً "، حسب تعبيرها.

" ألم تقولي إنها متزوجة؟ "

" نعم، طبعاً متزوجة؟ "

سألتها، وقد بدأت أتضايق أنا نفسي " أي أمر؟ "

" حسن، عمَّ نحن نتحدث؟ "

ضحكت. " هذا ما أردت أن أعرفه. ما هو؟ ماذا تحاولين أن تخبريني؟ "

" أنت لا تصغي. إنها أختي - أعتقد أنك لا تصدِّق أن لي أختاً؟"

" لماذا تقولين هذا؟ طبعاً أصدقك. كل ما في الأمر أني لا أصدِّق أنها أجمل منك "

قالت بحِدَّة " حسن هي كذلك، صدِّق أو لا تصدِّق، وأنا أحتقرها. ليس غيرةً منها، إنْ كان هذا ما تظنّه. أنا أحتقرها لأنها مجرَّدة من الخيال. إنها ترى ما يجري ولا تحرِّك ساكناً. إنها أنانية إلى أقصى حد "

قلت برقة " أعتقد أنها المشكلة ذاتها تتكرَّر - إنهم يريدون أن يساعدوك. في الواقع، ربما أستطيع ... "

" أنت! وماذا تستطيع أنت أن تفعل؟ أرجوك يا فال، لا تبدأ بالكلام هكذا "، وضحكت ضحكاً هستيرياً، " يا إلهي، هذا يذكّرني بأخوتي. كلهم يقدّمون اقتراحات - ولا واحد منهم يفعل أي شيء "

" ولكن، مونا، أنا لا أتكلَّم في الهواء. أنا ... "

التفتت نحوي ورمتني بنظرة ضارية. " أنت لديك زوجة وابنة تعتني بهما، أليس كذلك؟ لا أريد أن أسمع أي شيء عن مساعدتك لي. هذه مشكلتي أنا. كل ما في الأمر أني لا أدري لماذا ينبغي أن أفعل ذلك وحدي. يمكن للشبان أن يفعلوا شيئاً إذا أرادوا. يا إلهي، إنني أعيلهم منذ سنين عديدة. لقد علتُ العائلة بأكملها - وها هم الآن يطلبون المزيد. لم أعد أستطيع ذلك. هذا ليس عدلاً ... "

twitter @baghdad_library

ساد صمتُ ومن ثم تابعت قائلة " أبي رجل مريض - لا أتوقع أي شيء منه. ثم إنه الوحيد الذي أحبه. لولاه لأدرتُ ظهري - لانطلقتُ وتركتهم على حالهم "

سألتها " وماذا عن أخوتك؟ ما الذي يعيقهم عن التصرُّف؟ "

قالت " لا شيء غير الكسل. لقد أفسدتُهُم بالدلال. جعلتُهُم يعتقدون أنهم عاجزون عن التصرُّف "

" أتقصدين أنه لا أحد منهم يعمل - ولا أي واحد منهم؟ "

" أه نعم، بين حين وآخر يحصل أحدهم على عمل بضعة أسابيع ومن ثم يتركه لسبب سخيف. إنهم متأكدون من أني سأهرع دائماً إلى إنقاذهم "، ثم انفجرت قائلة " لا أستطيع الاستمرار في العيش على هذا المنوال! لن أدعهم يدمّرون حياتي. أريد أن أعيش معك - وهم يبعدونني عنك. لا يهمّهم ماذا أعمل مادام ذلك يجلب لهم النقود. نقود، نقود. يا إلهي، كم أكره هذه الكلمة! "

قلت برفق " ولكن مونا، أنا معي بعض النقود وهي لك. نعم، معي، انظري! "

أخرجتُ ورقتين نقديتين كلٌ منهما بقيمة خمسين دولاراً ووضعتهما في يدها.

ذُهلتُ حين بدأت تضحك، ضحكاً مريباً، ثلاثيّ الشُعَب أخذ يصبح منفلتاً أكثر فأكثر. طوّقتها بذراعي. " اهدئي، مونا، اهدئي ... إنك مضطربة جداً "

طفرت الدموع من عينيها. قالت بوهن " لا أستطيع أن أسيطر على نفسي، يا فال، وهذا يذكّرني كثيراً بوالدي. كان يفعل الشيء نفسه.

فحين كانت الأمور تصل إلى أسوأ حالاتها إذا به يظهر لنا حاملاً أزهاراً أو هدية مجنونة. وأنت مثله تماماً. أنتما الاثنان حالمان. لهذا تراني أحبك "، ورمت ذراعيها حولي بحب وبدأت تجهش بالبكاء. وتمتمت " لا تقلّ لي من أين حصلتَ عليه، لا يهمني أن أعرف. لا يهمني إن كنت سرقته. أنا جديرة بأن أسرق من أجلك، ألا أفعل؟ فال، إنهم لا يستحقون النقود. أريد منك أن تشتري لنفسك شيئاً. أو " أضافت بتهوّر " اشتر شيئاً للصغيرة. أحضر لها شيئاً جميلاً، رائعاً - يظل في ذاكرتها إلى الأبد "

قالت، محاولة أن تلملم شتات نفسها " فال، ألا تثق بي؟ أريد منك ألاّ تسألني أسئلة لا أستطيع أن أجيب عنها، أرجوك. عدني! "

كنا جالسين على الأريكة الكبيرة - حملتها على حجري، ومسّدت على شعرها على سبيل الإجابة.

" أتعلم يا فال، لو لم تظهر في حياتي، لا أدري ماذا كان حصل لي. قبل أن أقابلك كنت أشعر - يعني، وكأن حياتي لا تخصّني. لم أكن آبه لما أفعل، ما داموا يتركونني وشأني. لم أعد قادرة على تلبية طلباتهم. أشعر بالمهانة. كلهم عاجز، كلهم. ماعدا أختي. هي تستطيع أن تقوم ببعض الأعمال - إنها عمليّة جداً، من النوع المتّزن. لكنها تريد أن تقوم بدور السيدة الراقية؛ وتقول، ملمِّحة إليّ، " يكفي فرد طائش واحد في العائلة ". تعتقد أني أجلب لهم العار. وتريد أن تعاقبني، بدفعي إلى الانغماس أكثر فأكثر في الأعمال المهينة. إنها تستمتع استمتاعاً شيطانياً برؤيتي وأنا أجلب النقود التي لا أحد يحرِّك ساكناً لكسبها . وتقوم بكافة أنواع التلميحات. في إمكاني أن أقتلها.

twitter @baghdad_library

ووالدي يبدو وكأنه لا يدرك شيئاً عن الوضع. يظن أنها حبّوية - ملائكيّة. ولا يتركها تقدِّم أقلّ تضحية - فهي أرهف من أن تتعرَّض لفساد العالم الوحشي، ثم إنها زوجة وأم. أما أنا ... ". مرة أخرى ترقرقت الدموع في عينيها. " لا أدري مما يعتقدون أني جُبِلتُ. أنا قوية، هذا ما يظنونه جميعاً. أستطيع أن أتحمَّل أي شيء. أنا الطائشة. يا إلهي، أحياناً أعتقد أنهم مجانين، كلهم. من أين يظنون أني أجلب النقود ؟ لا يهمهم ... إنهم حتى لا يجرؤون على سؤالي "

سألتها بعد فترة صمت طويلة " ألن تتحسَّن صحة والدك أبداً؟ "

" لا أدري يا فال "

ثم أردفت " لو أنه ميّت لما اقتربت من الآخرين إلى الأبد. يمكنهم أن يجوعوا حتى الموت، لن أحرِّك ساكناً "

ثم قالت " أتعلم، أنت لا تشبهه أبداً، جسدياً، ومع ذلك فأنتما متشابهان كثيراً. أنت ضعيف ورقيق، مثله. لكنك لم تفسد، مثله. أنت تعرف كيف تعتني بنفسك، حين تريد ذلك - أما هو فلم يتعلَّم قط. كان دائماً عاجزاً. أمي استنزفته. كانت تعامله كما تعاملني، تفعل أي شيء من شأنه أن يلبّي إرادتها ... أتمنى أن تقابله - قبل أن يموت. لطالما حلمت بهذا "

قلت، على الرغم من أني استبعدت حدوث ذلك " لعلنا نتقابل ذات يوم"

" ستحبّه كثيراً يا فال. لديه حسّ رائع بالفكاهة. هو أيضاً راوية حكايات عظيم.أعتقد أنه كان يمكن أن يصبح كاتباً، لو لم يتزوج أمي "

نهضت واقفة وبدأت تصلح من زينتها، وما تزال تتحدَّث بطريقة

محبّبة عن أبيها والحياة التي عاشها في فيينا وفي أماكن أخرى. كان الوقت قد حان لذهابها إلى صالة الرقص.

فجأة استدارت بسرعة عن النظر في المرآة وقالت " فال، لمَ لا تكتب في وقت فراغك؟ لطالما أردت أن تكتب - لمَ لا تفعل؟ لست مضطراً إلى أن تعرِّج عليَّ دائماً. أنت تعلم، أفضِّل كثيراً أن أعود إلى المنزل وأجدك تعمل على الآلة الكاتبة. لا أظنك ستبقى في وظيفتك تلك طوال حياتك، أليس كذلك؟ "

اقتربت مني وأحاطتني بذراعيها. قالت " دعني أجلس في حجرك. اسمع يا عزيزي فال ... يجب ألا تضحّي بنفسك من أجلي. أمر سيئٌ بما يكفي أن يفعل أحدنا هذا. أريدك أن تتحرَّر. أنا أعرف أنَّ في داخلك كاتب - ولا يهمني كم سيمرُّ من وقت قبل أن تغدو معروفاً. أريد أن أساعدك ... فال، أنت لا تنصت إليّ "، ولكزتني برفق، " بمَ تفكِّر؟ "

قلت " أوه، لا شيء. كنت فقط أحلم "

" فال، افعل شيئاً، أرجوك! لا تجعلنا نستمر هكذا. أنظر إلى هذا المكان! كيف وصلت إلى هنا؟ ما الذي تفعله هنا؟ نحن أيضاً مصابان بمسّ من الجنون، أنت وأنا. فال، ابدأ - هذه الليلة، اتفقنا؟ أحب أن أراك متقلِّب المزاج. أحب أن أعتقد أنك تفكِّر في أمور أخرى. أحب أن أسمعك تقول أشياء جنونية. أتمنى لو أستطيع أن أفكر هكذا. إني أهبُ كل ما أملك لأكون كاتبة، لأملك ذهناً وقّاداً، لأحلم، لأنغمس في مشاكل الآخرين، لأفكر في أمرٍ آخر غير العمل والنقود ... أتذكُر تلك القصة التي كتبتها لي ذات مرة - عن توني وجوي؟ لمَّ لا تكتب لي شيئاً مرة أخرى؟ إكراماً لي. فال، يجب أن نحاول أن نعمل شيئاً ... يجب أن نجد مخرجاً. أتسمعني؟ "

twitter @baghdad_library

سمعتها جيداً. كانت كلماتها تتردّد في رأسي كاللازمة.

قفزت واقفاً، وكأني أحاول أن أزيح خيوط العنكبوت عني. أمسكتُ بها من خصرها وضممتها بطول ذراعي " مونا، قريباً ستتبدّل الأمور. قريباً جداً. أشعر بهذا بقوة ... دعيني أوصلك إلى المحطة - أحتاج إلى هواء نقيّ "

لاحظت عليها قدراً ضئيلاً من خيبة الأمل؛ كانت تنتظر موقفاً أكثر إيجابيّة.

قلت، ونحن نسير في الشارع بخطى سريعة " مونا، الإنسان لا يتغيَّر هكذا فجأة، بدون مقدّمات! أريد أن أصبح كاتباً، نعم، أنا واثق من ذلك. ولكن يجب أن أحشد قواي. أنا لا أطلب أن يحدث ذلك بسهولة، ولكن أحتاج إلى قدرٍ من السكينة. لا أستطيع أن أنتقل من حالة إلى أخرى بسهولة شديدة. إني أكره وظيفتي بقدر ما تكرهين أنت عملك. ولا أريد وظيفة أخرى؛ أريد تفرُّغاً كاملاً. أريد أن أنفرد بنفسي بعض الوقت، وأختبر شعوري إبَّان ذلك. إنني لا أكاد أعرف نفسي، في حياتي التي أعيشها حالياً. إنني محاصَر. أعرف كل شيء عن الآخرين - ولا أعرف شيئاً عني. لا أعرف إلا ما أشعر به. وأنا مدمن شعور. وقد استنزفت. أتمنى أن أقضي أياماً، أسابيع، شهوراً، فقط في التفكير. الآن أنا أفكر من لحظة إلى لحظة. إن التفكير رفاهية"

شدَّت على يدي، وكأنما لتبلغني أنها تتفهَّم ما أقول.

" عندما سأعود إلى البيت سأجلس وسأحاول أن أفكّر. قد أستغرق في النوم. يبدو أني لست مهيَّأً إلا للفعل. لقد أصبحت آلة.

وتابعت " أتعلمين بماذا أفكّر أحياناً؟ أعتقد أنه إذا ما توفّر لي

يومان أو ثلاثة هادئة من التفكير الصرف فسوف أقلب كل شيء رأساً على عقب. إن كل شيء في أساسه خاطئ. وذلك لأننا لا نجرؤ على أن نستسلم للتفكير. يجب أن أتوجّه إلى المكتب ذات يوم وأنسف دماغ سبيفاك. تلك ستكون الخطوة الأولى ... "

كنا قد وصلنا إلى المحطة المرفوعة.

قالت " لا تفكّر في هذه الأشياء منذ الآن. اجلس واحلم. احلم بشيء رائع إكراماً لي. لا تفكّر في أولئك الناس الأقزام. فكّر فينا نحن!"

هرعت ترتقي الدرج بخفّة، وتلوّح لي مودّعة.

كنت أتمشّى متمهّلاً في طريق عودتي إلى المنزل، أحلمُ بحياةٍ أخرى، أغنى، حين تذكّرت فجأة، أو هكذا ظننت، أنها تركت الورقتين النقديتين على رف المدفأة تحت مزهرية ملآى بأزهار اصطناعية. تراءتا لي بارزتين جزئياً، تماماً كما تركتهما. وانطلقت أخبُّ. كنت أعلم أنه إذا ما اكتشفَ كرونسكي مكانهما فسوف يسرقهما. سوف يفعل ذلك ليس لأنه غير أمين وإنما لكي يعذبني.

لدى اقترابي من المنزل فكّرت في شلدون المجنون. بل إني بدأت أقلّد طريقته في الكلام، مع أني كنت مقطوع الأنفاس جراء الركض. كنت أضحك مع نفسي وأنا أفتح الباب.

كانت الغرفة خالية والنقود قد اختفت. هذا ما توقعته. جلست وأخذت أضحك من جديد. لماذا لم آتِ على ذكر أي شيء مما دار مع موناهان لمونا؟ لماذا لم أذكر لها أي شيء عن المسرح؟ عادة أفشي لها كل شيء في الحال، ولكن هذه المرة ثمة ما كبحني؛ ارتيابٌ غريزيٌّ في نوايا موناهان.

twitter @baghdad_library

كدت أعرِّج على صالة الرقص لأرى إن كانت مونا قد أخذت بالمصادفة النقود بدون أن أنتبه. ونهضتُ أبغي أن أتّصل بالهاتف ولكن في طريقي لأفعل ذلك غيّرتُ رأيي. تملّكني دافع لتفتيش المنزل قليلاً. تجولّت حتى آخر المنزل وهبطت الدرج. وبعد أن نزلت بضع درجات وجدت غرفة كبيرة تنيرها أضواء مبهرة كان قد عُلّقَ فيها الغسيل ليجفّ. وعند أحد جدرانها وضع مقعد طويل، كما في غرف الدرس، وعليه جلس رجل عجوز ذو لحية بيضاء ويعتمر قلنسوة من المخمل. كان محنياً إلى الأمام، ورأسه يرتاح على ظاهر يده، وتدعمه عصا مشي. بدا كأنه يحدِّق بنظرة فارغة إلى الفضاء.

نظر إليّ نظرة تعرُّف؛ وبقي جسده بلا حراك. كنت قد شاهدت أفراداً عدة من العائلة لكني لم أره قط. حيّيته بالألمانيّة، معتقداً أنه سيفضّلها على الإنكليزية، التي يبدو أنَّ لا أحد يتكلمها في ذلك المنزل الغريب الأطوار.

قال، بلكنة خشنة " تستطيع أن تتكلَّم الإنكليزية إذا شئت "، وهو يحدِّق أمامه مباشرة في الفراغ، كالسابق.

" هل أسبّب لك إزعاجاً؟ "

" لا، أبداً "

حسبتُ أني يجب أن أعرِّفه بنفسي. " اسمي ... "

قال، دون أن ينتظر سماع اسمي " وأنا والد الدكتور أونيريفيك. أعتقد أنه لم يخبرني عنك؟ "

قلت " لا، لم يفعل. على أي حال أنا لا أكاد أقابله "

" إنه رجل مشغول جداً. وربما أكثر مما ينبغي ... "

تابع قائلاً " ولكن ذات يوم سينال عقابه. القتل حرام على الإنسان، حتى ولو كان المقتول لم يولد بعد. المكان هنا أفضل ... توجد سكينة "

سألته، يحدوني أمل في أن أدير دفة تفكيره نحو موضوع آخر. " ألا ترغب في أن أطفئ لك بعض الأضواء؟ "

أجاب " يجب أن يكون هناك نور، مزيد من النور ... مزيد من النور. إنه يعمل في الظلام هناك فوق. إنه شديد الفخر بنفسه. يعمل لصالح الشيطان. الجو أفضل هنا مع وجود الملابس المهلهلة ". صمت برهة. كانت تُسْمَع خلالها قطرات الماء وهي تسقط من الثياب المبللة. سَرَتْ رجفةٌ في جسمي. تخيَّلت الدماء وهي تقطر من يديّ الدكتور أونيريفيك. قال العجوز، وكأنه يقرأ أفكاري " نعم، قطرات من الدم. إنه سفّاح، يكرِّس فكره للموت. هذا هو أحلك ظلام يحلُّ بالفكر الإنساني - قتلُ ما يكافحُ ليولد. حتى الحيوانات حرامٌ قتلُها، إلا عند تقديم الأضاحي. إن ابني يعرف كل شيء - لكنه لا يعرف أنَّ القتل هو أفدح خطيئة. ثمة نور هنا ... نور ساطع ... أما هو فيجلس هناك فوق في الظلام. والده يجلس في القبو، يصلّي لأجله، وهو يذبح، ويذبح فوق. هناك يلطِّخ الدم كل شيء. إن المنزل ملوَّث. المكان هنا أفضل مع وجود الغسيل. ولو في إمكاني لغسلت النقود أيضاً. هذه أنظف غرفة في المنزل. والنور مريح. نور ... نور. يجب أن نفتح لها عيونها لكي ترى. على الإنسان ألاّ يعمل في الظلام. العقل يجب أن يكون صافياً، وعلى العقل أن يعرف ماذا يفعل "

لم أعلّق بأي كلمة. اكتفيتُ بالإنصات بكل احترام، والكلمات الرتيبة والضوء المبهر كانت تمارس ما يشبه التنويم المغناطيسي عليّ.

twitter @baghdad_library

كان للعجوز وجه رجل نبيل وسلوكه؛ فالرداء الفضفاض الذي يرتديه والقلنسوة المخملية التي يعتمرها كانا يبرزان هيئته المترفّعة. وكانت يداه الرقيقتان والحسّاستان جديرين بطبيب جرّاح؛ بعروقهما الزرقاء البارزة الشبيهة بالزئبق. كان يجلس في حصنه الغارق في الضياء مثل طبيبِ بلاطٍ ملكي أُبعِدَ عن أرض وطنه. وذكّرَني بقوة ببعض الأطباء الشهيرين الذين ازدهروا في قصور أسبانيا خلال فترة حكم المسلمين. كانت تحيط به هالة فضّية، موسيقية؛ وكانت روحه صافية وتشعُّ من كلّ سُمٍّ من مسام كيانه.

وفي الحال سمعت وقع أقدام تنتعل خفّاً. كان غومبال قادماً مع ملء طاسٍ من الحليب الساخن. وعلى الفور تبدّلت أسارير الرجل العجوز. استند بظهره إلى الجدار ونظر إلى غومبال بدفءٍ وحنان.

قال، موجِّهاً نظره كله إليّ " هذا ابني، ابني الحقيقي "

تبادلت بعض الكلمات مع غومبال وهو يقرِّب الطاس من شفتيّ الرجل العجوز. كانت مراقبة الهندوسي مشهداً ممتعاً. وعلى الرغم من طابع المهمة العبوديّ إلا أنه كان يؤدّيها بوقار. وكلما كانت الخدمة متواضعة أصبح هو أشدّ نبلاً. بدا وكأنه منيع تماماً ضد الشعور بالحرج والمهانة. ولم يُلغِ ذاته. ظل دائماً كما هو، دائماً هو نفسه بشكل كامل وفريد. وحاولت أن أتخيَّل كيف سيبدو كرونسكي وهو يؤدي مثل هذه الخدمة.

غادر غومبال الغرفة بضع هنيهات ليعود بعد ذلك حاملاً خفّاً دافئاً خاصاً بغرفة النوم. ركع عند قدميّ العجوز، وبينما كان يؤدي هذا الطقس كان العجوز يمسّد برقّة على رأس غومبال.

قال العجوز، وهو يرفع رأس غومبال إلى الخلف وينظر في عينيه محدِّقاً بثبات، " أنت أحد أبناء النور ". ردَّ غومبال على تحديق العجوز

بآخر يتّصف بالضياء الرقراق الصافي نفسه. وكأن كُلاً منهما يغمر كيان الآخر – خزّانان من النور السائل ينتثر كلٌ على الآخر بتبادلٍ مطهِّر. وفجأة أدركت أنَّ الضوءَ المبهرَ المنصبّ من المصابيح الكهربائية غير المُظلّلة لا يقارن بهذا الفيض من النور الذي تنقَّلَ بينهما. لعلَّ العجوز لم يكن واعياً لذاك الضوء المصطنع الأصفر الذي اخترعه الإنسان؛ لعل الغرفة كانت مضاءة بذاك الدفق من النور المنبثق من روحه. وحتى حينئذ، وعلى الرغم من أنهما توقفا عن تبادل التحديق، كانت الغرفة أشدّ ضياءً بشكل محبَّب من ذي قبل. كان أشبه بشفق غروب شمس ناريّة، بنورانيّة عُلويّة.

انسللتُ عائداً إلى غرفة الجلوس لأنتظر غومبال. كان لديه ما يخبرني به. وجدت كرونسكي جالساً على الأريكة يقرأ أحد كتبي. كان ظاهرياً أشد هدوءاً، وسكوناً من المعتاد، ليس مكبوتاً وإنما " مستقرّاً " بصورة غريبة، غير منضبطة.

قال، وقد أجفله حضوري غير المتوقَّع " مرحباً! لم أكن أعلم أنك عدت إلى المنزل. كنت أتفرّج لتوّي على بعض من نفايتك "، ورمى بالكتاب جانباً. كان كتاب " هضبة الأحلام[٤١] ".

قبل أن تتاح له الفرصة أن يعاود مزاحه المعتاد دخل غومبال. مشى باتجاهي حاملاً النقود بيده. أخذتها مع ابتسامة، وشكرته، ووضعتها في جيبي. خيِّلَ لكرونسكي أني أقترض من غومبال. ثار غضبه – بل أكثر من ذلك – سخطه.

انفجر قائلاً " يا إلهي، أأنت مضطر إلى الاقتراض من هذا؟ "

تكلَّمَ غومبال على الفور، لكن كرونسكي قاطعه.

---

٤١ – " هضبة الأحلام " : رواية للكاتب الإنكليزي آرثر ماتشن (١٨٦٣ – ١٩٤٧) . – المترجم .

twitter @baghdad_library

" لستَ مضطراً للكذب عليّ. أنا أعرف خدَعه "

مرة أخرى تكلَّم غومبال، بهدوء، وبإقناع.

قال " السيد ميللر لا يمارس خدَعاً عليّ "

قال كرونسكي " حسن، غلبتني. ولكن يا إلهي، إياك أن تجعل منه ملاكاً. أنا أعرف أنه أحْسَنَ معاملتَكَ - ومعاملة رفاقك كلهم في كتيبة السُعاة - ولكن ذلك لا يعني أنَّ لديه قلباً طيباً ... إنه مولع بكم معشر الهندوس لأنكم مخلوقات غريبة الأطوار، أفهمت؟ "

ابتسم غومبال له بتسامح، وكأنه يتفهَّم اضطرابات شخص مريض.

كانت ردّة فعل كرونسكي على ابتسامة غومبال نزقة. زعق " لا تبتسم لي هذه الابتسامة الراثية، أنا لست منبوذاً بائساً. أنا دكتور في الطب. أنا ... "

قال غومبال بهدوء وحزم " أنت ما زلت طفلاً. إنَّ أي شخص يتمتَّع بقدرٍ قليل من الذكاء يمكنه أن يصبح طبيباً ... "

على هذا ردَّ كرونسكي بعنفٍ ساخر " يستطيعون، هه؟ هكذا ببساطة، هاه؟ مثل دحرجة زند من الخشب ... "، ثم أخذ يتلفَّت حوله وكأنه يبحث عن مكان يبصق فيه.

بدأ غومبال بالقول " في الهند نقول ... "، وطفق يحكي حكاية من حكايات الأطفال المدمِّرة بالنسبة إلى شخص ذي عقلية مُحلِّلة. وكانت لدى غومبال هذا حكاية صغيرة عن كل موقف من المواقف. وكنت أستمتع بها استمتاعاً هائلاً؛ كانت أشبه بالعلاجات البسيطة، المثليّة[٤٢]، أشبه بحبّات صغيرة من الحقيقة ملبَّسة بغلافٍ لا يؤذي. وبعد ذلك لا

---

٤٢ - المعالجة المثليّة : معالجة الداء بإعطاء المُصاب جرعات صغيرة من دواء، لو أُعطيَ لشخصٍ سليم لأحدثَ عنده أعراض المرض المعالَج . - المترجم

تنساها أبداً، هذا ما كان يعجبني في تلك الحكايات. نحن نؤلّف كتباً ضخمة لكي نوسّع فكرةً بسيطةً؛ أما الشرقيون فيحكون حكاية بسيطة، واضحة، تستقر في ذهنك كدرّة من الدُرر. وكانت القصة التي حكاها تدور حول حشرة حُباحِب سحقتها قدمٌ حافيةٌ لفيلسوف شارد الذهن. كان كرونسكي يمقت الحكايات التي يتم الاتصال فيها بين أشكالٍ دنيا من المخلوقات مع أخرى أرقى، كالإنسان، على مستوى عقلاني. كان يشعر أنها تشكّل إهانة شخصيّة له، تشهيراً مؤذياً.

ابتسم رغماً عنه لختام الحكاية. ثم إنه كان قد شعر لتوه بالندم على سلوكه الفظ. كان يكنُّ احتراماً عميقاً لغومبال. وقد أثار غيظه أنه اضطرَّ إلى إظهار حِدَّته لغومبال في حين أنَّ كل ما كان يقصده أن يسحقني أنا. وهكذا استعلَمَ منه، وما يزال يبتسم، بصوتٍ لطيف عن غوز، وهو أحد الهندوس الذين عادوا إلى الهند قبل بضعة أشهر.

كان غوز قد توفي متأثّراً بمرضِ الزحار بُعيدَ وصوله إلى الهند، كما أنبأه غومبال.

قال كرونسكي، هازاً رأسه يائساً " إنه أمر شنيع، وكأنه يشير ضمناً إلى أنَّ من العبث مقارعة الظروف في بلد مثل الهند. ثم قال، بعد أن التفت إليّ، ولمعت ابتسامة حزينة على شفتيه، " ألا تتذكّر غوز؟ الفتى الصغير، البدين، الريّان، الشبيه ببوذا المتربّع "

أومأت إيجاباً " أذكره. ألم أجمع نقوداً له ليعود إلى الهند؟ "

قال كرونسكي بحماس " غوز كان قديساً "

عبَرَ وجه غومبال ومض عبوس معتدل. قال " كلا، إنه ليس قديساً. لدينا في الهند الكثيرون ممَّن ... "

twitter @baghdad_library

قاطعه كرونسكي " أعرف ماذا ستقول. ومع ذلك، يبقى غوز بالنسبة إليّ قديساً. زحار! يا حفيظ! وكأننا في القرون الوسطى ... بل أسوأ منها! "، وباشر وصفاً مرعباً لأمراضٍ ما زالت تستشري في الهند. ثم انتقل من المرض إلى الفقر ومن الفقر إلى التطيُّر ومن هذه إلى العبودية، والانحطاط، واليأس، واللامبالاة، وفقدان الأمل. فالهند مجرد ضريح عفن لا متناهٍ، موقعٌ لحفظ الجثث يهيمن عليه مستغلُّون بريطانيون متآمرون ومتحالفون مع راجات ومهراجات خونة ومعتوهين. لم يذكر كلمة واحدة عن الفن المعماري والموسيقى، والتعليم، والدين، والفلسفات، وملامح الوجوه الجميلة، ورشاقة النساء ورقّتهن، والأزياء الغنيّة بالألوان، والعطور اللاذعة، والأجراس الرنّانة، والنواقيس الضخمة، والمناظر الطبيعية الخلابة، وعربدة الأزهار، والمواكب التي لا تنتهي، وتصادم اللغات، والأعراق، والأنماط، وحمّى التناسل وسط الموت والخراب. كان دائماً على حق إحصائيّاً، ينجح فقط في إبراز الجانب السلبي من الصورة. صحيح أنَّ الهند كانت تنزف حتى الموت، لكن الجانب الحيّ منها كان متألّقاً بطريقة لم يتمكّن كرونسكي معها أن يعطيه حقّه من التقدير، ولم يأتِ قط على ذكر أي مدينة بالاسم؛ لم يفرِّق قط بين أغرا ودلهي، ولاهور ومايسور، ودارجيلنغ وكراتشي، وبومباي وكلكوتا، وبيناريس وكولومبو، أو بين بارسي[٤٣] أو يانيّ[٤٤] أو هندوسيّ أو بوذيّ – كلهم سواء، كلهم ضحايا بائسين للاضطهاد، كلهم يتعفّنون ببطء تحت شمس مجرمةٍ ليوفروا فترة عطلة لشخصٍ إمبريالي.

---

٤٣ –البارسيّ : هو شخصٌ زرادشتيّ إيرانيّ مقيمٌ في الهند . – المترجم

٤٤ – اليانيّ : هو أحد أتباع الديانة اليانيّة الهندية . – المترجم

هنا نشب بينه وبين غومبال نقاش لم أسمع إلا طرفاً منه. وكلما سمعت اسم مدينة أغيب في نشوةٍ شعوريّة. لقد كان مجرد ذكر كلمات مثل البنغال، وغوجارات، وساحل مالابار، وكالي-غات ونابال، وكشمير، والسيخ، وباغافاد-جيتا، ويوبانيشيد، وراجا، وستوبا، وبراكريتي، وسودرا، وبارانيرفانا، وتشيلا، وغورو، وهانومن، وسبفا، كافياً ليضعني في حالةِ نشوة حتى نهاية السهرة. كيف يمكن لرجل كُتِبَ عليه أن يعيش حياة طبيب ضيّقة في مدينة همجيّة، باردة مثل نيويورك أن يجرؤ على التحدُّث عن تنظيم قارّة تعداد سكانها نصف مليار[٤٥] نسمة مشاكلهم من الضخامة والتنوع بحيث تدوِّخ مخيّلة علماء الهند أنفسهم؟ لا عجبَ أنه انجذب إلى الشخصيات القدسية التي اتّصل بها في المناطق الجحيميّة لأغلب أصقاع الشركة العالمية المتعضّية الأميركية. هؤلاء " الفتية "، كما سمّاهم غومبال (كانت أعمارهم تتراوح ما بين الثالثة والعشرين والخامسة والثلاثين)، كانوا أشبه بمحاربين منتقين، أو تلاميذ مختارين. المشاق التي كابدوها، أولاً في الوصول إلى أميركا، ثم في الكفاح للمحافظة على أجسامهم وأرواحهم معاً أثناء إنهائهم دراساتهم، ثم في جمع تكاليف العودة، ثم في نكران كل شيء على أنفسهم لكي يكرّسوها لخدمة تقدُّم شعبهم - حسن، لا يمكن لأي أميركي، لأي أميركي أبيض، في أي مكان، أن يفاخر بأي شيء يقارَنُ بها.

وعندما كان أحد أولئك " الفتية " يضلُّ سواء السبيل بين حين وآخر، كأنْ يصبح مدلّل إحدى سيدات المجتمع أو عاشقاً مدلّهاً بحبّ

---

٤٥ - الرقم، الآن، تجاوز المليار ومنذ سنوات، كما نعلم. - المترجم.

twitter @baghdad_library

راقصة فاتنة، كنت أشعر بالابتهاج. كان يسرّني أن أسمع عن فتى هندوسي يتقلّب على الوسائد الوثيرة، ويأكل الأطعمة الدسمة، ويضع خواتم نفيسة، ويرقص ليلاً في النوادي، ويقود السيارات، ويغوي عذارى صغيرات، وما إلى ذلك. وأذكر شاباً باريسيّاً مثقّفاً فرَّ مع امرأة كسول في منتصف العمر وذات سمعة مشبوهة؛ أذكر الإشاعات الخبيثة التي راجت عنه، والحَرَج الذي سبّبه بين وسط الأشخاص الأقلّ ثقافة منه. كان أمراً جللاً. وقد تابعت مسيرته المهنية بحماسٍ شديد، مبتلعاً كل الحثالات، مَجَازاً، أثناء انتقاله من مجال إلى آخر. وذات يوم، وأنا مستلقٍ مريضاً في غرفتي التي كانت زوجتي قد جعلت منها مشرحة، جاء يعودني، وأحضر معه أزهاراً وكتباً، جلس بالقرب من سريري وأمسك بيدي، وأخذ يحدِّثني عن الهند، عن الحياة الرائعة التي عاشها وهو طفل، عن البؤس الذي عاناه بعد ذلك، والذل الذي ناله على أيدي الأميركيين، وعن نهَمِه للحياة، حياة أرحب، حياة أغنى، حياة مذهلة، وكيف قبض على الفرصة حين أتته ووجد أنها قبضُ الريح، خاوية من كل شيء ما عدا الثياب، والجواهر، والنقود، والنساء. وأسرَّ لي بأنه يتخلّى عن ذلك كله. قال إنه سيعود إلى شعبه، ليتألّم معه، ليُنهِضَه على قدميه إن استطاع ذلك، وإذا لم يستطع، فليمت معه، فليمت كما يموت، في الشارع، عارياً، مشرّداً، منبوذاً، محتَقَراً، مُداساً، مسحوقاً، مُهاناً، ككومة من العظام يصعب حتى على الصقور أن تأكلها. سوف يفعل ذلك ليس بدافعٍ من إحساسٍ بالذنب، أو بالندم أو بالتوبة وإنما لأنَّ الهندَ مُعدَمَة، الهند تتقيّح مثل يرقة، الهند تموت جوعاً، الهند تذوي تحت وطأة قدم الغازي، لأنها أغلى عنده من كل وسائل الراحة، والفرص

المتاحة والمزايا في بلدٍ لا قلب له مثل أميركا. أنا أقول، إنه كان بارسيّاً وعائلته كانت ثريّة ذات يوم؛ وقد عاش طفولةً سعيدة على الأقل. ولكن كان هناك هندوس غيره موجودين في آخر غابة أو حقل، كانوا يعيشون ما يمكن أن يبدو لنا حياةَ الحيوانات. وحتى يومي هذا لم أتوصَّل إلى إدراك سرّ تغلُّب أولئك الأفراد المغمورين الخجولين على العقبات المذهلة التي واجهتهم يوماً بعد يوم. على أي حال، معهم مشيتُ دروباً تؤدّي من القرية إلى البلدة إلى المدينة؛ ومعهم أصغيتُ إلى أغاني بسطاء الناس، وإلى حكايات العجائز، وصلوات الورعين، ونصائح الغورو[٤٦]، وأساطير رواة الحكايات، وموسيقى عازفي الشوارع، ونَدْب المفجوعين ومناحاتهم. ومن خلال عيونهم شاهدت الأسى ينزل بشعبٍ عظيم. لكني شاهدت أيضاً أنَّ هناك مزايا نَجَتْ من حلولِ الأسى الأفدح. شاهدت في عيونهم، وهم يحكون تجاربهم، انعكاسَ رقّةِ، وذلٍّ، ومهابةِ، وورعٍ، وإيمانِ، وإخلاصِ واستقامةِ أولئك الملايين الذين يحيّرنا قَدَرَهم ويصيبنا بالاضطراب. إنهم يموتون كما الذباب ومن ثم يولدون من جديد؛ ويزداد عددهم ويتضاعف؛ ويقدِّمون الصلوات والأضاحي، ولا يُبدون أي مقاومة، ولكن يعجز أي شيطان أجنبي عن أن يقتلعهم من تربتهم التي غذّوها بجثثهم الفقيرة. إنهم من كافة الأنواع، والطبقات الاجتماعية، والدرجات واللغات، والعبادات؛ ينمون عالياً كالنباتات البريّة ويُداسون كما تُداس النباتات البريّة. وكشفُ النقاب حتى عن أصغر جزءٍ من تلك الحياة المصطخبة يتركُ العقلَ وسطَ دوامةٍ من الشك. إن بعضهم أشبه بالدرر المصقولة، والبعض كالأزهار النادرة، والبعض الآخر مثل النُصُب

٤٦ – الغورو : (في الهندوسيّة) ، هو المرشد ، المعلّم الروحي . – المترجم .

twitter @baghdad_library

التذكارية، والبعض أشبه بالصور القدسية المتوهجة، والبعض كالعقول المتناثرة أشلاءً، وآخرون كالخضار العفنة: جنباً إلى جنب يتقدّمون في حشدٍ مشوّش لا نهاية له.

وسط هذه التأملات ذكّرني كرونسكي بصوتٍ عالٍ أنه صادف شلدون. " أراد أن يزورك، ذاك الأبله، لكني تخلّصت منه ... أعتقد أنه أراد أن يقرضك بعض النقود "

يا لشلدون المجنون! الغريب في الأمر أني فكّرت فيه وأنا في طريق عودتي إلى المنزل. نقود، نعم ... كان لدي حدس بأن شلدون سيقرضني نقوداً مرة أخرى. لم تكن لدي أدنى فكرة بكم أدين له، فلم أكن أتوقع أبداً أن أسدِّد له الدين - ولا هو كان ينتظر ذلك. كنت أقبل ما يقدّمه لي لأن ذلك يسعده. لقد كان مجنوناً كأرنب وحشي، ولكنه بارعٌ وماكرٌ، وفوق ذلك عمليّ. كان يلتصقُ بي كعَلَقَة، لسببٍ غامضٍ خاصٍ به لم أعمل أبداً حتى على محاولة معرفة قراره.

ما كان يفتنني في شلدون التكشيرات التي كان يرسمها على وجهه، والقرقرة التي يصدرها وهو يتكلّم. وكأن يداً خفيّة تخنقه. والحق، كان قد مرَّ ببعض التجارب الرهيبة - في حي الأقليات الإجرامي في مدينة كراكاو حيث نشأ. وثمة حادثة لن أنساها دهري: وقعت أثناء إحدى المجازر الجماعية قبل أن يهرب من بولندا. كان قد اندفع إلى المنزل وقد مسّه الرعب أثناء حدوث الذبح وسط الشارع فوجد الغرفة ملآى بالجنود. كانت أخته، الحبلى، مستلقية على الأرض، والجنود يغتصبونها واحداً إثر آخر. وأمه وأبوه كانا يُجبران، وأذرعهما موثقة خلفهما، على مراقبة هذا الفعل الفظيع. ارتمى شلدون، وقد طاش صوابه تماماً، على الجنود وأصيب بطعنة

خنجر. حين عاد إلى أمه وأبيه وجدهما ميتين؛ وكان جسد أخته ملقى عارياً إلى جوارهما، وقد بُقِرَ بطنها وحُشيَ بالتبن.

كنا نقطع ساحة تومبكنز سيراً على الأقدام ليلة روى لي هذه القصة للمرة الأولى. (كرّرها على مسمعي عدداً من المرات بعد ذلك، ودائماً بالطريقة نفسها بالضبط، كلمة فكلمة. وفي كل مرة ينتصب شعر رأسي وتسري رعدة باردة على طول ظهري) ولكن في تلك الليلة الأولى، وعند انتهاء القصة، لاحظت ظهور تغيير غريب عليه. فقد بدأ يرسم تلك التكشيرات التي أشرت إليها. وكأنه كان يحاول أن يصفِّر ولا يستطيع. وعيناه، اللتان كانتا صغيرتين بشكل غير عادي، ورجراجتين، وملتهبتين، تقلّصتا إلى حجم رصاصتي BB*. ولم يكن يُرى بين الجفنين غير بؤبؤين مشتعلين كانا يخترقانني مباشرة. وانتابني شعور شديد الغرابة، وذلك حين قبض على ذراعي وقرَّبَ وجهه من وجهي، وبدأ يُصدِر الصوت المختنق، والمقرقر الذي بلغ ذروته في آخر المطاف على صورة ضجيج يشبه إلى حدٍ بعيد الصفير. وكانت انفعالاته من الشدّة حتى أنه لم يصدر من حنجرته طوال بضع دقائق، الفترة التي كان خلالها يتشبَّث بي بقوة ويضغط وجهه نحو وجهي، لم يصدر عنها أي صوت إنساني واضح، ولا أي شبه مهما قلّ لما نسمّيه بالكلام. ولكن يا لها من لغة معبِّرة تلك النوبة من الصفير، والاختناق، والهسيس، والقرقرة! لم أقوَ على إبعاد وجهي عنه، حتى ولو أردت؛ ولا كنت تمكّنت من أن أفكَّ قبضته عني، لأنه كان يُطبِق عليّ إطباقاً. وتساءلت إلى متى سيستمر هذا الوضع، وإن كان سيصاب بنوبة أخرى لاحقاً. ولكن لا! –

---

* رصاصة BB : قطرها ١٨, ٠ إنش (أو ٤٦, ٠ سم). – المترجم

twitter @baghdad_library

بعدما خفَّ انفعاله بدأ يتكلّم بصوتٍ منخفض، وهادئ، بنبرة عاديّة جداً، حقاً، وكأنَّ شيئاً لم يحدث. وتابعنا سيرنا وكنا نقترب من الطرف الآخر للمنتزه. كان يتحدّث عن الأحجار الكريمة التي ابتلعها بمهارة بالغة، والقيمة التي أصبح عليها، وكيف كانت حجارة الزمرد والياقوت تتلألأ، وكيف عاش متقشّفاً، وعن سندات التأمين التي كان يبيعها في وقت فراغه، وعن حقائق وحوادث أخرى لم يكن قد رواها.

كما قلت قبل قليل، كان يسرد تلك الأشياء بنبرة منخفضة بشكل غير طبيعي، بنبرة صوت تكاد تكون رتيبة. لكنه كان، بين حين وآخر، عندما يصل إلى نهاية إحدى الجمل، يرفع صوته وينتهي بغير قصد منه عند علامة استفهام. إلاّ أن سلوكه كان في تلك الأثناء يتبدَّل تبدّلاً متطرّفاً. وأفضل ما في وسعي أن أقوله في شرحه، أنه كان يغدو أشبه بوَشَق. كان كل ما يرويه يبدو موجَّهاً نحو شخص غير مرئي. بدا أنه كان يستخدمني كمستمع، ليجهر، بأسلوبٍ ملتوٍ وماكر، بأمورٍ قد يفسّرها. هذا الشخص " الآخر "، الحاضر ولكن اللامرئي، على طريقته أو طريقتها. كان يقول بتلك اللغة المرتجلة، والملتوية " شلدون ليس أحمق، شلدون لم ينس خدَعاً صغيرة معيّنة سبق أن مورست عليه. شلدون الآن يسلك سلوك رجلٍ محترم، أصبح Comme il faut (منضبطاً) جداً، لكنه ليس نائماً... كلا، شلدون دائماً يقظ. شلدون يستطيع أن يلاعب ثعلب إذا ما احتاج إلى ذلك. شلدون يستطيع أن يرتدي ملابس راقية، ككل رجل آخر، وأن يتصرَّف بكل كياسة. شلدون حبّوب، دائماً على استعداد ليندم. شلدون لطيف مع الأطفال. حتى الأطفال البولونيين. شلدون لا يطلب أي شيء. شلدون، صامت جداً، هادئ جداً، وحسن

السلوك جداً ... ولكن حذار!!! ". ومن ثم ويا لدهشتي إذا بشلدون يصفّر ... صفيراً صافياً، طويلاً، كان القصد منه، بدون أدنى شك، إصدار تحذير للشخص اللامرئي. حذار من يومٍ موعود! . كان صفيره صافياً إلى هذه الدرجة. حذار، لأن شلدون يعدُّ لشيء فائق الشيطانية، شيء يعجز عقل بولاك (بولوني) بليد عن تصوّره أو ابتكاره. وشلدون لم يكن متكاسلاً طوال تلك السنين ...

وقد جاءت مسألة إقراض النقود بشكل طبيعي جداً. بدأت في تلك الليلة أثناء تناولنا كوب من القهوة. وكالمعتاد لم يكن في جيبي أكثر من خمسة سنتات أو عشرة ولذلك اضطررت إلى أن أترك شلدون يدفع الحساب. ولم يستوعب شلدون فكرة أن يكون مدير استخدام خالي الوفاض من النقود حتى أني خشيت للوهلة الأولى أن يرهن مجوهراته كلها.

قلت " خمسة دولارات تكفي، يا شلدون، إذا كنت مصراًّ على إقراضي بعض المال "

اجتاح وجه شلدون تعبيرُ الامتعاض، وهتف بصوتٍ صارٍّ وزاعق ارتفع إلى مستوى الصفير " أوه أوه، أوه كلا-ا-ا! شلدون لن يعطي أبداً خمسة دولارات. كلا-ا-ا، مستر ميللر، شلدون سيعطي خمسين دولاراً!"

وإذا به، وحقّ الله، يمدّ يده إلى جيبه ويُخرِج منها خمسين دولاراً، من فئات الخمسات والدولارات المفردة. ومرة أخرى تلبَّسَ هيئةَ الوَشَق تلك، وأرسل نظرته بعيداً عني وهو يقدّم لي صدقّتَه، ويغمغم بشيء من بين أسنانه حول أنه سيُري أحدهم أي نوع من الرجال هو، أي شلدون "

twitter @baghdad_library

قلت " ولكن يا شلدون، سوف أعود مفلساً غداً ". وسكتُّ لأرى أثر ذلك عليه.

ابتسم شلدون – ابتسامة ماكرة، خَدِرَة، وكأنه يقاسمني سراً كبيراً.

قال، مخرجاً الكلمات مع هسيسٍ غريب " حينئذ سيعطيك شلدون غداً خمسين دولاراً أخرى"

عندئذ أخبرته " أنا لا أدري متى سأتمكَّن من سداد المال "

جواباً على هذا أخرجَ شلدون ثلاثة من دفاتر الحساب المصرفي من جيبه الداخلي. كان مجموع رصيده يتجاوز الألفيّ دولار. ومن جيبيّ سترته أخرج بضعة خواتم كانت أحجارها تلمع لمعان الأشياء الأصيلة.

قال " هذه ليست شيئاً يُذكَر. شلدون لا يُخبر عن كل ما عنده "

كانت تلك بداية علاقتنا، وهي علاقة غريبة بالنسبة إلى مدير استخدام في الشركة العالمية المتعضّية. وأحياناً أتساءل إن كانت بقية مدراء الاستخدام تستمتع بمثل تلك المزايا. وحين كنت أقابلهم مصادفة خلال فترات تناول الغداء كنت أشعر أني أقرب إلى صبي ساعي مني إلى مدير ذي شأن. ولم أتمكَّن قط من حشد ذاك الوقار واحترام الذات اللذين بدا أنهم يحيطون أنفسهم بهما على الدوام. كانوا لا ينظرون إليّ مباشرة حين يخاطبونني، وإنما ينظرون دائماً إلى بنطالي الفضفاض، أو إلى حذائي البالي، أو إلى قميصي الوسخ والممزَّق، أو إلى الثقوب التي في قبعتي. وإذا حكيت لهم حكاية صغيرة وبريئة أبدوا إعجاباً هائلاً بها يسبِّبُ لي حرجاً. وعلى سبيل المثال، كانوا يبدون دهشةً عظمى حين أخبرهم عن ساعٍ معيَّن يعمل في مكتب شارع برود، كان يقرأ مؤلفات دانتي وهومر وتوماس الأكويني بلغاتهم الأصلية، وذلك أثناء انتظاره

مهمّاته. ولم ينتظروا أن يسمعوا أنه كان ذات يوم بروفيسوراً في جامعة بولونيا، وأنه حاول أن ينتحر لأنه فَقَدَ زوجته وأولاده الثلاثة في حادث على سكة الحديد، وأنه فَقَدَ ذاكرته ودخل إلى أميركا بجواز سفر رجلٍ آخر، وأنه لم يكشف عن حقيقة هويّته إلا بعد أن باشرَ عمله كساعٍ بستّة أشهر، وأنه وجد العمل ممتعاً، وأنه فضّلَ أن يبقى ساعياً، وأنه تمنّى لو يبقى مجهول الهوية - هذه الأشياء كانت ستبدو لهم أبعد ما تكون عن التصديق. كل ما تشبّثوا بسماعه وأثار تعجُّبهم هو أن يكون أحد " السُعاة " بملابس رسميّة، قادراً على قراءة مؤلفات كلاسيكية بلغاتها الأصلية. وكنت بين حين وآخر أقترض عشرة دولارات من أحدهم، بعد الانتهاء من حكاية إحدى تلك الحوادث المسلّية، دون نيّة ردّها طبعاً. كنت أشعر أني مضطر إلى اقتناصِ مبلغٍ رمزيّ منهم - مقابل خدماتي كمسلٍّ. وكم كانوا يتنحنحون ويتلعثمون قبل أن يدفعوا تلك المبالغ التافهة! ما أبعد هذا في الشبه عن المبالغ السهلة التي كنت أنالها من السُعاة " البلهاء "!

كان مثل هذه الذكريات دائماً يثيرني إلى آخر مدى. فبعد مرور عشر دقائق من التأمُّل الاستبطاني أكاد أتفجَّر بالرغبة في تأليف كتاب. ثم فكَّرتُ في مونا. كان ينبغي أن أبدأ بالكتابة حتى ولو من أجلها فقط. وأين سأبدأ؟ أفي هذه الغرفة التي تشبه ردهة مصحّ عقليّ؟ أأبدأ بينما كرونسكي ينظر عبر كتفي؟

كنت قد قرأت في مكان ما مؤخراً عن مدينة بورما المهجورة، العاصمة العتيقة لمنطقةٍ ازدهرت في مساحةِ مائة ميل منها ذات يوم ثمانية آلاف معبد فخيم. المنطقة بأكملها أضحت الآن خالية من

twitter @baghdad_library

السكان، وهو حالها منذ ألف عام مضى أو أكثر. ولا يسكن المعابد الخاوية الآن غير حفنة متوحِّدة من الرهبان، وربما شبه المجانين. وتعشِّش في تلك الصروح المقدسة الأفاعي والخفافيش والبوم؛ وفي الليل تعوي بنات آوى بين الأطلال.

لماذا تسبِّب لي هذه الصورة المجسَّدة للبؤس كل تلك الكآبة المؤلمة؟ لماذا توقظ ثمانية آلاف معبد مدمَّر، وخال، كل ذاك الكرب؟ أناس يموتون، سلالات تنقرض، أديان تتلاشى: كلها أمور مُقَدَّرة. ولكن أن يتبقّى شيء من الجمال، ويكون عاجزاً عن التأثير، عاجزاً عن جذبنا، فذلك لغز رزح بثقله عليَّ. ذلك أني لم أكن بعد قد باشرت البناء! ورأيت بعين عقلي معابدي الخاصّة وقد استحالت أطلالاً حتى قبل أن يوضع حجرٌ واحد فوق حجر. كنت أنا والسُعاة البلهاء الذين يساعدونني نجوس، بطريقة غريبة وعجيبة، حول الأماكن الروحيّة المهجورة كأبناء آوى الذين يعوون في الليل. كنا نتجول بين قاعات صرحٍ أثيريّ، اسطوبا[٤٧] وهميّ، يكون مهجوراً حتى من قبل أن يتجسَّد على الأرض. في بورما كان الغازون مسؤولين عن وأد روح الإنسان. حدث ذلك مراتٍ ومرات على امتداد تاريخ الإنسان وكان عملاً مفهوماً. ولكن ما الذي منعنا، نحن حالمو هذه القارة، من تجسيد صروحنا المذهلة قلباً وقالباً؟ لقد كانت سلالة المهندسين المُلهمين قد انقرضت بكل ما في الكلمة من معنى. لقد شُقَّت لعبقرية الإنسان قناة ووجِّهَت نحو مسارات أخرى. هكذا قيل. ولم أقبل هذا القول. ألقيت نظرة إلى الحجارة كلٍ على حِدة، والعوارض الخشبيّة، والمداخل، والنوافذ التي حتى في الأبنية العادية

٤٧ – اسطوبا : برج بوذيّ على شكل هرم أو قبة . – المترجم .

تشبه عيون الروح؛ نظرت إليها كما نظرت إلى صفحات هذه الكتب كلٍ على حدة، ورأيت أسلوباً معمارياً واحداً يحكي قصة حيوات شعبنا، سواء أتجلّتْ في كتابٍ، في قانونٍ، في حجرٍ أم في تقليد؛ رأيت أنه قد خُلِقَ (رأيته أولاً بعين عقلي) ومن ثم جُسِّدَ، بالنورِ، وبالهواءِ وبالحيِّز، أُعطيَ هدفاً ومغزى، إيقاعاً يرتفع وينخفض، نمواً من البذرة إلى شجرةٍ مزدهرةٍ، انحداراً من ورقة وغصن ذابلين إلى عودةٍ من جديد إلى حالةِ البذرة، وسماداً يغذّي البذرة. رأيتُ هذه القارة كرؤيتي لباقي القارات قبل تحوّلها وبعده: خلائق بكل معنى للكلمة، بما في ذلك الكوارث ذاتها التي ستجعل وجودها أثراً بعد عين ...

بعد أن انسحب كرونسكي وغومبال كلٌ إلى غرفته شعرت بيقظةٍ تامة، وبحالةِ إثارةٍ عارمة بفعل الأفكار المتلاحقة في رأسي حتى أني شعرت برغبةٍ تدفعني دفعاً إلى الخروج والتمشّي مسافةً طويلة. وبينما كنت أرتدي ملابسي نظرتُ إلى انعكاس صورتي في المرآة. رسمت تكشيرَ الصفير الذي يضعه شلدون وهنَّأتُ نفسي على قدرتي على المحاكاة. وكنت في وقتٍ سابق اعتقدت أني يمكن أن أصبح مهرِّجاً جيداً. وكان معي في المدرسة فتى أقرب إلى الأخ التوأم لي؛ كنا متقاربين جداً، وبعد أن تخرَّجنا أسّسنا نادياً من اثني عشر شخصاً سمّيناه جمعية زيركسس. وكنا نحن الاثنان نمتلك المؤهلات اللازمة كلها - في حين أن الآخرين كانوا تافهين وسقط متاع. وأحياناً كنت مع جورج مارشال نؤدّي أمام الآخرين في لحظات يائسة تهريجاً مرتجلاً يسبِّبُ لهم نوبات لا تقاوَم من الضحك. ولاحقاً صرتُ أرى أنَّ تلك اللحظات كانت تتَّسِمُ بسِمةٍ مأساويّةٍ واضحة. لقد كان اتّكالُ الآخرين علينا مثيراً للشفقة حقاً: كان

twitter @baghdad_library

دلالة منذرة بالخمول العام وفتور الشعور اللذين سيقدَّر لي أن أواجههما طوال حياتي. وحين أفكِّر في جورج مارشال، أبدأ في رسم مزيد من التكشير، وقد أحسنت في رسمه حتى أني بدأت أخاف من نفسي. فقد تذكَّرت فجأة يومَ نظرتُ للمرة الأولى في حياتي في المرآة وأدركت أني أحدِّقُ إلى شخصٍ غريب. حدث ذلك بعد أن ذهبت إلى المسرح بصحبة جورج مارشال وماكغريغور، وكان جورج مارشال قد قال شيئاً في تلك الليلة أزعجني إلى أقصى حد. كنت غاضباً منه لحماقته، لكني لم أنكر أنه قد وضع إصبعه على النقطة الحسّاسة. كان قد قال شيئاً جعلني أدرك أن عهد تقاربنا الحميم قد انتهى، وأننا في الحقيقة قد أصبحنا عدوين منذ ذلك الحين. وكان هو على حق، على الرغم من أن التبريرات التي أعطاها كانت زائفة. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً بدأت أسخر من صديقي الحميم جورج مارشال. أردت أن أكون مناقضاً له في كل شيء. كان الأمر أشبه بانقسام الكروموزوم (الصبغي).

بقي جورج مارشال موجوداً في العالم، ومعه، ومنه؛ ضرب فيه جذوره ونما كما الشجرة، ولم يكن هناك شك في أنه وجد له مكاناً ووجد معه قدراً كبيراً نسبياً من السعادة. ولكن حين كنت أنظر في المرآة في تلك الليلة، مُنكِراً صورتي، عرفت أنَّ ما توقّعه جورج مارشال عن مستقبلي كان صحيحاً فقط سطحياً. إنَّ جورج مارشال في الواقع لم يفهمني حقاً أبداً في اللحظة التي شعر أني إنسان " مختلف " تبرأً مني.

كنت ما أزال أنظر إلى نفسي بينما هذه الذكريات تتسارع في رأسي. كان رأسي قد امتلأ بالحزن والفكر. لم أعد أنظر إلى صورتي وإنما إلى صورة ذكرى نفسي في لحظة أخرى - حين جلست على عتبة

مدخل بابٍ ما ذات ليلة أنصتُ إلى " فتى " هندوسي اسمه تاود. وتاود أيضاً قال شيئاً في تلك الليلة أثار انزعاجي العميق. غير أن تاود قاله كصديق. كان يمسك بيدي، على طريقة الهندوس. ولو أنَّ عابرَ سبيل شاهدنا لظنَّ أن بيننا علاقة حب. لقد كان تاود يحاول أن يجعلني أرى الأمور على ضوء مختلف. وما حيَّره هو أني كنت " طيب القلب " ومع ذلك ... كنت أشيع الحزن في كل ما حولي. لقد أرادني تاود أن أكون صادقاً مع نفسي، تلك النفس التي تعرَّف إليها وتقبَّلها بوصفها نفسي " الحقيقية ". بدا أنه لا يعي تعقيد طبيعيّ، أو إن كان فعل فإنه لم يعلِّق على ذلك أي أهمية. إنه لم يفهم لماذا لست راضياً عن موقعي في الحياة، خاصة وأني أقوم بالكثير من عمل الخير. لم يخطر بباله قط أن الإنسان يمكن أن يشعر بالاشمئزاز الكامل من كونه مجرد أداة لفعل الخير. لم يدرك أني كنت مجرد أداة عمياء، أكتفي بالرضوخ لقانون الخمول، وأني أكره الخمول حتى وإن كان يعني أن أكون خيِّراً.

غادرت تاود في تلك الليلة وهو في حالة يأس. شعرت بالامتعاض لكوني محاطاً بمخلوقات بلهاء مستعدة للإمساك بيدي لتواسيني وتبقيني مكبَّلاً. وشملني إحساس شرير بالابتهاج المطرد كلما ابتعدت عنه؛ وبدل أن أتوجه إلى المنزل اتجهت غريزياً نحو الغرفة المفروشة حيث تقيم النادلة التي كنت أقيم علاقة معها. جاءت إلى الباب لتفتحه وهي بقميص النوم، وتوسلت إليّ كي لا أصعد معها إلى الطابق العلوي لأن الوقت متأخر. ولجنا إلى الداخل، إلى الرواق، واتّكأنا على المشعاع طلباً للدفء. وبعد بضع دقائق أخرجته وأعطيتها إياه بأفضل ما في استطاعتي ونحن بتلك الوضعيّة المشدودة. كانت ترتعش من شدة الخوف

twitter @baghdad_library

والمتعة. بعد أن انتهينا أنّبتني لأني لم أراع ظرفها، وهمست، وهي تنضمّ أكثر إليّ " لماذا تفعل هذه الأشياء؟ ". وانطلقت خارجاً، وتركتها واقفة عند أسفل الدرج وعلى وجهها تعبير الحيرة. وبينما كنت أشقّ طريقي مسرعاً في الشارع تردّدت في ذهني عبارة بدون توقف: " أي نفس هي الحقيقية؟ "

تلك العبارة ما زالت تلحُّ عليّ حتى الآن، وأنا أسرع الخطى في شوارع حي البرونكس المفرطة الكآبة. لماذا كنت مسرعاً؟ ما الذي يدفعني إلى حثّ خطاي؟ تمهّلت في سيري، كأنما لأفسح المجال للشيطان كي يباغتني ...

إذا أصرّيتَ على خنق دوافعكَ ينتهي بك الأمر إلى أن تغدو كتلةً من البلغم. تنتهي إلى أن تبصق كتلةً تستنزفكَ تماماً ولا تدرك إلا بعد مضي سنين عديدة أنها لم تكن كتلة من البصاق وإنما كانت نفسك الدفينة. فإذا فقدتَ هذه ستبقى دائماً تهرع خلال شوارع مظلمة كمجنون تلاحقه أشباح. ستظل دائماً قادراً على أن تقول بصدق تام: " لا أدري ماذا أريد أن أفعل في الحياة ". تستطيع أن تشق طريقك بسهولة خلال خيط الحياة ثم تخرج من النهاية الخاطئة للمكبِّر، وترى كل شيء فوق طاقتك، بعيداً عن منالك، ومشوّهاً بشكل شيطانيّ. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً لا تقابل إلا الإخفاق. كيفما اتجهتَ تجد نفسكَ في قاعةٍ مُحاطة بالمرايا؛ سوف تسرع كالمجنون، بحثاً عن مخرج، لتجد أنك محاط فقط بصور مشوّهة لذاتك الحلوة.

إن أشد ما كرهته في جورج مارشال، وفي كرونسكي، وفي تاود وفي العدد الغفير الذي يمثّلهم، هو جدّيتهم السطحية. إن الإنسان الجديّ

حقاً مرح، ويكاد يكون لا مبال. إنني أمقت الذين يحملون هموم العالم بأسره، لأنهم يفتقرون إلى الثقل المناسب. والرجل المهموم دائماً وأبداً بحال الوضع الإنساني إما ليست لديه مشاكل خاصة أو أنه يرفض أن يواجهها. إنني أتكلّم بالنيابة عن الغالبية العظمى، وليس عن القِلّة الحرة التي، بعد أن أشبعَتْ الأمور تفكيراً، حظيت بامتياز التطابق مع الإنسانية كلها وهكذا أصبحت تستمتع بأرقى الرفاهيات قاطبة: الخدمة.

كان هناك شيء آخر كَفَرتُ به إلى أقصى مدى - العمل. لقد تبدّى لي، حتى في مستهل حياتي، أنَّ العمل هو نشاطٌ مخصصٌ للبليدين؛ هو عكس الإبداع مباشرة، الذي هو لعب، ومجرد أنه ليس لديه raison d'être (مبرّر للوجود) غير ذاته هو أسمى قوة محرِّضة في الحياة. هل سبق لأحد أن قال إنَّ الله خلقَ الكونَ لكي يُوجِدَ عملاً لنفسه؟ إنني بسبب سلسلة من الظروف لا علاقة لها بالعقل أو بالفكر أصبحتُ مثل باقي الناس - كادحاً. كنت أتعلّل بالعذر الخالي من المواساة والذي مفاده أني أكدح لكي أعيل زوجتي وطفلتي. كنت أعرف أنه عذر مهلهل، إذ لو أني وقعت ميتاً في اليوم التالي لاستمرّتا في العيش بطريقة أو بأخرى. فلماذا لا أوقف كل شيء، وأقوم بأداء دور نفسي؟ إن الجزء مني المكرَّس للعمل الذي يوفّر لزوجتي وابنتي المعيشة التي تطلبانها بدون تفكير عقلاني، ذاك الجزء الذي يُبقي الدولابَ دائراً - يا لها من فكرة أنانية، وسخيفة! - كان الجزء الأصغر. وقيامي بدور كاسب لقمة العيش لم يكن يضيف أي شيء إلى العالم؛ كان العالم ينتزع تقديره مني، لا أكثر.

لم يكن للعالم أن يتلقّى أي حظّ من التقدير مني إلا لحظة أكفُّ عن أن أكون عضواً جدياً في المجتمع وأصبح - نفسي. أما الدولة، الأمة،

twitter @baghdad_library

اتحاد أمم الدنيا، فلم يكن إلا تجمّعاً ضخماً واحداً من الأفراد يكرِّرون أخطاءَ أسلافهم. لقد عَلِقوا في الدولاب منذ مولدهم ويظلون فيه حتى مماتهم - وهم يحاولون أن يبجِّلوا هذا الدولاب بتسميته " الحياة ". وإذا ما طلبْتَ من أحدهم أن يشرح معنى الحياة ويعرِّفها، والهدف النهائي منها، فستحصل منه على نظرة خالية من أي معنى كجواب. لقد كانت الحياة شيئاً يتعامل الفلاسفة معه بكتبٍ لا يقرأها أحد. وأولئك الغارقون في معمعة الحياة، " الموثقين إلى روتين الحياة "، لا وقت لديهم ينفقونه للإجابة عن أسئلة الخاملين تلك. " يجب أن تأكل، أليس كذلك؟ ". هذا التساؤل، المفترض أن يكون بديلاً مؤقتاً، وتمّت الإجابة عنه للتو، إن لم يكن بالنفي القاطع فعلى الأقل بالنفي النسبي المزعج على ألسنة العارفين بالأمور، أقول إنَّ هذا التساؤل كان مفتاحَ الإجابةِ عن الأسئلة الأخرى كلها تتوالى على صورةِ لحنٍ إقليدي حقيقي. وقد لاحظت من خلال القراءات القليلة التي قمت بها أنَّ الرجالَ المنغمسين أكثر من غيرهم في الحياة، الذين يشكّلون الحياة، بل هم الحياة نفسها، يأكلون قليلاً، وينامون قليلاً، ويملكون القليل أو لا يملكون أي شيء. ليست لديهم أوهام حول الواجب، أو دوام الأصحاب والأقرباء، أو الحِفاظ على الدولة. إنهم مهتمّون بالحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. ولا يلاحظون إلا نوعاً واحداً من النشاط - الإبداع. لا أحد يستطيع أن يأمرهم بأداء واجباتهم لأنهم عاهدوا أنفسهم بأنفسهم على أن يهبوا كل شيء. إنهم يعطون بلا أي مقابل، لأنَّ ذلك هو السبيل الوحيد للعطاء؛ ذاك كان أسلوب الحياة الذي وجد هوى عندي: لقد كان معقولاً؛ كان حياةً فعلاً - وليس الصورة الزائفة التي يعبدها المحيطون بي.

لقد فهمت هذا كله - في وقت كان عقلي يقف على مشارف مرحلة الرجولة. ولكن كان هناك ملهاة حياتيّة كبرى يجب المرور بها قبل أن تصبح رؤيا الواقع هذه القوةَ المحرِّكة. كان النهمُ الهائلُ للحياة الذي شعر به الآخرون لديّ يعملُ عملَ المغناطيس؛ كان يجذب إليّ الذين احتاجوا إلى نهمي الخاص. كان النهمُ مضخَّماً ألف مرة. وكأنَّ الذين تشبّثوا بي (كبرادة الحديد) اكتسبوا حساسية وأخذوا بدورهم يجذبون آخرين إليهم بدورهم. إن الإحساس ينضج فيصبح تجربة والتجربة تولِّد تجربة.

إن ما لم أصبُ إليه أبداً كان انفصالي عن تلك الحيوات التي تغلغلت في نسيج حياتي وكانت تجعل مصيري جزءاً من مصيرها. لقد كان تخلُّصي من تلك التجارب المتراكمة التي كانت تخصّني فقط بفعل الخمول يتطلَّب جهداً هائلاً. كنت بين حين وآخر أضرب الشبكة وأمزّقها، لكني أزداد اشتباكاً فيها. وبدا أنَّ تحرُّري يُسبِّب ألماً ومعاناة للقريبين مني والعزيزين عليّ. وكل خطوة خطوتها لصالحي الخاص جلبَتْ لي الملامة والإدانة. أصبحتُ خائناً أكثر من ألف مرة. فقدت حتى الحقّ في أن أمرض - لأنَّ " هم " كانوا بحاجة إليّ. لقد " سمحوا " لي أن أبقى خاملاً. ولو أني متُّ لطلوا جثتي بالزنك لتبدو كأنها حيّة.

" وقفت أمام مرآة وقلت يملؤني الخوف: " أريد أن أرى كيف أبدو في المرآة وعيناي مغمضتان " "

كلمات ريختر[48] هذه، حين صادفتها للمرة الأولى، أحدثت فيّ اضطراباً هائلاً. كما فعلت الكلمات التالية، التي تبدو أشبه بالنتيجة الطبيعية للكلمات السابقة الذكر - مما قاله نوفاليس[49]:

---

٤٨ - ريختر : لعله المؤلف الموسيقي وصاحب الكتب حول الموسيقى ارنست فريدريك ريختر (١٨٠٨ - ١٨٧٩) - المترجم .

٤٩ - " نوفاليس " : الاسم المستعار للشاعر الألماني فريدريك فون هاردنبرغ (١٧٧٢ - ١٨٠١) . - المترجم .

twitter @baghdad_library

" تجلس الروح حيث يتلامس العالم الداخلي والعالم الخارجي. إذ لا أحد يعرف نفسه، هذا إذا كان نفسَهُ فقط وليس أيضاً شخصاً آخر في الوقت ذاته."

وأيضاً كما يقول نوفاليس: " أنْ يستحوذ المرءُ على أناه المتفوقة، يعني أن يكون أناه الخاصة، في الوقت نفسه ".

يأتي وقتُ تسيطر فيه الأفكارُ على صاحبها، يصبح فيه المرءُ مجرد ضحيّة سيئة الطالع لأفكارِ شخصٍ آخر. هذا " الاستحواذ " من شخص آخر يبدو أنه يظهر خلال فترات غياب الذات، حين تنفكّ الذوات المتحاربة، إن صح التعبير. في المعتاد يكونُ المرءُ منيعاً ضد الأفكار؛ فهي تأتي وتذهب، تُقبَل أو تُرفَض، تُلبَس كالقمصان، وتُخلَع كجوارب قذرة. ولكن في تلك الفترات التي نسميها أزمات، حين ينشطر العقل ويتشظّى كجوهرة تحت ضربات مطرقة، تسيطر تلك الأفكار البريئة الجديرة بحالم، تسكن في شقوق الدماغ، وتُحدث، بعمليةِ تسرُّبٍ دقيقةٍ، تغيُّراً واضحاً، ونهائياً في الشخصية. ظاهرياً، لا يحدث تغيُّر يُذكَر؛ والشخص المبتلي لا يتغيَّر سلوكه هكذا فجأة: على العكس، فقد يتصرَّف بطريقة طبيعيّة " أكثر من ذي قبل. وهذه الطبيعية الظاهرية تكتسب أكثر فأكثر صفةَ الأداة الواقية. وينتقل من الخداع السطحي إلى الخداع الداخلي. إلا أنَّه مع كل أَزمة جديدة يصبح أشدَّ وعياً بتغيير ليس هو بتغيير، وإنما هو بالأحرى تكثيفُ شيءٍ مدفونٍ عميقاً. والآن حين يغمض عينيه يستطيع حقاً أن ينظر إلى نفسه. لم يعد يرى قناعاً. إنه، بالضبط، يرى دون أن يرى. رؤية دون إبصار، إدراك مائع للا محسوسات: اندماج الرؤية والصوت: قلب الشبكة. هنا تتدفق الذات

الشخصية النائية التي تتجنَّب الاتصال الفظ بالحواس؛ هنا تتراكب الأنغام المتوافقة للإدراك بتحفّظ في تناغمات برّاقة،نابضة بالحياة. ولا تُستخدَم أي لغة، ولا تُرسَم أي خطوط عريضة.

حين تغرقُ سفينةٌ تستقرٌ ببطء؛ وتطفو القطعُ الصغيرة، والسواري، وحبال الأشرعة، مبتعدة. وفي قاع المحيط المزروع بالموت يترصَّع بدنُ السفينة الدامي بالجواهر؛ وتبدأ الحياة المجهولة والخالدة.

وكالسفن، يغرق الناس مراراً وتكراراً. وحدها الذاكرة تنقذهم من التبدُّد الكامل، ويتدخَّل الشعراء لإنقاذ الموقف، يُسقطون عيدان القش للغرقى ليتمسَّكوا بها أثناء غرقهم، ويعود الأشباح لارتقاء الدرَج المائي، يقومون بصعودٍ مُتَخَيَّل، بسقوطٍ مدوِّخ، يحفظون أرقاماً، تواريخَ، أحداثاً عن ظهر قلب، خلال تحوّلهم من غازٍ إلى سائل وبالعكس. لا عقلَ قادراً على أن يسجِّل التغيُّرات المتغيِّرة. لا شيء يحدث في العقل غير الصدأ والتفتُّت التدريجيين للخلايا. ولكن في العقل، تتشكَّل عوالم مجهولة، غير مسمَّاة، أو متمثّلة، وتنفصل، وتتّحد، وتنحلّ وتتناغم بدون توقف. في عالم العقل، الأفكارُ عناصر خالدة تشكِّل كويكبات الحياة الداخلية المتلألئة. نتحرك في مداراتها، بحرّية إذا اتّبعنا مخططاتها المعقّدة، وبعبودية وذلّ إذا ما حاولنا أن نُخضعها. إنَّ كل ما هو خارجيّ ليس إلا انعكاساً تبثّه آلة العقل.

الإبداع لهوٌ أبديّ يحدث عند الخط الفاصل؛ إنه عفويّ وإلزاميّ، وخاضع للقانون. تكفي خطوة واحدة بعيداً عن المرآة وترتفع الستارة. Séance Permanente (جلسة مستمرة). وحدهم المجانين مستثنون. وحدهم الذين " فقدوا عقولهم "، كما نقول. فهؤلاء لا ينون يحلمون

twitter @baghdad_library

بأنهم يحلمون. إنهم يقفون أمام المرآة مفتوحي العيون وغارقين في نومٍ عميق؛ وقد ختموا على ظلّهم داخل قبر الذاكرة، تتهاوى النجوم داخلهم لتشكُّل ما يدعوه هوغو " مستودعاً مبهراً للأبصار لشموسٍ تجعل من نفسها كلاباً من أحجامٍ مختلفة "

الحياة المبدعة! إنها صعودٌ إلى السماء. تجاوزُ الذات . انطلاقٌ إلى عنان السماء، التشبُّث بسلالم طائرة، ارتقاءٌ، تحليقٌ، رفعُ العالم من فروة رأسه، إيقاظ الملائكة من أسرَّتها الأثيرية، الغرقُ في أعماقٍ نجميّة، التعلُّق بأذيال النيازك. نيتشه كتبَ عنها بوجدٍ - ومن ثم تلاشى داخل المرآة ليموت جذراً وزهرةً. كتب يقول " دَرَجٌ ودَرَجٌ مناقض "، وفجأة لم يعد هناك أي قاع؛ والعقل الذي تشظّى كحجرٍ كريم، سُحِقَ تحت ضربات الحقيقة.

مرَّ عليَّ حينٌ من الزمنٌ كنت أعمل خلاله صائناً لوالدي. كنت أترَكُ وحدي ساعات طوال، مزروياً في حجيرة صغيرة كنا نستخدمها كغرفةِ مكتب. وبينما يشرب هو مع أصحابه كنت أنا أرضع من زجاجة الحياة المبدعة. رفاقي كانوا الأرواح الحرة، السادة المطلقين على أرواحهم. الشاب الجالس هناك في الضوء الأصفر الهزيل أصبح في أقصى حالات التشوّش؛ إنه يقطن داخل شقوق أفكار عظيمة، يربض كناسكٍ بين التضاعيف الجرداء لسلسلة جبال شاهقة؛ ينتقل من الحقيقة إلى الخيال ومن الخيال إلى الإبداع. وعند هذا الباب الأخير، الذي لا عودة لمن يلجه، يكتنفه الخوف. كان الإيغال في المغامرة بالنسبة إليه يعني أن يتجوَّل وحيداً، أن يعتمد كلياً على نفسه.

إن الهدف من الانضباط هو الإعلاء من شأن الحرية. لكن الحرية تقود إلى اللا نهاية واللا نهاية مرعبة. ثم تظهر الفكرة المريحة في

التوقُّف عند الحافة، في تدوين أسرار الاندفاع، والإكراه، والدافع الكامن خلف غمر الحسّ بالروائح الإنسانية. أن تصبح إنسانياً بكل معنى الكلمة، الشيطان الشفوق مجسَّداً، صانع أقفال الباب الضخم المؤدّي إلى النائي والبعيد ويعزل إلى الأبد ...

الرجال يغرقون كما السفن. والأطفال كذلك. هناك أطفال يستقرون في القاع وهم في سن التاسعة، ومعهم سرٌّ خداعهم، وهناك وحوشٌ غادرون ينظرون إليك بعيون الشباب البريئة، الخالية من المعنى؛ جرائمهم غير مسجّلة، لأنه ليس لدينا تسمية لها. لماذا تأسرنا الوجوه الجميلة هكذا؟ هل للأزهار الرائعة الجمال جذور شريرة؟

أدرسها جزءاً جزءاً؛ القدمين، واليدين، والشعر، والشفتين، والأذنين، والثديين، أنتقل من السُرَّة إلى الفم ومن الفم إلى العينين، المرأة التي وقعتُ عليها، مزّقتُها، عضضتُها، خنقتها بالقبلات، المرأة التي كانت مَرَه وهي الآن مونا، التي كانت وستكون أسماءَ أخرى، أشخاصاً آخرين، تجميعات أخرى لأجزاء، أضحت بعيدة المنال، عصيّة على الاختراق، مثل تمثال بارد في حديقة منسيّة فوق قارة ضائعة. عند الساعة التاسعة أو قبلها تحمل مسدساً ليس في نيّتها أن تستخدمه، قد تضغط على الزند الذي يتلاشى عن وعيها ثم تسقط كبجعة ميتة من ذرى أحلامها. قد يحدث هذا، لأنها في الواقع كانت مشتّتة الذهن، كان تفكيرها أشبه بغبار تذروه الرياح هنا وهناك. في قلبها ناقوس يدق، ولكن لا أحد يعرف مغزاه. صورتها لا تشبه أي شيء ضمرتُهُ في قلبي. لقد تطفّلت عليه، تسلّلت إليه خِلسَةً كأنما من خلال شاشٍ رقيق من بين شقوق الدماغ في لحظةِ تأذّي. وحين اندمل الجرح بقيت الندبة، كأثرِ ورقةٍ خضراء هشّة على حجر.

twitter @baghdad_library

في الليـالي الآسـرة حين لا يتـرا ءى لي، وأنا مـتـرعٌ بطاقـةِ الإبداع، غيـر عينيـها وفي تينك العـينين تطفو أشبـاحٌ على السطح، مرتفـعةً كبرَكٍ تبقبق من الحِمَمْ، ثم تتـلاشى، تختـفي، وتعـود إلى الظهور، جـالبة الموت، الخـشـيـة، والخـوف، والغـمـوض. مـخلوقـة يسـعـى الجـمـيع ورا ءها ، زهرة مخبَّأة، لا تشمُّها الكلاب أبداً. خلف الأشباح تقف طفلة منكمشة، تحدِّق من خلال أجمة كثّة، تبدو أنهـا تَعرِضُ نفسهـا بفسقٍ. ثم تغوص البـجعة، ببطء، كـمـا في الصـور السـينمائيـة، وتسـقط رقـاقـات الثلج مع سـقـوط الجـسـد، ومن ثم أشـبـاح ومـزيد من الأشـبـاح، وتعـود العـينان عـينين من جـديد، تلتـهبـان مـثل فـحمٍ حجـريّ، ثم تتـوهّجـان كـجمـرتين،ثم ترقّـان كـزهرتين، ثـم يلوح الأنـف، الفم، الوجنتـان، الأذنان، من قلب العـمـا ء، ثقيلة كالقمر، يسقط قناع، يتّخذ اللحم شكلاً، وجهاً، قسمات.

ليلة بعد ليلة، من كلمـاتٍ إلى أحلام، إلى لحم، إلى أشباح. امتلاكٌ ولا امـتـلاك. أزهار القـمـر، نخـيلٌ عـريضُ السـعف ضـخم الحـجم، نبـاح الكلاب، جسد طفل أبيض هشّ، الحمم تبقبق، تباطؤ رقاقات الثلج، قاع لا قـرارة له حيث يصـير الدخان لحمـاً. ومـا اللحم إن لـم يكن قـمراً؟ ومـا القـمـر إن لم يكـن ليـلاً؟ والليل اشـتـيـاقٌ، اشـتـيـاقٌ، اشـتـيـاقٌ. فـوق كل احتمال.

في تلك الليلة قـالت حين اسـتـدارت وانطلقت ترتقي الدرج بسرعـة كـبيـرة " فكّر فينا! ". وكـأنما كان فـي استطاعـتي أن أفكر في غيـر ذلك. نحن الاثـنان والدرج نصـعـد إلى الأبـد. ثم " الدرج المناقض "؛ الدرج في غـرفـة مكتـب والدي، الدرج يؤدي إلـى الجـريمة، إلـى الجنون، إلى بـوابات الإبداع. فـكيـف يمكنني أن أفكّر في أي شيء آخر؟

الإبداع. أن أبدع الأسطورة التي تناسب المفتاح الذي سأفتح به روحها.

امرأة تحاول أن تفشي سرّها. امرأة يائسة، تسعى من خلال الحب إلى أن تتّحد مع نفسها. يقف المرء أمام ضخامة لغز مثل أم أربعة وأربعين تشعر بالأرض تنسلُّ من تحت قدميها. كل باب يُفتَح يؤدّي إلى فجوة أوسع. على المرء أن يسبح كنجمٍ في محيط الزمن لم يخضه أحد. يجب أن يتحلّى بصبر راديوم مطمور داخل قمةٍ من قمم هيمالايا.

مرّت عشرون سنة منذ أن بدأت دراسة الروح النيّرة؛ في ذلك الوقت كنت قد أجريت مئات التجارب. والنتيجة هي أني لم أعرف شيئاً يُذكَر - عن نفسي. أعتقد أنَّ الحال هو نفسه مع القُواد السياسيين أو العباقرة في المجال العسكري. إنَّ المرء لا يكتشف أي شيء عن أسرار الكون؛ وفي أحسن الأحوال يتعلَّم شيئاً عن طبيعة المصير.

في البدء يرغب المرء في أن يباشر في حل كل مشكلة مباشرة. وكلما كان العمل مباشراً وملحاحاً أحرز نجاحاً سريعاً وأكيداً في الوقوع في الفخ. لا أحد أشدّ عجزاً من الفرد الذي يتصرَّف ببطولة. ولا أحد أكثر منه يسبِّب المآسي والفوضى. إنه يومض بسيفه فوق العقدة الغوردية[٥٠]، ويَعِدُ بعملٍ سريع. وهذا وهمٌ ينتهي بمحيطٍ من الدماء.

إن الفنان المبدع والبطل تجمعهما سمةٌ مشتركة. فعلى الرغم من أنه يعمل عند مستوى مختلف، إلا أنه أيضاً يعتقد أنَّ لديه حلولاً يقدمها. ويهِبُ حياته لإنجاز انتصاراتٍ وهمية. وعند نهاية كل تجربة كبرى، سواء

---

٥٠ - العقدة الغوردية : في التراث الإغريقي ، عقدة معقّدة ربطها الملك غورديوس الفريجي ، وقطعها الاسكندر بسيفه .- المترجم .

twitter @baghdad_library

أقام بها رجل دولة، أم محارب، أم شاعر أم فيلسوف، فإنَّ مشاكلَ الحياة تُنتجِ التعقيدُ الملغّز نفسه. ويُقال إنَّ أسعد الناسِ هم الذين لا تاريخ لهم. أما الذين لهم تاريخ، الذين صنعوا تاريخاً، فيبدو أنَّ كلَّ ما يفعلونه هو أن يؤكّدوا من خلال إنجازاتهم على أبديّةِ الكفاح. وهؤلاء أيضاً، في النهاية، يختفون تماماً كما يختفي الذين لم يبذلوا أي جهد، الذين قنعوا بالعيش وبالاستمتاع بالحياة.

من المفترض أن الفرد المبدع (من خلال صراعه مع أداته) يعرف متعةً تتوازن، إذا لم نقل تَرجحُ كفتُها، مع الألم والأسى المُصاحبَين لكفاحه للتعبير عن نفسه. إنه يعيش عمله، كما نقول. لكن هذا نمط فريد من الحياة يختلف إلى أقصى درجة في حالةِ الفردِ العادي. وفقط على أساس أنه يعي حياة أكثر، أو وفرة الحياة، يمكن القول إنه يعيش عمله. وإذا انعدم الإدراك، فلا هدف ولا فائدة من استبدال الحياة الوهمية بحياةٍ واقعية مُغامرة صرف. إنَّ كل مَنْ يرتفع فوق نشاطات الدورة اليومية فإنه يفعل ذلك ليس فقط أملاً في أن يوسِّع حقل تجربته، أو حتى في إثرائها، وإنما في تسريعها. بهذا المعنى فقط يكون للكفاح مغزى. وإذا ما قبلنا وجهة النظر هذه، لا يعود للفرق بين الفشل والنجاح وجود. وهذا ما يتوصّل كل فنان عظيم إلى تعلُّمه خلال مسيرته - أي أنَّ على العملية التي انخرطَ فيها أن تكون على صِلة ببُعدٍ آخر من الحياة، وأنه بتطابقه مع هذه العملية إنما " يزيد " الحياة. على ضوء هذه النظرة إلى الأشياء هو يبتعد على الدوام عن - ويُصان ضد - الموت الغادر الذي يبدو أنه ينتصر على كل شيء من حوله. إنه يكتشف أنَّه لن يعرف السرّ الكبير أبداً وإنما سيندمج في صُلبِ كيانه. عليه أن يصبح

جزءاً من السرّ، أن يعيش فيه ومعه. إنَّ القبولَ هو الحل: هو فنٌ، وليس أداءً متبجِّحاً لدور الألمعي. إذاً من خلال الفن يُقيمُ الإنسانُ أخيراً اتصالاً مع الواقع: هذا هو الاكتشاف الأكبر. هنا كل شيء لهوٌ وإبداع؛ هنا لا وجود لموطئ قدم راسخ تُطلَق منه قذائف لكي تخترق الأجواء الخانقة للحماقة، والجهل والطمع. العالم ليس بحاجة إلى أن يُنظَّم: العالم هو النظام مجسَّداً. ومهمتنا هي أن ننسجم مع هذا النظام، أن نعرف ما هو نظام العالم تمييزاً له عن الأنظمة المتمنَّاة التي نسعى إلى أن يفرضها كلُ منا على الآخر. والسلطة التي نتوق إلى امتلاكها، لكي نؤسّس كل ما هو خيِّرٌ، وصحيحٌ، وجميلٌ، سوف يتَّضح أنها، إذا ما حصلنا عليها، ليست أكثر من وسيلة ليدمِّر كلٌ منا الآخر. ومن حسن الحظ أننا مجرَّدون من السلطة. علينا أولاً أن نكتسب الرؤيا، ومن ثم الانضباط وقوة التحمُّل. وإلى أن نتَّصِف بالتواضع بحيث نعترف بوجود رؤيا تتجاوز رؤيانا، إلى أن نكتسب الإيمان والثقة بقوى متفوّقة، سيظل الأعمى يقود الأعمى. إن الذين يؤمنون بأن العمل والمقدرة العقلية سوف ينجزان كل شيء لابد أنهم سيُخدَعون بتغيُّر الأحوال الدونكيخوتي وغير المتوقَّع. إنهم أولئك المُحبَطين دائماً؛ ولما لم يعد في مقدورهم أن يضعوا اللوم على الآلهة، أو الله، تحوَّلوا إلى أخوتهم من البشر وصبّوا جام غضبهم العقيم بالصراخ " هذه خيانة! حماقة!"، وعبارات جوفاء أخرى.

إنَّ فرح الفنان الأعظم هو أن يعي وجود نظامٍ أسمى للأشياء، وأن يتبيَّن بالتلاعبِ بدوافعه الخاصة قسراً وعفوياً مواطنَ التشابه بين الإبداع الإنساني وما يسمّى بالإبداع " القدسي ". وفي الأعمال الخيالية يتجلّى وجود قانون من خلال النظام بوضوحٍ أشدّ مما يتجلّى في أعمالٍ فنيّة

twitter @baghdad_library

أخرى. لا شيء أقلّ جنوناً، وأقلّ تشوّشاً من عملٍ خيالي. مثل هذا الإبداع، الذي ليس أقلّ من إبداعٍ صرف، يسود المستويات كلها، يُوجدُ، كالماء، مستواه الخاص. والتأويلات الغفيرة التي تقدَّم لا تساهم في أي شيء، إلا في الإعلاء من أهمية ما يبدو غامضاً. وهذا الغموض يُحدثُ بصورةٍ ما إحساساً عميقاً؛ الكلّ يتأثّرون، حتى الذين يدَّعون بأنهم لا يتأثّرون. في الأعمال الخيالية شيء حاضر لا يمكن تشبيهه إلا بالإكسير. هذا العنصر الغامض، الذي غالباً ما يُشار إليه كـ " هراء محض "، يجلب معه نكهة وعبقَ ذلك العالم الأرحب والمستغلق الذي نوجد فيه نحن والأجسام السماوية كلها. وكلمة " هراء " هي من أشدّ الكلمات إرباكاً في مفرداتنا اللغوية. فهي كالموت، ليس لها إلا جانب سلبي. لا أحد يستطيع أن يشرح معنى الهراء: إذ يمكن فقط أن يُعرَض. والقول، فوق ذلك، إن المعنى وانعدام المعنى (الهراء) قابلان للتبادل يُثقِلُ المسألة. إن الهراء ينتمي إلى عوالم أخرى، وأبعاد أخرى، والإيماءة التي نقوم بها أحياناً ونحن نبعدها عنا، الحركة الحاسمة التي نطردها بها، تشهد على طبيعتها المزعجة. إنَّ كل ما لا نستطيع أن نحصره داخل إطار فهمنا الضيِّق نرفضه. لذا فإنَّ عمق التفكير والهراء يمكن أن تربط بينهما صِلاتٌ معيَّنة أكيدة.

لماذا لم أندفع فوراً مطلقاً هراءً محضاً؟ لأني، كآخرين، كنت أخشى أن أفعل ذلك، وفي موقع أعمق من هذا كانت الحقيقة التي تقول إنني، بعيداً عن وضعِ نفسي في موقعٍ ناءٍ، وقَعْتُ في قلب الفخ. كنت قد نجوت داخل مدرسة الدادائية المدمِّرة الخاصة بي: تقدَّمتُ، إن صح أن أقول هذا، من كوني مثقفاً إلى ناقدٍ إلى حاملِ فأس. كانت تجاربي

الأدبيـة تقف بين الأطلال، كـمـدنِ الزمن الغـابر التي نَهَبَتْـهـا قـبـائل الفـاندال. أردت أن أبني، لكن المواد الأوليـة كـانت غـيـر جديرة بالثـقـة والمخططات لم تكن حتى قـد وضـعـت. وإذا كـان جـوهر الفن هو الروح الإنسانيـة، إذاً يجب أن أعـتـرف بأني مع الأرواح الميـتـة لا أرى أي شيء ينشأ من تحت يدي.

إنَّ الوقوعَ في مأزق الأحداث الدرامية، أن يكون المرء مشتركاً فيها على الدوام، يعني من بين مـا يعنيـه أنـه غـيـر مـدرك لحدود تلك الدراما الأكبر التي لا يشكِّل النشاط الإنساني فيها إلا جزءاً يسيراً. إن عـمـليـة الكتـابة تضع حداً لنوعٍ واحدٍ من النشـاط لكي تُطلِق آخر. وحين يسـيـر راهب، مـتـأمّلاً مصلّياً، بـخطى وئيـدة وبصمت في قـاعة مـعـبـد، ويجـعـل سيره هكذا الصلوات تتوالى بسرعـة، يعطي صـورة حيّة لعـمليـة الجلوس وممارسـة الـكتـابة. إن عـقـل الكاتب، الذي كفَّ عن الانشـغـال بالمراقـبـة وجمع المعرفـة، يتـجـوَّل مـتـأمـلاً وسطَ عـالمٍ من الأشكال يدور بمجرد لمسـة من أجنحـتـه. إنه ليس طاغـيـة يطبِّق إرادته على تابعـين خـاضـعـين في مملكته الحرام، بل مكتشف بالأحرى، يُخرج إلى الحيـاة مخلوقات أحلامه الغافية. وعملية الحلم، مثل تيار من هواء منعش في منزل مهجور، يضع أثاث العقل في محيطٍ جديد. الكراسي والطاولات تتعاون؛ وينبعث غاز خفيّ، وتبدأ اللعبة.

السؤال عن الهدف من اللعبـة، وصلِتُها بالحيـاة، عملٌ لا جدوى من ورائه. تمامـاً كـسـؤال الخـالق لماذا خلق البـراكين؟ والأعـاصـيـر؟ لأنه من الواضح أنهـا لا تساهم إلا في إحداث الكوارث. ولكـن، بما أن الكوارث مدمِّرة فقط بالنسبة إلى المُحَاصَرين داخلها، في حين أنها يمكن أن تكون

twitter @baghdad_library

منيرة بالنسبة إلى الناجين منها ويدرسونها ، وكذا هي في العالم المبدع. الحالم العائد من رحلته، هذا إذا لم تتحطَّم سفينته في الطريق، قد يحوِّل، وهذا ما يفعله عادة، انهيارَ بنيته الهشّة إلى مادةٍ أخرى. والطفل قد لا يمدّه انفجار فقاعة صابون بأكثر من دهشة وبهجة. والطالب صاحب الأوهام والسرابات قد تكون ردّة فعله مختلفة. والعالِم قد يُضفي على فقاعة صابون الثراء الانفعالي لعالم من الفكر. الظاهرة نفسها التي تدفع الطفل إلى الصراخ بهجة قد تولّد، في عقل مجرِّب رصين، رؤيا مذهلة للحقيقة. وعند الفنان تبدو ردّات الفعل المتناقضة هذه مندمجة أو ممتزجة، مُنتجةً ذاك الشيء المُطلَق، الحفّار الضخم المسمَّى " الإدراك ". الرؤية، المعرفة، الاكتشاف والاستمتاع - هذه القدرات أو الطاقات باهتة وبلا حياة دون إدراك. إنَّ لعبة الفنان تكمن في الانتقال إلى الواقع؛ إنها النظر أبعد من مجرد " الكارثة " التي تعرضها صورة ساحة حرب خاسرة أمام العين المجرَّدة. إذ، منذ بداية الزمن والصورة التي عَرَضَها العالم أمام العين المجرَّدة ليست إلا صورة ساحة وغى شنيعة لقضايا خاسرة. هكذا كانت وهكذا ستظل إلى أن يكفَّ الإنسان عن اعتبار نفسه مجرد مركز للصراع، إلى أن يتولّى مهمة أن يكون ذاته الحقيقية.

twitter @baghdad_library

الفصل العاشر

في أيام السبت أتركُ العمل عادة عند الظهيرة، وأتناول طعام الغداء إما مع هيمي لوبشر وروميرو أو مع أوروورك وأومارا. أحياناً كان كرلي ينضم إلينا، أو جورج ملتياديس، وهو شاعرٌ يوناني وعلاّمة كان أحد أفراد كتيبة السُعاة. وكان أومارا بين حين وآخر يدعو إيرما ودولوريس لتنضمّا إلينا؛ وكانتا قد شقّتا طريقهما وارتقيتا من سكرتيرتين متواضعتين في مكتب الاستخدام الكوني المتعضّي إلى بائعتين في متجر تنويعيّ كبير في الجادة الخامسة. وكانت وجبة الطعام مادة تمتد حتى الساعة الثالثة أو الرابعة من بعد الظهر. بعد ذلك أجرُّ قدميَّ وأنتقل إلى بروكلن لأقوم بزيارتي الأسبوعية لمود والطفلة الصغيرة.

لما كان الثلج ما يزال يغطي الأرض لم نعد نتمكَّن من الخروج والتمشّي في الحديقة العامة. وعموماً ترتدي مود مبذلاً وبرنس استحمام؛ ويكون شعرها مدلّى طويلاً ومُرسلاً، ويصل حتى خصرها. وكانت الغرف شديدة الإحماء ومزدحمة بالأثاث. وكانت عادة تحتفظ بصندوق من الحلوى بالقرب من الأريكة حيث تضطجع.

التحيات التي نتبادلها تجعل المرء يعتقد أننا صديقان حميمان.

ولدى وصولي تكون الطفلة أحياناً غائبة، ذهبت إلى منزل الجيران لتلعب مع إحدى صديقاتها الصغيرات.

وتقول مود، بنبرة تأنيب خفيفة "لقد انتظرتُكَ حتى الساعة الثالثة" لكنها في سرّها كانت تفرح لأنَّ الأمر آل إلى ذلك.

فأشرحُ لها قائلاً إنَّ عملي في المكتب أخّرني. ورداً على هذا ترميني بنظرةٍ لسانُ حالها - " أنا أعرف أعذارك. لِمَ لا تفكّر في حجّة مختلفة؟ "

وتسألني على عجل " كيف حال صديقتك دولوريس؟ "، أو، ترميني بنظرة حادّة وتقول " ألم تَعُدْ صديقتك الآن؟ "

إن مثل ذلك السؤال كان المقصود به تلميحٌ خفيف إلى أنها تأمل في ألاّ أكون أخدَعُ المرأة الأخرى (مونا) كما خدعْتُها. وطبعاً ما كانت لتذكر مونا بالاسم، ولا أنا فعلت. كانت تقول " هي " أو " خاصتها " بطريقةٍ لا ريبَ في وضوحِ المرأة المُشار إليها بها.

تلك الأسئلة كانت، أيضاً، تحمل تضمينات أعمق. ولما كانت إجراءات الطلاق ما تزال في مراحلها الأولية، وبما أنَّ قطعَ العلاقات لم يكن بعد قد أُقِرَّ بشكل قاطع قانونياً، لم يكن معروفاً ماذا يمكن أن يحدث في تلك الأثناء. على الأقل لم نعد أعداءً. كانت الطفلة دائماً تربط بيننا - برباطٍ قوي. وإلى أن تتمكّن من ترتيب حياتها بشكل مختلف، كانت الاثنتان تعتمدان عليَّ. كانت مود تودُّ أن تعرف المزيد عن حياتي مع مونا، سواء أكانت تسير على أحسن ما يرام كما أملنا أم لا، غير أنَّ الكبرياء كانت تمنعها من الاستفسار بصراحة مطلقة. ولا شك في أنّها قالت في نفسها إنَّ السنوات السبع التي عشناها معاً تشكِّل

twitter @baghdad_library

عاملاً لا يُستهان به أبداً في هذا الوضع الذي يبدو الآن غامضاً. كانت تكفي خطوة زائفة واحدة تتخذها مونا لكي أعود إلى نمط الحياة السابق. كان يتعيَّن عليها أن تستغل أفضل استغلال هذه الصداقة الجديدة والغريبة التي أسسنا لها. فقد تكون بداية لصداقةٍ أخرى وأعمق.

أحياناً كنت أشعر بالرثاء لها حين يتبدّى هذا الأمل غير المتوقَّع بجلاء تام. ولم أشعر أبداً بأي خوف من أن أعود إلى النمط القديم من الحياة الزوجية. ولو أنَّ أي مكروه وقع لمونا - إنَّ خيط الانفصال الوحيد عنها الذي أفكِّر فيه هو الموت - لَمَا عُدتُ إلى حياتي السابقة أبداً مع مود. لقد كان من المقبول أكثر بكثير أن ألجأ إلى شخص مثل إيرما أو دولوريس، أو حتى إلى مونيكا، النادلة الصغيرة في المطعم اليوناني.

" لِمَ لا تأتي إلى هنا وتجلس إلى جانبي - لن أعضّك "

بدا صوتها وكأنه يتناهى من مكانٍ بعيد. وكان يحدث غالباً، ونحن وحدنا، أنا ومود، أن يشرد ذهني. وفي هذه المناسبة، مثلاً، كنت أردُّ على كلامها بشبه غشية، جسدي طائع لرغباتها أما بقيّتي فغائبة. وكان يتبع ذلك صراعٌ وجيز بين إرادتين، صراعٌ بالأحرى بين إرادتها وغياب إرادتي. لم تكن لدي أي رغبة في دغدغة خيالاتها الجنسية؛ كنت هناك لقضاء بضع ساعات ومن ثم أنطلق بدون أن أفتح جراحاً جديدة. ولكن عادة، كانت يدي تضلُّ طريقها بشرود إلى جسدها الشهواني. أولاً لا يتعدّى الأمر المداعبة اللا إرادية التي يمارسها المرء مع حيوانٍ منزلي. ولكن شيئاً فشيئاً تجعلني أعي أنها تستجيب باستمتاع مستتر؛ ثم، ما أن تنجح في تركيز انتباهي على جسدها، حتى تقوم بحركةٍ سريعة لتقطع اتصالنا.

" تذكَّر، أنا لم أعد زوجتك! "

كانت تحب أن ترميني بهذه العبارة، لعلمها أنها سوف تحرّضني على معاودة بذل الجهود، ولعِلمها أنَّ ذلك سيجعل عقلي يركِّز انتباهه، وأيضاً أصابعي، على الموضوع المحرَّم: هي. ومثل ذاك التوبيخ الساخر كان له أيضاً هدف آخر - أن يثير الوعي بقدرتها على أن تعطي أو تمنع. كانت دائماً تبدو وكأنها تقول بجسدها: " لكي تحصل على هذا لا تستطيع أن تتجاهلني ". كانت فكرة أن في استطاعتي أن أكتفي بجسدها وحده مذلّة ما بعدها مذلّة لها. وكأنها تريد أن تقول " سوف أمنحك أكثر مما يمكن لأي امرأة أن تمنحه لك؛ فقط لو تنظر إليّ، فقط لو تراني، ترى حقيقتي ". كانت تعلم علم اليقين أنّي لا أراها، وأنَّ تباعدَ مركزينا أصبح حقيقياً أكثر بكثير، وخطراً أكثر بكثير، مما كان في أي وقت مضى. وكانت تعلم أيضاً أنَّ لا سبيلَ آخرَ للوصول إليّ إلاّ عبر جسدها.

غريبٌ كيف يمكن للجسد، مهما بلغت ألفتنا مع مشهده وملمسه، أن يغدو غموضه بليغاً حالما نشعر أن صاحبه قد أصبح مراوغاً أو متملِّصاً. وأذكر الحماس المتجدِّد الذي استكشفْتُ به جسَدَ مود بعد أن علمت أنها زارت طبيباً ليفحص لها مهبلها. ومما زاد توابل الوضع أن الطبيب الآنف الذكر كان أحد المتودّدين إليها القدامى، أحد أولئك المتودّدين الذين لم تأتِ قط على ذكرهم. وذات يوم إذا بها تُعلن بدون مقدمات أنَّها قد عرَّجت على مكتبه، وأنّها كانت ذات يوم قد سقطت ولم تُخبِر أحداً بالأمر، وحين تصادف أن التقت مؤخراً بعشيقها القديم، الذي كانت تعلم أنها تستطيع أن تثق فيه (!) قرّرتْ أن تدعه يُجري لها فحصاً.

twitter @baghdad_library

" دخلت عليه هكذا وطلبتِ منه أن يفحصك؟ "

" كلا، لَيس هكذا بالضبط "، اضطَّرتْ إلى أن تضحك من نفسها.

" حسن، ما الذي حصل بالضبط؟ "

كنت توّاقاً إلى معرفة ما إذا كان وجد أنها قد تحسَّنت أم لا خلال فترة السنوات الخمس أو الست التي مضت. ألم يحرز أي نجاح؟ طبعاً كان متزوجاً، كما أبلغتني للتو. لكنه كان أيضاً وسيماً وسامة صارخة، وذا شخصية جذّابة، هذا أيضاً تجشَّمت المشقة وأبلغتني به.

" حسن، كيف كان شعورك وأنت متمدِّدة على الطاولة ومنفرجة الساقين واسعاً - أمام حبيبك القديم؟ "

حاولت أن تفهمني أنها كانت جامدة تماماً، وأن الدكتور هيلاري، أو كائناً ما كان اسمه، حثّها على الاسترخاء، وذكَّرها بأنه يتصرَّف كطبيب، وما إلى ذلك من كلام.

" وهل نجحت في الاسترخاء - أخيراً؟ "

مرة أخرى ضحكت، واحدة من تلك الضحكات المعذَّبة التي تطلقها دائماً حين يتوجَّب عليها أن تتكلَّم عن أمورٍ " مخجلة ".

ألحَّيتُ قائلاً " حسن، ما الذي فعله؟ "

" أوه، لم يفعل شيئاً كثيراً، حقاً. فقط قام بتفحُّص المهبل " - لم تكن تقول مهبلي! - " بإصبعه. طبعاً كان يكسو إصبعه بغطاء من المطاط "، أضافت هذه الجملة الأخيرة وكأنما لتحلَّ نفسها من أي ارتياب في كون الإجراء ربما أكثر من مجرَّد إجراء روتيني.

دهشتُ إذ تبرَّعت بالقول " لقد رأى أني قد امتلأت بشكل جميل "

" أوه، أقال هذا، أحقاً قاله؟ إذن فقد أجرى لك فحصاً شاملاً؟ "

إن ذكرى هذه الحادثة الصغيرة أثارتها ملاحظةٌ كانت قد أدلَتْ بها. فقد قالت إنها قلقت بشأن الألم القديم الذي عاد إلى الظهور مؤخراً. ووصفت السقوط الذي حصل لها قبل سنين عديدة وذلك حين اعتقدت، خطأ، أنها قد آذت حوضها. وقد تكلّمت بجدّيةٍ صارمة حتى أنها حين أمسكت يدي ووضعتها فوق كسّها، بالضبط على حافة mons Venus (مثلث منطقة العانة)، حسبت أن تلك الإيماءة كانت بريئة براءة كاملة. كان لديها كمٌّ كثيف من الشعر هناك، شجيرة ورد حقيقية إذا ما شردت الأصابع واقتربت منها على مسافة مدهشة تنتصب على الفور حتى أطرافها، وتتيبّس كشعيرات الفرشاة. كان واحداً من تلك الأشياء الكثّة يثير ملمسها الجنون من خلال نسيج حريري أو مخملي رقيق. وغالباً، في الأيام الخوالي، حين كانت ترتدي ملابس رقيقة جذّابة، حين كانت تتصرّف بخلاعة وغواية، كنت أمدُّ يدي وأقبض عليه وأتمسّك به ونحن واقفان في مكان عام، في بهوٍ لدار مسرح، أو في محطة مرفوعة، كانت تثور غضباً مني لذلك. لكني كنت أقترب منها متضامّاً وأسدُّ مشهد يدي المتسلّلة، ثم أتابع تمسُّكي به، وأقول: " لا أحد يستطيع أن يرى ما أفعل، لا تتحركي! " وأواصل التحدُّث إليها، ويدي مدفونة في كتلتها الكثّة، وتتسمَّر من فرط الخوف. وفي قاعة المسرح، وحالما تخفت الأضواء، كانت دائماً تباعد ما بين ساقيها واسعاً وتتركني أعبث بها. وحينئذ لم يكن يخطر ببالها أبداً أن تفتح فتحة بنطالي وتلعب بأيري طوال فترة العرض.

كان كسّها ما يزال مثيراً. هنا أصبحت أحسُّ بوجوده، بيديّ المستقرة باستكانة على حافة الجزدان الثخين. وظلت تحافظ على سيل

twitter @baghdad_library

الكلام المتدفِّق لكي تُرجئ برهةً الصمتَ المُحرِج تلك حين لا شيء غير ضغط يدي واعترافها الصامت برغبتها في بقائها هناك.

وفجأة، وكأني مهتم اهتماماً بالغاً بما تروي، أذكِّرها بزوج أمها الذي فقدته. وكما توقّعت، فرحت للتو بالاقتراح. وأثارها مجرد ذكر اسمه، فوضعت يدها فوق يدي وضغطتها بحرارة. وبدا أنها لا تمانع أبداً في أن تغوص يدي أكثر قليلاً، وأن تتشابك أصابعي بالشعر الكثّ - في الوقت الراهن. وواصلت الحديث عنه بلا انقطاع، تماماً كتلميذة مدرسة. وبينما أصابعي تلتفُّ وتنحلُّ شعرت بشغف مضاعف يتصاعد فيَّ. وقبل سنوات عديدة، عندما بدأت أعرِّج عليها، كنت أغار بعنفٍ من ذلك الراب[٥١]. حينئذ كانت امرأة في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين، مكتملة الأنوثة، ناضجة بكل معنى الكلمة؛ كان مرآها جالسة في حجرة أمام النافذة، عند الغسق، تتحدث إليه بصوتٍ منخفض، ملاطف، يثير غيظي. كانت تقول " أحبه "، وكأنها تبرِّر بهذا سلوكها، فمعها كانت كلمة حب دائماً تعني شيئاً نقيّاً، شيئاً بعيداً عن المتعة الحسّية. هذه المشاهد حدثت في فصل الصيف، وكنت أنا، الذي ينتظر من الأخرق العجوز أن يحرِّرها، شديد الوعي بذاك اللحم العاري والدافئ من تحت الثوب الرقيق، الشبيه بالشاش، الذي ترتديه. وكان في إمكانها أيضاً أن تجلس وهي عارية بين ذراعيه، وطريقة استقرارها عليه، وفخذاها يتماوجان، وشقّها الواسع مثبَّت بقوة على فتحة بنطاله. كنت متأكداً من أنه مهما كان حب الرجل العجوز نقياً لها، فلابد أنه كان يدرك أي ثمرة شهية المذاق يضم بين ذراعيه. ماعدا أنه ما كان يمكن

٥١ - الراب : زوج الأم .- المترجم .

إلا لجثّة أن تكون كتيمة للحيوية والحرارة اللتين يولّدهما ذاك الجسد الدافئ. زيادة على ذلك، كنت كلما عرفتها أكثر وجدت أنَّ من الطبيعي أن تهبَ جسدها بتلك الطريقة المختلسة، والفاسقة. لم يكن بعيداً عنها أن تقيم علاقة سفاحيّة؛ وإذا كان لابد من أن " تُغتَصَب " فإنها ستفضّل أن يفعل ذلك والدها الذي تحب؛ وكونه ليس والدها الحقيقي، وإنما الرجل الذي اختارته، بسَّطَ الوضع، إن كانت حقاً قد سمحت لنفسها أن تفكّر في مثل تلك الأمور صراحة. وتلك العلاقة اللعينة، المنحرفة، صعَّبَت عليَّ عملية جعلها تقيم علاقة جنسية واضحة، وصريحة، في تلك الأيام. لقد أرادتني أن ألاطفها كطفلة، وأن أهمس لها بهراءٍ عذب، وأدلّلها، وألبّي طلباتها، وأضحكها. أرادتني أن أعانقها وأداعبها بطريقة سخيفة، وسفاحيّة. لم تكن تريد أن تعترف بأن لديها كساً وأنا لدي أير. أرادت كلاماً غرامياً، وحركات ضغط واستكشاف صامتة، ومختلسة، من اليدين. لقد كنت، بالنسبة إلى معيار ذوقها، شديد المباشرة، والوحشية.

بعد أن تذوَّقَتْ الشيء الحقيقي كادتْ تخرج عن طورها - من فرط الشبق، والغضب، والخجل، والذل، وكل شيء. من الواضح أنَّه لم يخطر ببالها قط أنَّ الأمر سيكون ممتعاً جداً، وليس مقزّزاً للنفس جداً. فما كان مثيراً لتقزُّز النفس - بالنسبة إليها - هو الانغماس في الشهوة. وكان التفكير في أنَّ ثمة شيءٌ يتدلّى من بين ساقيّ الرجل يمكنه أن يجعلها تنسى نفسها تماماً شيئاً يثير سخطها. كانت تريد بشدّة أن تستقلّ بنفسها - بعدما تتخطّى مرحلة الطفولة. لم تكن تريد عالماً وسطيّاً، الاستسلام، الالتحام، التبادل. أرادت أن تحتفظ بذاك الجوهر الصلب

twitter @baghdad_library

والصغير لذاتها المدفون في صدرها ولا تسمح لنفسها إلا بالاستمتاع الشرعي بتسليم جسدها. أما فكرة أنه لا يمكن الفصل بين الجسد والروح، خاصة أثناء ممارسة الجنس، فكانت مصدراً لأشدّ أنواع التوتُّر عنفاً. كانت دائماً تتصرَّف وكأنها، بتسليمها كسّها لاكتشاف القضيب، فقدت شيئاً، شيئاً صغيراً من ذاتها السحيقة، عنصراً لا يمكن تبديله. وكانت كلما قاومته تهتَّكت أكثر فأكثر. لا امرأة تَنكَحُ بوحشية كالمرأة المهسترة التي جمَّدت عقلها.

الآن وأنا أعبث بالشعر القاسي، المنتصب، كشجيرتها تلك، تاركاً أصابعي تسرح عميقاً أحياناً حتى تصل رأس كسّها، كانت أفكاري تحوم تائهة داخل عمق الماضي. وكدت أشعر أني والدها المختار، أني أعبث بتلك الضحكة الفاسقة وقت الغسق المهدِّئ للأعصاب للغرفة المفرطة الإحماء. كان كل شيء زائفاً وعميقاً وحقيقياً في وقتٍ واحد. ولو أني فعلت كما شاءت، لو قمت بدور العاشق، الرقيق، والمتفهِّم، لكانَ بدون شك في انتظاري جائزة ما. كانت التهمتني باستسلام شهواني. يكفي أن تحافظ على المظاهر لكي تفتح ما بين فخذيها بحماسة بركانية.

همستُ، ساحباً يدي وزالقاً إياها برشاقة تحت ثوب نومها الرقيق إلى داخل كسّها، " دعيني أرى إن كان يؤلمك في الداخل ". كان السائل ينزُّ منها؛ وتباعدت ساقاها أكثر فأكثر، استجابةً لأقلّ ضغطٍ من يدي.

سألتها، غائصاً أعمق داخلها " هاكِ ... هل يؤلمك هناك؟ "

كانت عيناها شبه مغمضتين، وتومئ برأسها بحركة بدون معنى، لا تفيد بنعم أو بلا. زلقتُ إصبعين آخرين داخل كسّها بهدوء، وتمدَّدت بكامل طولي إلى جوارها. أحطتُ رأسها بإحدى ذراعيّ وجذبتها برقّة إليّ، وأصابعي ما تزال تمخضُ السوائل التي تسيل منها.

استلقت ساكنة، وسلبية تماماً، وعقلها منغمس انغماساً كاملاً في عبثِ أصابعي. تناولتُ يدها وزلقتُها داخل فتحة بنطالي التي انحلّتْ أزرارها كما السحر. قبضتْ على أيري بحزمٍ وبرقّة، وهي تداعبه بأسلوبٍ عمليّ. ألقيتُ نظرة سريعة عليها فرأيت على قسماتها تعبيراً يكاد يكون سعادة غامرة. هذا ما كانت تحبه، هذا النوع الأعمى، اللمسيّ من تبادل المشاعر. ليت كان في استطاعتها عندئذ أن تستغرق في النوم وتترك نفسها لتُنكح، أن تتظاهر بأنَّ لا دورَ منتبهاً ويقظاً لها في ذلك.. وتكتفي بالاستسلام التام وتبقى مع ذلك بريئة ... أيُ نعيمٍ مقيم ستعرف عندئذ! كانت تحب أن تُنكح بالكس الداخلي، وهي مستلقية بسكونٍ تام، وكأنها في حالة غشوة. كان في استطاعتها أن تنكح، ترسل الإشارات، تتمدّد، تتهلّل، تنتفض، تدغدغ، تمصُّ، تتشبّث، حتى تشفي غليلها، تنكح حتى آخر رمق.

بات ضرورياً عندئذ ألاّ تصدُرْ عنها أي حركة زائفة، ألاّ تتلف القشرة الرقيقة التي كانت ما تزال تغزلها، كالشرنقة، حول ذاتها الجسدية، العارية، وللانتقال من الإصبع إلى الأير تطلّبَ الأمر براعةَ منومٍ مغناطيسي. كان لابد من زيادة المتعة المميتة بتدرُّج دقيق، وكأنها سُمٌّ لا يتعوَّد الجسم عليه إلاّ بالتدريج. وسيتوجَّب أن تُنكح من خلال غلالة الشرنقة، تماماً كما اضطررت قبل سنين مضت، لكي أنالها، أن أغتصبها من خلال رداء نومها... وخطرت ببالي فكرة شيطانيّة، بينما كان أيري ينتفض ببهجةً تحت تأثير مداعباتها الماهرة، تخيّلتها جالسة في حجر زوج أمها، في الغسق، وشقّها ملتصقٌ دائماً بفتحة بنطاله. وتساءلت كيف كان سيكون التعبير المرتسم على وجهها لو أنها شعرت فجأة

twitter @baghdad_library

بسراج الليل خاصته يخترق كسّها الحالم؛ لو أنَّ، وهي تغمغم بترنيمة الحب المراهق المنحرفة في أذنيه، لو أنَّ، في غفلةٍ منها لم يَعُد ثوبها الرقيق جداً يغطي فخذيها السمينين، وانتصب ذاك الشيء الذي لا يجوز ذكر اسمه والمخبّأ بين ساقيه فجأة وارتقى داخلها، ثم انفجر كمسدسٍ مائيّ. نظرت إليها لأرى إن كانت قادرة على قراءة أفكاري، مستكشفاً تضاعيف كسّها الملتهب وشقوقه في تلك الأثناء بملامس جريئة، وعدائية. كانت عيناها مغمضتين بإحكام، وشفتاها منفرجتين بشهوانيّة؛ بدأ الجزء السفلي من جسدها يتلوّى ويفتل، وكأنه يحاول أن يتحرَّر من أسر شبكة. أزحتُ يدها برفق عن أيري، وفي الوقت نفسه رفعت لها ساقاً بحذر شديد ودلّيتها عبري ,وتركت أيري بضع لحظات يقفز ويهتز عند فوهة شقها، وجعلته ينزلق أماماً وخلفاً ويعود ثانية، وكأنه دمية مرنة من المطاط. وفي رأسي كانت لازمة بلهاء تتردّد: " ما هذا الذي أمدّه فوق رأسك - أرائعُ أم فائق الروعة! ". وتابعت هذه اللعبة الصغيرة لفترة معذِّبة، وكنت بين حين وآخر أُدخِلُ ببطء وحذر رأس أيري مقدار إنش أو نحوه، ثم أمرِّره على طرف كسّها وأؤويه داخل كثة الشعر الرطبة. وفجأة شهقت ثم استدارت دورة كاملة وعيناها جاحظتان على آخرهما؛ وجاهدت مسعورة، وهي تتوازن على يديها وركبتيها، لتضمَّ على أيري بفمها اللزج. أحطتُ فخذيها بيديَّ الاثنتين، وأخذت أصابعي تقوم بحركة منزلقة على طول الجهة الداخلية من كسّها المنتفخ، وتفتحه كما لو أنك تمزِّق كرة من المطاط، ثم وضعت أيري على النقطة الشديدة الحساسية وانتظرتها كي تهبط. حسبت للوهلة الأولى أنها فجأة غيَّرت رأيها. فرأسها، الذي كان متدلّياً بارتخاء، والعينان تتابع بعجز حركات

كسّها المسعورة، اشرأبَّ مشدوداً، وانتقل التحديق فجأة إلى نقطةٍ ما فوق رأسي. وملأ كامل عينيها المتحركتين باستمرار تعبير استمتاع أناني صرف، وحين بدأت تحرّك طيزها بحركةٍ دورانية، وأيري فقط حتى منتصفه داخلها، بدأت تمضغ شفتها السفلى. ومع هذا انزلقت قليلاً نحو الأسفل ثم جررتها إلى الأسفل بكل ما أوتيت من قوة وطعنته إلى الأعلى وحتى الغمد، عميقاً جداً حتى أنها أطلقت أنّةً وسقط رأسها إلى الأمام على الوسادة. من تلك اللحظة، وفي الوقت الذي كان في إمكاني أن أتناول جزرة وأقحمها فيها وكانت ستعطي التأثير نفسه، سمعت قرعاً على الباب. كنا نحن الاثنان من فرط الذهول حتى أن قلبينا كادا يتوقفان عن الوجيب. وكالمعتاد، استعادت هي وعيها أولاً. انفصلت عني بسرعة، وهرعت لتفتح الباب.

سألتْ " من هناك؟ "

جاءها صوت رعديد، مرتجفاً، تعرّفت إليه فوراً " إنه أنا فقط "

" أوه، هو أنتِ! هذا؟ ما الأمر؟ "

تناهى الصوت الواهن، الممطوط، ببطء يثير السخط " أريد فقط أن أعرف إن كان هنري موجوداً هنا؟ "

قالت مود ساخرة، وهي تلملم من نفسها " نعم، طبعاً هو هنا "، ثم قالت، وكأنما الثانية تعذّبها " أوه، ميلاني، أهذا ما أردتِ أن تعرفيه؟ أما كنتِ تستطيعين ...؟ "

قالت المسكينة ميلاني " هناك مكالمة هاتفية بانتظار هنري ". ثم قالت، ببطء أشد وكأنَّ هذا كل ما كانت قادرة على أن تحصل عليه من جسمها: " أنا ... أعتقد ... أنها هامة "

twitter @baghdad_library

صـرخت، وأنـا أنهض عـن الأريكة وأزرِّر فـتـحـة بنطالـي " حـسن، سأحضر حالاً! "

حين رفعت سمّاعة الهاتف تلقّيتُ صدمة كبرى. لقد كان كرلي يتّصل من كوكروش هول (قاعة الصراصير). قال إنه لا يستطيع أن يخبرني عن الأمر ولكن ينبغي عليَّ أن أعود إلى المنزل بأسرع وقتٍ ممكن.

قلت " لا تتكلَّم هكذا، قل لي الحقيقة. ماذا حدث؟ أهي مونا؟ "

قال " نعم، لكن حالتها ستتحسّن بعد قليل "

" إذن هي لم تمت؟ "

" كلا، لكنها كادت تفعل. أسرع ... "، ثم علّقَ السماعة.

في الصالة التقيتُ ميلاني، صدرها شبه مكشوف، وهي تعرج في مشيتها برضى كئيب. نظرت إليَّ نظرةً متفهّمة، هي مزيجٌ من الشفقة والحسد والتأنيب. وتشدّقَ صوتها متجهاً إلى أعلى " أنت تعلم أني ما كنت لأزعجك لو لم يقولوا إنه أمر هام. يا إلهي "، وبدأت تجرُّ جسمها نحو الدرج، " هناك الكثير من العمل يتطلب التنفيذ. حين يكون المرء شاباً ... "

لم أنتظر حتى أسمعها إلى الآخر. هرعت أهبط الدرج وكدت أضم مود بين ذراعيّ.

سألتني بجزع " ما الأمر؟ ". ولمّا لم أجبها فوراً، أضافت " أوَقَع مكروه ... لـ ... لها؟ "

قلت وأنا أحاول أن أبحث عن معطفي وقبعتي " آمل ألا يكون خطيراً "

" أيجب أن ترحل فوراً؟ أقصد ... "

كان في صوت مود أكثر من مجرد قلق؛ كانت تشوبه خيبة أمل، ومسحة من استهجان.

تابعت قائلة، وهي تتقدَّم من المصباح وكأنها تنوي أن تشعله، " أنا لم أشعل المصباح لأني خشيت أن تعرف الأمر ". وأثارت بعض الجلبة بثوبها ,وكأنما لتعيد انتباهي إلى موضوع كانت له الأهمية العليا في تفكيرها.

وفجأة أدركتُ أن من القسوة أن أنطلق دون أن أبدي أي قدر من الرقّة.

قلت، وأنا ألقي بقبعتي ومعطفي وأنتقل بسرعة إلى جوارها، " إنَّ ذهابي ضروري. أكره أن أتركك الآن ... بهذا الشكل "، ثم أمسكت يدها التي كادت تدير مفتاح النور، وقرَّبتها مني وعانقتها. لم تبدِ أي مقاومة. على العكس، أرجعت رأسها وقدَّمت لي شفتيها. وفي الحال كان لساني في فمها وكان جسدها، المتراخي والحار، ينضغط بتشنُّج على جسدي. (" أسرع، أسرع! "، هكذا تناهت كلمات كرلي إليّ) قلت في نفسي " سأفعلها بسرعة "، ولم يعد يهمني عندئذ إن أسرعتُ أم لا. زلقتُ يدي تحت ثوبها وغمستُ أصابعي في فرجها. وكم كانت دهشتي حين مدَّت يدها إلى فتحة بنطالي، وفتحتها، وأخرجت أيري. أسندتها إلى الحائط وتركتها تضع أيري على كسِّها. عندئذ كانت تتلظّى بالحرارة، وواعية لكل حركة تؤديها، بتأنٍ وإلحاح. وعالجتْ أيري وكأنه مِلْكاً خاصاً لها.

كان من المربك محاولة إعماله فيها وهو مستقيم كالسهم. همستْ، وهي تغوص لتستقر على ركبتيها وتجرّني نحو الأسفل، " فلنتمدَّد هنا".

twitter @baghdad_library

قلت، بينما كانت تحاول بانفعال شديد أن تنزع عنها ملابسها، " ستصابين بالبرد "

قالت، وهي تنزل لي سروالي الداخلي وتجرّني إليها بتهوُّر، " لا يهمّني ". ثم أنَّتْ، " أوه يا ربي "، وأخذت تمضغ شفتيها من جديد وتعصر خصيتيّ بينما كنت أقحم أيري ببطء، " أوه، يا ربي، اعطني إياه ... أدخله كله! ". وكانت تلهثُ وتئنُّ من فرط المتعة.

بقيت مرتاحاً فوقها، وأيري ما يزال داخلها ومتصلباً كمدكّ، غير راغبٍ في النهوض على الفور لأقبض على معطفي وقبعتي. كانت أشبه بثمرة ناضجة من الداخل وبدا اللب كأنه يتنفَّس. وسرعان ما شعرت بالعلمين الصغيرين يرفرفان: كزهرةٍ تتمايل، وكانت مداعبة البتلات معذِّبة. كانت البتلات تتحرَّك بدون توقف، ليس باهتزازات قوية، متشنّجة، بل كأعلامٍ من الحرير تستجيب لحركة النسيم. ثم بدا أنها قد سيطرت فجأة على الوضع: أضحت جدران كسّها من الداخل أشبه بعاصرة ليمون ناعمة، تشدُّ وتتشبَّث على هواها، وكأنها تحوّلت كلها إلى يدٍ خفيّة.

لزمت السكون التام، واستسلمت لتلك المعالجات البارعة: ("عجِّل، عجِّل! "، لكنني أتذكَّر الآن بوضوح تام أنه قال إنها لم تمت) كان في إمكاني دائماً أن أستدعي سيارة أجرة؛ بضع دقائق زيادة أو نقصان لن تؤثِّر. ما كان لأحد أن يتصوَّر أني تخلَّفتُ من أجل هذا السبب.

(نَلْ متعتك ما دامت متوفّرة ... نَلْ متعتك)

كانت تعلم حينئذ أني لن أستعجل. كانت تعلم أنها تستطيع أن تُخرجه قدر ما تشاء، خاصة وأنا مسترخٍ بهدوء هكذا، تنكحني فقط بكسّها الداخلي ذاك، تنكح بعقلٍ غائب.

وضعتُ فمي على فمها وبدأت أنكحه بلساني. كان في استطاعتها أن تقوم بأشياء مذهلة تماماً بلسانها. أشياء كنت قد نسيت أنها تعرفها. أحياناً كانت تزلقه حتى حنجرتي وكأنما لتتيح لي أن أبتلعه، ثم تسحبه بحركة معذِّبة لكي تركِّز على إرسال الإشارات من الأسفل. وذات مرة أخرجت أيري كله، لكي أجعله يتنفَّس بعض الهواء، لكنها مدَّت يدها وأخذته بنهم وزلقته إلى داخلها من جديد، مقحمة نفسها إلى الأمام وذلك لكي يلمس قاعها. ثم أخرجتُهُ فقط حتى فوق كسّها ورحتُ أشمّه، ككلب ذي أنف رطب، بطرف رأسه. هذه اللعبة الصغيرة كانت فوق طاقتها على التحمُّل؛ فبدأتْ تقذف، برعشةٍ مطوَّلة تفجَّرَتْ بهدوء كنجمةٍ بخمسة رؤوس. كنت ألكز به داخلها كشيطان، إلى أعلى، إلى الجوانب، إلى الأسفل، إلى الداخل، وإلى الخارج من جديد، أغوص، أرتفع، أطعن، أشخر، وأنا واثق كل الثقة من أني لن أقذف إلى أن أصبح في أحسن حال وأتمّ استعداد.

ثم فعلتْ ما لم تفعله قط في حياتها. فبينما هي تتحرَّك بتهتُّك هائج، تعضُّ شفتيَّ، ونحري، وأذنيّ، وتكرِّر مثل إنسانٍ آليّ خرج عن طوره " هيا، هاته، هيا، أعطنيه، هيا، أوه يا ربي، هاته، أعطنيه! ". أخذت تنتقل من رعشةٍ إلى أخرى، تندفع، وتقتحم، وترتفع، وتدير طيزها، وترفع ساقيها وتلفّهما حول رقبتي، تئنُّ، تنخرُ، وتزعق كخنزير، ثم فجأة، وبعد أن استنزفت تماماً، أخذت تتوسّل إليّ كي أنهي الأمر معها، تتوسّل إليّ كي أقذف. " اقذف، اقذف ... سأجنّ ". وبينما هي ممدَّدة ككيسٍ من الشوفان، تلهثُ، تتعرَّقُ، لا حولَ لها ولا قوة، ومرهقة تماماً وحتماً، رحتُ أنطح بأيري ببطء، وتأنٍّ، جيئة وذهاباً، وبعد أن

twitter @baghdad_library

استمتعت بشرائح لحم البقر، والبطاطا المسحوقة، وصلصة اللحم والبهارات كلها، قذفت حشوة إلى فوهة رحمها فنخعتها وكأنها شحنة كهربائية.

* * *

في القطار النفقي حاولتُ أن أعدَّ نفسي لمواجهة المحنة التي تنتظرني. وبصورةٍ ما كنت واثقاً من أن مونا لم تكن في خطر. وأقول الحق، الخبر كله لم يصدمني؛ كنت منذ أسابيع أتوقَّع حدوث انفجارٍ من نوعٍ ما. إنَّ المرأة لا تستطيع أن تستمر في التظاهر باللامبالاة حين يكون مستقبلها كله في خطر. خاصة امرأة تشعر بالذنب. وفي حين أنّه لم ينتَبْني أي شك في أنها بذلت جهداً لتقوم بعملٍ يائس، كنت أعلم أيضاً أنَّ غرائزها سوف تمنعها من وضع حدٍ لحياتها. وما كنت أخشاه أكثر من غيره أنَّها يمكن أن تكون قد أفسدت العمل. واستيقظ فضولي. تُرى ماذا فعلت؟ كيف شرعت فيه؟ هل خططت له لعلمها أنَّ كرلي سوف يهبُّ لنجدتها؟ وتمنّيت، بصورة غريبة، بصورة منحرفة، أن تبدو قصتها مقنعة؛ لم أكن أريد أن أسمع حكاية غريبة، لا يصدّقها عقلٍ تدفعني وأنا في حالتي المضطربة إلى الانفجار في ضحكٍ هستيري. أردت أن أكون قادراً على الإصغاء بوجهٍ جادّ - أن يبدو عليَّ الحزن والتعاطف لأني كنت بالفعل أشعر بالحزن وبالتعاطف. وطالما تركتْ الدراما أثراً غريباً عليَّ، طالما أيقظَتْ عندي إحساساً بما هو سخيف، وخاصة حين يكون مدفوعاً بالحب. ربما لهذا السبب، في لحظات اليأس، كان في وسعي أن أضحك من نفسي. ولحظةَ قرَّرتُ أن أتصرَّف تحوَّلتُ إلى إنسانٍ مختلف - أصبحت ممثِّلاً. وطبعاً كنت دائماً أبالغُ في تمثيل الدور.

وأعتقدُ أنَّ هذا التصرُّف الشاذ كان في أعماقه قائماً على أساس كراهيةٍ لا شِفاء منها للخداع. كنت أكره أن أخدع الناس، حتى وإن كان ذلك سينقذني. وقهرُ مقاومة امرأة، وإرغامها على حبك، وإيقاظ غيرتها، واستعادتها - كل هذا كان ضد ميلي الفطري إلى إنجاز هذه الأشياء بالاستخدام شبه اللاواعي لأساليب شرعية. بالنسبة إليّ ليس في هذا أي إحساس بالانتصار أو بالرضى إلا إذا استسلمتْ المرأة طواعيةً. لطالما كنت متودّداً فاشلاً. إنني أُثبَطُ بسهولة، ليس لأني أشكّ في قدرتي وإنما لأني لا أثق فيها. كنت أريد من المرأة أن تأتي هي إليّ. أردت منها هي أن تعرض نفسها عليّ. لا خطر من أن تغدو مفرطة الجرأة! فكلما عَرَضَتْ نفسها بتهوُّر أشد أعجبتني أكثر. كنت أكره العذراوات والبنفسجات المنكمشات. الـ La femme fatale! (المرأة ذات السحر القاتل) هذه هي مَثَلي الأعلى.

كم كنا نكره أن نعترف بأنَّ لا شيء يعجبنا أكثر من أن نكون عبيداً! عبيداً وسادةً في وقتٍ واحد! فحتى في الحب يكون العبد هو دائماً السيد متخفّياً. الرجل الذي يرى أنه يجب أن يقهر المرأة، يُخضِعها، يجعلها ترضخ لإرادته، وتميل مع اتجاه رغباته - ألاً يكون عبداً لعبدةٍ؟ ما أسهل على المرأة، في مثل هذه العلاقة، أن تطيحَ بتوازن القوى! إنَّ مجرد التهديد بالاعتماد على الذات، من جانب المرأة، يُصيبُ المستبدَّ الشهم بالدوار. ولكن إذا كانا قادرين على اعتماد كلٍ منهما على الآخر، بدون إخفاء أي شيء، وتسليم الأسلحة كلها، إذا اعترف كلُّ منهما للآخر بالاتكال المتبادل بينهما، ألن يستمتعا بحرية عظيمة ولا ريب فيها؟ إنَّ الرجل الذي يعترف لنفسه بأنه جبان يكون قد خطا خطوة

twitter @baghdad_library

نحو التغلُّب على خوفه؛ أما الرجل الذي يعترف صراحةً بهذا لكلّ إنسان، الذي يطلب أن يُلاحَظ ذلك فيه ويطلب الصفح عنه أثناء التعامل معه، فهو في طريقه إلى أن يصبح بطلاً. مثل هذا الرجل غالباً ما يُصَاب بالدهشة، حين تأتي ساعة الامتحان العصيب، حين يكتشف أنَّه لا يعرف الخوف. وحين يفقد الخوف من اعتبار نفسه جباناً لا يعود كذلك؛ ولا يحتاج وقوع التحول إلا إلى إظهاره. الأمر نفسه يحدث في الحب. فالرجل الذي يعترف ليس فقط لنفسه وإنما لأقرانه من الرجال، وحتى للمرأة التي يعبد، بأنَّ امرأةً تستطيع أن تلفّه حول إصبعها، وبأنه ضعيف أمام الجنس الآخر، يكتشف عادة أنَّه أقوى الاثنين. لا شيء يحطِّم المرأة سريعاً أكثر من الاستسلام الكامل لها. إنَّ المرأةَ على استعداد للمقاومة، لأن تُحَاصَرْ: لقد دُرِّبَتْ على أن تتصرَّف هكذا. وعندما لا تقابِلْ أي مقاومة تقعُ في المصيدة مباشرة. إنَّ قُدرة الرجل على أن يستسلم كلياً وبشكلٍ تام لهي الترف الأعظم الذي تقدِّمه الحياة. والحب الحقيقي لا يبدأ إلا عند هذه النقطة من الذوبان. ذلك أنَّ الحياة الشخصية كلها قائمة على أساس الاتكال، الاتكال المشترك.والمجتمع هو حاصل مجموعة أشخاص بينهم اتّكال متبادل. وهناك حياة أخرى أغنى تتجاوز المجتمع الباهت، تتجاوز الاهتمام الشخصي. ولكن لا أحد يعرفها، ولا يمكن بلوغها، بدون أن تعبر أولاً ذرى وقمم العالم المبهرة وإلهامه، عليك أولاً أن تختبر الحكمة العميقة لكونك أحمق صرفاً. إن الرجل الذي يودي به قلبه الكبير إلى ارتكاب الحماقة وإلى الدمار تعجز المرأة عن مقاومته. وأقصد بكلامي المرأة العاشقة. أما الذين لا يطلبون أكثر من أن يحبّوا، الذين لا يسعون إلا إلى مشاهدة انعكاس صورتهم

في المرآة، فليس هناك حب، مهما عَظُم، يمكن أن يرضيهم. في عالمٍ شديد الافتقار إلى الحب لا عَجَبَ أن يُبْهَر الرجال والنساء ببهاء انعكاس ذواتهم الأنانية وبريقها. لا عَجَبَ أن تعجز دواليب القطار النفقي الساحقة، على الرغم من قدرتها على تقطيع جسد إنسانيّ إرباً، عن أن تقذف إكسير الحب. وفي الموشور الأناني تُسوِّر الضحية العاجزة بالضوء ذاته الذي يكسره. وتموت الأنا داخل قفصها الزجاجي ...

كانت أفكاري تتراكض مثل سرطان البحر. وفجأة برزت صورة ميلاني. كانت دائماً حاضرة، كورمٍ لحميّ. كان يحيطها شيء بهيميّ وملائكيّ، ودائماً تعرج في مشيتها، تجرُّ كلماتها، تتكلّم برتابة، تهذي، وعيناها الكبيرتان الكئيبتان تتدلّيان كجمرتين مشتعلتين في محجريهما. كانت إحدى مريضات الوهم الجميلات التي، بفقدانها أنوثتها، تلبَّسَتْ صِفات حسِّية غامضة لمخلوقات تملأ معرض وحوش وليم بليك الرؤيوي. كانت تشرد شروداً تاماً، ليس في التفكير في تفاهات الحياة الروتينية المعتادة، وإنما في جسدها. ولم يكن غريباً عليها قط أن تتجوَّل في أرجاء المنزل، وتؤدي الأعمال اليومية التي لا تنتهي، وثدياها الأبيضان بياض الحليب مكشوفان تماماً. وكانت مود دائماً توبخها، ودائماً تراها حانقة من قِلَّة احتشام ميلاني، كما كانت تصفها. غير أنَّ ميلاني كانت بريئة براءة قضاعة[٥٢] مجنونة. وإذا كانت كلمة " قضاعة " تبدو غريبة فذلك لأنها مناسبة جداً. فمع ميلاني كافة صنوف الصور العبثيّة تقفز دائماً إلى ذهني. لقد كانت مجنونة ولكن " باعتدال "، إن صح التعبير. وكلما خفَّت قدراتها العقلية ازداد هوسها بجسدها. كان

---

٥٢ – قضاعة : ثعلب الماء : حيوان مائي . – المترجم

twitter @baghdad_library

عقلها قد غاص إلى داخل لحمها، وإذا كانت خرقاء وحركاتها واهنة ومرتعشة، فذلك لأنها كانت تفكر في هذا الجسد الريّان وليس في عقلها. وكائناً ما كان جنسها فإنه كان موزّعاً على كامل جسدها: لم يعد متمركزاً، لا بين ساقيها ولا في أي مكان آخر. لم يكن لديها إحساس بالخجل. وإذا ما تصادف وكشفَتْ عن شعر كسّها على مائدة الإفطار أثناء خدمتنا، لما كان الأمر اختلف لو أنها كشفت عن أظافر قدميها أو عن سرّة بطنها. وأنا واثق من أني لو لمستُ كسّها من غير انتباه وأنا أمدُّ يدي لأتناول إبريق القهوة، لما اختلفت ردّة فعلها عمّا لو أني لمست ذراعها. وكثيراً ما كانت، أثناء استحمامي، تفتح باب الحمام بلامبالاة وتعلّق المناشف على المنصب فوق حوض الاستحمام، بعد أن تعتذر بأسلوبٍ ضعيف، وذليل، ولكن بدون أن تبذل أدنى محاولة لتحويل بصرها. وأحياناً، في مثل تلك المناسبات، كانت تقف وتتحدث إليّ بضع لحظات - عن حيواناتها الأليفة أو عن التهاب مفصل إصبع قدمها أو عن قائمة طعام اليوم التالي - وهي تنظر إليّ بصراحة تامة، وبلا أي إحساس بالحرج. وعلى الرغم من أنها كانت عجوزاً وشعرها يتخلّله البياض إلا أن لحمها كان حياً، بل حياً فائراً بالنسبة إلى واحدةٍ في مثل عمرها. ومن الطبيعي أن يحصل لدي انتصاب بين حين وآخر وأنا متمدد في الحوض وهي تنظر إليّ بلا أي إحساس بالخجل وتتكلم محض هراء. وقد ضبطتنا مود مرة أو اثنتين ونحن هكذا. وأصابها الهلع، طبعاً. كانت تقول لميلاني " أنت مجنونة ولا شك ". فتقول هذه الأخيرة " أوه يا إلهي، ما أكثر ضجيجك! أنا متأكدة من أن هنري لا يمانع "، ثم ترسم تلك الابتسامة الكئيبة، ابتسامة حزينة لمريضة

موسوسة. ثم تبتعد وهي تجرُّ قدميها عائدة إلى غرفتها، التي كانت مود قد اختارتها لها لتقيم فيها. وكنا أينما سكنّا تبقى غرفة ميلاني هي نفسها؛ غرفةٌ فيها يوضعُ الجنونُ ويُحبَس. تحتوي دائماً على ببغاء في قفص، وكلب أجرب، وصور دغريّة[٥٣]، وآلة خياطة، وسرير بقوائم نحاسيّة وصندوق ملابس عتيق الطراز. كانت غرفة تعيثُ فيها الفوضى تبدو لِعَين ميلاني أشبه بالجنّة. غرفة ملآى بنباح حادّ، وأصوات عالية تفصل بينها غمغمات المداعبة، والملاطفة، والتودّد، والعبارات المختلطة، والأصوات الطويلة الحادة الدالّة على الحب، وأحياناً، لدى عبوري الباب المفتوح، ألمحها جالسة على السرير لا ترتدي غير قميص، والببغاء جاثم على منحنى يدها، والكلب يقضم الطعم الذي بين ساقيها. فتقول، وهي ترفع بصرها نحوي ببراءة خالية من التعبير ورقيقة " مرحبا، نهار جميل، أليس كذلك؟ ". وقد تُبعِد الكلب جانباً، ليس بدافع الشعور بالخجل أو بالحرج، وإنما لأنه كان يدغدغها بلسانه الصغير الرطب والشيطاني الماكر.

أحياناً كنت أتسلّل إلى غرفتها بكل هدوء، فقط من باب التطفّل. كنت فضولياً بشأن ميلاني، بشأن الرسائل التي تتلقاها، والكتب التي تقرأها، وما إلى ذلك. لا شيء كان مخبّأً في غرفتها. ولا أي شيء مُستَهلَك حتى آخره. وكان هناك دائماً قليل من الماء في الصحفة تحت السرير، ودائماً هناك بسكويت هش مقضوم حتى منتصفه موضوع على صندوق الملابس أو قطعة من الكعك كانت قد قضمَتْ منها ونسيَتْ أن تُنهيها. أحياناً كان يوجدُ كتابٌ مفتوح موضوع على السرير، وقد أبقت الصفحة مفتوحة بخفّ ممزّق. كان بلوير - ليتون[٥٤] هو أحد كتّابها

٥٣ - الصور الدغريّة: هي تلك المصوَّرة على الطريقة القديمة، على ألواح فضيّة. - المترجم

٥٤ - إدوارد جورج ايرل بلوير ليتون (١٨٠٣ - ١٨٧٣): روائي، وكاتب مسرحي، ورجل دولة إنكليزي. عُرِفَ برواياته التاريخية الرومانسية. من أشهرها " آخر أيام بومباي". - المترجم

twitter @baghdad_library

المفضّلين، وهذا واضح، وأيضاً رايدر هاغارد[٥٥]. وبدا أنها مهتمة بالسحر، وبخاصة بالشعوذة. وكان هناك كتيّب يدور حول التنويم المغناطيسي ويحمل من الأدلة ما يبرهن على أنه قد استُخدِم كثيراً.

أما الاكتشاف الذي ترك لدي ذهولاً عظيماً فقد دسٌّ في أحد أدراج طاولة المكتب، وكان أداة من المطاط ليس لها إلا استخدام واحد، إلا إذا كانت ميلاني بتفكيرها المجنون قد قصدت به استخداماً بريئاً تماماً. ولا أدري إن كانت ميلاني تمضي ساعة من المسرّة مع هذه الأداة، كما فعلت راهبات العصور الغابرة، أو إن كانت ابتاعتها من محل بيع الخردة وخبّأتها لاستخدامها لغرض غير مشبوه في وقتٍ من الأوقات في سياق نظام حياتها الذي لا ينتهي. لم يكن صعباً عليّ أن أتخيّلها متمدّدة على غطاء اللحاف القذر بقميصها الممزق، وهي تلكز ذاك الشيء إلى داخل وخارج عشها ومستغرقة في حالة من المرح الشارد. بل إني تخيّلت الكلب يلعق السائل الذي ينزُّ ببطء من بين ساقيها. والببغاء يزعق كالمجنون، ربما يردد عبارة ما بلهاء علّمته إياها ميلاني، مثل " على مهلك، يا عزيزي! " أو " استمر الآن، استمر! "

شاذة، ميلاني هذه، وعلى الرغم من أنَّ عقلها قد ضاع، إلا أنَّها كانت تفهم بطريقة بدائية، جديرة بآكل لحوم البشر أنَّ الجنس هو كل شيء، كالطعام والماء والنوم والأورام الملتهبة في أصابع الأقدام. وكان يثير سخطي أنَّ مود كانت تحافظ على ادعاءاتٍ لا ضرورة لها في حضور ميلاني. وإذا ما استلقينا على الأريكة بعد تناول طعام العشاء،

---

٥٥ – سير هنري رايدر هاغارد (١٨٥٦ – ١٩٢٥) : كاتب للروايات الرومانسية الرائجة ، للفتيان خاصة . من أشهر رواياته " كنوز الملك سليمان " . – المترجم .

للاستماع بنكاح صغير هادئ في الظلام، تقفز مود فجأة وتدير مفتاح ضوء خافت - لكي لا ترتاب ميلاني بما نفعل، أو لكي لا تدخل علينا وهي شاردة الذهن لتسلّمنا رسالة كانت قد نسيت أن تعطينا إياها على مائدة الإفطار. وكنت أستمتع بفكرة اقتحام ميلاني عزلتنا (فلنقل، بينما مود تعمل على امتطائي)، لتسلّمني رسالة، فأتناول الرسالة مع ابتسامةٍ وكلمة شكر، في حين تقف ميلاني برهة لتقول عبارة صغيرة لا معنى لها عن أَن المياه الحارة شديدة الحرارة أو تسأل مود إن كانت ترغب في تناول البيض في الصباح أم بعض لحم رأس الخنزير. كان يفرحني كثيراً أن أنجح في إنجاز مثل هذا العمل البارع مع مود. لكن مود لم تكن تعترف قط لنفسها بأن ميلاني كانت تعلم أننا نمارس الجنس. ولما كانت تعتبرها إما بلهاء أو معتوهة تماماً، فإنها دفعت نفسها إلى الاعتقاد أنَّ أناساً كميلاني لا يفكرون في الجنس أبداً. إنَّ زوج أمها لم تكن لديه حياة جنسية مع تلك المخلوقة المعتوهة، كانت متأكدة من ذلك. ورفضت أن تخوض في سبب ثقتها تلك، غير أنها كانت باتّة في ذلك، والطريقة التي طرحت بها الموضوع جانباً دلَّت بجلاء تام على أنها تعتقد أنَّ جريمةً ارتُكِبَتْ في حق زوج أمها. والمُنصِتْ إليها وهي تتكلم يكاد يعتقد أنَّ ميلاني شوَّشت عقلها عن عمد لكي تحرم زوج أمها من حقّه الجنسي.

كانت ميلاني تفرد لي مكاناً رقيقاً في قلبها، ودائماً تقف في صفّي عندما أتشاجر مع مود، ولا أذكر مناسبة واحدة حاولت فيها أن توبِّخني على سلوكي الفاضح والمشين. ظل الأمر كذلك منذ البداية. وخلال الأيام الأولى، كانت مود تعمل على إبقائها بعيدة عن الأنظار. كانت ميلاني تمثِّل بالنسبة إليها شيئاً يثير عندها شعوراً عميقاً بالخجل

twitter @baghdad_library

- وكأنها ذكرى تسير على قدمين لوصمةٍ في العائلة. وبدا أنَّ ميلاني لم تكن تلاحظ الفرق بين الطيبين والأشرار من الناس؛ لم يكن لديها إلا مبدأ مرشد واحد ووحيد، وهو الاستجابة الفوريّة للمعاملة اللطيفة. وهكذا، حين اكتشفتْ أني لا أحاول أن أفرَّ من وجهها حالما تفتح فاها، حين اكتشفتْ أنه يمكنني أن أصغي إلى هَذْرِها ولم تخرج عن طورها، كما يحدث لمود، حين عَلِمَتْ أني أستمتع بالطعام وبشرب البيرة والنبيذ، خاصة الجبن وسجق بولونيا، أرادت أن تصبح عبدة لي. أحياناً كنت أفتح معها أشد الأحاديث بلاهة وروعة أثناء غياب مود - في المطبخ عادة أثناء شرب زجاجة من البيرة وربما مع قليل من سجق الكبد وإلى جانبها مقدار من جبن ليدركرانتز. ولما كنت في مثل تلك المناسبات أطلق لها العنان، كنت أطّلع على شذراتٍ رائعة من ماضيها الذي لا يخلو من متعة. ويبدو أن " هم " قد جاءوا من منطقةٍ كسول. وشبه مصابة بالإمساك حيث يجري نهر فورتزبرغر. حيث يتم القبض دائماً على النساء ويودع الرجال السجن دائماً لسبب ما تافه. كان جواً أشبه بجو نزهة يوم أحد مدرسية مع براميل صغيرة من البيرة ,وشطائر خبز الأرز، وتنانير التفتة النسائية، والسراويل التحتية المخرّمة، وماعز ضال ينكح بعضه بعضاً برضى على المروج. أحياناً كان يخطر لي أن أسألها إن كانت قد سمحت مرة لفرس شتلند أن ينكحها. ولو رأت ميلاني أنك تريد صادقاً أن تعرف ذلك، لأجابت عن مثل هذا السؤال بدون أي تردُّد. ويمكنك أن تنتقل من مثل هذا السؤال إلى استفسارٍ حول قداس العشاء الرباني بدون تعديل نبرة صوتك. لم تكن هناك رقابة واقفة على عتبة أخلاقها اللاواعية؛ وكان السُعاة يدخلون ويخرجون بدون أقلّ إجراء شكلي.

كان رائعاً قبولها سُكنى الشاب الياباني الذي قطن الغرفة التي تقع إلى يميننا. كان اسمه توري تاكيكوتشي، وكان شاباً صغيراً بهيجاً، ولطيفاً، وراقياً. وقد استوعب الوضع منذ النظرة الأولى، على الرغم من إلمامه القليل باللغة. وطبعاً، بما أنه ياباني كان من السهل عليه أن يبتسم ويشرق في وجه ميلاني حين أسرعت بالوقوف على عتبة غرفته وراحت تثرثر كمعزاة مجنونة. وابتسم في وجهينا بالطريقة نفسها، حتى حين أبلغناه بحصول كارثة خطيرة. واعتقد أنه كان سيبتسم الابتسامة ذاتها لو أني أخبرته أني سأموت بعد بضع دقائق من الآن. وطبعاً كانت ميلاني تعلم أن الشرقيين يبتسمون بتلك الطريقة الغامضة، لكنها رأت أن ابتسامة السيد ت - كانت تناديه دائماً " السيد ت. " - تتصف بجاذبية خاصة. في رأيها كان حبّوياً، وشديد النظافة والترتيب أيضاً! لا يترك ذرة من القذارة خلفه.

بعدما تآلفنا أكثر، ويجب أن أذكر هنا أننا تآلفنا جداً قبل انصرام شهر أو شهرين من الزمن، بدأ السيد ت. يجلب فتيات إلى غرفته. وأؤكّد لك أنه كان قد تنحّى بي جانباً ذات يوم وسألني سراً إن كان يُسمح له أن يحضر بين حين وآخر صبيّة إلى المنزل، مقدِّماً عذراً واهياً (مع تكشيرة عريضة) مفادها أنَّ لديه عملاً يقضيه معها. وقد استخدمْتُ عُذْرَهُ لأحصلَ على موافقة مود، ادَّعيتُ أنَّ المسكين الصغير محروم من الجاذبية بحيث لا يعقل أَن يكون إلا عملاً ما يجلبُ فتاةً أميركية جميلة إلى غرفته. وافقَتْ مود على مضض، تتنازعها الرغبة في أن تحافظ على المظاهر مع الجيران وخشيتها من فقدان مستأجر سخيّ كنا بحاجة إلى نقوده.

twitter @baghdad_library

لم أكن موجوداً في المنزل حين اجتازت الدخيلة الأولى عتبة الدار، لكني سمعت عن الأمر في اليوم التالي - سمعت أنها كانت " ظريفة إلى أقصى حد؟. كانت ميلاني هي التي ألقَتْ الخبر. كانت سعيدة جداً لأنه عثر على صديقة صغيرة - مثله.

قالت مود بلهجة رسمية " لكنها ليست صديقة "

تشدَّقتْ ميلاني قائلة " أوه حسن، لعلها مجرد جلسة عمل ... لكنها ظريفة جداً. يجب أن تكون له فتاة، كغيره من الشبان "

بعد مرور بضعة أسابيع تحوّل السيد ت. إلى فتاة أخرى. وهذه لم تكن " ظريفة " جداً. كانت تفوقه في طول القامة بمقدار رأس، وبنيتها كبنية نمر، وكان جلياً تماماً أنها لم تكن تحضر من أجل التحدُّث في أمور العمل.

هنَّأتُهُ في صباح اليوم التالي ونحن على المائدة، وسألتُهُ بدون مقدمات من أين التقطَ صاحبة الجمال الوهّاج تلك.

قال السيد ت. ن كاشفاً عن أنيابه الصفراء بكل ودّ، " في قاعة الرقص "، ثم انفجر في ضحكٍ بنّاتي مكبوت.

سألته، لمجرد أن أواصل الحديث، " هي ذكية جداً، صح؟ "

" أوه نعم، هي ذكية جداً، هي جيدة جداً "

قلت " انتبه لئلا تصاب بالسيلان ". قلتها بهدوء، وأنا ازدرد قهوتي.

أعتقد أن مود كادت تنهار عن الكرسي، وكأنَّ لسان حالها يقول، كيف أمكنك أن تتحدث بهذا الأسلوب مع السيد ت. إنه شيء مهين ويثير الاشمئزاز.

بدت الحيرة على السيد ت. لم يكن قد سمع بكلمة " سيلان ". كان يبتسم، طبعاً، ولمَ لا يفعل؟ لا يهمه ما قلناه ما دمنا نسمح له بأن يفعل ما يشاء.

تبرَّعت، من باب التأدُّب، أن أشرحها له. شرحت قائلاً، إنه " ألم في الرأس ".

ضجَّ بالضحك على هذا. نكتة جيدة جداً. نعم، لقد فهم. ولم يفهم أي شيء، ذاك الأير الصغير، ولكن كان من الأدبِ تَرْكُهُ يعتقد أنه فهم. ثم ابتسمت أنا أيضاً، ابتسامةً عريضة، دفعتْ السيد ت. إلى القهقهة من جديد، وغسل أصابعه في كأسِ الماء، وتجشّأ ورمى الفوطة على الأرض.

يجب أن أعترف بأن للسيد ت. ذوقاً رفيعاً. لا شك في أنَّه كان سخياً من ناحية النقود. وكان بعضهن يجعل لعابي يسيل. أعتقد أنَّ جمالهن لم يكن يعني له الكثير؛ لعله كان مهتماً أكثر بثقل أوزانهن، وبملمس بشراتهن، وفوق ذلك كله، بنظافتهن. كان لديه من كافة الأنواع - الحمراوات الشعر، والشقراوات - تماماً كما لو أنه يسحبهن من كيس مسروقات. إنه يشتري كسّاً - هذا هو فحوى الأمر كله. وفي الوقت نفسه كان يزيد من معرفته بالإنكليزية قليلاً (" كيف تقول هذا ...؟ " " ماذا يسمّى هذا؟ " " أتحبين البونبون، نعم؟ ") وكان يُحسن تقديم الهدايا - كان ذلك فناً بالنسبة إليه. وكثيراً ما فكّرت، حين أراه يرافق فتاة إلى غرفته، وأسمعه يقهقه ويتلعثم على طريقة اليابانيين الفاكي- واكي، إلى أي حد من الأفضل أن تحظى تلك الفتيات بالسيد ت. على أن يحظين بطالب أميركي شاب مرح وصاخب. وكنت متأكداً من أنَّ

twitter @baghdad_library

السيد ت. يحصل على ما يعادل النقود التي يدفعها. (" استديري، من فضلك "، " ستمصّي الآن، نعم؟ ") وبمقارنته تلك العاهرات الأميركيات البلهاوات مع فنّاني بلده، لابد أنهن بالنسبة إلى السيد ت. كنّ ذوات أجساد مثيرة للشفقة. وأذكر وصف أومارا لزيارته لمواخير في اليابان. كان يقول، كنّ أشبه بأحلام الأفيون. كان الاهتمام ينصبُّ على الأولويات، كما بدا واضحاً. كان هناك موسيقى، وبخور، وحمّامات، وتدليك، ومداعبات، وأوركسترا كاملة من الغواية والفتنة، تجعل النهاية بمثابة اكتمالٍ لشيءٍ يتّصف بنشوة لا تُحتَمَل. ويقول أومارا " إنها أشبه بالدمى، وغاية في اللطف، ويفضن بالحب. إنهن يسحرنك ". ومن ثم يغيب في حالات من النشوة وهو يتحدث عن البراعات التي يحضّرنها لأجلك. وكأن لديهن كتيّباً لتعليم النكاح يبدأ حيث تنتهي معرفتنا بهذا المجال. وذلك كله في جوٍ من الرهافة، وكأن النكاح فنٌ " روحاني "، أو ردهة تفضي إلى الجنة.

السيد ت. استغلَّ ذلك أفضل استغلال في غرفته المفروشة. وسيكون محظوظاً بدون أدنى شك إذا ما عثر على قطعة من خشب الصوفان ليحرقها. وكان صعباً معرفة ما إذا كان يستمتع بوقته أم لا. ذلك أنه كان يجيب عن كل ما يوجَّه إليه من أسئلة بالقول " جيد جداً ". وفي مناسبات متفرقة، لدى عودتي في وقتٍ متأخر، كنت ألمحه وهو يلجُ الحمّام بعد إحدى جلساته مع عاهرة أميركية. وكان دائماً يلجأ إلى الحمّام وهو ينتعل خفاً من القش ويرتدي الكيمونو؛ كيمونو قصيراً بالكاد يستر أيره. وكانت مود ترى أنَّ ذلك شيء صاعق؛ أي تجواله في المكان وهو بذاك الزي، لكن ميلاني رأت أنَّه يناسبه تماماً. وقالت، وهي

لا تعرف أي شيء عن الموضوع، لكنها دائماً على أتمّ الاستعداد للوقوف في صف الجانب المقابل، " إنهم يتجولون هكذا عادة ".

وأسأله وأنا أبتسم " أتقضي وقتاً ممتعاً، مستر ت.؟ "

" جيد جداً، جيد جداً ". ومن ثم يضحك ضحكاً مكبوتاً، وأحياناً يحكّ خصيتيه وهو يكشف عن أسنانه مكشّراً. " حار ماء، صح؟ ". وفي الحمّام يقوم بمراسم وضوئه المطوّلة.

إذا ظنَّ أنَّ مود نائمة يومئ أحياناً بإصبعه، مشيراً إلى أنَّ لديه ما يريني. وأتبعه إلى غرفته.

يقول، ويُفزع الفتاة حتى تكاد تفقد عقلها " أنا سأدخل، نعم؟ هذا السيد ميللر، صديقي ... هذه مس سليث ". وقد لاحظتُ أنَّ أسماءهن هي دائماً سميث، أو براون أو جونز. لعله لم يزعج نفسه قط بسؤالهن عن أسمائهن الحقيقية.

بعض الفتيات كن من العيار المدهش، أعترف بهذا. وكثيراً ما يقلن " أليس ظريفاً؟ "، وعلى الأثر يقترب السيد ت. من الفتاة، كما قد يقترب من تمثال معروض في واجهة، ويرفع لها ثوبها، " تبعها جميل جداً، صح؟ "، ويواصل تفحّص عشها وكأنه اشترى شيئاً فيها.

وتقول الفتاة " هنا، أيها الشيطان الصغير، لا يمكنك أن تفعل ذلك! "

" اذهبي الآن، نعم؟ ". هكذا كان السيد ت. يصرفهن. كان يبدو أسلوباً فظاً جداً يخرج من ذي بطنٍ أصفر صغير. لكن السيد ت. لم يكن يدرك أنه فظ. لقد نكحها جيداً، ولعق طيزها، ودفع لها مبلغاً محترماً وقدَّمَ لها هدية صغيرة على البيعة ... فماذا تريد أكثر من

twitter @baghdad_library

ذلك، بحق المسيح؟ " اذهبي الآن، نعم؟ "، ويغمض عينيه نصف إغماض، وقد بدا متخشّباً تماماً وخلا من أي اهتمام، بدون أن يترك أدنى شك في ذهن الفتاة في أنها كلما أسرعت في المغادرة كان ذلك في صالح صحتها.

" في المرة التالية جرِّبها أنت! تَبَعْها صغير جداً ". هنا يكشِّر، ويقوم بإيماءة صغيرة بإصبعه ليبيِّن لي كيف أن الأمر تمَّ بسهولة شديدة. " الفتاة اليابانية يكون تبعها صغيراً جداً. وهذا البلد كبير والفتاة تبعها صغير. جيد جداً "، ويلعق شفتيه بعد أن يُدلي بمثل هذه الملاحظة. ومن ثم، وكأنما ليستغل الفرصة أفضل استغلال، يتناول عوداً لتخليل الأسنان، وبينما هو يخلّل أسنانه يفتش عن الكلمات التي كان قد دوَّنها في دفتره الصغير. " هذه تعني ماذا ؟ "، ويريني كلمة مثل " خطر " أو " لا أرضي ". " الآن سأعلِّمكَ كلمة يابانية - أوهايو! هذه تعني صباح الخير! ". ابتسامة عريضة. وما يزال يخلِّل أسنانه، أو يتفحَّص أصابع قدميه.

" اليابانيون بسطاء جداً. كل الكلمات تُلفَظ بالطريقة نفسها "، ثم يقرقع بسلسلة من الكلمات، ويضحك ضحكاً مكبوتاً وهو يفعل ذلك، ربما لأن معناها هو " خراء " أو " عرص أبيض " أو " أحمق أجنبي "، أو ما إلى ذلك. لم أكن آبه لما تعنيه الكلمات، بما أنه لم تكن لدي أي نيّة في إجراء دراسة جادّة عن اليابانيين. ما كان يهمني أكثر هو تقنيته في انتقاء البيضاوات. عند سماعه، يبدو الأمر شديد البساطة. وطبعاً، كثير من الفتيات كان يُوصَى بهن من ياباني إلى آخر. ولابد أنَّ العديد من تلك الفتيات أنفسهن كنَّ يعاملن اليابانيين معاملة خاصة، لعلمهن

أنَّهم نظيفون وكرماء. لقد كنَّ يجهدن أنفسهن من أجل اليابانيين، وقد كانت تجارة مربحة. كانت هناك فئة معيّنة مخصصة لليابانيين؛ يركبن سيارات خاصة، ويرتدين ملابس فخمة، ويتناولن الطعام في مطاعم جيدة، وما إلى ذلك. أما الصيني فأمره مختلف. الصينيون كانوا عبيداً بيضاً. أما الياباني فيمكنك أن تثق فيه، إلخ. كنت أعرف كيف يفكّرن بالضبط. أشد ما يحبّذنه كانت الهدايا التي كان اليابانيون يقدمونها إليهن. الأميركيون لا يفكرون في تقديم هدايا، ليس في المعتاد. إنَّ إنفاق المال من أجل تقديم هدية لعاهرة يعتبرونه من قبيل السذاجة والحمق.

لا أدري لماذا يرتدُّ ذهني إلى التفكير في السيد ت. اللطيف. إنَّ المشوار إلى حي برونكس طويل جداً، وإذا تركت ذهنك يعمل على هواه فيمكنك أن تؤلِّف كتاباً خلال قَطْع المسافة ما بين بورو هول وتريمونت. ثم إنَّ، على الرغم من الشجار المُهلك مع مود، كان أحد تلك الانتصابات المتسللة، البطيئة، يحدث لي. إنها ملاحظة مبتذلة لكنها صحيحة مع ذلك - فكلما نكحت أكثر، رغبت في النكاح أكثر، ونكحت بشكل أفضل! وحين تبالغ في ممارسته يبدو أيرك وكأنه يصبح أكثر مرونة: يترهَّل، لكنه يبقى متيقِّظاً، إن صح التعبير. كل ما عليك أنْ تفعله هو أن تحفّ يدك على فتحة بنطالك فيستجيب. وتستطيع أن تنتقل على امتداد أيام طويلة وهراوة تتدلّى بين ساقيك. ويبدو أنَّ النساء، أيضا، يشعرن به.

كنت بين فترة وأخرى أحاول أن أركِّز تفكيري في مونا، أن أقولب وجهي في تعبيرِ حزنٍ بلاستيكي، لكن ذلك لم يكن يستمر. كنت أشعر

twitter @baghdad_library

أني في أحسن حالاتي، غاية في الارتياح، وخلو البال من الهمّ. على الرغم من فظاعة ما سأقول، إلا أني كنت أفكر أكثر في النكاح الذي كنت أترقّب أن أمارسه معها بعد أن أهدِّئ من اضطرابها. شممتُ رائحة أصابعي لأتأكد من أني نظّفتها جيداً. وأثناء ما كنت أفعل ذلك أغارت عليَّ صورة هزلية لمود. فقد كنت قد تركتُها وهي ملقاة على الأرض، مرهقة، واندفعت إلى الحمَّام لأرتِّب من شأن هندامي. وبينما كنت أفرك أيري فَتَحَتْ الباب. تريد أن تأخذ دشّاً فوراً فهي دائماً تخاف أن تُضبَط في الجرم المشهود. فقلت لها ادخلي، لا يهمني. نزعت عنها ملابسها، وثبَّتَتْ الخرطوم في منفذ الغازات، ثم استلقت على ممسحة الحمّام ورفعت ساقيها إلى الجدار.

قلت، وأنا أجفِّف أيري وأرشّه ببعض البودرة المعطّرة الممتازة التي تخصّها، " هل أساعدك؟ "

قالت، وهي تمعِّج طيزها لكي تضبط إسناد ساقيها إلى الجدار، " أتسمح؟ "

قلت أحبُّها، وأمسك فم الخرطوم استعداداً لإقحامه، " افتحيه قليلاً"

فعلتْ كما أمرتها، ووسَّعت فتحة شقها بأصابعها كلها. ملتُ فوقها ورحت أتفحَّصه على مهل. كان لونه بلون الكبد القاتم، وشفتاه متضخِّمتين. تناولتهما بين أصابعي وفركتهما معاً برفق، كما يفعل المرء ببتلتين مخمليّتين. بدت عاجزة تماماً وهي مستلقية وطيزها مستندة إلى الجدار وساقاها مرفوعتان إلى أعلى باستقامة، كمؤشّريّ البوصلة، وكان لابد لي من أن أضحك ضحكاً خافتاً.

توسَّلتْ قـائلة، وكـأنَّ التـأخيـر مـدة بضع ثوان قـد يعني حـدوث إجهاض، " أرجوك لا تسخر مني الآن، حسبتُ أنك مستعجل جداً "

أجبت " أنا فـعـلاً مـسـتـعـجل، ولكن يا إلهي، حين أنظر إلى هذا الشيء أهتاج من جديد "

أقحمتُ الخرطوم. بدأ الماء يجري خارجاً منها إلى الأرض. رميت بعض المناشف لأجفِّفه. وحين نهضت واقفة تناولت الصابون وأخذت أنظِّف لها كسّها وأفركه نيابة عنها. أحسنتُ تنظيفه بالصابون، من الداخل والخارج - كان إحساساً لمسيّاً لذيذاً مشتركاً بيننا.

بعد ذلك أصبح ملمس كسّها أكثر نعومة، وأخذتُ أمرِّر أصابعي فيه ومنه، كما لو أنك تداعب أوتار آلة بانجو. وكان قد حصل لديَّ واحدٌ من الانتصابات المنتفخة، المتوسطة، التي تجعل الأير يبدو أشد إجراماً مما لو كان كاملاً. كان متدلّياً من فتحة بنطالي، ويحفُّ على فخذها. كانت ما تزال عارية. بدأت أجفّفها. ولكي أفعل ذلك وأنا مرتاح جلستُ على حافة حوضِ الاستحمام، وأيري يتصلَّب تدريجياً ويقوم بقفزات متقطِّعة نحوها. وحين جذبتها لأقرِّبها مني وأجفِّف خاصرتيها، هبطت ببصرها إليه وأخذت تنظر إليه بنهم، وشوق، وهي مفتونة وأيضاً شبه خجلة من نفسها بسبب شرهها. وأخيراً انهارت مقاومتها. خرَّت على ركبتيها باندفاع وتناولته بفمها. رحت أمرِّر أصابعي في شعرها، وأداعب أذنها، ومؤخَّر عنقها، وأقبض على ثدييها وأدلّكهما برفق، متمهّلاً عند الحلمتين إلى أن انتصبتا بتوتُّر. وكانت قد أبعدت فمها وبدأت الآن تلعقه وكأنه قضيب من السُّكر. قلت، مغمغماً بالكلمات في أذنها " اسمعي، لن نعاود الكرَّة ولكن دعيني أدخله قليلاً

twitter @baghdad_library

ومن ثم أذهب. إنه ألذّ من أن نتوقف هكذا فجأة. لن أقذف، أعدك...". نظرت إليّ بتوسُّل، وكأنها تقول " أأصدِّقك؟ نعم، أريده. نعم، نعم، فقط لا ترهقني، اتفقنا؟ "

رفعتها لتقف على قدميها، وأدرتها وكأنها دمية، ووضعت لها يديها على حافّة حوض الاستحمام، ورفعت لها عجيزتها قليلاً. تمتمت " دعينا نفعلها بهذه الطريقة على سبيل التغيير "، ولم أقحم أيري مباشرة، بل رحت أحكُّه أعلى وأسفل شقّها من الخلف.

توسّلتْ قائلة " لن تقذف، أليس كذلك؟ "، وهي ترفع عنقها بحركة دورانيّة وتوجِّه إليّ نظرة ضارية، متوسّلة من خلال المرآة المعلّقة فوق المغسلة، " أنا مفتوحة على الآخر ... "

تلك " المفتوحة على الآخر " استفزَّت كل ما لديّ من شبق. قلت لنفسي " أيتها العاهرة اللعينة، هذا بالضبط ما أريده. سوف أتبوَّل في رحمك الفخم! ". وبهذا أدخلته ببطء، ساحجاً الجيوب وبطانة كسّها المفتوح واسعاً إلى أن شعرت بفوهة رحمها؛ وهناك حشرْتُهُ الحشرة الجيدة والقوية، ولحمته بها وكأني أنوي أن أدعه هناك إلى الأبد. أنَّتْ قائلة " أوه، أوه! لا تتحرَّك، أرجوك ... أوقفه! ". أوقفته كما أرادت، حتى بعد أن بدأت تلك المؤخّرة بالدوران كدولاب الهواء.

غمغمت بصوت أجشّ " أما زال في استطاعتك أن تبقيه حيث هو؟ "، وحاولت من جديد أن تتلفَّت فيما حولها حتى رأت انعكاس صورتها في المرآة.

قلت " أستطيع أن أبقيه "، بدون أن آتي بأي حركة، لعلمي أنَّ ذلك سيشجّعها على إطلاق العنان لخدعها كلها.

قـالت، ورأسـهـا يتـدلّى مـتـرهلاً، وكـأنَّه منزوعٌ عـن مـفـاصـلـه " هذا شعـور رائـع. أصبح أضـخم الآن، أتعلم هذا ؟ أهو ضـيّق بشكل يناسبك؟ إنني مفتوحة انفتاحاً هائلاً؟

قـلت " لا بأس، إنـه مطبِق بصـورة رائعـة. اسـمـعي، لا تأتـى بأي حركة ... فقط أطبقي عليه ... تعلمين كيف ... "

حاولت، لكنها لسبب ما لم تنجح في تشغيل معصرة الليمون الصغيرة خاصتـهـا. تراجعت على عجل، بدون سـابق إنذار. قلت، وأنا أبعـدها عني وأضع تحتها منشفة جافة " دعينا نستلقي على الأرض ... هنا ". كان أيري يلمع بالسـائل وصلبـاً كسـارية، وبالكاد كـان يشبـه الأير، كـان أشبـه بأداة ألصقْتُها بي، وانتـصابُ جُعلَ لحماً. استلقت منبطحة تنظر إليه وهي بحالة من الرعب والفرح، تتسـاءل ما الشيء التـالي الذي يفكِّر في فعله – نعم، تماماً كما لو أنه " هو " مَنْ يتّخذُ القرارات وليس أنا أو هي.

قـالت، وأنا أقـحـمه بسرعة، " أكون قـاسيـة القلب إذا منعـتك ". أحدثَ اللضمُ صوتاً مفرقعاً، كضراطٍ رطب.

" يا إلهي، الآن سأنكحك كما ينبغي. لا تقلقي، لن أقذف ... لم يتبقَّ لدي قطرة واحدة. تحرّكي قدر ما تشائين ... اهتزّي إلى أعلى ,إلى أسـفل ... نعم هكذا، حكّيـه بحـركة دورانيّـة، هيـا، افـعلي ... انكحي حتى تهلكي! "

همـست، وهي تضع يدها على فـمـهـا " هسـسس! ". انحنيت إلى الأمـام وعـضـضت عنقـهـا، عـضّـةً طويلة وعـمـيـقـة؛ عـضـضت أذنيـهـا، وشـفتـيـهـا. أخرجته ثـانية مدة لحظة واحدة معذّبة وعضضت الشعر الذي يغطي كسّها، وضممت الشفتين الصغيرتين وزلقتهما بين أسناني.

twitter @baghdad_library

توسّلت قائلة، وشفتاها مبلّلتان باللعاب، ويدها ممدودة تبغي أيري تريد إيلاجه ثانية. " أدخله، أدخله! أوه يا ربي، سأقذف ... لم يعد في إمكاني كبح نفسي. أوه، أوه ... " - سَرَتْ فيها نوبة تشنُّج، وهي تصفع عضوها عليَّ بغضب شديد، وتهتُّك، حتى لقد بدت أشبه بحيوان مسّه الجنون. ابتعدت بدون أن أقذف، وكان أيري مشرقاً، لامعاً، مستقيماً كرمح. نهضت ببطء على قدميها. وأصرّت على غسله نيابة عني، وهي تربت عليه بإعجاب، ورقّة، وكأنما قد تم إثبات أنه موثوق وصحيح. قالت، وهي تحمل أيري بين يديها الاثنتين، ملفوفاً بمنشفة، " يجب أن تسرع "، ثم أنزلت المنشفة وأشاحت ببصرها - " آمل أن تكون بخير. هلاّ أخبرتها بذلك؟ "

نعم، كان لابد لي أن أبتسم وأنا أتخيّل مشهد الدقيقة الأخيرة هذا. " أخبرها بذلك ... ". لقد رقّقَ ذاك النكاح الإضافي من حاشيتها. وتذكّرت كتاباً كنت قد قرأته يتحدّث عن تجارب تتّسم بالغرابة أجريت على حيوانات لاحمة - أسود، نمور، نمور أميركية. وقد لوحظَ أنه حين تُغَذّى تلك الوحوش الضارية جيداً - في الحقيقة، إذا ما أُتْخِمَتْ بالطعام - يمكن وضع مخلوقات رقيقة معها في القفص نفسه ولن تضايقها أبداً. فالأسد يهاجم فقط بداعي الجوع. إنه ليس مفترساً دائماً. ذاك كان المغزى الجوهري ...

ومود ... بعد أن ارتوت وشبعت لعلها أدركت للمرة الأولى أنَّ من العبث أن تضمر ضغينة ضد امرأة أخرى. لعلها قالت لنفسها، إذا كان في الإمكان أن تُنكَحْ هكذا كلما اشتهت، فلا يهمّ ما تطالب الأخرى به مني. لعله دخل في خلدها للمرة الأولى أن الامتلاك لا يعني شيئاً إذا

كنت لا تستطيع أن تستسلم. بل لعلها تمادت في تفكيرها ورأت أنه ربما كان الوضع هكذا أفضل - أي أن أحميها وأنكحها وألا تغضب مني بسبب مخاوف الغيرة. فإذا تمكّنت الأخرى من الاحتفاظ بي، إذا نجحت الأخرى في منعي من العبث مع كل عاهرة رخيصة تعترض سبيلي، إذا استطاعتا معاً أن تتقاسماني، بصمت طبعاً وبلا إحراج وفوضى، فلعل ذلك أفضل قبل كل شيء، أن تُنكَح دون الخوف من أن تتعرَّض للخيانة، وأن تنكح زوجها الذي هو الآن صديقها (وربما يعود فيصبح عشيقها) أن تنال منه ما تريد، وتستدعيه متى احتاجت إليه، أن تفضي له بسرّها الحميم، الدافئ، وتحيا من جديد ذكرى نكاحٍ سابق، وتتعلّم أخرى جديدة، أن تسرق ومع ذلك لا تسرق، وإنما تهب نفسها بكل استمتاع وانغماس، تعود شابةً من جديد، ولا تخسر أي شيء ماعدا الرباط التقليدي ... نعم، قد يكون هكذا أفضل بكثير.

أنا واثق من أنّ شيئاً من هذا القبيل قد خطر ببالها، قد نَشَرَ هالته حولها، أكاد أراها، بعين خيالي، تمشِّط شعرها بكل تراخٍ، وتتحسَّس ثدييها، وتتفحَّص العلامات التي خلّفتها أسناني على عنقها، آملة أن لا تلاحظ ميلاني وجودها دون أن تأبه كثيراً إن لاحظت أم لا. إنها لم تعد تأبه كثيراً إن كانت ميلاني تسترق السمع إلى الكلام أم لا. ولعلها تتساءل بكآبة كيف حصل وفقدتني. ولما باتت تعلم الآن أنَّه إذا كان عليها أن تعيش حياتها مرة أخرى من بدايتها لَمَا عاشتها كما كانت قد فعلت، لن تقلق بشأن أمورٍ تافهة. من الحماقة الصِرف أن تقلق بشأنٍ ما يمكن للأخرى أن تكون تفعله! ما همّ إذا ما زلَّتْ قَدَمُ الرجل بين حين وآخر؟ لقد سَجَنَتْ نفسها، أحاطَتْ نفسها بقفصٍ؛ تظاهَرتْ بأنه ليست

twitter @baghdad_library

لديها شهوات، تظاهَرتْ بأنها لا تجرؤ على أن تنكح - لأننا لم نعد زوجاً وزوجة. أي مذلّة فظيعة! إنها تريده بحُرقة، تتوق إليه، وتكاد تستجديه ككلبة - وإذا به متوفِّر لها طوال الوقت، ينتظرها. ما همّ إذا كان صواباً أم خطأ؟ أما كانت تلك الساعة الرائعة المسروقة أفضل من أي شيء خبِرَتْهُ؟ الشعور بالذنب؟ لم تكن في حياتها كما الآن أقلّ شعوراً بالذنب. وحتى لو أنَّ "الأخرى" ماتت في تلك الأثناء لَما شعرت بالندم لِما فعلت.

كنت واثقاً كل الثقة مما كان يجري في خلدها بحيث أني قرَّرتُ بيني وبين نفسي أن أسألها عن ذلك حين أقابلها في المرة التالية. طبعاً في المرة التالية قد تكون عادت إلى عادتها القديمة من جديد - وهذا أمر محتمل جداً حدوثه مع مود. ثم إنه لن يفيد أن أجعلها تفهم أنّي شديد الاهتمام بها - فذلك جدير بأن يثير سُمَّها. أفضل ما يمكن عمله إبقاء الأمر على المستوى اللا شخصي. لا معنى أن أتركها تعود إلى عاداتها القديمة. فقط أدخُلُ عليها وأحيّيها تحية بشوشاً، أسألها بضعة أسئلة، أرسِل الطفلة إلى الخارج لتلعب، أقتربُ منها، بهدوء، ثم أخرج أيري بحزمٍ وأضعه في يدها. وأحرصُ على ألاّ تكون الغرفة شديدة الإضاءة. ممنوع الهراء! فقط أدخل عليها، وبينما أسألها عن حال الأمور، أزلق يدي تحت ثوبها وأجعل السائل يفيض.

نكاحُ الدقيقة الأخيرة الإضافي ذاك حقّقَ عجائب لي أيضاً. دائماً، عندما يفتّش المرء عميقاً في مخزونه، عندما يستدعي آخر مقدارٍ، كما يقال، يُذهَلُ إذ يكتشف وجود منبع لا ينضب. وقد حدث ذلك لي من قبل، لكني لم أولِهِ انتباهاً جدِّياً. فالسهر طوال الليل والتوجه إلى العمل

دون نوم كان له أثرٌ مشابهٌ عليّ؛ أو على العكس، البقاء في السرير بعد استرداد العافية بوقت طويل، وإجبار نفسي على الراحة في وقت لا أعود بحاجة إلى مزيد منها. إن كسر العادة، وإقامة إيقاع جديد - هي أدوات بسيطة، معروفة منذ أيام الأقدمين، ولم تفشل قط. اهدمْ الأنماط القديمة، والعلاقات المهترئة، فتتحرَّر الروح، وتقيم استقطابات جديدة، تخلق توتّرات جديدة، تورِّث حيوية جديدة.

نعم، لاحظت باستمتاع أقصى الآن كيف كان عقلي يقدح، كيف كان يشع في كل اتجاه. ذاك كان الغليان والـ elan (الزخم) الذي صلَّيت أن يتحقَّق حين شعرت بالرغبة في الكتابة. كنت أجلس وأنتظر حدوث ذلك. لكنه لم يحدث قط - ليس بتلك الطريقة. بل حدث لاحقاً، بعد أن تركت الآلة الكاتبة وخرجت لأتمشى. نعم، فجأة بدأ ينقضّ، كالهجوم، بفوضى، من كل حدب وصوب، كإغراقٍ حقيقي، كتيهور - وإذا بي عاجز، أبتعد أميالاً عن آلتي الكاتبة، وليس في جيبي قطعة صغيرة من الورق. أحياناً أنطلق قاصداً المنزل خبباً، ليس ركضاً سريعاً لأنها قد تتلاشى وإنما بتمهُّل، كما في النكاح - حين تقول لنفسك تمهَّل يا هذا، لا تفكِّر في الأمر، هذا كل شيء، ادخل واخرج، برَوَقٍ، بحيادٍ، وأنت تحاول أن تتظاهر بأن أيرك هو الذي ينكح وليس أنت. الإجراء نفسه تماماً، استمرّ في النكاح بثبات؛ كفَّ عن التفكير في الآلة الكاتبة أو في كَمْ بقيَ أمامك حتى تصل إلى البيت، فقط تمهَّل، واثبَتْ، هذا كل شيء...

أثناء استعادتي هذه اللحظات النائية من الإلهام تذكَّرت فجأة مرة كنت في طريقي إلى مسرح المنوعات، " المسرَّة "، عند تقاطع شارعيّ

twitter @baghdad_library

لوريمر وبرودواي، في بروكلن. (كنت أستقلُّ خط المواصلات المرفوع) وقبل أن أصل إلى وجهتي بمحطتين انقضَّ عليَّ الهجوم. وكان ذلك هجوماً على جانب كبير من الأهمية لأنني وللمرة الأولى في حياتي اطّلعتُ على حقيقةِ أنَّ هذا هو ما يسمّى بـ " سيل الإلهام ". حينئذ علمتُ، في غضون بضع لحظات، أنَّ ثمة ما يحدث لي من الواضح أنّه لا يحدث لأي إنسان. حلّ عليَّ بدون سابق إنذار، أو أي سبب أعرفه. ربما فقط لأنَّ عقلي كان قد أضحى خالياً تماماً، ربما لأنّي غصتُ عائداً إلى أعماق ذاتي، سعيداً بانجرافي. أذكر بحيوية كيف أضاء العالم الخارجي فجأة، كيف بدأت آليّة عقلي تعمل بسرعة البرق بسلاسة وسرعة مرعبتين، والأفكار تتداخل، والصور تتوالى وتمحو إحداها الأخرى، في غمرة رغبتها المسعورة لتعبِّر عن نفسها. ذلك البرودواي الذي طالما كرهته، خاصة بسبب خط النقل المرفوع (الذي يقدِّم إليَّ مشهداً " متعالياً "، نظرة نحو الأسفل إلى الحياة، والناس، والأبنية، والتحركات)، هذا البرودواي أخذت فجأة تطرأ عليه تحولات. وهذا لا يعني أنَّه أضحى مثالياً أو جميلاً أو وهمياً؛ على العكس، لقد أضحى حقيقياً، وحيوياً أكثر فأكثر. غير أنَّه اكتسب توجُّهاً جديداً؛ صار متموضعاً في قلب العالم. وهذا العالم الذي كنت أبدو حينئذ قادراً على احتوائه بقبضة يدي أصبح له معنى. قبل ذلك، كان برودواي يبرز كقذى العين، يعجُّ بالقبح وبالغموض؛ عاد حينئذ إلى موقعه المناسب، كجزء متمِّم للعالم، لا طيِّب ولا شرير، لا قبيح ولا جميل: كان ببساطة منتمٍ. كان موجوداً كوجود مسمار صدئ في زند خشب مرمي على شاطئ مقفر خلال عاصفة شتائية. إنني عاجز عن التعبير عنه بأفضل من هذا.

وتتمشّى على طول الشاطئ، الجو يعبق برائحة نفّاذة، ومعنوياتك عالية، وتفكيرك صاف - ليس دائماً لامعاً - لكنه صافٍ. ثم هناك زند الخشب، جزء استثنائي من العالم الواقعي: إنه مُلقى، مُترعٌ بالتجربة، وبالغموض. أحدهم دقّ ذلك المسمار في مكان ما، في وقت ما، بصورة ما. ثمة سبب لفعله ذلك. كان يصنع سفينة ليبحر على متنها رجال آخرون. وبناء السفن كان عمل حياته - ومصيره ومصير أولاده كانا مرتبطين بكل ضربة من المطرقة. والآن ها هو زند الخشب مرميّ، والمسمار صدِئ، ولكن يا إلهي، إنه أكثر من مجرد مسمار صدِئ - وإلاّ فإنّ كل شيء جنونٌ وعبث ... هكذا كان الأمر مع برودواي. لحم خنزير في الواجهة، وواجهات موحشة لمحلات الزجّاجين، مع كتلٍ من المعجون على النضد تشكِّلُ بقعاً من الشحم على الورقة الخشنة. غريب كيف يتطوَّر الإنسان عبر العصور - من pithecanthropus erectus (إنسان جاوة المنتصب) إلى زجّاجٍ شاحب الوجه يحمل مادة هشّة تدعى زجاج لم يحلم بوجودها أحد طوال ملايين السنين، ولا حتى السحرة الأقدمين. أرى الشارع يغوص ببطءٍ، يتلاشى داخل الزمن: الزمن الذي يمرُّ كالرصاص أو يتبخَّر كالبخار. الأبنية تتهاوى؛ ألواح الخشب، حجارة القرميد، الملاط، الزجاج، المسامير، لحم الخنزير، المعجون، الورق، كل شيء يتراجع داخل المخبر الهائل. سلالة جديدة من الناس تسير في الأرض (على هذه الأرض نفسها)، لا عِلْمَ لها بوجودنا، لا تحمل معها الماضي ولا تفهمه، حتى وإن كان في الإمكان إحيائه. في شقوق الأرض بقٌّ يزحف، كما فعل طوال بلايين السنين: يتشبَّث بعنادٍ بنوعه، لا يساهم بأي شيء في عملية الارتقاء، ويتحدّاه ظاهرياً. وقد شهد، عبر الأجيال،

twitter @baghdad_library

كل سلالات البشر تطأ الأرض - نجا من الكوارث كلها، والانهيارات التاريخية كلها. في المكسيك بقٌ زاحفٌ خاص بأصحاب الذوق الرفيع. وكان هناك بشر، ما زالوا أحياء ويسيرون في الأرض لا تفصل بينهم مسافات مادّية هائلة بل مهاوٍ عقلية وروحيّة، يجمعون النمل ويقلونه، وبينما هم يتلمّظون بألسنتهم باستمتاع تعزف الموسيقى، وقد كانت موسيقى من نوعٍ يختلف عن موسيقانا. وفي اللحظة نفسها، وفي سائر أنحاء الأرض الشاسعة، كانت تحدث أمور كهذه وتختلف عنها اختلافاً هائلاً، ليس فقط على اليابسة وإنما في الجو وفي أعماق البحر.

ثم وصلنا إلى محطة لوريمر. ترجّلتُ بحركةٍ آليّةٍ، لكني كنت عاجزاً عن الانتقال إلى الدرج. كنت عالقاً في الدفق المضطرب، مثبّتاً هناك ثباتاً لا خلاص منه وكأنَّ صياد سمك طعنني برمحه. كل تلك التيارات التي أفلتها كانت تدومٍ من حولي، تطوّقني، تشرقني نحو أعماقِ الدوامة. كان لابد لي من أن أتوقّف وأنا هكذا، مشلولاً، مدة نحو ثلاث دقائق أو أربع، وإنْ بدَتْ أكثر من ذلك بكثير. مرَّ الناس وكأنما في حلم. دخل المحطة قطار ثان بعيد جداً. حين صدمني جعلني أترنّح وأستدير قليلاً. مع ذلك لم أعِ فظاظته ...لكني فجأة رأيت صورتي في الآلة الشقبيّة[٥٦] حيث كانت العلكة موضوعة. طبعاً لم يكن هذا صحيحاً، ولكن توهمت أني ألاحق نفسي - وكأني أمسكت بطرف ذيل التركيب الجديد لذاتي القديمة، الشخص العادي اليومي ينظر إليّ من خلف عينيّ أنا. سبّبَ لي ذلك بعض التوتُّر، كما قد يحدث لأي إنسان إذا ما شاهد، أثناء صحوه من حلم يقظة، ذيل مذنَّب يترك أثره عبر صفحة السماء،

٥٦ - الآلة الشقبية : آلة تعمل بإسقاط قطعة نقدية في شقٍ فيها . - المترجم .

ومن ثم يمّحي لدى مروره عبر شبكة العين. وقفت في مكاني أحدِّقُ إلى صورتي، لحظة الاستيلاء كانت آنئذٍ قد انقضت لكن الأثر المتخلِّف بقي. وشعرت بتحليقٍ واعٍ أكثر يتجلّى. إنه سُكرٌ. يا إلهي، كم بدت مقارنة شديدة الوهن بهذا! (إنه شفق، لا أكثر) وشعرت أني ثمل - لكني قبل هنيهة كنت مُلهَماً. قبل لحظة عرفتُ معنى تجاوز الفرح. قبل لحظة نسيت تماماً مَنْ أكون: كنت قد انتشرت فوق العالم بأسره. ولو كانت أشد كثافة لعَبَرتُ ربما ذاك الخط الرفيع الذي يفصل بين سلامة العقل والجنون. ربما كنتُ حققتُ حالةَ فقدانِ الشخصية، أغرقتُ نفسي في محيطٍ من الكثافة. وببطءٍ مشيتُ نحو الدَرَج، هبطتُه، وعبرتُ الشارع، ابتعت بطاقة، وولجتُ المسرح. كانت الستارة بالكاد بدأت ترتفع وكشفت عن عالم حتى أشدّ غرابة من عالم الهلوسة الذي خرجتُ بسلام منه. كان وهمياً محضاً - صرفاً، بكل ما في الكلمة من معنى. حتى الموسيقى، المألوفة بشكل مؤلم جداً، بدت أجنبية لأذني. بالكاد كنت أستطيع أن أفرِّق بين الأجساد الحيّة التي تتواثب أمام عينيّ وبهرجة المشهد العام وقِوامه العجيني: كانوا يبدون كأنهم مصنوعون من مادة واحدة، من خَبَثٍ رمادي مشحون بجهد ضئيل من التيار الحيوي. ما أشبههم بالآلات وهم يندفعون متنقّلين! ما أرفع أصواتهم! تلفّتُ حولي، رفعتُ بصري إلى طبقات الصناديق، وحبال البلش المتدلّية بين الأعمدة النحاسيّة، والدمى جالسة هناك واحدة: الغضار، غضار عادي.

كان عالماً شبحياً، مُثبَّتاً بشكل مرعب. كل شيء ملتصق معاً - المشهد، النظارة، الممثلون، الستارة، الموسيقى، الدخان - في حجاب كئيب، عبثي. وفجأة شعرت بالحكّة، حكّة فظيعة حتى لكأنَّ ألف

twitter @baghdad_library

برغوث دفعة واحدة يعضّني. أردت أن أصرخ. أردت أن أصرخ. أردت أن أصرخ بشيء يصعقهم ويخرجهم من غيبوبة مرعبة. (" خراء! خراء حار! "، فيقفز الجميع واقفين على أقدامهم، وتسقط الستارة، ويقيض عليّ دليل النظارة من ياقتي ويدفعني إلى الخارج) لكني عجزت عن إصدار أي صوت. كانت حنجرتي كورق الصنفرة. انتهى إحساس الحكّة ثم شعرت بالحرّ ثم بالحمّى. حسبت أني سأختنق. يا إلهي، لكني كنت أشعر بالملل. ملل لم أشعر بمثله من قبل. أدركت أنَّ لا شيء سيحدث، لا شيء " يمكن " أن يحدث، حتى لو ألقيت قنبلة. لقد كانوا موتى، موتى عفنين، هذا ما كانوا عليه. كانوا جالسين على خرائهم النتن، يتبخرون عليه ... لم أقو على تحمُّله أكثر من ذلك. واندفعت إلى الخارج.

في الشارع عاد كل شيء كئيباً وعادياً، عاديّاً مقبضاً. الناس يتدحرجون كخضروات هزيلة. كانوا أشبه بالأشياء التي يأكلون. وما يأكلونه يصير خراءً. لا أكثر. فيو!

على ضوء تلك التجربة السابقة في القطار المرفوع أدركت أنَّ عنصراً جديداً يتبدّى، عنصراً ذا مغزى استثنائي. هذا العنصر هو الوعي. عندئذ بتُّ أعلم ما كان يحدث لي، واستطعت إلى حدٍّ ما أن أتحكَّم في الانفجار. خسرت شيئاً، وكسبت شيئاً. فإذا كانت كثافة " الهجمة " الأولى نفسها لم تعد موجودة فإنَّ الإحساسَ بالعجزِ أيضاً لم يعد موجوداً. كنت وكأني داخل طائرة تنطلق بين السحب بسرعة فائقة، وعلى الرغم من عدم قدرتي على إيقاف المحرِّك عن الدوران، اكتشفت بفُجاءة مُفرحةٍ أنّه في الإمكان على أي حال التعامل مع جهاز القيادة.

مع أني كنت قد خرجت عن مداري المعتاد، إلا أني كنت مزوَّداً بتوازنٍ كافٍ لأنتبه إلى حركاتي. حينئذ أضحَتْ الطريقةُ التي أرى بها الأشياء هي الطريقة نفسها التي سأكتب بها عنها ذات يوم. وعلى الفور أغارت الأسئلة عليَّ كمقالع وأسهم ترميني بها آلهة غضبى. هل سأتذكّرها؟ هل سأتمكّن من تقشيرها على صفيحة من الورق دفعة واحدة وفي كل الاتجاهات؟ هل هدف الفن أن يترنَّح متنقّلاً من نوبة إلى نوبة، مخلِّفاً نزيفاً دامياً في إثر المرء؟ هل على المرء فقط أن ينقل " الإملاء " - كمريد مخلص يطيع وصايا أستاذه التخاطرية؟ هل الخلق يبدأ، كما يحدث مع الأرض نفسها، في الفقاعة النارية للصهارة الأوليّة، أم هل من الضروري أن تبرد القشرة السطحية أولاً؟

استثنيتُ بهياج شديد الأسئلة كلها ماعدا السؤال المتعلّق بالذكرى. كان من العبث التفكير في إحداثِ وابلٍ مطريّ ذهنيّ من جديد. كل ما استطعت أن أفعله هو أن أحاول الاحتفاظ بأجوبة معينة ومحدَّدة، أن أحوّلها إلى مِحَكّات للذاكرة. أهمُّ شيء كان العثورُ من جديد على عِرْق الذهب - وليس كم من الذهب أستطيع أن أستخرج. كانت مهمتي هي أن أطوِّر فهرساً ذاكرياً لأطلسي الإلهامي. حتى أشد المغامرين جسارةً نادراً ما يضلِّل نفسه بالاعتقاد أنه سيكون قادراً على اكتشاف كل قدم مربع من الأرض على هذه الكرة الأرضية الغامضة. والحقيقة أنَّ المغامر الحقيقي يجب أن يدرك، قبل أن ينتهي من جولاته بوقت طويل، أن في مجرد تكديس التجارب الرائعة جانباً أحمق.

فكَّرتُ في ميلاني التي، في الحالة العادية، ولو أني كنت أخطط لتأليف كتاب عن حياتي، ما كنت تجشمت عناء تضمينها فيه. كيف

twitter @baghdad_library

نجحَتْ في أن تُقحِمَ نفسَها في حين أني في المعتاد نادراً ما أفكر فيها؟ ما مغزى هذا التدخُّل؟ ماذا لديها تساهم به؟ وعلى الفور سقط محكًّان في حجري. ميلاني؟ نعم طبعاً. إنني دائماً أتذكَّر " الجمال " و " الجنون". ولماذا أذكر الجمال والجنون؟ ثم تمثّلت الكلمات التالية في ذهني: " تشكيلةٌ من اللحم ". تبع ذلك أشدُ الاستطرادات رهافة حول العلاقة بين اللحم، والجمال والجنون. عنصر الجمال في ميلاني مستمدٌ من طبيعتها الملائكية، وعنصر الجنون فيها مستمدٌ من اللحم. وانفَصَلَ العنصران اللحمي والملائكي، أما ميلاني، التي كانت جميلة بشكلٍ مبهم كتمثالٍ مهشَّم، فكانت تلفظ أنفاسها ببطء على الجبهة (كانت هناك نماذج هستيرية نجحت في عزل عنصر اللحم، بمنحِه بذلكَ حياةً خاصة به. ولكن معهم كان من الممكن وصلُ القابسِ واستعادةِ التيارِ، والتحكُّم في رفعه، كستارة الاسبستوس في المسرح، في حالِ نشوبِ حريقٍ أو كدلالةٍ على أنَّ فصلاً آخرَ قد انتهى). إن ميلاني كانت أشبه بمخلوق غريب وعار، نصفه إنسان، ونصفه إله، يقضي وقته كله في محاولة عقيمة للارتقاء من حُفرة الفرقة الموسيقية إلى خشبة المسرح. وفي حالتها لا يهمّ سواء أكان العرضُ جارياً أم لا، سواء أكان هناك تدريبٌ أم استراحةٌ بين فصلين، أم كانت دار المسرح خالية ويكتنفها الصمت. كانت ترتقي بصعوبة مستخدمةً القدرةَ على الإغواءِ المثيرِ للاشمئزاز التي يتَّصف بها المجانين وهم عراة. قد ترتدي الملائكة عمامات أو قبعات بنّية اللون، وفقاً لنزواتها، إذا ما صدَّقنا أوهام بعض الحالمين، لكنها لا توصف أبداً بأنها مجنونة. لم يكن عريها أبداً مثيراً للشهوة. أما ميلاني فكان في

إمكانها أن تكون مثيرة للسخرية كملاك سويدنبرغي[٥٧] ومستفزّة كنعجة مُثارة جنسياً لمرأى راع وحيد. كان شعرها الأبيض يعمل فقط على تعزيز موجات إغواء لحمها؛ وكانت عيناها فاحمتيّ السواد، وصدرها صلباً وممتلئاً، ووركاها كحقل مغناطيسيّ. ولكن كلما تأمّل المرء في جمالها ازدادت بذاءةُ جنونها. كانت تعطي انطباعاً وهمياً بأنّها تتنقَّل وهي عارية، وبأنّها تدعوك إلى لمسها بحيث أنّها قد تضحك ضحكتها الغريبة والمخيفة والخفيضة التي يطلقها المعتوهون ليسجّلوا ردّة فعلهم التي لا يمكن التنبؤ بها. لقد تلبَّستني كإشارة الخطر التي تُلمَح من نافذة قطار ليلاً حين يتساءل المرء فجأة إن كان قائد القطار يقظاً أم نائماً. وكما يتساءل المرء في مثل تلك اللحظات، وهو من فرط الخوف بحيث يعجز عن الاتيان بأي حركة أو عن الكلام، عما ستكون عليه بالضبط طبيعة الكارثة، كذلك الأمر في حال التفكير في جمال ميلاني المجنون؛ غالباً ما أستسلم لأحلام اللحم المبهجة، والأشياء التي عرفتها واكتشفتها والأشياء التي لم أكتشفها بعد. إن الانطلاق انطلاقةً عفوية في مغامرات جسدية يوقظ الحسّ بالخطر. وقد عرفت أكثر من مرة الرعب والافتتان اللذين يعرفهما الإنسان المنحرف حين يستسلم في قطارٍ نفقي مزدحم لرغبةٍ لا رادَّ لها في صفع طيز مغرية أو عصر حلمة شهية تقع على مرمى من متناول الأصابع.

إن عنصر الوعي لا يعمل فقط كعنصر تَحَكُّم جزئي، يتيح لي أن أتحرك بقدمين وهميتين من مصعدٍ دوّار إلى آخر، وإنما يخدم هدفاً أكثر

---

٥٧ – سويدنبرغي : أي نسبة إلى العالم واللاهوتي وصاحب الأفكار الصوفية السويدي إيمانويل سويدنبرغ (١٦٨٨ – ١٧٧٢).

twitter @baghdad_library

أهمية - إنه يثير الرغبة في البدء في عملٍ إبداعيّ. ومعرفتي أنه يمكن لميلاني، التي كنت حتى ذلك الحين قد أهملتها، واعتبرتها مجرد صفر وسط الكم المعقَّد من التجارب، أن تكون عِرقُ ذهب غنيّ، فتح عينيّ. في الحقيقة، لم تكن ميلاني، بل تلك الكتل الكلامية (" جمال "، " جنون "، " تشكيلة من اللحم ")، هي التي شعرتُ بالحاجةِ إلى اكتشافها وإلباسها زياً فخماً. حتى وإنْ استغرق مني ذلك سنوات عديدة، سوف أذكر هذه السلسلة من الزخارف، أقبض على سرِّها، وأعرضها على الورق. كم من مئات النساء لاحقتُ، تبعتُهُنَّ ككلبٍ ضال، لكي أدرس سِمةً غامضةً - عينين متباعدتين، رأساً منحوتاً من الكوارتس، وركاً يبدو وكأنه يعيش حياته الخاصة، صوتاً موسيقياً كتغريد عصفور، شلالاً من الشعر ينهمر كزجاجٍ مغزول، جزعاً مرناً مرونة المطاط ... وكلما أصبح جمالُ الأنثى عصيّاً على المقاومة أمكن اقتفاء أثره إلى خاصيّة واحدة. وهذه الخاصّية، وهي في الغالب هزيمة جسدية، يمكن أن تتّخذ أبعاداً غير واقعية بحيث أنَّ جمالها المدوِّخ، بالنسبة إلى صاحبتها، لا شيء. فالصدر ذو الجاذبية الهائلة يمكن أن يصبح يرقة ذات رأسين تنخر في الدماغ وتغدو وَرَمَاً رطباً غامضاً؛ والشفتان الغليظتان المغريتان يمكن أن تنموا داخل أعماق الجمجمة كمهبل مضاعف، وتسبّبان أشد الأمراض عضلاً على الشفاء: المنخوليا. (هناك نساء جميلات لم يقفن مرة عرايا أمام المرآة، نساء، حين يفكرن في القوة المغناطيسية التي يستخدمها الجسد، يُصَبن بالرعب وينكمشنَ داخل ذواتهن، يملؤهن الخوف من أن تفضحُهُنَّ الرائحة التي تنبعث منهن. وهناك أخريات، يقفن أمام المرآة، ولا يستطعن مقاومة الاندفاع إلى الخارج وهن عاريات تماماً ليمنحن أنفسهن لأول عابر سبيل).

تشكيلة من اللحم ... وقبل النوم، وبينما الجفنان ينسدلان على شبكة العين وتبدأ الصور من تلقاء ذاتها استعراضها الليلي ... تعود تلك المرأة في القطار النفقي التي تبعتها في الشارع إلى الظهور فجأة كشبحٍ لا اسم له، يتقدم منك بأعضائه التناسلية الرشيقة، والنشطة. يذكِّركَ بشخصٍ، شخص يشبهه، ولكن بوجه مختلف. (لكنَّ الوجهَ لم يكن أبداً مهماً!) وتتذكر تماوج الأعضاء التناسلية ورفرفتها بالقوة نفسها التي تتذكَّر بها في زاويةٍ ما من عقلكَ صورةَ ثورٍ رأيته وأنت طفل: الثور يعمل على امتطاء بقرة، وتظهر الصور وتغيب. وفي كل مرة يبرز جزءٌ معيَّنٌ من الجسد، علاقةٌ مطابقة ما. أسماء - أسماء تتلاشى، العبارات المحبَّبة - هي أيضاً تتلاشى. حتى الصوت، الذي كان شديد الجهار، ومُقلقاً، وبشكلٍ عام شخصياً - هذا أيضاً كانت له طريقته في التلاشي، في الضياع وسط الأصوات الأخرى كلها. لكنَّ الجسدَ يستمر في الحياة، والعينان، وأصابع العينين، تُذكَر. تظهر وتختفي، المجهولة، اللامسمَّاة، تمتزج مع الأخرى بحرية وكأنها تشكِّلُ جزءاً مكمِّلاً من حياة الإنسان.

ومع المجهولة تأتي ذكرى أيام معيّنة، ساعات معيّنة، والطريقة الحسّية التي كانت تدخل فيها بسهولة إلى لحظةِ كسلٍ خالية. وتتذكر كيف كانت المشوقة القامة ذات ثوب الحرير الخبازي اللون تقف بعد ظهر أحد الأيام، وحين سلَّطت الشمس أشعتها الخانقة بحرارتها، وحدَّقت مفتوناً بعبث مياه النافورة، تتذكَّر بدقة كيف عبَّر جوعك عن نفسه في ذلك الحين - حاداً، سريعاً، كحدّ السكين بين الكتفين، ثم يتلاشى بالسرعة نفسها، ولكن كدخانٍ ممتع أشبه بنفحة حنين عميق. ثم تظهر

twitter @baghdad_library

واحدة أخرى، ثقيلة، متبلّدة، ببشرة كثيرة المسام كالحجر الرملي؛ معها يتركّز كل شيء في الرأس، الرأس الذي لا يتلاءم مع الجسم، الرأس البركاني، الذي لا يزال مملوءاً بالتفجّرات. كانت تظهر وتختفي بهذا الشكل، واضحة، دقيقة، يجرجر محيط التصادم، تشع تأثيراتها الآنيّة. من كل الأنواع، كلها مخفّفة بالبنية، بالطقس، وبالمزاج: صور معدنية، وتميثيليات[٥٨] من الرخام، وصور مبهمة شفّانية[٥٩]، وصور تُشبه الزهور، وحيوانات رشيقة مغطاة بجلود سويدية، وفنانو الأرجوحة البهلوانية، وصفائح فضيّة من المياه تبرز بشكلٍ إنساني وتنحني كزجاج فينيسي. وتجرِّدها بهدوء من ملابسها، تتفحّصها تحت المجهر، تجعلها تتمايل، تنحني، تثني الركَب، تتدحرج، تباعد ما بين سيقانها، تتحدث إليها، بما أن شفتيك الآن ليستا مختومتين. ماذا كنت تفعلين في ذلك النهار؟ أدائماً تصفّفين شعرك هكذا؟ ماذا كنت ستقولين لي حين حدّقتِ إليّ بذاك الشكل؟ هل لي أن أطلب منك أن تستديري؟ نعم هكذا. والآن احملي ثدييكِ بيديك الاثنتين. نعم، كان في إمكاني أن أثب عليك في ذاك النهار. كان في إمكاني أن أنكحك على الرصيف حيث كنتِ، والناس يطأوونك. كان في استطاعتي أن أنكحك حتى أغرزك في الأرض، وأدفنك هناك بالقرب من البحيرة حيث كنت تجلسين وساق على ساق. كنت تعلمين أني أراقبك. أخبريني ... أخبريني، لأنه لا أحد غيرك يعلم، ... ما الذي كنت تفكرين فيه آنئذٍ، في تلك اللحظة بالذات؟ لماذا أبقيت وضع ساق على ساق؟ كنت تعلمين أني أنتظر منك

---

٥٨ – التُميثيليات : جمع تُميثيل : تصغير تمثال . – المترجم .

٥٩ – شفّانية : أي نصف شفافة . – المترجم .

أن تباعدي ما بينهما. أردت أن تفتحيهما، أليس كذلك؟ قولي الحقيقة! كان الجو حاراً ولم تكوني ترتدين أي شيء تحت ثوبك. كنت قد هبطت عن مجثمكِ لتستنشقي بعض الهواء، آملة أن يحدث أمرٌ ما. لم تكوني تأبهين كثيراً لما حدث، أليس كذلك؟ تجوّلتِ حول البحيرة، في انتظار حلول الظلام. أردتِ أن تقع عينا أحدهم عليكِ، أن تعرّيانك، شخص يثبِّت تحديقه على تلك البقعة الرطبة، الحارّة، بين ساقيك ...

هكذا تغزلين الأمر، لفّة من مليون قدم. وطوال الوقت تنقّلين عينيك بسرعة من واحد إلى آخر بغضبٍ يتلظّى، وما يجري تحت جلدك هو الطبيعة المبهمة للجاذبية. ما أشد غموض قانون الجاذبية! إنه سرٌ مدفون عميقاً في الأجزاء النائية المنعزلة من الكل الغامض.

إنَّ المخلوق الذي لا يُقَاوَم من الجنس المقابل هو وحشٌ يصيرُ زهرةً. والجمال الأنثوي إبداعٌ لا ينتهي، ثورةٌ لا تتوقف على نقصٍ (غالباً وهميّ) يجعل الكيان كله يحلّق صوب السماء.

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي عشر.

" *لقد حاولت أن تسمِّم نفسها!* "

تلك كانت الكلمات التي سمَّرتني لدى فتح باب مؤسسة الدكتور أونيريفيك. وكان كرلي هو الذي أعلنها، وهو يخمد كلماته بقرقعة مقبض الباب.

أخبرتني نظرة سريعة ألقيتها عبر كتفيه أنها نائمة لقد تولّى كرونسكي أمر العناية بها. طلب ألا يخبر أحد الدكتور أونيريفيك بما حدث.

شرح لي كرلي " شممت رائحة الكلوروفورم فور دخولي. كانت جالسة على الكرسي، رابضة، وكأنها قد أصيبت بسكتة دماغيّة "

ثم أضاف، وقد بدا شيء من الارتباك " حسبت أنها ربما أجهضت... "

" لماذا فعلت ذلك، هل قالت؟ "

تنحنح كرلي وتلعثم.

" هيا، كفاك سخفاً. ماذا كان السبب - الغيرة؟ "

لم يكن متأكداً. كل ما كان يعرفه هو ما أفشته وهي تستعيد وعيها. كررت مراراً قائلة إنها لم تعد تستطيع أن تحتمل.

سألته " تتحمَّل ماذا؟ "

" مقابلتك لزوجته، أعتقد. قالت إنها رفعت سماعة الهاتف لتتّصل بك. شعرت أن ثمة ما ليس على ما يرام "

" ما هي كلماتها بالضبط، أتذكر؟ "

" نعم، تفوهت بكثير من الكلام الفارغ عن أنك قد خنتها. قالت إنك لن تذهب إلى زوجتك لرؤية ابنتك. قالت إنك ضعيف، وإنها عندما لا تكون برفقتك يمكنك أن تفعل أي شيء ... "

نظرت إليه مندهشاً " أقالت هذا حقاً؟ لا أظنك تؤلّف هذا، أليس كذلك؟ "

تظاهر كرلي بأنه لا يسمعني. وتابع كلامه عن كرونسكي، كيف أحسن التصرُّف.

قال كرلي " لم أكن أعلم أنه ماهر إلى ذاك الحد في الكذب "

" الكذب؟ ماذا تقصد؟ "

" أسلوبه في التحدُّث عنك. كان ينبغي أن تسمعه. يا إلهي، وكأنه كان يضاجعها. قال أشياء رائعة عنك حتى أنها بدأت تبكي وتجهش كطفلة"

ثم تابع قائلاً " تصوَّر أنه قال لها إنك أشد مَنْ قابل في حياته إخلاصاً وتفانياً! وقال إنك قد تغيَّرت تماماً منذ أن عرفتها - وأنه ليس في مقدور أي امرأة غيرها أن تغويك! "

هنا لم يستطع كرلي أن يكبح تكشيره السقيم.

قلت، بشبه غضب " حسن، هذا صحيح، لقد صدق كرونسكي "

" في أنك تحبها كثيراً بحيث أنك ... "

twitter @baghdad_library

" ولماذا تعتقد أني لا أحبها؟ "

" لأني أعرفك. أنت لن تتغيَّر "

جلست بالقرب من السرير ونظرت إليها. أخذ كرلي يتنقّل بقلق. كان في استطاعتي أن أشعر بالغضب المكبوت داخله. كنت أعرف ما يكمن في أعماقِ ذاك الغضب.

بعد بعض الوقت سألته " ألا تظن أنها على ما يرام الآن؟ "

" كيف لي أن أعرف، إنها ليست زوجتي أنا "، ومَضَ صدى الكلمات كأنه بريق حد سكين.

" ماذا ألمّ بك، كرلي؟ أتغار من كرونسكي؟ أم أنك تغار مني أنا؟ تستطيع أن تمسك يدها وتدللها عندما تستيقظ. أنت تعرفني... "

جاءني ردّ كرلي النكد " معك الحق اللعين في هذا! كان ينبغي عليك أن تكون موجوداً هنا لتمسك يدها بنفسك. أنت لا تتواجد أبداً حين تكون مطلوباً. أعتقد إنك كنت تمسك بيد مود - الآن بعد أن أصبحت لا تحتاج إليك. أنا أذكر كيف كنت تعاملها. حينئذٍ كنتُ أحسبُ ذلك مضحكاً.. كنت صغيراً جداً ولا أفهم شيئاً. وأذكر دولوريس أيضاً ... "

همست، مشيراً برأسي إلى الجسد المسجّى " هدوءاً! "

" لن تستفيق الآن، لا تقلق "

قلت، مخفضاً صوتي " حسنٌ ... والآن ماذا عن دولوريس؟ ماذا فعلتْ بالضبط حتى تألّمت إلى هذه الدرجة؟ "

ظلّ برهة لا يقوى على النطق بأي شيء. كان ببساطة يكاد ينفجر بما كان يضمره من ازدراء واحتقار. وأخيراً أطلق ما يكنّه.

" أنت تحطّمهن! تحطّم شيئاً ما فيهن، هذا كل ما أستطيع أن أقوله"

" تقصد أننا بعد أن افترقنا حاولت أن توقع دولوريس في شباك ولم تقبلك؟ "

زمجر قائلاً " قبل أم بعد - لا فرق. أنا أعرف كيف كانت تشعر - كانت تفضي بمشاعرها لي. حتى حين كرهتك لم تكن تطيق رؤيتي. استخدمتني كوسادة، أغرقتني بدموعها، وكأني مصنوع مِنْ... يعلم الله ماذا ... كنت تسعى وراء تلك الجلسات التي تعقد في الغرفة الخلفية التي يسطع الضياء في جنباتها. وتُرِكَ الصغير كرلي ليلعق الفتات. الصغير كرلي يرتّب الأمور لأجلك. أنتَ لا تفكّر أبداً فيما حدث بعد أن تغلق بابك خلفك، أليس كذلك؟ "

تشدقت قائلاً، مبتسماً له بسخرية " لا-ا-ا، ماذا حدث؟ قل لي أنت"

من المثير للاهتمام دائماً أن تعلم بما حدث حقاً بعد أن تغلق بابك خلفك. كنت مستعداً أن أسترخي في جلستي وأستمع بأذنين صاغيتين.

غامرت بالقول، لأزيد من استفزازه " طبعاً حاولت أن تستغل الموقف آخر استغلال "

أجاب بصراحة وحشية " إن شئت، نعم، فعلت. حتى ولو كانت حزمة مبللة من ورق اللعب! لقد شجعتها على البكاء، لأني عندئذٍ أستطيع أن أحيطها بذراعي. وأخيراً نجحت في ذلك. وأيضاً أحسنت فعل ذلك، بالنظر إلى ظرفي الصعب. أستطيع أن أخبرك بعض الأشياء عن جميلتك دولوروس ... "

أومأت موافقاً " أسمعني كل شيء. يبدو كلامك مثيراً "

" لعل ما لا تعرفه هو كيف تتصرّف حين تنخرط في نوبة بكاء. لقد فاتك مشهد مثير "

twitter @baghdad_library

حاولت أن أرخي له الحبل على آخره، مخفياً انفعالاتي وراء قناع من التسامح اللامبالي. والغريب في الأمر، وعلى الرغم من رغبته في إيذائي، أنه واجه صعوبة في سرد حكايته بتناسق، أو حتى في انتهاز الفرصة التي أتحتها له. وكان كلما انساق في الكلام ازداد شعوره بالشفقة على نفسه. لم يتمكن من الفرار من إحساسه بالإحباط. لقد أراد أن يلوث سمعتها، وساهمت قدرتُهُ على نيل موافقتي في زيادة إثارة الإجراء. أعتقد أني بدوري أستمتع بهذا التدنيس لمعبودةٍ قديمة.

" إذن فلم تنجح قط في إدخال طرفك فيها؟ "، ورميته بنظرة مواسية، " شيء مؤسف جداً، لأنها دون أدنى شك كانت قطعة لحم لذيذة... لو كنت فقط علمت بالأمر لساعدتك. كان ينبغي أن تقول شيئاً. حسبت أنك غرّ بحيث لا تنتابك مثل هذه المشاعر نحوها. طبعاً كنت أشك في أنك تحيطها بذراعيك حالما أدير ظهري. ولكن لم يخطر ببالي أنك ستعمد إلى إخراج أيرك لتحاول إقحامه فيها. لا، كنت أرى أنك أشد تبجيلاً لها من أن تفعل ذلك. يا إلهي، عندئذ لم تكن أكثر من ولد صغير. كم كان عمرك - ست عشرة، سبع عشرة؟ كان يجب أن أتذكر ما حصلَ لك مع عمتك. لكنَّ ذلك الأمر كان مختلفاً. فهي التي اغتصبتك، أليس كذلك؟ "

أشعلت سيجارة واسترخيت في الكرسي.

" أتعلم يا كرلي، إن هذا يجعلني أتساءل قليلاً ... "

" تقصد بشأن مود؟ أنا لم أحاول أي شيء ... "

" لا، لم أقصد هذا. لا يهمني أبداً ما حاولت أو لم تحاول أن تفعله... "

ثم أضفت " أعتقد أنَّ عليك أن ترحل حالاً. حين تعود إلى وعيها أريد أن أتكلم معها. من حسن الحظ أنك قدِمتَ في الوقت المناسب. همم! أعتقد أني يجب أن أشكرك "

جمع كرلي أغراضه، قال " بالمناسبة، حالة قلبها ليست على ما يرام. وثمة مشكلة أخرى تعاني منها ... كرونسكي سيخبرك "

رافقته حتى الباب. وصافحته. وشعرت أني مضطر إلى قول شيء.

" اسمع، أنا لا أتحامل عليك فيما يخصّ دولوريس، ولكن ... ولكن لا تعسكر هنا أثناء غيابي، أفهمت! تستطيع أن تتعبّدها قدر ما تشاء – عن بُعد. لا أريد أياً من هذه التصرفات الخبيثة اللعينة، أتفهم؟"

رماني بنظرة مهلكة ومشى مبتعداً نكداً بخطوات واسعة. لم أكن قد خاطبته بتلك اللهجة من قبل وندمت على ذلك، ليس لأني جرحته وإنما لأني أدركت فجأة أني زرعت فكرةً في رأسه. الآن سوف يعتقد أنه إنسان خطِر؛ لن يكون سعيداً إلا بعد أن يختبر قدراته.

دولوريس! حسن، لم أتعلَّم أي شيء ذا أهمية. ومع ذلك، ثمة شيء في الأمر لا يعجبني. لقد كانت دولوريس ضعيفة. ومن فرط الإذعان بحيث لا تناسبني. وكدتُ في وقت من الأوقات أطلب يدها للزواج. وأذكر ما منعني من ارتكاب تلك الحماقة الكبرى. إنه معرفتي أنها ستوافق بضعف، لأنها ذهنياً كانت ما تزال عذراء، غير قادرة على مقاومة ضغط أير صلب. ذلك كان السبب – موافقتها الواهنة، وكانت ستتبعها حياةٌ بأكملها من الاعتذارات المنتحبة. وبدل أن تساعدني على النسيان، كانت ستبقى سبباً دائماً لتذكيري بالجريمة التي ارتكبتها عن

twitter @baghdad_library

سـابق تصـمـيـم. (جـريمة تَرْك زوجـتـي. ويعلم الله أنَّ جـزءاً مني ليِّن كإسفنجة. ولم أكن بحاجة إلى من يشجع هذا الجانب مني! إن دولوريس كانت بحق مثيرة للاشمئزاز. كانت عيناها تتوهّجان بحماس مراهق وهي تراقبني وأنا أصبّ البلسم على المُقعَدين والجرحى. نعم، أكاد أراها الآن بوضوح. كـانت أشبه بممرضة تلازم طبيباً. أرادت أن تعنى بكل أولاد الحـرام المساكين الذين كنت أقتـل نفسي لأقـدِّم لهم المساعدة بصـورة أو بأخرى. أرادت فـقط أن تـكدّ طوال النهـار وهي إلى جانبي. ثم أقدِّم لها نكاحاً صغيراً - كمكافأة، كدلالة على الاستحسان. ما الذي تعرفه بحق الجحيم عن الحب؟ كانت مجرد حب مراهق. وشعرت بالرثاء لحال كرلي.

لقد قال كرونسكي الحقيقة! هذا ما ظللت أردّده لنفسي وأنا جالس بجانب السرير أنتظر عودتها إلى الحياة. لم تكن ميتة، حمداً لله. فقط نائمة. بدت وكأنها تطفو في الضياء.

كان أمراً غريباً بالنسبة إليّ أن ألعب دور مَنْ فَقَدَ عزيزاً حتى أني افتتنت بالتفكير في كيف سأتصرَّف إذا ما ماتت فعلاً الآن أمام عيني. ماذا لو أنها لم تستفق أبداً؟ ماذا لو أنها انتقلت من هذه الغيبوبة العميقة إلى الموت " حاولت أن أركِّز تفكيري على هذه النقطة. أردت بشدّة أن أعرف كيف سأشعر إذا ما ماتت. حاولت أن أتخيّل نفسي أرمل حديث العهد، حتى لم أستدع الحانوتي بعد.

إلا أني أول ما فعلته أني نهضت ووضعت أذني على فمها. نعم، ما تزال تتنفّس. قربّت الكرسي من طرف السرير ورحت أركز تفكيري قدر استطاعتي على الموت - موتها هي. لم تنشأ أي انفعالات غير عادية. ولكي أكون صادقاً أقول، نسيت خسارتي الشخصية المفترضة

وانغمست في تأمُّل ممتع في الرغبة في الموت. بدأت أفكر في موتي أنا، وكيف سأستمتع به. ذلك الجسد المسجّى منبطحاً هناك، الذي لا يكاد يتنفّس، الطافي بفعل تناول مخدِّر كزورق صغير متّصل بمؤخّر سفينة، كان أنا. لقد رغبت في الموت وها أنا أحتضر. لم أكن واعياً لهذا العالم غير أني لم أكن قد انتقلت بعد إلى العالم الآخر. كنت أعبُرُ ببطء إلى البحر، أغرق بلا إحساس بألم الاختناق. أفكاري لم تكن من العالم الذي أغادره ولا من ذاك الذي أقترب منه. في الواقع، ما كان يحدث لا وجود لأي فكرة تقارن به. ولا هو كان حلماً. كان أشبه بحالة من التشتّت؛ كانت العقد تنحلّ، والنفس تتسرَّب. بل لم تعد هناك نفس: كنت دخانَ سيجارٍ جيد، وكالدخان كنت أتلاشى في الجو، وما تبقّى من السيجار كان رماداً يتهدَّم وذوباناً.

أجفَلْتُ. اتجاه خاطئ. تراخيت وحدَّقت إليها بتركيز أقلّ. لماذا ينبغي أن أفكر في موتها؟

ثم جاءني الجواب: فقط إذا ماتت أستطيع أن أحبها كما تخيّلتُ أني أحببتها!

" مازلت تمثّل! لقد أحببتَها ذات مرة، لكنك سُررت كثيراً لاعتقادك أنَّ في إمكانك أن تحب شخصاً آخر غير نفسك بحيث تنساها هي فوراً. كنتَ تراقبُ نفسكَ وأنت تضاجع. أنت الذي أوصلها إلى هذا الوضع لكي تستعيد إحساسك. أن تفقدها يعني أن تعثر عليها من جديد "

قَرَصتُ نفسي، كأنما لأقتنع بقدرتي على الإحساس.

" نعم، أنت لم تُنحَت من خشب، ولديك أحاسيس ومشاعر - لكنك تسيء توجيهها. وقلبك يعمل بهياج. إنك تشعر بالامتنان للذين يُدمون

twitter @baghdad_library

قلبك؛ أنت لا تعاني من أجلهم، بل تعاني لكي تستمتع بترف المعاناة. وأنت لم تبدأ بعد بالمعاناة، بل تعاني بالنيابة عن الآخرين"

كان فيما كنت أقوله لنفسي قَدْرٌ من الحقيقة. ومنذ أن دخلت الغرفة أخذت أتساءل كيف يتعيَّن أن أتصرَّف، كيف يجب أن أعبِّر عن مشاعري. أما فيما يتعلَّق بما فعلتُهُ مع مود في اللحظة الأخيرة - فكان مبرراً. لقد تبدَّلت مشاعري، هذا كل شيء. لقد خدعني القَدَر. أما مود، بفوي! لا يهمني أمرها البتّة. لا أكاد أذكر أي مناسبة أثارت لدي فيها أي مشاعر صادقة. أي سخرية قاسية ستكون إذا ما اكتشفت مونا الحقيقة! كيف سأتمكَّن من تقديم تفسير لتلك الورطة؟ ففي اللحظة التي كنت أخونها، كما تكهَّنتْ هي، كان كرونسكي يعبِّر لها عن مدى إخلاصي لها تفانيً. كم كان كرونسكي محقاً! ولكن لابد أن كرونسكي قد شك، وهو يخبرها بالحقيقة، أنها قائمة على كذبة. كان يؤكِّد على إيمانه بي لأنه هو نفسه أراد أن يؤمن بي. إنّ كرونسكي لم يكن أحمق. ولعله كان كصديق أفضل بكثير مما ظننته. ليته فقط لم يُفشِ الكثير من التوق لبلوغ أعماقي! ليته يكفّ عن دفعي إلى العراء.

عادت ملاحظة كرلي تؤرقني. لقد تصرّف كرونسكي تصرّفاً رائعاً - وكأنه كان يضاجعها! لماذا أحبُ دائماً أنَّ أظن أن أحدهم يضاجعها؟ أهي الغيرة؟ كنت راغباً تماماً في أن أغدو غيوراً إذا ما استطعت أن أشهد على قدرتها على جعل الآخرين يحبونها. لقد كان مَثَلي الأعلى - وكم أذهلني إذ وجدتني أكونّه! - هو المرأة التي تضع العالم عند قدميها. وإذا ما ظننت أنَّ هناك رجالاً منيعين أمام مفاتنها فسوف أساعدها عن عمد على إيقاعهم في شباكها. وكانت كلما جَمَعَتْ عشاقاً

أكثر زادَ انتصاري الشخصي. ذلك أنها كانت تحبني أنا، وليس هناك أدنى شك في ذلك. ألم تنتقني دون الآخرين جميعاً، أنا، الذي لا يكاد يملك أي شيء يقدمه إليها؟

كانت قد قالت لكرلي إنني ضعيف. نعم، ولكن كذلك هي. أنا كنت ضعيفاً أمام النساء جميعاً، أما هي فكانت ضعيفة أمام الرجل الوحيد الذب أحبَّتْ. أرادتْ أن ينصبَّ حبي عليها وحدها، حتى في تفكيري.

الغريب في الأمر أني بالفعل كنت قد بدأت أركِّز تفكيري عليها وحدها، بطريقتي. ولو لم تُلفِتْ انتباهي إلى ضعفها، لاكتشفتُ من تلقاء نفسي، مع كل مغامرة قمت بها، أنه كان هناك فقط شخصٌ واحدٌ في العالم كله خُلِقَ لأجلي - هي. أما الآن، وقد وضعْتُ الأمر نصب عيني، فسأظل دائماً ممسوساً بفكرة السلطة التي مارستُها عليها. وقد تُغريني فكرة إثباتها، وإن كان ذلك ليس من طبعي.

طردتُ من ذهني هذه الأفكار - وبعنف. ليس هكذا على الإطلاق أردت للأمور أن تسير. لقد أحببتُها وحدها، دون غيرها، ولا شيء على وجه الأرض يستطيع أن يهزني.

بدأت أراجع نشوء هذا الحب. نشوء؟ لم يكن هناك نشوء. لقد كان الأمر آنياً. وقد ذهلت لفكرة أن عليّ أن أقدِّم هذا البرهان، فحتى حقيقة أنَّ إيماءتي الأولى كانت إيماءةَ رفضٍ كانت برهاناً على فكرةِ أني لاحظتُ حدوثَ الانجذاب. قلت لها "لا" غريزياً، بدافع الخوف. استعرضتُ ذلك المشهد كله الذي جرى في صالون الرقص ليلة تخلّيت عن حياتي القديمة. كانت قادمة نحوي، من مركز حلبة الرقص. وكنت قد ألقيت نظرة خاطفة

twitter @baghdad_library

على كِلا الجانبين، لا أكاد أصدق أنها اختارتني أنا دون غيري. ثم انتابني الرعب، على الرغم من أني كنت أتحرّق شوقاً لأرتمي بين ذراعيها. ألم أهزّ رأسي نفياً بعنف؟ كلا! كلا! بصورة مهينة تقريباً. وفي الوقت نفسه هزّني الخوف من أني حتى لو وقفت هناك إلى الأبد فلن تُلقي باتجاهي أي نظرة. ثم عَلِمْتُ أني أريدها، أني سألاحقها بلا هوادة حتى ولو لم تكن تميل إليّ. تركت الحاجز وانتقلت إلى الزاوية لأدخِّن. كنت أرتجف من رأسي إلى قدميّ. جعلت ظهري مواجهاً لحلبة الرقص، لا أجرؤ على النظر إليها. كنت غيوراً منذ البداية، غيوراً من كل مَنْ تختاره كشريك رقص تالٍ ...

(كان رائعاً أسرُ تلك اللحظات من جديد، يا إلهي، ها أنا ذا مرة أخرى أشعر ...)

نعم، بعد مرور بعض الوقت لملمتُ شَتات نفسي وعدتُ إلى الحاجز، يحتشد حولي من كل الجهات سربٌ من الذئاب الجائعة. كانت ترقص. رقصت مرات عدة متتالية، مع الرجل نفسه. ليس بحميمية، كباقي الفتيات، وإنما بمرح، ترفع بصرها إلى وجه الرجل، تبتسم، تضحك، تتكلّم. كان جليّاً أنه لا يعني لها أي شيء.

ثم جاء دوري. إذن تنازلتْ وتعطّفتْ ولاحظتْ وجودي! لم يبدُ عليها قط أنها منزعجة مني؛ على العكس، لقد تصرّفت وكأنها تغيِّر أسلوبها لكي تصبح لطيفة. وهكذا، تركتها تحملني، وأنا مخدّر، وتدور بي في حلبة الرقص. ومرة بعد مرة، بعد مرة. وحتى قبل أن أغامر ببدءِ حديثٍ معها علمتُ أني لن أغادر المكان بدونها.

رقصنا ورقصنا، وحين تعبنا من الرقص جلسنا في إحدى الزوايا

وتحدثنا، ومقابل كل دقيقة تحدثت خلالها ورقصت كانت هناك ساعة تعدُّ الدولارات والسنتات. كم كنت ثرياً في تلك الليلة! أي إحساس لذيذ كان وأنا أخرج دولاراً بعد دولار يتهوُّر! كنت أتصرف كمليونير لأني فعلاً كنت مليونيراً. وعرفت للمرة الأولى في حياتي معنى أن أكون ثرياً، أن أكون قطباً، راجا، مهراجا. كنت أبدِّد روحي - لا أيقايضها، كما فعل فاوست، بل أتبوّلها.

دار بيننا ذلك الحديث الغريب حول ستريندبرغ، قُدِّرَ له أن يمتد على طول حياتنا كخيطٍ من الفضة. كنت دائماً أنوي أن أعيد قراءة " مس جولي "، بسبب ما قالته في تلك الليلة، لكني لم أفعل قط - ولعلمي لن أفعل أبداً.

ثم انتظرتها في الشارع، في برودواي، وبينما هي تقترب نحوي في تلك المرة الثانية استحوذت عليّ استحواذاً كاملاً. في مقصورة، في مطعم تشن لي، أصبحت شخصية مختلفة عن سابقاتها. أصبحت - وكان ذلك بحق سر فتنتها التي لا تقاوم - أصبحت مبهمة.

ليس هكذا صغْتُ الأمر لنفسي، ولكن بينما أنا جالس هكذا أتلمّس كالأعمى دخان كلماتها، علمت أني سوف أرتمي كمجنون داخل كل شق في قصتها. كانت تغزل خيوط عنكبوت شديدة الدقة، والرهافة، لتدعم بها ثقل وزن أفكاري الفضولية. ولو أنَّ امرأةً غيرها تصرَّفت هكذا لأثارت ريبتي. كنت سأصنّفها في فئة الكذابة الماهرة. هذه لم تكن تكذب. كانت تطرز. كانت تُخيطُ - وكانت بين وقت وآخر تسقط قطبة.

هنا خطرت ببالي فكرة لم أفكر فيها من قبل. كانت واحدة من تلك الأفكار اليرقانيّة التي تمرّ في الذهن سريعاً كمرور ضوء قمر شاحب عبر

twitter @baghdad_library

شرائح لحم غنم. كانت دائماً تفعل هكذا! . نعم، لعل هذا تبدّى لي في ذلك الوقت، لكني طردته من ذهني على الفور. طريقة ميلها إلى الأمام، وثقل اتّكائها على إحدى ذراعيها، اليد، اليد اليمنى، تتحرّك، كإبرة - نعم، في تلك اللحظة، وأيضاً مرات عدة بعد ذلك، وَمَضَتْ صورةٌ في ذهني، ولكن لم يكن لدي وقت، أو بالأحرى لم تمنحني أي فسحة من الوقت، لأتقصّاها حتى آخرها. أما الآن فهي واضحة. مَنْ ذا الذي " كان يفعلها دائماً؟ " إنه القدر. كنَّ ثلاثاً، وكان الشر رابعهنّ. كنَّ يقطّعنَ الشفق ويغزلن خيوط عنكبوت: إحداهن اتّخذت هذا الوضع، ونقّلت وزنها، ونظرت إلى آلة التصوير ويدها متوازنة، ثم عاودت غرز القُطَبْ الذي لا ينتهي، والغزل، والنسيج، ذاك الحديث الصامت الذي يتمعّج بين شبكة الكلام المنطوقة.

مكوكٌ يتحرّك جيئة وذهاباً، والبكرة تهتزُّ بدون انقطاع وبين حينٍ وآخر تسقط قطبة ... كرجلٍ رفع لها ثوبها. كان واقفاً في رواق المدخل يتمنى لها نوماً هانئاً. صمت. يطلق النار على رأسه ... أو الوالد يطلق طائرته الورقيّة فوق السطح. وهو يهبط طائراً من السماء، كملاك بنفسجي اللون في لوحةٍ لشاغال[٦٠]. يسير بين حصانين من أحصنته الخاصة بالسباقات، ممسكاً بكل منهما من لجامه على كِلا جانبيه. صمت. لا ينقص إلا عزف آلة كمان ستراديفاريوس[٦١]...

---

٦٠ - مارك شاغال (١٨٨٩ - ١٩٨٥) : رسام فرنسي ، مولود في روسيا . من أشهر إنجازاته زخرفة سقف دار أوبرا باريس . - المترجم .

٦١ - ستراديفاريوس : اللفظ اللاتيني لاسم أنطونيو ستراديفاري (١٦٤٤ ؟ - ١٧٣٧) ، الصانع الأشهر للآلات الموسيقية الوترية ، مولود في مدينة كريمونا . الآلات التي صنعها تحمل أيضاً اسمه ، وهذه الآلات هي معيار أصالة صوت الآلات الوترية . لم يبق منها في العالم غير عدد قليل . - المترجم .

نحن على الشاطئ والقمر يعدو مسرعاً بين السحب. ولكن قبل ذلك كنا جالسين معاً متقاربين في مقصورة سائق الحافلة داخل القطار المرفوع. كنت أحكي لها حكاية توني وجوي. كنت قد انتهيت لتوي من تدوينها - ربما بسببها، بتأثير من إبهام معيَّن. كانت قد رمتني فجأة إلى الخلف فوقعت، جعلت الوحشة تبدو مبهجة؛ أثارت عناقيد الشعور الشبيهة بعناقيد عنب رُبِطَت على شكل إكليل معلّق على الهيكل العظمي لأناي؛ أحْيَتْ الفتى الصغير، الفتى الذي ركض خلال الحقول ليُحيِّي صديقيه الصغيرين. إذن لم يكن هناك أي ممثل! ذاك الفتى ركض وحده ... لماذا أنعمتْ النظر إليّ عندما حكيت لها حكاية جوي وتوني؟ لقد شعَّ وجهها بضياءٍ ساطع، لا أنسى هذا أبداً. الآن أعتقد أني أعرف ماذا كان سببه. أعتقد أني أوقفتُها - أوقفتُ ذلك الغزل والحركة المتمعِّجة اللذين لا يتوقفان. كان في عينيها امتنان، وحب وإعجاب. لقد أوقفت الآلة فانبعثت كالبخار، بضع دقائق فقط. وتلك النظرة المُبهرة في سطوعها كانت الهالة النورانية لذاتها المتحرِّرة.

ثم كان الانغماس الجنسي. أعرف تلك السحابة من البخار. وكأنَّكَ تحاول أن تمسك دخاناً تحت الماء. كتقشير طبقة بعد طبقة من الظُّلمَة في الظلام. نوع آخر من الامتنان. وإن كان مرعباً قليلاً. وكأني علّمتها الطريقة المتَّبَعَة للانتحار بطريقة الهارا-كيري ... حدث ذلك في تلك الليلة العصيَّة تماماً على الوصف على شاطئ روكاواي - في مؤسسة الدكتور كاليغاري[٦٢] للإقامة والاستجمام. أركض رائحاً غادياً إلى

---

٦٢ - مؤسسة الدكتور كاليغاري : من المعروف أن هذه المؤسسة هي لمعالجة الأمراض النفسية والعقلية . وهذه إحدى المقارنات الطريفة التي يتميَّز بها ميللر في رواياته . - المترجم .

twitter @baghdad_library

المرحاض. أنقضُّ عليها، أنجفُها، أخرقها ... أغوص، وأغوص، وكأني أصبحتُ غوريلا أحمل سكيناً بيدي أشرُطُ بها الجمال النائم لأعيدها إلى الحياة. في - الصباح - أم هل كان بعد ظهر اليوم التالي؟ استلقينا على الشاطئ وأصابع أقدام كل منا بين ملتقى فخذيّ الآخر. كنا كشكلين سرياليين نعرضُ مشهدَ لقاءٍ تصادفيّ.

ثم الدكتور طاو، وقصيدته المطبوعة على ورق لف الألعاب النارية. تكيَّستْ* داخل عقلي، لأنها فشلت في أن تقابلني في الحديقة كما وعدَتْ. كنت أمسكه بيدي وأنا أكلّمها عبر الهاتف. استُحلِبَ بعض الذهب وعلق بأصابعي. إنها ما تزال في السرير - مع تلك العاهرة فلوري. كانتا في الليلة السابقة قد أفرطتا في الشرب. نعم، وقفت فوق الطاولة - أين؟ في مكان ما! - وحاولت أن تقوم بحركة الانفساخ. وقد آذت نفسها. لكني كنت من فرط الغيظ بحيث لم يهمّني إن كانت قد آذت نفسها أم لا. إنها حية، أليس كذلك، ولم تستطع أن تحضر. ولعل فلوري لم تكن مستلقية إلى جانبها، كما ادَّعت، ولعلها لم تكن فلوري بل ذاك الرجل المسمّى كاروثرز. نعم، ذلك العجوز الأحمق الشديد اللطف والمراعاة للمشاعر، ولكن كان ما يزال فيه ما يكفي من روح المبادرة بحيث يسدِّد طعنات إلى لوحات تخصُ الناس.

فجأة انقضَّت عليّ فكرة مُقبِضَة. إنَّ خطرَ كاروثرز ذهب وانتهى. كاروثرز ساعدها في الماضي. ولا شك في أنَّ آخرين قبله ساعدوها ... لكنَّ الفكرةَ كانت ما يلي: لو لم أذهب في تلك الليلة إلى صالة الرقص ومبلغٌ كبيرٌ من المال في جيبي؛ لو أنه كان معي فقط ما يكفي لبضع رقصات، فماذا كان حدث؟ وإذا ما استبعدتُ تلك المناسبة الأولى

* تكيَّسَ: أي تغلّفَ بكيس. - المترجم

الكبرى، ماذا عن ذلك اللقاء في الأرض الخلاء؟ ("والآن إلى القذارة!...") ماذا لو أني خذلتُها حينئذ؟ ولكن ما كان يمكن أن أخذلها، هذا واقع الأمر. لابد أنها أدركت ذلك وإلا لَمَا غامرت ...

مع ذلك، اضطررتُ، وبصدقٍ بارد، إلى أن أسلِّم بأنَّ تلك المبالغ القليلة المعجزة التي نجحت في تحصيلها في اللحظة المناسبة شكَّلت عاملاً هاماً. لقد ساعدَتْها في أن تؤمن بأنَّ في إمكانها أن تتّكل عليّ.

نظَّفت السجل تماماً. اللعنة، لو أنَّ المرءَ يستجوب القَدَر هكذا لتوضَّحَ كل شيء بسهولة. إنَّ العناية الإلهية تضع فُرَصَاً في طريقك: يمكن أن تترجَم إلى مالٍ، وحظٍ حسن، وشباب، وحيوية، وألف شيء مختلف آخر. وإذا كانت الجاذبية مفقودة فلن تفيدك حتى أثمن الفرص. والسبب في أنَّ فُرَصاً كثيرةً أتيحت لي يعود إلى أني كنتُ مستعداً أن أفعل أي شيء لأجلها. المال، خراء! لا دخلَ للمال في الأمر. ما أكثر الكلام عن الالتواء، أو الخلل، أو قلة المال! كان الأمر أشبه بتعريف الهستريا في مكتبة الدكتور أونيريفيك: " اتّصاف الغشاء الفائق الحساسيّة بنفاذ لا ضرورة له "

لا، لم أكن أنوي أن أغوص في تلك الدوامات المعقّدة. أغمضت عينيّ لأنغمر في ذاك التيار الصافي الآخر الذي لا يني يجري ويجري كخيطٍ من فضة. لقد كان في جزء هادئ مني أسطورة هي التي غذّتها. نبتت من شجرة، كما جاء في الكتاب المقدس، وتحتها وقفت امرأة اسمها حواء تحمل تفاحة بيدها. هنا جرى كتيارٍ صافٍ، كل ما كان يكوِّن حياتي. هنا كان يوجد مشاعر، من الضفة إلى الضفة.

إلام كنت أرمي - هنا حيث يجري التيار التحت أرضي صافياً؟ ما

twitter @baghdad_library

مغزى صورة شجرة الحياة تلك؟ لماذا كان من المثير جداً أن أتذوّق التفاحة المسمومة مرة أخرى، أن أركع خاشعاً عند قدميّ امرأة وردت في الكتاب المقدس؟ لماذا كانت ابتسامة الموناليزا هي الأشدّ غموضاً بين التعابير الإنسانية كافة؟ ولماذا كان عليّ أن أنقل تلك الابتسامة التي تخصّ عصر النهضة إلى شفتيّ حواء لم أعرفها إلا كنقشٍ؟

كان هناك شيء يتدلّى من حاشية الذاكرة، ابتسامة مبهمة تنمُّ عن الصفاء، والغبطة، والإحسان. ولكن هناك أيضاً سُمّ قُطارة تنضح من تلك الابتسامة الغامضة. وهذا السُمّ عببت منه فأغشى ذاكرتي. وقد جاء عليّ يوم قبلت فيه شيئاً في مقابل شيء آخر؛ في ذلك اليوم حدث تشعُّب غريب.

نقَّبتُ في عقلي دون جدوى. ولكني استطعت أن أتذكَّر ما يلي. ذات يوم من أيام الربيع قابلتها في " الغرفة الوردية " من فندق كبير. كانت قد أعدَّت للقائي هناك لكي تُريني ثوباً كانت قد اشترته. وكنت قد وصلت قبل حلول الموعد وبعد مرور بضع لحظات قلقة دخلتُ في حالةِ نشوة. ولم أعد إلى وعيي إلا على رنين صوتها، كمرور دخانٍ من خلال شاش. كانت فاتنة حقاً، وهي تظهر هكذا أمام عينيّ. كنت ما أزال أخرج من حالة الغشاوة. وحالما جلستْ نهضتُ واقفاً بحركة بطيئة، وما أزال أتحرك داخل ضباب. وركعت عند قدميها، وأنا أغمغم بشيء عن سطوع جمالها. بقيتْ مدة دقيقة كاملة لا تبذل أي محاولة لإنهاضي. أمسكتْ يديَّ الاثنتين بيديها وأرسلت إليَّ في الأسفل ابتسامة، تلك الابتسامة الوضّاءة، المتألّقة التي تنتشر كالهالة ومن ثم تتلاشى، ولا تعود إلى الظهور أبداً. كانت ابتسامة السلام والبركة الملائكية. وهِبَتْ

في مكانٍ عام ألفينا نفسينا فيه وحدنا. كانت قرباناً مقدساً، وسجَّلت الساعة، واليوم، والمكان بأحرفٍ من ذهب في سجلّ الأسطورة الملقاة عند أسفل شجرة الحياة. ومنذ ذلك الحين انضمّ إلينا نحن اللذين اتحدنا مخلوقٌ خفيّ. لن نعود وحيدين بعد الآن. لن يعود أبداً ذاك الصمت، ذاك الإحساس بحلول النهاية - إلى أن يأتي الموت ربما. شيء ما أُعطيَ، شيء ما أُخِذَ. وقفنا عند بوابات الجنة بضع لحظات أزلية - ثم دفعنا شيء ما إلى الأمام وتهشَّمَ ذاك السطوع النجميّ، كألسنةٍ من البرق تلاشت في ألفِ جهة وجهة مختلفة.

ثمة نظرية تقول إنه بعد أن يُخرِجُ كوكب ما، ككوكبنا الأرض مثلاً، كلّ شكلٍ من أشكال الحياة، بعد أن يحقِّق ذاته حتى درجة الاستنزاف، يتهاوى أشلاءً وينتثر كغبارٍ من النجوم في أرجاء الكون. إنه لا يتدحرج كقمرٍ ميت، بل ينفجر، وخلال بضع دقائق، يصبح أثراً بعد عين في السماوات. نجد الأثر نفسه في الحياة البحرية. ويسمّى الانفجار الداخلي. فحين يرتفع حيوان برمائي متعوِّد على الأعماق المظلمة إلى ما فوق مستوى معيَّن، حين يُرفَع الضغط المتكيِّف معه، فإن جسمه ينفجر من الداخل. أليس هذا المشهد مألوفاً لدينا نحن المخلوقات البشرية أيضاً؟ فسكّان المناطق الشمالية الذين كانوا يقاتلون بضراوة، والملايّي[٦٣] الدمويّ في قتاله - أليسا مثالين عن الانفجار الداخلي والانفجار العادي؟ وحين يمتلئ الكوب فإنه يفيض بما فيه. ولكن حين يكون الكوب وما فيه من مادة واحدة، فماذا يحدث حينئذ؟

هناك لحظات يرتفع أثناءها إكسير الحياة إلى مرتبة الإشراق

---

٦٣ - الملايي : أحد مواطني الملايو ، وهي مناطق في ماليزيا وإندونيسيا . - المترجم .

twitter @baghdad_library

الضافي تفيض به الروح. وفي الابتسامة الملائكية التي تُشاهَد في صور مريم العذراء تُرى الروح تفيض على النفس؛ واستدارة الوجه تصبح كاملة؛ والتوازن تاماً. وبعد ذلك بدقيقة، بنصف دقيقة، بثانية، حدثت المعجزة. فقد انطلق شيء دقيق، مبهم - وتمَّ تلقّيه. وقد يحدث في حياة مخلوقٍ بشري ألاَّ تكتمل استدارة القمر. وفي حياة بعض المخلوقات البشرية سوف يبدو، بحق، أنَّ الظاهرة الغامضة الوحيدة الجديرة بالملاحظة هي الكسوف الدائم. وفي حالة أولئك المبتلين بالعبقرية، على أي صورة كانت، سوف يُرعبنا أن نلاحظ أنَّه لا توجد غير حركة دائمة من تعاظم حجم القمر وتضاؤله. والفئة الأشد نُدرة منهم هي التي تضم غير الأسوياء الذين، بعد أن يبلغ استدارته التامة، يصابون برعبٍ شديد من شدة روعته حتى أنهم يمضون البقية الباقية من حياتهم في سعي لخنق ما سبَّب ولادتهم ووجودهم. إنَّ حرب العقل هي قصة انقسام الروح. وحين كان القمر بدراً كان هناك أولئك الذين لم يستطيعوا أن يقبلوا الموتَ الغامض للنقصان؛ حاولوا أن يتدلّوا وهم في كاملِ استدارتهم من سَمْت سمائهم الخاصة. حاولوا أن يوقفوا حركة الناموس التي كانت تتجلّى من خلالهم، من خلال ولادتهم وموتهم، إنجازاً وتحولاً. ويتباعدون وهم مُحَاصَرون بين التيارات؛ تفارقُ الروح الجسدَ، تاركةً الصورة الزائفة لذاتٍ منقسمةٍ لتحاربها في العقل. ويعيشون إلى الأبد، مبتلون بإشعاعهم الخاص، عقمَ البحثِ عن الجمال، والحقيقة، والانسجام. ويسعون، وهم مجرَّدون من تألُّقهم، إلى امتلاكِ نفسٍ وروحِ أولئك الذين ينجذبون إليهم، يقبضون على كل شعاع من نور؛ ثم يعكسونه مع كل وجه من أوجه كيانهم الجائع. وحين يُسلَّط الضوء عليهم يضيئون على الفور،

وأيضاً يخمد ضياؤهم بالسرعة نفسها. وكلما اشتدَّت قوة الضياء المسلَّط عليهم بدوا أكثر إبهاراً - وإعماءً. وهم خطرون جداً على المشعِّين؛ ودائماً نحو هؤلاء المضيئين، البرّاقين، الذين لا ينضبون، ينجذبون بشغف ...

كانت مستلقية في ضوءٍ متوهّج، مفترَّة الشفتين عن ابتسامةٍ غامضة. بدا جسمها خفيفاً خِفَّةً عجائبية، وكأنَّها تطفو في أبخرةٍ مخدِّرة مركَّزة. والوهج الذي كان دائماً ينبعث من لحمها كان ما يزال موجوداً، لكنه منفصل، معلَّق من حولها، يحوم ويكتنفها مثل شيء نادر مركَّز ينتظر أن يمتصّه جسدها من جديد.

استولت عليَّ فكرةُ غريبة، وأنا غارق في التأمُّل. أكان من الجنون أن أعتقد أنه أثناء محاولتها أن تنطفئ اكتشفت أنها مُطفأة سلفاً؟ هل عاد الموت إليها، رافضاً أن يُخدَع؟ أكان ذاك الوهج الغريب، المتجمِّع حولها كبخار النَفَس العالق على المرآة، انعكاساً لموتٍ آخر؟

لطالما كانت تضجُّ بالحياة؛ بل بحيوية خارقة. لم تكن ترتاح قط، إلا أثناء النوم. وكان نومها كنوم حَجَر.

سألتها ذات مرة " ألا تحلمين أبداً؟ "

لم تستطع أن تتذكَّر - كان قد مرَّ وقت طويل منذ أن حلمت آخر مرة.

ألححتُ " لكن الجميع يحلمون. كل ما في الأمر أنك لا تبذلين جهداً كافياً لتتذكَّري "

بعد ذلك بوقت قصير أعلمتني، بطريقة عَرَضيَة تماماً، أنها قد عادت تحلم من جديد. أحلاماً عجيبة. تختلف كلياً عن أحاديثها. في

twitter @baghdad_library

أول الأمر تظاهرت بالحياء حول إفشائها. ولكن، حين أدركت من تساؤلاتي مبلغ روعتها، توسَّعت وأسهبت في روايتها.

ذات يوم، أثناء سرد أحدها لكرونسكي، على أنها من أحلامي الخاصة ومدَّعياً أني مرتبك ومحتار، ذهلت إذ سمعته يقول: " لا جديد فيها، يا مستر ميللر! أتحاول أن توقِع بي؟ "

كرَّرتُ وراءه بدهشة حقيقية " أوقع بك؟ "

قال هازئاً " قد تبدو جديدة لكاتب، أما بالنسبة إلى عالم نفساني فهي زائفة. لا يمكنك أن تخترع أحلاماً كما تخترع قصصاً، كما تعلم: للأحلام سِمةُ الأصالة كما للقصص "

تركته يدمِّر الحلم واعترفت، لأسكِته، بأني فعلاً قد اخترعته.

بعد ذلك ببضعة أيام، وأثناء استعراضي لمحتويات مكتبة الدكتور أونيريفيك، وقعت على مجلَّد ضخم يتحدث عن فقدان الشعور بالشخصية. وبينما كنت أتصفّحه عثرت على مغلّف مكتوب عليه اسمي وعنواني خلفه. كان هذا فقط على لسان المغلّف، أما خط اليد فكان خطي دون أدنى شك. لم يكن هناك غير تفسير واحد للأمر: مونا هي التي تركته هناك.

الصفحات التي مررت عليها بسرعة كانت مكرَّسة للأحلام التي سجَّلها المحلل النفساني. وكانت الأحلام تخصُّ شخصاً يسير أثناء نومه، ذا شخصية مزدوجة. ووجدتني أتتبَّعها بإحساسٍ مقلق بالتآلف معها. تعرَّفت إليها في بعض نقاطها.

أخيراً انغمستُ فيها باستغراقٍ حتى أني دوَّنتُ ملاحظاتٍ حول الفقرات المتميِّزة. وقد اكتشفت لاحقاً من أين أخذت العناصر الأخرى. ثم

تناولت عدداً من الكتب وفتَّشتُ فيها عن علاماتٍ تعيِّن مكان القراءة، فلم أعثر على أي منها.

غير أني فهمتُ العملية. لقد استخلصَتْ فقط العناصر الأشدّ دراماتيكية - ثم ضمَّتها معاً. لم يكن يهمها إنْ كانت إحدى الفقرات هي حلم أنثى في السادسة عشرة من عمرها وأخرى حلم ذكَر مدمن على تعاطي المخدرات.

وجدت أنها فكرة جيدة أن أضع مُزقة المغلَّف في قسمٍ آخر من الكتاب قبل أن أعيده إلى مكانه على الرف.

بعد ذلك بنصف ساعة خطرت ببالي فكرة أ كثر جودة من الأولى. أخرجت الكتاب وراجعت ملاحظاتي، ومن ثم وضعت بعناية خطوطاً تحت الفقرات المتفرقة التي كانت قد انتحلتها. وطبعاً أدركت أني قد لا أتمكن من الوصول إلى حقيقة الأمر منها إلا بعد ذلك بسنتين - وقد لا أتوصّل إليها أبداً. ولكن قبلت الانتظار.

ثم تبعتْ هذه فكرة مقبضة للنفس. فإذا كانت قد استطاعت أن تزوِّر حياتها في الحلم، فما بالك بحياتها في اليقظة؟ وإذا كان عليَّ أن أبدأ البحث في حياتها الماضية ... فإن ضخامة تلك المهمة كانت بحد ذاتها كافية لتثنيني عن القيام بأي محاولة فورية في ذاك الاتجاه. ولكن كان في الإمكان دائماً إصاخة السمع. هذه أيضاً لم تكن فكرة سديدة. لا يمكن للإنسان أن يمضي حياته بأذنين منتصبتين. والغريب في الأمر أنه لم يبق أمامي غير أن أحكي هذا لنفسي حين تذكَّرتُ الطريقة التي كانت تستبعدُ بها موضوعاً معيَّناً. كان غريباً نجاحها في دفعي إلى نسيان تلك المسألة الصغيرة. وبتخليصي من فكرة أني لمحتُ أمها في الفناء

twitter @baghdad_library

الخلفي، في أول مرة ألقيت فيها نظرة عن قرب إلى فناء منزلهم، دفنت هذه الشبهة بمهارة وذلك بتركيزها بصدق بارع على مزايا وخصائص المرأة التي تصورت أنها أمها، المرأة التي أصرّت على أنها لابد كانت عمتها. لقد كانت خدعة مبتذلة من كاذبة حتى أني، حين أستعيد ذكراها، أنزعج من نفسي لأني تركتها تخدعني بتلك السهولة الشديدة. لقد كان ذلك على الأقل شيئاً يمكنني أن أستقصي حوله في المستقبل القريب. وكنت أيضاً شديد الثقة من أني على حق في أني قد قررت تقريباً أن أتخلّى عن أداء مهمة التأييد الميكانيكية. قلت في نفسي، سوف يكون من الممتع أكثر أن أمتنع حالياً عن الذهاب إلى هناك، وأن أوقع بها بمناورة لفظيّة بارعة. وإذا ما استطعت أن أبرع في نصب الأفخاخ فإن ذلك سيوفّر عليّ القيام بالكثير من الحركات العقيمة.

انتهيت إلى أنه من الْملحّ قبل أي شيء ألا أدعها ترتاب في أني كنت مدركاً أكاذيبها. لماذا كان هذا أمراً ملحّاً؟ هكذا تساءلت فوراً تقريباً. ألكي أستمتع بالكشف عن وجود المزيد فالمزيد من الأكاذيب؟ ما نوع ذلك الاستمتاع؟ ثم برز سؤالٌ آخر في رأسي. لو كنتَ متزوجاً من مدمنة على شرب الكحول، فهل كنتَ ستدّعي بأنَّ الإدمان على شرب الكحول ليس ضاراً على الإطلاق؟ هل كنتَ ستظل تتظاهر بأنَّ كل شيء رائع لكي تدرس آثار هذه الرذيلة بالذات على المرأة التي تحب؟

إن كان لتحريض شهوة الفضول أي شرعية فقد كان من المستحسن أن أصل إلى أساس الأمر، أن أكتشف " سبب " كذبها الفاضح. ولم تكن آثار ذلك المرض قد تكشّفت لي تماماً – حتى ذلك الحين. كان يكفي القليل من التفكير حتى أدرك على الفور أن أول الآثار وأفدحها هو –

الشعور بالاغتراب. وقد كان لصدمة الكشف، التي يسببها اكتشاف الكذبة الأولى، السِمات الانفعالية نفسها التي للصدمة التي تصاحب معرفة المرء أنه يواجه شخصاً مجنوناً. إن للخيانة، وللخوف منها، جذورها في الخوف الكوني من فقدان الشخصية. ولابد أنَّه قد تطلَّب من الإنسانية زمناً طويلاً جداً لترفع الحقيقة إلى هذا المستوى السامي، لجعلها نقطة ارتكازٍ، إن صحَّ التعبير، الفردانية. وكان الجانب الأخلاقي مجرد حالةُ مصاحبة، غطاء لهدفٍ أعمق، وشبه منسي. وكون الـ his-toire ينبغي أن يكون قصة، وكذبةً وتاريخاً معاً فذلك ينطوي على مغزى لا يُستهان به. وكون القصة، بوصفها من ابتكار فنان مبدع، ينبغي أن تُعتَبَر المادة الأشدّ فعاليّة لمعرفة حقيقة مؤلِّفها، كان أيضاً أمراً هاماً. الأكاذيب لا يمكن أن تطمر إلا في الحقيقة. إنها لا توجد منفصلة؛ بل ترتبط تكافليّاً بالحقيقة. والكذبة الجيدة يمكن أن تكشف عن أمور تعجز عن كشفها الحقيقة. أي بالنسبة إلى مَنْ يسعى وراء الحقيقة. بالنسبة إلى مثل هذا الشخص لا وجود لأي سبب للغضب أو لتبادل الاتهامات حين يواجه كذبة. ولا مبرر حتى للإحساس بالألم، لأنَّ كل شيء سيكون مباحاً، وعارياً ومُلهماً.

لقد ذُهِلتُ تماماً لإدراكي المدى الذي يمكن لمثل هذا الانفصال الفلسفي أن يوصلني إليه. دوَّنت ملاحظة من أجل متابعة التجربة من جديد. فقد تُثمِر.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني عشر.

كنت قد غادرت مكتب كلانسي لتوي. وكان كلانسي هو المدير العام للشركة الكونيّة الشيطانية لمصّ الأير. أي أنه رئيس مصاصي الأير، ويخاطِب بـ " سيدي " الأدنى رتبة منه كما كان يفعل مع الأعلى رتبة.

كان احترامي لكلانسي قد انحدر إلى أدنى درجاته. وكنت أتجنَّبُ التعريج عليه منذ أكثر من ستة أشهر، على الرغم من أنه كان مفهوماً بيننا أني ألاقيه مرة كل شهر أو نحوه - لتجاذب أطراف الحديث. وفي ذلك اليوم استدعاني إلى مكتبه، وعبَّرَ عن خيبة أمله بي، وصرَّح بأني قد خيَّبت أمله فعلاً.

يا له من أخرق مسكين! لو لم أكن أشعر باشمئزاز بالغ لرثيت لحاله. كنت مدركاً أنه في ورطة. لكنه كان منذ عشرين عاماً أو أكثر وهو يحتال لوضع نفسه في تلك الورطة.

كان مَثَلُ كلانسي الأعلى في السلوك هو الجندي، الرجل الذي يستطيع أن يتلقّى الأوامر ويُصدِرها، إذا لزم الأمر. شعاره الطاعة العمياء. ومن الواضح أني كنت جندياً بائساً؛ أداةً ممتازة ما دمتُ مُطْلَق اليد في التصرُّف، أما الآن والعنان مشدود فقد أحزَنَهُ أن يعلم أني لا

أستجيب لأوامر أولئك الذين كان عليه هو، مديرهم العام، أن يرضخ لها بكل احترام. كان يؤلمه أن يسمع أني أهنتُ أحد تابعيّ السيد تويليغر. وتويليغر هو نائب المدير، رجل قاسي القلب تدرَّجَ حتى وصل إلى مركزه، تماماً كما حصل مع كلانسي نفسه.

كنت قد ابتلعتُ الكثير جداً من الخراء أثناء ذلك اللقاء مع رئيسي حتى أني أخذت أتقيأ. وقد انتهى الحديث بنبرةٍ بغيضةٍ جداً، أي أني تعلّمت أن أتعاون مع السيد سبيفاك، الذي كان قد أصبح بدون أدنى شك وسيط السيد تويليغر.

كيف يمكن التعاون مع جرذ؟ خاصة مع جرذ وظيفته الوحيدة أن يتجسَّس عليك؟

فكّرت وأنا ألج حانة لأتناول مشروباً، إنَّ دخول سبيفاك إلى الساحة لم يسبقه ببضعة أشهر إلا تصميمي على التخلّي عن نمط حياتي القديم. وقد عجّل مجيئه وقوع ذلك الحادث، أو تآمرَ على وقوعه، هكذا شعرت. لقد حدثت نقطة التحوُّل في حياتي الكونيّة المتعضّية في لحظة وفرة. وفي الوقت الذي تمَّ فيه ترتيب كل شيء، في الوقت الذي أخذتْ الآلة تعمل بدقّة الساعة، استدعى تويليغر سبيفاك من مدينة أخرى وعيّنه خبير فعاليّة. وقاس سبيفاك نبض الآلة الكونية المتعضّية فوجد أنه بطيء جداً.

منذ ذلك اليوم المميت وهم ينقّلونني مثل حجر شطرنج. فعمدوا أولاً، وكأنما ليهددونني، إلى تغيير مكان إقامتي فنقلوه إلى المكتب الرئيسي. وكان حَرَم تويليغر يقع في المبنى نفسه، فوقي بخمسة عشر طابقاً. لا خِدَعَ بعد الآن، كما كان يحدثُ في مكتب السُعاة القديم

twitter @baghdad_library

بكبائن تبديل الملابس في الخلف والطاولة المكسوّة بالزنك، حيث كنتُ بين حينٍ وآخر أخرقُ واحدة شاردة. الآن أصبحت أقيمُ في قفصٍ خالٍ من الهواء، مُحاط ببدعةٍ جحيمية تئزُّ وترنُّ وتلمع كلما وضع زبون طلباً لوظيفة ساعٍ. في مساحةٍ بالكاد تتّسع لطاولة مكتب مزدوجة وكرسي على كل جانب (لجلوس المتقدمين للعمل)، كان عليّ أن أتعرَّق وأصرخ بأعلى ما تقوى عليه رئتاي لأكون مسموعاً. وقد فقدت صوتي ثلاث مرات، على مدى بضعة أشهر. وفي كل مرة كنت أقدِّم تقريراً بذلك لطبيب الشركة الكائن في الطابق العلوي. وفي كل مرة كان يهزُّ رأسه بارتباك.

" قُل أه! "

" أه! "

" قُل إي-ي-ي! "

" إي-ي-ي! "

أقحمَ عصا ملساء، أشبه بأداة إزالة الصابون، إلى حنجرتي.

" افتح فمك واسعاً "

فتحتُ فمي قدر ما استطعتُ. فكان يُخرجها ويرشّها إذا ما شعر برغبةٍ في ذلك.

" ألا تشعر بتحسُّن الآن؟ "

أحاول أن أقول نعم لكن أفضل ما استطعت أن أفعله أن أرسل إليه قطعة بلغم صوتيّة. أوووغه!

فيقول " لا أرى أي مشكلة في حنجرتك. عُدْ بعد بضعة أيام وسألقي نظرة أخرى. قد يكون تقلُّب الطقس هو السبب "

لم يخطر بباله أن يسألني عمّا فعلته بحنجرتي طوال النهار. وطبعاً حالما عرفتُ أنَّ فقداني لصوتي معناه أن أستمتع بعطلة بضعة أيام، شعرتُ أنه يعني أيضاً أن أتركه على جهله بسبب بليّتي.

غير أن سبيفاك ارتاب في أني أتمارض. وقد استمتعت بالتحدُّث إليه بهمسٍ يكاد يكون غير مسموع بعد أن استعدتُ صوتي بفترة طويلة.

كان يقول بعصبيّة " ماذا قلت؟ "

كنت أختار لحظاتٍ يكون فيه الصَخَبُ في أوجه لأكرِّر معلوماتٍ غير هامة على الإطلاق بالهمس غير المسموع نفسه.

فيقول، وهو في أعلى درجات التوتُّر " أوه. ذاك! "، معبِّراً عن سخطه لأني لا أقوم بأقلّ جهدٍ لأرفع صوتي.

"متى تظن أنك ستستعيد صوتك؟ "

فأقول " لا أدري "، وأنا أنظر في عينيه مباشرة وأترك صوته يخمد.

ثم يتحدَّث مع موظف تلقّى الطلبات، يستنطقه من وراء ظهري ليعرف إن كنتُ أمثِّل عليه. وفور مغادرته أستعيدُ نبرةَ صوتي الطبيعية. ولكن إذا رنَّ جرس الهاتف أدفعُ مساعدي لكي يتلقّى المكالمة، " مستر ميللر لا يستطيع أن يستخدم الهاتف - صوته مختفٍ ". وبقيت هكذا لكي أُحبِط سبيفاك. كان خليقاً به أن يغادر غرفة مكتبي، ويخرج من الباب الرئيسي، ويلج حجيرة هاتف ويطلبني منها. كان سيبتهج لو أمسك بي وأنا متخلٍّ عن حَذَري.

مع هذا، كان ذلك كله كومة من الخراء، لعب أطفال. وفي كل مؤسسة كبيرة تُمارَس مثل تلك الخِدَع. إنها المُتَنَفَّس الوحيد للجانب الإنساني للمرء. إنه كالحضارة. كل شيء يُسرع ليعمل بسلاسة لكي

twitter @baghdad_library

يدمِّرها بحريقٍ صغير في الخلاء. تماماً كما لو أنَّ دوافعك لُمِّعَتْ، وقُلِّمَتْ أظافرها وأُلبِسَتْ بذلة تفصيل، ثم توضع بندقية في يدك ويتوقَّع منك أن تتعلَّم خلال ستةٍ من الدروس فن غرز حربة في كيس من الحنطة. إنَّ أقلّ ما يقال في هذا أنه أمرٌ محيِّر. فإذا لم يكن هناك أي رعب، أو حرب، أو ثورة، فإنك تروح تتنقَّل من مركز مهمّ مُهلِك إلى آخر إلى أن تصبح أنت الأير الكبير نفسه وتنسف دماغك.

ابتلعتُ ملء كأس أخرى من المشروب وألقيت نظرة سريعة على الساعة الكبيرة فوق برج المتروبوليتان. الغريب أنَّ تلك الساعة هي التي كانت قد ألهمتني القصيدة الواحدة والوحيدة التي كتبتها. حدث ذلك قبيل وبعد أن نقلوني إلى ضواحي البلدة من المكتب الرئيسي. كانت الساعة تبدو من النافذة التي كنت أطلُّ منها إلى الشارع. في مواجهتي كانت تجلس فاليسكا. وبسبب فاليسكا كتبت القصيدة. أذكر الإثارة التي غمرتني في صباح يوم الأحد الذي باشرت فيه تأليف القصيدة. كان شيئاً لا يُصَدَّق - إنها قصيدة. وكان لابد لي من أن أتصل بفاليسكا لأزف النبأ الطيب لها عبر الهاتف. وبعد مرور شهرين من ذلك توفيتْ.

ولكن معها نجح كرلي للمرة الأولى في أن يُدخِل طرفه فيها. لم أعلم بهذا إلا حديثاً. يبدو أنه كان يتردَّد معها إلى الشاطئ. وقد فعلها، وحقّ الله، في الماء، وهو واقف على قدميه. أقصد في المرة الأولى. بعد ذلك كان مجرد نكاح، نكاح، نكاح - في السيارة، في الحمّام، على الواجهة المائيّة، في قارب التنزُّه.

وأنا وسط هذه الذكريات السعيدة رأيت قامة فارعة ترتدي زيّاً رسمياً تمرُّ من أمام النافذة. أسرعت بالخروج لأرحِّب به.

" لا أدري إن كان يجدر بي أن أدخل يا سيد ميللر. إنني أثناء أداء وظيفتي، كما تعلم "

" لا يهمّ. أدخل دقيقة واشرب كأساً معي. أنا مسرور لرؤيتك "

كان الكولونيل شيريدان، رئيس فرقة السُعاة التي كان سبيفاك قد نظّمها. كان شيريدان من ولاية أريزونا. وقد جاءني يفتّش عن عمل فعيّنته في القوة الليلية. أعجبني شيريدان. كان أحد القِلّة القليلة النظيفة التي قابلتها من بين الآلاف الذين عيّنتُهم في العمل في صفوف السُعاة. الكل أحبّوه، حتى قطعة الإسمنت الحي ذاك، تويليغر.

كان شيريدان بريئاً بكل ما في الكلمة من معنى. وُلِدَ في محيط نظيفٍ، ولم يتلقَّ من الثقافة أكثر مما كان بحاجة إليه، وما أقلّه! ولم يكن لديه أي طموح آخر غير أن يكون ما هو عليه، أي إنساناً بسيطاً، ساذجاً، عادياً، يقبل الحياة على علاّتها. كان نادر الوجود، كما بدا لملاحظتي للطبيعة الإنسانية.

سألته كيف حاله كمدرِّب صارم. قال إن الوضع محبِط. كان خائب الأمل - فالشبان لم يُبدوا أي حماس، أي اهتمام بالتدريب العسكري.

وهتف قائلاً " لم أقابل قط مثل أولئك الشبان يا سيد ميللر. ليس لديهم أي حسّ بالشرف... "

انفجرت بالضحك. لا شرف، يا إلهي!

قلت " شيريدان، ألم تتعلّم بعد أنك تتعامل مع حثالة الأرض؟ ثم إنَّ الشبان لا يُولدون ومعهم حسّ بالشرف. خاصة شبان المدينة. هؤلاء الشبان في الأساس قُطّاع طرق. ألم تزُر مرةً مكتب المحافظ؟ ألم ترَ الحشود المتجمّعة هنا؟ أولئك سُعاة بالغون. ولو وضعتهم خلف القضبان

twitter @baghdad_library

لما استطعتَ أن تميِّز بينهم وبين المجرمين الحقيقيين. المدينة برمَّتها تتألَّف فقط من المحتالين وقطَّاع الطرق. هذه هي المدينة - مكانٌ لتفريخ الجريمة.

رماني شيريدان بنظرةٍ حيرى.

قال، وهو يكشِّر بارتباك " ولكن أنت لست مثلهم، يا سيد ميللر "

كان لابد لي من أن أضحك من جديد. " أعلم يا شيريدان. أنا أحد الاستثناءات. أنا فقط أقتل الوقت هنا. ذات يوم سوف أتوجَّه إلى أريزونا، أو إلى مكانٍ ما هادئ وخالٍ. ألم أخبرك بأني ذهبت إلى أريزونا قبل سنين عديدة؟ أتمنى لو كان لدي من الحسّ السليم ما يجعلني أمكث هناك ... قُل لي ما الذي فعلته هناك ... لا أظنك كنت راعياً، أم ماذا؟ "

جاء دور شيريدان أن يبتسم. " لا، يا سيد ميللر، لقد أخبرتك أني كنت حلاّقاً، ألا تذكُر؟ "

" حلاّق! "

قال شيريدان " نعم، وحلاّق جيد أيضاً "

" ولكنك تُحسِن الحلاقة، أليس كذلك؟ آمل ألا تكون قد أمضيتَ حياتك كلها في دكان الحلاقة؟ "

أجاب بسرعة " أوه، كلا، بل أعتقد أني قمت بأعمالٍ صغيرة كثيرة. بدأتُ بكسب لقمة عيشي منذ أن كنت في السابعة "

" ما الذي دفعك إلى المجيء إلى نيويورك؟ "

" أردت أن أشاهد طبيعة الحياة في مدينة كبيرة. وذهبت أيضاً إلى دنفر، ولوس أنجلوس، وشيكاغو. وأخذ الجميع يلحّون عليَّ بوجوب زيارة نيويورك، فقررت أن أفعل. وفي رأيي، يا سيد ميللر، أن نيويورك مكان رائع - لكن الناس لا يعجبونني ... أعتقد أني لا أفهم أساليبهم"

" تقصد أسلوبهم في التلاعب بك؟ "

" نعم، وأساليبهم في الكذب والغش. حتى النساء هنا مختلفات. أراني غير قادر على العثور على فتاة تعجبني "

" أنت مفرط الطيبة، يا شيريدان. لا تعرف كيف تعاملهم "

طأطأ رأسه. قال " أعرف هذا يا سيد ميللر "، وأبدى حياءً أسطورياً.

ثم باشر يقول متلعثماً " أتَعْلَم، أعتقد أن ثمة عيباً فيَّ. إنهم يضحكون عليٌّ من خلف ظهري - كلهم يضحكون، حتى الصغار. لعل طريقتي في المشي هي السبب "

قلت " يجب ألا تفرط في الرقة مع الفتيان، يا شيريدان. لقد حذّرتك - كنّ قاسياً معهم! سدِّد لواحدهم صفعة مرة كل حين. سبّهم. لا تدعهم يظنون أنك رخو. فإذا لم تفعل، يدوسونك "

رفع بصره برقّة إليّ ومدَّ يده لي. " أترى هذا؟ هنا عضّني أحد الفتية منذ بضعة أيام، أتتخيّل ذلك؟ "

" ماذا فعلت له؟ "

عاد شيريدان ينظر إلى قدميه. قال " أرسلته إلى بيته "

" فقط؟ أرسلته إلى بيته فقط؟ ألم تسدِّد إليه لكمةً؟ "

لزم الصمت. وبعد بضع لحظات تكلّم، بهدوء ووقار بسيط:

" أنا لا أؤمن بالعقاب يا سيد ميللر. إذا ضربني رجل لن أردَّ له الضربة أبداً. أحاول أن أناقشه، أن أفهم خطبه. في الواقع، لقد تلقّيتُ الكثير من الضرب وأنا صغير. أمضيتُ وقتاً صعباً في تلك الفترة ... "

ثم سكت تماماً، ونقّلَ ثقل وزنه من قَدَمٍ إلى أخرى.

twitter @baghdad_library

عاد إلى الكلام، مستجمعاً شجاعته كلها، " طالما أردتُ أن أخبرك شيئاً. أنت الوحيد الذي أستطيع أن أفضي بهذا إليه يا سيد ميللر. أعلمُ أنَّ في إمكاني أن أثق بك ... "

صمتٌ جديد. انتظرتُ وأنا منتبه، أتساءل ما الذي يحاول أن يريحه على صدره.

ثم تابع يقول " حين أتيت إلى شركة التلغراف لم يكن في جيبي دايمٌ واحدٌ. أنت تذكر هذا يا سيد ميللر ... واضطررتَ إلى تقديم المساعدة إليَّ. وأنا ممتنٌ لكل ما فعلته لأجلي "

صمتٌ.

" لقد قلت قبل قليل أني جئت إلى نيويورك لأشاهد المدينة الكبيرة. إن هذا فقط نصف الحقيقة. لقد كنت هارباً من شيء ما. في الواقع يا سيد ميللر كنت وأنا هناك غارقاً في قصة حب. كانت لدي حبيبة هي كل شيء بالنسبة إليّ. كانت تفهمني، وكنت أفهمها. لكنها كانت متزوجة من أخي. لم أرد أن أسرقها من أخي، لكني لم أقو على العيش بدونها ... "

" أكان أخوك على علمٍ بحبِّك لها ؟ "

قال شيريدان " ليس في أول الأمر، ولكن بعد فترة أصبح لابد له من أن يلاحظ. في الواقع، كنا نعيش كلنا معاً. كان يدير محلاً للحلاقة وكنت أساعده. وكان مستوانا راقٍ جداً"

صمتٌ مرتبكٌ آخر.

" وذات يوم بدأت المشاكل كلها، كان يوم أحد ذهبنا فيه للتنزُّه. كنا طوال تلك الفترة في حالة حب، لكننا لم نكن قد أقمنا علاقة

جسدية. لم أكن أريد إيذاء أخي، كما أخبرتك. وأخيراً، حدث اللقاء الجسدي. كنا نائمين في العراء وكانت هي تستلقي بيننا. وفجأة استيقظتُ وشعرتُ بيدها موضوعة عليّ. كانت في كامل يقظتها، تحدِّق إليَّ بعينين نهمتين. مالت عليّ وقبَّلتني على فمي. وفي تلك البقعة، وبينما أخي مستلق إلى جانبنا، ضاجعتها "

ألححتُ عليه " اشرب كأساً أخرى "

قال شيريدان " أعتقد أني سأفعل، شكراً لك "

تابع بأسلوبه المتردِّد، البطيء، المغرق في رقَّته، وكان جليّاً أنه قد اضطرب اضطراباً حقيقياً. أحببتُ طريقَته في التحدُّث عن أخيه. وكأنه كان يتحدَّث عن نفسه.

" باختصار، يا سيد ميللر، ذات يوم استولت عليه الغيرة المطبقة - وهاجمني بموسى. أترى هذا الندب؟ "، وأمال رأسه قليلاً إلى أحد الجانبين. " هنا تلقَّيتُ الضربة، وأنا أحاول أن أتفاداه. ولو لم أحنِ رأسي بسرعة أعتقد أنه كان اقتطعَ جانب وجهي كله "

أخذ شيريدان يرشف شرابه ببطء، وهو ينظر بتأمُّلٍ في المرآة المغسولة بالصابون أمامه.

قال " أخيراً هدَّأته. طبعاً تولاّه الخوف حين شاهد الدم يسيل على عنقي وكانت أذني شبه مقطوعة ومدلاّة. بعد ذلك يا سيد ميللر حدث أمر رهيب. راح يبكي كطفل. قال لي إنه إنسان شرير، وكنت أعلم أنه ليس كذلك. قال إنه ما كان يجدر به أن يتزوج من أيلا - وهو اسمها. قال إنه سيطلِّقها، وسيرحل إلى أي مكان، ويبدأ من جديد - وأن عليَّ أنا أن أتزوج من أيلا. وتوسَّلَ إليَّ كي أوافق. حتى أنه حاول أن يقرضني

twitter @baghdad_library

بعض النقود. أراد أن يرحل من فوره ... قال إنه لم يعد يستطيع التحمُّل. وطبعاً رفضتُ رفضاً قاطعاً. وتوسَّلتُ إليه ألا يذكر أي شيء لأيلا. قلت إني سأقوم بجولة قصيرة، ريثما تهدأ الأمور. ولم يوافق على ذلك قط ... لكنه أخيراً، وبعد أن بيَّنتُ له أنَّ ذلك هو الشيء العاقل الوحيد الذي ينبغي فعله، وافق على أن يدعني أرحل ... "

" وهكذا أتيتَ إلى نيويورك؟ "

" نعم، لكن هذا ليس كل شيء. في الواقع، لقد حاولت أن أقوم بالتصرُّف الأكثر صواباً. أنت نفسك كنتَ فعلتَ مثلي، لو أنه كان أخاك، أليس كذلك؟ لقد فعلت أقصى ما في وسعي ... "

قلت " وما الذي يقلقك؟ "

حدَّقَ بنظرةٍ جوفاء إلى المرآة.

قال، بعد صمت طويل " أيلا. لقد هربت منه. في أول الأمر لم تكن تعلم مكان استقراري. كنت أُرسِلُ إليهما بطاقةً بريدية كل حين، من هذا المكان وذاك، ولكن دون أن أعطي عنواني. وقبل فترة وصلتني رسالة من أخي، يقول فيها إنها بعثت إليه رسالة - من تكساس. فناشدته أن يعطيها عنواني. وقلتُ إنها إنْ لم تعرف مكاني سريعاً فسوف تنتحر "

" وهل راسلتها ؟ "

قال " لا، لم أكتب لها بعد. لا أدري بالضبط ماذا أفعل "

" ولكن بحق المسيح، ألا تحبها ؟ ثم إنها هي تحبك. وأخوك - لن يمانع. فماذا تنتظر بحق الشيطان؟ "

" لا أريد أن أسرق زوجة أخي. ثم إني أعلم أنها لا تحبّه. إنها تحبنا نحن الاثنين - هذا هو حجم المسألة "

جاء دوري كي أصاب بالدهشة. وأصدرت صفيراً منخفضاً. قلت متهللاً " هذا هو الأمر إذن! اختلفت المسألة الآن "

قال شيريدان على عجَل " نعم، إنها تحبنا نحن الاثنين على قدم المساواة ولم تهرب منه لأنها تكرهه أو لأنها تريدني. إنها تريدني، نعم. لكنها هربت لكي تدفعه إلى أن يفعل شيئاً، أن يجد مكاني ويعيدني "

سألته، وقد انتابني ظلٌ من الشكّ في أنه ربما كان شيريدان يتخيَّل أموراً، " أهو يعرف هذا ؟ "

" طبعاً، هو يعرف ذلك وعلى استعداد لأن يعيش بتلك الطريقة، إن كان هذا ما تريده. وأعتقد أنه سيرتاح أيضاً، إذا ما استقرَّ الأمر على ذلك "

قلت " حسن؟ وماذا الآن؟ ما هي مشاريعك؟ "

" لا أدري. إنني عاجز عن التفكير. ماذا كنت فعلتَ أنتَ لو كنتَ في مكاني؟ لقد أخبرتُكَ بكل شيء، يا سيد ميللر "

ثم قال، كأنما لنفسه: " لا يمكن للرجل أن يصمد إلى الأبد. أنا أعلم أنّ من الخطأ أن أعيش هكذا ... ولكن إذا لم أسرع بفعل شيءٍ ما فقد تقتل أيلا نفسها. وهذا ما لا أريده. إنني مستعدٌ لعمل أي شيء لمنع ذلك "

" اسمع يا شيريدان ... أخوك كان غيوراً من قبل. لكني أتصوَّر أنه قد تجاوز تلك المرحلة. إنه يريد عودتها كما تريد أنت بالضبط. والآن ... هل خطر ببالك إن كنتَ ستشعر بالغيرة من أخيك - في آخر المطاف؟ ليس سهلاً أن تتقاسم المرأة التي تحب مع رجلٍ آخر، حتى ولو كان أخاك. أنت مدركٌ لهذا، أليس كذلك؟ "

twitter @baghdad_library

لم يُبدِ شيريدان أي تردُّد في الإجابة عن هذا السؤال.

" لقد فكَّرت في هذا كله يا سيد ميللر. أنا أعرف أني لن أكون الطرف الذي يغار. ولست قلقاً بشأن أخي أيضاً. نحن متفاهمان.المشكلة في أيلا. أحياناً أتساءل إن كانت تعرف حقاً ما تريد. لقد كبرنا نحن الثلاثة معاً، في الواقع. لهذا ترانا استطعنا أن نعيش معاً بسلام تامّ ... إلى أن ... حسن، لقد كان ذلك طبيعياً، أليس كذلك؟ ولكن لو أني أعود الآن، ونتقاسمها صراحةً، فقد تبدأ بإبداء حبٍ مختلف نحونا. إنَّ هذا الأمر فَرَطَ عقد العائلة السعيدة. وقريباً سيلاحظ الناس حدوث أمور غريبة. إنَّ المجتمع هناك صغير، وأهالينا لا يفعلون مثل هذه الأشياء. لا أدري ماذا سيحدث بعد فترة من الوقت ... "

صمتُ من جديد وأخذ يعبث بأسه.

" ثمة أمر آخر فكَّرتُ فيه يا سيد ميللر ... ماذا لو أنها حَمَلَتْ. قد لا نعرف أبداً ابن مَنْ منّا هو. آه، كم قلَّبتُ التفكير في القضية. ليس من السهل اتخاذ قرار "

وافقْتُهُ. " كلا، ليس سهلاً. إنني مرتبك يا شيريدان. يجب أن أفكِّر مليّاً "

" شكراً لك يا سيد ميللر. أنا أعرف أنك ستساعدني، إذا كان ذلك في استطاعتك. أعتقد أنهُ يجب أن أذهب الآن. سيكون سبيفاك في حالة بحثٍ عني. إلى اللقاء، سيد ميللر "، ثم انطلق.

لدى عودتي إلى غرفة المكتب أُبلِغْتُ بأن كلانسي كان قد اتصل هاتفياً. سأل عن طلب تعيين ساعٍ كنت قد عيَّنته حديثاً – وكان امرأة.

سألتُ " ما الأمر؟ ماذا فعلت؟ "

لم يقدِّم لي أحد أي معلومة محدَّدة.

" حسن، أين كانت تعمل؟ "

اكتشفتُ أننا كنا قد أرسلناها إلى أحد مكاتب وسط المدينة. كان اسمها نينا أندروز. وكان لدى هيمي التفاصيل كلها. وقد اتصل لتوه بمدير المكتب الذي تعمل فيه الفتاة، لكنه لم يستطع أن يحصل على أي معلومة. والمدير، وكان امرأة أيضاً، كانت ترى أن الفتاة مُرضية من النواحي كافة.

قرّرتُ أنَّ من الأفضل أن أتصل بكلانسي وأنهي الأمر كله معه. كان صوته أجشاً ونزقاً. كان جلياً أن السيد تويليغر قد قلّبه فوق الجمر. والآن جاء دوري.

سألته بكل براءة " ولكن ما الذي فعلته؟ "

تردَّد صدى صوت كلانسي حانقاً " أتساءل ما الذي فعلته؟ يا سيد ميللر. ألم أنبِّهك مراراً وتكراراً إلى أننا نريد في صفوف سعاتنا فقط نساءً ممتازات؟ "

كان لابد لي أن أقول " نعم يا سيدي "، وأنا أسبُّه بصوت منخفض لأنه قَرِقٌ أحمق.

ثم اتّخذ صوته نبرة الجدّية المدمِّرة " سيد ميللر، إن المرأة التي تُطلِق على نفسها نينا أندروز ليست أكثر من عاهرة مبتذلة. جاءنا هذا البلاغ عنها من أحد زبائننا المهمِّين. لقد أخبَرَ السيد تويليغر أنها حاولت أن تتحرَّشَ به. وسوف يقوم السيد تويليغر بعملية بحث. وهو يشك في أنه قد توجد بيننا نساء غير مرغوب فيهن. ولست بحاجة إلى أنْ أقول لك يا سيد ميللر إنّ هذه مسألةٌ على جانب كبير من الخطورة. جانب كبير

twitter @baghdad_library

من الخطورة. وأنا واثق من أنك تعرف كيف تتعامل مع مثل هذا الوضع. سوف تزوّدني بتقريرٍ في غضون يوم أو يومين - واضح؟ "، وعلّقَ سماعة الهاتف.

جلست هناك أحاول أن أتذكّر الفتاة المقصودة.

سألت " أين هي الآن؟ "

قال هيمي " أرسلِتْ إلى بيتها "

قلت " ابعث إليها برقية واطلب منها أن تتصل بي هاتفياً. أريد أن أتحدَّثَ معها "

انتظرت حتى بلغت الساعة السابعة على أمل أن تتصل بي. وكان أورورك قد دخل لتوه. وخطرت لي فكرة. لماذا لا أسأل أورورك ...

رنَّ جرس الهاتف. كانت نينا أندروز. صوتها مريح جداً، أثار تعاطفي معها على الفور.

قالت " آسفة لأني لم أتمكن من الاتصال بك قبل الآن. كنت في الخارج طوال فترة بعد الظهر "

قلت " آنسة أندروز، أتساءل إن كان في استطاعتك أن تقدّمي لي معروفاً. أودّ أن أعرِّج عليك لبضع دقائق لأتحدث معك "

قالت بنبرة مرحة " أوه، أنا لا أريد أن أعود إلى عملي؛ لقد عثرتُ لتوي على عملٍ آخر - أفضل من الأول بكثير. كان لطفاً منك أن ... "

ألححتُ " آنسة أندروز، مع ذلك أريد فعلاً أن أقابلك - فقط بضع دقائق. ألديك مانع؟ "

" لا، لا، على الإطلاق. بل تعال، على الرحب والسعة. أردت فقط أن أوفِّر عليك مشقة ... "

" حسن شكراً لك ... سأكون عندك بعد بضع دقائق "

اقتربتُ من أورورك وشرحتُ القضية له بكلمات مقتضبة. قلت " ما رأيك أن تأتي معي؟ في الواقع، لا أصدق أنَّ الفتاة عاهرة. لقد بدأت أتذكّرها الآن. أعتقد أني أعرف ... "

قفزنا إلى سيارة أجرة وانطلقنا إلى الشارع الثاني والسبعين حيث كانت تنزل في نُزُلٍ عتيقِ الطرازِ ونموذجي، وتشغل غرفة في الطابق الرابع الخلفي.

بوغتت قليلاً لرؤية أورورك في صحبتي. لكنها لم تكن خائفة - وهي نقطة تُحسَب لصالحها، قلت لنفسي.

قالت، وهي ترمقني بنظرة صريحة من عينيها الزرقاوين، " لم أكن أعلم أنك ستُحضِر صديقاً معك. يجب أن تعذراني لهيئة المكان "

" لا عليك من ذلك، آنسة أندروز ". كان أورورك مَنْ تكلَّم. " الاسم نينا، أليس كذلك؟"

قالت " نعم، لماذا؟ "

قال " اسم جميل. لم يعد مستخدماً كثيراً. أيمكن أن تكوني بصورة ما منحدرة من سلالة أسبانية؟ "

قالت، بإشراقٍ وسرعةٍ كبيرتين، وبنبرة صوت ملطَّفة، " أوه، لا. لست أسبانية. أمي كانت دانماركية، ووالدي إنكليزي. لماذا. هل أبدو كأسبانية؟ "

ابتسمَ أورورك. " بصراحة، آنسة أندروز ... آنسة نينا ... هل أستطيع أن أناديك هكذا؟ ... لا، لا تبدين أسبانية أبداً. لكن اسم نينا اسمُ أسباني، أليس كذلك؟ "

twitter @baghdad_library

قـالت، وهي تعـدِّل من وضـعـيـة الوسـادة على الديوان، " ألا تجلسان؟". ثم قالت بنبرة صوت طبيعية جداً، " أعتقد أنكما سمعتما أني قد طُرِدْتُ من عملي؟ هكذا ببساطة! بدون إعطاء أي تفسير. لكنهم منحوني أجر أسبوعين - بالإضافة إلى أني وقَّعتُ لتوي على عملٍ أفضل. وهكذا فالأمر ليس سيئاً جداً، أليس كذلك؟ "

هنا شعرت بالسعادة لأني أحضرتُ أورورك معي. ولو أني حضرت وحدي لغادرتها بدون أن أحرز الكثير. كنت مقتنعاً كل الاقتناع في تلك اللحظة، ببراءة الفتاة.

أقول الفتاة، لأنها كانت قد ذكرت على ورقة التعيين أن سنها هو الخامسة والعشرين، ولكن كان جلياً أنها لا تتجاوز التاسعة عشرة بيوم واحد. بدت كفتاة نشأت في الريف. مخلوقة صغيرة فاتنة، تضجُّ بالنشاط.

كان واضحاً أن أورورك يكوِّن تقييماً مشابهاً. وحين رفع صوته تجلّى فيه أنه لم يكن يفكِّر إلا في الطريقة التي يوفِّر بها عليها أذى لا داعي له.

قال، بلهجة أب " آنسة نينا، لقد طلب السيد ميللر مني أن أصحبه. أنا، في الواقع المفتش الليلي. لقد حصل بعض من سوء الفهم مع أحد الزبائن الذين يخدمهم مكتبنا. لعلك تذكرين اسمه - وكالة بروكس للضمان. أتذكرين ذلك الاسم، آنسة نينا؟ تذكَّري، فقد تساعديننا "

أجابت برشاقة " طبعاً أعرف الاسم. غرفة رقم ٧١٥، السيد هاركورت. نعم، أعرفه جيداً. وأعرف ابنه أيضاً "

على الفور أصاخ أورورك سمعه.

ردَّدَ " تعرفين ابنه؟ "

" نعم. كنا متحابّين. نشأنا في بلدة واحدة ". وذكرت له اسم بلدة صغيرة في أعالي الولاية. " أعتقد أنها بالكاد تكون بلدة "، وأطلقت ضحكة صغيرة مشرقة.

قال أورورك، متمهّلاً في لفظ حروفه ليحثّها على المتابعة، " فهمت"

قالت " الآن فهمت لماذا طردوني. إنه يعتقد أني لا أليقُ بابنه، السيد هاركورت هذا. لكنني لم أكن أعتقد أنه يكرهني إلى ذلك الحد "

بينما هي تثرثر تذكرت بوضوح مطّرد ظروف زيارتها الأولى إلى مكتب المستخدمين. وثمة نقطة واحدة برزت جليّة. فأثناء ملئها للاستمارة الفارغة طلبت على وجه الخصوص أن تُرسَل إلى مكتب بعينه. ولم يكن ذلك طلباً غريباً، فالمتقدمون كثيراً ما يفضّلون مواقع معيّنة لسبب من الأسباب. لكنني عندئذ تذكرت الابتسامة التي رسمتها لي وهي تشكرني على الكياسة التي أبديتها لها.

قلت " آنسة أندروز، ألم تطلبي مني أن أرسلك إلى مركز هكشر عندما تقدَّمتِ بطَلَبْ العمل؟ "

أجابت " طبعاً فعلت. أردت أن أكون قريبة من جون. كنت أعلم أن والده يحاول أن يباعد فيما بيننا. ولهذا تركت بلدي "

ثم أضافت " في أول الأمر حاول السيد هاركورت أن يسخر مني حين سلَّمتُ البرقيات أول مرة لمكتبه. لكنني لم آبه. وكذا فعل جون "

قال أورورك " حسن، إذن فأنتِ لا تأبهين كثيراً بفقدانك عملك؟

twitter @baghdad_library

لأنه إن كنت ترغبين في استعادته، أعتقد أن في إمكان السيد ميللر أن يتدبَّر هذا الأمر لأجلك "، ورماني بنظرة.

قالت لاهثة " أوه، أنا حقاً لا أرغب في استعادته. لقد وجدت عملاً أفضل منه بكثير - وفي البناء نفسه! "

انفجرنا نحن الثلاثة بالضحك.

نهضت وأورورك لنرحل، وسألها أورورك " أنت موسيقية، أليس كذلك؟ "

احمرَّت خجلاً " نعم ... كيف عرفت؟ أنا عازفة كمان. وطبعاً هذا سبب آخر لاتخاذي قرار المجيء إلى نيويورك. وأتمنى أن أتمكَّن ذات يوم من العزف في حفلٍ هنا - ربما في دار البلدية. من المثير أن يكون المرء في مدينة كبيرة كهذه، أليس كذلك؟ "، وأخذت تقهقه بصوتٍ مكبوت كتلميذة في مدرسة.

قال أورورك " إن الحياة في نيويورك رائعة "، وقد هبطت نبرة صوته فجأة إلى مستوى أشد جدّية، " وأتمنى أن تحرزي كل النجاح الذي تصبين إليه ... "، وصمت، صمتاً ثقيلاً، ثم أمسك كلتا يديها بيديه، وجلس مباشرة أمامها وقال:

" أ تسمحين لي أن أقترح عليك شيئاً؟ "

قالت الآنسة أندروز، وقد تضرَّجَ وجهها قليلاً " طبعاً! "

" حسن إذن، عندما تقدّمين حفلتك الموسيقية الأولى في دار البلدية، مثلاً، أقترح عليك أن تستخدمي اسمك الحقيقي. إن اسم مارجوري بلير جيد كاسم نينا أندروز ... ألا تعتقدين؟"، ثم قال، بدون أن يتوقف عن الكلام ليراقب أثر ردّه، وهو يمسك ذراعي ويتجه نحو

الباب، " حسن، أعتقد أننا يجب أن نرحل. حظاً سعيداً، آنسة بلير. ووداعاً! "

قلت، بعد أن أصبحنا في الشارع " يا إلهي! "

قال أورورك، وهو يجرّني معه " فتاة ممتازة، أليس كذلك؟ لقد اتصل بي كلانسي بعد ظهر هذا اليوم ... وأراني الاستمارة. عرفت كل المعلومات السرّية عنها. لا غبار عليها على الإطلاق "

قلت " وماذا عن الاسم؟ لماذا غيَّرت اسمها؟ "

قال أورورك " أه ذاك! إنه شيء لا يستحق الذكر. الشبان يرون أن من المثير أن يغيّروا أحياناً أسماؤهم ... من حسن حظها أنها لا تعرف ما الذي قاله السيد هاركورت للسيد تويليغر، إه؟ إذا تسرَّبَ هذا إلى العلن، فسيثير ضجة كبرى ".

ثم أضاف، وكأنها مسألة ليست ذات بال، " بالمناسبة، عندما سأقدِّم تقريري إلى تويليغر سأقول إنها ستبلغ سن الثانية والعشرين. لا أظنك تمانع، أليس كذلك؟ كما تعلم، إنهم يشكُّون في أنها تحت السن القانونية. طبعاً يمكن بسهولة الاطلاع على عمر أي كان. ومع ذلك، يجب أن تنتبه. أنت تفهم، طبعاً ... "

قلت " طبعاً، وجميل جداً منك أن تحميني "

تابعنا السيد بصمت بضع لحظات، ونحن نفتش عن مطعم.

" ألم يجازف هاركورت كثيراً بإفشاء قصة كهذه لتويليغر؟ "

لم يسارع أورورك إلى إعطاء جوابه.

قال " إن هذا يغيظني. اللعنة عليه، كاد يفقدني عملي أيضاً، أتدرك هذا؟ "

twitter @baghdad_library

قال أورورك ببطء " إن قضية هاركورت أشد تعقيداً من ذلك. أقول لك هذا بثقة تامة، افهم هذا. لن نفوه بأي كلمة للسيد هاركورت. سوف أبلّغ السيد تويليغر، من خلال تقريري، أنه تمت معالجة القضية بشكل مرضٍ. سوف أقول إن السيد هاركورت كان مخطئاً بخصوص شخصية الفتاة، وأنها عثرت " على الفور " على عمل آخر، وأوصت بأن نتخلّى عن القضية ... إن السيد هاركورت، كما أعتقد أنك بتَّ تفهم الآن، هو أقرب صديق لآل تويليغر، وكل ما قالته الفتاة صحيح حتماً، وهي أيضاً فتاة صغيرة ممتازة، وهي تعجبني. ولكن ثمة شيئاً واحداً لم تخبرنا عنه - وهذا طبيعي. إن السيد هاركورت قد طردها لأنه يغار من ابنه ... أتتساءل كيف علمتُ بهذه السرعة؟ حسن، إن لدينا طريقتنا الخاصة في معرفة الأمور. في إمكاني أن أخبرك بالكثير عن هذا الهاركورت، إذا كان الأمر يهمك "

كدت أقول " نعم، يهمني "، فإذا به يغيِّر الموضوع بسرعة.

" علمت أنك قابلت مؤخراً رجلاً اسمه موناهان "

شعرت كأنه سدَّدَ إليّ نخعة.

" نعم، موناهان - طبعاً. لماذا، أخوك أخبرك؟ "

تابع أورورك، بطريقته الرخيّة، الدمثة، " وطبعاً أنت تعلم ما هو عمل موناهان، أليس كذلك؟ أقصد، منصبه؟ "

غمغمت بجوابٍ ما، متظاهراً بأني أعلم أكثر من ذلك، ومن ثم انتظرته بصبرٍ كي يواصل كلامه.

تابع يقول " أمره غريب هذا النوع من الأعمال، وكيف تتّصل الأمور فيه مع بعضها. إن الآنسة نينا أندروز لم تذهب من فورها إلى مكتب

استخدام السُعاة بحثاً عن ذلك العمل، لدى وصولها إلى نيويورك. وككل الفتيات الصغيرات، جذبتها الأضواء الساطعة. إنها غضّة، وذكيّة، وتعرف كيف تُعنى بنفسها. أعتقد أنها ليست بالضبط بالبراءة التي تبدو عليها، لأكون صريحاً معك. أقصد، من ناحية معرفتها بهاركورت. لكن هذا ليس من شأني ... على أي حال، وباختصار، يا سيد ميللر، أول عمل انخرطتْ فيه كان سائقة سيارة أجرة في صالة الرقص. لعلك تعرفها ... ". قال هذا وهو ينظر أمامه مباشرة. " نعم، المحل نفسه الذي يراقبه موناهان. يديره رجل يوناني. وهو لطيف أيضاً. بل يجب أن أقول إنه مخلص بكل ما في الكلمة من معنى. ولكن هناك أفراداً آخرين يتسكّعون في المكان يتحمّلون إلقاء نظرة أكثر قرباً، خاصة حين تلج المكان فتاة شابة وجميلة مثل نينا أندروز - بتينك الوجنتين المتورّدتين وبسلوكها القروي المتردِّد "

كنت آمل أن أسمع المزيد عن موناهان لكنه مرة أخرى غيّر الموضوع.

" ثمة في هاركورت شيء غريب، يبيِّن لك كم يتعيَّن أن تكون حريصاً حين تبدأ بتفحُّص الأمور ... "

قلت " ماذا تقصد؟ "، متسائلاً ما الشيء التالي الذي سيفجِّره في وجهي.

قال أورورك، وازناً كلماته " حسن، فقط ما يلي: إن هاركورت يملك هنا في نيويورك، وفي أماكن أخرى أيضاً، سلسلة كاملة من صالات الرقص. ووكالة الضمان لا ترى أي شيء. لهذا يعمل على إدخال ابنه في مجال العمل بالتدريج. إنه مهتم بلعبة الضمان. وشغف هاركورت

twitter @baghdad_library

الوحيد هو بالفتيات الصغيرات - وكلما كنَّ صغيرات كان أفضل. طبعاً، أنا أعرف هذا، سيد ميللر، لكني لن أُدهَشُ إذا كان قد حاول لتوه أن يغوي الآنسة أندروز - أو مارجوري بلير، إذا استخدمنا اسمها الحقيقي. ولو أنَّ أي شيء حدث بينهما لما أخبرت الآنسة أندروز أحداً بذلك، أليس كذلك؟ خاصة الشاب الذي تحبه. إنها الآن لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها، ولكن لعل مظهرها كان هو نفسه وهي في سن السادسة عشرة. لا تنس أنها فتاة ريفية. وهناك ينضجن باكراً أحياناً - كما تعلم، دماؤهن حارّة وتضجُّ بالحيوية"

توقّف، وكأنما ليتفحَّص المطعم الذي لا أعرفه وكان يقودني برفق وببطء إليه.

" لا بأس بهذا المكان. هل نجربه؟ أوه، انتظر لحظة، قبل أن ندخله ... فيما يخصّ هاركورت ... الفتاة، طبعاً، لا علم لها بأنَّ له علاقة بسلسلة صالات الرقص. كانت تلك مجرد مصادفة، أقصد دخولها المكان. تعرف أيُّها أعني. أليس كذلك؟ الذي يقع مباشرة قبالة ... "

قلت، وقد انزعجت منه لإلقائه تلك الملاحظات الساخرة على مسمعي " نعم، أعرفه. لدي صديق يعمل هناك ". وقلت لنفسي، وأنت تعلم جيداً ماذا أعني.

كنت أتساءل كم من المعلومات أفشى موناهان له. وتساءلت أيضاً، فجأة، إن كان موناهان قد عرف أورورك سنوات عدة. كم يحبّون أن يصطنعوا تلك الحركات الصغيرة، تعابير الدهشة تلك، والجهل، والذهول، وما إلى ذلك. أعتقد أنهم لا يستطيعون إلا أن يفعلوا ذلك. إنهم أشبه بأمناء الصناديق الذين يقولون " شكراً لك! " في نومهم.

وبينما كنت أنتظر منه أن يتابع كلامه، خامرني شك آخر. لعل ورقتيّ الخمسين دولار اللتين وضعتهما مونا لأجلي جاءتا من جيب أورورك. كدت أكون واثقاً من ذلك. إلا إذا ... لكني طرحتُ الفكرة التالية من رأسي - كانت بعيدة الاحتمال. ولكن لم أستطع إلا أنْ أكرر لنفسي، إلا إذا كانت النقود قد جاءت من جيب هاركورت. إنَّ لفافة الأوراق المالية التي لوَّحَ بها في وجهي في تلك الليلة ضخمة. إن رجال المباحث لا يتجولّون عادة وفي جيوبهم مبالغ ضخمة من المال. على أي حال، إذا كان موناهان قد ابتزّ هاركورت (أو لعله اليوناني!) فلا يمكن لأورورك أن يكون قد علم بذلك.

انتزعتني من تلك التأملات الداخلية ملاحظةٌ أشدُ بعثاً على الذهول من أورورك. كنا عند الرواق. ونكاد نلج المطعم، وإذا بي أسمعه بوضوح يقول:

" في صالة الرقص تلك بالذات من المستحيل على فتاة أن تحصل على عمل بدون أن تضاجع هاركورت أولاً. على الأقل، هذا ما يقوله موناهان لي.

ثم أردف، بعد برهة صمت ليسمح لملاحظته أن تغوص فيَّ، " وطبعاً هذا أمر عادي "

اتخذنا مجلساً على طاولة تقع في الزاوية البعيدة من المطعم، حيث كان في إمكاننا أن نتحدث بدون أن نخشى أن يسمعنا أحد. ولاحظت أن أورورك يتلفَّت حوله ويوزِّع تحديقه المعتاد والحادّ، الذي يشمل كل شيء وأيضاً البعيد كل البُعد عن الفضول. فعل ذلك بعفوية، كما يشمل مهندس الديكور الداخلي أثاث غرفة ما، بما فيها نمط ورق الجدران.

twitter @baghdad_library

" ولكن كون الآنسة مارجوري بلير قد حصلت على العمل تحت اسمٍ آخر كاد يقوده إلى ارتكاب حماقة "

هتفت " يا إلهي، نعم، أنا لم أفكر في هذا قط! "

" من حسن حظه أنه اتخذ احتياطه وطلب صورتها الشخصية أولاً... "

لم أستطع إلا أن أقاطعه " يبدو أنك جمعت أخباراً كثيرة خلال فترة قصيرة "

قال أورورك بتواضع " كانت مصادفة محضاً. لقد صادفت فجأة موناهان وأنا في طريقي إلى مكتب كلانسي "

ألححتُ قائلاً " نعم، ولكن كيف نجحت في ربط الأمور ببعضها بهذه السرعة؟ فعندما قابلت موناهان لم تكن تعلم أنَّ الفتاة تعمل في صالة رقص. لا أفهم كيف وقعت على هذه المعلومة "

قال أورورك " لم أقع عليها، بل انتزعتُها من هاركورت. في الواقع، أثناء حديثي مع موناهان ... كان يتحدث عن مهمته – وعنك، بالمصادفة ... نعم، قال إنه شديد الإعجاب بك ... بالمناسبة، هو يرغب في مقابلتك ثانية ... يجب أن تتصل به ... حسن، على أي حال، كما كنت أقول، شعرت بدافع يحدوني إلى الاتصال هاتفياً بهاركورت. طرحت عليه بعض الأسئلة الروتينية – من بينها أين عملت الفتاة قبل ذلك، إن كان يعرف. قال إنها عملت في صالة للرقص. قال ذلك وكأنه يريد أن يقول: " إنها مجرد عاهرة حقيرة ". ولدى عودتي إلى الطاولة عجّلتُ فسألتُ موناهان إن كان يعرف فتاةً اسمها أندروز – تعمل في صالة الرقص. وعندئذ لم أكن أعرف في أي صالة. ومن ثم كانت

دهشتي، بعد أن شرحت له القضية، حين بدأ يحكي لي عن هاركورت. وهكذا تم الأمر. بسيط، أليس كذلك؟ لقد قلت لك، كل شيء مرتبط بعضه ببعض في هذه المهنة. تتبع حدسك وتنشر هوائك - وأحياناً يسقط الأمر في حجرك مباشرة "

كل ما استطعت أن أقوله " يا إلهي "

كان أورورك يتفحَّص لائحة الطعام. ونظرت أنا إليها ذاهلاً، غير قادر على أن أقرِّر ما أريد أن أتناول. وكل ما كنت أفكِّرُ فيه هو هاركورت. إذن كان هاركورت ينكحهنَّ جميعاً! يا يسوع المسيح، كنت أتميَّزُ من الغيظ. أردت أكثر من أي وقت سابق أن أفعل شيئاً بهذا الخصوص. لعل موناهان هو الرجل المطلوب؛ لعله بدأ بنصبِ فخاخه للتو.

طلبتُ شيئاً لا على التعيين وجلست أنظر مهموماً إلى الآكلين.

قال أورورك " ما بالك؟ تبدو منقبضاً "

أجبته " أنا كذلك. لا عليك. سأتجاوز الحالة "

كنت طوال فترة تناول الطعام لا أنصت إلا جزئياً إلى ما يقوله أورورك. كنت أفكِّر في مونا طوال الوقت. تساءلت ماذا ستقول إذا ما ذكرت لها اسم هاركورت. يا لابن الحرام! ينكح كل مَنْ تمرُّ من أمامه ومن ثم كاد، وحقُّ المسيح، أن ينكحني ويطردني من عملي! يا لوقاحته! حسن، هاك نقطة أخرى مفيدة. إن الأمور تتسارع ...

استغرق مني التخلُّص من أورورك عدّة ساعات. فعندما يريد أن يتشبَّث بك يروح يسرد على مسامعك القصة تلو الأخرى، منزلقاً من واحدة إلى أخرى ببراعة فائقة. كنت دائماً أشعر بالاستنزاف بعد أن

twitter @baghdad_library

أقضي أمسية معه. كان مجرد الاستماع إليه يرهقني، لأني مع كل جملة يلفظها كنت أنتظر كطائرٍ مفترس لكي أتلقّفُها. ثم أنه كانت هناك دائماً فترات مقاطعة طويلة وتحركات بهلوانية من كل صنف ولون. أحياناً كان يجعلني أنتظر نصف ساعة أو أكثر في مكتب التلغراف وهو يقلّب بجدّ، وبجَلَدْ يثير حفيظتي، الملفات بحثاً عن تفصيل تافه. وكان دائماً، قبل أن يواصل سرد حكايته، يقوم بالتفاف طويلٍ ومتعرّجٍ، وذلك أثناء انتقالنا بين مكاتب التلغراف، بخصوص الموظف أو المدير أو عامل التلغراف في المكتب الذي غادرناه للتو. كانت ذاكرته عجائبية. ففي فروع المكاتب المائة أو أكثر المنتشرة في أرجاء المدينة كافة كان يعرف الموظفين كلهم بالاسم، وسجلات ارتقائهم من عملٍ إلى آخر، ومن مكتبٍ إلى آخر، وآلاف التفاصيل الحميمة في حياتهم العائلية. ولم يكن فقط يعرف أعضاء الهيئة الإداريّة كلهم - كان يعرف الأموات الذين كانوا يشغلون مناصبهم من قبلهم. بالإضافة إلى ذلك كان يعرف العديد من السُعاة، في المناوبات الليلية والنهارية. وكان صديقاً مخلصاً خاصة للقدامى منهم، وبعضهم كان قد خَدَمَ الشركة عدداً من السنين تقارب فترةَ خدمة أوروورك نفسه.

كنت قد تعلّمتُ الكثير جداً من تلك التفتيشات الليلية، أشياء أشكُّ في أن كلانسي نفسه كان يعرفها. وفي سياق تلك الجولات التي قمت بها مع أوروورك، اكتشفت أن عدداً غير قليل من الموظفين قد اتُّهِمَ في وقتٍ من الأوقات بالاختلاس. خلال مسيرة حياتهم المهنية المُزرية، الكونيّة المتعضّية. كان لأوروورك أسلوب خاص في التعامل مع تلك الحالات. كان غالباً ما يطلق لنفسه العنان بصورة مذهلة، معتمداً في

ذلك على قدرته على الحكم التي اكتسبها من خبرته الطويلة في التعامل مع أولئك الأفراد البؤساء. وأنا متأكد من أنَّ نصف تلك الحالات لم تكن معروفة إلا لأورورك. وحين كان يضع ثقته في الرجل كان يسمح له بأن يقوم بعملية ارتداد بطيئة، موضِّحاً، طبعاً، أنَّ المسألة ستبقى في طي الكتمان بينهما. أحياناً كان هذا العمل الخيِّر ينطوي على هدفٍ مزدوج. فبالتعامل مع الحادثة بتلك الطريقة الغريبة لم يكن فقط يضمن أن تستعيد الشركة كل ما سُرِقَ، وإنما، وبفضله، يصبح في الإمكان منذ ذلك الحين الاتكال على الضحية لتقوم بدور العين، التي يمكن دفعها إلى الصراخ والصريف عند اللزوم. وفي البداية، حين كنت أتساءل لماذا يُبدي أورورك كل ذاك الاهتمام بأشخاصٍ حقيرين معيَّنين، أكتشف أنهم من الفئة الضائعة التي كان أورورك قد حوَّلها إلى أدوات مفيدة. وفي الحقيقة، لقد عرفتُ شيئاً واحداً عن أورورك فسَّرَ لي كل التباسٍ يكتنف سلوكه الغامض: وهو أنَّ الأشخاص الذين لم يكرِّس لهم إلا أقل وقت واهتمام كان لهم بعض الأهمية في مخطَّط حياته الكونيّة المتعضّية.

على الرغم من أنه كان يوحي وكأنَّ أجنحةً مُسرعةً ترفرف من حوله، وعلى الرغم من أنَّه كثيراً ما كان يتصرَّف كأحمق وجاهل، على الرغم من أنَّه بدا كأنَّ كل ما كان يفعله هو أن يضيِّع وقته، إلا أنَّ كل ما قاله وفعله كان له في الحقيقة تأثير حيوي على العمل الذي يقوم به. زيادة على ذلك، لم تكن هناك أي قضية تشغله بها حصراً. كان يعزف على قيثارة بمائة وتر. لم تكن هناك قضية ميئوس منها بالنسبة إليه بحيث يتخلّى عنها. قد تشطبها الشركة من سجلّها - أما أورورك فلا يفعل.

twitter @baghdad_library

كان يتَّصف بصبرٍ لا ينضب جدير بفنان، وأيضاً بإيمانه بأنَّ الزمنَ يعمل لصالحه. لم تكن هناك مرحلة من الحياة لم يكن متآلفاً معها. وبمناسبة الحديث عن الفنان، يجب أن أعترف بأنَّه ربما كان في ذلك المجال الأقلّ ثقة في نفسه. كان في إمكانه أن يقف وينظر إلى إنجازٍ Pompier (مُدَّعٍ) في واجهة متجرٍ تنويعي بعينين تترقرقان بالدموع. كانت معرفته بالأدب شبه منعدمة. ولكن إذا ما تصادف مثلاً وحكيت حكاية راسكولنيكوف، كما بسطها علينا دوستويفسكي، فإني سأحصد حتماً ملاحظات ثاقبة. وفي الحقيقة، ما دفعني إلى المحافظة على صداقته هو قرابته، إنسانياً وروحياً، لكتَّاب من أمثال دوستويفسكي. وكانت معرفته بالعالم السفلي قد رقَّقت حاشيته ووسَّعت مداركه. وقد أصبح رجل مباحث بسبب اهتمامه الخارق بأخيه الإنسان وتعاطفه معه. لم يسبب لأي إنسان أي ألم غير ضروري دهره. كان دائماً يمنح صديقه فرصة الشك الرحبة. ولم يضمر أي ضغينة ضد أي إنسان، مهما فعل ذلك الإنسان. كان يسعى إلى فهم البشر، وسبر أغوار دوافعهم، حتى وإن كانت من أسفلها. وفوق ذلك كله. كان موثوقاً فيه ثقة عمياء. إذا أُعطي كلمة التزم بها مهما كلَّفه ذلك من ثمن. ولا مجال لرشوته. ولا أتصور أي إغواء يمكن أن يوضع في طريقه ليلهيه عن أداء واجبه. وثمة نقطة أخرى، في رأيي، تُحسَب لصالحه، هي أنه كان دائماً يفتقر إلى الطموح. ولم تكن لديه أدنى رغبة في أن يكون غير ما هو عليه. كان يكرِّس نفسه قلباً وروحاً لعمله، وهو يعلم أنَّ هذا الجهد لا يُقابَل إلا بالجحود، ويعلم أنَّه يُستَغَلُّ وتُساء معاملته على يد منظَّمة لا قلبَ لها ولا روح. ولكن، وكما كان قد سبق وعلَّقَ قائلاً ذات مرة، مهما كان

موقف الشركة فهو لا يهمّه. ولا يهمّه أيضاً، في حال قدَّمَ استقالته، أن يحطِّموا كل ما اجتهد في بنائه. وعلى الرغم من أنَّه لم يحمل أي أوهام، إلا أنَّه كان يبذل أقصى طاقته لتلبية أي طلب يُطلَب منه.

أورورك هذا كان مخلوقاً فريداً من نوعه. أحياناً كان يسبب لي إزعاجاً عميقاً. ولا أظن أنّي عرفتُ أحداً قبله أو بعده جعلني أشعر كما فعل هو بأني غاية في الشفافية. ولا أذكر أحداً غيره كان يمتنع باعتدال جمّ عن توجيه نصيحة أو نقد. كان الوحيد ممّن عرفتهم الذي جعلني أدرك معنى أن أكون متسامحاً، وأن أحترمَ حرية الآخر. يبدو لي غريباً، الآن وأنا أفكر في الأمر، كيف كان يرمز بعمقٍ إلى القانون. ليس بمعناه الحقير الذي يستخدمه الإنسان لبلوغ غاياته الخاصة، وإنما القانون الكوني المبهم الذي لا يكفّ أبداً عن العمل، الصامد والعادل، وبالتالي الأكثر رحمة بلا جدال.

كنت، وأنا مستلق على السرير وبكامل يقظتي، وبعد أمسية كتلك، كثيراً ما أتساءل ماذا كان أورورك سيفعل لو أنه في مكاني. وفي محاولةٍ لتبادل مكانينا تبدّى لي أكثر من مرة أنّي لا أعرف شيئاً عن حياة أورورك الخاصة. لا شيء على الإطلاق. لم أعرف أنَّه متملِّص - لم أستطع أن أقول هذا. كان رأسي فارغاً تماماً. الموضوع بصورةٍ ما لم يخطر ببالي قط.

لا أدري لماذا فكّرت هكذا، ولكن انتابني شعورٌ بأنَّه خلال فترةٍ من الماضي البعيد عانى من خديعة كبرى. من حبٍ مُحبَط، ربما.

وكائناً ما كان ذلك الشيء، إلا أنه لم يؤثِّر فيه. لقد تخبَّطَ قليلاً ثم شفي. غير أنَّ حياته كانت قد تغيَّرت إلى الأبد. وبعد أن جمعت

twitter @baghdad_library

المعلومات الصغيرة كلها معاً، ووضعت الرجلَ الذي عرفته في ناحية، وفي الناحية الأخرى الرجلَ الذي كنت ألمحه بين حين وآخر (وهو مستغرقٌ في الذكريات) وأجريت مقارنة فيما بينهما، فوجدتُ أنَّ من المستحيل أن أُنكِرَ أنهما شيئان مختلفان تماماً. تلك الخِصال الصارمة والأصيلة كلها التي اتّصَفَ أورورك بها كانت أشبه بأدواتٍ واقية، يتلبَّسها ليس من الخارج وإنما من الداخل. لم يكن لديه أي سبب يدعوه إلى الخوف من العالم. لقد كان فيه ومنه، بكل كيانه. أما في وجه حُكم القدر فكان عاجزاً.

قلت في نفسي وأنا مغمض العينين، غريبٌ أن يبقى الرجل الذي ينبغي أن أدين له بالكثير كتاباً مختوماً. استطعتُ فقط أن أتعلّم من سلوكه وقدوته.

غمرتني موجةٌ من الرقة. وفهمتُ أورورك بصورةٍ أفضل مما فعلتُ من قبل. فهمتُ كل شيء بوضوحٍ أشد. فهمتُ للمرة الأولى معنى أن أكون "مُرهفاً".

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث عشر

هناك أيامٌ تكون فيها عودةُ الحياةِ مؤلمة ومُقبضة، حين يغادر المرء عالمَ النومِ رُغماً عنه. إنَّ كل ما يحدث هو إدراكُ أنَّ الواقعَ الأعمقَ والحقيقي أكثر ينتمي إلى عالم اللاوعي.

لذا في صباح أحد الأيام فتحت عينيّ لا إرادياً، وأنا أصارع مسعوراً كي أعود فأغوص في حالةِ النعيم تلك التي غمرني بها الحلم. وقد أحزنني كثيراً أن أجد أني يقظ حتى كادت الدموع تطفر من عيني. فأغمضت عينيّ وحاولت أن أغوص عائداً إلى العالم الذي قُذفتُ منه بقسوة شديدة. ولكن بلا فائدة. جرّبت كل أداة سمعت عنها لكني عجزت عن أداء الخدعة كعجز المرء عن إيقاف رصاصة منطلقة وإعادتها إلى حجيرة المسدس الفارغة.

إلا أنَّ ما تبقّى كان شذا الحلم: فتوانيتُ فيه بابتهاجٍ حسّي. لقد أُنجِزَ هدفٌ عميق، ولكن قبل أن يُتاح لي الوقت لكي أستشفَّ مغزاه كان اللوح قد مُسِحَ ودُفِعْتُ إلى الخارج، إلى عالمٍ الحلُّ الوحيد لكل ما فيه هو الموت.

لم يتبقَّ في رأسي غير بضع مُزَق ملموسة، تشبَّثت بها بنهم كتشبُّث الفقير بالفُتات التي يجمعها عن موائد الأغنياء. غير أنَّ الفُتات التي

سقطت عن مائدة النوم كانت أشبه بحقائق سقيمة في جريمة يتعيّن ألاّ يبقى حلُّها غامضاً. تلك الصور المتقطِّرة التي يخطفها المرء، أثناء استيقاظه، عبر عتبة الباب كمهرِّب خفي، تمرُّ بتحولات مفجعة جداً وهي على الجانب القريب. إنها تذوب كالمثلجات في يومٍ قائظ من شهر آب. ومع ذلك، وأثناء اندماجها في الصهارة البدائية التي تكوِّنْ مادة الروح ذاتها، تبقى عقدةٌ غير واضحة من التذكُّر - إلى الأبد، كما يبدو - الحدود المعتمة والناعمة لمسارٍ متَّصل، واضح وحسّاس، تنتقل عليه وتحقق، ليس وجودها، بل واقعها. واقع! ذاك الذي يعانقُ الحياة، ويعزِّزها ويسمو بها. داخل هذا الدفق يتوق الإنسان إلى العودة والبقاء إلى الأبد غائصاً.

ماذا تبقّى إذن من ذلك العالم الخالد الذي أفقت منه في صباحِ ذات يوم وأنا مثخن بالجراح اللطيفة التي أوقف نزيفها بمهارة فائقة أثناء الليل؟ إنه وجه مَنْ أحببتُها وفقدتُها! أونا غيفورد. ليس أونا التي عرفتها، بل أونا التي عملَقَتْها سنواتٌ من الألم واليأس إلى أبعادٍ مخيفةٍ من الجمال. كان وجهها قد أضحى أشبه بوردة ضخمة غارقة في الظلام؛ مثبَّتاً بوهجه الخاص الغامر. كل تلك الذكريات عنها التي احتفظت بها بغيرةٍ وحشرتها قليلاً، كالتبغ المضغوط تحت إصبع مدخِّن الغليون، أحدثت فجأة تجميلاً عفوياً سريع الاحتراق. وزاد من شحوب بشرتها الوهج الرخامي الذي أيقظه جمر الذاكرة المستكين. والتفتَ الرأسُ ببطء على العنق الذي لا يكاد يظهر. وكانت الشفتان منفرجتين عطشاً؛ كانتا تضجّان بحيوية خارقة وحساستين، وكأنَّه رأسٌ منفصلٌ لشخصٍ حالمٍ يسعى بعينين مغمضتين إلى استقبال شفتين نهمتين

twitter @baghdad_library

لشخصٍ استُدعيَ من مكانٍ بعيد، وكتلافيف النباتات الغريبة التي تتمعَّج وتذوي في الليل، تتلاقى أخيراً شفاهنا بعد بحث مضنٍ، وترأبُ الجُرحَ الذي كان حتى ذلك الحين لا يني يدمي، وتشفيه. كانت قُبلةً أغرقت كل ذكرى للألم؛ أوقفت النزيف وشفت الجرح. استمرَّت زمناً أبدياً، فترة لا تنسى، وكأنما بين حُلمين منسيين. ومن ثم، وكأنَّ تضاعيف الليل وقفت حائلاً رقيقاً بيننا، تباعدنا وتبادلنا التحديق كلٌ في الآخر، نخترق غلالات الليل المنهمرة بتحديق واحد منوِّم. وكما حدث من قبل أن التصقتْ الشفاه الرطبة معاً - كبتلات أزهار هشّة وخفيفة تتقاذفها عاصفة -كذلك الآن تعانقت العيون، التحمت بفعل تيار الإدراك الكهربائي الذي طال كبحه. وفي كلتا الحالتين لم يكن هناك أدنى عمل للقدرات العقلية: كل شيء تمَّ بعيداً عن التفكير والإرادة. كان أشبه باتحاد مغناطيسين من طرفيهما الرماديين؛ وأخيراً اجتمع الجزءان اللذان طال بحثهما. في هذا الالتحام الساكن، والمشحون ظهرَ إحساسٌ آخر تدريجياً: ترجيع صوتنا العتيق. صوت يتكلَّم ويرجِّع صوته في وقتٍ واحد: بنبرة ذات شعبتين بدت في أول الأمر أشبه باستجواب لكنها كانت دائماً تتلاشى كارتطامٍ ممتع لموجةٍ على الصخور. كان صعباً في أول الأمر إدراكُ أنَّ هذا الحوار الإفرادي هو في الواقع نتيجة زواج صوتين واضحين؛ كان أشبه بعبثِ نافورتين ترسلان وتستقبلان من منبع واحد وباندفاعٍ واحد.

ثم فجأة قوطِعَ كل شيء، إذ فجأة، وكحركةِ رملٍ مبلل ينزلق من الضفة العليا، تدفقت مادة حالكة السواد، مخلِّفة طبقة رقيقة خادعة بيضاء لامعة تطأها قدمٌ غافلة وتسحقها حتى الموت.

كانت فترة من الميتات الصغيرة، وكلها غير مؤلمة، وكأنَّ الحسّ كان فتحات آلة أرغن كثيرة جداً ويداً خفيّة ومُحسنة، خنقت، وهي شاردة، الهواء.

هل هي تقرأ الآن - فقرات مألوفة من كتاب لابد أني قد قرأته. إنها متمدِّدة على بطنها، ومرفقاها منحنيان، ورأسها مستند إلى راحتيّ يديها. إنني أواجه جانب وجهها وبياض لحمها العكِر مكسو بإحكامٍ ويفوح عطراً. الشفتان كزهرتيّ إبرة الراعي مرضوضتين ن كبتلتين مثبَّتتين بشكل رائع تتفتَّحان وتنغلقان. الكلمات متخفّية شجيّة؛ تصدُرُ عن صندوق مصوِّت مصنوع من الدوفتين[٦٤].

لم ألاحظ أنها لم تكن تقرأ لي وإنما لشاب يستلقي إلى جانبها إلا حين عرفت أنها ليست كلماتي أنا، كلمات لم تُدوَّن أبداً على الورق بل كُتِبَتْ في الذاكرة. إنه يستلقي على ظهره ويدفع نظره إلى وجهها بانتباهٍ وتكريس. ليس هناك غيرهما. ولا وجود للعالم بالنسبة إليهما. ليست المسافة ما تفصلني عنهما بل فجوةٌ بحجمِ العالم. لم يعد ممكناً التواصل معهما؛ إنهما يسبحان في الفضاء على ورقة لوتوس. الصِلَةُ مقطوعةٌ بيننا. أحاول يائساً أن أبثّ رسالة عبر الفراغ، أن أُعلِمها على الأقل بأنَّ الكلمات الساحرة هي من كتاب حياتي الذي لم يخرج إلى الحياة بعد. لكنها بعيدة نائية. وتستمر القراءة وتتصاعد نشوتها. أنا ضائع ومنسيّ.

ثم تدير كامل وجهها، برهة قصيرة، نحوي، العينان لا تبديان أي إشارة تعرُّف. العينان منكفئتان نحو الداخل، وكأنما في تأمُّلٍ عميق.

---

٦٤ - الدوفتين: نسيج مخملي. - المترجم

twitter @baghdad_library

استدارة الوجه ذهبت؛ وأصبحت حدود محيط الجمجمة جليّة. ما زالت جميلة، لكنه لم يعد جمال فتنة النجمة والجسد، بل الجمال الوهمي لروحٍ مخنوقة تبرز مهيبةً ومزركشةً من موشور الموت. وتمرُّ غمامةُ الذاكرة المسرعة فوق خريطة قسمات وجهها الحادّة الفارغة. هي التي كانت تضجُّ بالحياة، مجسّدة، زهرة معذَّبة في صدع الذاكرة، الآن تتلاشى كالدخان المنبعث من إمبراطورية النوم. ولم أدرِ إن كنت أنا نفسي قد متُّ ووجدتها في الطرف الآخر، نائمة وتحلم. وخلال لحظة من الوقت تقاطعَ دربانا، واكتملَ الاتحاد، وشُفيَ جرح الماضي. وسواء أكنا مجسّدين أم غير مجسَّدين، إلا أننا أصبحنا حينئذ ندور في الفضاء، كلٌ في مداره، كلٌ تصحبه موسيقاه الخاصة. وكان الزمن، بقافلته من الآلام، والأحزان، والفراق، قد انطوى؛ وعدنا من جديد إلى المدى اللازمني، متباعدين، لكننا لم نعد مفترقَين. كنا ندور كالكويكبات، ندور في مروجِ النجوم المُطيعة. لم يكن هناك غير الرنين الأخرس للأشعة المرصّعة بالنجوم، والتصادم البرّاق للريش المحوِّم يضطرب بتلألؤ يومض على الموسيقى التصويرية النارية للعوالم الملائكية.

عندئذ عرفت أني قد عثرت على النعيم، وأنَّ النعيم هو العالم، أو حالة العالم، حيث يسود الخلق. وعرفت شيئاً آخر، وهو أنه إذا كان ذلك حلماً فسوف ينتهي، وإذا لم يكن حلماً ...

كانت عيناي مغمضتين وكنت داخل غرفة، الغرفة نفسها التي نمتُ فيها في الليلة الفائتة.

سوف يُرضي الآخرين أن يسمُّوه حلماً. ولكن ما هو الحلم؟ مَنْ الذي مرَّ بتجربةِ ماذا ؟ وأين ومتى؟

تخدَّرَتُ بفعل البهاء المتلاشي لرحلتي الطيفية. لم يعد في مقدوري أن أعود أو أن أغادر. استلقيتُ في الفراش وعيناي شبه مغمضتين وأنا أسترجع سلسلة الصور التي يستحضرها النعاس ومرَّت كحرَّاسٍ من الأشباح ينتقلون من محطة إلى محطة على طول تخوم النوم. وتزاحمت ذكريات صور يقظة أخرى، مخلِّفة بقعاً قاتمة عبر المسار الساطع الذي سبّبه مرور الأشباح المحلّية. كانت هناك أونا التي لوّحتُ لها بيدي مودِّعاً ذات يومٍ صيفيّ، وأونا التي أدرتُ لها ظهري، أونا التي تبعتني عيناها وأنا أسير في الشارع، وحين التفتُّ عند المنعطف شعرت بتينك العينين تخترقني نظرتهما - وعرفت أنه أينما ذهبت أو مهما حاولت أن أنسى، فإن تينك العينين المتضرِّعتين سوف تظلان مدفونتين إلى الأبد بين كتفيَّ. كانت هناك أونا أخرى أرتني غرفة نومها - بعد ذلك بسنين عديدة حين التقينا مصادفة في الشارع أمام منزلها. أونا التي تغيَّرت وأزهرت فقط في الحلم. أونا التي تنتمي إلى رجلٍ آخر، أونا المحاطة بنتاج الزواج. هذا الحلم الذي يتكرر، ممتعاً، تافهاً، مطمئناً. كان يتكرَّر بإفراطٍ ويظهرُ بدقّةٍ شبه رياضية. كنت أقف، يقودني صنوي، جورج مارشال، أمام منزلها، وأنتظر، كمختلس النظر، خروجها من المنزل مرفوعة الكُمِّين وتستنشق الهواء الطلق. لم تكن تعي وجودنا، على الرغم من حضورنا الواضح وضوح الحياة على مسافة لا تزيد على بضعة أقدام. وكان ذلك يعني أني أحظى بامتياز مراقبتها على هواي، وحتى مناقشة مزاياها مع مرافقي ودليلي. كانت دائماً تبدو كما عهدتها - السيدة المهيمنة بكامل ازدهارها. سوف أشبع منها ومن ثم أغادر بهدوء. سيكون الليل قد ساد وسوف أبذل جهداً يائساً لأتذكَّر اسم

twitter @baghdad_library

الشارع الذي لم أتمكن بصورة ما من العثور عليه بدون مساعدة. ولكن عند المنعطف، وأثناء بحثي عن اسم الشارع، يصبح الظلام حالكاً. وكنت أعلم أنَّ جورج مارشال سوف يمسك حينئذ بذراعي ويقول، كما يفعل دائماً، " لا عليك، أنا أعرف أين يقع ... سوف آخذك إليه بنفسي ذات يوم ". ومن ثم فجأة يفلت مني جورج مارشال، بديلي الحميم، وصديقي وخائني، وأجد نفسي وحيداً أجول باضطراب في أرجاءٍ مُقبضةٍ من حي كريه يعبق بجو الجريمة والشر.

أتنقَّل من حانة إلى حانة، وطوال الوقت أتلقّى نظرات الارتياب، وعبارات مهينة ومذلَّة، واللكم والرفس وكأني كيسٌ من الشوفان. وكنت أجدني باستمرار مرتمياً على الرصيف، والدماء تنزُّ من فمي وأذنيّ، ويداي تغطيهما الجراح، وجسمي قد أضحى كتلةً ضخمةً من الرضوض والكدمات. كان ثمناً رهيباً أضطرُّ دائماً إلى أن أدفعه مقابل امتياز مراقبتها وهي تستنشق الهواء الطلق. لكن الأمر كان يستحق العناء! وحين كنت أرى في أحلامي جورج مارشال يقترب، حين كنت أسمع الوعد الذي تنطوي عليه دائماً كلمات تحيَّته المطمئن، يبدأ قلبي بالخفقان بعنفٍ وأسرِّع خطوتي لكي أصل إلى أمام منزلها في اللحظة المناسبة. والغريب أني لم أتمكَّن من العثور على طريق العودة وحدي. والغريب أنه كان على جورج مارشال أن يكون دليلي إليها، ذلك أن جورج مارشال لم ير فيها إلا حزمة ممتعة من اللحم. غير أن جورج مارشال، المرتبط بي برابط خفيّ، كان الشاهد الصامت لدراما أنكرَتْها عيناه غير المصدِّقتين. وهكذا استطاع جورج مارشال في أحلامه أن يعيد النظر بعينين مندهشتين؛ هو أيضاً استطاع أن يجد قدراً من الرضا في إعادة اكتشاف نقطة افتراق طريقينا.

فجأة تذكَّرتُ أمراً كان قد غاب عن ذهني تماماً. فتحت عينيّ وكأنما لأحدِّق عبر فترة من الماضي البعيد وألمح زاوية من مشهد فارغ. أرى الفناء الخلفي، كما كان خلال فصل الشتاء الطويل، وأغصان أشجار الدرداء السوداء تتخللها الثلوج، والأرض قاسية وجرداء، والسماء مبقَّعة بالزنك واللودانوم[٦٥]. إنني السجين في منزلِ الحب الموضوع في غير مكانه. أنا أوغست أنغست يربّي لحيةً توحي بالكآبة. أنا كسول كل ما يفعله أن يقذف حيوانات منوية إلى مبصقةٍ من الكرب. إنني أحقِّق الرعشات الجنسية بعنف شديد. أعضُّ اللحية التي تغطي فمها كالطحلب. وأنا أمضغ قطعاً كبيرة من كآبتي الخاصة ثم أبصقها كما يفعل سمك الروش.

ينصرم فصل الشتاء كله على هذا المنوال - إلى أن يأتي يومٌ وأعود إلى المنزل لأجدها مستلقية على السرير وسط بركة من الدماء. وعلى طاولة الزينة جثةُ آلامٍ في الأسنان عمرها سبعة أشهر تركها الطبيب ملفوفة بمنشفة. إنها أشبه بقزمٍ، بشرته حمراء قانية، وله شعر وأظافر. يستلقي لا يخفق في صدره نَفَس في درج طاولة الزينة، حياة نُزِعَت من قلبِ الظلام لتُقحَم من جديد إلى الظلام. لا اسم له، ولا أحبَّه أحد، ولم يحزن عليه أحد. لقد اقتُلِعَ من جذوره ولو أنه صرخَ لما سمعه أحد. والحياة التي كانت فيه عيشت وضاعت في النوم. وكان موته مجرد انغماسٍ أكثر، وأعمق، في ذاك النوم الذي لم يَفِقْ منه أبداً.

أنا واقف عند النافذة، أحدِّق بنظرة فارغة عبر الفناء الأجرد إلى النافذة المقابلة. ثمة شكل يتنقَّل بحركة غامضة رائحاً غادياً. أثناء

٦٥ - اللودانوم : صبغة الأفيون . - المترجم

twitter @baghdad_library

متابعتي له بتحديقٍ فارغ إذا بذكرى باهتة تتحرك، تخفق، ثم تخرج. تُركتُ أتخبط في مستنقعٍ من الأوهام. وقفت متجهماً ومنتصب القامة، كأَني في حالة تخشُّب الموتى. أنا ملك السليكون وعالمي يتضمَّن كل ما هو فاقد اللمعان ومتآكل.

كارلوتا تستلقي بشكل مستعرض على السرير، قدماها تتدليان عبر حافته. سوف تظل مستلقية هكذا إلى أن يأتي الطبيب ويعيدها إلى الحياة. وسوف تأتي صاحبة المنزل وتبدِّل الأغطية. وسوف يتم التخلُّص من الجثة بالطريقة المعتادة. سوف نؤمَر بأن ننتقل إلى مكان آخر، وسوف تُبَخَّر الغرفة، وستقيَّد الجريمة ضد مجهول. وسننتقل إلى مكان آخر فيه سرير، ومدفأة، وخزانة بأدراج. سوف نمرُّ بالروتين نفسه، من أكل، ونوم، وتناسل، وشراء. وسوف يفسح أوغست أنغست الطريق لتريسي المكسور القلب. سوف يكون فارساً عربياً ذا أير مرهق وبارد. لن يأكل غير البهارات والتوابل، وسوف يسفح بذوره بتهوُّر. سوف يترجَّل، ويطوي أيره كسكين مطواة، ويتّخذ مكانه مع جياد الاستيلاد المفرَّغة.

ذلك الشكل الذي يتحرَّك بسرعة جيئة وذهاباً - كان أونا غيفورد. بعد ذلك بأسابيع عدة، بعد أن انتقلت مع كارلوتا إلى شقة أخرى، التقينا في الشارع أمام بيتها. ارتقيتُ الدرج معها ومكثت ربما مدة نصف ساعة، وربما أكثر، ولكن كل ما أتذكره من تلك الزيارة هو أنها أخذتني إلى غرفة النوم وأرتني السرير، سريرهم الذي كان قد ولد عليه طفل.

بعد ذلك بوقتٍ ليس بطويل نجحت في الهرب من بين براثن كارلوتا المفترسة. وقبل انتهاء أمري معها كنت أقيم علاقة مع مود. وعندما

تزوجنا بعدها بثلاثة أشهر حدث لقاء غير متوقع على الإطلاق. فقد كنت قد ذهبت إلى السينما وحدي ذات ليلة. أي أني اشتريت بطاقة دخول وولجت دار العرض. واضطررت إلى أن أنتظر بضع دقائق في آخر القاعة ريثما أعثر على مقعد. وفي الضوء الخافت اقترب مني المرافق حاملاً مصباحاً. كان كارلوتا. قالت، وهي تطلق صرخة صغيرة وكأنها حيوان جريح " هاري! ". كانت من فرط الدهشة بحيث عجزت عن التفوّه بأي كلمة. ظلت تنظر إليّ، تنصت بعينين بنّيتين كبيرتين رقراقتين. عجّلتُ فانكمشت تحت وطأة ذلك الاتهام الصامت والثابت. أخيراً قالت " سأجد لك مقعداً "، وبينما هي تقودني إلى أحد الأمكنة غمغمت في أذني " سأحاول أن أنضم إليك لاحقاً ".

أبقيت عينيَّ مثبّتتين على الشاشة لكن أفكاري كانت تتسارع كحريقٍ هائل. ولابد أني قد جلست هكذا ساعات طوال، وذهني يكرُّ الذكريات. وفجأة شعرت بها تنزلق إلى جانبي على المقعد، وتقبض على ذراعي. وبسرعة تسللت يدها إلى يدي وبينما هي تعصرها نظرتُ إليها فرأيت الدموع تتدحرج على وجنتيها. همست " يا إلهي، يا هاري، لم أرك منذ ومن بعيد "، وبهذا امتدت يدها إلى ساقي وقبضت عليها باشتياق مشبوب فوق منطقة الركبة مباشرة. وسرعان ما فعلت الشيء نفسه، وجلسنا ونحن هكذا بعض الوقت، يلفُّنا الصمت، وعيوننا تحدِّق تحديقاً فارغاً إلى الشاشة الوامضة.

على الفور غمرتنا موجة من الولَه وتلمّست أيدينا مسعورة طريقها إلى اللحم الملتهب. وبالكاد كنا قد أنهينا تلامسنا حين انتهى بثّ الصورة وأنيرت الأضواء.

twitter @baghdad_library

قلت، ونحن نتعثَّر في خطانا بين الكراسي، " سأوصلك إلى المنزل". كان صوتي ثخيناً ومبحوحاً، وحنجرتي جافة، وشفتاي محمّصتين. أحاطت ذراعي بذراعها، وحفّت فخذها بفخذي. مشينا نترنَّح نبغي باب الخروج. وفي البهو توقفت برهة لتنثر البودرة على وجهها. لم تكن قد تغيَّرت كثيراً؛ عيناها أصبحتا أوسع، وأكثر امتلاءً بالحزن. كانتا براّقتين وآسرتين. وكانت ترتدي ثوباً بلون خبّازي ضيقاً قليلاً، ذا قماشٍ رقيقٍ يُظهِرُ مزايا قوامها. نظرت إلى قدميها فتذكرت فجأة أنهما كانتا صغيرتين ولدنتين، قدمين رشيقتين لشخصٍ لن يعرف الشيخوخة أبداً.

في سيارة الأجرة شرعتُ أقصُّ عليها ما حدث منذ أن هربتُ منها، لكنها وضعت يدها على فمي وناشدتني بصوتٍ منخفض أجشّ ألا أحكي أي شيء قبل أن نصل إلى المنزل. ثم قالت، وما تزال تضع يدها على فمي: " أنت متزوج، أليس كذلك؟ ". أومأتُ إيجاباً. غمغمتْ " كنت أعرف ذلك "، ثم سحبت يدها.

في اللحظة التي تلت طوّقتني بذراعيها، وأخذت تقبّلني بشبق، وهي تنشج الكلمات -" هاري، هاري، ما كان يجب أن تعاملني كما فعلت. كان يمكن أن تصارحني بكل شيء ... كل شيء. كنتَ شديد القسوة معي يا هاري. ودمَّرتَ كل شيء "

قرَّبتها إليّ، وأنا أشدُّ ساقها وأراكبها فوق ساقي ومرَّرت يدي بسرعة على ساقها إلى أن استقرَّت في منفرج ساقيها. وفجأة توقفت السيارة فتباعدنا. تبعتها مرتقياً إلى الرواق أمام الباب وأنا أرتجف، لا أدري ماذا أتوقع بعد أن نصبح في الداخل. وحالما انغلق باب المنزل

خلفنا همستْ في أذني قائلة إن عليَّ أن أتحرَّك بصمت. " يجب ألا تدع جورجي يسمعك، إنه شديد المرض ... أخشى أنه يحتضر "

كانت الظلمة الحالكة تغمر الصالة. وكان لابد لي من أمسك يدها وهي تقودني ونحن نرتقي مجموعتين طويلتين من الدرج الملتوي تؤديان إلى العلِّية حيث كانت تقضي هي وابنها أيامهما.

أشعلت مصباحاً خافتاً وأشارت إلى الأريكة وهي تضع سبابتها على شفتيها. ثم وقفت ووضعت أذنها على الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة وهي تنصت بانتباه لكي تتأكَّد من أن جورجي نائم. أخيراً اقتربت مني على أطراف أصابع قدميها وجلست إلى جانبي بحذر شديد على حافة الأريكة. همست " كُنْ حذراً؛ إنها تصرٌّ "

كنت من فرط الارتباك حتى أني لم أهمس ولا حركْتُ عضلة في جسمي، ولم أجرؤ على التفكير فيما قد يفعله جورجي إذا ما شاهدنا جالسين هكذا. وها هو يحتضر الآن. أخيراً. نهاية مفجعة. وها نحن هنا جالسين كموميائين مذنبين في علِّية تنمُّ عن فقر مدقع. قلت في نفسي، ومع ذلك فلعلَّ من حسن الحظ أن هذا المشهد الصغير لا يمكن أدواؤه إلا بصوت منخفض. يعلم الله أي نوع من كلمات التعنيف الشديد ستنهال بها عليه فيما لو أنها كانت قادرة على التحدُّث بصوت عال.

ناشدتها بحركات إيمائيّة " أطفئي النور! ". ولما نهضت مذعنة أشرتُ إلى الأرض لأدلَّ على أني سأستلقي على الأرض بجانب الأريكة. وبعد قليل انضمَّت إليّ على الأرض. كانت واقفة في الزاوية تنزع عنها ملابسها خلسة. تابعتها على الضوء الخافت المتسرِّب من خلال النوافذ. وحين مدَّت يدها لتتناول بطانية تدثَّر بها عريها أسرعتُ بفكّ أزرار فتحة بنطالي.

twitter @baghdad_library

كان صعباً أن أتحرَّك بدون أن أصدر صوتاً. وبدت هي مذعورة من فكرة أنَّه يمكن لجورجي أن يسمعنا. وفهمت أنَّه كان يريحها أن تُحمِّلني مسؤولية معاناته. وفهمت أنَّها قد أذعنت بصمت وأنَّ رعبها الآن هو تراجعٌ عن الرعب المطلق من الخيانة.

أن نتحرَّك بدون أن نتنفَّس، أن ننضفر معاً كفتَّحتيّ قناني، أن نتناكح بولَه كما لم نفعل من قبل ولا نصدر أي صوت مع ذلك، كان يتطلَّب مهارةً وصبراً وكان جديراً بنا أن نسترسل فيه بشكلٍ يثير الإعجاب لولا أن أمراً آخر كان يجري ترك أثره البالغ عليّ ... كانت تبكي دون دموع. كان في إمكاني أن أسمع الدموع تقرقر في داخلها كالماء في المرحاض الذي لا يكفُّ عن الجريان. ومع أنها توسَّلت إليّ بهمسٍ خائف ألا أقذف، وأنها لا تستطيع أن تغتسل بسبب الضجة، لأن جورجي موجود في الغرفة المجاورة، على الرغم من أني كنت أعلم أنها من النوع الذي يتم القبض عليه بمجرد البحث البسيط عنه، وأنه إذا ما قُبِضَ عليها فسيكون الوضعُ معها أسوأ، وبسبب بكائها الأخرس، ولأني أردت أن أضع حداً للقرقرة رحتُ أقذف مرة بعد أخرى. وهي أيضاً كانت تنتقل من رعشة جنسية إلى أخرى، مُدركةً في كل مرة أني سأقذف عياراً في رحمها، ولكن لم يكن في يدها حيلة. لم أخرِج أيري مرةً واحدة. كنت أنتظر بهدوء حمّام الإبرة المجيبة، ثم أحشره كله كالخرطوشة، وأفجِّره في الرطوبةِ الكهربائية لظلمةِ فوهةٍ ذات شفتين ناعمتين لثمرةِ أرضي شوكي. كان يكتنف الأمر شيء منفصل بشكلٍ شيطانيّ، وكأني مهووس بإضرام الحرائق جالس في كرسيّ مريح في بيتي الخاص، بعد أن أضرمت فيه النار بيديّ، وأنا أعلم أني لن أتزحزح

من مكاني إلى أن يبدأ الكرسي نفسه الذي لأجلس عليه يئزُّ بفعل النار ويشوي طيزي.

حين خرجتُ أخيراً إلى مسطبة السلّم في الخارج ووقفت أعانقها للمرة الأخيرة، همست قائلة إنها تحتاج إلى نقود لدفع قيمة الإيجار، وتوسّلت إليّ أن أحضر لها المبلغ في الغد. ثم، حين هممتُ بهبوط الدرج، شدّتني إليها ثانية، وألصقت شفتيها على أذني وهمست " لن يبقى حياً أكثر من أسبوع! ". هذه الكلمات وصلتني كأنما من خلال مكبِّر للصوت. وإلى يومي هذا، وأنا أستعيد ما حدث، أكاد أسمع الصفير الناعم لاندفاع الهواء المصاحب لضجيج صوتها الذي لا يكاد يُسمَع. وكأنَّ أذني نبتة هندباء برية وكل شوكة صغيرة هي هوائيّ يلتقطُ الرسالة ويعيد بثّها إلى سطح عقلي حيث تنفجر بطرطشة مكتومة كما من مدفعٍ قذّاف. وطوال مشواري إلى المنزل كنت أقول لنفسي " لن يبقى حياً أكثر من أسبوع! "، ردّدتها ألف مرة وأكثر. وفي كل مرة علّقتُ على هذه اللازمة تراءت لي صورةٌ واضحة للخوف - صورة رأس امرأة قَطَعَه إطارُ الصورةِ تحت منطقة فروة الرأس مباشرة. كنت دائماً أراه هو نفسه - وجهاً يلوح من قلب الظلام، والجزء العلوي من الرأس محصور داخل باب مسحور. وجهٌ تحيط به هالة من الكالسيوم، معلّقٌ بمجهوده الذاتي كما في الأحلام فوق حشدٍ غير مميَّز من المخلوقات الملتوية كالتي تعجُّ بها المناطق المستنقعية لمخاوف العقل القاتمة. ثم رأيت جورجي يولد - تماماً كما كانت قد روت لي ذات مرة. ولدَ على أرضية المرحاض الخارجي حيث كانت قد أوصدت الباب على نفسها داخله هرباً من أن يقع بين يديّ والده، الذي كان قد أعماه الإفراط في السُكر. رأيتها

twitter @baghdad_library

مكوَّمة على الأرض وجورجي بين ساقيها. وبقيا هكذا في مكانهما إلى أن غمرهما القمر بأمواج ضيائه البلاتيني الغامض. كم أحبَّت جورجي! كم تعلَّقت به! لا شيء كان يعزُّ على أثيرها جورجي. ثم اتجهت شمالاً بقطار الليل مع خروفها الأسود الصغير. كانت تجوع ليشبع جورجي، وتبيع نفسها لكي يلتحق جورجي بالمدرسة. كل شيء لأجل جورجي. وكنت أقول، بعد أن أباغتها " أراك تبكين. ما الأمر - هل عاد يسيء معاملتك ثانية؟ ". لم يكن جورجي ينفع في أي شيء. كان مملوءاً بالقيح. أحياناً كان يقول، ونحن الثلاثة جالسون في الظلام " همهمي لي ذلك اللحن ". ونبدأ بالهمهمة والدندنة، وبعد قليل يقترب جورجي منها، ويطوّقها بذراعه، ويبكي كالأطفال. ويقول مراراً وتكراراً؟ إنني لا أنفع في أي شيء لعين ". ثم يسعل ويسعل ولا يكفُّ عن السعال. كانت عيناه، كعينيها، واسعتين وسوداوين؛ تحدقان من وجهه الفارغ كحفرتين مشتعلتين. ثم رحل - إلى مزرعة - فتمنّيت أن يساهم ذلك في تحسين حالته. ثم ثُقبَتْ رئته، وبعدما شُفيَت هذه، ثُقبَتْ الأخرى. وقبل أن ينتهي الأطباء من القيام بتجاربهم كنت قد أصبحتُ أشبه بكومة من الأورام الخبيثة، تنتفخ استعداداً للانفجار، لتحطيم الأغلال، لأقتل أمه إذا ما لزم الأمر، أي شيء، أي شيء، المهم أن أضع حداً لوجع القلب، وللبؤس، وللمعاناة الخرساء. متى كَنَنَتُ لها أي حب حقيقي؟ متى؟ لم أتذكر. لقد كنت أبحث عن رحم دافئ ومريح ومن ثم أوقعت بي في المرحاض الخارجي، وحبست نفسي داخله، وراقبتُ القمر وهو يظهر ويختفي، ورأيت الكتل اللبنيّة تخرج تباعاً من بين ساقيها. فيبوس نعم، هذا كان اسم المكان! كان يقع بجوار مأوى الجنود العجزة. وكان هو، الآب والمغوي، آمناً خلف القضبان في حضن مونرو. كان هذا ما حدثَ فعلاً. وعندما لم يعد أحد ياتي على ذكر اسمه، كان

قد اضحى جثةً مسجّاة في تابوت في مكان قريب وقبل أن أدرك أنهم قد شحنوا جثته إلى الشمال، كانت قد دفنته - مع مراسم تشريف عسكرية! يا إلهي! كيف يمكن لكل شيء أن يحدث من خلف ظهر المرء - أثناء خروجك لتتمشّى أو ذهابك إلى المكتبة العامة لتبحث عن كتاب هام! رئة. رئتان عملية إجهاض ولادة جنين ميّت، رُجال ولادي[٦٦]، عدم توفّر عمل. تلاميذ داخليون، أوعية نقل الرماد، رهن الدراجات، والجلوس على السطح ومراقبة الحمام: هذه الأشياء والأحداث الوهمية تملأ الشاشة، تمرّ كالدخان، وتنسى، وتُدفن برميها في وعاء الرماد كأورام فاسدة، إلى أن... تضغط شفتان على أذن ملوّثة بالمادة الشمعية تنفجران بهدير هندباء برية يصمُّ الآذان، وعلى الأثر يعبُر أوغست أنغست، وتريسي " القلب المحطَّم " وتخشُّب الموت بحركةٍ مائلة سطح الدماغ ليتدلّوا من سماء تومض بالأشعة فوق البنفسجية.

في اليوم الذي تلا هذه الحادثة لا أعود إليها مع النقود، ولا أظهر بعد ذلك بعشرة أيام في الجنازة. ولكن بعد مرور ثلاثة أسابيع أشعر بأني مضطر إلى أن أفضي بما في صدري لمود. طبعاً لم أنطق بأي كلمة عن النكاح همساً الذي جرى على الأرض في تلك الليلة، لكني اعترفتُ بأني رافقتها إلى بيتها. لو كانت مود امرأة أخرى لاعترفتُ لها بكل شيء، ولكن ليس لمود. وما حدث هو أنها، على قِلّة ما بحتُ به، سرعان ما تيبّست كمهرة خائفة. وكفّت عن الإنصات - اكتفتْ بانتظاري حتى أنتهي لكي تستطيع أن تقول بنبرة باتّة وحاسمة - كلا!

إنصافاً لها أقول إنه كان من قبيل الجنون أن أتوقع منها أن توافق

٦٦ - الرُجال الولادي : ورم مؤلم في الرجل يظهر عند الولادة . - المترجم

twitter @baghdad_library

على اقتراحي. فما كان يمكن إلا لامرأة فريدة من نوعها أن تقول نعم. ماذا أردتُ منها أن تفعل؟ وَلَوْ، أن تدعو كارلوتا كي تعيش معنا. نعم، أخيراً كان لابد لي أن أتوصَّل إلى النتيجة الخارقة التي مفادها أنَّ أفضل ما يمكن عمله هو أن أطلب من كارلوتا أن تشاركنا حياتنا وكنت أحاول أن أوضِّح لمود أني لم أحب كارلوتا دهري، وأني كنت فقط أشفق عليها، وأني لذلك أدين لها بشيء. ما أغربه من منطق ذكوري! خداع! خداع محض! لكني صدَّقتُ كل كلمة نطقتها. سوف تأتي كارلوتا وتحتل غرفة وتعيش حياتها الخاصة. وسوف نعاملها بلباقة، كملكة مخلوعة. لابد أنَّ كلامي قد بدا أجوفَ تماماً وزائفاً لأذن مود. ولكن لدى سماعي ترددات صوتي الخاص انتابني إحساسٌ جليّ بأني أسمع تلك الموجات الصوتية تخفِّف من القرقرة الفظيعة لمقعد المرحاض. ولما كانت مود قد اتَّخذت قرارها لتوها، وبما أنه لم يكن هناك مَنْ ينصت غيري أنا، وبما أن الكلمات كانت تقفز مرتدَّة كارتداد ثمار الباذنجان بعد ارتطامها بثمرة يقطين، تابعت بثّي، وأنا أزداد جدّية، واقتناعاً، وتصميماً باطراد على تنفيذ ما أريده. وتوافدت الأمواج، متراكبة، متلاطمة: هدوءٌ مقابل عنف، جيشانٌ مقابل هبوط، اعترافٌ مقابل إكراه، محيطٌ مقابل غدير. أطرحها، أغرقها، أدفنها، أقيم جبلاً فوقها! ورحت أتابع وأتابع، بحماسة، بحنق، بتواصل، بإرادة مفقودة، بحساسية، بسلاسة ... وطول الوقت كانت تصغي كصخرة، محصِّنةً قلبها الصغير المدجَّج بسترة داخلية، وبصندوق مفرقعاتها القصديري، وأحشائها المملوءة بفطائر اللحم، ورحمها المدخَّن.

كان الجواب كلا! اليوم، والأمس، وغداً - كلا! وألف كلا! إنَّ

تطورها كله الجسدي، والعقلي، والأخلاقي والروحي قد أوصلها إلى تلك اللحظة العظمى التي تستطيع عندها أن تجيب بانتصار: كلا! وألف كلا!

لو أنها اكتفت بالقول لي: " اسمع، لا يمكنك أن تطلب مني أن أفعل شيئاً كهذا! ألا ترى أنه جنون؟ كيف سنتفاهم نحن الثلاثة؟ أعلمُ أنك ترغب في مساعدتها - وكذلك أنا ... ولكن- "

لو أنها تكلَّمت بهذا الأسلوب لوقفتُ أمام المرآة، وألقيت نظرة مطوَّلة هادئة على نفسي، وضحكتُ كمفصلة مكسورة ووافقتها على أنَّ الأمر جنون مطبق. وليس هذا فقط، بلَ أكثر ... كنت قد صدَّقت أنها ترغب حقاً في أن تفعل شيئاً أعلم أنَّ روحها السقيمة عاجزة عن تصوّره. نعم، كنت قد رسمت لها علامة بيضاء بالطباشير وتوّجتُها بنكاحٍ مجنون وهادئ على طريقة هويسمن[٦٧]. كنت قد أجلستها على حجري، كما كان أبوها الذي في السماء يفعل، وأهدل لها وأداعب أنفها بأنفي، وأتظاهرُ بأن ٩٨٦ زائد ٢ يساوي ناقص٦٩. كنت سأرفع برقَّةٍ ثوبها الأورغندي الشفّاف الذي يغطي كل شيء، وأخمد النار بمطفئ نارٍ أثيريّ.

ولكن بدل ذلك، ولما وجدتُني أتبوَّل على جدارٍ من الصفيح المعدني المضاد للنار، اشتدَّ حنقي واندفعت خارجاً من المنزل في منتصف الليل ومشيتُ أبغي التوجُّه إلى كوني آيلند كان الطقس معتدلاً ولدى وصولي إلى الشارع العريض جلست على المنحدر وبدأت أضحك. فكَّرت في ستانلي، في الليلة التي قابلته فيها بعد إطلاقه من ثكنة أوغلثورب، ومن عربة الخيل المكشوفة التي استأجرناها وزجاجات البيرة المكوّمة على المقعد المقابل. وبعد أن أمضى ستانلي أربع سنوات في سلاح الفرسان

٦٧- جوريس كارل هويسمن (١٨٤٨ - ١٩٠٧) : روائي فرنسي . - المترجم .

twitter @baghdad_library

أصبح رجلاً من حديد. كان صلباً قلباً وقالباً كما لا يمكن إلا لبولوني أن يكون. كان في إمكانه أن يعضّ أذني حتى يقتلعها، لو أني تحدّيته أن يفعل، ولعله كان سيبصقها في وجهي. كان يحمل في جيبه عدة مئات من الدولارات وأراد أن ينفقها كلها في تلك الليلة. وقبل أن تنصرم تلك الليلة أذكر أنه لم يكن قد تبقّى معنا أكثر من إيجار غرفة نبيت فيها معاً في فندقٍ بالٍ يقع بالقرب من بورو هول. أذكر أنه أفرط في شرب الخمر إلى درجة أنه لم يكن قادراً على النهوض من السرير ليُفرغ مثانته - كان يكتفي بالاستدارة والتبوّل بتدفّقٍ ثابت على الجدار.

في اليوم التالي كنت ما أزال حانقاً. وفي اليوم الذي تلاه والذي تلاه. تلك الـ كلا! كانت تنهشني. كان يتطلّب دفنها آلاف الـ نعم. في ذلك الوقت لم يشغلني أي أمر حيوي. كنت أتظاهر بأني أكسب لقمة عيشي من بيع رفٍ من الكتب كان من المفترض أنها تحتوي على " أفضل ما أنتجه العالم من أدب ". لم أكن قد انحدرت بعد إلى مرحلة بيع الموسوعات. والجرذ الذي أدخلني في اللعبة كان قد نوّمني مغناطيسياً. بعت كل شيء وأنا في حالة غشية بعد الاستيقاظ من النوم المغناطيسي. كنت أحياناً استيقظ وفي رأسي أفكار لامعة، أي إجرامية قليلاً وهذيانيّة حتماً. على أي حال، كنت ما أزال أقفز من فرط جنوني، ما أزال حانقاً. وذات يوم استيقظت مع كلمة كلا! ما زال صداها يتردّد في أذنيّ. كنت أتناول طعام الإفطار، ثم تذكرت فجأة أني لم أمرّ قط على ابنة العم جولي أول من أتصلُ به. سوف أتصرّف بهدوء، أظهر لها فجأة قبيل موعد الغداء مباشرة، وأبيعها مجموعة من الكتب، وأتناول وجبة دسمة، وأدخل فيها طرفي ومن ثم أرتاد داراً للسينما.

كانت جولي تقطن في الجزء النائي من مانهاتن في محضنة جدرانها مكسوَّة بالورق. كان زوجها رجلاً أبله، بقدر ما كنت أعرفه، بمعنى أنه كان يمثل عيّنة عادية بكل معنى الكلمة يكسب لقمة عيشه بشرف ويصوِّت للائحة الحزب الجمهوري أو الديموقراطي حسب المزاج. وكانت جولي خرقاء طيبة القلب لم تقرأ دهرها أي شيء يسبب الاضطراب أكثر من صحيفة " ساترداى إيفننغ بوست ". كانت مجرد أنثى مثيرة، لديها من الذكاء ما يكفي لتدرك أنه بعد النكاح عليها أن تغتسل فإذا لم تنفع هذه الطريقة فعليها حينئذ أن تلجأ إلى إبرة الحياكة. وكانت قد لجأت إلى طريقة إبرة الحياكة كثيراً، حتى أنها أصبحت جيدة فيها. كان في استطاعتها أن تحدث نزيفاً حتى ولو كان حَبَلاً بلا دنس. كان هدفها الرئيسي أن تستمتع بنفسها كاستمتاع ابن عرس سكران وأن تخرجه من جسمها بأسرع ما يمكن. ولم تكن تتورَّع عن استخدام إزميل أو مفتاح إنكليزي، حسب ما تراه ملائماً لأداء لعبتها.

حين فتحت الباب ذُهلتُ. لم يخطر ببالي قط أنَّ عاماً أو نحوه من التغيير يمكن أن يترك كل ذاك الأثر على أنثى، ولا خطر ببالي كيف تبدو أغلب الإناث عند الساعة الحادية عشرة صباحاً حين لا يتوقّعن حضور زوار. وبدقة قاسية أقول، لقد بدت أشبه برغيف من اللحم البارد نثرت عليه صلصة بندورة وأعيد إلى الثلاجة. بدت جولي التي كنت قد رأيتها في آخر مرة حلماً بالمقارنة مع هذه. وكان لابد لي أن أقوم بتحوُّل سريع لأتكيَّف مع الوضع الجديد.

طبعاً كان سيسرني أكثر أن أبيعها من أن أنكحها. إلا أني سرعان ما أدركت أنه لكي أبيعها عليّ أن أنكحها. ولم تفهم جولي ماذا دهاني

twitter @baghdad_library

بحق الجحيم - بدخولي عليها هكذا ومحاولة أن أفرض حِمْلاً من الكتب عليها. لم أستطع أن أقول لها إنها ستطوِّر عقلها لأنه لا عقل لها، وكانت تعرف ذلك ولم يكن يُحرِجها قط أن تعترف بذلك.

تركتني وحدي بضع دقائق لكي تتبرَّج. بدأتُ أقرأ النشرة التجارية التمهيدية. وجدتها مثيرةً جدالاً للاهتمام حتى أني كدتُ أبيع نفسي مجموعة من الكتب. كنت أقرأ مقطعاً عن كولريدج، كم كان عقله رائعاً (وأنا الذي طالما اعتقدت أنه مملوء بالخراء!)، وإذا بي أشعر بها قادمة نحوي. كانت الفقرة ممتعة جداً، حتى أني استأذنت منها دون أن أرفع بصري وتابعت القراءة. ركعت خلفي، على الأريكة وأخذت تقرأ عبر كتفي. شعرت بثدييها الرجراجين يهزانني لكني كنت من شدة التصميم على تتبُّع تشعّبات عقل كولريدج المذهل بحيث لا أدع زوائدها الخاملة تزعجني.

فجأة طارت النشرة ذات التغليف الجميل من يدي.

صرخت، وهي تديرني وتمسك بي من مرفقيّ " لماذا تقرأ ذلك الهراء؟ أنا لا أفهم كلمة واحدة منه، وأراهن على أنك أنت أيضاً لا تفهم. ماذا بك - ألا تستطيع أن تجد لنفسك عملاً ثابتاً؟ "

انتشر ببطء تكشير أبله مخيف على وجهها. بدت أشبه بملاك تيوتوني يمارس تفكيراً حقيقياً. نهضت واقفاً، واستعدت النشرة، وسألتها عن الغداء.

قالت " يا إلهي كم أحب وقاحتك. على أي حال ماذا تظنني بحق الجحيم؟ "

هنا كان لابد لي أن أتظاهر بأني أمزح فقط، ولكن بعد أن أدخلت

يدي في صدرها وعبثت بحلمة ثديها الأيمن قليلاً. أعدتُ دفّة الحديث برشاقة إلى موضوع الطعام.

قالت " اسمع، أنت تغيّرت، وأنا لا أحب أسلوبك في الكلام - أو التصرف ". هنا أبعدت حلمة ثديها بحزم، وكأنها كرة من الجوارب الرطبة عائدة إلى وعاء الغسيل. " اسمع، أنا امرأة متزوجة، ألا تدرك هذا ؟ أتعلم ماذا سيفعل مايك لك إذا ما قبض عليك وأنت تتصرَّف هكذا ؟ ". قلت " أنتِ نفسكِ تغيرتِ قليلاً "، وأنا أنهض واقفاً على قدمي وأشم الهواء بحثاً عن طعام. عندئذ كل ما أردت كان الطعام. ولا أدري لماذا كنت في تلك اللحظة قد صمَّمتُ على أن تعدَّ لي وجبة دسمة - كان ذلك هو أقل ما في إمكانها أن تقدّمه لي، وهي البلهاء الخرقاء.

كان السبيل الوحيد للحصول على أي شيء منها هو معالجتها. كان لابد لي أن أتظاهر بأن شهوتي قد شبَّت وأنا أضرب على فردتيّ طيزها الضخمتين. غير أن شهوتي لم تكن مشبوبة كثيراً، لأن ذلك سيعني نكاحاً سريعاً وربما دون وجبة غداء. وإذا كانت الوجبة دسمة فقد أقوم بعمل سريع قبل أن أهرب - هذا ما كنت أفكر فيه وأنا أحاول أن أفعل شيئاً.

ثم انفجرت قائلة " يا يسوع المسيح، حسناً، سأعدُّ لكَ وجبة "، وكأنها تقرأ أفكاري كمدمن قراءة أعمى.

قلت، بشبه هتاف " رائع، ماذا لديكِ؟ "

أجابت، وهي تجرني إلى المطبخ وتفتح الثلاجة " تعالَ وانظرْ بنفسك"

رأيتُ فخذاً من لحم الخنزير، وسلطةَ بطاطا، وسردينا ً، وشمندراً

twitter @baghdad_library

بارداً، وبودينغ الأرز، وهريسة التفاح المطبوخ، ونقانق فرانكفورت، ومخللات، وضلوع الكرفس، والجبن القشدي وطَبَقاً خاصاً من القيء يعلوه المايونيز تأكّدتُ من أني لا أريده.

اقترحت عليها " فلنخرج كل شيء. وهل لديك بيرة؟ "

زمجرت قائلة " نعم، ولدي مستردة أيضاً "

" هل هناك خبز؟ "

رمتني بنظرة احتقار صرف. وأسرعت بإخراج الأشياء كلها من الثلاجة ووضعتها على الطاولة.

قلت " يستحسن أن تحضِّري بعض القهوة أيضاً "

" اعتقد أنك تحب أن تغطيها بالقشدة، أليس كذلك؟ أتعلم، أشعر برغبة في تسميمك. يا إلهي، إذا كنتَ مُعوزاً يمكنك أن تطلب مني أن أقرضك بعض النقود ... ما كان ينبغي أن تأتي إلى هنا وتحاول أن تبيعني كومةً من الهراء. ولو أنك مهذَّب أكثر من ذلك بقليل لطلبت منك أن تصحبني لتناول الغداء في الخارج. لدي بطاقات لحضور عرض مسرحي. وكان يمكن أن نقضي وقتاً ممتعاً ... كان يمكنني حتى أن أبتاع منك الكتب الحمقاء. مايك ليس رجلاً سيئاً. كان سيشتري الكتب حتى وإن لم تكن لدينا النيّة في قراءتها. هذا إذا رأي أنك بحاجة إلى مساعدة ... وها أنت تدخل عليّ وتعاملني وكأني قذارة. هل سبق لي أن آذيتك؟ أنا لا أفهم. لا تضحك! أنا جادّة. لا أدري لماذا يتوجب عليّ أن أقبل هذا منك أنت. مَنْ تظن نفسك بحق الجحيم؟ "

خبطتْ طبقاً وهي تضعه أمامي. ثم استدارتْ وتوجّهتْ إلى المطبخ، تركتني هناك مع كل الطعام المكوَّم أمامي.

قلت، وأنا أقحم ملء شوكة في فمي، " هيّا، هيّا، لا تفهمي الأمر هكذا. أنتِ تعلمين أني لا أقصد أي شيء شخصي ". (فوجئت بأن كلمة شخصي متنافرة إلى حد بعيد، لكنني كنت أعرف أنها ستعجبها)

ردَّت قائلة " شخصيّ أم لا، لن أنضم إليك. كُلّ حتى تشبع ثم امضِ. سأعدُّ لك بعض القهوة. ولا أريد أن أراك بعد اليوم. أنت تثير الاشمئزاز "

تركت السكين والشوكة وذهبت إلى المطبخ. على أي حال كانت الأطعمة باردة، ولا يهم إن أمضيتُ بضع دقائق أُهدِّئ خلالها من فورة مشاعرها.

قلت، محاولاً أن أحيطها بذراعي " أنا آسف يا جولي ". أبعدتني غاضبةً. فبدأت أشحنُ كلماتي ببعض الإحساس، " في الواقع إنَّ علاقتي بمود ليست على ما يرام. وفي صباح هذا اليوم تشاجرنا. لابد أني متوعك ... "

" وهل هذا يبرّر لك أن تنفِّس عمّا بك فيَّ؟ "

" لا، لا يبرِّره. لا أدري، لقد غلبني اليأس هذا الصباح. لهذا جئت لأراكِ. ومن ثم، حين بدأت أحتالُ عليكِ ... كي أبيعك الكتب حتى وإن تظاهرت بأنك أردتها ... "

قالت " أنا أعلم ما مشكلتك. أنت في نظري مُحبَط. أنا تغيَّرت، وهذه هي مشكلتك. وأنت فاشل من أسوأ نوع. أنت تريد أن تنفِّس عن إحباطك فيَّ - لكن الخطأ خطؤك. إنَّ لديك زوجة جميلة ... فلماذا لا تُخلِص لها؟ الجميع يتشاجرون - لستما الوحيدَين في العالم في هذا. تراني أعاشر زوجَ امرأةٍ أخرى حين تسوء أحوالي؟ إلى أين سيوصلنا

twitter @baghdad_library

ذلك إن فعلت؟ إن مايك ليس ملاكاً ... وأعتقد أنَّ لا أحد كذلك. إنك تتصرف كطفلٍ مدلّل. ماذا تظن الحياة، حلماً احتلامياً؟ "

هذا الحديث لم يكن في الإمكان التعليق عليه بالضحك. كان لابد لي أن أناشدها كي تجلس وتشاركني تناول الطعام، وتفسح لي المجال لأشرح لها وضعي. وافقت على مضض.

حكيت لها حكاية مطوّلة، أثناء الإتيان على طبق بعد طبق. وبدا أنها قد تأثَّرت جداً بصدقي حتى أني بدأت ألعب بفكرة إعادة عرض أفضل الأدب العالمي. كان عليَّ أن أتقدم بحذر شديد لأن الأمر في هذه المرة يجب أن يبدو وكأني أقدِّم لها معروفاً. كنت أحاول أن أناور لأدعها تقدِّم لي يد المساعدة. وفي الوقت نفسه كنت أتساءل إن كان الأمر يستحق العناء، وإن لم يكن من الممتع أكثر ربما حضور حفلة عرض مسرحي نهاري.

كانت قد بدأت تعود إلى طبيعتها، وتصبح ودوداً وتوليني ثقتها. كان مذاق القهوة ممتازاً، وكنت قد أنهيت لتوي شرب كوب ثانٍ حين شعرت بأحشائي تتحرك. فاستأذنت لأرتاد الحمام. وهناك استمتعت بترفِ التفريغ الكامل. شددت السلسلة وبقيت جالساً بضع لحظات، يغشوني مزاج حالم وأيضاً فاسق، وفجأة أدركت أني أستحم في حوض استحمامٍ نصفيّ. شددتُ السلسلة من جديد فبدأ الماء يرتفع إلى ملتقى فخذيّ ومنه يسيل على الأرض. قفزت واقفاً. وجفّفتُ طيزي بمنشفة، وزرّرت بنطالي ورحتُ أنظر بشكلٍ مسعور إلى مقعد المرحاض. بذلت أقصى جهدي لأوقف تدفّق الماء لكنه ظل ينبع ويفيض - ومعه خرجت كومة أو اثنتين ضخمتين من الغائط وكتلة من أوراق المرحاض.

ناديتُ على جولي وأنا مذعور. ومن خلال شقٍ في الباب ناشدتها أن تخبرني ماذا عليَّ أن أفعل.

قالت " دعني أدخل، سأصلحه "

ناشدتها " بل قولي لي أنا سأفعل. لا يمكن أن تدخلي الآن "

قالت جولي " لا أستطيع أن أشرح. يجب أن تدعني أدخل "

لا فائدة، لا مفر من فتح الباب لها. لم أشعر في حياتي كلها بمثل ما شعرت عندئذ من حَرَجٍ. كانت الأرضية في حالة فوضى هائلة. إلا أن جولي سارعت إلى الانهماك في العمل، وكأنه إجراء يوميّ. وللتو توقفت المياه عن الجريان؛ لم يتبقَّ غير إزالة الفوضى.

ناشدتها " اسمعي، اخرجي أنت ألان ودعيني أعالج هذا. هل لديكِ لقّاطة الكناسة - وممسحة؟ "

قالت " أنت مَنْ سيخرج! وأنا سأعتني بهذا "، ثم دفعتني إلى الخارج وأغلقت الباب.

انتظرتُ خروجها على أحرّ من الجمر، ثم استولى عليَّ خوفٌ حقيقي. ولم يبق أمامي غير شيء واحد أفعله - أن أهرب بأسرع ما يمكن.

تململت بعصبيّة بعض الوقت، وأنا أصيخ سمعي أولاً وأنا أقف على ساقٍ واحدة، ثم على الأخرى، لا أجرؤ على التلصُّص عليها. كنت أعلم أني لن أستطيع أن أواجهها. تلفَّتُ حولي، وقستُ المسافة التي تفصلني عن الباب، وأصغيتُ بانتباهٍ برهةً، ثم حملت أغراضي وخرجت على أطراف أصابعي.

كان المبنى مزوَّداً بمصعدٍ، لكني لم أنتظر المصعد وأخذت أهبط الدرج قفزاً، ثلاث درجات في كل قفزة، وكأنَّ الشيطان يلاحقني.

twitter @baghdad_library

كان أول ما فعلته أني ولجتُ أول مطعم صادفته لأغسل يديّ غسلاً تاماً. وكانت هناك آلة، إذا وضعت فيها قطعةً نقدية تبخُّ عليكَ عطراً. أخذت منها بضع بخّات ومن ثم انطلقتُ خارجاً إلى الشمس الساطعة. مشيتُ بعض الوقت بلا هدى، أقارن ما بين الطقس الجميل والتشويش الذي يغزو تفكيري.

سرعان ما وجدتني أسير بجوار النهر. وعلى مبعدة مني كانت هناك حديقة عامة صغيرة، أو على الأقل شريط من العشب وبعض المقاعد. اتخذت لي مجلساً على أحد المقاعد وبدأت أتأمل. وعلى الفور ارتدَّت أفكاري إلى كولريدج. كان مريحاً ترك الفكر يستقرُّ على مشاكل جمالية صرف.

فتحت النشرة الإعلانية بشرود وبدأت أقرأ الفقرة التي كانت قد استغرقت تفكيري - قبل حدوث الفوضى الرهيبة في منزل جولي. وأخذت أنتقل بسرعة من مادة إلى أخرى. وكان على خلفية النشرة خرائط ومخططات ونسخ من كتابات عتيقة عُثِرَ عليها على ألواح وأنصاب تذكارية في أصقاعٍ مختلفة من العالم. ووقعت على " الكتابة الغامضة" لقبائل الويغر[٦٨] التي اجتاحت ذات يوم أوروبا من بئرِ وسطِ آسيا الفيّاض. قرأت عن المدن التي ارتفعت فوق الأرض مسافة اثني عشر أو ثلاثَ عشر قدماً حين بدأت سلاسل الجبال بالتشكُّل؛ وقرأت عن محاورات سولون[٦٩] مع أفلاطون وعن نقوشٍ نافرة عمرها سبعون ألف عام عُثِرَ عليها في التبت تدلُّ دلالة فائقة الوضوح إلى وجود ما بات

٦٨ – الويغر : قوم يسكنون المقاطعة الغربية الشمالية من الصين . – المترجم .

٦٩ – سولون (٦٤٠ – ٥٥٠ ؟ ق .م) : مشترع أثيني . أحد حكماء اليونان السبعة . سنَّ لبلاده قوانين تحررية . – المترجم

الآن قارات مجهولة. ووقعت على منابع مفاهيم فيثاغوراس[٧٠] وقرأت وأنا حزين عن تدمير مكتبة الإسكندرية العظيمة. وذكّرتني ألواح مايانيّة[٧١] بحيوية بلوحات بول كلي[٧٢]. لقد كانت كتابات الأقدمين، ورموزهم، ورسومهم، ومؤلفاتهم، تشبه بصورة مذهلة ابتكارات الأطفال في رياضهم. المجانين، من ناحية أخرى، ينتجون أشد أنواع التكوينات عقلانيّة. قرأت عن لاو-تزو وألبرتوس ماغنوس[٧٣] وكاغليوسترو[٧٤] وكورنيليوس أغريبا وإيامبليخوس، وكل واحد منهم يمثّل كوناً قائماً بذاته؛ كل واحد منهم يمثّل حَلَقةً في سلسلة خفيّة لعوالم ممدَّدة. ووقعت على مخطط على شكل خطوط متوازية من النقوش الزخرفية، تحكي على الهامش عن العصور "منذ فجر الحضارة" وتصنِّفُ عمودياً الشخصيات الأدبية البارزة عبر العصور، وأسماءهم وأعمالهم. وبرزت العصور المظلمة كنوافذ عمياء على جانب ناطحة سحاب؛ وكان يُرى هنا وهناك على الجدار الهائل الفارغ شعاع من ضوء تُسقِطُه روحُ عملاقٍ فكريّ نجح في جعل صوته يطغى على نقيق قاطني المستنقعات الغائصين والمكتئبين.

وحين كانت أوروبا غارقة في الظلام كان النور يغمر أماكن أخرى: كانت روح الإنسان أشبه بلوحة مفاتيح حقيقية، تكشف عن مكنوناتها بلغةِ للإشارات والومضات الضوئية، غالباً عبر محيطات من الظلام. بقي شيء واحد يبرز بجلاء - على لوحة المفاتيح تلك كانت أرواح عظيمة

---

٧٠ - فيثاغوراس (٥٨٠ ؟ - ٥٠٠ ؟ ق .م) : رياضي وفيلسوف يوناني . قال إن الحقيقة في عمقها هي رياضيّة . - المترجم

٧١ - مايانيّة : نسبة إلى شعب المايا الذي قطن أميركا الوسطى والمكسيك قديماً . - المترجم

٧٢ - بول كلي (١٨٧٩ - ١٩٤٠) : رسام سويسري . في لوحاته حنين إلى عفوية الطفولة . له سيرة ذاتية . - المترجم

٧٣ - ألبرتوس ماغنوس ، القديس (١١٩٣ ؟ - ١٢٨٠) : راهب ألماني دومينيكي . معلّم توما الإكويني . - المترجم

٧٤ - كاغليوسترو (١٧٤٣-١٧٩٥) : مغامر وساحر إيطالي . سجنته محاكم التفتيش لتورطه بالماسونية . - المترجم

twitter @baghdad_library

معيّنة ما تزال موصولة، ما تزال متأهبة كتلبية النداء. وعندما أَخمدَ العصر الذي حشدهم عادوا إلى الظهور من قلب الظلمة كذرى الهيمالايا الشاهقة المتوّجة بالثلوج. وبدا لي أن ثمة سبباً يدفعني إلى الاعتقاد أنه لن ينطفئ النور الذي يشعّونه إلا بعد أن تحدث كارثة رهيبة. ولما قطعتُ سيل أحلام اليقظة الذي سقطتُ فيه ارتسمتْ صورةٌ ما يشبه الحيوان الخرافي على الستارة المسدلة: كانت لوجهٍ مهيب لأحد سحرة أوروبا: ليوناردو دا فنتشي. القناع الذي يضعه على وجهه ليخفي هويته هو أحد أشدّ الأقنعة بثّاً للحيرة وضعه مبعوثٌ من الأعماق. وتسري الرعشة في كياني حين أفكر فيم رأته تينك العينين اللتين تحدِّقان بثباتٍ إلى المستقبل...

أرسلت نظري عبر النهر إلى شاطئ جيرزي. لا شيء على جانبٍ من الأهمية للجنس البشري حدث هنا. ولن يحدث أي شيء على امتداد آلاف السنين ربما. إن دراسة الأقزام أشدّ إمتاعاً وتنويراً بكثير من دراسة سكان نيو جيرزي. نقّلتُ بصري على طول نهر هدسن وعرضه، النهر الذي طالما مقتُّه، حتى منذ أن قرأت عن هنري هدسن[٧٥] للمرة الأولى وعن "نصف قمره" اللعين. كرهت كلتا ضفتيّ النهر على قدم المساواة. كرهت الأساطير التي نُسجَتْ حول اسمه. كان الوادي كله أشبه بحلمٍ فارغ لرجلٍ هولندي يترنّح ثملاً من شرب البيرة. إنني لم أهتمّ مرة بباوهاتن أو بمانهاتن. وعافت نفسي الأب نكربوكر[٧٦]. وتمنيت لو كان هناك عشرة آلاف مصنع للبارود منتشرة على دلتا ضفتيّ النهر ولو أنها تنفجر كلها دفعة واحدة ...

---

٧٥ – هنري هدسن (توفي نحو عام ١٦١١) : ملاح ومكتشف إنكليزي . اكتشف نهر هدسن ، ومرفأ هدسن . تمرَّدَ عليه بحارته وتركوه يموت في مكان ناء . – المترجم

٧٦ – نكربوكر : لقب من يقطن نيويورك من أصل هولندي . وقد أُخِذَ هذا اللقب من روايات الكاتب واشنطن إرفنغ (١٧٨٣ – ١٨٥٩) التي تدور حول هذه الشخصية . – المترجم

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر.

اتّخذتُ قراراً مفاجئاً بالانتقال من " قاعة الصراصير ". لماذا ؟ لأني قابلتُ ريبيكا.

ريبيكا كانت الزوجة الثانية لصديقي القديم آرثر ريموند. وكان الاثنان حينئذ يقطنان شقة ضخمة تقع في ريفر سايد درايف؛ وأرادا أن يؤجّرا غرفاً. كرونسكي أخبرني هذا؛ قال إنه سيستأجر إحدى تلك الغرف.

" لمَ لا تأتي وتقابل زوجته - ستعجبك. يمكن أن تكون أختاً لمونا "

سألته " وما اسمها ؟ "

" ريبيكا. ريبيكا فالانتاين "

اسم ريبيكا أبهجني. طالما رغبت في مقابلة امرأة اسمها ريبيكا - وليس بيكي "

(ريبيكا، روث، روكسان، روزالیند، فريديركا، أورسولا، شيلا، نورما، جينيفر، ليونورا، سابينا، مالفينا، سولانج، ديردر. ما أروع أسماء النساء! إنها أشبه بالأزهار، بالنجوم، بالكويكبات ...)

لم تكن مونا متحمِّسة كثيراً للانتقال، ولكن حين وصلنا إلى منزل آرثر ريموند وسمعته وهو يتدرَّب، غيَّرت نبرة صوتها.

فتحت رينيه، أخت آرثر ريموند الصغرى، الباب لنا. كانت في نحو التاسعة عشرة، سريعة الغضب، ذات خُصَل كثيفة وجعدة من الشعر وتضجُّ بالحيوية. وكان صوتها أشبه بصوت عندليب - مهما قالت تشعر برغبة في موافقتها.

أخيراً قدَّمَتْ ريبيكا نفسها. وكأنها شخصية خرجت لتوها من العهد القديم - سمراء ومشرقة بكل معنى الكلمة. دخل حبها إلى قلب مونا فوراً، وكأنها أخت لها كانت ضائعة. الاثنتان كانتا جميلتين. ريبيكا كانت أكثر نضجاً، وصلابة، وتكاملاً. يشعر المرء غريزياً أنها دائماً تفضِّل الحقيقة. أحببت قوة مصافحتها، والنظرة الصريحة الوامضة التي حيَّتني بها. بدا وكأنها لا تتَّصف بأيٍ من الصفات الأنثوية الوضيعة.

وسرعان ما انضمَّ آرثر إلينا. كان قصير القامة، مفتول العضل، في صوته خنَّة قاسية فولاذيّة وتنتابه باستمرار نوبات ضحك متفجِّرة. كان يضحك على نكاته بالطلاقة نفسها التي يضحك فيها على نكات الآخرين. كان خارقاً بصحته، وحيويته، ومرحه، وفيضه. ولطالما كان هكذا وفي الأيام الخوالي، في أول عهدنا أنا ومود بالانتقال إلى الحي الذي يقطن فيه، كنت شديد الكَلَف به. كنت أسرع بالتردد عليه في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل وأعطيه ملخصات للكتب التي قرأتها لتوي على مدى ثلاث أو أربع ساعات. وأذكر كيف كنت أقضي ساعات بعد الظهر بأكملها في التحدُّث عن سميردياكوف وبافال بافلوفيتش، أو الجنرال إيفولجين[٧٧]، أو عن تلك الأرواح الملائكية التي كانت تحيط بشخصية الأبله، أو عن المرأة المسمَّاة فيليبوفنا. وفي ذلك الوقت كان

٧٧ - أسماء شخصيات من روايات مختلفة لفيدور دوستويفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) . - المترجم

twitter @baghdad_library

متزوجاً من إيرما، التي أصبحت لاحقاً زميلة لي في شركة التلغراف الزغبية الشيطانية الكونيّة. في تلك الأيام المبكِّرة، حين قابلت آرثر ريموند للمرة الأولى، حدثت أمور هائلة - في الفكر، أقصد. كانت أحاديثنا أشبه بمقاطع مأخوذة من رواية " الجبل المسحور[٧٨] "، غير أنها أشدُّ قسوة، وتحليقاً، وثباتاً، واستفزازاً، واتِّقاداً، وخطراً، وتهديداً - وأيضاً مهلكة أكثر بكثير، أكثر وأكثر بكثير.

كنت، وأنا واقف أراقبه وهو يتحدَّث، أراجع بسرعة صفات الأسلاف. وكانت أخته رينيه تحاول أن تحافظ على حديث فاتر تتبادله مع زوجة كرونسكي. (وهذه الأخيرة كانت دائماً تنتهي إلى الصمت مهما كان الموضوع مثيراً). وتساءلت كيف سنتآلف كلنا معاً تحت سقفٍ واحد. كان كرونسكي قد احتلَّ لتوه إحدى الغرفتين الخاليتين، الكبرى بينهما، التي لم تكن أكثر من جُحر.

كان آرثر ريموند يقول " أوه، ستكفيكما. وحق الله أنتما لا تحتاجان إلى حيِّز كبير - لديكما المنزل بأكمله. أريدكما أن تأتيا. سوف نمضي وقتاً رائعاً هنا. يا إلهي! "، ثم انفجر من جديد ضاحكاً.

كنت أعلم أنه يائس. غير أنه أشد كبرياءً من أن يعترف بأنه في حاجة إلى النقود. نظرت ريبيكا إليّ مترقِّبة الجواب. وقرأت بوضوح تام ما تقوله تعابير وجهها. فجأة ارتفع صوت مونا قائلة " سنأخذها طبعاً". فرك كرونسكي يديه مرحاً. قال " طبعاً ستأخذانها! سوف نشكِّلُ مجموعة عظيمة، وستريان "، ثم أخذ يماحكهما بشأن السعر. لكن آرثر رفض أن يتحدث بشأن النقود. قال " ضع ما تشاء من شروط "، وهو

٧٨ - رواية الروائي الألماني توماس مان (١٨٧٥ - ١٩٥٥) . - المترجم

يتمشّى باتجاه الغرفة الكبيرة حيث البيانو. وسمعته يضرب عليه. حاولت أن أصغي لكن ريبيكا وقفت أمامي وظلت تمطرني بالأسئلة.

بعد مضيّ بضعة أيام انتقلنا. كان أول ما لاحظناه في مقرّنا الجديد أن الجميع يحاول أن يستخدم المرحاض على الفور. والمرء يعرف مَنْ كان آخر نزيل من الرائحة التي يتركها وراءه. وكانت المغسلة دائماً مسدودة بشعرٍ طويلٍ وكان آرثر، الذي ليست لديه فرشاة أسنان خاصة به، يستخدم أول فرشاة تطالها يده. ثم إنَّ عدد الإناث في المكان كان كبيراً جداً. فقد كانت الأخت الكبرى، جيسيكا، الممثلة، تتردَّد على المنزل كثيراً وغالباً ما تبيت. وهناك أيضاً والدة ريبيكا التي لا تني تتردَّد على المكان، ودائماً تراها حزينة، ودائماً تجرُّ نفسها جراً وهي تسير كجثّة. ثم كان هناك أصدقاء كرونسكي وأصدقاء ريبيكا وأصدقاء آرثر وأصدقاء رينيه، هذا غير التلاميذ الذين يأتون في أي ساعة من ساعات الليل والنهار. في أول الأمر كان سماع العزف على آلة البيانو: نُتَفاً من باخ، ورافيل، وديبوسي، وموتسارت، الخ. ثم أصبح الأمر يثير السخطَ، خاصة حين يتدرَّب آرثر ريموند نفسه على العزف. كان يُعيد الجملة الموسيقية مراراً وتكراراً بعنادٍ وإلحاحِ رجلٍ مجنون. أولاً بإحدى اليدين، بثباتٍ وببطءٍ: ثم باليد الأخرى، بثباتٍ وببطءٍ، ثم باليدين الاثنتين، بثباتٍ شديد، وببطءٍ شديد؛ ثم بسرعة أكبر فأكبر، إلى أن يصل إلى الإيقاع الطبيعي. ثم عشرين مرة، وخمسين مرة، ومائة مرة، ثم يتقدَّم قليلاً - بضعة أوزان أخرى. وشَرْحُه. ثم يعود من جديد، كالسلطعون، من البداية الأولى. ثم فجأة يمزقها، ويبدأ شيئاً جديداً، شيئاً يحبه. ويعزفه من أعماق قلبه، وكأنه يقدِّم حفلاً موسيقياً. ولكنه في ثلث

twitter @baghdad_library

الطريق قد يتعثَّر. صمت. ويعود بضعة أوزان، يكسرها، ويبنيها، ببطء، وبسرعة، بيدٍ واحدة، بيدين، بكُلّها معاً، بالأيدي، بالأقدام، بالمرافق، بالبراجم، يتقدَّم كفيلق من الدبابات، مكتسحاً كل ما يعترض طريقه، يقتلع الأشجار، والأسيجة، والحظائر، والوشائع، والجدران. كانت متابعته موجعة. لم يكن يعزف للاستماع - كان يعزف ليوصل تقنيته إلى الكمال؛ يرهق أصابعه، يصقل طيزه حتى تغدو ملساء. دائماً يتحسَّن، يتقدَّم، يهاجم، يغزو، يمحق، يمسح، يعيد تنظيم قواته، ينشر حرسه وخفره، يغطي مؤخرته، يحصِّن نفسه، يجنِّد المساجين، يعزل الجرحى، يستكشف، يكمن لرجاله، يطلق لهباً، قذائف، يفجِّر مصانع ذخيرة، ومراكز سكك الحديد، يبتكر قذائف جديدة، ومحركات، وقاذفات لهب، يشفِّر ويعيد تشفير الرسائل التي تردُهُ ...

مع ذلك كان أستاذاً عظيماً، أستاذاً محبوباً. كان يتنقَّل في الغرفة مرتدياً قميصه الخاكي، المفتوح دائماً عند العنق، كنمرٍ حرون؛ يقف في إحدى الزوايا وينصت، وذقنه تدعمها راحة يده واليد الأخرى تدعم مرفقه. ويسير إلى النافذة ويطلُّ منها، ويهمهم بصوتٍ ناعمٍ وهو يتابع محاولات تلميذته الحثيثة لتبلغ ذلك الكمال الذي يطلبه آرثر من تلميذاته جميعاً. فإذا كانت تلميذة صغيرة جداً يستطيع أن يكون رقيقاً كحَمَل؛ كان يجعل الطفلة تضحك، ويحملها بين ذراعيه ويرفعها عن المقعد " أترين ...؟ "، ثم يدلها ببطء شديد، وبرقّة قصوى، وبعناية فائقة، إلى الطريقة الصحيحة في العزف. كان يتحلّى بصبرٍ لا حدود له مع التلميذات الصغيرات - كان منظراً ممتعاً جداً. كان يرعاهنَّ وكأنهن أزهار. ويحاول أن يصل إلى أرواحهن، يحاول أن يهدهدهن أو يلهب

حماستهن، حسب الموقف. ومع التلميذات الأكبر سناً تكون مراقبة أسلوبه مثيرة أكثر. مع أولائي يكون كله آذاناً صاغية، منتبهاً كشيهمٍ، وتتخذ ساقاه وضعاً معيناً، يتمايل، يتوازن، يرتفع وينخفض على أطراف أصابع قدميه، وتتحرّك عضلات وجهه بسرعة وهو يتابع بلهفةٍ متألّقة الانتقال من فقرة إلى فقرة. إلى هؤلاء كان يتحدث وكأنّهن قد أضحين ضليعات للتو. كان " يقترح " هذه المعالجة البارعة أو تلك، وهذا التأويل أو ذاك. وغالباً ما يقاطع الأداء مدة عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة متواصلة، ليباشر استعراضات لامعة لتقنيات مهيمنة، يقارن بينها، يقيِّمها، يقارن مقطوعة موسيقية بكتاب، وكاتب بكاتبٍ آخر، ولوحة الألوان بقطعة قماش، ونغمة موسيقية بنبرة شخصية، وهكذا. كان يجعل الموسيقى حيّة. كان يسمع موسيقى في كل شيء. والصبايا اللواتي كنَّ عندئذ يعقدن جلسة استحضار أرواح، يُصَبْن بالإغماء في الصالة، غير واعيات إلا للهب العبقرية. نعم، كان واهباً للحياة، إله شمس: كان يرسلهن إلى الشارع وهنَّ يترنحن.

حين يجادل كرونسكي تجده شخصاً مختلفاً. فذاك الهوس بالكمال، ذاك العنف البيداغوجي[٧٩] الذي كان ذا منفعة عظمى بالنسبة إليه كأستاذ موسيقى،اختزله إلى أبعادٍ تافهةٍ حين انطلق إلى عالم الفكر. كان كرونسكي يلهو به كما تلهو قطة بفأر. كان يبتهج حين يوقع خصمه في الخطأ. ولم يكن يدافع عن أي شيء غير أمانه الحازق. وكان آرثر ريموند يتمتع بشيء من أسلوب جاك ديمبسي[٨٠]، عندما يتعلق الأمر

٧٩ – البيداغوجي : الذي له علاقة بأصول التدريس المدرسيّ . – المترجم

٨٠ – جاك ديمبسي (١٨٩٥ – ١٩٨٣) : ملاكم أميركي . بطل العالم في الوزن الثقيل من ١٩١٩ – ١٩٢٦ . – المترجم

twitter @baghdad_library

بالنقاش الحامي. كان يحفر باستمرار، ودائماً بلكمات قصيرة، سريعة، كخشبة تقطيع اللحم مزوَّدة بساقين راقصتين. وبين حين وآخر يقوم بلكمة، لكمة بارعة، لكنه يكتشف أنه يلاكم الفراغ. وكان كرونسكي يقوم بخدعة الاختفاء التام في الوقت الذي يبدو أنه استند إلى الحبال. وبعد ثانيتين تراه معلّقاً من الثريا. لم تكن له استراتيجية واضحة، ما عدا أن يتملّص، أن ينحرف ويدفع، وأن يغيظ خصمه، ومن ثم يقوم بحركة الاختفاء البارعة. وكان آرثر ريموند يبدو طوال الوقت وكأنه يقول: " ارفع قبضتيك! قاتل! قاتل، يا ابن الحرام! "، لكن كرونسكي لم تكن لديه أي نية في أن يجعل من نفسه جراباً للملاكمة.

لم ألمح أبداً آرثر ريموند يقرأ كتاباً ,لا أظن أنه يقرأ كثيراً من الكتب، غير أنه كان لديه إلمام مذهل بأشياء كثيرة. فكل ما يقرأ يتذكره بحيوية ودقة مدهشتين. كان في استطاعته أن يقتطف من كتابٍ ما أكثر مما يفعل أي إنسان آخر أعرفه، ما عدا روي هاملتن. كان، بدون مبالغة، ينزع أحشاء النص. روي هاملتن كان يتقدم مليمتر بعد مليمتر، إذا صح التعبير، ويتلكَّأ عند فقرة ما على مدى أيام أو أسابيع أحياناً. وأحياناً كان يستغرق منه إنهاء قراءة كتاب صغير عاماً كاملاً أو عامين، ولكن بعد أن ينهيه يبدو وكأنه أضاف مقدار ذراع إلى قامته. كانت تكفيه حفنة من الكتب الجيدة لتزوِّده بغذاءٍ روحي طوال البقية الباقية من حياته. كانت الأفكار بالنسبة إليه مخلوقات حيّة، كما كانت بالنسبة إلى لويس لامبرت. فبعد أن يقرأ كتاباً كاملاً يعطي إيحاءً حقيقياً جداً بأنه يعرف ما تضمّه الكتب كلها. كان يفكر ويعيش الكتاب الذي يقرأ، ليخرج من التجربة كياناً جديداً ومبجَّلاً. لقد كان النقيض المباشر

للمثقف الذي تتضاءل منزلته مع كل كتاب يقرأه. كانت الكتب بالنسبة إليه كاليوغا بالنسبة إلى الباحث الرصين عن الحقيقة: تساعده على الاتحاد في الله.

من ناحية أخرى، كان آرثر ريموند يعطي إيحاءً خاطئاً بأنه يلتهم محتويات الكتاب. كان يقرأ بانتباه عضليّ. أو هكذا خيِّل إليّ، من ملاحظتي لأثرها عليه. كان يقرأ وكأنه إسفنج يمتصُّ أفكار الكاتب. وكان اهتمامه الوحيد أن يستوعب، أن يتمثَّل، أن يعيد التوزيع. كان غازياً. وكل كتاب جديد يمثِّل غزوة جديدة. كانت الكتب تحصِّن ذاته. لم يكن ينمو، بل ينتفخ بالكبرياء والغطرسة. كان يفتش عن تعزيزات لكي يهجم وينخرط في معركة. ولم يكن يسمح لنفسه بأن يتم تجاوزه. كان في إمكانه أن يقدم تقديره للمؤلف الذي يُعجَب به لكنه لم يكن أبداً يركع أمامه. وظل عنيداً وصلباً؛ وغطاؤه الواقي كان يزداد سماكة باطراد

كان من النمط الذي، لدى انتهائه من قراءة كتاب، يمكنه ألاّ يتحدث إلاّ عنه طوال أسابيع تالية. وبغضّ النظر عن النقطة التي يثيرها المرء وهو يتحدث معه فإنه يُرجِعُها إلى الكتاب الذي التهمه لتوه. والغريب في أمر تلك الآثار المتخلفة هو أنه كلما تحدَّث أكثر عن الكتاب ازداد شعور المرء بوجود رغبة دفينة لديه بتدمير ذلك الكتاب. كنت دائماً أشعر أنه في أعماقه يخجل حقاً لأنه سمح لعقلية أخرى أن تفتنه. وحديثه لا يكون عن الكتاب بل عن كيف أنه هو، آرثر ريموند، فهمه فهماً كاملاً وثاقباً. ومن العبث أن نتوقع منه أن يلخِّص لك الكتاب. ويكتفي بإعطاء فقط ما يكفي من المعلومات حول مادة

twitter @baghdad_library

موضوعه لكي تتمكَّن من متابعة تحليلاته ودراساته بعقلانية. ومع أنه يظل يردد على مسامعك - " يجب أن تقرأه، إنه ممتاز "، فإنَّ ما يقصده هو - " أؤكِّد لك أنه كتاب هام، وإلا لما بدَّدتُ وقتي في مناقشته معك". وزيادة على ذلك كان يشير ضمناً إلى أنك لم تقرأه أيضاً لأنك لن تستطيع أبداً بجهودك الخاصة أن تستخرج الدرر التي عثر عليها هو، آرثر ريموند، فيه. وكأنه يقول لك " حين أباشر في إخبارك عنه لن تعود بحاجة إلى قراءته. إنني ليس فقط أعرف ما قاله المؤلف بل وما كان ينوي أن يقوله ولم يفعل "

في الفترة التي أتحدث عنها، كان أحد معبوديه هو سيغموند فرويد. لا أريد أن يُفهَم من كلامي أنه لم يكن يعرف غير فرويد. كلا، بل كان يتكلَّم وكأنه على معرفة بالجماعة كلها، بدءاً بكرافت-غيبنغ[٨١] وشتيكل[٨٢] ونزولاً. كان يعتبر فرويد ليس فقط مفكراً بل وشاعراً. ومن ناحية أخرى، كرونسكي، الذي كانت قراءاته أوسع مدى وأعمق في مجاله، ويمتاز بتجربة سريرية أيضاً، وكان حينئذ يحضِّر دراسة مقارنة في التحليل النفسي وليس فقط يحاول أن يتمثَّل المساهمات المتوالية، كرونسكي كان يثير حفيظة آرثر ريموند بشكلٍ يفوق الوصف بما كان هذا الأخير يحب أن يسميه " ريبته المزعجة ".

تلك النقاشات، التي لم تكن فقط لاذعة بل ولا نهاية لها، كانت تجري في مهجعنا. كانت مونا قد تخلَّت عن العمل في صالة الرقص وتفتِّش عن عملٍ في مجال المسرح. وغالباً ما كنا نتناول الطعام معاً في

---

٨١ - ريتشارد فراير فون كرافت-ايبنغ (١٨٤٠ - ١٩٠٢) : خبير ألماني في الاضطرابات العقلية . - المترجم
٨٢ - فيلهيلم شتيكل (١٨٦٨ - ١٩٤٠) : عالم نفساني نمساوي . - المترجم

المطبخ، وقرابة منتصف الليل كنا نحاول أن نفترق ويصل كلٌ إلى منزله الخاص. غير أنَّ آرثر ريموند لم يكن لديه أي اعتبار للوقت؛ وعندما يثيرُ موضوعٌ ما اهتمامه لا يفكر في طعام، أو نوم أو جنس. وإذا أوى إلى السرير في الخامسة صباحاً ينهض في الثامنة، إذا شاء، أو يلزم السرير على مدى ثماني عشرة ساعة. وكان يترك لريبيكا أمر ترتيب برنامجه. وطبعاً هذا النمط من الحياة يخلق جواً من الفوضى وإرجاء الأمور. وحين تتعقَّد الأمور كان آرثر ريموند يرفع يديه عنها ويتركها، وأحياناً يبتعد طوال أيام. وبعد مرور فترة الغياب تلك تعود إشاعات غريبة إلى الظهور، قصص تضفي على شخصيته بريقاً مختلفاً. ومن الواضح أن تلك النزهات كانت ضرورية لإكمال الوجود الجسدي؛ فحياة الموسيقي لا يمكن أن تشبع طبيعته النشطة. كان لا بد له أن يهرب بين حين وآخر ويختلط مع أقرانه - وكانوا، بالمناسبة، تشكيلة غير متجانسة من الشخصيات . بعض عمليات فراره كانت بريئة ومسلّية، وبعضها كان قذراً وبشعاً. وبما أنه تربَّى تربية مخنَّث، فقد وجد أنَّ من المُلِح أن يطوِّر الجانب الهمجي من طبيعته. كان يستمتع بإثارة شجار مع أحد الحمقى الأقوياء بدنيّاً والمتبجّحين الأشد ضخامة منه ويعمد إلى كسر ذراع الرجل أو ساقه بدم بارد. كان يفعل ما يحلم بفعله العديد من ذوي البنية الضئيلة - أن يبرعوا في المصارعة اليابانية. كان يفعل ذلك لكي يحصل على متعة إذلال العمالقة المهدِّدين الذين يشكِّلون عالم المتنمِّرين الذي يخشاه الصغار من الرجال. وكلما ازدادوا ضخامة أعجب ذلك آرثر ريموند أكثر. ولم يكن يجرؤ على استخدام قبضتيه مخافة أن يؤذي يديه، لكنه كان دائماً يتظاهر، بدافعٍ من خِسَّته فيما أعتقد، بالقتال

twitter @baghdad_library

ومن ثم يباغت خصمه طبعاً، قلت له ذات مرة " إنَّ هذا لا يعجبني فيك أبداً. ولو أنك خدعتني بتلك الطريقة لكسرت زجاجة على رأسك "، فنظر إليّ مندهشاً. كان يعلم أني لا آبه بالقتال أو بالمصارعة، وأضيف " أمانعُ إن أنتَ لجأتَ إلى تلك الخدع كحلٍّ نهائي. لكنك تريد فقط أن تستعرض نفسك. أنت متنمرٌ صغير، والمتنمرٌ الصغير عُرضَة للأذى أكثر من المتنمرٌ الكبير. وذات يوم سوف تقاتل الرجلَ الخطأ ... "

ضحك. قال، إني دائماً أقاطع مجرى الأمور بطريقة غريبة.

ويقول " هذا ما يعجبني فيك. لا يمكن التكهُّن بتصرفاتك. ولا دستور لك " - ثم يقهقه " أنت حقاً في الأساس مخادع. وإذا ما أوجدنا عالماً جديداً سوف يكون لك فيه مكان. يبدو أنك لا تفهم معنى العطاء والأخذ. أنت أفّاق مفكّر ... أحياناً لا أفهمك أبداً. أنت دائماً مرح وعذب المعشر، وتقريباً محبٌّ للاختلاط، ومع ذلك ... حسن، ليست لديك ولاءات. إنني أحاول أن أكون صديقك ... لقد كنا صديقين ذات يوم كما تذكر ... لكنك تغيرت ... أنت قاس من داخلك ... لا يمكن لمسك. يا إلهي، إنك تظن أني قاس ... إنني فقط مزهو بنفسي، ومولع بالقتال، مفعم بالنشاط. أنت القاسي. أنت رجل عصابة، أتدري هذا ؟ " ويضحك ضحكاً خافتاً. " نعم، هنري، هذا أنت - رجل عصابة في الروح. أنا لا أثق فيك ... "

كان يغيظه أن يلاحظ العلاقة السلسة القائمة بين ريبيكا وبيني. لم يكن غيوراً، ولا سببَ لديه ليكون كذلك، لكنه كان يحسدني على مقدرتي على خلقِ مثل تلك العلاقة السلسة مع زوجته. كان دائماً يحدثني عن براعاتها الفكرية، وكأنَّ هذا يجب أن يشكّل أساساً

للانجذاب بيننا، ولكن أثناء عقد نقاش، إذا كانت ريبيكا حاضرة، يتصرَّف معها وكأنَّ آراءها لا قيمة لها. أما إلى مونا فكان يصغي بانجذاب يكاد يكون هزلياً. وطبعاً كان ينصت إليها حتى تنتهي وهو يقول " نعم، نعم، طبعاً "، لكنه في الواقع لم يكن يولي أي انتباه لما تقول.

حين أكون وحدي مع ريبيكا، أراقبها وهي تعدُّ وجبة أو وهي تكوي الملابس، أفتح معها أحاديث من النوع الذي لا يفتحه المرء إلا مع امرأة تخص رجلاً آخر. هنا تسود بحق روح " الأخذ والعطاء " التي يتذمَّر آرثر ريموند من أني أفتقر إليها. كانت ريبيكا عمليّة وليست عقليّة أبداً. كانت ذات طبيعة حسّية وتحب أن تعامل كامرأة وليس كعقل. أحياناً كنا نتحدث عن أشد الأشياء بساطة وألفة، أشياء لم يكن أستاذ الموسيقى يجد فيها على الإطلاق ما يثير اهتمامه.

إن تبادل الحديث هو ذريعة لإقامة أشكال أخرى، أشد رهافة من الاتصال. وحين تكون هذه الأخيرة غير فعّالة يصبح الحديث ميتاً. وإذا ما نوى اثنان على إقامة اتصالٍ بينهما لا يهم البتّة كم يغدو الحديث مُحيِّراً. والذين يصرّون على الصفاء والمنطق غالباً ما سيفشلون في جعل أنفسهم مفهومين. إنهم دائماً يفتشون عن وسيلة اتصال أكثر مثاليّة، يُضلِّلهم افتراضُ أنَّ العقلَ هو الأداةُ الوحيدةُ لتبادلِ الأفكار. إذ عندما يبدأ المرء فعلاً بالتكلُّم فإنه ينقُلُ ذاته؛ يبعثر الكلمات بتهوُّر، وبلا أي حذر. لا تهمّه الأخطاء القواعدية، والتناقضات، والأكاذيب وما إلى ذلك. إنه يتكلم. وإذا كنت تتحدث إلى شخصٍ يعرف كيف يصغي فإنه يفهم فهماً تاماً، حتى وإن كانت الكلمات لا تحمل معنى. عندما يدور

twitter @baghdad_library

مثل هذا الحديث يحدث زواج، سواء أكنت تتحدث إلى رجل أم إلى امرأة. والرجال الذين يتحدثون إلى رجال آخرين يحتاجون إلى مثل هذا النمط من الزواج كحاجة النساء اللواتي يتحدثن إلى نساء. والأزواج نادراً ما يستمتعون بمثل هذا النوع من الأحاديث، لأسباب شديدة الوضوح.

يبدو لي أنَّ الحديثَ، الحديثَ الحقيقي، هو أحد أشد مظاهر جوع الإنسان للانخراط في زواج دائم تعبيراً. والحساسون من الناس، أصحاب الشعور، يرغبون في الاتحاد بصورة أعمق، وأشد رهافة ودواماً مما تسمح به العادات والتقاليد . أقصد بطرق تتجاوز الحلم بالمدن الفاضلة السياسية والاجتماعية. إن الأخوة الإنسانية، إذا ما تحققت، ما هي إلا مرحلة الطفولة في دراما العلاقات الإنسانية. وحين يبدأ الإنسان يسمح لنفسه بالتعبير الكامل، حين يتمكن من التعبير عن نفسه دون خوف من التعرُّض للسخرية، أو النبذ الاجتماعي أو الاضطهاد ، فإنَّ أول ما سيفعله هو أن يُغْدِقَ حبه. إننا في قصة الحب الإنساني ما زلنا في الفصل الأول. وحتى هناك، حتى في عالم الشخصيّ الصِرْف، يكون السرد شديد الادّعاء. هل لدينا أكثر من حفنة من أبطال الحب وبطلاته لنستشهد بهم؟ إنني أشك في أنَّ لدينا من العشاق العظام بقدر ما لدينا من القديسين الشهيرين. إنَّ لدينا وفرة من الفُقهاء، والملوك والأباطرة، ورجال الدولة والقادة العسكريين، والفنانين، والمخترعين، والمكتشفين والرواد - ولكن أين العشاق العظام؟ بعد برهة من التفكير نتذكر أبيلار وإيلويز، أو أنطونيو وكليوباترا، أو قصة تاج محل. والكثير منهم خيالي، وممدَّد وممجَّد على يد عشاق معوزين لا تُستجَاب صلواتهم إلا

بالأساطير والخرافات. تريستان وأيزولد - أيُ سحرٍ طاغٍ ما زالتْ هذه الأسطورة ترميه على العالم الحديث! إنها تشمخ وسط المشهد العام الرومانسي كقمة فوجي ياما المكلَّلة بالثلوج.

كانت هناك ملاحظة أبديتُها لنفسي مراراً وتكراراً وأنا أنصت إلى التشاحن الذي لا ينتهي بين آرثر ريموند وكرونسكي. وكان مفاده أنَّ المعرفة بعيداً عن الفعل تكون عقيمة. ها هنا شابان بكامل حيويتهما، وكل منهم لامع على طريقته الخاصة، يتجادلان بحميّة ليلاً ونهاراً حول إيجاد مدخل جديد لحل معضلات الحياة. وثمة شخص متزمت، يعيش حياةً متواضعةً ورزينةً ومنضبطةً في مدينةِ فيينا النائية، كان مسؤولاً عن تلك المصادمات. كان ذاك التشاحن يدور في أرجاء العالم الغربي كله. وبدا أنَّ على المرء أن يتكلم بحميّة عن نظرات سيغموند فرويد أو لا يتكلَّم أبداً. تلك الحقيقة وحدها هامة، بل أشد أهمية بكثير من النظريات موضع النقاش. وفي غضون العشرين سنة القادمة سوف يرضخ بضعة آلاف من الناس - وليس مئات الآلاف! - للعملية المسمَّاة التحليل النفسي. وعبارة " التحليل النفسي " سوف تفقد سحرها تدريجياً وتصبح متداولة. وسوف تقلُّ قيمتها العلاجية إلى حد انتشار فهمها العام. وسوف تفقد الحكمة الكامنة في اكتشافات فرويد وتأويلاته فعاليتها مع ازدياد رغبة العصابيين في التكيُّف من جديد مع الحياة.

وفي حالة صديقيَّ الشابين سوف يصبح أحدهما لاحقاً مستاءً من كل حل يقدَّم لمشكلات هذه الأيام إلا إذا تمَّ على يد الفكر الشيوعي؛ والآخر، الذي كان سيعلنني مجنوناً لو أني ألمحت عندئذ إلى مثل ذلك

twitter @baghdad_library

الاحتمال، فسوف يغدو مريضاً عندي. وأستاذ الموسيقى تخلّى عن الموسيقى لكي يصحّح أحوال العالم وفشل. بل لقد فشل في جعل حياته أكثر إثارة، وإشباعاً ورحابة. والآخر تخلّى عن مهنة الطب وأخيراً وضع نفسه بين يدي واحد دجّال، محسوبك. فعل ذلك عمداً، وهو يعلم أنَّ مؤهلاتي كلها تتركّز في صدقي وحماسي. بل إنه سُرَّ للنتيجة، التي كانت صفراً، وكان قد توقّعها مسبقاً.

لقد مرَّ الآن عشرون عاماً على الفترة التي أتحدَّث عنها. ومؤخراً، بينما كنت أهيم على وجهي بلا هدى، قابلتُ مصادفةً آرثر ريموند في الشارع. وكان يمكن أن أتجاهله لولا أنه حيّاني. كان قد تغيَّر، كان يلبس حزاماً يكاد يكون مناسباً لقياس كرونسكي؛ أضحى رجلاً كهلاً ذا صفٍّ من الأسنان السوداء المفحّمة. وبعد أن تبادلنا بضع كلمات بدأ يتحدث عن ابنه - ابنه الأكبر، الذي يدرس الآن في الجامعة وعضو في فريق كرة القدم. لقد نقل آماله كلها إلى ابنه. شعرت بالاشمئزاز. وحاولت عبثاً أن أحصل على أي فكرة ولو غامضة عن حياته. لا، إنه يفضِّل أن يتحدّث عن ابنه. هو الذي سيصبح ذا شأن!(رياضياً، كاتباً، موسيقياً - الله أعلم). أنا لم يكن يهمّني أمر الابن. وكل ما استطعت أن أفهمه من ذلك الدفق المندفع هو أنه هو، آرثر ريموند، قد مات. كان يعيش في ابنه. أمرٌ يثير الشفقة. لم أستطع أن أتخلّص منه بسهولة.

" يجب أن تأتي وتزورنا قريباً " (كان يحاول أن يستبقيني) " دعنا نعقد جلسة حميمة طيبة معاً. أنت تعلم كم أحب التحدُث! "، وأطلق واحدة من تلك الضحكات الشاخرة كما في الأيام الماضية.

ثم أضاف، وهو يتشبَّث بقوة بذراعي " أين تقطن الآن؟ "

أخرجت قطعة من الورق من جيبي ودوَّنتُ عنواناً زائفاً ورقم هاتف. وقلت في نفسي: حين سنتقابل في المرة القادمة قد يحدث ذلك في عالم النسيان.

بعد أن ابتعدت عنه أدركت فجأة أنه لم يُظهِر أي اهتمام واضح بما حدث لي طوال كل تلك السنين. كان يعرف أني كنت خارج البلاد ، وأني نشرت بضعة كتب. كان قد قال " لقد قرأت بعض ما كتبت، أتعلم هذا "، ثم ضحك بارتباك، وكأنه يقول " لكني أعرفك، أيها الوغد العجوز ... لن تخدعني! " . ومن ناحيتي كان يمكن أن أجيبه: " نعم، أنا أعلم كل شيء عنك. أعلم ما عانيت من خداع ومذلّة "

لو أننا بدأنا بالخوض في مستنقع التجارب لأمسى حديثنا شيقاً. كنا تفاهمنا بصورة أفضل مما فعلنا في أي وقت سابق. لو أنه فقط أتاح لي فرصةً ربما كنتُ أظهرتُ بوضوحٍ أنَّ آرثر الذي فَشِلَ لا يقلُّ عِزَّةً عندي من الشاب الواعد الذي أفرطت في إعجابي به ذات مرة. كنا نحن الاثنان متمرِّدين، كلٌ على طريقته. وكلانا كافح من أجل عالمٍ جديد.

عند فراقنا كان قد قال " طبعاً ما زلتُ أؤمن بها " (أي الشيوعية) . قال ذلك وكأنه آسف لاعترافه بأنَّ الحركةَ ليست كبيرة كفاية لتضمّه إليها مع حساسياته كلها. وبالطريقة نفسها تخيّلته يقول لنفسه إنه ما زال يؤمن بالموسيقى، أو بالحياة في الخلاء، أو في المصارعة اليابانية. وتساءلت إن كان قد أدرك فداحةَ ما فعَلَهُ بتخلّيه عن الدروب واحداً إثر آخر. ولو أنه كان قد توقف في أي موقع على المسار وكافحَ لشقِّ طريقَهُ الخاصة، لأضحَتْ الحياة أثمن. ليته أصبح بطلاً في المصارعة! وتذكَّرتُ ليلة أقنعني بمصاحبته لحضور مباراة في الملاكمة بين

twitter @baghdad_library

إيرل كادوك وسترانغلر لويس. (ومناسبة أخرى عندما ذهبنا معاً لمشاهدة مباراة ديمبسي وكاربنتييه) حينئذ كان شاعراً، وكان يشاهد إلهَين منخرطين في قتال مميت. كان يعلم أنَّ الأمرَ أكثر من مجردِ صراعٍ حتى الموت بين وحشين. كان يتكلم عن تينك الضخمين العظيمين اللذين احتلاّ الحلبة كما قد يتكلّم عن موسيقيَين عظيمين أو كاتبَين مسرحيِّين عظيمَين. كان يمثّل الجزء الواعي من الجمهور العامّي الذي يحضر تلك المشاهد. كان أشبه برجل إغريقي في عصر يوروبيدس. كان فناناً يصفِّق لفنانين آخرين. كان في أحسن حالاته وهو في المدرَّج.

وتذكَّرت مناسبة أخرى، عندما كنا ننتظر على رصيف محطة القطار. إذ فجأة، وبينما نحن نخطو جيئة وذهاباً، قبض على ذراعي وهو يقول: " يا إلهي، هنري، أتعرف من هذا؟ إنه جاك ديمبسي! "، وينطلق كالسهم من جانبي ويهرع إلى معبوده، ويقول بصوت عال، هادر " مرحبا جاك! تبدو بأحسن حال. أريد أن أصافحك. أريد أن أقول لك إنك بطل حقيقي "

أكاد أسمع صوت ديمبسي الصارّ، الحادّ يردُّ له التحيّة. وفي تلك اللحظة بدا ديمبسي، الذي كان يفوق آرثر ريموند في طول القامة بمراحل، أشبه بطفل. كان آرثر ريموند هو الشجاع والعدائي. لم يبدُ قط خائفاً من حضور ديمبسي، بل كدتُ أتوقَّع أن يربتَ على كتف البطل.

قال آرثر ريموند، بصوته المتوتر من شدّة الانفعال العاطفي، " إنه أشبه بحصان سباق رائع. يا له من مخلوق حسّاس ". لعله كان يفكر في نفسه، وكيف سيبدو الآخرين إذا ما أصبح هو فجأة بطلاً للعالم. " وهو شاب ذكي أيضاً. لا يمكن لرجل أن يلاكم بمثل ذاك الأسلوب المزخرف إلا

إذا كان يمتلك درجة عالية من الذكاء. إنه حقاً شاب رائع. إنه مجرد طفل كبير، أتعلم هذا. بل إنه في الواقع احمرَّ خجلاً، أتدري هذا؟ "، الخ الخ، ظل هكذا يتكلم بحماسة مفرطة عن بطله.

غير أنَّ أحلى الكلام قاله في حق إيرل كادوك. وأعتقد أن إيرل كادوك كان حتى أقرب إلى مَثَلِه الأعلى من ديمبسي. كان كادوك يسمّى بـ " الرجل ذو الألف طريقة في الإمساك "؛ له جسد كأجساد الآلهة، قد يبدو هشّاً أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى تلك المباريات القاسية، والمطوّلة التي تتطلّبها محنة المصارعة. وأذكر بحيوية كيف بدا في تلك الليلة إلى جانب سترانغلر لويس، الأضخم جثة، والأقوى. وكان آرثر ريموند متأكداً من أن لويس هو الذي سيفوز - غير أنَّ قلبَه كان مع إيرل كادوك. وأخذ يصرخ بأقوى ما استطاع، مشجعاً كادوك. بعد ذلك، وبينما كنا في محلٍ يهودي لبيع الأطعمة المعلّبة في الحي الشرقي، أخذ يراجع مراحل المباراة بالتفصيل. كان يتمتع بقوة ذاكرة خارقة حين يتعلّق الأمر بأي شيء يتحمّس له. وأعتقد أني حين أعود بالذاكرة أجد أني استمتعت بمشاهدة المباراة أكثر حين رأيتُها من خلال عينيه. بل إنه في الواقع تحدَّث عنها بشكل فائق الروعة إلى حد أني في اليوم التالي جلست وكتبت قصيدة نثرية عن مصارعَين. وفي اليوم الذي تلا أخذتها معي إلى طبيب الأسنان. وكان بدوره مولعاً بالمصارعة. ورأى طبيب الأسنان أنها chef- d'oeuvre (تحفة). وكانت النتيجة أني لم أحشُ سني. أخذني إلى الطابق العلوي لأقابل أفراد عائلته - كانوا من أوديسا _وسرعان ما وجدت نفسي منخرطاً في مباراة في لعبة الشطرنج استمرَّت حتى الساعة الثانية صباحاً. وبعد ذلك نشأت صداقة بيننا

twitter @baghdad_library

استمرَّت إلى أن عولجتْ أسناني كلها - وقد استغرق ذلك فترة أربعة عشر أو خمسة عشر شهراً. وعندما حان وقت دفع الفاتورة اختفيت. ولم نتقابل ثانية إلا بعد نحو خمس أو ست سنوات على ما أعتقد، وفي ظروف خاصة. لكني سأتحدث عن هذا لاحقاً ...

* * *

فرويد، فرويد ... كم من أشياء يمكن أن توضع على عتبة داره. إليك الدكتور كرونسكي الآن، بعد مرور عشر سنوات على حياتنا السيمانتية[٨٣] في ريفرسايد درايف. ضخمٌ كخنزير البحر، يلهث كحيوان الفظّ، ينفث الكلام كما ينفث القطار البخار. وقد أخلَّ جرحٌ أُصيبَ به في رأسه في توازن تكوينه العام. أصبح جسداً شاذاً، دراسةً في لعبة المقاصد المتعارضة[٨٤].

لم نكن قد تقابلنا طوال عدد من السنين. ثم نتقابل من جديد في نيويورك. ومسامرات محمومة. ويعلم أني حصَّلتُ معرفةً عميقةً بالتحليل النفسي خلال فترة غيابي في الخارج. وذكرت له أسماء عدة شخصيات بارزة في ذلك المجال يعرفهم جيداً - من خلال كتاباتهم. وذهل لأني أعرفهم شخصياً، وكأنهم قبلوا بي - كصديق. وبدا يتساءل إن كان قد ارتكب خطأ في حق صديقه الحميم هنري ميللر. وأراد أن يتحدث في الأمر، ويتحدث ويتحدث ويتحدث. رفضت. أثار ذلك إعجابه. إنه يعلم أنَّ التحدُث هو نقطة ضعف، رذيلة.

بعد لقاءات عدة أدركتُ أنه يبيِّت شيئاً. إنَّه لا يستطيع أن يسلِّم

---

٨٣ - السيمانتي : له علاقة بدلالات الألفاظ وتطورها . - المترجم

٨٤ - لعبُ حِوارية تُستخدَم فيها الكلمات بمعانٍ متعارضة أو مختلفة . - المترجم

بأنَّ لديَّ أي فكرة عن التحليل النفسي - يريد براهين. يسأل " ماذا تفعل الآن ... في نيويورك؟ "، فأجيبه بأني لا أفعل أي شيء. حقاً.

" ألا تكتب؟ "

" لا "

صمتٌ طويل. ثم جاءت الفكرة. تجربة ... تجربة ضخمة. وأنا لها. ويشرح لي.

بالمختصر المفيد يريد مني أن أُجري تجارب على بعض مرضاه - يجب أن أقول، مرضاه السابقين. لأنه تخلّى عن ممارسة المهنة. وهو واثق من حُسن أدائي وكأني طبيب - وربما أفضل. ويقول " لن أقول لهم إنك كاتب، بل إنك كنتَ كاتباً، ولكن أثناء إقامتك في أوروبا صرتَ محلّلاً نفسياً. ما رأيك؟ "

ابتسمت. للوهلة الأولى، لم تبدُ لي فكرة سيئة. في الواقع، كانت تلك الفكرة بالذات تراودني منذ وقتٍ طويل. وقبلتُ فوراً. اتفقنا إذن. غداً، عند الساعة الرابعة، سوف يُعرِّفني إلى أحد مرضاه.

هكذا بدأ الأمر كله. وسرعان ما أصبح لديَّ سبعة أو ثمانية مرضى. بدا أنهم مسرورون بما أبذلُ من مجهود. هذا ما أخبروا به الدكتور كرونسكي. وطبعاً كان هو قد توقَّعَ هذه النتيجة. ورأى أنه يمكن أن يصبح هو نفسه محللاً نفسياً. ولِمَ لا ؟ وكان لابد لي أن أعترف بأني لا أجد ما يمنع حدوث ذلك. إنَّ أي إنسان يتمتَّع بالسحر، والذكاء والحساسية يمكنه أن يصبح محللاً نفسياً. لقد كان هناك شافُون قبل أن يسمع أحد بميري بيكر إيدي[٨٥] أو سيغموند فرويد. إن الحسّ السليم يلعب دوراً أيضاً.

---

٨٥ - ميري بيكر إيدي (١٨٢١ - ١٩١٠) : أميركية . مؤسِّسة مذهب العلم النصراني الذي يعتقد مريدوه أن الخطيئة الأولى والمرض والموت يمكن القضاء عليهم عن طريق فهم تعاليم المسيح فهماً كاملاً . - المترجم

twitter @baghdad_library

قلت، دون أن أقصد أن أكون جاداً فيما أقول، " ولكن لكي يكون المرءُ مُحللاً نفسياً عليه أولاً أن يحلّل نفسه، كما تعلم "

قال " وهل فعلتَ أنت؟ "

تظاهرت بأنه قد تمَّ تحليلي. قلت له إنَّ أوتو رانك[٨٦] قام بالمهمة.

قال. مرة أخرى بدون أن يتأثر، " لم تخبرني بهذا قط ". كان يضمر احتراماً آثماً لأوتو رانك.

سألني " كم استغرقَ الأمر؟ "

" حوالي ثلاثة أشهر. إنَّ رانك لا يؤمن بالتحليلات المطوَّلة، أعتقد أنَّك تعلم هذا "

قال ، وقد استغرق في التأمُّل " هذا صحيح ". بعد لحظة خرج فجأة بما يلي: " ماذا عن تحليلي أنا؟ لا، أنا جادّ. أعرف أنها لا تُعتَبَرُ مجازفة جيدة حين يعرف اثنان أحدهما الآخر بشكل حميم مثلنا نحن، ولكن مع ذلك ... "

قلت ببطء، وأنا أتحسَّس طريقي إلى الأمام " نعم، وقد نفجِّر ذلك التحامل الأحمق. وعلى أي حال لقد حلَّلَ فرويدُ رانكَ نفسياً، ألم يفعل؟ "(وهذا كذب، لأنَّ رانك لم يخضع أبداً للتحليل النفسي، ولا حتى على يد الآب فرويد)

" إلى الغد إذن، عند الساعة العاشرة! "

قلت " عظيم. لا تتأخر. سوف أحاسبك على الساعة. ستون دقيقة لا أكثر. إذا لم تصل في الموعد المحدد أنت الخاسر ... "

ردّدَ، وهو ينظر إليّ وكأني فقدت عقلي " ستحاسبني أنا؟ "

---

٨٦ – أوتو رانك (١٨٨٤ – ١٩٣٩) : عالم نفس نمساوي . صاحب نظرية تقول إن الرضوض التي يُصابُ بها المولود عند الولادة قد تسبِّب أمراضاً عقلية . – المترجم

"طبعاً سأفعل! أنت تعلم جيداً كم هو مهم بالنسبة إلى المريض أن يدفع مقابل تحليله نفسياً "

زعق " لكني لست مريضاً! يا إلهي، إنني أقدِّم لك معروفاً "

قلت، وأنا أتصنَّعُ هيئة هادئة، " الأمر يعود إليك. إذا كان في استطاعتك أن تجلب شخصاً آخر يقوم بالمهمة مجاناً، خيرٌ وبركةٌ. أنا سأتقاضى منك الأجر المعتاد، الأجر الذي حدَّدته أنت نفسك لمرضاك "

قال " اسمع الآن، أصبحت غريب الأطوار. أولاً وقبل أي شيء، أنا الذي أطلقتك في هذا العمل، لا تنس ذلك "

ألحَّيتُ " بل يجب أن أنسى هذا. إنها ليست مسألة عاطفية. ففي المقام الأول ينبغي أن أذكِّرُكَ أنك لست فقط بحاجة إلى الخضوع للتحليل النفسي لكي تصبح محللاً نفسياً، بل تحتاج إليه لأنك شخص عصابيّ. ولا يمكنك أن تغدو محللاً إذا لم تكن عصابياً. فقبل أن تصبح قادراً على شفاء الآخرين يجب أن تشفي نفسك. وإذا لم تكن عصابياً سأجعلك كذلك قبل أن أنتهي من أمرك، فما رأيك بهذا ؟ "

كان يرى في الأمر نكتة كبيرة. ولكن في اليوم التالي جاءني، وكان متأهباً أيضاً للعمل. بدا وكأنه لم ينم لحظة واحدة طوال الليل وذلك لكي لا يتأخر عن موعده.

قلت، حتى قبل أن يخلع معطفه، " النقود "

حاول أن يضحك باستخفاف. استقرَّ على الأريكة، متلهفاً للشرب من زجاجته كأي طفل رضيع في القماط.

ألحَّيتُ " يجب أن تعطنيه الآن، وإلا رفضت أن أتعامل معك "، واستمتعتُ بتشدُّدي معه - كان دوراً جديداً حتى عليَّ ألعبه.

twitter @baghdad_library

قال، محاولاً أن يتملَّص، " ولكن ما أدراك أننا سنستطيع أن نستمر في المشروع؟ ها أنا أقول لك ... إذا أعجبتني طريقتك في معالجتي سأنفِّذ كل ما تطلب ... في حدود المعقول، طبعاً. ولكن كفاك ثرثرة حول الموضوع. هيا، لنباشر العمل "

قلت " لا عمل. لا نقود، لا عمل. إذا كنتُ لا أصلح يمكنك أن تقاضيني، ولكن إذا أردتَ مساعدتي فعليك أن تدفع - والدفع مقدماً... بالمناسبة، إنك تضيِّع وقتي، في الواقع . كل دقيقة تنفقها وأنت جالس هنا تماحك حول النقود تضيِّع بها وقتاً كان يمكن أن يُنفَق بشكلٍ مفيد أكثر. إنها الآن " - وهنا نظرت في ساعة يدي - " إنها الآن العاشرة واثنا عشرة دقيقة. حالما تصبح جاهزاً سنبدأ ... "

كان منزعجاً جداً كجروٍ لكني حاصرته ولم يبق أمامه إلا أن يدفع النقود.

وبينما كان يدفع المبلغ - تقاضيت منه عشرة دولارات للجلسة الواحدة - نظر إليّ، ولكن هذه المرة بهيئة مَنْ وضع نفسه تحت تصرُّف الطبيب. " هل أفهم منك إنه إذا جئتُ إلى هنا ذات يوم بدون نقود، وإذا تصادف أن نسيت أو كان المبلغ ناقصاً بضع دولارات فلن تقبلني؟ "

قلت " بالضبط. نحن متفاهمان تفاهماً تاماً. هلاّ بدأنا ... الآن؟ "

استلقى على ظهره على الأريكة كخروف مستعد لتلقي ضربة الفأس. قلت، مهدِّئاً وأنا جالس خلفه وبعيداً عن مرمى بصره، تمالك نفسك. اهدأ واسترخِ. سوف تحكي لي كل شيء عنك ... منذ البداية الأولى. لا تتخيَّل أنك ستستطيع أن تحكي لي كل شيء في جلسة واحدة. سوف نعقد عدة جلسات كهذه. وطول مدة هذه العلاقة أو قِصَرِها

أمرُهُ في يدك. تذكَّر أنَّ كل جلسة تكلِّفك عشرة دولارات. ولكن لا تدع ذلك يوتِّر أعصابك، لأنك إذا تركتَ أمر التكلفة يشغل بالك سوف تنسى ما تنوي أن تخبرني به. إنها عملية مضنية، لكنها لصالحك. وإذا تعلَّمتَ كيف تتكيَّف مع دور المريض فسوف تتعلم أن تتكيَّف مع دور المحلِّل. كن ناقداً لذاتك، وليس لي. إنني مجرد أداة. أنا هنا لأساعدك... والآن تمالك نفسك واسترخِ. سأكون مستعداً للإصغاء عندما تصبح مستعداً للإفصاح ... "

كان قد تمدَّدَ على طول جسمه، ويداه معقودتان فوق جبلٍ من اللحم هو بطنه. وكان وجهه مدجَّجاً باللحم؛ وقسماته تحمل نظرةً شاحبةً، وبشرته أشبه ببشرة رجلٍ عاد لتوه من المرحاض بعد أن حصر نفسه حتى الموت. كان للجسمِ شكلٌ غير منتظم لرجلٍ بدينٍ عاجزٍ يجد أنَّ الجهدَ الذي سيبذله لينهض إلى وضعية الجلوس صعب كالصعوبة التي تواجه سلحفاة انقلبت على ظهرها وتريد أن تصحِّح وضعَها. بدا أنَّ القوةَ التي يتمتَّع بها قد خانته. وظل يتقلَّبُ باضطراب بعض الوقت، كسمكةٍ مفلطحة إنسانية تتشقلب.

عملَ حضِّي له على الكلام على شلِّ مقدرته على التكلُّم التي كانت موهبته الفطرية. فأولاً لم يعد أمامه أي خصم ليقضي عليه. ثم طُلِبَ منه أن يستخدم حصافته رغماً عنه. كان عليه أن يفصح ويبوح بما في نفسه - باختصار، أن يُبدِع - وكان ذلك شيئاً لم يحاول قط أن بفعله من قبل. كان عليه أن يكتشف " معنى المعنى " بطريقةٍ جديدةٍ، وكان جلياً أن التفكير في ذلك أشاع فيه الرعب.

بعد أن تلوّى، وهرشَ نفسه، وتقلَّبَ من جنبٍ إلى جنب على

twitter @baghdad_library

الأريكة، وعرك عينيه، وسعل، وبصق، وتثاءب، فتح فمه وكأنما ليتكلم - لكن شيئاً لم يخرج منه. وبعد بضع نخرات نهضَ ليتّكئ على مرفقه والتفت نحوي. كان في عينيه تعبيرُ يثيرُ الشفقة.

قال " ألا تطرح عليَّ بضعة أسئلة؟ لا أعلم من أين أبدأ "

قلت " من الأفضل ألا أطرح عليكَ أي سؤال. سوف تجد طريقك بنفسك إذا أخذت وقتاً كافياً. وحالما تبدأ ستتدفَّق كسيلٍ غزيرٍ. لا تنس هذا "

ارتمى بتثاقُل عائداً إلى وضع الانبطاح وأطلقَ تنهيدة عميقة. قلت في نفسي، سيكون رائعاً لو نتبادل مكانينا. كنت خلال فترات الصمت، وبينما إرادتي معطَّلة، أستمتع بمتعةِ الإدلاء باعترافٍ صامتٍ أمام محلِّلٍ أعلى وخفيّ. لم أشعر بأقلّ قدرٍ من الخوف أو الارتباك أو بأني قليل الخبرة. والحق أني حالما قررت أن ألعب الدور اندمجتُ فيه كلياً وبتُّ مستعداً لأي احتمال. أدركت على الفور أنه بمجرَّد أن يتلبَّس المرءُ دورَ الشافي يُصبح شافياً فعلاً.

كنت أحمل بيدي حزمة من الورق وعلى أهبة الاستعداد لتسجيل أي شيء ذي أهمية يتلفَّظ به. ولما طالت فترة الصمت رحتُ أخربش بضع ملاحظات ذات طبيعة فوق علاجية. وأذكر أني دوَّنتُ اسميّ تشسترتن[٨٧] وإريو[٨٨]، وهما شخصيتان عملاقتان كانتا، مثل كرونسكي، تتّصفان ببراعة لفظيّة خارقة.وتبدَّى لي أني كثيراً ما لاحظت هذه الظاهرة chez les gras hommes (عند الشخصيات العظيمة). لقد كان كلٌ منهما

---

٨٧ - جيلبرت كينيث تشسترتن (١٨٧٤ - ١٩٣٦) : كاتب بريطاني . - المترجم

٨٨ - ادوار إريو (١٨٧٢ - ١٩٥٧) : رجل دولة راديكالي وكاتب فرنسي . - المترجم

ميدوزا[٨٩] عالم البحار - عضواً عائماً يسبحُ في رنينِ صوته الخاص. من الخارج له شكل مخلوق بحري، يلاحَظُ في مَلَكَته العقلية تركيز رائع وحادّ. ولطالما كان البدينون مفعمين بالنشاط، وذوي جاذبية طاغية، وفتنة لا تقاوَم. تكاسلهم وقذارتهم خادعة. غالباً ما يحملون في عقولهم درراً. وخلافاً للنحيلين، بعد أن يلتهموا أطباق الطعام تتلألأ أفكارهم وتتألق. يكونون غالباً في أحست حالاتهم حين تُثارُ لديهم حاسّة التذوُّق. الإنسان النحيل أيضاً أكولٌ كبير في كثير من الأحيان، يميل إلى الترهُّل والبلادة حين يُستدعَى جهاز التذوُّق إلى العمل. ويكون عادة في أحسن حالاته وهو فارغ المعدة.

قلت أخيراً، خشية أن ينام في حضوري، " لا يهم من أين تبدأ. لا يهم بماذا تبدأ فسوف تعود دائماً إلى مصدر الوجع "، وسكتُّ برهة. ثم قلت بتأنٍ شديد وبصوتٍ مهدِّئ، " يمكنك أن تأخذ غفوة. أيضاً، إذا شئت. لعلَّ ذلك يفيدك "

على الفور أصبح يقظاً تماماً وأخذ يتكلَّم. لقد كهربَتْهُ فكرةُ الطلبِ منه أن يأخذ غفوة. كان يوزِّع كلامه في الاتجاهات كافة دفعة واحدة. ورأيت أنها استراتيجية لا بأس بها.

كما قلت، باشَر بدفقٍ من الكلام، مدفوعاً بخشيته المسعورة من أن يهدر الوقت. وفجأة بدا أنه قد أصبح متأثراً باعترافاته حتى أنه أراد أن يجرني إلى نقاشٍ حول فحواها. ومرة أخرى أرفضُ بإصرارٍ ورفقٍ التحدِّي. قلت " لاحقاً، بعد أن يصبح لدينا مادة نتحدَّث عنها. إنك بالكاد بدأتَ ... بالكاد لمستَ السطح "

---

٨٩ - ميدوزا : في الأساطير الإغريقية ، مخلوقة بشعة يتحوّل كلُّ مَنْ ينظر إليها إلى حجر . - المترجم

twitter @baghdad_library

سألني، معجباً بنفسه " ألا تدوِّن الملاحظات؟ "

أجبته " لا عليك مني، فكِّر في نفسك، في مشاكلك أنت. تذكَّر أنَّ عليك أن تثق فيَّ ثقةً تامة. وكل دقيقة تمضيها في التفكير في الأثر الذي تتركه عليَّ هي وقتٌ ضائع. يجب ألا تحاول أن تبهرني - مهمتك هي أن تكون صادقاً مع نفسك. لا وجودَ لجمهورٍ مشاهدين هنا - أنا مجرد مشاهد واحد. أذنٌ ضخمة. ويمكنك أن تملأها بالحثالة والهراء، أو يمكنك أن تُسقِطَ حبّات من اللؤلؤ فيها. إنَّ رذيلتك هي الخجل. هنا نحن لا نريد إلا ما هو حقيقي وصحيح ومُعاش ... "

مرة أخرى لفَّه الصمت، وتململ قليلاً، ثم هدأ. حينئذ شبكَ يديه معاً تحت رأسه. وكان قد رفع الوسادة لكي لا يستغرق في النوم.

قال بمزاجٍ هادئ ومتأمِّل أكثر " كنت فقط أفكِّر في حلمٍ رأيته ليلة أمس. أعتقد أني سأحكيه لك. لعله يلقي الضوء قليلاً ... "

هذه المقدمة القصيرة كان لها معنى واحد - أنه كان ما يزال قلقاً بشأن إنهائي لتعاوننا. كان يعلم أنه في التحليل النفسي يتوقَّع من المرء أن يكشف عن أحلامه. كان واثقاً من تلك التقنية كلها - كانت تقليدية. قلت في نفسي، غريب كيف أنه مهما عرف المرء عن موضوع ما، يبقى التطبيق مسألة مختلفة. لقد كان يفهم تماماً ما الذي يجري، في التحليل النفسي، بين المريض والمُحلِّل، لكنه لم يقف وجهاً لوجه مع إدراك مغزاه. حتى عندئذ، وعلى الرغم من كراهيته لتبديد المال، كان سيرتاح أكثر بكثير لو أني، بدل أن يتابعَ سردَ حلمه، اقترحتُ عليه أن نناقش الطبيعة العلاجيّة لتلك الإفشاءات. كان حتماً سيفضِّلُ أن يلفِّق حلماً ومن ثم يفرمه ناعماً معي على أن يُفرِغ ما في نفسه بهدوء

وصدق. شعرت أنه يلعن نفسه - ويلعنني أنا أيضاً، طبعاً - لأنه اقترح وضعاً في حين كان يمكنه أن يكتفي، في تصورِّه، بالسماح بتعذيبه.

ومع ذلك نجح، بكثيرٍ من الجهد والعرق، في أن يعرض سرداً منسجماً للحلم. سكَتَ، بعد أن انتهى، وكأنه يتوقع مني أن أدلي بتعليقٍ ما، أن أعطي إشارةَ استحسان أو استهجان. ولما لم أقلْ أي شيء بدأ يعبث بفكرة مغزى الحلم. وفي غمرة تلك النزهات الفكرية توقف فجأة وأدار رأسه قليلاً وغمغم باكتئاب " أعتقد أنه ما كان ينبغي أن أفعل ذلك ... إنه عملك أنت، أليس كذلك؟ "

قلت بهدوء " تستطيع أن تفعل ما تشاء. إذا كنت تفضِّل أن تحلِّل نفسك بنفسك - وتدفع لي مقابل ذلك - لا مانع عندي. أعتقد أنك تدرك أنَّ أحد الأشياء التي جئتني من أجلها هو أن تكتسب الثقة بالنفس وبالآخرين. وفشلك في أن تتبيَّن ذلك يشكِّلُ جزءاً من مرضك "

على الفور بدأ يرغي ويزبد. كان لابد له من أن يدافع عن نفسه ضد مثل تلك الاتهامات. لم يكن صحيحاً أنه يفتقر إلى الثقة بالنفس وبالآخرين. لقد قلت ذلك فقط لأجرح كبرياءه.

قاطعته قائلاً " وأيضاً لا فائدة من جرِّي إلى الجدال. إنَّ همَّكَ الوحيد هو أن تُثبِتَ أنَّك تعرف أكثر مني فإنك لن تصل إلى أي نتيجة. حسبتُ أنك تعرف أكثر مني - لكن هذا أيضاً هو جزءٌ من مرضك - أي أنك مفرط المعرفة. إنك لن تعرف أي شيء أبداً. لو أنَّ المعرفةَ تستطيع أن تنقذك، لما كنت مستلقياً هنا "

قال بخنوع، وقد قَبِلَ تصريحي كتقريع يستحقه، " معك حق. والآن دعني أرى ... أين كنت؟ سوف أغوص إلى أعماق الأشياء ... "

twitter @baghdad_library

عند هذه النقطة نظرتُ عَرَضاً إلى ساعة يدي فوجدت أن فترة الساعة قد انتهت.

قلت، وأنا أنهضُ واقفاً واقترب منه " انتهى الوقت "

قال، وهو يرفع بصره إليّ بغضب وكأني أهنته " ألا انتظرتَ قليلاً؟ الأشياء التي تريدني أن أقولها قد بدأت تردني الآن. اجلس قليلاً ... "

قلت " لا، لا نستطيع أن نفعل هذا. لقد استنفذتَ فرصتك - منحتكَ ساعةً كاملة. لعلك في المرة القادمة تتصرَّف بشكلٍ أفضل. هذه هي الطريقة الوحيدة للتعلُّم "، وبهذا نخعته ليقف على قدميه.

ضحك رغماً عنه. مدَّ يده وصافحني بحرارة. قال " وحقُّ الله أنت على صواب! إنك تتمتَّع بالتقنية الدقيقة. كنت سأفعلُ كما فعلتَ بالضبط لو كنتُ في مكانك "

ناولته معطفه وقبعته، واتجهت نحو الباب لأفتحه له ليخرج.

قال " لا أظنك تتخلَّص مني، أليس كذلك؟ ألا نستطيع أن نتسامر قليلاً أولاً؟ "

قلت، وأنا أسير به نحو الباب رغماً عنه، " أنت تريد أن تناقش الوضع، ألستُ محقَّاً؟ مستحيل، دكتور كرونسكي. لا نقاشات. سوف أتوقع حضورك غداً في الساعة نفسها "

" ولكن ألن تأتي إلى المنزل هذا المساء؟ "

" كلا، وهذا أيضاً لن يحدث. إلى أن تُنهي تحليل نفسك لن تكون بيننا إلا صلة الطبيب بالمريض. هذا أفضل بكثير، وسترى ". صافحته، وكانت يده تتدلّى رخوةً، فرفعتها وهززتها بحركة وداع قوية. خرج من الباب بدءاً بظهره وكأنه مُصاب بدوار.

خلال الأسابيع القليلة الأولى كان يحضر مرة كل يومين، ثم توسَّلَ إليّ كي أضع برنامجاً تعاقبياً، مشتكياً من أن نقوده تنفد. وطبعاً كنت أعلم أن الأمر يستنزفه، ذلك أنه منذ أن توقَّفَ عن ممارسة المهنة أصبح دخله الوحيد يأتيه من شركة التأمين. لعله كان قد ادَّخَرَ مبلغاً محترماً من المال - قبل وقوع الحادثة. وطبعاً كانت زوجته تعمل كمدرِّسة - ما كان يمكن أن أتغافل عن ذلك. لكنَّالمشكلة كانت في إخراجه من حالة الاتكال، في استنزاف كل بنس يملكه، لكي يستعيد الرغبة في كسب لقمة عيشه من جديد. ولم يكن أحد ليصدِّق أنَّ من الممكن لرجل بحيويته، ومواهبه، وقدراته، أن يخصي نفسه عن عمد لكي يحصل على أفضل ما يمكن من شركة التأمين. ولا شك في أنَّ الجراح التي كابدها من حادث السيارة قد أضعفت صحته. أصبح وحشاً حقيقياً. كنت في دخيلتي مقتنعاً بأنَّ الحادثة عملت فقط على تسريع عملية تحوّله المريب. وعندما خرج بفكرةِ أنه أصبح مُحلِّلاً نفسياً أدركت أنه ما زال هناك بارقة أمل فيه. وقبلت العرض كما بدا ظاهرياً، وأنا أعلم أنَّ كبرياءه لن تسمح له أن يعترف بأنَّه قد أصبح " حالة ". كنت دائماً استخدم كلمة " مرض " عن عمد - لكي أزعجه، لأدفعه إلى الاعتراف بأنه يحتاج إلى مساعدة. وعرفت أيضاً أنه لو أعطى نفسه نصف فرصة لانهار في نهاية المطاف ولوضع نفسه بشكلٍ تام رهن إشارتي.

إلا أنه كان من قبيل المقامرة الكبرى أن أفترض أنَّ في استطاعتي أن أحطِّم كبرياءه. لقد كانت كبرياؤه مؤلَّفة من طبقات، تشبه طبقات الشحم التي تحيط بجذعه. كان مؤلفاً من جهاز دفاع كامل وهائل، وكانت طاقاته تستنفذ باستمرار في إصلاح مواضع الرشح التي تظهر في

twitter @baghdad_library

كل مكان. ومع الكبرياء كان الشك. قبل كل شيء، الشك في أنه يمكن أن يسيء تقدير مقدرتي على التعامل مع " الحالة ". لطالما كان يُطري نفسه بالقول إنه يعرف نقاط ضعف أصدقائه. وكان يعرفها، بدون أدنى شك - فليس ذلك بالأمر الصعب. كان يعمل على الإبقاء على نقائص أصدقائه لكي يدعم إحساسه بتفوّقه. كان يعتبرُ أيَّ تحسُّنٍ، أي تطورٍ، يحدث لأحد أصدقائه، خيانة. كان يُبرِز الجانب الحسود من طبيعته ... باختصار، كان كامل موقفه من الآخرين طاحونة شريرة.

لم تكن الحادثة قد غيّرته تغييراً جوهرياً. كانت قد غيَّرت فقط مظهره، ضخَّمت ما كان لتوِّه كامناً في كيانه. والوحش الذي طالما كان كامناً أصبح عندئذ حقيقة ملموسة. كان ينظر إلى نفسه في كل يوم في المرآة ويرى بأم عينيه ما جعل من نفسه. رأى بعينيّ زوجته شعور الاشمئزاز الذي كان يثيره في الآخرين. وسرعان ما أخذ أطفاله يرمونه بنظرة غريبة - وكانت تلك هي القشّة التي قصمت ظهر البعير.

بإرجاعه سبب كل شيء إلى الحادثة نجح في الحصول على قدرٍ من المواساة من المتهورين. ونجح أيضاً في تركيز الانتباه على جسده وليس على روحه. ولكن حين ينفرد بنفسه يعلم أنها كانت لعبة سرعان ما تنتهي. لم يكن ليستطيع أن يستمر إلى الأبد في أن يجعل من كومة لحمه الهائلة ستاراً من الدخان.

حين استلقى على الأريكة ليزيح الهمَّ عن كاهله استغربت إذ لاحظت أنه مهما كانت النقطة التي يبدأ منها الماضي كان دائماً يعتبر نفسه غريباً وبشعاً. والكلمة الأدقّ لشعوره اتجاه نفسه هي أنه " مُدان ". مدان منذ البداية. كان مفتقراً تماماً إلى أي قدر من الثقة في نفسه فيما

يخصُّ قَدَرَه الخاص. وطبعاً وحتماً كان ينقل هذا الشعور إلى الآخرين؛ وبصورةٍ ما كان ينجح في مناورته هذه بحيث أنَّ صديقه أو حبيبته تخذله أو تخونه. كان ينتقيهم بالاستبصار الذي أبداه المسيح في انتقائه ليهوذا.

كان كرونسكي يريد فشلاً باهراً، فشلاً باهراً إلى درجة يبزُّ فيها النجاح. وكأنه أراد أن يبرهن للعالم أنَّ في وسعه أن يحصِّل المعرفة كأي إنسان وأن يكون كأي إنسان آخر، وفي الوقت نفسه أن يبرهن على أنّه من العبث - أن يبلغ أي شيء أو أن يحصِّل أي معرفة. بدا عاجزاً بالفطرة عن إدراك وجود مغزى متأصِّل في كل شيء. لقد أهدر نفسه في الاجتهاد ليبرهن على أنه لا يمكن أن توجد أي براهين نهائية، دون أن يعي ولو لحظة واحدة عبث دحض المنطق بالمنطق. وقد ذكَّرني ذلك، أقصد وجهة النظر تلك، بالشاب سيلين[٩٠] وهو يقول باشمئزاز حانق: " كان في إمكانها أن تنطلق إلى الأمام وتكون حتى أكثر جمالاً، وإغواءً بمائة ألف مرة، وما كنت لأتغيَّر أبداً - لا تنهيدة، ولا أي شيء. كان في استطاعتها أن تمارس كل ما يمكن تصوُّره من حيل وخدع، وأن تتعرَّى إلى أقصى درجة لترضيني، وتمزق نفسها، أو أن تقطع ثلاثة أصابع من يدها، كان في استطاعتها أن ترشَّ شعرها بالنجوم - ولكن لم أتكلَّم أبداً، أبداً! ولا حتى همسة صغيرة. لم أفه بكلمة! "

إن وسائل الدفاع المتنوعة التي يحيط بها الإنسان نفسه لا تقلُّ إذهالاً عن آليات الدفاع المرئية في عالم الحيوان والحشرات. ثمة مادة

---

٩٠ - لوي فرديناند سيلين (١٨٩٤ - ١٩٦١) : روائي وطبيب فرنسي . أثناء الاحتلال النازي لباريس كشف عن مناصرته للفاشية . خلَّدته روايته " رحلة إلى آخر الليل " . وله أيضاً " موت بالدَين " . - المترجم

twitter @baghdad_library

وجوهر حتى للتحصينات النفسية، كما يكتشف المرء حين يبدأ باختراق تخوم الذات المحرَّمة. والأصعب بينها ليست بالضرورة تلك المستترة خلف صفيحة الدرع، سواء أكان من الحديد أم الفولاذ أم الزنك. ولا هي صعبة جداً، على الرغم من أنها توفِّر مقاومة أعظم، تلك التي تحيط نفسها بالمطاط والتي، mirabile dictu (ويا للعجب)، تبدو أنها اكتسبت فن تقسية حواجز الروح المثقوبة. والأصعب بينها هي التي أسمِّيها " المتمارضة من برج الحوت ". تلك هي الذوات المتدفقة، المذيبة التي ترقد بسكون كجنين في المستنقعات الرحميّة لنفوسهم الراكدة. حين تُثقَب الجيب، حين تقول في نفسك أه! نلت منك أخيراً! لا تجد غير كتلٍ من المخاط في يدك. في رأيي، تلك هي المحيِّرة. إنها أشبه بـ " السمكة الزوأّبة " لتقمُّص سريالي. تولد بلا عمود فقري؛ وتذوب ساعة تشاء. وكل ما تستطيع أن تقبض عليه هو نوى لا تذوب، ولا تفنى - أي، جراثيم المرض. والمرء يشعر اتجاه مثل هؤلاء الأفراد أنهم في الجسد، والعقل والروح ليسوا إلا مرضى؛ ولدوا ليزيِّنوا صفحات الكتب المدرسية. وفي عالم النفس هم وحوش الأمراض النسائية حياتهم الوحيدة هي حياة عيِّنة مخلَّلة تزيِّن رف المختبر.

أنجح وسيلة يختفون بها هي إبداء الحنوّ. كم هم قادرون على إظهار الرقَّة! وما أشدّ مراعاتهم للمشاعر! وتعاطفهم المؤثِّر! ولكن إذا ما ألقيت نظرة عليهن - نظرة واحدة سريعة وامضة! - فكمْ ستراهم مهووسين! إنهم ينزفون مع كل نازف في الكون كله - لكنهم لا ينهارون أبداً. أمام الصليب يمسكون بيدك ويروون ظمأك، يبكون كأبقار ثملة. إنهم ندّابون محترفون منذ الأزل؛ كانوا هكذا حتى في العصر الذهبي، حين لم يكن

ثمة ما يبكون عليه. البؤس والمعاناة موطنهم، وفي الاعتدال الربيعي يحولون كامل نمط الحياة المتنوع الألوان إلى غراء لا لون له ...

هناك في التحليل النفسي شيء يذكّر بغرفة العمليات. فحالما يستعد المرء للخضوع للتحليل يكون الوقت قد تأخّر كثيراً. وأمام نفسٍ مرهقة لا يجد المحلّل إلا سبيلاً واحداً وهو أن يقوم بعملٍ مبدع. والمحلّل الجيد يفضّل أن يمنح المُعاق النفسي أعضاءً مصنَّعَة بدل العكازين، هذا هو مختصر الأمر المفيد.

ولكن أحياناً لا يكون أمام المحلّل أي خيار، كما يحدث بين حين وآخر للطبيب الجراح في ساحة الحرب. إذ يضطرُّ الطبيب الجرّاح أحياناً إلى بتر أذرع وسيقان، أو صنع وجه جديد من قطعةِ لبٍ لا شكل لها، أو قطع الخصيتين، أو يبتكر مستقيماً بارعاً ويعلم الله ماذا أيضاً - إذا ما توفّر لديه الوقت اللازم. وسيكون من الأرحم قتل صاحب حطام كذاك، ولكن تلك إحدى مفارقات أسلوب الحياة الحضارية - أي أنك تحاول أن تحافظ على البقايا. وأثناء مراحل العملية الجراحية الرهيبة تصادف أحياناً عيِّنة مدهشة للنشاط اختُصِرَتْ واختُزِلَتْ إلى جذعٍ فظٍ، أشبه بثمرة أجاص إنسانية كان يمكن لبرانكوزي[٩١] أن يصقلها ويجعل منها o bjet d'art (عملاً فنياً). وتقرأ أنَّ هذا الخليط الإنساني يُعيل أمَّه العجوز ووالده مما يكسَبُهُ من حرفةٍ لا تُصدَّق، حرفةُ الأداةُ الوحيدةُ فيها هي الفم الاصطناعي الذي حفره مبضع الجرّاح مما كان سابقاً وجهاً بلا ملامح.

هناك عيّنات نفسية من هذه الفئة تخرج من غرفة مكتب المحلّل لتأخذ مكانها بين صفوف الطبقة الكادحة المجرَّدة من إنسانيتها. اختزلت

٩١ - كونستاتين برانكوزي (١٨٧٦ - ١٩٥٧) : نحّات روماني المولد . - المترجم

twitter @baghdad_library

إلى حزمة صغيرة فعالة من النسخ المبتورة. وهم ليس فقط يكسبون لقمة عيشهم بأنفسهم، بل ويعيلون أقرباءهم المسنّين؛ يرفضون محراب الشهرة في قاعة الرعب المؤهلين لها؛ يختارون التنافس مع أرواحٍ أخرى بطريقة شبه عاطفية؛ لا يموتون بسهولة، كعُقدٍ من الخشب في شجرةِ سنديانٍ عملاقة، ويقاومون الفأس، حتى وهو مسلَّطٌ عليهم.

لن أتمادى بحيث أقول إنَّ كرونسكي كان من هذا النوع، ولكن يجب أن أعترف بأنه كثيراً ما أوحى إليّ بمثل ذلك الانطباع. وكم من مرة شعرت برغبة في أن ألوِّحَ بالفأس وأقضي عليه. لا أحد يخطئه؛ لا أحد يمكن أن يحزن على فقدانه. لقد وُلِدَ مُعاقاً ومُعاقاً سيموت، هذا ما خطر لي. وبعينِ محلِّلٍ نفساني لا أَرى له فائدة للآخرين. وبعينِ المحللِ النفساني لا يرى إلا معاقين في كل مكان حتى بين أشباه الآلهة. أما باقي المحللين النفسانيين، وقد عرفتُ بعضَهُم شخصياً كانوا ناجحين جداً، فقد تعافوا من إعاقتهم، إن صح التعبير، وأفادوا المعاقين الآخرين مثلهم، لأنهم على الأقل تعلموا أن يستخدموا أطرافهم الاصطناعية بسهولة وبشكل مثالي. وقد كانوا عارضين جيدين.

إلا أنه كانت هناك فكرة واحدة تحفر داخلي كالمثقاب خلال تلك الجلسات مع كرونسكي. كانت فكرةً من النوع الذي يمكن لكلّ شخص، مهما تمادى، أن يضمرها. نعم، وإذا توفر لإنسانٍ وقت لا متناهٍ وتحلّى بصبرٍ لا حدود له، فيمكنه أن يُنفِّذها. وبدأ يتكشَّف لي أنَّ الفنَّ الشافي ليس كما يتصوَّره الناس، وأنَّه شيء بسيط جداً، مفرط البساطة، في الواقع، بحيث يحيط بفهمه العقل العادي.

بعبارة أبسط وكما خطرت لي، أقول إنها كانت كما يلي: إنَّ كل

إنسان يصبح شافياً حالما ينسى نفسه. والمرض الذي نراه في كل مكان، المرارة والاشمئزاز اللذان توحي الحياة بهما العديد منا، هو فقط انعكاس المرض الذي نحمله معنا. ووسائل الوقاية لن تدرأ عنا مرض العالم، ذلك أننا نحمل العالم في داخلنا. ومهما أصبح البشر رائعين، فإن الغالبية العظمى منهم سوف تستسلم للعالم الخارجي الناقص والمترع بالألم. وما دمنا نعيش بخجلٍ فلابد أن نفشل دائماً في التعامل مع العالم. ليس من الضروري أن نموت لكي نواجه الواقع مباشرة في آخر المطاف. الواقع موجود هنا والآن، في كل مكان، يلمع من خلال كل انعكاس يقابل العين. سوف تفرغ السجون والمصحّات العقلية من نزلائها عندما يتهدَّد المجتمع خطرٌ أفدح. عندما يقترب العدو، يُستدعَى المنفيُّ السياسيُّ ليشتركَ في الدفاعِ عن وطنه. وفي الخندق الأخير يدخل في رؤوسنا السميكة الجماجم أننا نشكّل جزءاً لا يتجزَّأ من اللحم نفسه. وعندما تتعرَّض حياتنا للتهديد نبدأ بالحياة. حتى المريض النفسي يرمي عكازه، في مثل تلك اللحظات. بالنسبة إليه الفرح الأكبر هو إدراكُ أنَّ هناك ما هو أهم من نفسه. لقد ظل طوال حياته يطلق نيران ذاته المحترقة. كان يصنع ناراً بيديه. إنه يقطر عصيره الخاص؛ يجعل من نفسه لقمة سائغة للشياطين التي أطلق سراحها بيديه الاثنتين. هذه هي صورة الحياة الإنسانية على هذا الكوكب المسمّى الأرض. الكلُ عُصابيّ. حتى آخر رجل وامرأة. والشافي، أو المحلِّل النفسي، إن شئت، ما هو إلا عصابيّ متفوِّق. لقد وسمنا بعلامة الهنود. ولكي نشفى يجب أن ننهض من قبورنا ونرمي عنا أكفان الموتى. لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك نيابة عن غيره - إنها مسألة خاصة والأفضل القيام بها جماعياً. يجب أن نموت

twitter @baghdad_library

كـذوات منفـصلة وأن نولدَ من جـديد داخل الحـشد، ليس منفـصلين ومنوَّمين ذاتياً، وإنما منفردين ومتّصلين.

أما بالنسبة إلى الخلاص وما إلى ذلك ... إنَّ أعظم المعلّمين، أو، يجب أن أقول، الشافين الحقيقيين، طالما أصرّوا على أنهم يستطيعون فقط أن يشيروا إلى الطريق. وذهَبَ بوذا أبعدَ من ذلك، فقال " لا تصدِّق أي شيء، أينما قرأته أو كائناً مَنْ كان الذي قاله، حتى لو كنتُ أنا، إلا إذا توافق مع تفكيرك الخاص وفطرتك السليمة "

إنَّ الأشخاص العظيمين لا يعيِّنون المناصب، ولا يتقاضون الأجور، ولا يُلقون المحاضرات أو يُدوِّنون الكتب. الحكمةُ هي الصمت، وأشد الدعايات فعَّالية للحقيقة هي قوة القدوة الشخصية. العظام يجذبون إليهم المريدين؛ الأشخاص الأقل أهمية الذين مهمتهم أن يعظوا ويبشروا. هؤلاء هم الإنجيليون، غير الكفوئين لأدوار المهام الأعلى، يقضون حياتهم في هداية الآخرين. العظام لا مبالون، بالمعنى الأعمق للكلمة. إنهم لا يطلبون منك أن تؤمن: بل يهزّونك بسلوكهم. إنهم الموقظون. وكأنهم يقولون، إنَّ ما تفعله بحياتك شأنٌ خاص بك. باختصار، إن غايتهم الوحيدة هنا على الأرض هي أن يُلهِمُوا. وأيُّ شيءٍ أكثر من هذا يمكن أن تطلب من كائنٍ بشري؟

أن تكون مريضاً، أو عُصابياً، إنْ شئت، معناه أن تطلب ضمانات. العصابيّ هو السمكة العريضة المستلقية في قاع النهر، مستقرة بأمان في الطين، تنتظر مَنْ يطعنها برمح. الموت، بالنسبة إليه، هو اليقين الوحيد، والخوف من ذاك اليقين المروِّع يشلّه في حالةٍ من الموت في الحياة أشد بثاً للرعب من ذاك الذي يتخيّله ولا يعرف عنه أي شيء.

إلاّ أنَّ طريقَ الحياة تسير نحو الإنجاز، مهما كانت غايتها. وإعادة كائن بشري إلى تيار الحياة يعني ليس فقط منحَ الثقة بالنفس وإنما أيضاً إيمان دائم في تحولات الحياة. والإنسان الواثق من نفسه لابد أن يثق في الآخرين، وفي الكون كمكان ملائم وصالح. وحين يَثبَتُ الإنسان على هذا يكفّ عن القلق حول ملائمة الأشياء، وسلوك أقرانه من البشر، والصح والخطأ والعدل والظلم. إذا ترسّخت جذوره في تيار الحياة فسوف يطفو على السطح كزهرة لوتس وسوف يزهر ويعطي ثمراً. سوف يستمد غذاؤه من الأعلى ومن الأسفل، سوف يرسل جذوره أعمق فأعمق، لا يخاف الأعماق ولا الأعالي. وسوف تتبدّى الحياة الكامنة فيه في النماء، والنماء عملية أبدية، لا تنتهي. لن يخشى الذبول، لأنَّ الفسادَ والموتَ هما جزءٌ من النماء. بدأ بذرة وسيعود بذرة. والبدايات والنهايات ليست إلا خطوات جزئية في حركة التقدُّم الأبدية. التقدُّم هو كل شيء ... الطريق ... الطاو.

طريق الحياة! عبارة رائعة. كأنك تقول إنها الحقيقة . لا شيء بعدها ... إنها كل شيء.

وهكذا يقول المحلّل " تكيَّف! "، وهو لا يعني، كما يرغب البعض في الاعتقاد - تكيَّف مع هذا الوضع العفن! إنه يعني: تكيَّف مع الحياة! كن خبيراً! هذا هو أعلى مراحل التكيُّف - أن يجعل المرء نفسه خبيراً ماهراً.

الأزهار الرقيقة هي أوَّل ما يهلك في العاصفة؛ والعملاق يُصرَع بنقفة مقلاع. ومقابل كل قمة نكسبها تتهددنا أخطار جديدة مربكة. والجبان غالباً ما يُدفَن تحت الجدار نفسه الذي تكوَّمَ عنده خوفاً وكرباً.

twitter @baghdad_library

وأروع درع من زَرَد يمكن اختراقه بطعنة نجلاء. وأعظم الأساطيل تغرق في نهاية المطاف؛ وخطوط ماجينو دائماً يتم الالتفاف حولها. وحصان طروادة دائماً ينتظر لكي يُعرَض على الملأ. فأين يكمن الأمان إذن؟ أي نوعٍ من الحماية لم يفكِّر فيه أحدٌ يمكنكَ أن تبتكر؟ من العَبَثِ التفكير في الأمان: لا وجود له. ومَنْ يفتِّش عن الأمان، حتى في تفكيره، هو كَمَنْ يقطع أوصالَه لكي يضع بدلاً عنها أخرى صناعية لا تسبِّب له ألماً أو عناءً.

في عالم الحشرات نشاهد نظاماً دفاعياً بامتياز. وفي عالم الحيوان القطيعي نشاهد نوعاً آخر من أنظمة الدفاع. والكائن البشري يبدو، بالمقارنة، مخلوقاً عاجزاً. هو كذلك من ناحية أنه يعيشُ حياةً مكشوفةً أكثر. ولكن مقدرته هذه على تعريض نفسه لكافةِ صنوفِ المخاطر هي بالضبط سرُّ قوته. الإله ليست لديه أي وسائل دفاع. هو متَّحد بالحياة، يتحرَّك في الأبعاد كافة بحرِّية.

إن الخوفَ، الخوفَ ذا رأس الأفعوان، الهائج داخل كلّ منا، هو مِنْ مُخلَّفات أشكالٍ دنيا من الحياة. إننا ننتقل بين عالمين؛ الذي خرجنا منه والذي نتَّجه إليه. هذا هو المعنى الأعمق لكلمة " إنسانيّ "، أي أننا نشكِّل صلةَ وصلٍ، جسراً، وعداً. وتقدُّم الحياة يسير نحو الإنجاز داخلنا. وعلى أكتافنا مسؤولية ضخمة، وجاذبية هذا الأمر هو الذي يوقظ مخاوفنا. نحن نعلم أننا إذا لم نتقدم، إذا لم ندرك وجودنا الكامن، فسوف نتراجع، ونبقبق، ونجرّ العالم معنا إلى أسفل. إننا نحمل النعيم والجحيم داخلنا؛ نحن بُناة الكون. الخيار لنا - ومدانا الخليقة كلها.

بالنسبة إلى البعض هذه إمكانيةٌ مرعبة. ويعتقدون أنَّه من الأفضل

أن يكون النعيمُ فوق والجحيمُ تحت - في أي مكان في الخارج، ولكن ليس في الداخل، إلاّ أنَّ هذا العَزَاء انتُزِعَ بعنف من تحتنا. لا مكان نذهب إليه، إمَّا أن ننالَ الثوابَ أو العقاب. المكان هو دائماً هنا والآن، يكمن في شخصك ومتوافقاً مع هواك. والعالم يتطابق مع الصورة التي تخيّلتَها له، دائماً، وفي كل لحظة. من المستحيل أن تنقل المشهد من مكانه وتتظاهر بأنّك ستستمتع بفصل آخر، مختلف. المحيط العام دائم، يتبدل في العقل والقلب، وليس وِفقاً لتلقينِ مُخرجٍ مسرحيّ غير مرئيّ. أنت المؤلف، والمخرج والممثل معاً في آن: وموضوع الدراما سيكون دائماً حياتك، وليس حياة غيرك. دراما جميلة، مخيفة ولا سبيل إلى تغييرها، كبذلة مصنوعة من جلدك. فهل تريدها أن تكون غير ذلك؟ هل تستطيع أن تبتكر دراما أفضل منها؟

استلقِ، إذن، على الأريكة الوثيرة التي يوفرها لك المحلّل النفسي، وحاول أن تفكر في الخروج بشيء مختلف. المحلّل لديه وقت وصبر غير محدودين؛ وكل دقيقة تؤخِّره فيها تعني نقوداً تدخل إلى جيبه. إنه أشبه بالإله، بمعنى ما - إله منْ صُنعكَ. وسواء انتحبتَ، عويتَ، توسَّلتَ، بكيتَ، ناشدتَ، تملّقتَ، صلَّيتَ أم سبَبْتَ - يُصغي إليك. إنه مجرَّد أُذُن كبيرة ينقصها جهاز عصبي متعاطف. إنه منيع أمام كل شيء ماعدا الحقيقة. إذا اعتقدتَ أنه يفيدكَ أن تخدعه فاخدعه. مَنْ سيكون الخاسر؟ إذا اعتقدتَ أنَّ في استطاعته أن يساعدك، بدل أن تساعد نفسك، فابقَ معه إلى أن تتعفَّن. ليس لديه ما يخسره. ولكن إذا أدركتَ أنه ليس إلهاً بل كائن بشري مثلك، لديه هواجسه، ونقائصه، وطموحاته، وزلاّته، وأنه ليس مستودعاً لحكمة كلِّية بل هائم على الدرب، مثلك، فقد تكفّ

twitter @baghdad_library

عن التدفُّق كالمجرور، مهما بدا كلامك لك موسيقياً، وتنهض لتقف على ساقيك وتغني بصوتك الذي وَهَبَه اللّه لك. إنَّ الاعتراف، والنحيب، والشكوى، والرثاء، دائماً يتطلَّب كداً. أما الغناء فلا يكلِّفك أي شيء. ليس فقط لا يكلفك أي بنس - بل إنك في الواقع تُغْني الآخرين. سبِّحْ بحمد الله، إنه فرض. نعم، ارفع صوتك! ارفع صوتك، أيُّها البنَّاء العظيم! ارفع صوتك، أيها المحارب السعيد! ولكن أنت تراوغ، كيف يمكنني أن أغنّي بينما العالمُ ينهار، وكل شيء من حولي يتخبَّط بالدم والدموع؟ أتعلم أنَّ الشهداءَ كانوا يغنّون وهم يُحرّقون على الخازوق؟ هم لم يروا شيئاً ينهار، ولم يسمعوا صراخ الألم. لقد غنّوا لأنهم مفعمين بالإيمان. ومَنْ يستطيع أن يحطِّم الإيمان؟ مَنْ يستطيع أن يمحو الفرح؟ لقد حاول كثيرون أن يفعلوا، عَبْرَ العصور. لكنهم لم ينجحوا. إنَّ الفرح والإيمان متأصِّلان في الكون. في النماء هناك ألمٌ وكفاح؛ وفي الإنجاز فرحٌ وفيض؛ وفي التحقّق سلامٌ وصفاء. بين سطوح الوجود وأكوانه، الأرضية والفوق أرضية، هناك سلالم ونوافذ بشعريات. ومَنْ يرتقي يغنّي. المناظر اللامتناهية تُسكِره وتنشيه. إنه يصعد بقدمٍ واثقة، لا يفكر فيما يقع أسفله، لئلا يزلّ ويفقد تماسكه، بل فيما يقع أمامه. كل شيء يقع إلى الأمام. الطريق لا نهاية لها، كلما أوغل الإنسان امتدَّت الطريق أكثر. والمستنقعات، والسبخات، والبالوعات، والحُفَر والفِخَاخ، كلها موجود في العقل. إنها تكمن منتظرة، مستعدة لابتلاع المرء حالما يكفُّ عن التقدُّم. والعالم الوهمي هو العالم الذي لم يُكتَشَف تماماً بعد. إنه عالم الماضي، وليس المستقبل. والتقدُّم إلى الأمام مع التشبُّث بالماضي أشبه بجرّ كرةٍ حديديةٍ وسلاسل. السجين ليس مَنْ ارتكب جريمة،

بل الذي يتشبّث بجريمته ويعيشها مرة بعد مرة. نحن جميعاً مُدانون بارتكاب جريمة، جريمة عدم عيش الحياة حتى الثمالة الشنعاء ,لكننا جميعاً أحرار في الأساس. نستطيع أن نتوقف عن التفكير في ما فشلنا في فعله وأن نقوم بما يقع ضمن نطاق مقدرتنا. ولعلَّ أحداً لم يجرؤ حقاً على تصوُّر ما هي تلك القدرات الكامنة فينا. أهمّ شيء هو أنها لا محدودة. المخيّلة هي صوت الجرأة. والصِفة الإلهية في الله هي هذه، لقد تجرّأ على تخيُّل كل شيء.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس عشر.

الجميع فَهِمَ أنَّ مونا وريبيكا أختان. في المظهر بدتا أنهما تشتركان في كل شيء؛ وفي الجوهر لم يكن يربط بينهما أوهى رابط. كانت ريبيكا، التي لم تُنكِر دمها اليهودي، تعيش في الحاضر بكل ما في الكلمة من معنى؛ كانت طبيعية، صحيحة الجسم، ذكية، تأكل بشهية عظيمة، تضحك من قلبها، تتكلّم بعفوية وأيضاً، كما أتصور، تنكح جيداً وتنام جيداً، كانت متكيّفة تكيُّفاً تاماً، ثابتة القدم، قادرة على العيش في أي مستوى وتستغلّه أفضل استغلال. كانت تمثِّل كل ما يمكن لرجل أن يرغبه في زوجة. كانت أنثى حقيقية. في حضورها تبدو المرأة الأميركية العادية أشبه بحزمة من العيوب.

مزيّتها الخاصة كانت دنيويّة. ولدت في جنوب روسيا، وبما أنها أفلتت من رعب حياة حيّ الأقليات، فقد كانت تعكس عَظَمة حياة الروس البسطاء الذين نشأت بينهم. كانت روحها رحبة ومرنة، قوية ولدنة، في وقتٍ واحد. كانت شيوعية بالغريزة، لأنَّ طبيعتها كانت بسيطة، صحّية ومتماسكة.

على الرغم من أنها كانت ابنة حاخام، إلا أنها تحرَّرت في سنٍّ مبكرة. عن والدها ورثت تلك الفطنة والكمال اللذين أضفيا منذ سحيق

الزمن على اليهود الورعين تلك الهالة المميّزة من النقاء والقوة. والخنوع والنفاق لم يكونا أبداً من صفات اليهود التُقاة؛ ونقطة ضعفهم، كما مع الصينيين، كانت تبجيلهم المفرط للكلمة المكتوبة. فـ " الكلمة " لها مغزى لا يكاد يعرفه غير اليهودي. وحين ينتشون يتوهّجون كحروفٍ من نار.

أما مونا، فمن المستحيل تخمين أصولها. ظلّت زمناً طويلاً تؤكِّد أنّها وُلِدَتْ في نيوهامبشر وأنها تلقّت تعليمها في كلية نيو إنغلند. وكان يمكن أن يُظَن خطأ أنها برتغالية، أو باسكيّة، أو غجرية رومانية، أو هنغارية، أو جيورجية، أو أي شيء تشاء هي أن تجعلك تُصدِّقه. وكانت لغتها الإنكليزية ممتازة وخالية تماماً، لأغلب المراقبين، من أي لَكْنَة. وكان يمكن أن تكون قد ولدت في أي مكان من العالم، لأنّه كان واضحاً أنها تضلَّعَتْ في الإنكليزية التي تتكلمها لكي تُحبِط كل الاستفسارات المتعلّقة بأصولها وأسلافها. في حضورها كانت تَشيعُ الحرارةُ الغرفةَ. وكانت تبثُّ على موجتها الخاصة: قصيرة، قوية، وتمزِّق الأذان. كانت تقطع بث إرسال الموجات الأخرى، خاصة تلك التي تهدِّد بالتأثير على الاتصال الحقيقي بها. كانت تلهو كما يلهو البرق على بحرٍ تتقاذفه العاصفة.

كان هناك شيء مزعج لها في الجو الذي أشاعه تجمُّع شخصيات قوية كالتي ضمَّها المنزل الجديد. كانت تشعر بتحدٍّ لا تستطيع أن تقابله كما ينبغي. كان جواز سفرها جاهزاً لكنَّ أمتعتها أثارت الشبهات. وفي نهاية كل لقاء كان عليها أن تستجمع قواها، غير أنّه كان جلياً، حتى لها، أنَّ قِواها تتهاوى وتتلاشى. وحين تكون وحدها في غرفتها –

twitter @baghdad_library

المهجع الصغير - أطبِّب جراحها وأحاول أن أسلِّحها استعداداً للّقاء التالي. وطبعاً كان لابد لي أن أتظاهر بأنها قد أبلت بلاءً حسناً. وكثيراً ما كنت أردِّد بعض تصاريحها، فأغيِّر فيها برهافة أو أضخِّمها بطريقة غير متوقّعة، وذلك لكي أزوِّدها بالمفتاح الذي تفتِّش عنه. حاولتُ ألاّ أسبِّب لها أي مهانة بإجبارها على أن تطرح سؤالاً مباشراً. كنتُ أعلمُ أين يكون الثلج رقيقاً فأنزلق ملتفّاً حول تلك المناطق الخطرة ببراعة ورشاقةِ شخصٍ محترف. بتلك الطريقة حاولتُ بجَلَدٍ أن أسدَّ تلك الثغرات التي كانت صارخة بصورة مؤلمة في إنسانٍ من المفروض أن يكون قد تخرَّجَ من مؤسسةٍ تعليمية جليلة كمؤسسة ويلزلي[٩٢].

كانت لعبة غريبة، وخرقاء ومحرجة. وقد دُهشتُ إذ اكتشفت في نفسي نشوء عاطفةٍ جديدةٍ نحوها: الشفقة. لم أفهم لماذا، بعد أن اضطرَّت إلى إظهار يدها، لم تلجأ إلى الصراحة. كانت تعلم أني علمت، لكنها أصرَّت على أن تحافظ على التظاهر. لماذا؟ لماذا تفعل ذلك معي أنا؟ لماذا كان عليها أن تخاف؟ إنَّ اكتشافي نقطة ضعفها لم يقلِّل أبداً من حبي لها. على العكس، زاده. أصبح سرّها سرّي، وبحمايتي لها كنت أحمي نفسي أيضاً. ألم تستطع أن تفهم أنها بإثارة شفقتي عملَتْ فقط على تقوية الرابط الذي ربط بيننا؟ ولكن لعلَّ ذلك لم يشكِّل همَّها الأول؛ لعلها سلَّمت بأنَّ الرابطَ سيتوثَّق مع مرور السنين.

كان هاجسها الأول أن تجعلَ نفسَها منيعة. وحين استبان لي ذلك ازدادت شفقتي بلا حدود. وكأنني اكتشفت فجأة أنها مُعَاقة. وهذا

٩٢ - نسبة إلى آرثر ويلزلي "دوق ويلنغتن الأول" (١٧٦٩ - ١٨٥٢): جندي ورجل دولة ورئيس وزراء بريطاني. هزم نابوليون في واترلو. - المترجم.

يحدث بين حينٍ وآخر، عندما يربط الحب بين شخصين. وإذا ما ربطَ الحب بين اثنين فإنَّ اكتشافاً من ذلك النوع يعمل فقط على مضاعفة الحب. ليس فقط يتلهَّفُ المرء إلى التغاضي عن ازدواج شخصية الطرف العاثر الحظ، بل إنه يقوم بجهدٍ عنيف جبَّار لمطابقتهما. " دعني أحمل عنك عبء عيبك العذب! ". هكذا يصرخ القلب المُضنى بالحب. وحده الأنانيُّ الأصيل يستطيع أن يتفادى القيود التي تفرضها المنافسة غير المتكافئة. والعاشق يفرح لفكرة الاختبارات الكبرى؛ يتوسَّل بصمتٍ كي يُسمَحَ له بوضع يده في اللهب. وإذا ما أصرَّ المحبوب المُعاق على ممارسة لعبة التظاهر يتثاءب القلب المفتوح سلفاً والمطوَّق كفوهةِ قبرٍ تتوجَّع. ومن ثم يغوص، ليس فقط عيب المحبوب، بل جسده، ونفسه وروحه، في ما هو حقاً قبرُ حيّ.

ريبيكا هي التي سبَّبت العذاب المبرِّح لمونا. والأفضل أن أقول إنَّها سمحت لمونا أن تسبِّب العذاب لنفسها. لا شيء كان قادراً على إقناعها بالاشتراك في اللعبة وفقَ قوانين مونا في ممارستها. تمسَّكت برأيها بقوة، ولم تتخلَّ ولو بمقدار إنش للطرف الآخر. لم تُبدي أي شفقة أو قسوة؛ كانت متصلِّبة في وجه كل تلك الخدع والإغواءات التي كانت مونا تعرف كيف تستخدمها مع النساء والرجال علة حدٍ سواء. وأصبح التعارض العميق بين " الأختين " يزداد سطوعاً. وكشف العداء، الذي كان صامتاً أكثر منه معلناً، بجلاء مثير عن قطبيّ النفس الأنثوية. ظاهرياً كانت مونا تشبه نموذج الأنثى الداخلية. لكن ريبيكا، التي لم تكن لطبيعتها الرحبة مظهر خارجي، كانت تتَّصِف بلدانةِ وليونةِ أنثى حقيقية غيَّرت، على امتداد العصور ودون أن تتنازل عن فرديتها، الحدودَ الخارجية

twitter @baghdad_library

لنفسها وفقاً للصورة المتغيِّرة التي ابتدعها الإنسان لكي يعدِّل الأداة القاصرة لرغباته.

إنَّ الجانبَ الخلاّقَ من الأنثى يعمل بدقّة متناهية: مجاله هو الإنسان الممكن. وعندما يكون لعبه غير مقيَّد يرتفع مستوى السلالة. يمكن دائماً تقدير مستوى فترة زمنية من وضع النساء خلالها. هنا يتعلّق الأمر بأكثر من الحرية والفرص المتاحة، لأنَّ طبيعة النساء الحقيقية لا تُعبِّر عن نفسها بالطلبات أبداً. المرأةُ، كالماء، دائماً تعثر على مستواها الخاص. وكالماء أيضاً، تعكس بصدقٍ كلّ ما يمرُّ في نفس الإنسان.

لذا ما يسمّى بـ " المؤنَّث الحق " ما هو إلا قناع خادع يقبله الذكّر غير الخلاّق بلا تفكير باعتباره المظهر الحقيقي. إنه البديل المتملّق الذي تقدِّمه الأنثى المُحبَطَة دفاعاً عن النفس. إنها لعبةٌ جنسية مثليّة تقتضيها النرجسية. ويُكشَفُ سرُّها بتشهيرٍ فظيعٍ وذلك حين يكون الطرفان مذكَّرَين ومؤنَّثَين إلى أقصى حد. ويمكن محاكاتهما بنجاحٍ فائق في عَرضِ خيال ظل المثليين جنسياً المعلنين عن أنفسهم. وتصل إلى ذروتها القصوى في شخصية دون جوان. هنا يصل السعي وراء ما لا يمكن بلوغه إلى الأبعاد الهزلية للسعي التشابليني[٩٣]. والنهاية دائماً هي نفسها: يغرق نرسيس في حب صورته.

لا يبدأ الرجلُ بفهمِ أعماقِ طبيعةِ المرأةِ إلا بعد أن يسلِّم نفسه بلا شروط. عندئذ فقط يبدأ ينمِّيها ويخصِبها حقاً. حينئذ لا تعود هناك حدود لما يمكن أن يتوقّعه منها، ذلك أنه باستسلامه يحدُّ من قدراته. في مثل هذا الاتحاد، الذي هو في الواقع زواجُ روحٍ مع روح، يقف الرجل

٩٣ – التشابليني: نسبة إلى تشارلي تشابلن. – المترجم.

وجهاً لوجه مع معنى الخليقة، يشاركُ في تجربةٍ يدرك أنها ستبقى دائماً فوق طاقته السقيمة على الفهم. يشعر بدراما الأرض والدور الذي تلعبه المرأة فيها. وامتلاك المرأة بحد ذاته يتخذ مظهراً جديداً. يُصبح ساحراً وغامضاً كقانون الجاذبية.

كانت تدور بيننا معركةٌ شاملةٌ وغريبةٌ، وكرونسكي يقوم فيها بدور الحَكَمْ والمُحمِّس. وبينما مونا تحاول عبثاً أن تعتدي على ريبيكا وتغويها، كان آرثر ريموند يبذل أقصى جهده كي يهديني إلى أسلوبه في التفكير. وعلى الرغم من أنَّ أحداً منا لم يلمِّح ظاهرياً إلى الموضوع، إلاّ أنّه كان واضحاً أنّه كان يعتقد أنّي أهمِلُ مونا واعتقدتُ أنه يُبخِس ريبيكا حقها في التقدير. وكنت خلال نقاشاتنا كلها دائماً أناصرُ ريبيكا أو هي تناصرني، وكان هو ومونا يفعلان الشيء نفسه، طبعاً. وكان كرونسكي، بروح الحَكَم الحقيقي، يحرص على أن يُبقينا في حالةِ حركة. وكانت زوجته، التي لم يكن لديها قط ما تساهم به، يغلبها النعاس وتنسحب من الساحة بأسرع ما يمكنها. وكنتُ أتصوَّرها تقضي وقتها في السرير يقظة ومنصتة، لأنها حالما ينضم كرونسكي إليها توجِّه هجومها عليه وتعذِبه لأنه أهملها بصورة مخجلة جداً. وكان الشجارُ دائماً ينتهي بالنخر والزعيق ويتبع ذلك زيارات متكررة للمغسلة التي كنا نشترك جميعاً في استخدامها.

كثيراً ما كان يحدثُ، بعد أن ننسحب أنا ومونا إلى غرفتنا، أن يقف آرثر ريموند خارج بابنا ويسأل أولاً إنْ كنا ما نزال يقظين، ويتكلم معنا من خلال نافذة الباب العليا. كنتُ أبقي الباب موصداً عمداً لأني في أول الأمر كنت أرتكب خطأ التصرُّف بأدبٍ وأدعوه إلى الدخول، وهو

twitter @baghdad_library

إجراء قاتل لمن ينوي أن يقضي ليلة هانئة. ثم ارتكبتُ خطأ آخرَ، خطأ أحمق بالتصرف بشبه أدب، بالإجابة على فترات بمقاطع مخدِّرة - نعم ...لا ... نعم ... لا. ومادام آرثر ريموند يشعر بأدنى إثارة وعي عند مستمعه فإنه يواصل كلامه بلا رحمة. كان مثل شلالات نياغارا يحتُّ الصخور والجلاميد التي تعترض طريقَ تدفُّقه الغزير. كان ببساطة يُغرِقُ كلَّ ما يواجهه ... ولكن، هناك سبيلٌ لاتِّقاء مثل تلك القِوى العاتية. فبإمكان المرء أن يتعلم الخدعة بالتوجُّه إلى شلالات نياغارا ومراقبة تلك الشخصيات اللامعة التي تقف مستندة بظهورها إلى الجدار الصخري وتتفرَّج على النهر يندفع بقوة من فوق رؤوسها ويهبط بهديرٍ يصمُّ الآذان إلى الحوض الضيق للمضيق. ووخزَ الرذاذ الذي يرشّها يعمل عمل المنبِّه لحواسها الخدِرَة.

بدا أنَّ آرثر ريموند يعي أني اكتشفتُ نوعاً من الحماية يشبه هذه الصورة الوصفيّة، لذا كان ملاذه الوحيد هو أن يزيلَ الطبقة العليا من قاعِ النهر وينتزعني من ملجأي المتقلقل. كان في ذلك الإصرار الأعمى والعنيد شيءٌ عُضال يثير السخرية، شيء شبيه بصورةٍ هائلة بالاستراتيجية الغرغانتوائيّة[٩٤] التي استخدَمَها توماس وولف[٩٥] لاحقاً كروائيٍّ والتي لابد أنه هو نفسه رآها عيباً في الآلة Perpetuum Mobile (الدائرة دائماً) وذلك من خلال إعطاء عمله العظيم عنوان " عن الزمن والنهر ".

لو أنَّ آرثر ريموند كان كاتباً لأطحتُ به بعيداً. لكنه كان نهراً

---

٩٤ - الغرغانتواني : نسبة إلى بطل الكاتب الفرنسي الساخر فرانسوا رابليه (١٤٩٣ ؟ - ١٥٥٣) في روايته الضخمة " غارغارنتوا وبانتاغرول " ، ويوصف بها كل ما هو متعملق الأبعاد بصورة غير طبيعية . - المترجم

٩٥ - توماس وولف (١٩٠٠ - ١٩٣٨) : روائي أميركي ، تقوم رواياته على أساس سيرته الذاتية . له " انظر باتجاه المنزل ، يا ملاكي " و " عن الزمن والنهر " .- المترجم

متجسِّداً، والحوضُ الذي كان يضجُّ فيه كمولِّد لم يكن يبعد إلا بضع خطوات عن الحيد الذي حفرنا فيه مشكاةً تأوينا. حتى أثناء النوم كان هدير صوته يبقى حاضراً؛ كنا نفيق من هجوعنا وعلى وجهينا تعبير ذهولِ مَنْ كانا أصمَّين أثناء نومهما. هذه القوة، التي لم يكن أحد قادراً على تنفيسها أو تحويلها، أضحت تمثِّل تهديداً دائمَ الحضور. وحين كنت أفكر فيه في سنوات لاحقة، كثيراً ما كنت أشبِّهه في ذهني بتلك الأنهار المضطربة التي تنزلق عن ضفافها ثم تعود متراجعة، مشكِّلةً حلقات هائلة أشبه بتلوِّي أفعى، تسعى عبثاً إلى إنفاق طاقاتها العصيَّة على الضبط، مُنهيةً آلامها بالاندفاع بقوة إلى البحر بأفواهٍ كثيرة، حانقة.

لكنَّ القوةَ التي كانت تسحقُ آرثر ريموند حتى الإحباط كانت آنذاك، بسبب طبيعتها المهدِّدة بالذات، تُهدهِدُ وتنوِّم. وكنبات اللفِّح تحت سقفٍ زجاجيّ، ننغرز أنا ومونا في سريرنا، وهو سريرٌ إنساني بصراحة، ونلقِّح بيضة الحب الخنثويّ. وحين يكفُّ وخز الرذاذ عن الضرب على السقف الزجاجي للامبالاتنا نقرقر من الجذور بذاك الغناء الكثيب لزهرةٍ جُعِلَتْ إنسانيّة بنُطَفِ مجرمٍ يحتضر. وكان جديراً بسيد التوكاتا والفيوغ[٩٦] أن يُصابَ بالذعر لو أنه سمع الأصداء التي كان هدير صوته يُحدِثها.

بعد مرور فترة وجيزة من الزمن على إقامتنا في قصر الزمن والنهر اكتشفت في صباح أحد الأيام، أثناء أخذ دُش، أنَّ رأس أيري محاطٌ بقروحٍ مدمّاة، ولا داعي للقول إني أُصِبتُ بذعرٍ شديد. وظننت على

---

٩٦ – توكاتا وفيوغ : مقطوعة موسيقية وضعها الموسيقار الألماني يوهان سيباستيان باخ (١٦٨٥ – ١٧٥٠) لآلة الأرغن الكنسي . وتتّسِم المقطوعة بهديرها وصخبها . – المترجم

twitter @baghdad_library

الفور أني التقطتُ مرض السفلس. ولما كنت مُخلصاً على طريقتي الخاصة لم يبق أمامي إلا أن أفترضَ أنَّ مونا هي التي نقلته إليَّ.

ولكن، ليس من طبعي أن أهرع من فوري إلى الطبيب. وكنا دائماً ننظر إلى الطبيب نظرتنا إلى مشعوذ إذا لم أقل مجرم صِرْف. ونحن عادة ننتظر طبيباً جرّاحاً، وهو طبعاً من فئة حفّاري القبور. ودائماً ندفع بسخاء لتوفير عناية مستمرةً استعداداً للقبر.

قلت لنفسي ، وكنت أرِجُ أيري عشرين مرة أو ثلاثين في اليوم، " سوف تزول من تلقاء نفسها "

كان يمكن أن يكون سببها أيضاً نتيجة عكسيّة لإحدى النكاحات الحيضيّة القذرة. وكثيراً ما يظن المرء خطأ، في نوبةٍ من الكبرياء الذكَريّة الحمقاء،تدفُّقَ عصير البندورة للدورة الشهرية تدفُّقَ ما قبل الجماع. وكم مِنْ ذكَرٍ فخور بنفسه غَرِقَ في هذا السكابا فلو[٩٧]...

طبعاً، كان أسهل ما يمكن عمله هو أن أسأل مونا، وهذا ما فعلته على الفور.

قلت، وما زال مزاجي رائقاً، " اسمعي، إذا كنت مصابةً بالمرض الأفضل أن تصارحيني. لن أسألك كيف أُصِبتِ به ... أَنا أريد الحقيقة، لا أكثر "

هذه المواجهة المباشرة جعلتها تنفجر بالضحك. وبالغت قليلاً في استغراقها في الضحك، في رأيي.

قلت " يمكن التقاط المرض من الجلوس على المرحاض "

---

٩٧ – السكابا فلو : في الأصل تعني : ميناء صغير في أقصى شمال اسكتلندا ، في جزر أوركني . وكلمة" فلو " تعني : دفق .– المترجم .

هذا جعلها تضحك بعمقٍ أكثر - بهستريا تقريباً.

" أو قد يكون نتيجةً متأخرةً لإصابةٍ سابقةٍ. لا يهمّني متى أو أين حدث ذلك ... هل أُصبتِ به، هذا ما أريد أن أعرفه "

الجواب كان لا. لا حتماً! عندئذ بدأتْ تستعيد جدِّيتها وكان التغيُّر الحاصل مصحوباً بقليل من مظهر الغضب. كيف يمكنني أن أفكِّر بمثل ذاك الاتهام؟ ماذا أظنُّها - عاهرة؟

قلت، مُظهِراً حُسْنَ نيّتي، " حسن، إذا كان الأمر كذلك فلا داعي للقلق. الإنسان لا يُصاب بالمرض بدون سبب. سوف أنسى الأمر ... "

ولكن لم يكن سهلاً أن أنسى - هكذا ببساطة. فأولاً وقبل أي شيء أصبح النكاح ممنوعاً. وانصرم أسبوع، وفترة أسبوع مدة طويلة حين يكون المرء متعوداً على النكاح في كل ليلة ومرة إضافية كل حين - على أهبة الاستعداد، إن صح التعبير.

كان في كل ليلة ينتصبُ كالسارية. بل إني تماديتُ في السخف إلى حد استخدام واقي ذكري - مرة واحدة فقط - لأنه كان يؤلمني ألماً رهيباً. والشيء الآخر الوحيد الذي بقي أن أفعله كان أن ألعب لعبة الإصبع النتن أو أن ألعق لها بظرها. وكنت أضمر رغبة خبيثة بهذا الفعل الأخير، على الرغم من احتجاجاتها الوقائيّة.

كان الاستمناء هو أفضل بديل. في الحقيقة، كان يفتح أفقاً جديداً للاكتشاف، أقصد، من الناحية النفسية. كنت أستلقي هناك، وذراعي يطوِّقها وأصابعي في فرجها، وتصبح هي حميمة بصورة غريبة. وكأن منطقة الاستجابة الجنسية في مخِّها تدغدغها أصابعي. وبدأ السائل يتدفَّق ... " القذارة " كما سمَّته ذات مرة.

twitter @baghdad_library

مثيرٌ كيف تطلق النساء الحقيقة! غالباً يبدأنَ بكذبة، كذبة صغيرة بيضاء، بجسّ النبض؛ فقط ليعرفن اتجاه الريح، ألا تدري. فإذا شعرن أنك لم تتأذَ كثيراً، لم تشعر كثيراً بالإهانة، يغامرن برمي كسرةٍ من الحقيقة، قطعاً قليلة لُفَّتْ بمهارة بمنديلٍ من الأكاذيب.

حادثة ركوب السيارة الأهوج تلك، مثلاً، التي كانت تسردها على مسمعه همساً. لم يكن يخطر ببال أحد قط أنها تستمتع بالخروج مع ثلاثة من الرجال الغرباء - ومع فتاتين تافهتين بليدتين من صالة الرقص. وكانت قد وافقت على ذلك فقط لأنَّه في آخر لحظة لم تبق هناك فتاة واحدة. وطبعاً، لعلها كانت تأمل، وإن لم تكن تعرف ذلك حينئذ، في أن يتَّصِفَ أحد الرجال بالإنسانية، ويصغي إلى قصتها ويساعدها - بورقةٍ نقدية من فئة الخمسين دولاراً ربما. (كانت دائماً تلجأ إلى أمها: الأم، السبب الأول والدافع لارتكاب الجرائم كلها ...)

ثم، وكما يحدث دائماً أثناء ركوب السيارات، بدؤوا ينتعشون. فإذا لم تكن الفتيات الأخريات معها تتخذ الأمورُ منحى مختلفاً؛ يرفعن ملابسهن فوق ركبهن حتى قبل أن تنطلق السيارة. ويشربن أيضاً - وهذا أسوأ ما يحدث. وطبعاً هي فقط تظاهرت بأنها تشرب ... كانت تبتلع فقط بضع نقاط ... بالكاد تبلِّل حنجرتها ... والأخريات يجرعن بشراهة. ولم تكن تمانع أيضاً في أن تقبِّل الرجال - لا ضيرَ في ذلك - ولكن يا للطريقة التي كانا يضمّانها بها إليهما فوراً ... ويخرجان ثدييها ويمرران أيديهما على ساقيها ... اثنان منهما معاً. لابد أنهم كانوا من الإيطاليين، في اعتقادها، وحوشاً فاسقين.

ثم تعترف بشيء أعلمُ أنه كذبة لعينة، لكنها مع ذلك مثيرة

للاهتمام. تكون إحدى تلك" التشوهات " أو " نقل أشياء من أماكنها "، كما يحدث في الأحلام. نعم، في الواقع، إنَّ الأمرَ الغريبَ حقاً هو أنَّ الفتاتين الأخريين كانتا ترثيان لحالها ... ترثيانها لأنهما أقحمتاها في تلك الورطة. إنهما تعلمان أنه ليس من عادتها أن تضاجع كل مَنْ هبَّ ودبَّ. فأوقفتا السيارة وتبادلن الأماكن، وتركتاها تجلس في المقدمة مع الرجل الكثيف الشعر الذي بدا مهذباً وهادئاً حتى تلك اللحظة. وفي الخلف جلست الاثنتان في حجريّ الرجلين، مرفوعتي الثياب، ووجهاهما إلى الأمام، وبينما كانتا تدخنان السيجار وتضحكان وتشربان، تركتا الرجلين في الخلف ينالان متعتهما الكاملة.

أخيراً شعرتُ أنّه لا مناص من أن أسألها " وماذا فعل الرجل الآخر بينما كان ذلك يجري؟ "

قالت " لم يفعل أي شيء. تركته يمسك يدي ورحت أحدثه بوتيرة سريعة جداً حتى أُبعِدَ ذهنه عن العبث "

قلت " هيا، دعك من هذا الكلام. وقولي لي ماذا حدث فعلاً – صارحيني! "

" حسن، على أي حال، لقد أمسك بيدي فعلاً فترة طويلة، صدِّق أو لا تصدِّق. ثم، ماذا كان يمكن أن يفعل – ألم يكن يقود السيارة؟ "

" تقصدين أن تقولي أنه لم يفكر قط في إيقاف السيارة؟ "

طبعاً فعل. حاول مرات عدة، لكنها ألهته بالكلام.؟.. كان هذا صُلبُ ما حدث. كانت تفكر بيأس في كيف تصل إلى البوح بالحقيقة.

قلت، فقط لأسهِّل لها تخطِّي العقبات الصعبة، " وماذا حدث بعد قليل؟ "

twitter @baghdad_library

" حسن، فجأة ترك يدي ... "، وسكتت.

" تابعي! "

" ثم عاد فقبض عليها بشدّة ووضعها في حجره. كانت فتحة بنطاله مفتوحة وكان منتصباً ... وينتفض. كان حجمه هائلاً. وانتابني خوف فظيع. لكنه رفض أن يدعني أبعد يدي. واضطررت إلى إبعاده عني بالقوة. ثم أوقفَ السيارة وحاول أن يدفعني إلى الخارج. ناشدته ألا يفعل. قلت " قُد ببطء. سأفعل ما تشاء ... لاحقاً. أنا خائفة ". مسح نفسه بمنديل وانطلق من جديد. ثم بدأ يتلفَّظ بأفحش كلام ... "

" مثل ماذا؟ ماذا قال بالضبط، هل تتذكرين؟ "

" أوه، لا أريد التحدث عن ذلك ... كان شيئاً يثير التقزز "

" ما دمت قد وصلت إلى هذا الحد من الإفصاح لا أفهم لماذا تتردَّدين في لفظ الكلمات. ما الفرق ... يمكنك أيضاً أن ... "

" حسن، إذا شئت ... قال " أنت بالضبط النوع الذي أهوى أن أنكحه. منذ وقت طويل وأنا مشتاق أن أنكحك. أحب استدارة طيزك. أحب ثدييك. أنت لست عذراء – فما داعي كل هذه الرهافة؟ إنك ناكحة حتى الزبى – أنت عاهرة حتى عينيك " – وأشياء من هذا القبيل"

قلت " كلامك يُلهبني. تابعي، احكي لي كل شيء "

هنا لاحظت أنه صار يبهجها كثيراً أن تزيح الأمر عن صدرها. ولم تعد بحاجة إلى الادعاء – كنا نحن الاثنان مستمتعين.

يبدو أنَّ الرجلين الجالسين في المقعد الخلفي أرادا أن يقاضيا. وهذا ما أفزعها حقا. " كل ما استطعت أن أفعله أني تظاهرت بأني أريد من الآخر أن ينكحني أولاً. فأراد أن يتوقف فوراً ويخرج. لاطفته قائلة " قُد

ببطء، سأمنحك إياه لاحقاً ... لا أريد أن يباشر الجميع معي دفعة واحدة "، وقبضت على أيره وبدأت أدلّكه. وفي الحال تصلَّبَ ... أضحى أضخم حتى من ذي قبل. يا إلهي، أؤكد لك يا فال أني لم ألمس قضيباً مثل ذلك من قبل. كان حيواناً صرفاً بدون أدنى شك. جعلني أقبض على خصيتيه - أيضاً - كانتا ثقيلتين ومنتفختين. هززته بسرعة، آملة أن يقذف بسرعة ... "

قاطعتها، وقد أثارتني حكاية أير الفحل الضخم، " اسمعي، فلنتكلَّم بصراحة. لابد أنك كنتِ متلهِّفة إلى أن تُنكحي، وأنتِ تقبضين على ذاك الشيء بيدك ... "

قالت، وعيناها تلمعان " انتظر ". عندئذ كانت قد تبلَّلت مثل إوزة بفعل التدليك الذي كنت أمارسه فيها طوال الوقت ...

قالت متوسلة " لا تجعلني أقذف الآن وإلا لن أتمكن من إكمال القصة. يا إلهي، لم يخطر ببالي أبداً أنك سترغب في سماع هذا كله "، وأطبقت ساقيها على يدي، لكنني لا أُثارُ كثيراً، " اسمع، قبِّلني ... " - ومدَّت لسانها داخل حنجرتي، " أوه يا الله، ليتنا ننكح الآن. هذا عذاب. يجب أن تحلَّ هذا الأمر سريعاً ... سأجنُّ ... "

" لا تخرجي عن الموضوع ... ثم ماذا حدث؟ ماذا فعل؟ "

" قبض عليَّ من عنقي وضغط رأسي إلى أسفل داخل حجره. غمغم " سأقود ببطء الآن كما طلبتِ، وأريد أن تمصِّيه باستمرار. بعد ذلك سأصبح مستعداً أن أنكحك، نكاحاً جيداً ". كان ضخماً إلى درجة أني حسبت أني سأختنق. شعرت برغبة في عضِّه. بشرفي، يا فال. لم أر مثيلاً له في حياتي. وجعلني أفعل كل شيء. قال " أتعلمين ماذا أريد.

twitter @baghdad_library

استخدمي لسانك. لقد أدخلتِ أيراً في فمكِ من قبل طبعاً ". وأخيراً بدأ يتحرَّك إلى أعلى وإلى أسفلَ، ليزلقه إلى الداخل والخارج. وكان طوال الوقت يمسك بي من عنقي. ووصلت إلى حافة الجنون. ثم قذف - إيع! كان عملاً قذراً! وحسبتُ أنه لن يكفَّ عن القذف. أبعدتُ رأسي عنه بسرعة وأطلقَ سيلاً منه في وجهي - كأنه ثور "

في تلك اللحظة أوشكت أنا نفسي على القذف. كان أيري يرقص منتفضاً كشمعةٍ مبلَّلة. قلت في نفسي " سفلس أو لا سفلس. سأنكحك هذه الليلة "

تابعتْ قصتها بعد فترةِ تراخٍ. سردت كيف جعلها تربض في زاوية السيارة وساقاها مرفوعتان عالياً وأخذ يعبث فيها بيدٍ بينما كان يقود باليد الأخرى، والسيارة تتحرَّك بخطٍ متعرِّج إلى هذه الجهة وإلى تلك عبر الطريق. وكيف جعلها تفتح كسَّها بيديها الاثنتين ومن ثم وجَّه ضوء المصباح عليه. وكيف وضع سيجارته داخله وجعلها تحاول أن تستنشق بكسّها. وكيف حاول أحدهم أن يقف ويقحم أيره في فمها، لكنه كان من فرط السُكر بحيث عجز عن فعل أي شيء. والفتاتان - كانتا عندئذ عاريتين تماماً وتغنيان أغانٍ قذرة. وهي لا تدري إلى أين يتوجه وما الذي سيحدث تالياً. قالت " لا، كنت شديدة الخوف بحيث تلتهب شهوتي. لقد كانوا قادرين على فعل أي شيء. كانوا سفَّاحين. كل ما استطعت أن أفكر فيه هو الهرب. كنت مرعوبة. وظلَّ يردِّد طوال الوقت: " انتظري، أيتها العاهرة اللذيذة ... سأنكحك حتى أُهلِكَ طيزك. كم عمرك؟ انتظري ... "، ثم أمسكه بنفسه وراح يلوِّح به كالهراوة. " حين سيدخل هذا في عشّك الصغير الجميل سوف تشعرين بشيء ضخم.

سوف أجعلك تقذفين. كم مرة في اعتقادك أستطيع أن أفعل؟ احزري! ". كان لابد لي من أن أجيبه. " مرتين ... ثلاث مرات؟ "، " أعتقد أنكِ لم تحصلي على أي نكاح حقيقي. تحسَّسيه! "، وجعلني أمسكه مرة أخرى وهو يتحرَّك إلى الأمام والخلف. كان لزجاً وزلاّقاً ... لابد أنه كان يقذف طوال الوقت. " كيف تجدينه، يا أختاه؟ أستطيع أن أطيله أكثر بمقدار إنش أو إنشين حين أدكُّه في حفرتك تلك. بالمناسبة، ما رأيك في أن أحشره فيك من الخلف؟ اسمعي، بعد أن أنتهي منك، لن تستطيعي أن تطلبي النكاح مدة شهر ". هكذا كان يتكلم ... "

قلت " بحق المسيح، لا تتوقّفي هنا، ماذا حدث بعد ذلك؟ "

حسن، أوقف السيارة بمحاذاة أحد الحقول. لم يعد هناك مجال لإضاعة الوقت. كانت الفتاتان في الخلف تحاولان أن ترتديا ملابسهما، لكن الرجلين رمياهما إلى الخارج وهما عاريتان تماماً. كانتا تصرخان، وإحداهما تلقَّت لكمةً على فكِّها مقابل أتعابها وسقطت ككلبة على جانب الطريق، والأخرى بدأت تضمُّ يديها معاً، وكأنها تصلِّي، لكنها لم تستطع أن تُخرِجِ أي صوت، وقد شلَّها الرعب.

قالت مونا " انتظرته حتى فتح الباب من جانبه، ثم قفزت إلى الخارج بسرعة واندفعت أقطع الحقل. خرج الحذاء من قدميَّ، فجرحتا من كثافة جُذامة الزرع. ركضتُ كالمجنونة وهو يلاحقني. أدركني ونزع عني ثوبي - مَزَّقه بنخعة واحدة. ثم رأيته يرفع يده وفي اللحظة التالية رأيت نجوماً. كانت هناك إبرٌ في ظهري وإبرٌ في السماء. كان يعتليني ويفعل فيَّ كحيوان. كان الألم فظيعاً. أردت أن أصرخ لكني كنت أعرف أنَّ كل ما سيفعله هو أن يضربني من جديد. استلقيتُ حيث كنت متصلِّبةً من

twitter @baghdad_library

فرط الخوف وتركته يدقّني. عضّني في كل مكان من جسمي - شفتيَّ وأذنيَّ، عنقي، كتفيَّ، ثدييَّ - ولم يكفّ لحظة واحدة عن الحركة - كان فقط يتابع النكاح مثل حيوانٍ أصابه مسٌّ من جنون. حسبتُ أنَّ كل شيء داخلي قد تكسَّرَ. وحين تراجع عني حسبتُ أنه قد انتهى. بدأت أبكي. قال " كفِّي عن هذا وإلا لكمتكِ في فكِّك ". شعرت وكأني أتدحرجُ بظهري على الزجاج. استلقى على كامل ظهره وأمرني أن أمصَّه له. كان ما يزال ضخماً ولزجاً. أعتقد أنه كان لديه انتصاب دائم. كان لابد لي من أرضخ. قال " استخدمي لسانك. إلعقيه! ". ظل مستلقياً وهو يزفر أنفاساً ثقيلة، وعيناه تدوران في محجريهما، وفمه مفتوحٌ حتى آخره. ثم جرَّني فوقه، وأخذ يحرّكني بقوة إلى أعلى وإلى أسفل كالريشة، ويديرني ويلويني وكأني مصنوعة من مطاط. قال " هذا أفضل، هه؟ اعملي أنتِ الآن، يا شرموطة! "، ثم أمسك بي من خصري بكلتيّ يديه بينما كنتُ أنا أنكحُ بكل عزمي. وأقسم لك يا فال، لم يتبقَّ فيَّ مقدار ذرة واحدة من الإحساس - ماعدا الألم الحارق وكأنَّ سيفاً شديد الحرارة مغروزٌ في جنبي. قال " يكفي هذا. والآن اركعي على أربع - وارفعي طيزك إلى أعلى "، ثم فعل كل شيء ... يخرجه من مكان ليضعه في آخر. جعل رأسي مدفوناً في التربة، داخل القذارة، ودفعني إلى الإمساك بخصيتيه بكلتيّ يديّ. قال " اعصريهما، ولكن ليس بقوة وإلا قتلتك! ". كانت القذارة تدخل في عينيَّ ... كانت تخزُ بشكل رهيب. فجأة شعرت به يقحمه بكل قوته ... كان يقذف من جديد ... كان السائل حاراً وكثيف القِوام. لم أعد أتحمَّل أكثر من ذلك. انهرتُ إلى أسفل على وجهي وشعرت بسائله يجري على عنقي. وسمعته يقول " لعنك الله! "، ثم لابد

أنه ضربني مرة أخرى لأني لا أذكر أي شيء إلى أن استيقظت وأنا أرتعش من شدة البرد ووجدتني مغطاة بالجروح والرضوض. كانت الأرض رطبة وكنت وحدي ... "

عند هذه النقطة اتخذتْ القصة منحى آخر. ومن آخر فآخر. وفي غمرة لهفتي لمتابعة تحليقاتها كدتُ أغفل الهدفَ من القصة، وهو أنها أُصيبت بمرضٍ. في أول الأمر لم تعرف ما هو، لأنه تبدّى في البداية على صورة حالة سيئة من داء البواسير. كان سببه الاستلقاء على الأرض الرطبة، كما جزمتْ. على الأقل كان ذلك رأي الطبيب. ثم ظهر الشيء الآخر - لكنها زارت الطبيب في الوقت المناسب وشفاها.

على الرغم من أنّ هذا كان مثيراً لاهتمامي، إذا أخذنا بعين الاعتبار أني كنت ما أزال مهتماً بمرض القوباء الحلقيّة[٩٨]، فإن حقيقةً أخرى ظهرت زادت من أهميته. ولسبب ما لم أكن قد ألقيتُ نظرةً متفحّصة على تفاصيل آثار الكارثة - كيف استجمعت قواها، واستجدت توصيلة إلى نيويورك، واستعارت ملابس من فلوري، وما إلى ذلك. وأذكر أني قاطعتها لأسألها قبل كم من الوقت حدثت عملية الاغتصاب وانطباعي يقول إنَّ جوابها كان يغلب عليه الغموض. ولكني فجأة، وبينما كنت أحاول إعادة ترتيب الأمور في ذهني، أدركت أنها كانت تتحدّث عن كاروثرز، عن العيش معه في منزله والطبخ له وما إلى ذلك. فكيف حدث ذلك؟

قالت " لكني أخبرتك للتو؛ ذهبت إلى منزله لأني لم أجرؤ على التوجه إلى بيتي وأنا بذلك المنظر. وكان غاية في اللطف. عاملني

٩٨ - القوباء الحلقيّة : مرض جلدي معدٍ . - المترجم

twitter @baghdad_library

وكأني ابنته. وزرت طبيبه - صحبني إليه بنفسه "

استنتجت من ذلك أنَّ العيشَ مع كاروثرز كان يعني أنها قطنت معه في المنزل الذي كانت قد ضربت لي فيه موعداً، حيث دخل علينا كاروثرز فجأة وجرى مشهد الغيرة التمثيلي. لكني كنت مخطئاً.

قالت " حدث ذلك قبل هذا بكثير. كان يقطن عندئذ في أطراف البلدة "، وذكرَتْ لي اسم ظريفٍ أميركي شهير كان يشترك معه في العيش في إحدى الشقق.

" هذا يعني أنك كنت ما تزالين طفلة حينئذ - إلا إذا كذبت فيما يخصّ سنك "

" كنت في السابعة عشرة وكنت قد هربت من المنزل خلال سنوات الحرب. ذهبت إلى نيو جرزي وعملت في مصنع للذخائر. بقيت فيه بضعة أشهر. وقد أجبرني كاروثرز على ترك العمل والعودة إلى المدرسة"

قلت، وقد بلبلتني كل تلك التناقضات، " إذن أنهيتِ دراستك؟ "

" طبعاً أنهيتها! ليتك تكفّ عن الإيحـ ... "

" وقابلتِ كاروثرز في مصنع الذخيرة؟ "

" ليس " في " المصنع. كان يعمل في مصنع للصباغ قريب. وكان يصحبني إلى داخل مدينة نيو جرزي بين حين وآخر. أعتقد أنه كان نائب الرئيس. على أي حال، كان له مطلق الحرية في التصرُّف. وكان يصحبني إلى المسرح وإلى النوادي الليلية ... كان يحب الرقص "

" ولَمْ تكوني تعيشين معه عندئذ؟ "

" لا، حدث ذلك لاحقاً. حتى حين كان يسكن خارج البلدة، بعد حادثة الاغتصاب، لم أقطن معه. كنت أطبخ وأدير شؤون المنزل لأعبِّر

عن امتناني لكل ما فعله لأجلي. وهو لم يطلب مني أن أصبح عشيقته. أراد أن يتزوجني ... لكن قلبه لم يطاوعه على ترك زوجته. لقد كانت مريضة ... "

" تقصدين من الناحية الجنسية؟ "

" سبق وحكيتُ لك كل شيء عنها. ما الفرق؟ "

قلت " إنني مشوَّش الذهن "

" لكني أقول لك الحقيقة. أنتَ طلبتَ أن أخبرك كل شيء. وها أنت لا تصدِّقني "

هنا ومضَ شكٌ رهيب في ذهني يقول إن " الاغتصاب " (ولعله لم يكن اغتصاباً!) حدث في ماضٍ قريب: لعل الإيطالي ذا الأير الذي لا يشبع لم يكن أكثر من قاطع أخشاب في الغابة الشمالية. لاشك في أنه قد وقع أكثر من " اغتصاب " واحد خلال فترات ركوب السيارات تلك بعد منتصف الليل التي تتهتّك خلالها فتيات صغيرات حاميات الدم بعد أن يسكرن. إن منظرها وهي واقفة وحدها عارية وسط حقلٍ رطبٍ عند الفجر، وجسدها مغطى بالجراح والرضوض، وجدار رحمها مكسور، والمستقيم مشوَّه، وحذاؤها ضائع، وعيناها يغطيهما السواد والازرقاق... حسن، ذاك النوع من الوصف جدير بأن تلفّقه فتاة شابة رومانسية لتموِّه به زلّةً طائشة انتهت بمرضِ السيلان أو بنزيفٍ، على الرغم من أن النزيف بدا gratuit (بلا مبرر).

قلت بهدوء " أعتقد أنَّ من الأفضل أن نذهب إلى الطبيب غداً، نحن الاثنان، ونجري فحصاً للدم "

أجابت " طبعاً سأذهب معك "

twitter @baghdad_library

تعانقنا بهدوء ثم غبنا في نكاحٍ طويل.

ثم أقضَّت مضجعي فكرةٌ مقلقةٌ. انتابني حدس بأنها ستجد عذراً لإرجاء الزيارة إلى الطبيب بضعة أَيام. وفي تلك الأثناء، إذا كان ما بي مرض جنسي، يمكن أن أنقله إليها. نبذت تلك الفكرة باعتبارها غير معقولة. لعلَّ في وسع الطبيب أن يعرف بالفحص إن كانت هي التي نقلته إليَّ أم أنا نقلته إليها. وكيف يمكن أن أُصابَ بالمرض، إلا من خلالها؟

قبل أن نغفوا علمت منها أن غشاء بكارتها كان قد فُضَّ وهي في الخامسة عشرة من عمرها. تلك أيضاً كانت غلطة أمها. نعم، فقد كان أهلها يجرفونها نحو حافة الجنون بكلامهم عن النقود، النقود، النقود. طوال الوقت. فقبلَتْ عملاً كمحاسبة على الصندوق داخل حجيرة صغيرة أمام إحدى دور السينما. وسرعان ما وضع صاحب الدار عينه عليها، وكان يمتلك سلسلة من دور السينما في أرجاء البلد كافة. كانت لديه سيارة رولز رويس، ويرتدي أفخر الملابس. وطماق الكاحل، وقفازات بلون الليمون، ويضع زهرة في العروة وكل ما يتناسب مع باقي الأجزاء. كان يتقلَّب في المال. ودائماً تراه يسحب أوراقاً نقدية من فئة المائة دولار من حزمته الضخمة. وكانت أصابعه مدجَّجة بخواتم مرصَّعة بالأحجار الكريمة، وأظافره دائماً مشذَّبة ومسوَّاة. كان رجلاً من الصعب التكهُّن بعمره، لعله في أواخر أربعيناته؛ رجلاً لا يشغله شاغل ويتمتَّع بجاذبية جنسية ضافية ودائماً يلاحق الفتيات. وطبعاً قبلَتْ هداياه - ولكن بدون قلّة أدب. كانت تعلم أنَّ في إمكانها أن تلفَّه حول إصبعها.

ولكن في المنزل كان الضغط في انتظارها. فمهما رمت لهم على الطاولة لا يكفيهم.

وذات يوم سألها إن كانت تودُّ أن ترافقه إلى شيكاغو لكي يفتتح داراً جديدة للمسرح هناك فوافقت. كانت متأكدة من أنها قادرة على التعامل معه كما ينبغي. ثم إنها كانت تتحرَّقُ شوقاً إلى الخروج من مدينة نيويورك، والابتعاد عن والديها وما إلى ذلك.

تصرَّفَ معها كأحسن ما يكون الجنتلمن. كان كل شيء يسير على أحسن ما يرام - وكان قد منحها علاوة كبيرة، واشترى لها ملابس، وأخذها إلى أرقى الأماكن، وكل شيء كان مطابقاً للخيال. ثم، ذات ليلة وبعد تناول طعام العشاء (وكان قد اشترى بطاقتين لدخول المسرح)، قال لها بصراحة تامة: يريد أن يعرف إن كانت ما تزال عذراء. وكانت شديدة اللهفة لتقول له نعم، ظناً منها أن عذريتها تحميها. لكنها ذُهلَتْ حين بدأ يدلي لها باعتراف صريح جداً ووحشي كشف لها من خلاله أنَّ هوسه الوحيد هو أن يفضَّ بكارة الفتيات الصغيرات. بل إنه اعترف بأن ذلك كلَّفه مالاً كثيراً ووضعه في مأزقٍ خطير. ولكن كان جلياً أنه عاجز عن كبح جماح شهوته. اعترف بأنه إنسان منحرف، ولكن بما أنه قادر على نفقات الانغماس في رذيلته لم يزعج نفسه بمعالجة نفسه. ولَمَّحَ إلى أنه لا شيءَ وحشياً فيما يفعله. كان دائماً يعامل ضحاياه برقّة ومراعاة. فبعد كل شيء، قد يعتبرنه لاحقاً مُحسِناً لهنَّ. فعاجلاً أو آجلاً سوف تتخلّى كل صبيّة عن بكارتها. بل كان يتمادى إلى حد القول إنه من الأفضل، ما دام لابد من ذلك، إيكال العملية إلى شخصٍ متمرِّس، خبير، إن صح القول. فكثير من الأزواج هم من الفظاظة وعدم الفعالية بحيث أنهم غالباً ما يكونون السبب في برودة زوجاتهم الجنسية. وكثيراً من الزيجات المحطَّمة يعود سبب فشلها إلى تلك الليلة الأولى، هكذا أصرّ بسلاسة وبكلامٍ صحيح لا يمكن إنكاره.

twitter @baghdad_library

باختصار، لقد كان، حسب روايتها للحادثة، مدافعاً ممتازاً عن آرائه، وحاذقاً ليس فقط في فن سلب البكارة بل وفي فن الغواية.

قالت مونا " قلت في نفسي، إذا كان الأمر يتعلّق بمرّة واحدة فقط يمكنني أن أسمح لنفسي بفعل ذلك. لقد قال لي إنه سيدفع لي ألف دولار، وكنت أعلم ماذا يعني مبلغ ألف دولارٍ لأمي ولأبي. وشعرت أني أستطيع أن أثق فيه "

" إذن فلم تذهبا إلى المسرح في تلك الليلة؟ "

" طبعاً ذهبنا - لكني وعدته قبل ذلك بأن أفعلها معه. وطمأنني بأن الأمر لن يكون مؤلماً جداً. وقال إنه يستطيع أن يثق فيَّ؛ لقد كان يراقبني منذ فترة طويلة وعلم أني سوف أتصرَّف بعقلانيّة. ولكي يثبت صدقه عرضَ أن يعطيني النقود مقدَّماً. فلم أقبل. لقد كان شديد الكياسة معي وشعرت أنه ينبغي عليَّ أن أستمر في إتمام الصفقة قبل قبول نقوده. وأقول لك الحق يا فال، كنت قد بدأت أعجب به. كان دهاءً منه ألاّ يدفعني دفعاً إلى فعله. ولو فعل لكرهته بعد ذلك. وفي الحقيقة، كنت ممتنَّةً له - على الرغم من أنه اتَّضحَ أنَّ الأمر كان أسوأ مما تصوَّرت "

كنت أتساءل بيني وبين نفسي عمّا عنته بهذه الجملة الأخيرة حين فوجئتُ بها تقول:

" أتعلم، لقد كان لديّ غشاء بكارة متين جداً. أحياناً يضطرون إلى إجراء عملية جراحية في مثل هذه الحالة. وآنئذ لم أكن أعرف أي شيء عن مثل تلك الأمور. حسبت أنها مؤلمة قليلاً ودامية ... مرت بضع دقائق ... ومن ثم ... على أي حال، لم تكن كذلك على الإطلاق.

لقد مرَّ ما يقارب الأسبوع قبل أن يتمكَّن من فضِّه. ويجب أن أقول إنه استمتع بالأمر. وكان رقيقاً حقاً! لعله كان فقط يكذب حول كونه متيناً جداً. لعلَّ ذلك كان مجرد خدعة ليطيل أمد العملية. ثم إنه لم يكن قوي البنية كثيراً. وكان قضيبه قصيراً وثخيناً. وبدا لي أنه كان يُدخلَه كله، لكني بعد ذلك أصبحت شديد التوتُّر ولم أعد واثقة منه. كان يُبقيه داخلي مدة طويلة، وبالكاد يتحرَّك، لكنه كان صلباً كصخرة ويرتعش كأداة هزَّازة. أحياناً كان يُخرجه ويعبث به على الجزء الخارجي. كان ذلك رائعاً. كان في استطاعته أن يفعل ذلك فترة طويلة بدون أن يقذف. قال إن بُنيتي مثالية ... وإنه ما أن يُثقَب الجلد ستصبح مضاجعتي أمراً رائعاً. لم يكن يستخدم لغة قبيحة - كذاك المتوحش الآخر. كان حسِّياً. كان يراقبني، ويُريني كيف يجب أن أتحرك، ويبيِّن لي الأساليب المتنوعة ... كان يمكن للعملية أن تستمر أكثر من ذلك بكثير. ويعلم الله كم من الوقت، لو لم تصل إثارتي إلى ذروتها ذات ليلة. كدت أُجَنُّ، خاصة حين أخرجَه وراح يحفُّه حول الشفتين ... "

قلت " إذن استمتعتِ كثيراً؟ "

" استمتعتُ فقط؟ لقَد اهتجتُ. أعلم أني صعقته حتى الموت حين لم يعد في إمكاني في آخر الأمر أن أحتمل وقبضت عليه وجررته بكل ما أوتيت من قوة حتى صار تحتي. وقلت" انكحني، لعنك الله! "، وضغطته وعضضتُ شفتيه. ثم فقد السيطرة على نفسه وبدأ يعمل بعنف. وحتى بعد أن خَرَقَه، ورغم أنه آلمني، ظللتُ أشدَّه. لابد أني حصلت على أربع رعشات أو خمس. أردت أن أشعر به يخرقه كل الوقت. على أي حال، لم أشعر بأي خجل أو حرج. أردت أن أُنكَح ولم يعد يهمني كم يؤلم ذلك "

twitter @baghdad_library

كنت أتساءل إن كانت ستخبرني بصدق كم استمرت تلك العلاقة الجنسية - بعد انتهاء الناحية التقنية منها. وحصلت على الجواب على الفور. كانت صريحة صراحة مذهلة في ذلك. وتبدَّى لي أن ذكرياتها تتَّسم بدفءٍ خارق. مما جعلني أدرك مبلغ شعور النساء بالامتنان حين يعامَلْنَ بفهمٍ.

تابعت قائلة " بقيت عشيقته مدة طويلة. كنت دائماً أتوقَّع منه أن يملَّني، لأنه شدَّدَ لي بقوة على أنه لا يتولَّه إلا بالعذارى. وطبعاً كنت عذراء، بمعنى ما. كنت صغيرة جداً، مع أنَّ الناس كانوا دائماً يظنون أني في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. علَّمَني الشيء الكثير. ذهبت إلى كل مكان في البلد معه. كان شديد الكَلَف بي وكان دائماً يعاملني بمراعاة جمَّة. وذات يوم لاحظت أنه يشعر بالغيرة. وقد فوجئتُ بذلك لأني كنت أعلم أنه عرف نساءً كثيرات - لم أكن أعتقد أنه يحبني. قال لي، عندما ضايقته حول هذه النقطة " لكني أحبك فعلاً ". ثم غلبني الفضول. أردت أن أعرف كم يتوقع أن تدوم تلك العلاقة. ولطالما توقَّعت اللحظة التي سيجد لنفسه فتاة أخرى يرغب في فضّ بكارتها. وكنت أشعر بالرعب حين أقابل فتاة صغيرة السن في حضوره.

ثم قال لي " لكني لا أفكر في فتاة أخرى. أنا أريدك ... وسوف أتمسَّك بك "

" وباشرتُ بالقول له " لكنك قلت لي ... "، فإذا به يضحك ... وأدركت فوراً كم كنت بلهاء. قلت " إذن هكذا استطعت أن تحصل عليَّ، هه؟ "، وشعرت برغبة في الانتقام. كان ذلك تفكيراً أحمق مني لأنه لم يسبِّب لي أي أذى، لكني أردتُ أن أذلَّه.

وتابعت قائلة " أتعلم، إنني أحتقر نفسي جراء ما فعلته. إنه لم يكن يستحق أن يُعامَل بتلك الطريقة. لكني استمدَّيتُ شعوراً قاسياً بالرضى من تسبيب الألم له. صرت أعبث مع كل رجل أقابله - وبصورة فاضحة. بل إني ضاجعت بعضهم، ومن ثم أخبره عن ذلك وأطيل الكلام عنه حين أرى كم يتأذّى منه. وكان يقول " أنت صغيرة، ولا تفهمين ما الذي تفعلينه "، وكان ذلك صحيحاً تماماً، غير أني كنتُ أفهم شيئاً واحداً - أني فُقتُه دهاءً، حتى وإن كنت قد بعت نفسي له فهو عبد لي. كنت أقول له " اذهب واشترِ لنفسكَ عذراء أخرى. لعلّك تحصل عليهن بسعر أرخص من ألف دولار. كنت سأوافق لو أنك كنت دفعت لي خمسمائة. كان في وسعك أن تحصل عليَّ مجاناً لو أنك كنت أكثر دهاءً بقليل. لو كان لدي ثروتك لاخترتُ أن أحصلَ على واحدةٍ جديدة في كل ليلة ". وكنت أستمرُّ هكذا إلى أن أستنفذ طاقته على التحمُّل. وذات ليلة عرضَ عليَّ الزواج. وأقسم على أنه سيطلّق زوجته للتو - إذا ما وافقت. وقال إنه لا يستطيع أن يعيش بدوني. أجبته " ولكن أنا أستطيع أن أعيش بدونك ". أجفلَ، وقال " أنت قاسية، وظالمة ". لم تكن لدي أي نيّة على الزواج منه، مهما كان مخلصاً. لم تكن تهمّني نقوده. ولا أدري لماذا كنت أسيءُ معاملته هكذا. وبعد ذلك، بعد أن رحلتُ عنه، شعرتُ بخجلٍ عارم من نفسي. فعدتُ إليه ذات مرة وتوسّلت إليه أن يسامحني. كان يعاشر فتاة أخرى - كما أخبرني فوراً. قال " ما كنت لأخونك. لقد أحببتك. أردت أن أفعل أشياء تسعدك. ولم أكن أتوقّع منك أن تمكثي معي إلى الأبد. لكنك كنت عنيدة جداً ... كنت شديدة التكبُّر ". كان يكلّمني كما لو أنه أبي. وشعرت برغبة في

twitter @baghdad_library

البكاء... ثم فعلت شيئاً لم أحلم قط بأني أستطيع أن أفعله، توسَّلت إليه أن يضاجعني. فأخذ يرتعش من فرط الشهوة. إلا أنه كان غاية في الكياسة حتى أنَّ قلبه لم يطاوعه أن يستغلها. قال " أنت لا تريدين أن تضاجعينني؛ أنت فقط تريدين أن تبرهني لي على أنك نادمة "، فأصريت على أني راغبة في مضاجعته، وأني أحبه كعشيق. ولم يعد في إمكانه أن يقاوم. ولكن أعتقد أنه كان خائفاً مما سيحدث له. لم يرغب في أن يبدأ من جديد في التدلُّه بحبي؛ لقد انتهى مني. لكني كنت أفكِّر فقط في سداد ديني له. لم يخطر ببالي أي أسلوب آخر لفعل ذلك. كنت أعلم أنه أحبَّني، جسدي وكل شيء. وقد أردت أن أسعده، حتى وإن أزعجه ذلك ... كان الأمر كله مشوّش. على أي حال، تضاجعنا، لكنه لم يستطع أن يحصل على انتصاب. ولم أكن أعرف أنَّ ذلك قد حدث له من قبل. جربّت كل الحيل. استمتعت بإذلال نفسي. وبينما كنت أمصّه له كنت أبتسم في نفسي، وأقول غريب كيف أني أكدُّ بذاك الشكل مع رجل أمقته ... ولم يحدث أي شيء. قلت إني سأعود في اليوم التالي وأحاول من جديد. فنظر إليَّ كما لو أنه أصيب بالرعب من الفكرة. قلت " لقد كنتَ صبوراً معي في البداية، أتذكر؟ فلم لا أكون صبورة الآن؟ ". قال " هذا جنون. أنت لا تحبينني. أنت فقط تمنحين نفسك كعاهرة ". قلت " هذا أنا الآن ... عاهرة ". وصدَّقَ ما قلت حرفياً. بدا مرعوباً، رعباً كلياً ... "

انتظرت سماع بقية الحكاية. سألتها " وهل عدتِ؟ "

لا، لم تعد. لم تقترب منه أبداً بعد ذلك.

قلت في نفسي " لابد أنه عاش حياةً قلقة "

في صباح اليوم التالي ذكّرتها بنيّتنا أن نزور الطبيب. قلت لها إني سأتّصل بها في وقت لاحق من النهار وطلبت منها أن تقابلني في مكتب الطبيب، وإن عليّ أن أستشير كرونسكي في الأمر، فوافقتني على طول الخط. إنها تحت أمري.

حسن، زرنا الطبيب الذي اختاره كرونسكي، وأجرينا فحص الدم، بل إننا تناولنا طعام العشاء مع الطبيب. كان شاباً وليس شديد الثقة بنفسه، كما رأيت. لم يعرف كيف يتعامل مع أيري. أراد أن يعرف إن كنت قد أصبت بمرضٍ جنسي من قبل - أو سفلس. فقلت له إنه سبق أن أُصِبتُ بالسيلان مرتين. وهل عاودني؟ ليس حسب علمي. وما إلى ذلك. ورأى أن من الأفضل أن أنتظر بضعة أيام قبل أن أفعل أي شيء. وفي تلك الأثناء سوف يحلّل دمنا. وقال إننا نبدو صحيحَيّ الجسم، وإنْ كان المظهرُ يخدعُ في الغالب. باختصار، أخذ يلفُّ ويدور في الكلام، كما يفعل الأطباء الشبان عادة - والعجائز أيضاً - ويتركوننا دون أن نفهم أي شيء.

بين الزيارتين الأولى والثانية كان لابد لي أن أقوم بزيارة مود. أخبرتها عن الأمر كله. وطبعاً كانت مقتنعة بأن مونا هي المسؤولة عن إصابتي. وهو ما توقّعته بالضبط. كان مضحكاً حقاً مقدار الاهتمام الذي أبدته بقضيبي المريض ,وكأنه ما يزال ملكها الخاص. واضطررت إلى أن أخرجه لأريها إياه، وحق الله. عاملته بحذر شديد في أول الأمر، ولكن بعد ذلك، برز اهتمامها المحترف وذاك الشيء يزداد ثقلاً في يدها طوال الوقت، أخذ حذرها يقلُّ شيئاً فشيئاً. وكان ينبغي عليّ أن أكون حريصاً على ألا أصل إلى الإثارة الشديدة وإلا اضطررت إلى رمي الحذر

twitter @baghdad_library

إلى الريح. على أي حال، قبل أن تسمح لي بإعادته إلى داخل فتحة البنطال ناشدتني كي أدعها تحمِّمه برفق بمحلول خاص. كانت واثقة من أن ذلك لن يسبب أي أذى. وهكذا ولجت الحمَّام معها، وأيري صلب كهراوة، ورحت أراقبها وهي تدلِّله وتعتني به.

حين عدنا إلى زيارة الطبيب علمنا أن الدلائل كلها سلبية إلا أنَّ هذا، كما شرح قائلاً، لا يشكِّل إثباتاً أخيراً.

قال - كان جلياً أنه قلَّبَ التفكير في المشكلة قبل وصولنا - " في الواقع، لقد كنت أفكر في أنه من الأفضل كثيراً لو أنك تُختَن. فحين تُزال القلفة سوف يزول المرض أيضاً. إن لديك قلفة طويلة بشكل غير عادي - ألا تزعجك؟ "

اعترفت بأني لم أفكر في ذلك أبداً. إن المرء يولد بقلفة ويموت معها. ولا أحد يفكر في زائدته الدودية إلا عندما يحين وقت استئصالها.

ثم تابع قائلاً " نعم، ستكون أفضل حالاً بكثير بدون تلك القلفة. وطبعاً، سوف يتوجَّب عليك أن تدخل المستشفى ... الأمر قد يستغرق ما يقارب الأسبوع أو نحوه "

سألته، متقصِّياً " وكم سيكلِّفُ هذا ؟ "

لم يكن يعرف على وجه الدقة - ربما مائة دولار.

قلت له سوف أفكر في الأمر. لم أكن متحمِّساً كثيراً لفقدان قلفتي العزيزة، حتى وإنْ صاحَبَ ذلك مزايا صحية. ثم خطرت ببالي فكرة غريبة - بعد ذلك سوف يصبح رأس أيري معدوم الحساسية. ولم تعجبني الفكرة على الإطلاق.

مع ذلك، وقبل أن أغادر غرفة مكتبه أقنعني بتعيين موعد مع طبيبه الجراح قبل الأسبوع من إجراء العملية، " في حال اتَّضح في تلك الأثناء أنك لست بحاجة للخضوع لعملية جراحية - أو أن الفكرة لم تعجبك "

ثم أضاف " ولكن، لو كنت في مكانك لخضعت لها سواء أعجبتني أم لم تعجبني. إن ذلك سيجعلك أكثر نظافة "

خلال فترة التفكير تلك تواصلت الاعترافات الليلية بوتيرة سريعة، وحينئذ كانت مونا قد تركت العمل في صالة الرقص قبل عدة أسابيع وكنا نمضي الأمسيات معاً. لم تكن تعرف بالضبط ماذا ستفعل بعد ذلك - كانت مسألة النقود دائماً تقضُّ مضجعها - لكنها كانت واثقة من أنها لن تعود إلى صالة الرقص. وبدت مرتاحة مثلي حين علمت أن نتيجة فحص دمها كانت مطمئنّة.

" ولكن لا أظنك كنت تعتقدين أنَّ بك خطباً ما "

قالت " مَنْ يدري. لقد كان مكاناً فظيعاً ... والفتيات كنَّ قذرات"

" الفتيات؟ "

" والرجال أيضاً ... دعنا من هذا الحديث ". وبعد صمت قصير ضحكت وقالت " ما رأيك في أن أظهر على خشبة المسرح؟ "

قلت " سيكون أمراً جميلاً. أتظنين أنك تحسنين التمثيل؟ "

" أنا أعرف أني أحسنه. انتظر يا فال، وسأريك ... "

في مساء ذلك اليوم رجعنا إلى المنزل في وقت متأخر وتسللنا بهدوء إلى سريرنا. تمسَّكتْ بأيري وبدأت سلسلة جديدة من الاعترافات. كانت تريد أن تخبرني شيئاً ... ويجب ألا أغضب ... ويجب ألا أقاطعها. ووعدتها بذلك.

twitter @baghdad_library

استلقيت هكذا وأنا أصغي إليها بانتباه شديد. قضية النقود من جديد. كانت دائماً حاضرة، كالتقيُّح الفاسد. " لا أظنك كنت تريد مني أن أبقى في صالة الرقص، أليس كذلك؟ ". طبعاً لم أرد. وماذا بعد هذا ؟ تساءلتُ.

من الطبيعي أنه كان علينا أن نجد وسيلة ما لجمع الموارد المالية اللازمة. قلت في نفسي، هيا! قولي ما عندك! وتناولت عقاراً مهدِّئاً ورحت أنصت إليها بدون أن أفتح بوزي. كانت الرواية كلها خالية من أي ألم، وغريبة السرد. كانت تتحدث عن رجالٍ عجائز، عجائز ولطيفين تعرَّفت إليهم في صالة الرقص. كانوا يسعون وراء صحبة فتاة شابة وجميلة- لتتناول الطعام معهم ويصحبونها إلى دار المسرح. لم يكونوا يهتمون بالرقص - أو حتى بمضاجعة الفتاة. أرادوا أن " يراهم " الناس بصحبة امرأة شابة - فذلك يشعرهم بأنهم أكثر شباباً، ومرحاً، وأملاً. وكلهم كانوا من أولاد الحرام العجائز الناجحين - بأطقم أسنان اصطناعية وأوردة متوسِّعة وكل ما شابهها من أشياء. ولم يكونوا يعرفون كيف يبدِّدون أموالهم. أحدهم، الذي كانت تتحدث عنه، كان يمتلك مغسلة كبيرة ومجفِّفة على البخار. كان يتجاوز الثمانين من العمر، هشاً، بأوردة مزرقَّة، وعينين شاحبتين. كان كالطفل. وحتماً لم أكن لأغار " منه "! وكل ما كان يطلبه هو السماح له بإنفاق نقوده عليها. لم تقلّ كم كان قد أنفق عليها حتى ذلك الحين، لكنها خمَّنت أنه مبلغ كبير. والآن هناك آخر - يقيم في فندق الريتز كارلتون؛ يملك مصنعاً للأحذية. أحياناً تتناول الطعام معه في غرفته، لأن ذلك يبهجه. كان مليونيراً - خرِفاً قليلاً، إذا صدَّقت كلامها. في أحسن الأحوال لم تكن شجاعته تدفعه

لأكثر من تقبيل يدها ...نعم، لقد كانت تنوي أن تخبرني عن تلك الأمور منذ أسابيع مضت، لكنها كانت تخشى أن أُسيء فهمها. وقالت، وهي تميل عليَّ، " لا أظنك تفعل، أليس كذلك؟ ". لم أجب فوراً. كنت أفكر، وأتساءل، يحيِّرني الأمر كله. قالت، وهي تلكزني " لمَ لا تقول شيئاً؟ قلت إنك لن تغضب. لقد وعدتني "

قلت " لست غاضباً ". ومن ثم عدت إلى صمتي.

" بل غاضب! لقد تأذيتَ ... أوه، فال، أنت أحمق كبير. أوتظن أني أحكي لك هذه الأشياء لو كنتُ أعتقدُ أنك ستتأذّى؟ "

قلت " أنا لا أظن أي شيء. لا بأس، صدقيني. افعلي ما ترين أنه الأفضل. إنني فقط أشعر بالأسف لأن الأمور جرت بهذا الاتجاه "

" لكنها لن تبقى هكذا دائماً! إنها فقط لفترة وجيزة ... لهذا تراني أريد أن أتجه إلى العمل في المسرح. إنني أكره ما أفعل بقدر كرهك له "

قلت " أوكيه، لننس هذا الأمر "

في صباح اليوم الذي كان من المتوقع أن أذهب إلى المستشفى نهضت من النوم باكراً. وبينما كنت أستحمُّ ألقيت نظرة على أيري ويا لله لمْ يبق هناك أي أثر للتهيُّج. كدت لا أصدِّق عينيَّ. أيقظت مونا وأريتها إياه. فقبَّلته. عدت إلى السرير وأنجزت واحداً سريعاً - على سبيل اختباره. ثم خرجت أبحث عن هاتف واتَّصلتُ بالطبيب. قلت " كل شيء على أحسن ما يرام، لن أُجري عملية نزع القلفة "، وعلَّقتُ السماعة بسرعة لكي أحبط أي اقتراحات أخرى من جانبه.

لدى مغادرتي حجيرة الهاتف خطر ببالي فجأة أن أتصل بمود.

twitter @baghdad_library

قالت " لا أصدِّق "

قلت " ومع ذلك، إنها الحقيقة، وإذا كنتِ لا تصدّقين سأثبت لك ذلك حين أقوم بزيارتك في الأسبوع القادم "

بدت أنها ترغب في البقاء عند الهاتف. وراحت تتحدث عن أشياء كثيرة خارج موضوعنا. قلت، وقد أزعجتني، " يجب أن أذهب "

ناشدتني " انتظر لحظة. كنت سأسألك إن كان في إمكانك أن تأتي قبل ذلك، يوم الأحد مثلاً، وتصحبنا إلى الريف. يمكننا أن نقوم بنزهة قصيرة، نحن الثلاثة. سوف أعدُّ وجبة غداء ... "

بدا صوتها شديد الرقّة.

قلت " حسن، سآتي. سآتي باكراً ... في نحو الساعة الثامنة "

قالت " أنت متأكد من أنك على ما يرام؟ "

" كل الثقة. سوف أريك إياه - يوم الأحد "

أطلقت ضحكة صغيرة، قذرة وقصيرة. علّقتُ السماعة قبل أن تسكت.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس عشر.

خلال فترة إتمام إجراءات الطلاق توالت الأحداث وكأنها تنهي حقبة من الزمن. لم يكن ينقص غير حرب تتوِّجها. فأولاً رأى أصحاب الجلالة الشيطانية لشركة التلغراف الكونيّة الشيطانية أن من الأنسب أن ينقلوا مركز إدارتي مرة أخرى، وهذه المرة إلى أعلى بناء شاهق وقديم يقع في منطقة تصنيع خيوط القنب وعلب الكرتون. وطاولة مكتبي كانت قائمة في وسط طابق مترامي الأطراف ومقفر كانت تستخدمها فرقة السُعاة كغرفة تدريب بعد ساعات الدوام الرسمي. وفي الغرفة المجاورة، التي كانت لا تقلُّ عن الأولى اتساعاً وفراغاً، أقيمَ مزيجٌ من العيادة، والمستوصف وصالة للألعاب الرياضية. وكل ما كان ينقص لإكمال الصورة وضع بضع طاولات للعب البليارد. وكان بعض شبه البلهاء قد أحضروا معهم مزلجاتهم لتبديد " فترات الراحة ". كان عملاً جحيمياً وكانوا يقومون به طوال النهار، لكني في ذلك الوقت كنت قد أضحيت لا مبالياً كلياً بخطط الشركة ومشاريعها كلها إلى درجة أنها كانت تمدّني بتسلية هائلة، ولم تزعجني البتّة. حينئذ كنت معزولاً تماماً عن المكاتب الأخرى. وكان التطفُّل والتجسُّس قد أُلغيا، كنت في حالة عزلة إلزامية (حجر صحي)، إن صح التعبير. وكانت عملية التعيين والطرد تجري بصورة حالمة؛ واختُصِرَت الهيئة الإدارية إلى اثنتين - أنا والملاكم

السابق الذي كان قبل ذلك مسؤول غرفة تعليق الملابس. لم أبذل أي مجهود لترتيب الملفات، ولا حقَّقتُ في المؤهلات، ولا أوصلت أي مراسلات. كنت في أغلب الأحيان لا أزعج نفسي بالردّ على الهاتف؛ وإذا ما كان هناك أي شيء عاجل جداً فهناك دائماً التلغراف.

كان جو الحيّ الجديد بوضوح أشبه بحالة من الجنون المبكّر. لقد نفوني إلى الجحيم وكنت أستمتع بإقامتي. وحالما أتخلّصُ من حصيلة اليوم من طالبي العمل أنتقلُ إلى الغرفة المجاورة وأراقب الخدع: كنت أحياناً ألبس أنا أيضاً مزلجة وأقوم بدورة مع البلهاء. وينظر إليّ مساعدي بارتياب؛ إنه لا يفهم ماذا دهاني. وأحياناً، وعلى الرغم من صرامته، و " دستوره " وعناصر أخرى نفسية منتقصة، كان ينفجر بنوبة من الضحك تطول حتى تصل إلى حد الهستريا. وذات مرة سألني إن كان لديّ «مشاكل في المنزل» أعتقد أنه كان يخشى أن تكون الخطوة التالية هي إدماني على الخمر.

في الواقع لقد كنت قي ذلك الوقت قد بدأت أطلق العنان لنفسي، شيئاً فشيئاً. كان إدماني على شرب الخمر غير مؤذ، يبدأ فقط على مائدة العشاء. فقد اكتشفت بمحض المصادفة مطعماً فرنسياً- إيطالياً في خلفيّة محل بيع الخردوات. وكان الجو العام بهيجاً جداً، وكل إنسان يشكّل " شخصية متميِّزة "، حتى رقباء الشرطة والتحريون الذين كانوا يلتهمون الأكل بصورة شائنة على حساب صاحب المحل.

كان لابد لي من أن أجد مكاناً أمضي فيه لياليَّ، بعد أن تسلّلتْ مونا إلى المسرح من بابه الخلفي. ولم أتمكن من معرفة إن كان موناهان هو الذي وجد لها العمل أم أنها، وكما قالت، كانت تكذب على طول

twitter @baghdad_library

الخط. على أي حال، كانت قد اتخذت اسماً جديداً، مناسباً لمهنتها الجديدة، ومعه تأريخ جديد كل الجِدَّة لحياتها ولماضيها. أصبحت فجأة إنكليزية، وأصبحت صِلة قومها بالمسرح تعود إلى أول عهدها بالتذكُّر. وقد كان عهداً بعيداً جداً في الغالب. كانت قد ولجت عالم الادِّعاء ذاك من بوابة أحد المسارح الصغيرة التي وجدت رواجاً في ذلك الحين، وتلاءمت معه. وبما أنهم كانوا نادراً ما يدفعون لها أي شيء كان في إمكانهم أن يتصرّفوا بسذاجة.

في أول الأمر لم يكن آرثر ريموند وزوجته يصدِّقان النبأ. وأعتقد أنها إحدى صرعات مونا. أما ريبيكا، التي لا تتقن الرياء، فضحكت في وجه مونا مباشرة. ولكن حين عادت إلى المنزل ذات مساء حاملة حوار مسرحية لشنيتزلر[٩٩] وبدأت بكل جدية تراجع دورها حلَّ محل عدم تصديقهما ذعر. وعندما نجحت مونا، بوسيلة ما غير مفهومة، بالانضمام إلى نقابة المسرحيين، أصبح جو المنزل مشبَّعاً بشكل خارق بالحسد، والحقد والضغينة. أخذت المسرحية تصبح حقيقية أكثر مما ينبغي - ساد خطر حقيقي جداً في أن تتحول مونا إلى الممثلة التي تدَّعيها.

بدا كأنَّ التدريبات لن تنتهي. لم أكن أعرف في أي ساعة ستعود مونا. وحين أنجح في تمضية أمسية معها أكون كمن يستمع إلى حديث شخص ثمل. لقد كان بريق الحياة الجديدة قد أطاح بصوابها تماماً. كنت بين حين وآخر أمكث في المنزل مساءً وأحاول أن أكتب، ولكن بلا نتيجة. فآرثر ريموند دائماً موجود هناك يستلقي وينتظر كأخطبوط. ويسألني "

٩٩ - آرثر شنيتزلر (١٨٦٢ - ١٩٣١) : كاتب مسرحي نمساوي . له " بروفيسور برناردي " . اتُّهِمَ بعدائه للسامية ومنعت مسرحياته . - المترجم

لمَ تريد أن تكتب؟ يا إلهي، ألا يوجد ما يكفي من الكتّاب في العالم؟". ومن ثم يباشر في التحدُّث عن الكتّاب، الكتّاب الذين يعجبونه، وأجلس أمامه كآلة، وكأنني مستعد لمعاودة العمل حالما يغادرني. وغالباً ما أكتفي بكتابة رسالة - إلى مؤلف مشهور، وأخبره فيها مبلغ إعجابي بعمله، وملمِّحاً إلى أنه إن لم يكن قد سمع بي لتوه، فسوف يفعل قريباً. بهذه الطريقة حدث ذات يوم ما أدخل السرور إلى قلبي، فقد استلمتُ رسالة مدهشة من دوستويفسكي الشمال ذاك، كما كان يسمَّى: كنوت هامسن[100]. كتبت بخط يد سكرتيرة، بلغة إنكليزية ركيكة، موجَّهة من رجل كان سيتلقّى قريباً جائزة نوبل للآداب، وأقل ما كان يقال فيها أنها قطعة إملائية مبهمة. بعد أن عبَّرَ لي عن سروره، وتأثُّره، لثنائي عليه، انتقل ليقول (من خلال فمه الخشبي) أنَّ ناشر كتبه الأميركي لم يكن راضٍ كثيراً عن العائدات المالية التي يحصدها من بيع كتبه. ويعبِّر عن خشيته من أنه قد لا يتمكَّن من نشر المزيد من كتبه - إلى أن يبدي الجمهور مزيداً من الاهتمام الحيوي بها. كانت نبرة كلامه أشبه بنبرة صوت عملاق مكروب. وتساءل بإبهامٍ عمَّا يمكنه أن يفعله ليستردَّ مكانته، ليس من أجل نفسه بقدر ما هو من أجل ناشره العزيز، الذي كان يعاني بحقٍ بسببه. ومن ثم، ومع تقدُّم سطور الرسالة، يبدو أنَّ فكرةً متفائلةً سيطرت عليه وللتو عبَّر عنها، مفادها - أنه ذات مرة تلقَّى رسالة من شخصٍ يدعى مستر بويل. كان يعيش في نيويورك وأني حتماً أعرفه(!). ويقترح علينا أنا ومستر بويل أن نلتقي، ونقلِّب التفكير في الوضع، ومن المحتمل كثيراً أن نصل إلى حلٍ لامع ما.

١٠٠ - كنوت هامسن : نال جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٢٠ - المترجم.

twitter @baghdad_library

ويقترح أن نُخبر أناساً آخرين في أميركا أنه يوجد هناك في براري النرويج ومستنقعاتها كاتبٌ اسمه كنوت هامسن تُرجِمَتْ كتبه بأمانة إلى الإنكليزية وأنها الآن موجودة على رفوف مستودع ناشره. وكان واثقاً من أنه لو يتمكَّن من زيادة مبيعات كتبه بمقدار بضع مئات من النسخ فسوف يتشجَّع ناشره ويستعيد إيمانه به. وقال إنه كان قد زار أميركا، ومع أن لغته الإنكليزية ضعيفة بحيث تسمح له بالكتابة إليّ بخط يده، إلا أنه واثق من أن سكرتيرته سوف توضِّح أفكاره ونواياه. ويجب عليّ أن أبحث عن السيد بويل، الذي لم يعد يتذكَّر عنوانه. ويحثّني قائلاً، افعل كل ما في وسعك، لعل في نيويورك أناساً آخرين كثيرين سمعوا بأعماله ويمكننا أن نعمل معهم. وأنهى كلامه بملاحظة محزنة ولكنها فخمة ... وتفحَّصتُ الرسالة بعناية لأرى إن لم يكن ربما قد زرف بعض الدموع عليها.

لو لم يكن المغلّف يحمل ختم البريد النرويجي، ولو لم تكن الرسالة ممهورة بتوقيع يده، وهو ما تأكَّدتُ منه لاحقاً، لظننتُ أنها خدعة. وتبع ذلك نقاشات هائلة وسط ضحك صاخب. واعتبروا أنَّه تمَّ الانتقام مني بشكلٍ فخيم بسبب عبادتي الحمقاء للأبطال. لقد تحطَّم الصنمُ ومَلَكاتي النقدية انكمشتْ حتى الصفر. وبات من المستحيل أن أعود إلى قراءة مؤلفات كنوت هامسن. ولكي أكون صادقاً أميناً أقول إني كدت أبكي. لقد حصل إجهاض مريع، ولا أدري كيف، ولكن على الرغم من وجود برهان على عكس ذلك، فإني ببساطة لم أستطع أن أصدِّق أن مؤلِّف روايات مثل " الجوع " و" بان " و" فيكتوريا " و " نتاج التربة "، هو الذي أملى تلك الرسالة. لقد كانة جلياً واضحاً بشكل ساطع أنه ترك

الأمر كله للسكرتيرة، وأنه وقَّعَ باسمه بنيَّة حسنة بدون أن يكبِّد نفسه مشقَّة معرفة المحتويات. ولا شك في أنَّ رجلاً بشهرته يتلقَّى أعداداً كبيرة من الرسائل في كل يوم من معجبين من أرجاء العالم كافة. ولم يكن في إطرائي المندفع ما يثير اهتمام رجلٍ بمقامه. ثم، لعله احتقرَ السلالة الأميركية برمَّتها، بعد أن أمضى وقتاً مريراً هنا خلال سنوات رحلاته الطويلة. وفي الغالب أنه أخبر سكرتيرته البلهاء في أكثر من مناسبة أن مبيعاته في أميركا لا تستحق الذكر. ولعل ناشريه كانوا يضايقونه - ومن المعروف عن الناشرين أنه ليس لديهم غير اهتمامٌ واحد في تعاملهم مع مؤلفيهم، وهو حجم المبيعات. لعله أبدى ملاحظة تدلُّ على الاشمئزاز، في حضور سكرتيرته، تقول إنَّ الأميركيين لديهم مال ينفقونه على كل شيء ما عدا على الأشياء التي لها قيمة في الحياة. وهي، المسكينة الحمقاء، والمدلَّهة ربما بحب الأستاذ، قررت أن تستغل الفرصة وتقدِّم بضعة اقتراحات معتوهة لكي تحسِّن الوضع المؤلم. وهي حتماً ليست داغمار Dagmar ولا إدفيغ Edwige. لا، ولا حتى مخلوقة بسيطة مثل مارتا غود Gude، التي حاولت جاهدة ألاَّ تؤخَذ بتحليقات الهر ناغل وافتتاحياتها الرومانسية. ولعلها إحدى أولائي المسؤولات النرويجيات المتحررات في المجالات كافة ماعدا المخيلة. ولعلها ذات عقلية صحِّية وعلمية قادرة على المحافظة على ترتيب منزلها، ولا تسبب أذى لأحد، ومنتبهة إلى عملها، وتحلم بأن تصبح ذات يوم على رأس مؤسسة تسميد أو مأوى للأطفال اللقطاء.

كلا، لقد خاب أملي تماماً في معبودي. وأعدتُ عن عمدٍ قراءة بعضٍ من مؤلفاته، وأنا الساذج، وبكيت من جديد لدى قراءة مقاطع

twitter @baghdad_library

معينة، وتأثرت تأثُّراً عميقاً حتى أني بدأت أتساءل إن لم تكن الرسالة إلا حلم.

كانت الأصداء التي رجَّعها هذا " الإجهاض " خارقة. أصبحتُ متوحشاً، لاذعاً، ساخراً. أصبحتُ جوالاً ينقرُ على أوتارٍ خرساء من حديد. جسَّدتُ شخصيات معبودي واحدة بعد أخرى، تفوهت بكلام عفن، تافه؛ تبوَّلت بولاً ساخناً على كل شيء. أصبحت اثنين - أنا والشخصيات التي أجسِّدها، وكانت غفيرة.

اقترب موعد جلسة الطلاق. وأصبحت أكثر وحشية وسخرية، لسببٍ لا تفسير له. كنت أكره أن أمثل المهزلة التي ينبغي أن تجري باسم العدالة. كنت أمقت وأشمئزُّ من المحامي الذي وكَّلَتْه مود ليحمي مصالحها. بدا أشبه برومان رولان تغذَّى على الذرة، أوchauve-souris (وطواط) لا يتَّصِف بذرة واحدة من الفكاهة أو المخيِّلة. بدا وكأنه مشحونٌ بالنقمة الأخلاقية؛ كان أيراً قلباً وقالباً، جباناً، رعديداً، ومنافقاً. كان يشيع فيَّ القشعريرة.

حسمنا نزاعنا بشأنه في يوم النزهة. ونحن مستلقيان على العشب في مكانٍ قريب في مينيولا. كانت الطفلة تركض في المكان تجمع الأزهار. وكان الجو حاراً، بل شديد الحرارة، وهبَّت رياحُ حارة وجافة تسبب توتُّرَ الأعصاب. وكنت قد أخرجت أيري ووضعته في يدها. تفحَّصته بحياء ولم ترغب في أن تتفحَّصه سريرياً ومع ذلك كانت تتحرَّق شوقاً لتقنع نفسها بأنه لا يشكو من شيء. وبعد قليل تركَتْهُ واستلقت على ظهرها، ورفعتْ ركبتيها، والريح الساخنة تلعق مؤخرتها. حركْتُها إلى الوضعية المفضَّلة، وجعلتها تخلع سروالها. كانت تمرُّ بأحد

أمزجتها المحتجّة من جديد. لم يُعجبها أن تُدَق هكذا في حقلٍ مكشوف. لكني أصررتُ على أنه لا أحد في الجوار. وجعلتُها تباعدُ أكثر ما بين ساقيها؛ أخذت أمرِّر يدي داخل كسَّها. كان لزجاً.

شدَّت نفسها نحوي وحاولت أن تُدخِلَه فيها ,فجأة توقفتْ. كانت قلقة على الطفلة. تلفَّتُ حولي. قلت " إنها بخير، وتتسلَّى. ولا تفكِّر فينا "

" ولكن لنفرض أنها رجعت ... ووجدتنا ... "

" ستظن أننا نائمان. لن تدرك ما نفعله ... "

هنا دفعتني عنها بعنف. كان قولي شنيعاً. " ستضاجعني أمام طفلتك! هذا فظيع "

" إنه ليس فظيعاً على الإطلاق. أنت هي الفظيعة. وها أنا أقولها لك، هذا أمر بريْء. وحتى إذا ما تذكْرَتْهُ - حين تكبر - حينئذ ستكون قد أضحت امرأة وسوف تفهم. ليس فيما نفعل قذارة. عقلك هو القذر، هذا كل ما في الأمر "

في تلك الأثناء كانت ترتدي سروالها. ولم أزعج نفسي بإعادة أيري إلى داخل بنطالي. كان قد ارتخى عندئذ؛ وسقط على العشب، مهموماً.

قلت " حسنٌ، فلنأكل شيئاً إذن. ما دمنا لا نستطيع أن ننكح فلنأكل "

" نعم، تأكل! أنت مستعد أن تأكل في أي وقت. هذا كل ما يهمك، الأكل والنوم "

قلت " النكاح، وليس النوم "

" ليتك تكفّ عن أن تكلمني بهذه الطريقة "، وبدأت تمدُّ المائدة. " يجب أن تفسد كل شيء. حسبت أننا سنقضي يوماً هادئا، ولَوْ مرة.

twitter @baghdad_library

دائماً تقول إنك تريد أن تخرج معنا في نزهة، ولا تفعل أبداً. ولا مرة واحدة. لا تفكر إلى في نفسك، وأصدقائك، ونسائك. كنت حمقاء إذ اعتقدتُ أنَّكَ تغيَّرت. أنت لا تهمّك طفلتك - تكاد لا تلاحظ وجودها. بل لا تستطيع أن تكبح نفسك في حضورها. إنك مستعد أن تضاجعني أمامها وتدَّعي أنَّ ذلك أمرٌ بريء. أنت فاسد ... الحمد لله لأن كل شيء انتهى بيننا. في الأسبوع القادم في مثل هذا الوقت سأكون قد تحرَّرت ... سأتخلّص منك إلى الأبد. لقد سمَّمتَ حياتي. ملأتَني بالمرارة والحقد. جعلتَني أكره نفسي. منذ أن عرفتُكَ لم أعد أتعرَّف على نفسي. لقد أصبحتُ كما أردتني أن أكون. أنت لم تحبني أبداً ... أبداً. كل ما أردتَه هو أن ترضي شهواتك. عاملتني وكأني حيوان. تأخذ ما تريد وترحل. تتركني لتذهب إلى المرأة التالية - أي امرأة - ما دامت ستفتح لك ساقيها. أنت ليست لديك ذرَّة واحدة من الإخلاص أو الحنان أو المراعاة ... إليك، خذ! ". قالت هذا ودفعت إلى يدي شطيرة. " ليتك تختنق بها! "

حين رفعتُ الشطيرةَ إلى فمي شممتُ عبق كسَّها على أصابعي وتنشَّقت أصابعي وأنا أرفع بصري إليها وأرسم تكشيرة.

قالت " أنت مقزِّز للنفس! "

" ليس كثيراً، يا سيدتي المحترمة. أجدها رائحة ذكية، حتى وإن كنتِ كئيبةً حاقدة. أحبُّها. إنها الشيء الوحيد الذي أحبُّه فيك "

هنا استشاطت غضباً. وبدأت تبكي.

" تبكين لأنّي قلت أني أحب كسَّك! أي امرأة! يا إلهي، أنا الذي ينبغي أن أشعر بالاشمئزاز. أي نوعٍ من النساء أنت؟ "

أصبحت دموعها أغزر. عندئذ بالذات عادت الطفلة ركضاً. ما الأمر؟ لماذا تبكي الماما؟

قالت مود، وهي تجفف دموعها، " لا شيء. لقد لويت كاحلي "، وأفلتَ منها بعض النشيج الجاف رغماً عن جهودها لكبح نفسها. ثم مالت فوق السلة وانتقت شطيرة للطفلة.

قالت الطفلة " لم لا تفعل شيئاً يا هنري؟ ". وجلست هناك تنقِّل بصرها من أحدنا إلى الآخر وترمينا بنظرة حادة، حيرى.

ركعت على ركبتيَّ وأخذت أدلِّك كاحل مود.

قالت بخشونة " لا تلمسني! "

قالت الطفلة " لكنه يريد أن يعالجها "

قلت، وأنا أدلِّك الكاحل برفق " نعم، البابا سيعالجها "، ثم أخذت أربت على ربلة ساقها.

قالت الطفلة " قبِّلها. قبِّلها واجعل الدموع تتوقف "

ملتُ إلى الأمام وقبَّلتُ مود على الوجنة. ودهشت حين وجدتها تطوقني بذراعيها وتقبِّلني بعنف على الفم. والطفلة أيضاً أحاطتنا بذراعيها وقبَّلتنا.

فجأة انتابت مود موجة جديدة من البكاء. هذه المرة كان المشهدُ مثيراً للشفقة حقاً. رثيت لحالها. أحطتها بذراعيّ برفق وأخذت أواسيها.

قالت وهي تنشج " يا إلهي، يا لها من مهزلة! "

قلت " إنها ليست كذلك، أنا صادق في قولي. أنا آسف، آسف على كل شيء "

ناشدتها الطفلة " كفاكِ بكاءً. أريد أن آكل. أريد من هنري أن يأخذني إلى هناك "، وأشارت بيدها الصغيرة إلى غابة صغيرة عند حافة الحقل، " وأريدك أن تأتي معنا أيضاً "

twitter @baghdad_library

" هذه أول مرة نخرج معاً ... والنتيجة كما ترى ". كانت عندئذ تتنشّق.

" لا تقولي هذا يا مود. النهار لم ينته بعد. دعينا ننسى الأمر كله. هيا، دعينا نأكل "

على مضض، وبضجر، كما بدا، التقطَتْ شطيرةً ورفعَتْها إلى فمها. غمغمَتْ، وهي تترك الشطيرة " لا أستطيع أن آكل "

حثثتُها، وأنا أطوِّقها من جديد بذراعي " هيا، بل تستطيعين! "

" أنت تتصرف هكذا الآن - لاحقاً سوف تفعل ما يفسده "

" لا لن أفعل ... أعدك "

قالت الطفلة " قبِّلها أيضاً "

انحنيت عليها وقبَّلتها بنعومة ورقة على الشفتين. هنا بدت بحق أنها هدأت. وشعَّ من عينيها ضياءُ خفيف.

قالت، بعد برهة صمت " لمَ لا تكون هكذا دائما؟ "

قلت " أنا كذلك، حين تتاح لي فرصة. أنا لا أحبُّ أن أتشاجر معك. ولم أفعل؟ نحن لم نعد زوجاً وزوجة "

" إذن لماذا تعاملني كما تفعل؟ لماذا تمارس الحب معي دائماً؟ لماذا لا تدعني وشأني؟"

أجبت " أنا لا أمارس الحب معك. هذا ليس حباً، إنه شهوة. وهي ليست جريمة. أليس كذلك؟ إكراماً لله، دعينا لا نتشاجر من جديد. سوف أعاملك كما تريدين أن تُعَامَلي - منذ اليوم. لن ألمسكِ بعد الآن "

" ليس هذا ما أطلبه. أنا لا أقول إن عليك ألاّ تلمسني. اعتراضي هو على أسلوبك في لمسي ... إنك لا تُبدي أي احترام لي... لشخصي.

هذا ما أكرهه. أعرف أنك لم تعد تحبني، ولكن تستطيع أن تعاملني بكياسة. حتى وإن لم تعد تهتم بي. أنا لست المتحشِّمة التي تدَّعي أني إياها. إنَّ لدي مشاعر أيضاً ... لعلَّها مشاعرُ أعمق، وأقوى مما لديك. يمكنني أن أجد شخصاً آخر يحل محلك، ولا تظن أني لا أستطيع. أنا فقط بحاجة إلى بعض الوقت ... "

كانت تمضغ شطيرتها بدون كبير شهية. وفجأة ظهر بريق في عينيها، ورسمَتْ على وجهها تعبيراً لئيماً، وحيّياً.

تابعت قائلة " أستطيع أن أتزوج غداً، لو أردت. أظنك لم تفكر في هذا، أليس كذلك؟ في الواقع، إن أمامي للتو ثلاثة عروض للزواج. آخر عرض جاءني من ... ". وهنا ذكرت اسم المحامي.

قلت، وأنا لا أكاد أقوى على كبح ابتسامة امتعاض " أهذا؟ "

قالت " نعم، هذا. وهو ليس كما تظنه. إنه يعجبني كثيراً "

" حسن، هذا يفسِّر بعض النقاط. بتُّ أعرف الآن سبب اهتمامه الفائق بالقضية "

كنت أعرف أنها لا تهتم به، هذا الغريب الأطوار، إلا بقدر اهتمامها بالطبيب الذي فحص فرجها بإصبع مطاطي. في الحقيقة لم تكن تهتم بأي إنسان؛ كل ما كانت تريده هو السكينة، وتوقُّف الألم. أرادت حِجراً تجلس عليه في الظلام، وأيراً يلجها بصورة غامضة، بربرة من الكلام لكي تغرق بها رغباتها المكبوتة. طبعا سوف يفي المحامي لا أدري ما اسمه بالغرض. ولِمَ لا؟ سوف يكون مُخلصاً كقلم حبر، وكتوماً كمصيدة فئران، ومقتصداً كبوليصة تأمين. كان مِحفظةَ أوراقٍ تمشي على قدمين وبرجه مزوَّد بعيون لبيوت الحمام؛ كان سمندلاً قلبه من

twitter @baghdad_library

البسطرما، ألم يُصعق حين علِمَ أني أحضرت امرأة أخرى إلى منزلي؟ وصُعِقَ حين عَلِمَ أني تركت الواقيات الذكرية المستعملة على حافة المغسلة؟ وصُعِق لأني مكثت مع عشيقتي لنتناول طعام الإفطار؟ إنَّ حلزوناً يُصْعَق حين تضربُ قطرةٌ من المطر صَدَفَته، وقائداً يُصْعَقُ حين يعلم أنَّ أفرادَ حاميته قد ذُبحوا أثناء غيابه. والله ذاته يُصعَقُ دون أدنى شك حين يرى مدى حماقة الحيوان البشري المقززة للنفس وانعدام حساسيته. ولكنني أشك في قُدرة الملائكة على الانصعاق - حتى في حضور إنسان مجنون.

كنت أحاول أن أعرضَ عليها منطق الديناميّة الأخلاقية. لويتُ لساني في محاولةٍ لأجعلها تفهم زواجَ الحيوانيّ والقدسيّ. وفهِمَتْ بقدر فهم إنسانٍ عاديّ عندما تشرح له نظرية البُعد الرابع. تكلمَتْ عن الرهافة والاحترام، وكأنهما قطعتين من كعكة الملائكة، والجنس حيوان محبوس في حديقة حيوان تزورها بين حين وآخر لكي تدرس نظرية النشوء. قرابة المساء عدنا إلى المدينة، وقطعنا المسافة الأخيرة من الطريق في القطار المرفوع، والطفلة نائمة على ذراعيَّ، والماما والبابا عائدان من النزهة. كانت المدينة من تحتنا تمتد بصرامة هندسية معدومة الحسّ، وحلماً شريراً يتعالى بهندسةٍ معمارية. حلمٌ يستحيل الاستيقاظُ منه. وسيد وسيدة المدينة العظمى مع ذريّتهما. مقيَّدون ومغلولون. معلَّقون في السماء كلحوم الطرائد. زوج من كل نوع معلَّقون من خطافات. عند أحد طرفيّ الحبل يوجد الجوع؛ وعند الطرف الآخر الإفلاس، وبينهما المسترهن، وثلاث كرات ذهبية تمثِّل الثالوث المقدَّس الولادة واللواط والفساد. أيام سعيدة. ضباب ينتشر من روكاواي. الطبيعة تلتفُّ حول نفسها كورقةِ

نبات ميتة - في مينيولا. وبين حين وآخر تُفتَح أبواب وتُغلَق: دفعات جديدة من اللحم من أجل المسلخ. نتفٌ صغيرةٌ من أحاديث، كشقشقة طيور القرقف. مَنْ سيصدِّق أنَّ هذا الصغير الريان الجالس إلى جانبك سوف يفقد عقله، في غضون عشر سنوات أو عشرين سنة من الآن، من فرط الخوف في ساحة قتال أجنبية؟ وعلى امتداد النهار تُصنعُ أدواتٌ صغيرة بريئة؛ وفي الليل تجلس في الصالة المظلمة تتفرَّج على أشباحٍ تتحرَّك على شاشة فضية. ولعل أصدق لحظات حياتك هي حين تجلس وحدك في المرحاض وتعمل كعكع. فذلك لا يكلِّفك أي شيء أو يورِّطك في أي أمر. ليس كالأكل والنكاح، أو إنجاز أعمال فنيّة. وتغادر المرحاض وتخرج إلى بيت الخراء الأكبر. وكل ما تلمس يصبح خرائياً. وحتى وهو ملفوف بورق سيلوفان تبقى الرائحة فيه. إنه الكعكع! حجر فلاسفة العصر الصناعي. موتٌ وتحوُّلٌ - إلى خراء! حياة السوبر ماركت - على منضدةٍ يوجد حرير هفهاف وقنابلُ على المنضدة الأخرى. ومهما كان تفسيرك لهذا، فإنَّ كلَّ فكرةٍ، كل إنجاز، يسدَّد ثمنه نقداً. إنك تُنكَح منذ اللحظة التي تأخذ فيها أول أنفاسك. تصبح شركةَ آليَّة أعمالٍ عالميةٍ كبرى. أو كما يقولون، نظام نقليات.

الماما والبابا الآن هادئان مثل blut wurst (سجق دامي[١٠١]). استُنزفا من أقل قدرة على المشاحنة. ما أروع قضاء النهار في الهواء الطلق، مع الديدان ومخلوقات الله الأخرى، أي استراحة بهيجة! وتنساب الحياة كما الحلم. ولو أنك تشقّ الأجساد وتفتحها وهي ما تزال دافئة فلن تجد ما يشبه هذه القصيدة الرعوية. لو أنك تجوِّف الأجساد وتحشوها بالحجارة فسوف تغرق إلى قاع البحر، كالبط الميت.

١٠١ - السجق الدامي : أحد أنواع السجق الذي يصنع من لحم الخنزير . - المترجم

twitter @baghdad_library

بدأت تمطر. هطل غزير. حبّات بَرَدْ كبيرة بحجم طيور المراح[١٠٢] تقفز عن الرصيف. تبدو المدينة مثل كثيبِ النمل مغطًّى بمادة لزجة. المجاري جاشت ولفظت قيئها. السماء متجهّمة ممتقعة كقعر أنبوب اختبار.

فجأة أشعر بمرحٍ قاتل. أتمنى من المسيح أن تظل تمطر هكذا طوال أربعين نهاراً وأربعين ليلة؛ أودُّ أن أشاهد المدينة تعوم في خرائها، وعارضات الأزياء طافيات فوق النهر، وآلات حساب النقود تُسحَقُ تحت دواليب الشاحنات، والمجانين يتدفقون خارج المصحّات العقلية يحملون سواطير يطوِّحون بها يميناً ويساراً. الماء يُشفي! كما أعطوه للفليبينيين عام ٩٨! ولكن أين أغوينالدو[١٠٣] الخاص بنا؟ أين الجرذ الذي يستطيع أن يقتحم الفيضان ومنجلٌ بين شفتيه؟

أوصلتهما إلى المنزل بسيارة أجرة، وأودعتهما بسلام في اللحظة التي ضربت صاعقة برج كاتدرائية لعينة عند زاويتها. أصدرت النواقيس المكسورة طنيناً جحيمياً وهي ترتطم بأرض الرصيف. وفي داخل الكنيسة تهشَّمَ تمثالُ جصّيّ للعذراء شذراً. وكان إجفال الكاهن من الشدة حتى أنه لم يُتَح له الوقت ليزرر بنطاله. كانت خصيتاه ضخمتين كصخرتين.

ميلاني ترفرف في المكان كطائر قطرس أصابه الخَبَل. قالت نائحة " جَفِّف عورتك! ". عملية تعرية فخمة، مع شهقات وصرخات وعبارات توبيخ. لبستُ أحد أردية مود الفضفاضة، ذا ريش الطيور. أبدو كجنّية توشك أن تتجسَّد على شكل لولو هرلوبرلو. هنا اختلط الحابل بالنابل.

---

١٠٢ – المراح : طائر مغرِّد ، من القواطع . – المترجم

١٠٣ – إميليو أغوينالدو (١٨٦٩ – ١٩٦٤) : سياسي فيليبيني . قاد معركة الاستقلال عن أسبانيا (١٨٩١ – ١٨٩٨) ، وحارب الاحتلال الأميركي (١٨٩٩ – ١٩٠١) . – المترجم .

وأنا يحصل عندي انتصابٌ، " انتصابٌ شخصيٌّ "، إذا فهمتَ ما أعني.

مود في الطابق العلوي تضع الطفلة في سريرها، أتمشّى في المكان حافي القدمين، والرداء الفضفاض مفتوح. إحساس ممتع. ميلاني تمدُّ رأسها قليلاً من الباب، فقط لترى إن كنتُ على ما يرام. تتنقَّل في المكان بسروالها التحتي وببغاء يجثم على رسغها. إنها تخاف البرق. أكلِّمها ويداي تطويان أيري. كان يمكن أن يكون مشهداً مأخوذاً من لوحة "ساحر الإوز"، للرسام مملنغ[١٠٤]. الزمن: dreiviertel-takt. البرق يقصف من جديد بين حين وآخر. إنه يخلِّف مذاق المطاط المحترق في الفم.

أقف أمام المرآة الكبيرة أستمتع بالنظر إلى أيري المرتعش وإذا بمود تدخل. إنها لعوب كأرنب بري وترتدي التول والموسلين. لا يبدو عليها أي فزع مما شاهدته منعكساً في المرآة و تقترب وتقف إلى جانبي. أحثُّها " افتحي! ". تقول " أأنت جائع؟ " وهي تحلُّ ملابسها بلا استعجال. أديرها وأضغطها عليَّ. ترفع ساقها لتدعني ألجها. تبادلنا النظر من خلال المرآة. إنها مبهورة. أرفع الرداء عن طيزها لكي أفسح لها زاوية أفضل للمشاهدة. أرفعها عالياً فتجدل ساقيها حولي. تناشدني " نعم، افعلها، انكحني! انكحني! ". وفجأة تفكُّ ساقيها، تحلّهما. تقبض على الأريكة الكبيرة وتديرها، وتثبِّت يديها على ظهرها. وتبرز طيزها بشكل مغرٍ. لا تنتظرني ريثما أدخله فيها - وتقبض عليه وتضعه بنفسها، وهي تراقب هذا كله من خلال المرآة. رحت أدفعه إلى الأمام والخلف ببطء، وأنا أمسك بأذيال ردائي كفاجرة تخوض في الوحل. إنها تحب أن تراه وهو يخرج - إلى أي مدى سيخرج قبل أن يظهر كله. وتمد يدها من

---

١٠٤ - هانس مملنغ (١٤٣٠ ؟ - ١٤٩٤) : رسام فلامنكي . اشتهر برسومه الدينية والصور الشخصية . - المترجم

twitter @baghdad_library

تحت وتعبث بخصيتيَّ. عندئذ كانت قد أطلقت العنان تماماً لنفسها، وأضحت وقحة كقَدَرْ. فأتراجع قدْر ما أستطيع بدون أن أدعها تنزلق مني وهي تدير طيزها وتديرها، وتغوص إلى أسفل نحوه بين حين وآخر وتُطبق عليه بمنقارٍ مكسوّ بالريش. وأخيراً اكتفت من ذلك، وأرادت أن تستلقي على الأرض وتطوِّق عنقي بساقيها. وتوسلت قائلة " ادخله كله. لا تخف من أن تؤذيني ... أنا أريده. أريدك أن تفعل كل شيء ". فأدخلته عميقاً جداً حتى شعرت أني مدفونٌ داخل سريرٍ من بلح البحر. كانت ترتعش وتنزلق مع كل حركة سحل. ملتُ عليها وأخذت أرضع ثدييها؛ كانت الحلمتان مشدودتين كمسمارين وفجأة شدَّت رأسي نحو الأسفل وبدأت تعضني بهياج - الشفتين، الأذنين، الوجنتين، العنق. وهسّت " تريده، أليس كذلك؟ تريده ... تريده! "، وشفتاها تلتويان بفسقٍ، " تريده ... تريده! ". ثم ارتفعت فوق سطح الأرض بدون مبالغة في غمرة تهتُّكها، ثم أنينٌ، فنشيجٌ، فنظرة همجيّة معذَّبة وكأنَّ وجهها موجود تحت مرآة ضربَتْها مطرقة. ونخرت " لا تخرجه بعد ". وظلت مستلقية في مكانها. وساقاها ما تزالان تطوِّقان عنقي، والعَلَمُ الصغير المرفوع داخلها يرتعش ويرفرف. قالت " يا إلهي، لا أستطيع أن أتوقف! ". وكان أيري ما يزال صلباً. كان يقف راضخاً على شفتيها الرطبتين، وكأنه يتلقّى السر المقدَّس من ملاكٍ داعر. وقَذَفَتْ من جديد، كآلة أكورديون تنهار في حقيبة من الحليب. وتفاقمَ هياجي أكثر فأكثر. أنزلتُ ساقيها ووضعتهما على طولهما إلى جانب ساقيَّ. قلت " والآن لا تتحركي، لعنك الله. سأعطيك إياه كله "، ورحت أدخل وأخرج ببطء وحنق. كانت تهسُّ، وهي تشرقُ أنفاسها، " آه، آه ... أوه! ". أبقيته

منتصباً كالقوة الماحقة. مولوخ[١٠٥] ينكح قطعة من البومبازين[١٠٦]. أورغانزا فريغانزا. لحن بوليرو بطعنات مباشرة. كانت عيناها تتهيّجان؛ وبدت أشبه بفيلٍ يسير على كرة. كل ما كانت تحتاجه خرطوماً تنفخ فيه. كان نكاحاً حتى الرمق الأخير. وبطحتُ فوقها وأخذت أمضغ شفتيها حتى الاهتراء.

ثم فجأة تذكّرتُ الدش. قلت " انهضي! انهضي! "، وأنا ألكزها بخشونة.

قالت بوَهَن، وهي تبتسم ابتسامة عارفة، " لستُ بحاجة إلى ذلك". نظرت إليها مندهشاً " تقصدين ... ؟ "

" نعم، لا داعي للقلق ... أأنت بخير؟ ألا تريد أن تغتسل؟ "

في غرفة الحمّام اعترفَتْ بأنها زارت الطبيب - طبيباً آخر. لم يعد هناك من داعٍ للخوف.

صفّرتُ وقلت " هكذا إذن؟ "

ضمَّخَتْ أيري بالبودرة نيابة عني، ومدَّته مثل منصب القفاز. ثم مالت وقبّلته. قالت " أوه، يا إلهي "، وهي تطوقني بذراعيها، " ليت... "

" ليت ماذا؟ "

" أنت تعلم ما أعني ... "

تملّصتُ منها واستدرت إلى الناحية الأخرى. قلت " نعم، أعتقد أني أعلم. على أي حال، أظنك لم تعودي تكرهينني، أليس كذلك؟ "

---

١٠٥ - مولوخ : إله يهودي ، يلتهم الأطفال . - المترجم

١٠٦ - البومبازين : نسيج رقيق ، يستخدم في الحِداد . - المترجم

twitter @baghdad_library

أجابت " أنا لا أكره أحداً. آسفة لأنَّ الأمورَ جرَتْ كما حدث. الآن سوف اضطرُ إلى المشاركة فيك ... معها "

ثم أضافت بسرعة " لابد أنك جائع. دعني أحضِّر لك شيئاً قبل أن تذهب ". وقبل أن تفعل ضمَّخت وجهها بالبودرة بعناية، ولوَّنَت شفتيها بأحمر الشفاه، ورتَّبت شعرها بإهمال ولكن بطريقة جذابة. كان رداؤها مفتوحاً من الخصر وإلى أعلى. بدت أفضل ألف مرة من أي وقت مضى. كانت أشبه بحيوان شره ومشرق.

تمشَّيتُ في المطبخ وأيري مدلّى إلى الخارج وساعدتها في إعداد إفطارٍ بارد. ودهشت إذ وجدتها تستخرج زجاجة من النبيذ المنزلي - نبيذ ثمر الخمان أعطاها إياه أحد الجيران. أغلقنا الأبواب وأبقينا الغاز مشتعلاً طلباً للدفء. يا إلهي، كان ذلك رائعاً. وكأننا بدأنا نتعارف من جديد. كنت بين الفينة والأخرى أنهضُ وأعانقها، وأقبِّلها بنهمٍ بينما يدي تنزلق إلى شقها. لم تكن أبداً حيّية أو حروناً. على العكس. وحين ابتعدت أمسكتْ بيدي، وبحركةِ غوصٍ سريعةٍ أطبقتْ بفمها على أيري وابتلعته.

سألتْ، حين جلستُ وواصلت تناول الطعام " هل أنتَ مضطر للمغادرة فوراً؟ "

قلت، بإذعانٍ لطيف " إلا إذا كنتِ ترغبين في ذلك "

قالت " أكان خطأي أنَّ هذا لم يحدث من قبل؟ هل كنتُ مخلوقة مفرطة الاحتشام؟ "، ونظرتْ إليَّ بصراحة وصدق. ولن أتعرَّف فيها على المرأة التي عاشرتُها طوال تلك السنين.

قلت، وأنا أجرع كأساً أخرى من نبيذ الخمان، " أعتقدُ أنَّ اللومَ يقعُ على كلينا "

ذهبت إلى الثلاجة بحثاً عن شيء من الطعام الشهيّ.

قالت، وهي تعود إلى المائدة وذراعاها مثقلتان، " أتدري ماذا أحبُّ أن أفعل؟ أودُّ أن أنزل الغرامافون وأرقص. لدي بعض إبر التسجيل الناعمة جداً ... أتحب هذا؟

قلت " طبعاً، يبدو هذا رائعاً "

" هيا نسكر قليلاً ... ألديك مانع؟ أشعر أني في أحسن حالاتي. أريد أن أحتفل "

قلت " وماذا عن النبيذ؟ أهذا كل ما لديكِ؟ "

قالت " أستطيع أن أحضر المزيد منه من الفتاة التي تسكن الطابق العلوي، أو ربما بعض الكونياك - إن كان هذا يسعدك "

همَّت بالانطلاق على الفور، فقفزتُ وقبضتُ عليها من خصرها، ثم رفعتُ رداءها وقبَّلتُ طيزها.

غمغمت " دعني أذهب، سأعود حالاً "

لدى عودتها سمعتها تهمس لفتاة الطابق العلوي. ربتت ربتاً خفيفاً على زجاج النافذة. قالت بتوددٍّ وحب، " تدثَّر بشيء ما، إلزي جاءت معي "

دخلت غرفة الحمَّام وغطَّيتُ عورتي بمنشفة. عندما شاهدتني إلزي انخرطت في نوبة من الضحك. لم نكن قد تقابلنا منذ اليوم الذي وجدتني فيه في السرير مع مونا. بدت في مزاجٍ فكه رائع ولم تشعر بأي حرج بسبب تحوُّل مجرى الأحداث. كانتا قد جلبتا معهما زجاجة أخرى من النبيذ وبعض الكونياك. والغرامافون والاسطوانات.

كانت إلزي في المزاج المناسب لتشاركنا احتفالنا الصغير. توقَّعتُ من مود أن تقدم لها مشروباً ومن ثم تتخلَّص منها بشيء من الأدب.

twitter @baghdad_library

ولكن لا، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل. لم يزعجها قط حضور إلزي. واعتذرت لأنها كانت شبه عارية، ولكن مع ضحكة طَلِقَة، وكأنَّ ذلك أمرٌ عادي. أدرنا أسطوانة ورقصت مع مود. انزلقت المنشفة عني ولكن لم يقم أي منا بمحاولة لالتقاطها. وبعد أن تباعدنا وقفتُ هناك وأيري بارز كسارية العلم ثم مددت يدي بهدوء لألتقط كأسي. ألقت إلزي نظرة مذهولة ثم أشاحت بوجهها. ناولتني مود المنشفة، أو بالأحرى قذفتها على أيري. قالت " لا أظنكِ تمانعين، أليس كذلك؟ ". كانت هادئة هدوءاً تاماً - كان في الإمكان سماع صدغيها ينبضان بقوة. وللتو اقتربت من الآلة وقلبت الأسطوانة، ثم تناولتْ كأسها وجرعته دفعة واحدة.

قالت مود " لمَ لا ترقص معها؟ لن أمانع. هيا، إلزي، ارقصي معه"

اقتربتُ من إلزي والمنشفة تتدلّى من أيري. وحالما أدارت ظهرها لمود سحبت المنشفة وقبضت عليه بيدٍ محمومة. شعرتُ بجسدها كله يرتعش وكأن زمهريراً يتلبّسها.

قالت مود " أنا ذاهبة لأحضر بعض الشموع؛ الإضاءة شديدة هنا "، واختفت داخل الغرفة المجاورة. وعلى الفور توقفت إلزي عن الرقص، وأطبقتْ شفتيها على شفتيَّ وحشرت لسانها داخل حنجرتي. ووضعت يدي على كسّها وعصرتها. كانت ما تزال تمسك أيري. توقفت الأسطوانة. لم يذهب أي منا لكي يغلق الآلة. سمعتُ مود عائدة، وبقيتُ مشتبكاً بذراعي إلزي.

قلت في نفسي، هنا ستبدأ المشاكل. لكن مود بدت وكأنها لم تنتبه. أشعلت الشموع ومن ثم أطفأت المصابيح الكهربائية. وحين

ابتعدتُ عن إلزي شعرت بها واقفة إلى جانبنا. قالت " لا بأس، لا مانع لدي. دعوني أنضم إليكما ". قالت هذا وأحاطتنا نحن الاثنين بذراعيها وأخذنا نحن الثلاثة نتبادل القبلات.

قالت إلزي، بعد أن انفكَّت عنا أخيراً، " يا لطيف، الدنيا حرّ! "

قالت مود " اخلعي ثوبك، إن شئت. أنا سأخلع هذا "، ثم قرنت القول بالفعل وزلقت الثوب عنها ووقفت أمامنا عارية.

في اللحظة التالية أصبحنا نحن الثلاثة عراة.

جلستُ ومود جالسة على حجري. ومن جديد أصبح كسُّها رطباً. وقفت إلزي بجانبنا تحيط عنق مود بذراعيها. كانت أطول قامة قليلاً من مود وبنيتها قوية. فركْتُ يدي على بطنها وشبكتُ أصابعي داخل شعر عانتها الذي كان موجوداً تقريباً على مستوى فمي. كانت مود تراقب مع ابتسامة رضى جميلة. ملتُ إلى الأمام وقبَّلتُ كسَّ إلزي.

قالت مود ببساطة تامة " شيء رائع أن نتخلَّص من الغيرة ".

كان وجه إلزي قد أضحى قرمزي اللون. لم تكن تعرف ما هو بالضبط دورها، وإلى أي مدى تستطيع أن تتمادى. وراقبتْ مود عن كثب، وكأنها لم تقتنع تماماً بصدقها. في أثناء ذلك كنت أقبِّل مود بشبق، وأصابعي تعمل في كسّ إلزي. شعرت بإلزي تضغط نفسها عليَّ، وتتحرَّك. كان السائل يتدفَّق على أصابعي. وفي الوقت نفسه رفعت مود نفسها، ونقلت مؤخرتها، ونجحت ببراعة في أن تغوص من جديد بحيث ينطبق أيري بإحكام داخلها. عندئذ كان وجهها يميل إلى الأمام، مضغوطاً على ثديي إلزي. فرفعت رأسها والتقطت الحلمة بفمها. سَرَتْ رعشة في إلزي وبدأ كسّها يرتعش بتقلّصاتٍ حريرية. ثم انزلقت

twitter @baghdad_library

يدُ مود، التي كانت مستقرة على خصر إلزي، إلى أسفل لتداعب الوجنتين الملساوين. وفي اللحظة التالية انزلقت أكثر إلى أسفل حتى قابلت يدي. أبعدت يدي غريزياً. تحرَّكت إلزي قليلاً ومن ثم مالت مود إلى الأمام ووضعت فمها على كسّ إلزي. في الوقت نفسه مالت إلزي إلى الأمام، فوق مود ووضعت شفتيها على شفتيَّ. عندها كنا نحن الثلاثة نرتجف وكأنما أصابتنا البرداء.

حالما شعرت بمود تقذف كبحتُ نفسي، وقد صمَّمت على أن أوفِّره من أجل إلزي. كان أيري ما يزال متماسكاً، فرفعتُ مود برفق عن حجري وأمسكت بإلزي. فامتطتني وجهاً لوجه وعانقتني بشبق جامح، وألصقت شفتيها بشفتي، وأخذت تنكح وكأن حياتها كلها معلّقة على ذلك. كانت مود قد ذهبت خلسة إلى غرفة الحمَّام. ولدى عودتها كانت إلزي جالسة على حجري، وذراعها تطوِّق عنقي، ووجهها يتلظّى ناراً. ثم نهضت إلزي وذهبت إلى الحمَّام. وتوجَّهت أنا إلى المغسلة واغتسلت هناك.

قالت مود، وهي تتقدَّم من الآلة وتدير أسطوانة أخرى، " لم أكن في حياتي كلها سعيدة هكذا! أعطني كأسك ". وبينما كانت تملؤه غمغمت " ماذا ستقول عندما ستعود إلى المنزل؟". لم أجب. ثم أضافت همساً " تستطيع أن تقول إن أحدنا مريض "

قلت " لا يهم، سأفكِّر في مخرج ما "

" ألن تغضب مني؟ "

" أغضب؟ لماذا؟ "

" لأني أخَّرتك كثيراً "

قلت " هراء "

طوقتني بذراعيها وقبّلتني بحنان. ثم تناول كلّ منا كأسه وذراع كل منا تحيط بخصر الآخر وجرعنا نخباً صامتاً. في تلك اللحظة عادت إلزي. وقفنا هناك، عراة كحيوانات هزيلة، متشابكي الأذرع ونشرب نخب أحدنا الآخر.

من جديد رقصنا، والشموع تخفق. كنت أعلم أنها في غضون هنيهات سوف تحترق ولن يتحرّك أي منا لإحضار غيرها. كنا نتبادل الرقص بسرعة، لكي يجنِّب أحدنا الآخر الحرج من الوقوف جانباً والمراقبة. أحياناً كانت ترقص مود مع إلزي معاً، يحفّ كسّ كل واحدة منهما على كسّ الأخرى بشكل داعر، فتتباعدا وهما تضحكان، وتسارع هذه أو تلك إلى الإمساك بي. كان يسود إحساس غامر بالحرية والحميمية بحيث أنَّ أيَّ إيماءة، أيَّ تصرُّفٍ، كان مباحاً. وازداد ضحكنا ومزاحنا باطراد. وأخيراً احترقت الشموع، واحدة إثر أخرى، ولم يبق غير شعاع ضوء القمر الشاحب يتدفق من خلال النوافذ، وتلاشى كلّ ادّعاء بالتحفُّظ والاحتشام.

كانت فكرة مود أن نزيل الأشياء عن الطاولة. وساعدتها إلزي بدون أن تفهم السبب، كالمنوَّمة مغناطيسياً. وفي الحال جُرِفَ كل شيء إلى أحواض الغسل. ثم اندفعنا بسرعة إلى الغرفة المجاورة لنجلب ملاءة ناعمة فرشناها على الطاولة، أحضرنا حتى وسادة. كانت إلزي قد بدأت تفهم مغزى الانجراف. وكانت تراقب جاحظة العينين.

ولكن قبل المباشرة في الوقائع كان لدى مود إلهامُ آخر - أن تصنع شراب البيض المخفوق. كان لابد لنا من أن نشعل المصابيح الكهربائية لإتمام ذلك. وعملت كلتاهما بسرعة، بل وبهستريا. وصبّتا مقداراً وافراً

twitter @baghdad_library

من الكونياك إلى الخليط. وبينما كان ينزل في جوفي شعرت به يتوجّه مباشرة إلى أيري، وإلى خصيتيّ. وأثناء شربه ارتمى رأسي إلى الخلف، وضمّت إلزي خصيتيّ بتجويف يدها. قالت وهي تضحك " واحدة منهما أكبر من الأخرى ". ثم، بعد شيءٍ من التردُّد قالت " ألا نستطيع أن نفعل شيئاً معاً؟ " نظرت إلى مود، فرسمت ابتسامة عريضة، وكأنها تقول - ولم لا؟ فقالت إلزي " فلنطفئ الأنوار العالية. لم نعد بحاجة إليها، أليس كذلك؟ "، وجلست على السرير بجانب الطاولة. قالت " أريد أن أراقبكما "، وهي تربتُ على الملاءة بيدها. وأمسكت بمود ورفعتها ووضعتها على الطاولة. قالت " هذا شيء جديد عليّ. انتظر لحظة؟ "، ومسكتني من يدي وقرّبتني منها. ثم، نظرت إلى مود ... " أتسمحين؟ "، وبدون أن تنتظر جواباً مالت وتناولت أيري ووضعته في فمها. وبعد بضع لحظات سحبت فمها. " الآن ... دعني أراقب! "، ودفعتني قليلاً، وكأنما لتستعجلني. تمددت مود كقطة، وتدلّت طيزها عبر حافة الطاولة. والوسادة تحت رأسها. فَتَلَتْ ساقيها معاً حول خصري. وفجأة فكّتهما وعلّقتهما على كتفي. كانت إلزي واقفة إلى جانبي، منخفضة الرأس، تراقب باستغراقٍ مبهور، وقالت بهمسٍ أجشّ " مده أكثر قليلاً، أريد أن أراه وهو يلج ثانية ". ثم هرعت مسرعة إلى النافذة ورفعت الظلاّت. قالت " افعل! هيا، انكحها! ". وبينما أنا أغمسه إلى الداخل شعرت بإلزي تنسلُّ إلى جانبي. في اللحظة التالية أحسست بلسانها على خصيتي، يلعقها بنشاط.

فجأة، ذهلت تماماً إذ سمعت مود تقول: " لا تقذف الآن. انتظر ... أعط إلزي فرصة"

سحبته، وبينما أنا أفعل دفعتُ طيزي إلى وجه إلزي، فوقعت إلى الخلف على الأرض. أطلقت زعقةَ ابتهاجٍ حادَّة وقفزتْ بسرعة لتقف على قدميها. وهبطت مود عن الطاولة فحلّت إلزي برشاقة محلّها. ثم قالت لمود، التي جلست باستقامةِ السهم. " ألا تستطيعين أنت أيضاً أن تقومي بعمل شيء؟ لدي فكرة ... " - ثم قفزت عن الطاولة وفرشت الملاءة على الأرض ووضعت الوسادة عليها. لم يستغرق منها الخروجُ بتصورٍ مثير وقتاً طويلاً.

تمدَّدت مود على ظهرها، وجلست إلزي القرفصاء فوقها على ركبتين منحنيتين، ووجهها يواجه قدميّ مود لكن الفم كان ملتصقاً بشقّ مود. كنت أنا على ركبتيّ، أعطيه لإلزي من الخلف. كانت مود تعبث بخصيتيّ، تعالجهما بخفّة ورقّة برؤوس أصابعها. كنت أشعر بمود تتلوى بينما إلزي تلعقها بقوة ونشاط. كان ثمة ضوء شاحب عجيب يلهو في فضاء الغرفة، ومذاق كسّ في فمي. وكان لدي أحد تلك الانتصابات الأخيرة التي تهدِّد بأنها لن ترتخي. كنت بين حين وآخر أخرجه، وبعد أن أدفع إلزي إلى الأمام أهبط أكثر وأقدِّمه للسان مود الرشيق. ثم أقحمه من جديد وتتلوى إلزي كالمجنونة وتدفن بوزها في فرج مود، وهي تهزُّ رأسها كآلة هزَّازة. وأخيراً أخرجه وأدفع إلزي جانباً وأنزل إلى مود وأدفنه فيها بعنف. وتناشدني " افعل، افعل! "، وكأنها تنتظر أن ينهال الفأس عليها. مرة أخرى أشعر بلسان إلزي على خصيتيّ. ثم تقذف مود، كنجمٍ يتفجَّر، مع وابلٍ من أشباه الكلمات والعبارات يخرُّ من لسانها. ثم أبتعدُ، وهو ما يزال صلباً كقضيبٍ من معدن، وقد بتُّ أخشى الآن ألا أقذف أبداً، وأتلمَّسُ طريقي إلى إلزي. كانت لزجة بشكل فظيع،

twitter @baghdad_library

وفمها أصبح أشبه بكسّ. قلت، وأنا أحرّكه بحركة دائرية داخلها، كشيطانٍ سكران. " أتريدينه! "، فتصرخ، وهي تدلّي ساقيها عبر كتفيَّ وتقرِّبُ جزأها السفلي، " هيا انكح، انكح! أعطنيه، أعطنيه، يا سافل! "، وقد أضحت تزعق الآن " نعم سأنكحك ... سأنكحك! "، وتتلوى وتتمعَّجُ وتلتوي وتعضّني وتخربشني.

صرختْ " أوه، أوه! لا تفعل. أرجوك لا تفعل. إنه يؤلم! "

قلت " اخرسي، يا شرموطة! يؤلمك، هه؟ تريدينه، أليس كذلك؟ "، وأمسكتها بإحكامٍ، ثم ارتفعتُ قليلاً لكي أدخِلَه كله وحتى الغمد، وحشرته إلى أن حسبتُ أن رحمها سيتمزَّق. ثم قذفتُ - في قلبِ ذاك الفمِ الشبيه بالحلزون المفتوح حتى آخره. ومرَّت بنوبة تشنُّج، تهيِّجُها المتعة والألم. ثم انزلقتْ ساقاها عن كتفيّ وسقطت على الأرض مع ارتطام مكتوم. واستقرت هناك كالميتة، وقد نُكِحَتْ حتى آخر مدى.

قلت، وأنا واقف متباعد الساقين فوقها والمني ما يزال يُقذف، ويقطر على ثدييها، ووجهها، وشعرها: " يا يسوع، يا يسوع المسيح، إنني مستنزف؛ مُناكُ تماماً. أتعلمين هذا؟ "، قلت مخاطباً الغرفة.

كانت مود تشعل شمعة. قالت " الوقت يتأخَّر "

قلت " لن أذهب إلى المنزل؛ سأنام هنا "

قالت مود، وإثارةٌ لا تقاوَم تتسلَّل إلى نبرة صوتها " أحقاً؟ "

" نعم، لا يمكنني أن أعود وأنا بهذه الحالة. أليس كذلك؟ يا إلهي، إنني أترنَّح، وسكران، ومشوَّش "، وارتميتُ على أحد الكراسي، " أعطني قليلاً من ذاك الكونياك، من فضلك، أحتاج إلى منبِّه "

صبَّت كأساً كبيراً ووضعته على شفتي، وكأنها تمدُّني بدواء. كانت

إلزي قد نهضت ووقفت على قدميها وهي تترنَّح قليلاً وتتمايل. قالت " أعطني واحداً لي أيضاً. يا لها من ليلة! يجب أن نفعل هذا ثانية في وقت ما "

قلت " نعم، غداً "

قالت، وهي تمسِّد على رأسي، " كان أداءً رائعاً، لم يخطر ببالي قط أنك هكذا ... أتدري أنك كدت تقتلني؟ "

قالت مود " الأفضل أن تأخذي دشاً "

تنهَّدت إلزي " أعتقد ذلك. يبدو أني غير مهتمة بهذا الأمر. فعدما أنغمسُ أنغمسُ عميقاً"

قلت " ادخلي إلى هناك، إلزي، ولا تكوني حمقاء لعينة "

قالت إلزي " أنا مرهقة "

قلت " انتظري لحظة. أريد أن ألقي نظرة عليك قبل أن تدخلي إلى هناك "، وجعلتها ترتقي الطاولة وتباعد ما بين ساقيها واسعاً. رحت أتفحَّصُ بإمعانٍ، وأنا أحمل الكأس بإحدى يديَّ، كسَّها المفتوح بإبهام يدي الأخرى وسبابتها. وكان المني ينزُّ.

" كسٌّ جميل، يا إلزي "

شاركت مود أيضاً في التمعُّن فيه. قلت لها، وأنا أدفع برفق أنفها إلى شعر عانة إلزي، " قبِّليه "

جلست هناك، أراقب مود وهي تقضم كسّ إلزي. كانت إلزي تقول " شعور لذيذ، لذيذ جداً ". وتحرَّكت كراقصة شرقية مربوطة إلى الأرض. وكانت طيز مود تبرز بشكلٍ مغرٍ. وعلى الرغم من تعبي بدأ أيري ينتفخ من جديد. وتصلَّبَ كسجقٍ دامٍ. أتيت مود من الخلف وزلقته فيها.

twitter @baghdad_library

أخذت تدير طيزها وتديرها، ورأسه فقط موجود فيها. حينئذ كانت إلزي تتلوى من فرط الاستمتاع؛ كانت تضع إصبعها في فمي، وتعضُّ البرجمة. استمرينا هكذا بضع دقائق، إلى أن وصلت إلزي إلى الرعشة. بعد ذلك تباعدنا وتبادلنا النظر وكأنَّ أياً منا لم يقابل الآخر قط. كنا مبهورين.

قالت مود، وهي تمسك ذراعي " تستطيع أن تبيت معي ". وعندما رأت تعبير الدهشة في عينيّ قالت " ولِمَ لا ؟ "

قالت إلزي " نعم، لم لا ؟ قد أنضمُّ أنا أيضاً إليكما في السرير "، ثم سألت مود بدون مقدمات " أتسمحين لي ؟ "، ثم أضافت، " لن أزعجكما. كل ما في الأمر أني أكره أن أغادركما الآن "

قالت مود " ولكن ماذا سيقول أهلك؟ "

" لن يعرفوا أن هنري يمكث هنا، أليس كذلك؟ "

قالت مود، وقد أخافتها هذه الفكرة قليلاً، " لا، طبعاً، لا! "

قلت " وميلاني؟ "

" أوه، إنها تغادر في الصباح الباكر. أصبح لديها عمل الآن "

فجأة تساءلت ماذا سأقول لمونا بحق الشيطان. وكاد الرعب يتملّكني.

قلت " أعتقد أنه يجب أن أتَّصل بالمنزل "

قالت إلزي متودِّدة " أوه، ليس الآن. الوقت متأخر ... انتظر "

خبَّأنا الزجاجات، وكوَّمنا الصحون في المغسلة، وحملنا الفونوغراف معنا إلى الطابق العلوي. إذ كان ينبغي أيضاً ألا ندع ميلاني ترتاب في شيء. وقطعنا الصالة على رؤوس أصابعنا وارتقينا الدرج، وأذرعنا مثقلة بالأغراض.

استلقيتُ بين الاثنتين، وكل يدٍ في كس. استلقينا بهدوء بعض الوقت، وحسبتهما نائمتين. كان فرط التعب يحول بيني وبين النوم. وبقيت عيناي مفتوحتين واسعاً، أحدِّق في الفضاء. وأخيراً تقلَّبت على أحد جنبيّ. باتجاه مود. وفي الحال اتجهت نحوي، وأحاطتني بذراعيها وألصقت شفتيها بشفتيّ. ثم أبعدتهما ووضعتهما على أذني. همستْ بوهنٍ " أحبك". لم أعط جواباً. همستْ " أسمعتني؟ أحبك! ". شددتها إليّ ووضعتُ يدي بين ساقيها. عندئذ بالذات شعرت بإلزي تتقلّب، وتحيط بي كتجويف ملعقة. شعرت بيدها تزحف بين ساقيّ، وتعصر خصيتيّ. ثم حطّت شفتيها على عنقي وأخذت تقبّلني برقّة، ودفء، بشفتين رطبتين، باردتين.

بعد قليل تقلَّبتُ لأتَّخذ وضع الانبطاح. وفعلت إلزي الشيء نفسه. أغمضت عينيّ، محاولاً أن أستدعي النوم. كان ذاك مستحيلاً. كان ملمس الفراش وثيراً لذيذاً، والجسدان على جانبيّ ناعمين ومتعلقين بي، وعبق الشعر والجنس يملأ منخريّ. ومن الحديقة أتى العبير الثقيل للتربة المشبعة بالمطر. كان غريباً، غريباً مهدهِداً، أن أعود إلى ذاك السرير المزدوج، السرير الزيجي، وإلى جانبنا شخص ثالث، يغلِّفنا نحن الثلاثة شبقٌ حسِّي، صريح. كان أمراً لذيذاً إلى درجة لا تصدَّق. كنت أتوقَّع أن يُفتَح الباب فجأة في أي لحظة ويصرخ صوتٌ متَّهمٌ " اخرجوا من هنا، يا وقحون! ". ولكن لم يتناه إلى سمعي غير سكون الليل، والظلام، وروائح التربة والجنس، الحسّية، والنفَّاذة.

حين تقلَّبتُ من جديد كان ذلك باتجاه إلزي. كانت في انتظاري، متلهِّفة لتضغط كسّها عليَّ. وتزلق لسانها السميك، المتماسك، إلى حنجرتي.

twitter @baghdad_library

همست " هل نامت؟ "، ثم ناشدتني " افعل معي مرة أخرى "
بقيتُ مستلقياً لا آتي بحركة، وأيري مترهِّل، وذراعي مسترخٍ على خصرها.

همستُ " ليس الآن. في الصباح، ربما "

توسَّلت إليّ " لا، الآن ". كان أيري ملتفّاً في يدها كحلزون ميت. همستْ " أرجوك، أرجوك. أريده. انكحني مرة أخيرة، هنري " قالت مود، وهي تتضامّ إليّ " دعيه ينام ". بدت من صوتها وكأنها مخدَّرة.

قالت إلزي، وهي تربت على ذراع مود " حسن ". ثم، بعد بضع لحظات من الصمت، ضغطت شفتيها على أذني، وهمست ببطء، تاركة فترات من الصمت بين كلمة وأخرى: " بعد أن تستغرق في النوم، نعم؟ ". أومأت إيجاباً. وفجأة شعرت أن النعاس يغلبني. فقلت لنفسي " شكراً لله ".

كانت هناك فترة من الفراغ، بدت لي طويلة، خلالها كنت بعيداً. أفقت بالتدريج، شبه واعٍ بأن أيري كان في فم إلزي. مرَّرت يدي على رأسها ومسَّدت على ظهرها. رفعت يدها ووضعت أصابعها على فمي، وكأنما لتحذِّرني من إبداء الاحتجاج. كان تحذيراً بلا فائدة لأنني كنت، ويا للغرابة، قد أفقت مع معرفة تامة بما سيلي. كان أيري قد بدأ لتوه بالاستجابة لمداعبات إلزي الشفوية. كان أيراً جديداً؛ بدا أنحف، أطول، مدبَّباً - أيراً إلهياً. تدبُّ فيه حياة منفصلة، وكأنه أنعش نفسه بنفسه، وكأنه أخذ غفوة من تلقاء ذاته.

برقّة، ببطء، خلسة - لماذا أصبحنا هكذا مختلسين؟ تساءلت - رفعتُ إلزي إلى أعلى وفوقي. كان كسّها يختلف عن كسّ مود؛ أطول،

أضيق، أشبه بإصبع في قفاز ينزلق فوق أيري. أجريت مقارنات بينما كنت بحذر أحركها إلى أعلى وإلى أسفل. مررتُ أصابعي على طول الحافة وقبضت على شعر عانتها وشددته برقّة. لم تخرج من بين شفاهنا همسة واحدة. كانت أسنانها مشدودة إلى حدبة كتفي، وهي مقوّسة بحيث أن رأسه فقط كان فيها وحوله كانت تدير كسّها ببطء، ومهارة، وبشكل معذِب. وبين حين وآخر تغوص عليه وتحفر كحيوان.

أخيراً همست " يا ربي، كم أحبه! أودُّ لو أنكحك طوال الليل "

انقلبنا على جنبينا وبقينا هكذا ملتصقين بشدّة معاً، لا نأتي بأي حركة، أو صوت. كان كسّها يلعب بأيري بتقلُّصات عضلية خارقة وكأنه يتمتع بحياةٍ وإرادةٍ خاصّتين به.

همستْ " أين تقطن؟ أين يمكن أن أقابلك ... وحدك؟ اكتب لي غداً ... أخبرني أين أقابلك. أريد أن أنكحك كل يوم ... أتسمع؟ لا تقذف بعد. أرجوك. أريده أن يدوم إلى الأبد"

صمتُ. لا يُسمَعُ غير النبض الذي بين سيقاننا. لم أكن قد شعرت بمثل ذاك التراكب المُحكَم، تراكبُ طويل، ناعم، حريريّ، صافٍ، نضر. لا يمكن أن تكون قد نُكحَتْ أكثر من بضع مرات. وجذور شعرها قوية جداً وعطِرة. وثدياها متماسكان وأملسان، كتفّاحتين. والأصابع أيضاً، قوية، لدنة، نهمة، ودائماً تتجوّل، تتشبّث، تداعب، تدغدغ. كم كانت تحب أن تقبض على خصيتيّ، أن تحيط بهما، تزنهما، ثم تطوّق الصفن بإصبعين، وكأنها تنوي أن تحلبني. ولسانها دائماً نشط، وأسنانها تعضّ، تقرص، تنتف ...

كانت ساكنة تماماً حينئذ، لا تتحرّك فيها عضلة واحدة. ثم همست

twitter @baghdad_library

من جديد " هل أحسِنُ العمل؟ سوف تعلّمني، ألا تفعل؟ أنا شبقة. أستطيع أن أنكح إلى الأبد ... لا أظنك متعب الآن. أليس كذلك؟ فقط ابقَ كما أنت ... لا تتحرَّك. إذا قذفتُ لا تخرجه ... لن تفعل، أليس كذلك؟ يا ربي، هذا نعيم ... "

هدوء من جديد. انتابني إحساس بأنَّ في استطاعتي أن أبقى هكذا إلى الأبد. أريد أن أسمع المزيد.

همستْ " لدي صديقة. نستطيع أن نلتقي عندها ... لن تمانع أبداً. يا إلهي يا هنري، لم أكن أعلم أنه يمكن أن يكون هكذا. أتستطيع أن تنكح هكذا في كل ليلة؟ "

ابتسمت في الظلام.

همستْ " ما الأمر؟ "

همستُ، وأنا أكاد أقهقه، " ليس في كل ليلة "

" هنري، انكح! بسرعة، انكحني ... أنا أقذف "

قذفنا معاً في وقت واحد، في رعشةٍ مطوَّلةٍ دفعتني إلى التساؤل من أين ينبع كل ذلك السائل.

همستْ " فعلتها! ". ثم: " رائع ... ممتاز "

تقلَّبت مود بتثاقل أثناء نومها.

همستُ " تصبحين على خير. سأنام ... لقد انتهيت "

همستْ، وهي تقبِّل وجنتي، " اكتب لي في الغد، أو اتصل بي هاتفياً ... عدني "

نخرتُ. تضامَّت معي، وذراعها تحيط بخصري، وغبنا في غشوة.

twitter @baghdad_library

الفصل السابع عشر.

تلك النزهة وقعت في يوم أحد. ولم أقابل مونا إلا قرابة فجر يوم الثلاثاء. هذا لا يعني أني مكثت مع مود - لا، بل توجَّهت في صباح يوم الاثنين مباشرة إلى المكتب. وعند نحو الظهيرة اتصلت هاتفياً بمونا فقيل لي إنها نائمة. ريبيكا هي التي ردَّت على الهاتف. قالت إنَّ مونا كانت غائبة عن المنزل طوال الليل، وإنها كانت تقوم بتدريبات. سألتني، بما يشبه قلق صاحبة ملك، " وأين كنتَ أنت طوال الليل؟ ". شرحت لها قائلاً إن الطفلة قد مرضت وإنني اضطررت إلى ملازمتها طوال الليل.

ضحكت. " الأفضل أن تؤلِّف شيئاً أجود من هذا، قبل أن تتكلم مع مونا. كانت تحاول الاتصال بك طوال الليل. كانت مسعورة من شدة قلقها عليك "

" هل أفترض أنَّ هذا هو سبب غيابها عن المنزل؟ "

قالت ريبيكا، وهي تطلق ضحكة مكبوتة، خفيضة، أخرى، " لا أظنك تتوقع من أحد، أياً كان، أن يصدِّق أعذارك؟ ". ثم أضافت " هل ستأتي إلى البيت هذه الليلة. لقد اشتقنا إليك ... أتعلم، يا هنري، ما كان ينبغي أن تتزوج ... "

قاطعتها. " نعم، سآتي إلى المنزل هذه الليلة على العشاء. قولي

لها هذا عندما تستيقظ، هلاّ فعلتِ؟ ولا تضحكي عندما تخبريها بما قلته – أقصد، عن الطفلة "

بدأت تضحك عبر الهاتف.

" ريبيكا، اسمعي، إنني أثق بك. لا تصعِّبي الأمر عليَّ. أنت تعلمين أني أكنُّ لك تقديراً عالياً. وإذا ما حدث وتزوجتُ امرأةً أخرى فستكون أنت، أنتِ تعلمين هذا ... "

مزيدٌ من الضَحك. ثم: " إكراماً لله يا هنري، كفى! ولكن تعال إلى البيت هذه الليلة ... أريد أن أسمع ما حدث بالتفصيل. آرثر لن يكون في المنزل، وسأساندك ... مع أنك لا تستأهل "

وهكذا ذهبت إلى المنزل، بعد أن أخذت إغفاءة في حلبة التزلُّج. كنت في منتهى الابتهاج لدى وصولي، وذلك نتيجة حوارٍ أجريته في الدقيقة الأخيرة مع عالم بالآثار المصرية أراد أن يعمل كساعٍ ليليّ. وقد أفلتَ منه تصريحُ بشأن العمر المحتمل للأهرامات صعقني وأطاح بي حيث لم أعد أهتم بردّ فعل مونا على عذري. لقد قال، وأنا متأكد من أني سمعته جيداً، إنَّ ثمة ما يدعونا إلى الاعتقاد أنَّ عمر الأهرامات يبلغ ستين ألف عام – على الأقل. فإذا كان هذا صحيحاً، فإنَّ مفهوم الحضارة المصرية اللعين برمَّته سوف يُرمى به إلى الزبالة – بالإضافة أيضاً إلى مفاهيم تاريخية أخرى كثيرة. وفي القطار النفقي شعرت أني أكبر سناً مما خطر ببالي في أي وقتٍ بقدر هائل. كنت أحاول أن أعود إلى ما قبل عشرين أو ثلاثين ألف عام، أي إلى منتصف المسافة ما بين إقامة الأصنام المونوليثيّة[107] والفجر المفترض لحضارةِ وادي النيل المهيبة. شعرت أني معلّق في الزمان والفراغ. وبدأت كلمة "عُمْر" تتلبَّس مغزى

---

١٠٧ – المونوليث : أحجارٌ ضخمة تكون عادة على شكل عمود أو مسلّة . – المترجم

twitter @baghdad_library

جديداً. ومعها جاءت الفكرة الغريبة التالية: ماذا لو أني أعيش لأبلغ مائة وخمسين، أو مائة وخمساً وخمسين سنة؟ كيف كانت هذه الحادثة الصغيرة التي أحاول أن أحكيها - عملية الأورغانزا فريغانزا - ستبدو على ضوء مائة وخمسين سنة من الخبرة؟ هل سيكون لانفصال مونا عني أي أهمية؟ هل سيبدو مهمّاً بعد ثلاثة أجيال من الآن كيف تصرَّفتُ في ليلة الرابع عشر من كذا وكذا وكيت؟ لنفرض أني احتفظت بحيويتي الذكرية وأنا في سن الخامسة والتسعين بعد أن دفنت ستاً من الزوجات، ثماني أو عشراً؟ لنفرض أننا في القرن الحادي والعشرين عدنا إلى تبنّي المذهب المورموني[١٠٨]؟ أو أننا بدأنا نتفهَّم، وليس فقط نتفهَّم بل ونطبِّق، منطق الإسكيمو الجنسي؟ لنفرض أنَّ مفهوم الملكيّة ألغي وأزيلت مؤسسة الزواج؟ في غضون سبعين أو ثمانين عاماً قد تحدث ثورة هائلة. بعد سبعين أو ثمانين عاماً سيكون عمري قد بلغ المائة أو نحوها - أي شاب نسبياً. لعلي سأكون قد نسيت أسماء أغلب زوجاتي، ناهيك عن علاقاتي العابرة ... حين ولجتُ المنزل كنت في حالة نشوة.

جاءت ريبيكا فوراً إلى غرفتي. كان المنزل خالياً. قالت إنَّ مونا قد اتصلت هاتفياً، لتقول إنه ما تزال هناك بروفة أخرى. ولا تعرف متى ستعود إلى المنزل.

قلت " هذا رائع. هل أعددت وجبة عشاء؟ "

" يا إلهي، هنري، أنت فاتن "، وطوقتني بذراعيها بحبٍ وعانقتني عناق الأصحاب. " أتمنى لو أنَّ آرثر مثلك. كان سيسهِّل عليَّ أن أغفر له أحياناً "

---

١٠٨ - المورمونية: مذهبٌ أنشأه جوزيف سميث (١٨٠٥ - ١٨٤٤) في عام ١٨٣٠، وأباح فيه تعدُّد الزوجات. -المترجم.

سألتها " أمَا مِنْ أحد هنا ؟ ". كان أمراً غير عادي أن يُهجَر البيت هكذا.

قالت ريبيكا، وهي تتفقَّد اللحم المشوي في الفرن، " لا، الجميع خرجوا. الآن تستطيع أن تحكي لي عن الحب الكبير الذي حدَّثتني عنه عبر الهاتف "، وضحكت من جديد، ضحكاً منخفضاً أرضياً أشاع الإثارة في كياني.

قلت " تعلمين أني لم أكن جاداً. أحياناً أقول أي شيء يخطر ببالك... ومع ذلك كنت أيضاً أعني بصورةٍ ما ما قلت. أنت تفهمين أليس كذلك؟ "

" فهماً تاماً! لهذا أحبك. أنت مجردٌ تماماً من الإخلاص وصادق. إنه مزيجٌ لا يقاوَم "

قلت، مقترباً منها وأحيطها بذراعيّ، " السبب يعود إلى أنك تشعرين بالأمان معي، أليس كذلك؟ "

تملّصَتْ مبتعدة وهي تضحك. وهتفت " ليس هذا ما أفكِّر فيه - وأنت تعلم ذلك! "

قلت، راسماً ابتسامة عريضة، " إنني فقط أتودَّد إليك من باب التهذيب. سوف نتناول وجبة صغيرة عائلية الآن ... يا الله، ما أذكى الرائحة ... ما هذا؟ دجاج؟ "

قالت " بل لحم خنزير! يقول دجاج ... ماذا تظن؟ إنني أعددت هذا خصيصاً لأجلك؟ هيا، حدِّثني. أبعد ذهنك عن التفكير في الطعام أكثر قليلاً. قل شيئاً لطيفاً، إن استطعتَ. ولكن لا تقترب مني، وإلا غرزتُ الشوكة فيك ... احكِ لي ما حدث ليلة أمس، قل الحقيقة، أتحداك أن تفعل ... "

twitter @baghdad_library

" ليس هذا بالعمل الصعب، يا عزيزتي الرائعة ريبيكا. خاصة وأننا وحدنا. إنها حكاية طويلة - هل أنت متأكدة من أنك تريدين أن تسمعيها ؟ "

أخذت تضحك مرة أخرى.

قلت " يا إلهي، إنَّ لك ضحكة قذرة. على أي حال، أين كنت؟ أوه، نعم، الحقيقة ... اسمعي، الحقيقة هي أني ضاجعت زوجتي ... "

قالت ريبيكا " هذا ما ظننته "

" ولكن انتظري، هذا ليس كل شيء. كانت هناك امرأة أخرى أيضاً... "

" تقصد بعد أن ضاجعت زوجتك - أم قبل؟ "

قلت وأنا أرسم ابتسامة عريضة جذابة " بل في وقت واحد "

أسقَطَتْ سكين التقطيع وأسندتْ ذراعيها على خصرها وهي ترميني بنظرة مستفهمة، " لا، لا! لا تقل لي هذا! لا أدري ... معك كل شيء ممكن. انتظر لحظة. انتظر حتى تجلس إلى المائدة. أريد أن أسمع التفاصيل كلها، منْ طأطأ لسلامُ عليكم "

فقلت " أظن أنَّ ليس لديك أي قطرة من الشنابس، أليس كذلك؟ "

" لدي بعض النبيذ الأحمر ... عليك أن ترضى به "

" عظيم، عظيم! طبعاً يرضيني. أين هو ؟ "

أثناء فتحي للزجاجة اقتربتْ مني وقبضت على ذراعي. قالت " اسمع، قل لي الحقيقة. لن أفشي سرك "

" لكني أقول لك الحقيقة! "

" حسن، اصمت، إذن. انتظر ريثما نجلس ... هل يعجبك القرنبيط؟ ليس لدي غيره من الخضروات "

" يعجبني أي نوع من الطعام. يعجبني كل شيء. أنت تعجبينني. وتعجبني مونا، وتعجبني الجياد، والأبقار، والدجاجات، ولعب الشدّة، ونشاء الطعام، وباخ، والبنزين، والحر الشديد ... "

" يعجبك ... هذا أنت قلباً وقالباً. رائع أن أسمع هذا. إنك تثير شهيتي أنا أيضاً للأكل. أنت معجب بكل شيء، نعم ... لكنك لا تحب"

" بل أحب أيضاً. أحب الطعام، والنبيذ ,والنساء. طبعاً أحبهم. ما الذي يجعلك تعتقدين أني لا أحب؟ إذا كنتِ مُعجَبَة، فأنت تحبين، فما الحب إلا درجة تفضيل. إنني أحب كما يحب الله - بدون تمييز في الزمان، والمكان، والعرق، واللون، والجنس وما إلى ذلك. أحبك أنت أيضاً - بهذا المفهوم. تُرى أيكون هذا غير كافٍ؟ "

" تقصد أنه أكثر مما ينبغي. إنك مشوّش الرؤية. اسمع، اهدأ قليلاً. هلا قطعت اللحم؟ سوف أحضر الصلصة "

" صلصة ... أوه، أوه. أحب الصلصة "

" كما تحب زوجتك وأنا ومونا ؟ "

" بل أكثر. الآن الصلصة هي كل حبي. أستطيع أن أرشفها بالمغرفة. صلصة دسمة، كثيفة، ثقيلة، قاتمة ... إنها رائعة. بالمناسبة، كنت لتوي أتحدث مع عالم بالآثار المصرية - يريد عملاً كساعٍ "

" هاك الصلصة. لا تخرج عن الموضوع. كنت تنوي أن تحكي لي عن زوجتك "

" طبعاً، طبعاً سأحكي. سأحكي هذا أيضاً. سأحكي كل شيء. أولاً وقبل أي شيء، أريد أن أقول لك كم تبدين جميلة - وأنت تحملين الصلصة بيدك "

twitter @baghdad_library

قالت " إذا لم تكفّ عن هذا سأغرز هذا السكين فيك. ماذا دهاك؟ أكلما زرتَ زوجتك يكون لها مثل هذا التأثير عليك؟ لابد أنك قضيت وقتاً رائعاً معها "، وجلست، ليس قبالتي، بل إلى جانبي.

قلت " نعم، قضيت وقتاً رائعاً. ثم وقبل قليل قابلت عالم الآثار المصرية ... "

" أوه، اللعنة على عالم الآثار المصرية! أريد أن أسمع عن زوجتك ... وعن تلك المرأة الأخرى. والله، إن كنت تلفِّق هذا الخبر سأقتلك! "

انهمكتُ بعض الوقت بلحم الخنزير والقرنبيط، وتناولتُ بضع جرعات كبيرة من النبيذ لأبتلع الطعام. وجبة ريَّانة. وشعرت أني في أحسن حالاتي. كنت بحاجة إلى التزوُّد بالوقود.

بعد أن تناولت بضعَ لُقمٍ كبيرة، باشرت بالقول " جرى الأمر كما يلي "

بدأت تضحك ضحكاً مكبوتاً.

" ما الأمر؟ ماذا قلتُ الآن؟ "

" ليس العلّة فيما تقول، بل في الطريقة التي تقوله بها. تبدو شديد الصفاء والانفصال، شديد البراءة. يا الله، نعم، هذه هي الصفة: بريء. لو كان ما ارتكبته جريمة قتل بدل الزنى، الفسوق، أعتقد أنك كنت بدأت بالطريقة نفسها. أنت تستمتع بنفسك، أليس كذلك؟ "

" طبعاً ... ولمَ لا أفعل؟ ما المانع؟ أهو أمرٌ غريب إلى هذه الدرجة؟ "

تشدَّقَت قائلة " لا-ا-ا، هو ليس كذلك ... أو ينبغي ألا يكون كذلك، على أي حال. لكنك أحياناً تجعل كل شيء يبدو جنونياً قليلاً.

أنت دائماً تبتعد كثيراً عن الموضوع ... تبتعد كثيراً جداً. كان ينبغي أن تولد في روسيا! "

" نعم، روسيا! هذه هي. أنا أحب روسيا! "

" وتحب لحم الخنزير والقرنبيط - والصلصة وأنا. قل لي، ما الذي لا " تحبه؟ فكِّر أولاً! لأني أريد حقاً أن أعرف "

ازدردتُ قطعةً ريَّانة من لحم الخنزير الدسم المغمَّس بالصلصة وألقيتُ عليها نظرة." في المقام الأول، أنا لا أحب العمل "، وسكتُّ برهة لأتذكَّر ما الذي أيضاً لا أحبه. ثم قلت، وأنا جادٌّ تماماً فيما أقول، " آه، نعم. لا أحب الذباب "

انفجرت ضاحكة. " العمل والذباب - هكذا إذن. يجب أن أتذكَّر ذلك. يا إلهي، أهذا كل ما لا تحبه؟ "

" في الوقت الحاضر هذا كل ما يخطر ببالي "

" وماذا عن الجريمة، والظلم، والاستعباد وما شابه هذه الأشياء؟ "

قلت " حسن، ماذا عنها؟ ماذا في وسعك أن تفعلي حيال مثل هذه الأشياء؟ يمكنك على هذا الأساس أن تسأليني أيضاً - وما ذا عن حالة الطقس؟ "

" أأنت جادٌ فيما تقول؟ "

" طبعاً جادّ "

" أنت مخلوق لا تطاق! أو لعلك تعجز عن التفكير وأنت تأكل "

قلت " هذه حقيقة، أنا لا أحسن التفكير أثناء تناولي الطعام. أتستطيعين أنت؟ في الحقيقة، أنا لا أريد ذلك. على أي حال، لم أكن يوماً مفكراً جيداً. والتفكير لا يوصل إلى أي نتيجة. إنه ضلال.

twitter @baghdad_library

التفكير يورِّثُ المرض ... بالمناسبة، هل لديك أي تَحْلية ... أي قَدْرٍ من جبن الليدركرانتز؟ إنه جبن رائع، ألا توافقينني؟ "

ثم تابعت " أعتقد أنَّ من غير المسلّي أن تسمعي مَنْ يقول " أحب هذا، إنه رائع، جيد، عظيم "، ويقصد بذلك كل شيء. طبعاً أنا لا أشعر هكذا في كل يوم - ولكن أود لو أفعل. وأنا أشعر هكذا حين أكون في حالتي العادية، حين أكون نفسي. وهذا حال كل إنسان، إذا ما أتيحت له الفرصة. إنها حالة القلب الطبيعية. والمشكلة هي أننا معرَّضون للإرهاب في أغلب الوقت. أقول " معرَّضون للإرهاب "، لكني أقصد أننا نُرهِبُ أنفسنا. ليلة أمس، مثلاً. لن تتصوَّري كم كانت خارقة. لم تكن وليدة أي سبب خارجي - إلا إذا كان البرْق. فجأة اختلف كل شيء - مع أنَّ المنزل كان نفسه، والجو نفسه، والزوجة نفسها، والسرير نفسه. وكأنَّ الضغطَ أزيل فجأة - أقصد ذلك الضغط النفسي، تلك الملاءة الرطبة المبهمة التي تخنقنا منذ لحظة ولادتنا ... لقد أتيت على ذكر الاستبداد، والظلم، وما إلى ذلك. طبعاً أنا أعرف ماذا تقصدين. حين كنت أصغر سناً - وأنا في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة - كنت أشغل نفسي بتلك القضايا. حينئذ فهمت كل شيء، فهماً تاماً ... أي، بقدرِ ما كان عقلي يسمح لي بالفهم. كنت نقيّاً، أي أكثر لامبالاة. لم أكن مضطراً إلى أن أدافع عن أي شيء، أو أن أؤيِّده، خاصةً الأنظمة التي لم أؤمن بها أبداً، حتى وأنا طفل. لقد صنعت كوناً مثالياً، خاصاً بي. كان شديد البساطة: بلا نقود، ولا ملكية، ولا قوانين، ولا شرطة، ولا حكومة، ولا جنود، ولا جلاَّدين، ولا سجون، ولا مدارس. ألغيتُ كل عنصر مشوِّش ومقيِّد. حرية مطلقَة. كان فراغاً تاماً - وقد انفجرت

داخله. إنَّ ما أردته، في الواقع، هو أن يتصرَّف كل إنسان كما أتصرَّف أنا، أو ما ظننت أني عليه. أردت عالماً مخلوقاً على صورتي، عالماً يتنفَّس بأنفاسي. جعلت من نفسي إلهاً، ما دام لم يكن هناك ما يعيقني..."

سكتُّ لأستردَّ أنفاسي. لاحظت أنها كانت تصغي بجدِّية قصوى.

" هل أتابع؟ لعلك سمعت مثل هذا الكلام ألف مرة "

قالت بهدوء، وهي تضع يدها على كتفي، " بل تابع. لقد بدأت أرى صورة أخرى لك. تعجبني أكثر وأنت في هذا المزاج "

" ألم تنسي الجبن؟ بالمناسبة، النبيذ لا بأس به أبداً. لاذع قليلاً، ربما، ولكن لا بأس به "

" اسمع يا هنري، كُلّ، واشرب، ودخِّن، افعل كل ما تريد، وبقدر ما تشاء. سأعطيك كل ما لدينا في المنزل. ولكن لا تتوقف عن الحديث الآن ... أرجوك "

وهمَّت بالجلوس، فقفزت فجأة، وقد امتلأت عيناي بالدموع، وأحطتها بذراعيّ. قلت " الآن يمكنني أن أقول لك بصدق وإخلاص إني أحبك ". لم أقم بأي محاولة لتقبيلها - اكتفيت بعناقها. ثم حرَّرتها بإرادتي، وجلست، ورفعت كأس النبيذ وأتيت على ما تبقّى فيه.

قالت " أنت ممثل، بالمعنى الحقيقي للكلمة، طبعاً. لا عَجَبَ أنْ يخافك الناس أحياناً "

" أعلم هذا، أحياناً أنا أخاف من نفسي. خاصة إذا ما تجاوب معي الشخص الآخر. لا أدري أين تقع الحدود المناسبة. أعتقد أنه لا وجود للحدود. لاشيء سيكون سيئاً أو قبيحاً أو شريراً - إذا ما أطلقنا العنان

twitter @baghdad_library

حقاً لسجيَّتنا. ولكن من الصعب جعل الناس يفهمون ذلك. على أي حال، هذا هو الفرق بين عالم الخيال وعالم الفطرة السليمة، والتي ليست فطرة سليمة على الإطلاق وإنما مجرد لواط وجنون. وإذا ما توقفت وألقيت نظرة على الأشياء ... أقول أن تنظري، لا أن تفكِّري، أو تنتقدي ... فسيبدو العالم لك جنوناً مطبقاً. وهو، وحق الله، مجنون! وهو لا يقلُّ جنوناً حين تكون الأمور عادية ومسالمة عما هو في زمن الحرب والثورة. إن الشرور هي شرور مجنونة، والأدوية العامة هي أدوية عامة مجنونة. ذلك لأننا جميعاً مُساقون كالكلاب. نهرب. ممَّ؟ لا نعلم. من مليون شيء مجهول وشيء. إنه فوضى، ذعر. لا وجود لمكان مطلق نلجأ إليه - إلا إذا، وكما أقول، توقَّفنا توقُّفاً تاماً. إذا استطعتِ أن تفعلي ذلك، دون أن تفقدي توازنك، أو أن يجرفك السيل، فقد تستطيعين أن تتحكَّمي في نفسك ... أن تتمكَّني من الفعل. إذا فهمت ما أعني. أنت تفهمين ما أرمي إليه ... فمنذ لحظة استيقاظك وحتى وقت ذهابك إلى النوم كل شيء كذب، كل شيء خداع ورياء. والجميع يعرفون هذا، الجميع يشتركون في دوام الخداع. ولهذا ينظر كلٌ منا إلى الآخر مع شعور لعين بالاشمئزاز. لهذا كان سهلاً جداً أن نختلق حرباً، أو مذبحة، أو حملة صليبية آثمة، أو أي شيء لعين تريدينه. من الأسهل دائماً أن نستسلم، أن نسدد ضربة عنيفة إلى وجه أحدهم، لأن ما نتضرَّع لحدوثه هو أن نموت، أن نموت دون رجعة. ولو كنا ما نزال نؤمن بإله لجعلنا منه إله انتقام. كنا سنترك له ومن كل قلوبنا مهمّةَ تنظيف الأشياء. لقد فات الأوان بالنسبة إلينا لندَّعي أننا نرتِّب الفوضى. إننا غارقون فيها حتى عيوننا. نحن لا نريد عالماً جديداً ...

تستطيعين أن تؤمني بأي شيء. في الواقع ... ولكن في سن العشرين يُقضَى عليك، وتعلمين ذلك. في العشرين تكونين قد شُدِدتِ إلى النير، ويصبح أقصى آمالك أن تنجي بجلدك. والمسألة ليست مسألة أمل يتلاشى ... الأمل علامة مُهلِكة؛ إنه يعني العنّة. والشجاعة أيضاً لا فائدة منها: كل إنسان يستطيع أن يستجمع الشجاعة - للسبب الخاطئ. لا أدري ماذا أقول - إلا إذا استخدمتُ كلمةً كالرؤيا. وأنا لا أقصد بها صورة مجسَّمة للمستقبل، أو تحقيقُ مَثَلٍ أعلى نتخيَّل. بل أقصد شيئاً أكثر مرونة، وثباتاً - بصيرة خارقة دائمة، إذا جاز التعبير ... شيئاً أشبه بعينٍ ثالثة. كانت لدينا واحدة ذات يوم. كان هناك ما يشبه الاستبصار وكان شيئاً طبيعياً وشائعاً بين الناس كافة. ثم جاء العقل، والعين التي كانت تتيح لنا أن نرى الكلَّ والحولَ والماوراء ابتلعها العقل، وأصبحنا نعي العالم، ونعي أحدنا الآخر بطريقة جديدة. وأزهرت ذواتنا الأنانية الحقيرة: أصبحنا واعين لذواتنا، ومع ذلك الوعي جاء الغرورُ، والغطرسةُ، والعمى، عمى لم يعرف بمثله أحد من قبل، ولا حتى العميان"

قالت ريبيكا فجأة " من أين لك هذه الأفكار؟ أمْ أنها وليدة هذه اللحظة؟ ولكن مهلاً ... أريد أن أخبرك شيئاً. هل فكَّرت مرة في أن تدوِّن أفكارك على الورق؟ وعلى أي حال، عمَّ تكتب؟ أنت لم تعرِضْ عليّ شيئاً من كتاباتك. ليست لدي أدنى فكرة عما تفعله "

قلت " أوه، هذا. أنت أيضاً لم تقرئي أي شيء. أنا لم أقل أي شيء بعد. يبدو أني غير قادر على البدء. لا أدري بماذا أبدأ، لدي أشياء كثيرة أقولها "

twitter @baghdad_library

" ولكن هل تكتب كما تتكلَّم؟ هذا ما أريد أن أعرفه "

قلت، وقد احمرَّ وجهي خجلاً، " لا أظن ذلك، إنني لا أعرف أي شيء عن الكتابة بعد. أعتقد أني شديد الخجل "

قالت ريبيكا " ينبغي ألا تخجل. أنت لا تخجل حين تتكلَّم، وحتى لا تتصرَّف كإنسان خجول "

قلت، ببطء، وتأنٍ، " ريبيكا، لو كنت أعرف حقاً ما هي مقدرتي لما كنت جالساً هنا أتحدث إليك. أحياناً أشعر وكأني أوشك أن أنفجر. إنني لا آبه حقاً ببؤس العالم. إنني أسلِّم به. ما أريده هو أن ينفتح أمامي. أريد أن أعرف ماذا في داخلي. أريد من الجميع أن ينفتحوا. إنني أشْبَه بإنسان أحمق يحمل بيده فتَّاحة علب، ويتساءل من أين يبدأ - لكي يفتح الأرض. أعلم أنَّ تحت الفوضى كل شيء رائع. أنا واثق من هذا. أعرفه لأني أشعر شعوراً رائعاً في أغلب الأحيان. وعندما أشعر هكذا يبدو لي الجميع رائعين ... كل إنسان وكل شيء ... حتى الحصى ونُتَف الورق المقوَّى ... ولحية المعزاة، إن شئتِ. هذا ما أريد أن أكتب عنه - ولكن لا أعرف كيف أفعل ... لا أعرف من أين أبدأ. لعلَّ الأمر شخصيٌ أكثر مما ينبغي. لعلَّه سيبدو محض هراء ... في الواقع، يبدو لي وكأنَّ الفنانين، والعلماء، والفلاسفة، يسحقون عدسات. الأمر كله عبارة عن عملية استعداد ضخمة لشيء لن يحدث أبداً. وذات يوم سوف تصفو العدسات وسنرى جميعنا بوضوح تام، سوف نرى كم أنَّ العالم جميل، ورائع، ومذهل. ولكن حتى ذلك الحين سوف نبقى بلا نظارات، إن صح التعبير. إننا نتخبَّط في سيرنا كالحسيرين، نرمش بعيوننا كالبلهاء. لا نرى ما يوجد تحت أنوفنا لأننا شديدو التصميم على أن

نشاهد النجوم، أو ما بعد النجوم. إننا نحاول أن نرى بعقلنا، لكن العقل يرى فقط ما يؤمَر برؤيته. العقل لا يستطيع أن يفتح عينيه وينظر لمجرد متعة النظر. ألم تلاحظي قط أنك عندما تكفِّين عن النظر، عندما لا تحاولين أن تري، فإنك فجأة ترين؟ فما الذي ترينه؟ مَنْ الذي ترينه؟ لماذا يبدو شديد الاختلاف - فائق الروعة في اختلافه - في مثل تلك اللحظات؟ وأيهما حقيقي أكثر، ذلك النوع من الرؤى أم الآخر؟ تفهمين ما أعني ... عندما تحظين بالإلهام يأخذ عقلك إجازة؛ تحوِّلينه إلى شخص آخر، إلى طاقة مبهمة، خفيّة تستحوذك، كما نقول. فماذا يعني هذا - إن كان له أي معنى؟ ماذا يحدث عندما تبطئ آلية العقل، أو تتوقف تماماً؟ أينما نظرت أو كيفما نظرت، فإن modus operandi (أسلوب العمل) هذا هو من نمطٍ آخر. الآلة تسير على أحسن ما يرام، لكن دافعها وغايتها يبدوان بلا أي مبرر. وسوف يختلف المعنى ... سيكون معنى عظيماً إذا ما تقبَّلتها بدون أي نقاش، سيكون المعنى تافهاً - أو ليس تافهاً، بل جنوناً - إذا حاولت أن تتفحَّصيها بالآلية الأخرى - يا إلهي، أعتقد أني أشطُّ عن الموضوع "

شيئاً فشيئاً أخذت تعيدني إلى القصة التي أرادت أن تسمعها. كانت شديدة الفضول لسماع التفاصيل. وضحكت كثيراً جداً - ضحكاً فظاً، مكبوتاً كان استفزازياً ومستحسناً في وقت واحد.

قالت " إنك تنتقي أغرب النساء؛ تبدو وكأنك تنتقيهن وأنت مغمض العينين. ألا تفكِّر أبداً مسبقاً كيف ستكون الحياة معهن؟ "

واصلت كلامها على هذه الصورة فترة من الوقت ومن ثم فجأة وعيت أنها حولّت مجرى الحديث إلى مونا. مونا - إنها تحيِّرها. ما

twitter @baghdad_library

القاسم المشترك بيننا، أرادت أن تعرف. كيف أستطيع أن أصبر على أكاذيبها، وادِّعاءاتها - أم لعلّي لا آبه لمثل تلك الأشياء؟ طبعاً يجب أن تكون هناك أرضية صلبة في مكان ما ... لا يمكن للإنسان أن يشيد على رمال متحركة. لقد قلّبت التفكير فينا كثيراً، حتى قبل أن تقابل مونا. كانت قد سمعت عنها، من مصادر مختلفة، وتاقت إلى معرفتها، إلى فهمِ سرِ جاذبيتها الطاغية ... مونا جميلة، نعم - جمالاً مبهراً - ولعلّها أيضاً ذكية. لكنها يا إلهي شديدة التكلُّف! من المستحيل التعامل معها؛ إنها تتملّص منك كشبح.

سألتني بتحدٍّ " ماذا تعرف حقاً عنها؟ هل قابلت أهلها؟ هل تعرف أي شيء عن حياتها قبل أن تقابلك؟ "

اعترفت بأني أكاد لا أعرف عنها أي شيء. ثم شدَّدتُ قائلاً إنه ربما من الأفضل ألاّ أفعل. كان يكتنف الغموض الذي يلفُّها جاذبية ما.

قالت ريبيكا بمرارة " أوه، هراء! لا أظن أنَّ هناك أي غموض شديد يلفُّها. لعلَّ والدها حاخام "

" ماذا! ما الذي يدفعك إلى قول هذا؟ ما أدراك أنها يهودية؟ أنا نفسي لا أعرف هذا "

" تقصد أنك لا تريد أن تعرفه. طبعاً أنا أيضاً لا أعرف، غير أنها أنكرت ذلك إنكاراً شديداً - وهذا الأسلوب دائماً يثير الريبة. ثم، هل تشبه النمط الأميركي العادي؟ هيا، هيا، لا تقل لي إنك لم ترتَبْ كثيراً - لستَ أحمقَ إلى هذه الدرجة "

ما أدهشني أكثر من أي شيء آخر، بخصوص هذه الملاحظات، هو أنَّ ريبيكا نجحت في مناقشة الأمر مع مونا. ولم تصل إلى أذني منه

كلمة واحدة. كنت مستعداً أن أهِبَ أي شيء مقابل أن ألطي خلف ستارة أثناء ذلك اللقاء.

قلت " إذا أردتِ حقاً أن تعرفي شيئاً، فاعلمي أني أفضِّل أن تكون يهودية أكثر من أي شيء آخر. وطبعاً أنا لم أحاول قط أن أستجوبها حول ذلك. من الواضح أنه موضوع يُسبِّب لها الألم. ذات يوم ستفشيه، وسترين ... "

قالت ريبيكا " أنت شديد الرومانسية. وميؤوس منك حقاً. لماذا يجب أن تختلف فتاة يهودية بأي قدر كان عن أخرى غير يهودية؟ إنني أعيش في العالمين ... لا أرى أن أياً منهما يتَّسم بأي سِمة غريبة أو رائعة "

قلت " هذا طبيعي؛ أنتِ دائماً كما أنتِ. لا تتغيَّرين مع تغيُّر المحيط. أنت صادقة ومنفتحة. يمكنك أن تنجحي في أي مجال مع أي مجموعة أو طبقة أو عرق. غير أنَّ أغلبَ الناس ليسوا كذلك. أغلب الناس يعون وجود عرق، ولون، ودين، وقومية، وما إلى ذلك. بالنسبة إليّ كل الشعوب غامضة حين أدقِّق النظر فيها. أستطيع أن أتقصَّى تبايناتها بشكل أسهل من تقصِّي قرابتها. في الحقيقة، أحبُّ الفروق التي تميِّز بعضها عن بعض بقدر حبي لما يوحِّدها. وأعتقد أنَّ من الحماقة أن ندَّعي أننا جميعاً متشابهون. وحدهم الأفراد العظام، المتميّزون فعلاً، متشابهون. الأخوَّة لا تبدأ من القاعدة، بل من القمة. وكلما اقتربنا من الله نزداد شبهاً بعضنا ببعض. إنَّ الأعماق أشبه بكومة من النفايات ... أقصد، عن بعد تبدو شديدة الشبه بالنفايات، لكن عندما تقتربين تدركين أنَّ تلك "النفايات" مؤلَّفةٌ من مليون مليار من مختلف الذرات.

twitter @baghdad_library

ومع ذلك، مهما اختلفت أي قطعة من " النفايات " عن الأخرى، فإنَّ الاختلاف الحقيقي لا يبرز إلا حين تنظرين إلى شيء ليس بـ " نفاية ". وحتى لو كان في الإمكان تحويل العناصر التي تؤلف الكون إلى جوهر حيوي واحد ... في الحقيقة، لا أدري ماذا كنت أنوي أن أقول بالضبط ... ربما ما يلي ... أنه طالما هناك حياة فهناك تبايُنٌ، وقِيَم، وتسلسلٌ هرميّ. الحياة دائماً تشكِّل بُنى هرمية، في كل مجال. فإذا كان موقعك عند القاعدة فإنك تؤكدين على تشابه الأشياء، وإذا كنت في القمة، أو بالقرب منها، فإنكِ تدركين وجود الفرق بين الأشياء. وإذا واجهتِ شيئاً ما غامضاً - خاصة شخصاً - تنجذبين إليه رغماً عن قوة الإرادة مهما بلغت. قد تجدينها مجرد مطاردة عقيمة، لا طائل من ورائها، لا تفضي إلا إلى علامة استفهام، ولكن سيان ... "

شعرت برغبة في إضافة شيء آخر، فتابعت قائلاً " ثم هناك نقيض هذا كله. كزوجتي السابقة، مثلاً. طبعاً كان ينبغي عليّ أن أخمِّن أنَّ لها جانباً آخر، وأنا الذي كرهتها لأنها مفرطة الاحتشام والاستقامة. ومن المناسب جداً أن أقول إنَّ الإنسان الذي يبالغ في احتشامه هو إنسان غير محتشم إلى أقصى مدى، كما يقول المحللون النفسيون، ولكن من النادر أن تشهد تحوُّل إحدى هاتين الحالتين إلى الأخرى، أو إذا شهدت ذلك، فإن التحوُّل يحدث عادة في شخص آخر. ولكن بالأمس شهدته بأم عينيّ، وليس في شخص آخر، بل فيَّ أنا! فمهما ظننت أنك تعرفين عن أفكارِ إنسانٍ ما السريّة، وعن دوافعه اللا واعية وما إلى ذلك، إلاّ أنه عندما يحدث التحوُّل أمام عينيك فإنك تبدئين بالتساؤل إذا كنتِ حقاً تعرفين الشخص الذي عشتِ معه حياتك كلها ولا بأس في أن تقولي

لنفسك، فيما يتعلّق بصديق عزيز - " إنه يتّصف بغرائز القاتل كلها " - ولكن حين ترينه يتقدّم منك وهو يشهر سكيناً في وجهك، فهذا أمر آخر. فأنت بصورة ما لست مستعدة أبداً لمثل ذلك الموقف، مهما بلغ حظك من الذكاء. وفي أحسن الأحوال قد ترين أنه يمكن أن يفعل ذلك مع شخص آخر - ولكن ليس معك أبداً ... أوه، يا إلهي، لا! إنّ ما أشعر به الآن هو أن عليّ أن أكون مستعداً لتقبُّل أي شيء من أولئك الأشدّ بُعداً عن مجال شكّي. ولا أقصد بقولي أنّ على المرء أن يكون قلقاً، لا، ليس ذلك ... بل يجب أن يُصابَ بالدهشة، فقط. والدهشة الوحيدة يجب أن تكون من أنك ما زلتِ قادرة على أن تُصابي بالدهشة. هذا هو. هذا مكر، لا تعجبي! أوه نعم، أستطيع أن أنسجه عندما أنشط... قبل قليل ذكرت كلمة، حاخام. هل خطر ببالك مرة أني قد أصلح حاخاماً جيداً؟ أو بابا، أو ذا مركز مرموق، أو دالاي لاما؟ إذا كان في مقدورك أن تكوني دودة فيمكنك أن تكوني إلهاً أيضاً "

تواصل الحديث هكذا على مدى ساعات عدة، لم تقطعه إلا عودة آرثر ريموند. ومكثت بعدها فترة لا بأس بها، ذلك لكي أخفّف أي شكوكٍ يمكن أن تكون قد انتابته، ومن ثم لجأتُ إلى غرفتي. وقرابة الفجر عادت مونا، في كامل يقظتها، وأكثر جمالاً من أي وقت، وبشرتها تتوهّج كالكالسيوم. ولم تكد تنصت إلى تبريراتي بشأن الليلة التي انصرمت؛ كانت منتشية ومفتونة بنفسها. لقد حدثت أمور كثيرة منذ ذلك الحين - لا تدري من أين تبدأ. فأولاً وقبل أي شيء وَعَدوها بإعطائها الدور الرئيسي الذي يخصُّ ممثلة أخرى في عرضهم التالي. أقصد أنّ المخرج هو الذي وَعَدَها - لا أحد غيره يعرف أي شيء عن

twitter @baghdad_library

الأمر حتى الآن. المخرج مدلَّه بحبها. خلال الأسابيع الأخيرة كان يدسُّ لها رسائل الحب داخل مغلفات روايتها. والممثل الرئيسي أيضاً كان يعشقها - بجنون. وهو الذي كان يقوم بتدريبها طوال الوقت. كان يعلِّمها كيف تتنفَّس، كيف تسترخي، وكيف تقف، وكيف تمشي، وكيف تستخدم صوتها. كان شيئاً رائعاً. وهي أصبحت شخصاً جديداً، يملك قدرات مجهولة. كانت تؤمن في نفسها، إيماناً بلا حدود. قريباً سيركع العالم عند قدميها. سوف تجتاح نيويورك، وستقوم بجولات في البلد، وقد تسافر إلى الخارج ... مَنْ يدري ما يخبئه المستقبل؟ ومع ذلك، كانت أيضاً تشعر بشيء من الخوف من الأمر كله. أرادت مني أن أساعدها؛ وذلك بالإصغاء إليها وهي تقرأ حوارَ دورها الجديد. هناك الكثير من الأشياء لا تعرفها - ولا تريد أن تفضح جهلها أمام عشاقها المفتونين. قد تقوم بزيارة ذلك الأحفور العتيق في فندق ريتز-كالالتون، وتدفعه إلى أن يبتاع لها ثوباً جديداً. كانت بحاجة إلى قبعات، وأحذية، وأثواب، وبلوزات، وقفازات، وجوارب ... أشياء كثيرة، كثيرة جداً، بات مُهِمّاً الآن أن ألقي نظرةً على الدور. وكانت ستصفِّف شعرها بشكل مختلف أيضاً. وكان عليَّ أن أرافقها إلى الصالة وأراقب المشية والحركة الجديدتين اللتين اكتسبتهما. ألم ألاحظ التغيُّر الذي طرأ على صوتها؟ حسن، سوف ألاحظه قريباً جداً. سوف يُعاد تكوينها بصورة كاملة - وسيزداد حبي لها. حينئذ ستصبح مائة امرأة مختلفة بالنسبة إليّ. وفجأة تذكَّرت متأنِّقاً سابقاً كانت قد نسيَتْ أمره، موظفاً في فندق إمبريال. سوف يشتري لها كل ما تحتاج إليه - ودون أي مناقشة. نعم، يجب أن تتصل به هاتفياً في الصباح. ويمكنني أن أقابلها على مائدة

العشاء، وهي بحُلّتها الجديدة. ولا تظن أني سأغار، أليس كذلك؟ إنَّ الموظف شاب، لكنه أحمق، ساذج ومغفَّل مثالي. والسبب الوحيد الذي يدفعه إلى ادِّخار ماله هو أمله في أن تنفقه. وإلا فلا حاجة به إليه - إنه أشد حماقة من أن يعرف ماذا يفعل به. ولو يُتاح له أن يمسك يدها خِلسة فسيكون ممتنّاً. قد تمنحه قبلةً ذات يوم - حين تحتاج إلى خدمة غير عادية.

وتواصل كلامها بلا نهاية ... عن نوع القفازات الذي تحب، وطريقة استخدام صوتها، عن مشية الهنود، وقيمة تمارين اليوغا، وكيفية تدريب الذاكرة، والعطر الذي يناسب مزاجها، والمعتقدات الخرافية عند أهل المسرح، وكرمهم، ومكائدهم، وعلاقاتهم العاطفية، وكبرئهم، وغرورهم، وكيف تشعر وهي تتدرَّب في مسرحٍ خالٍ من الناس، والنكات والمزاح الذي يسري في الأروقة، و موقف عمال المسرح، والشذا الخاص لغُرَف تغيير الملابس. ثم الغيرة! كل واحد يغار من الآخر. والحمَّى، والهياج، والارتباك، والعظمة. عالم داخل عالم. ويثملُ المرء، ينتشي، يهلوس.

والنقاشات! إنَّ شيئاً تافهاً يمكنُ أن يثيرَ جدلاً صاخباً، ينتهي أحياناً بشجارٍ، بمباراةٍ في شدّ الشعر. بعضهم يبدو وكأنَّ الشيطانَ نفسه يتلبَّسهم، خاصة النساء. لم يكن هناك غير امرأة محتشمة واحدة، وكانت صغيرة جداً في السن وقليلة الخبرة. أما الأخريات فكنّ تشكيلة من المضطربات العقول، والحقودات، والطفيليات. كنَّ يشتمن كرجالِ الشرطة. كانت فتيات صالة الرقص بالمقارنة بهن ملائكة.

فترة صمت طويلة.

ثم، ودون مقدمات، سألَتْني عن موعد جلسة الطلاق.

twitter @baghdad_library

قلت، وقد دُهِشتُ للتحوّل المفاجئ في منحى تفكيرها، " هذا الأسبوع "

قالت " سوف نتزوج فوراً "

أجبت " طبعاً "

لم تعجبها الطريقة التي قلتُ بها "طبعاً". قالت " لستَ مضطراً إلى الزواج مني، إذا لم تكن تريد ذلك "

قلت " لكني أريد فعلاً. وبعد ذلك نغادر هذا المكان ... سنجد مكاناً خاصاً بنا "

هتفت " أأنت جادّ؟ أنا سعيدة جداً. كنت في انتظار أن تقول لي هذا. أريد أن أبدأ حياةً جديدة معك. فلننطلق بعيداً عن هؤلاء القوم! وأريد منك أن تترك ذاك العمل الشنيع. سوف أجد مكاناً تستطيع فيه أن تمارس الكتابة. لن تحتاج إلى أن تكسب لقمة عيشك. قريباً سأكسب الكثير من النقود، وسوف تنال كل ما تريد. سوف أجلب لك كل الكتب التي تريد أن تقرأها ... وقد تؤلّف مسرحية - وأمثِّل أنا فيها! ألن يكون هذا رائعاً؟ "

تساءلت ما الذي كان يمكن لريبيكا أن تقوله عن هذا الكلام، فيما لو سمعته. هل كانت ستصغي فقط إلى الممثلة، أم أنها كانت ستستبين وجود بذرة كيانٍ جديد تعبِّر عن نفسها؟ لعلَّ هذه السمة الغامضة في شخصية مونا لا تكمن في الإبهام بل في الإنبات. وصحيح تماماً أنَّ الخطوط الرئيسية لشخصياتها لم تحدَّد بوضوح تام لكن ذلك لم يكن يبرِّر اتهامها بالزيف. لقد كانت مُحاكية، حربائيّة[١٠٩]، وليست ظاهرية،

---

١٠٩ - حربائيّة : نسبة إلى الحرباء - متبدّلة ، متقلّبة ، متلوّنة . . . - المترجم

بل داخلية. ظاهرياً، كل شيء فيها كان واضحاً ومحدَّداً؛ تترك تأثيرها عليك فوراً. وداخلياً، كانت أشبه بعمودٍ من الدخان؛ يكفي أن تمارس ضغطاً خفيفاً وتتغيَّر هيئة شخصيتها فوراً. كانت حسَّاسة للضغوط، ليس لضغطِ إرادة الآخرين بل لضغط رغباتهم عليها. والدور المسرحي بالنسبة إليها لم يكن شيئاً تتلبَّسه وتخلعه - بل كان أسلوبها في مواجهة الواقع. كان ما تفكر فيه هو ما تؤمن به؛ وما تؤمن به كان واقعياً؛ كانت تطبِّق ما تراه واقعياً. لا شيء كان غير واقعي بالنسبة إليها، ما عدا ما لا تفكِّر فيه. ولكن حالما يبدأ انتباهها بالعمل، ولا يهم كم يكون هائلاً أو ضخماً أو لا يصدَّق، يصبح الشيء واقعياً. في داخلها لم تكن الحدود تقفل. والناس الذين اعتقدوا أنها تتمتَّع بإرادة قوية كانوا مخطئين تماماً. كانت لديها إرادة، نعم، لكنها ليست إرادة تجرفها مباشرة إلى أوضاع جديدة ومذهلة - بل كانت تتمثَّل في استعدادها، ويقظتها الحاضرَين دائماً لتحقُّق أفكارها الخاصة. كان في إمكانها أن تتغيَّر بسرعة مدمِّرة من دور إلى دور؛ كانت تتغيَّر أمام عينيك بتلك الخِفَّة المذهلة، المراوغة الجديرة بنجمٍ هزلي يجسِّد أنماطاً متنوعة من البشر. وكانت تفعله طوال حياتها دون وعي منها. كان المسرح حينئذ يعلِّمها كيف تقوم به عمداً. كانوا يصنعون منها ممثلة مسرحية فقط بالطريقة التي يكشفون بها لها تخوم الفن؛ ويبيِّنون الحدود التي تحيط بالخلق. وكان في إمكانهم أن يجعلوا منها ممثلة فاشلة فقط بإعطائها مطلق حرية التصرُّف.

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن عشر

حضرتُ إلى قاعة المحكمة في يوم الجلسة وأنا في مزاجٍ مشرق ومتشامخ. كان كل شيء متَّفَقٌ عليه مسبقاً. كل ما كان عليَّ أن أفعله هو أن أرفع يدي، وأتلو قَسَماً سخيفاً، وأعترف بذنبي وأتقبَّلُ العقوبة. بدا القاضي أشبه بفزَّاعة مزوَّدة بمنظار مكبِّر مستدير العدستين؛ جناحاها يرفرفان بكآبة وسط السكون المهيمن على القاعة. بدا منزعجاً قليلاً من مظهري الراضي والهادئ؛ لكن ذلك لم يدعم وهم أهميته المعدومة تماماً. لم أكن أجد فرقاً بينه وبين الدرابزين النحاسي، أو بينه وبين المبصقة. الدرابزين النحاسي، والكتاب المقدس، والمبصقة، والعلم الأميركي، والنشافة التي على طاولة مكتبه، والسفاحون بزيّهم الرسمي الذين يحافظون على النظام واللياقة، والمعرفة المدسوسة داخل تضاعيف خلايا مخّه، والكتب العفنة البالية في غرفة مكتبه، والفلسفة التي تبطِّن كامل بنية القانون، والنظارة التي يضعها، وشخصه وشخصيته، هذه المجموعة كلها كانت تمثِّل تعاوناً عبَثَياً باسم آلة عمياء لم تكن تعني لي أدنى شيء. كل ما أردته هو أن يكون لي مطلق الحرية في أن أعرِّض نفسي للاعتقال مرة أخرى.

كان كل شيء يسير بانتظام، وكل شيء يلغي الشيء الآخر، وأخيراً طبعاً يسحقك القانون وكأنك بقَّة سمينة، ريّانة، وفجأة أدركت أنه كان

يسألني إن كنت أرغب في أن أدفع مبلغ كذا وكذا كنفقةٍ بشكلٍ منتظم وحتى آخر أيام حياتي.

أستفهمُ منه "ماذا قلت؟". لقد دَفَعَتْهُ إمكانية أن يواجه أخيراً بعض المعارضة إلى الإشراق استحساناً. وأخذ يكرُّ بربرة حول الموافقة الرصينة على دفع مبلغٍ ما.

قلت مشدِّداً " إنني لا أوافق على هذا. لقد صمَّمت على دفع " – وهنا ذكرت مبلغاً يعادل ضعف الرقم الذي ذكره.

هنا جاء دوره ليقول " ماذا قلت؟ "

كررت ما قلتُ. نظر إليَّ وكأني فقدت صوابي، ثم، وبسرعة، وكأنَّه ينصب لي شَرَكاً، قال بلهجة لاذعة " عظيم جداً! سنجعله كما تريد. أنت مَنْ سيدفع "

أجبت " إنَّ هذا مصدر سروري وامتيازي "

" سيدي! "

كرَّرت ما قلت. فرماني بنظرةٍ شالَّة، وأومأ للمحامي كي يقترب منه، ومالَ إلى الأمام وهمسَ بشيء في أذنه. فهمتُ بوضوحٍ أنه كان يسأل المحامي إن كنت متمالكاً لقواي العقلية. وكان جلياً أنه أكَّدَ له أني كذلك. فرفع نظره، وثبَّتَني بتحديقٍ مروِّع، وقال: " أيها الشاب، أتعرف ما هي عقوبة الامتناع عن تنفيذ التزاماتك؟ "

قلت " كلا يا سيدي، ولا يهمني أن أعرف. هل انتهيت الآن؟ يجب أن أعود إلى مركز عملي "

كان الجو جميلاً في الخارج. انطلقتُ أمشي بلا هدف. وسرعان ما وصلتُ إلى جسرِ بروكلن. سرتُ على الجسر، ولكن بعد مضيِّ بضع

twitter @baghdad_library

دقائق فَتَرَتْ همَّتي، فاستدرتُ على أعقابي وغصت في القطار النفقي. لم تكن لدي نيّة في العودة إلى المكتب؛ لقد مُنِحتُ يوم إجازة وصممت على أن أفيد منه.

في ساحة تايمز ترجَّلتُ ومشيتُ غريزياً باتجاه المطعم الإيطالي-الفرنسي بالقرب من الجادّة الثالثة. كان المكان بارداً ومظلماً في خلفية مخزن البقالة حيث يقدِّمون الطعام. وفي وقت الغداء لم يكن يوجد الكثير من الزبائن. وسرعان ما بقيت وحدي مع فتاة أيرلندية ضخمة، منبطحة، كانت قد وصلت لتوها إلى حالة السُكر التام. انخرطتنا في حديثٍ غريب حول الكنيسة الكاثوليكية كانت خلاله تردِّد كاللازمة: " لا اعتراضَ لي على البابا، لكني أرفض أن أقبِّل طيزه "

أخيراً دفعَتْ كرسيها إلى الخلف، وجاهدَتْ لتقف على قدميها، وحاولت أن تمشي باتجاه المرحاض. (كان المرحاض يستخدمه الرجال والنساء على السواء وكان موجوداً في الرواق) ورأيتُ أنها لن تتمكن من الوصول وحدها. فنهضت واقفاً وأمسكت بذراعيها. كانت في أسوأ حالات السُكر وتترنح كسفينة تتقاذفها العاصفة.

لدى وصولنا إلى باب المرحاض ناشدتني كي أساعدها لتجلس على المقعد. أوقفتها عند المقعد بحيث لا يتبقّى أمامها غير أن تجلس. رفعت تنورتها وحاولت أن تنزل سروالها، لكن الجهد المطلوب كان فوق طاقتها. التمست مني وهي ترسم ابتسامة ناعسة " أنزله نيابة عني، من فضلك"، فلبَّيتُ طلبها، وربتُّ بحبٍ على كسّها، وأجلستها على المقعد. ثم استدرت لأخرج.

انتحبت قائلة " لا تذهب! "، وهي تتشبَّث بيدي، ومن ثم بدأتْ تُفرغ صهريجها. مكثتُ ريثما أنهت عملها رقم واحد ورقم اثنين. مع

القنابل النتنة وكل شيء. وخلال العملية كلها كانت تردِّد مرة بعد مرة: " كلا، لن أقبِّل طيز البابا! ". وبدت عاجزة بلا حول ولا قوة حتى ظننت أني قد اضطرٌ إلى أن أمسح لها طيزها. إلا أنها نجحت، جراء سنوات طويلة من التدرُّب، في أن تفعل ذلك بنفسها، على الرغم من أن ذلك استغرق منها وقتاً طويلاً بشكل لا يصدَّق. وكدت أتقيأ حين طلبت مني أخيراً أن أرفعها. وبينما كنت أرفع لها سروالها الطويل لم أستطع أن أتفادى أن تلمس يدي شجيرة وردها. كانت مغرية، لكن الرائحة النتنة كانت من القوة بحيث أعبث بتلك الفكرة.

كنت أساعدها في الخروج من المرحاض حين رأتنا الـ patronne (صاحبة المحل) وهزَّت رأسها بحزن، وتساءلتُ إن كانت قد أدركت الشهامة التي تطلَّبَها مني أداء ذلك العمل. على أي حال، عدنا إلى المائدة، وطلبنا قهوة سادة، ثم جلسنا نتحدث فترة أخرى. ومع استعادتها لوعيها أخذت تصبح ممتنَّة بشكل يثير الاشمئزاز. قالت إذا أوصلتها إلى منزلها أستطيع أن أنالها - أرادت أن تعوضني. وقالت " سأستحمُّ وأبدِّل ملابسي. أشعر أني قذرة. لقد كان عملاً قذراً حقاً، فليساعدني الرب"

قلت لها إني سأوصلها إلى المنزل بسيارة أجرة، لكني لن أستطيع أن أبقى معها.

قالت " ها أنت تصبح مرهفاً. ما الأمر، أتراني لا أصلح لك؟ ليس ذنبي أني اضطررت إلى اللجوء إلى المرحاض، أليس كذلك؟ أنت أيضاً تذهب إلى المرحاض، ألا تذهب؟ انتظر حتى أستحمّ - سوف ترى كيف أبدو. اسمع، هات يدك! ". أعطيتُها يدي فدسَّتْها تحت تنورتها،

twitter @baghdad_library

ووضعتها فوق كسّها الكثّ الشعر مباشرة. قالت تحثّني " تحسّسه جيداً، ألا يعجبك؟ حسن، كلُّه لك. سأنظِّفه وأعطِّره لأجلك. ويمكنك أن تنال منه قدر ما تشاء. مضاجعتي ليست سيئة. وأنا فوق ذلك لست عاهرة، في الحقيقة! لقد سكرت، هذا هو الموضوع. كنت أعرف رجلاً ثم تخلّى عني، حزنت كثيراً وكدت أجَنُّ وسوف يعود زاحفاً قريباً، لا تقلق. يا إلهي، كم أحببته. قلت له لن أقبِّل طيز البابا - فثار غضبه. أنا كاثوليكية صالحة، مثله، لكني لا أعتبر البابا مثل المسيح العليّ ".

استمرَّت في حوارها الإفرادي، تقفز من موضوع إلى آخر كمعزاة. خمَّنتُ أنها تعمل في مقسم هاتف في أحد الفنادق الكبرى. ولم تكن إنساناً سيئاً، إذا ما نحّينا كونها أيرلندية. وشعرت أنها يمكن أن تكون جذّابة تماماً، حالما تنقشع غمامة السُكر عنها. كانت لها عينان شديدتا الزُرقَة وشعر فاحم، وابتسامة ماكرة وخبيثة. قد أقوم بمساعدتها لأخذ حمَّامها. ويمكنني دائماً أن أهرب منها إذا ما ساء الوضع. وما أثار قلقي أنه كان عليّ أن أقابل مونا لنتناول طعام العشاء. وكان يتوجب عليّ أن أنتظرها في الغرفة الوردية في فندق ماكالباين.

استقلّينا سيارة أجرة وانطلقنا إلى أطراف البلد. وفي السيارة أراحت رأسها على كتفي. قالت، بصوتٍ ناعس " أنت فائق الطيبة معي. لا أعلم مَنْ أنت، لكنك طيب معي. يا إلهي، أتمنى لو آخذ غفوة أولاً. هل تنتظرني؟ "

قلت " طبعاً. وقد آخذ أنا أيضاً غفوة "

كانت الشقة أليفة ومريحة، أفضل مما توقعت أن تكون. وحالما فتحت الباب رمت بحذائها، وساعدتُها في خلع ملابسها.

حين وقـفَتْ أمـام المرآة، وهي عـارية إلا من سروالهـا الداخلي، كـان لابد لي أن أعـترف أنَّ لهـا قـواماً جمـيـلاً. كـان ثدياها أبـيـضين وممتلئين، مستديرين وصلبين، وبحلمتين مشرقتين بلون الفريز.

قلت، مشيراً إلى سروالها، " لِمَ لا تخلعي هذا أيضاً؟ "

قالت، وقد غلبها الحياء فجأة، وتورّدت وجنتاها قليلاً، " لا، ليس الآن "

قلت " لقد خلعتُهُ لكِ من قبل، ما الذي اختلف الآن؟ "، ووضعتُ يدي على خصرها وكأنما أنوي أن أنزله. فتوسلت إليّ " لا تفعل، أرجوك! انتظر حتى آخذ حمّامي ". وسكتت برهة ثم أضافت " إنني فقط أنهي دورتي الشهرية "

هذا وضَعَ حداً لكل شيء. ومن جديد شاهدتُ الطفح الجلدي المُعدي. وأصابني الهلع.

قلت " حسن، خذي حمّامك! سأتمدَّد هنا ريثما تنتهين "

قالت، وشفتاها تتلويان وترسمان تلك الابتسامة الخبيثة، " ألن تفرك لي ظهري؟ "

قلت " طبعاً سأفعل ... حتماً "، وقدتها إلى غرفة الحمّام، أكاد أدفعها دفعاً إلى الأمام من فرط عجلتي للتخلُّص منها.

حين خرجَتْ من ملابسها الداخلية لاحظتُ وجودَ لطخةِ دمٍ داكنة. قلت في نفسي، لا والله لن أفعلها. لا يا سيدي، ليس وأنا في كامل قواي العقلية. لن أقبِّل طيز البابا ... أبداً!

ولكن بينما هي متمدِّدة تنظِّف نفسها بالصابون، شعرت أني أضعف. فتناولت الصابون من يدها وفركت دغلتها نيابة عنها. وتلوَّت

twitter @baghdad_library

من الاستمتاع بينما أصابعي المغطاة بالصابون تتغلغل في الشعر.

قالت. وهي تقوِّس تجويف حوضها وتنشر كسّها وتفتحه بيديها الاثنتين، " أعتقد أنه أصبح نظيفاً. انظر، أترى أي شيء؟ "

أدخلت إصبعي الأوسط المشبَّع بالصابون ليدي اليمنى في كسّها ودلَّكته برفق. تمدَّدت على ظهرها ويداها مضمومتان خلف رأسها وهي تدوِّم حوضها ببطء. ربما لن أحتاج إلى أخذ غفوة "

مع تقدُّم العمل كانت تزداد حركتها عنفاً. وفجأة فكَّت يديها وحلَّت أزرار فتحة بنطالي بأصابع مبللة، وأخرجت أيري ثم انقضَّت عليه بفمها. أخذت تعالجه كمحترفة، تضايقه، تزعجه، تزمُّ شفتيها، ثم تخنق نفسها به. وقذفتُ داخل فمها، فابتلعته وكأنه الرحيق وطعام الآلهة.

ثم غاصت بظهرها داخل حوض الاستحمام، وتنهدت بعمق وأغمضت عينيها.

قلت في نفسي، الآن حان وقت الفرار، وتظاهرت بأني ذاهب لأبحث عن سيجارة وقبضت على قبعتي وفررت. وبينما كنت أهرع هابطاً الدرج وضعت إصبعي على أنفي وشممته. لم يكن عبقه سيئاً. كان يفوح برائحة الصابون أكثر من أي شيء آخر.

* * *

بعد ذلك ببضع ليالٍ أقيم عرضٌ خاص في المسرح. وكانت مونا قد توسَّلت إليّ كي لا أحضر العرض، قائلة إن أعصابها سوف تتوتَّر إذا عرفت أني أشاهدها. وتضايقت من قولها ذاك، لكني وافقت أخيراً على عدم الحضور ,وقررنا أن أقابلها بعد ذلك عند مدخل الخشبة. وحدَّدت الوقت بالضبط.

كنت هناك قبل حلول الموعد، ليس عند باب خشبة المسرح بل عند باب المسرح نفسه. استعرضت الإعلانات مراراً، مبتهجاً لرؤية اسمها بأحرف كبيرة وواضحة. وحين بدأ الجمهور بالمغادرة انتقلت إلى الطرف الآخر من الشارع وراقبت. لم أكن أعرف ماذا أراقب - كنت فقط أقف ثابتاً في مكاني. كان المكان مظلماً أمام دار المسرح وسيارات الأجرة كلها مشغولة.

فجأة رأيت أحدهم يندفع بتهوُّر إلى حافة الرصيف حيث كان رجلٌ ضئيل الحجم وهشّ البنية يقف بانتظار سيارة أجرة. إنها مونا. رأيتها تقبِّل الرجل ومن ثم، بعد أن انطلقت السيارة، رأيتها تلوِّح له مودِّعة. ثم تراخت يدها إلى جنبها وبقيت واقفة في مكانها بضع دقائق وكأنها مستغرقة في التفكير. وأخيراً اندفعت عائدة إلى المسرح من مدخله الرئيسي.

حين التقينا عند باب خشبة المسرح بعد ذلك ببضع دقائق بدت مجهدة. وأخبرتُها بما كنت قد شاهدته قبل ذلك بقليل.

قالت، وهي تقبض على يدي، " إذن فقد رأيته؟ "

" نعم، ولكن مَنْ يكون؟ "

" وَلَوْ، إنه والدي. لقد غادر فراش المرض ليحضر. لن يعيش طويلاً"

كانت الدموع تترقرق في عينيها وهي تتكلم. " قال إنه سيموت وهو مرتاح الآن ". قالت هذا وسكتت فجأة ثم دفنت رأسها بين يديها وطفقت تجهش بالبكاء. قالت بصوتٍ منكسر " كان ينبغي أن أصحبه إلى المنزل "

twitter @baghdad_library

قلت " ولكن لماذا لم تدعيني أقابله؟ كان يمكن أن نصحبه معاً إلى المنزل"

رفضَتْ أن تتحدث عن الأمر. أرادت أن تذهب إلى المنزل - أن تذهب وحدها إلى المنزل وتبكي. وماذا يمكنني أن أفعل؟ أستطيع فقط أن أوافق - بدا أنَّ ذلك أشدّ ما يمكنني أن أفعله كياسة.

أودَعْتُها سيارة أجرة وراقبتها وهي تغيب عن نظري. وشعرتُ بتأثُّر عميق. ثم انطلقت، وقد صمَّمت على أن أدفن نفسي في الحشد. وعند منعطف شارع برودواى سمعتُ امرأةً تنادي اسمي. اقتربَتْ مني راكضة.

قالت " لقد تجاوزتَني دون أن تراني. ماذا دهاك؟ تبدو مبتئساً "، ومدَّت لي كلتا يديها لأضمّهما.

إنها إرما، زوجة آرثر ريموند السابقة.

قالت " غريب، لقد رأيت مونا قبل بضع لحظات. ترجَّلت من سيارة أجرة وراحت تجري في الشارع. بدت شاردة. هممت أن أتكلَّم معها، لكنها انطلقت بسرعة كبيرة. وأعتقد أنها هي أيضاً لم ترني ... ألم تعودا تعيشان معاً؟ حسبتُ أنكم جميعاً تقطنون في منزل آرثر "

" أين شاهدتِها بالضبط؟ "، وتساءلتُ إن لم تكن مخطئة.

" هنا، عند منعطف الشارع "

" هل أنت واثقة تماماً؟ "

ابتسمت ابتسامة غريبة، " وهل تظنني أخطئها؟ "

غمغمت، لنفسي في الغالب، " لا أدري - يبدو ذلك مستحيلاً. ماذا كانت ترتدي؟ "

وَصَفَتْها بدقة. وعندما قالت " قلنسوة صغيرة من المخمل "، عرفت أنه لا يمكن أن تكون امرأة غيرها.

" تشاجرتما ؟ "

" لا-ا-ا، لم يكن شجاراً ... "

قالت إرما " ينبغي أن تكونَ قد عرفتَ مونا الآن "، وحاولتْ بذلك أن تُنهي الموضوع. وكانت قد أمسكت بذراعي وأخذت تقودني. فلعلني لا أسيطر تماماً على ملكاتي.

قالت " إن فرحي لا حدود له برؤيتك. إنني ودولوريس لا نكفُّ عن التحدُّث عنك ... ألا ترغب في أن تصعد وتمكث قليلاً؟ سوف تسعد دولوريس برؤياك. لدينا شقة نعيش فيها معاً. إنها قريبة من هنا. تعال معي نصعد ... أحب أن أتحدث معك قليلاً. لم أرك منذ ما يزيد على السنة. كنتَ قد انفصلتَ للتو عن زوجتك، أتذكر؟ وها أنت الآن تعيش مع آرثر - هذا غريب. كيف حاله؟ هل ظروفه جيدة؟ سمعتُ أنَّ لديه زوجة جميلة "

لم يتطلَّب إقناعي بالصعود معها وتناول مشروباً مع جلسة هادئة الكثير من التملُّق. بدت إرما تبقبق من شدة الفرح. لطالما كانت ودوداً معي، ولكن ليس بهذه الفورة. وتساءلت عمّا ألمَّ بها.

حين صعدنا إلى الطابق العلوي كان المكان يعمُّه الظلام. قالت إرما" هذا غريب، لقد قالت إنها ستعود باكراً هذا المساء. أوه، لا بأس، ستعود بعد بضع دقائق، بدون شك. اخلع ملابسك ... اجلس ... سأحضر لك مشروباً حالاً "

جلست وأنا أشعر بشيء من الذهول. فقبل سنين، في أول عهدي بالتعرُّف إلى آرثر ريموند، كنت مولعاً بإرما. وبعدما انفصلا وَقَعَتْ في حب صديقي أومارا، الذي جعل حياتها بائسة مثل آرثر. كان يشتكي

twitter @baghdad_library

من برودتها - لم تكن جامدة، بل أنانية. حينئذ لم أولِها الكثيرَ من انتباهي لأني كنتُ مهتماً بدولوريس. وفي مناسبة واحدة فقط حدث بيننا شيءٌ يقتربُ من الحميمية. وكانت مصادفةً بحتة ولم يستغلها أياً منا. كنا قد التقينا في الشارع أمام دار سينما رخيصة بعد ظهر أحد الأيام وبعد أن تبادلنا بضع كلمات، وكلانا كان فاتر الهِمّة وضجراً، دخلنا معنا. كان الفيلم مملاً إلى أقصى حد، والمكان شبه خالٍ. وكنا قد خلعنا معطفينا ووضعناهما على حجرينا ومن ثم، جراء الضجر أكثر منه الحاجة إلى إجراء بعض الاتصال الإنساني، تلاقت يدانا وبقينا هكذا فترة من الوقت ونحن نحدِّق بنظرة جوفاء إلى الشاشة. وبعد قليل مددتُ ذراعي لتطوِّقها وقرّبتها مني. وما لبثت أن تركت يدي ووضعت يدها على أيري. لم أفعل أي شيء، يحدوني الفضول لأعرف كيف ستستغل الموقف. وتذكّرتُ قولَ أومارا أنها باردة ولا مبالية فجلست لا أبدي حراكاً وانتظرت. كان لدي شُبه انتصاب حين لَمَسَتْني وتركته يكتمل تحت تأثير يدها التي استقرت بسكون. وشيئاً فشيئاً شعرتُ بضغطِ أصابعها، ثم بقبضٍ شديد، ثم بعصرٍ ومداعبة، كل ذلك بهدوء، ورقة، وكأنها كانت نائمة وتقوم به بلا وعي. وحين بدأ يهتز وينتفض عملت ببطء وتأنٍ على فكّ أزرار البنطلون، ومدَّت يدها إلى الداخل وقبضت على خصيتيَّ. كل ذلك وأنا لا آتي بأي حركة لألمسها. كانت لدي رغبة منحرفة في أن أجعلها تفعل كل شيء بنفسها. تذكَّرتُ شكل أصابعها ولَمْسَتَها؛ كانت حسَّاسة وخبيرة. وكانت قد استكانت كقطّة وكفَّت عن النظر إلى الشاشة. أيري كان قد أصبح في الخارج طبعاً، لكنه ما يزال مستتراً تحت المعطف. وراقَبْتُها وهي تزيح المعطف وتركّز تحديقها على

أيري. هنا بدأت تدلّكَه بجراءة، وبحزمٍ مطّرد، وبسرعة مطّردة. وأخيراً قذفتُ في يدها. غمغمتْ وهي تمدُّ يدها إلى حقيبتها لتخرج منها منديلاً، "آسفة ". سمحتُ لها أن تمسحه نيابة عني بمنديلها الحريري، ولم تخرج مني كلمة واحدة، ولم أحرِّك ساكناً لأعانقها. لا شيء. وكأني كنت أراقبها وهي تفعل ذلك لشخصٍ آخر. وبعد أن ضمّختْ نفسها بالبودرة، وأعادت كل شيء إلى حقيبتها، قرّبتها مني وألصقت فمي على فمها. ثم دفعت معطفها عن حجرها، ورفعتُ لها ساقيها وعلّقتهما فوق حجري. لم تكن ترتدي أي شيء تحت تنورتها، وكانت مبللة. وعاملتُها كما عاملَتْني؛ دلّكته لها بلا رحمة تقريباً، وإلى أن قَذفَتْ. وبعد أن غادرنا دار السينما شربنا القهوة وتناولنا بعض المعجنات معاً في المخبز، وبعد تبادل حديث غير ذي أهمية افترقنا وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

قالت " عذراً لأني تأخرت عليك. شعرت برغبة في ارتداء شيء مريح أكثر.

أفقْتُ من أحلامٍ يقظتي لأنظر إلى مخلوقٍ جميلٍ يقدِّم لي كأساً طويلاً. كانت قد تحوّلت إلى حسناء يابانيّة. ولم نكد نجلس على الديوان حتى قفزت واقفة وذهبت إلى خزانة الملابس. سمعتُها تنقل الحقائب ثم ندت عنها صيحة دهشة قصيرة. ثم تنهيدة شعور بالإحباط، وكأنها تناديني بصوتٍ أبكم.

قفزت وهرعت إلى الخزانة فوجدتُها واقفة فوق حقيبة تتمايل، وتحاول بلوغ شيء موضوع فوق الرف العلوي. أمسكتُ بساقيها برهة لأثبّتها، وحالما استدارت لتهبط زلقت يديَّ داخل رداء الكيمونو الحريري، فسقطَتْ بين ذراعيّ ويدي مثبّتة بأمان بين ساقيها. وقفنا هناك

twitter @baghdad_library

في وضعِ عناق ملتهب، مسربلٌ بأهدابها الأنثوية. ثم فُتِحَ الباب وظهرت منه دولوريس. ذهلت حين وجدتنا مدفونين داخل الخزانة.

هتفت مع شهقة صغيرة " يا إلهي! لم أكن لأتخيَّل أني سأجدك أنت هنا! "

تركت إرما وعانقت دولوريس التي لم تعترض إلا قليلاً. عندئذ بدت أجمل من ذي قبل.

تملَّصَت مني وأطلقت ضحكتها الصغيرة المعتادة التي كانت دائماً مشوبة بالسخرية. قالت، وهي تمسك بيدي، " لسنا مضطرين للبقاء داخل الخزانة، أليس كذلك؟ ". في تلك الأثناء كانت إرما قد أحاطتني بذراعيها.

قلت " ولم لا نبقى هنا؟ إنه مكان دافئ ويشبه الرحم ". كنت وأنا أتكلَّم أعصر طيز إرما.

قالت دولوريس " يا إلهي، لم تتغيَّر البتة؛ إنك لا تشبع من هذا أبداً. حسبت أنك على علاقة حب مجنون مع ... مع ... نسيت اسمها "

" مونا "

" نعم، مونا ... كيف حالها؟ أما زالت جدّية؟ حسبت أنك لن تنظر إلى أي امرأة أخرى غيرها؟ "

قلت " بالضبط. هذه حادثة طارئة، كما ترين "

قالت، كاشفة أكثر فأكثر عن غيرتها المكظومة، " أعرف. أعرف حوادثك الطارئة هذه. دائماً متيقِّظ، أليس كذلك؟ "

انتقلنا إلى غرفة الجلوس. وهناك خلعت دولوريس ملابسها - بحماسٍ شديد في رأيي، وكأنها تستعدُّ لخوض معركة.

سألت إرما " هل أصبُّ لك كأساً؟ "

قالت دولوريس " نعم، وليكن مشروباً جيداً وقوياً. وأنا أحتاج إلى واحد ... "، ثم قالت، وقد لاحظت أني ألقي عليها نظرة غريبة، " أوه، هذا لا علاقة له بك أنت؛ إنه يخصُّ صديقك ذاك، ألريك "

" ما الأمر ألا يُحسِن معاملتك؟ "

لزمتْ الصمت، ورمتني بنظرة كئيبة، وكأنها تقول - أنت تعلم جيداً عمَّا أتكلم.

رأت إرما أن الأضواء مبهرة، فأطفأتها كلها ماعدا مصباح صغير مخصَّص للقراءة بالقرب من الديوان الآخر.

قالت دولوريس ساخرة " وكأنك كنت تعدِّين لهذا المشهد "، وفي الوقت نفسه ساد إحساس بأنَّ في صوتها إثارة سرِّية. وكنت أعرف أنَّ عليَّ أن أتعامل مع دولوريس. أما إرما فكانت، من ناحية أخرى، أشبه بقطَّة؛ تتنقَّل بنعومة، وتكاد تهرُّ. لم تكن مضطربة قط؛ كانت تستعد لأي احتمال طارئ.

قالت إرما، وكأنها عثرت على أخٍ ضاع منذ وقت طويل، " أنا سعيدة بالانفراد بك هنا". وكانت قد تمدَّدت على الديوان، القريب من الجدار. وكنت مع دولوريس جالسين عند قدميها تقريباً. ووضعت يدي، من خلف ظهر دولوريس على فخذ إرما؛ كانت تنبعث من جسدها حرارة جافة.

قالت دولوريس، مشيرة إلى مونا، " ينبغي عليها أن تراقبك عن كثب. ألا تخشى أن تفقدك؟ "

قلت، مبتسماً لها ابتسامة مستفزَّة " ربما، وربما أنا الذي أخشى أن أفقدها "

twitter @baghdad_library

" إذن فالأمر جادّ؟ "

أجبت " جادّ. لقد عثرت على المرأة التي أحتاج إليها، وأنا مصمِّم على الاحتفاظ بها "

" هل تزوَّجتها؟ "

" لا، لم يحدث بعد ... لكننا سنفعل قريباً "

" وستنجبان أولاداً وما إلى ذلك؟ "

" لا أدري ما إذا كنا سننجب أطفالاً ... لماذا تسألين، أهو أمر هام؟"

قالت دولوريس " يمكنك أن تفعل بكل ارتياح "

قالت إرما " أوه، كفاك! وكأنك تغارين. أنا لا أغار! ويسعدني أنه عثر على المرأة المناسبة ,وهو يستحقها "، وشدَّت على يديّ، لكي تخفِّف من الضغط عليَّ، ثم زلقت ببراعة يدي فوق عشّها.

لما كانت دولوريس واعية لما يحدث، لكنها تتظاهر بعدم الانتباه، نهضت وتوجَّهت إلى الحمَّام.

قالت إرما " تصرّفها غريب الأطوار. تبدو شديدة الغيرة "

قلت، وقد نالني نصيب من الحيرة، " تقصدين أنها تغار منك؟ "

" لا، ليس مني ... طبعاً ليس مني! من مونا "

قلت " غريب. حسبتُها على علاقة حب مع ألريك "

" هي كذلك، لكنها لم تنسَك. إنها ... "

أسكتُّ كلماتها بقبلة، فأحاطت عنقي بذراعيها وشدَّت نفسها إليّ، وهي تتمعَّج وتتلوّى كقطة كبيرة، وتمتمت " أنا سعيدة لأني لا أشعر هكذا؛ لا أريد أن أحبك. هكذا تعجبني أكثر"

مرة أخرى مرَّرتُ يدي تحت الكيمونو. فاستجابت بحرارة وبرغبة.

عادت دولوريس واعتذرت بفتور لأنها قاطعت اللعبة. كانت واقفة إلى جوارنا، تنظر إلينا بعينين مؤذيتين متلألئتين.

قلتُ: «هلاّ ناولتني كأسي؟».

قالت، وهي تضع الكأس على شفتيَّ، " لعلك تريد مني أنْ أهوّي لك أيضاً "

شددتُها إلى أسفل إلى جانبي، وداعبتُ ساقَها شبه المكشوفة البارزة من مبذلها. هي أيضاً كانت قد خلعت ملابسها.

سألت " أليس هناك ما أرتديه أنا أيضاً؟ "، وأنا أنقِّل بصري بينهما.

قالت إرما، وهي تقفز واقفة بخفّة " طبعاً "

قالت دولوريس، مبتسمة باستياء " أوه، كفاكِ تدليلاً له هكذا؛ هذا بالضبط ما يحبّه ... يريد أن يُثيرَ لَغَطاً حوله. وسوف يقول لنا كم هو مخلص لزوجته "

قلت موبِّخاً، وأنا أتناول الرداء الذي قدَّمته إرما إليّ. " لم تصبح زوجتي بعد "

قالت دولوريس " أوه، أحقاً؟ إذن فالوضع أسوأ "

" أسوأ، ماذا تقصدين بكلمة أسوأ؟ إنني لم أفعل أي شيء بعد، أليس كذلك؟ "

" لا، ولكنك ستجرِّب "

" تقصدين أنك تريدين مني أن أفعل. لا تكوني ضيِّقة الصدر ... ستنال فرصتك "

قالت دولوريس " لن يحدث هذا معي، أنا ذاهبة لأنام. أما أنتما الاثنان فافعلا ما تشاءان"

twitter @baghdad_library

جواباً على هذا أغلقتُ الباب وبدأتُ أنزع ملابسي. وعند عودتي وجدتُ أن دولوريس قد تمدَّدتْ على الأريكة الطويلة وإرما جالسة إلى جانبها وتضع قدماً على قدم، عارية تماماً.

قالت إرما " لا تبالِ بأي شيء تقوله، إنها مُعجَبَةٌ بك بقدرِ إعجابي... وربما أكثر. كل ما في الأمر أنها لا تحبُّ مونا "

" أحقاً؟ "، ونقَّلتُ بصري من إرما إلى دولوريس. وهذه الأخيرة كانت صامتة، لكنه صمتٌ كان يعني الجواب بالإيجاب.

أسرعتُ فأردفتُ " لا أفهم لمَ أنتِ حاقدة عليها هكذا؛ إنها لم تسبب لك أي أذى. ولا يمكن أن تكوني غيورة منها لأنك ... حسن، لأنك لم تكوني على علاقة حب معي ... آنئذ "

" آنئذ؟ ماذا تقصد؟ أنا لم أكن مرة على علاقة حب معك، شكراً لله!"

قالت إرما عابثة " لا يبدو كلامك مقنعاً كثيراً. اسمعي. إن كنتَ لم تحبيه قط فلا تُبدي الكثير من الحميَّة حول هذه النقطة "، ثم التفتَتْ إليّ وقالت بأسلوبها المرح: " لم لا تقبِّلها وتضع حداً لهذا الهراء؟ "

قلت " حسن، سأفعل "، ثم ملت على دولوريس وعانقتها. في أول الأمر أبقَتْ شفتيها محكمتيّ الإغلاق، وهي تنظر إليّ بتحدٍّ. ثم أخذت تستسلم شيئاً فشيئاً، وحين ابتعدَتْ عني أخيراً كانت تعضُّ شفتيَّ. فعلَتْ ذلك وهي تدفعني قليلاً عنها. وقالت " أخرجيه من هنا! ". رميتها بنظرة مؤنِّبة مشوبة بإحساسٍ بالشفقة وبالاشمئزاز. وعلى الفور بدا عليها الندم وعادت إلى الاستسلام، ومن جديد ملت عليها، هذه المرة برقّة، وبينما كنت أزلق لساني إلى حنجرتها وضعتُ يدي بين ساقيها. حاولت أن تبعد يدي لكن الجهد المطلوب كان فوق طاقتها.

سمعتُ إرما تقول " يا لطيف! الذروة تقترب "، ثم شدَّتني بعيداً وهي تقول " أنا أيضاً هنا، لا تنس ذلك "، وقدَّمت لي شفتيها وثدييها.

أخذ الأمر يتَّخذ شكل لعبة شدّ الحبل. قفزتُ لأصبَّ لنفسي كأساً، فبرز رداء الحمَّام كخيمة منصوبة.

قالت دولوريس، متظاهرة بالارتباك " أأنت مضطرٌ إلى أن تُرينا هذا ؟ "

قلت، وأنا أشدُّ الرداء إلى الخلف لكي يبرز بشكلٍ كامل، " لست مضطراً لكني سأفعل، ما دمتِ تطلبينه "

أشاحَتْ دولوريس بوجهها نحو الجدار، وهي تغمغم شيئاً بصوتٍ يدَّعي الهستريا عن كونه " مقزّزاً وقذراً ". من ناحية أخرى نظرت إرما إليه بودٍّ. وأخيراً مدَّت يدها إليه وعصرتْه برفق. وبينما هي واقفة تتناول الكأس الذي صببته لها فتحتُ رداءها وأقحمت أيري بين ساقيها. رحنا نشرب نحن الاثنان وأيري يدقُّ على باب الإسطبل.

قالت دولوريس بوقاحة " أنا أيضاً أريد أن أشرب ". التفتنا في وقتٍ واحد وواجهناها. كان وجهها قرمزيَّ اللون، وعيناها واسعتين وبرّاقتين، وكأنها وضعت فيهما حشيشة ستّ الحسن، وقالت، وعيناها ترتعشان وَهْما تنتقلان جيئة وذهاباً بيني وبين إرما، " يا لكما من فاسقين "

ناولتها الكأس فشربت جرعة كبيرة منه. كانت تبذل أقصى جهدها لتنالَ الانطلاق الذي كانت إرما تمارسه كراية.

هنا وصلني صوتُها متحدِّياً. قالت " لمَ لا تنهِ الأمر؟ "، وهي ترمينا بالكلمات رمياً. وأثناء تلوِّيها تعرَّت؛ كانت مدركة لتعرِّيها ولم تبذل أقل جهد لتستره.

twitter @baghdad_library

قلت " استلقي هناك "، ودفعت إرما برفق إلى الخلف نحو الديوان. أمسكت إرما بيدي وشدّتني. قالت " استلقِ أنتَ أيضاً "

رفعت الكأس إلى شفتيّ وبينما كان الشراب ينزل داخل حنجرتي انقطع التيار الكهربائي. سمعت دولوريس تقول - " لا، لا تفعلي هذا، أرجوك! ". لكن النور ظلّ مقطوعاً. وبينما أنا واقف أنهي شرب كأسي أحسست بيد إرما على أيري، تعصره بتشنُّج. حططتُ الكأس وقفزت مستلقياً بينهما. وفي الحال تقريباً انقضّتا عليّ. كانت دولوريس تقبّلني بنهم وإرما، كالقطة، جثمت وأطبقت بفمها على أيري. كان نعيماً معذِّباً استمرَّ هنيهات ومن ثم انفجر في فم إرما.

* * *

حين وصلت إلى ريفر سايد درايف كان الفجر قد أوشك أن يبزغ. لم تكن مونا قد رجعت. استلقيت في انتظار أن أسمعَ وقْعَ خُطاها. وبدأت أخشى أن تكون قد تعرَّضت لحادث - بل وأسوأ من ذلك، أن تكون ربما قد انتحرَتْ، أو على الأقل، حاولت أن تفعل ذلك. وكان ممكناً أيضاً أن تكون قد توجّهت إلى منزل والديها. ولكن إذا كان الحال كذلك فلماذا غادرت سيارة الأجرة؟ ربما لتلحق بالقطار النفقي. لكن القطار النفقي لا يذهب في ذلك الاتجاه. كان في استطاعتي طبعاً أن أتّصل هاتفياً ببيتهم، لكنني كنت أعلم أنها ستعطي تصرُّفي تفسيراً سيئاً. وتساءلت إن كانت قد اتّصلت هاتفياً أثناء الليل. فلم تزعج ريبيكا أو آرثر نفسيهما بترك رسالة لي؛ كانا دائماً ينتظران إلى أن يقابلاني.

قرابة الساعة الثامنة قرعتُ بابهما. كانا ما يزالان نائمين. وكان لابد أن أضرب بصورة أقوى قبل أن يجيبا. ومن ثم لم يزيداني علماً - فهما نفسهما تأخرا في العودة.

توجَّهتُ إلى غرفة كرونسكي وأنا في غمرة يأسي. هو أيضاً كان غارقاً في النوم. بدا أنه لا يفهم ما أرمي إليه.

أخيراً قال: " ما الأمر - مرة أخرى غابت طوال الليل؟ لا، لم يتّصل بك أحد. اخرج من هنا ... دعني وشأني! "

لم يغمض لي جفن. شعرت بالإرهاق. ثم خطرت لي فكرة مطمئنة مفادها أنها ربما اتصلت بالمكتب. وكدت أكون متأكداً من أنَّ هناك رسالة تنتظرني على طاولة مكتبي.

انصرمَ النهار كله تقريباً. في فترات نوم قصيرة. نمت على طاولة المكتب، ورأسي مدفونٌ في ذراعيّ المعقودين. ناديتُ مرات عدّة على ريبيكا لأعرف منها إن كانت قد تلقَّت أي رسالة، لكنَّ الجوابَ كان دائماً هو نفسه. وعندما حان وقت الإقفال تلكَّأت في الرحيل. وكائناً ما كان قد حدث لم أصدِّق أنها يمكن أن تدع النهار ينصرم دون أن تتّصل بي هاتفياً. كان أمراً لا يصدَّق.

انتابتني حيوية عصبية غريبة. وفجأة وجدتني في كامل يقظتي، أشَدُّ يقظة مما كان يمكن أن يحدث لو أني استرخيتُ في سريري مدة ثلاثة أيام. وفكَّرتُ في أن أنتظر مدة نصف ساعة أخرى وإذا لم تتّصل هاتفياً أتوجه مباشرة إلى منزلهم.

بينما أنا أتمشّى جيئة وذهاباً بخطى واسعة فُتِحَ البابُ المُفضي إلى الدرج ودخل غلامٌ صغير أسمر لون البشرة. أغلق الباب خلفه بسرعة وكأنه هارب من شخصٍ يلاحقه. كان يلفّه جو مرح وغامض بالغَ صوته الكوبيّ في إبرازه.

انبجس قائلاً " سوف تمنحني عملاً، أليس كذلك يا سيد ميللر؟ يجب أن أحصل على وظيفة ساعي لأكمل دراستي. الجميع يقولون لي

twitter @baghdad_library

إنك إنسـان طيب - وهذا رأيي أيضـاً - ولك وجـه سَمْح. أنا بـارع في أشياء عدّة، كما ستكتشف عندما تعرفني بشكل أفضل. اسمي خوان ريكو، وعمري ثماني عشرة سنة. أنا شاعر أيضاً "

قلت، وأنا أقهقه وأداعبه تحت ذقنه - وكان بحجم قزم وله شكله - " هكذا إذن! أنت شاعر إذن؟ في هذه الحالة سأعطيك العمل حتماً "

قال " وأقـوم أيضاً بألعـاب بهلوانيـة. والدي كان لديه سيرك ذات يوم. وسوف تجدني سريع الحركة. أنا أحب أن أتنقل هنا وهناك بحماسٍ وخفة. وأنا أيضاً لطيف إلى أقصى حد وعند تسليم الرسائل سأقول " شكراً لك يا سيدي "، وأرفع قبعتي باحترامٍ. وأعرف كل الشوارع غيباً، بما فيها البرونكس. وإذا عيَّنتني في الحي الأسباني فستجدني شديد الفعالية. هل أعجبك يا سيدي؟ "، وابتسم لي ابتسامة عريضة ساحرة تفيد بأنه يعلم جيداً كيف يروِّج نفسه.

قلت " اذهبْ إلى هناك واجلس. سأعطيك استمارة لتملأها. وغداً صباحاً ستبدأ العمل باكراً ونشطاً - وأنت تبتسم "

" أوه أستطيع أن أبتسم يا سيدي - وبشكل جميل "، وفعل.

" أواثق أنت من أنك في الثامنة عشرة؟ "

" أوه نعم، يا سيدي، وأستطيع أن أثبت ذلك. ومعي كل الأوراق الثبوتية "

أعطيته طلب الاستمارة وذهبت إلى الغرفة المجاورة - غرفة التزلُّج - لأدعه في سلام. وفجأة رنَّ جرس الهاتف. فقفزت عائداً إلى طاولة المكتب ورفعت السماعة. مونا تتكلم، بصوت غير طبيعي، مكبوح، ومقهور، وكأنها مستنزفة تماماً.

قالت " لقد مات قبل قليل. كنت ألازمه منذ أن تركتك ... "

غمغمت ببعض كلمات التعزية غير الوافية ثم سألتها متى ستعود. لم تكن متأكدة تماماً ... طلبت مني معروفاً صغيراً ... أن أذهب إلى المخزن العام وأشتري لها ثوب حِداد وقفازاً أسود اللون. قياس ستة عشر. ما نوع نسيجه؟ لا تدري، أي شيء أختاره ... ثم بضع كلمات أخرى وأغلقت الخط.

كان الفتى خوان ريكو ينظر في عينيّ مباشرة ككلب وفيّ. لقد فهم الموقف كله وكان يحاول بطريقته الكوبيّة المرهفة أن يقول لي إنه يرغب في أن يشاركني حزني.

قلت " لا عليك يا خوان، كلنا سنموت ذات يوم "

سألني " أكانت زوجتك التي تكلمت؟ ". كانت عيناه مبللتين بالدمع وتتلألآن.

" أنا متأكد من أنها جميلة "

" ما الذي يدفعك إلى هذا القول؟ "

" الطريقة التي تكلّمت بها معي ... كدت أتمثّلها أمامي. أتمنى أن أتزوج من امرأة جميلة ذات يوم. إنني غالباً ما أفكر في هذا "

قلت " أنت فتى غريب، تفكّر في الزواج منذ الآن: أنت ما زلت ولداً"

" ها هو الطلب يا سيدي. هلاّ تفضّلت وألقيت عليه نظرة الآن لكي أتأكد من أني أستطيع أن آتي غداً؟ "

ألقيت عليه نظرة سريعة وطمأنته على أنه مقبول.

" إذن أنا تحت أمرك يا سيدي. والآن يا سيدي، بعد إذنك، هل لي أن أقترح عليك أن تدعني أمكث معك مدة أطول؟ أعتقد أنه ليس من

twitter @baghdad_library

المفيد لك أن تبقى وحيداً في الوقت الحاضر. حين يكون القلب حزيناً يحتاج المرء إلى صديق "

انفجرت بالضحك. قلت " فكرة جيدة. سنذهب لنتناول طعام العشاء معاً، ما رأيك في هذا ؟ وبعد ذلك نشاهد فيلماً سينمائياً - أيناسبك هذا ؟ "

نهض واقفاً وبدأ يطفر في المكان ككلب مدرَّب. وفجأة غلبه الفضول بشأن الغرفة الخالية في الجزء الخلفي. تبعته إلى الداخل ورحت أراقبه بابتهاج وهو يتفحَّص المعدَّات. فتنته المزلجات. وكان قد أمسك بزوجٍ منها وأخذ يتفحَّصه وكأنه لم ير مثيلاً له من قبل.

قلت " البسه وقُم بالدوران. هذه هي حلبة التزلُّج "

سألني " أتستطيع أنت أيضاً أن تتزلَّج؟ "

قال " نعم، دعني أتزلج معك. إنني لم أفعل ذلك منذ سنوات وسنوات. إنها تسلية من نوع مضحك، أليس كذلك؟ "

لبس المزلجة، واندفعت إلى الأمام ويداي خلف ظهري. وتبعني خوان ريكو مباشرة. كان في منتصف الغرفة أعمدة نحيلة؛ أخذت أدور وألتف حولها وكأني أقوم باستعراض.

قال خوان بأنفاسٍ لاهثة " أليس شيئاً منعشاً؟ إنك تنزلق كالدَّبور "

" كـ ماذا ؟ "

" كالدَّبور ... النسيم العليل، الممتع "

" أوه، النسيم! "

" لقد ألَّفتُ قصيدة ذات يوم عن النسيم - منذ زمن بعيد "

أمسكت بيده ودَرَجْتُ معه وأرجحته. ثم وضعته أمامي ووضعت يديَّ على وسطه ورحت أدفعه، وأقوده بخفّة ومهارة حول الحلبة. وأخيراً

دفعته دفعة قوية وأرسلته مذعوراً إلى الطرف المقابل من الغرفة.

قلت، وأنا أعقد ذراعيّ أمامي وأرفع إحدى ساقيّ في الهواء، " الآن سأريك بعض الالتفافات البارعة التي تعلّمتُها في تيرول ". ومجرد التفكير في أنه لا يمكن لمونا أن تخمّن ماذا كنتُ أفعل عندئذ مدّني بفرحٍ شيطانيّ. ومررت بالفتى خوان مرة بعد مرة، وكان آنئذ جالساً على حافة النافذة مستغرقاً في العرض. ورسمت له تعبيرات ساخرة بوجهي - أولاً حزينة وكئيبة، ومن ثم مرحة، ثم لا مبالية، ثم مثيرة للضحك الصاخب، ثم متأمِّلة، فصارمة، ومهدِّدة، وبلهاء. دغدغتُ نفسي تحت الإبط، كالقرد؛ ورقصت الفالس كدبّ مدرَّب؛ قرفصت كمُقعَد؛ غنَّيتُ نغمةَ نشاز، ثم صرخت كالمهووس؛ ورحت أدور وأدور، دون توقف، مرحاً، حرّاً كعصفور، وانضمَّ خوان إليَّ؛ طارد أحدنا الآخر كالحيوانات، وتحولنا إلى فأرين يرقصان الفالس، وأدَّينا فصل الأطرش والأخرس.

طوال ذلك الوقت كنت أتخيَّل مونا وهي تتجوَّل في منزل الحِداد، في انتظار وصول ثوب الحِداد، والقفاز الأسود، وما إلى ذلك.

ندور وندور، لا نلوي على شيء. كان يكفي بعض الكيروسين وعود ثقاب، ونشتعل باللهب، كدوَّامة خيل تحترق. نظرت إلى رأس خوان - وجدته كالصوفان الجاف. كانت لدي رغبة مجنونة في أن أضرم فيه النار، أجعله يتلظَّى لهباً ثم أدفعه إلى مهوى المصعد. ثم دورتين أو ثلاثة هوجاء، على طريقة بروغل[١١٠]، وأنطلق خارج النافذة!

هدأت قليلاً وليس كما بروغل، بل كهيرونيموس بوش[١١١]. فصل في الجحيم، وسط فخاخ وبكرات من إبداع عقل القرون الوسطى. أولاً

١١٠ - بروغل : ثلاثة من الرسامين الفلامنكيين (أب وابناه) عاشوا في القرنين السادس عشر والسابع عشر . - المترجم

١١١ - هيرونيموس بوش (١٤٦٢ ؟ - ١٥١٦) : رسام فلامنكي . اشتهر برسم لوحات تمثِّل العذاب الذي يتعرَّض له البشر في الجحيم ، في أجواء سريالية رهيبة كابوسيّة . - المترجم

twitter @baghdad_library

تخلع ذراعاً. وثانياً تخلع ساقاً. وأخيراً لا يبقى غير جذع يتدحرج. وتصدح الموسيقى بنقرات مهتزّة. قيثارة براغ الحديدية. شارع غائر بالقرب من الكنيس. جلجلة نواقيس حزينة. امرأة تتفجّع من أعماقها.

لم يعد الجو خاص ببوش، بل بشاغال[١١٢]. ملاك بلباس مدني يهبط بانحرافٍ فوق السطح مباشرة. الثلوج تغطي الأرض، والمجاري مملوءة بقطع من اللحم من أجل الجرذان. كراكاو[١١٣] يغمرها ضوء بنفسجيّ كمن نُزِعت أحشاؤه. أعراس، ولادات، جنازات. رجل بمعطف لا يوجد في آلة كمانه غير وتر واحد. العروس فقدت عقلها، وترقص بساقين مكسورتين.

ندور وندور، نرنُّ أجراس الأبواب. نرنُّ أجراس عربات الجليد. دورة الأسى والأضلاع الكونية المتعضّية. أشعر بالصقيع يلمس جذور شعري، ونار على أطراف أصابع قدميّ. العالم دوّامة خيول تتلظى باللهب. الخيول تحترق حتى عراقيبها. كاهن بارد، متيبِّس، ممدَّد على سرير من ريش. وأمٌ خضراء اللون كالغنغرينا. والعريس يتدحرج.

أولاً سندفنه في أرضٍ باردة، ثم سندفن اسمه، وملهمته، عروساً فينيسيّة أُحرِقَت بعد وفاة زوجها. سوف أتزوج ابنة الأرملة - وهي برداء حِدادها وقفازها الأسود. سأكفِّر وأمسح رأسي بالرماد.

ندور وندور ... تارة الرقم ثمانية. وتارة علامة الدولار. وتارة النسر الناشر جناحيه. قليل من الكيروسين وعود ثقاب، وأحلّق كشجرة عيد الميلاد.

---

١١٢ - مارك شاغال (١٨٨٩ - ١٩٨٥) : رسام فرنسي مولود في روسيا. تتسم رسوماته بغنى الألوان ورسمه للرجال والنساء، ومخلوقات أخرى تكون عادة معلّقة في الهواء في أوضاع أثيرية. - المترجم

١١٣ - كراكاو : مدينة في بولونيا، تقع على نهر فيستولا. - المترجم

ويهتف خوان " مستر ميللر! مستر ميللر! مستر ميللر، كفى! توقف أرجوك! "

الفتى يبدو مذعوراً. ما الذي يجعله يحدِّق إليَّ هكذا؟ "

يقول، وهو يقبض عليَّ من ياقة المعطف، " مستر ميللر، أرجوك لا تضحك هكذا! أرجوك، أنا خائف عليك "

أتراخى. ترتسم ابتسامة عريضة على وجهي، ثم تخفُّ لتغدو ابتسامة لطيفة.

" هكذا أفضل، يا سيدي. لقد سبّبتَ لي القلق. أليس من الأفضل أن نغادر الآن؟ "

" أعتقد ذلك، يا خوان. لقد قمنا اليوم بما يكفي من التمرين. غداً ستحصل على دراجة. هل أنت جائع؟ "

" نعم يا سيدي، جائع جداً. شهيتي دائماً مفتوحة. ذات مرة أكلتُ دجاجة كاملة وحدي. حدث ذلك حين ماتت عمتي "

" هذا المساء سنتناول دجاجاً، يا خوان يا بني. دجاجتين - واحدة لك وواحدة لي "

" أنت شديد اللطف يا سيدي ... هل أنت متأكد من أنك أصبحت على ما يرام الآن؟ "

" أنا في أحسن حال كآلة كمان، يا خوان. والآن من أين في اعتقادك يمكننا أن نشتري ثوب حِداد في مثل هذه الساعة؟ "

قال خوان " أنا واثق من أني لا أعلم "

في الشارع ناديت على سيارة أجرة. كنت أعلم أنه يوجد في الحي الشرقي محلات تجارية ما تزال تفتح أبوابها. وكان سائق السيارة متأكداً من أنَّ في إمكانِهِ أن يعثرَ على أحدها.

twitter @baghdad_library

قال خوان، ونحن نترجّل أمام محل لبيع الملابس " أليس هذا المكان يعجُّ بالحيوية؟ أهو هكذا دائماً؟ "

قلت " دائماً، مهرجان دائم. وحدهم الفقراء يستمتعون بالحياة "

قال خوان " أودُّ أن أعمل هنا في وقت ما. أي لغة يتكلمون هنا؟ "

قلت " اللغات كلها. تستطيع أيضاً أن تتكلّم الإنكليزية "

كان صاحب المحل واقفاً عند الباب، فربتُّ بودٍ على رأس خوان.

قلت " أريد فستان حِداد، قياس ستة عشر. لا أريده غالياً جداً. يجب أن أسلّمه هذه الليلة، والدفع عن الاستلام "

تقدَّمتْ منا صبيّة يهودية سمراء ذات لكنة روسية. قالت " أهو لامرأة شابة أم عجوز؟ "

" لامرأة شابة، في مثل حجمك. لزوجتي "

أخذت تعرض عليّ أزياء مختلفة. وطلبت منها أن تنتقي واحداً تراه الأنسب، ورجوتها " على ألاّ يكون قبيحاً ولا شديد الأناقة أيضاً. تفهمين ما أعني "

قال خوان " القفاز. لا تنس القفاز "

سألت الصبيّة " ما المقاس؟ "

قلت " أريني يديك "، وتفحَّصتهما برهة. " أكبر من يديك قليلاً "

أعطيتها العنوان وتركت بقشيشاً سخياً لمن سيسلّم الطلب. هنا اقترب صاحب المحل، وبدأ يتحدث إلى خوان. بدا أنه شديد الافتتان به.

سأله " من أين أنت يا بني؟ أمن بورتوريكو؟ "

قال خوان " من كوبا "

" وتتكلّم الأسبانية؟ "

" نعم يا سيدي، والفرنسية والبرتغالية "

" إنك أصغر سناً من أن تتقن لغات عدّة "

" والدي هو الذي علّمني إياها. والدي كان محررٍ صحيفة في هافانا"

قال صاحب المحل " يا سلام، يا سلام، إنك تذكّرني بصبيّ صغير كنت أعرفه في مدينة أوديسا "

قال خوان " أوديسا! أنا ذهبت مرة إلى أوديسا. كنت أعمل خادماً على متن سفينة تجارية "

هتف صاحب المحل " ماذا! ذهبت إلى أوديسا؟ شيء لا يصدَّق. كم عمرك؟ "

" أنا في الثامنة عشرة يا سيدي "

التفت صاحب المحل إليّ. أراد أن يعرف إن كان في الإمكان أن يدعونا إلى شرب كأس معه في صالة المثلجات المجاورة.

قبلنا الدعوة بكل سرور. وبدأ مضيفنا، وكان اسمه أيزنشتاين، يتحدث عن روسيا. في الأصل كان طالب طب. والصبي الذي يشبه خوان كان ابنه وقد توفي. قال أيزنشتاين " كان صبياً غريباً؛ لم يكن يشله أياً من أفراد العائلة. كانت له طريقته الفريدة في التفكير. أراد أن يجوب العالم سيراً على قدميه. ومهما اقترحت عليه تكون لديه فكرة مختلفة. كان فيلسوفاً صغيراً. وذات يوم هرب إلى مصر - لأنه أراد أن يقوم بدراسة الأهرامات. وعندما أخبرناه أننا سنذهب إلى أميركا قال إنه يريد أن يذهب إلى الصين. قال إنه لا يريد أن يصبح ثرياً، كالأميركيين. كم كان صبياً غريباً! وشديد الاستقلال! لا شيء كان يخيفه - ولا حتى

twitter @baghdad_library

القوقاز. أحياناً كنت أكاد أخاف منه. من أين أتى؟ إنه حتى لم يكن يشبه اليهود ... "

وانساب في حوار إفرادي دار حول الدم الغريب الذي صُبَّ في عروق اليهود من خلال تجوالاتهم. تكلم عن قبائل غريبة في الجزيرة العربية، وأفريقيا، والصين. بل أبدى اعتقاده في أنه ربما حتى الإسكيمو قد يكون في عروقهم دم يهودي. وكان وهو يتكلّم يزداد ثمالة بهذه الفكرة عن امتزاج الأعراق والدماء. والعالم من دون اليهود كان سيصبح بركة راكدة. وقال " إننا أشبه ببذور تذروها الرياح. إننا نزهر في كل مكان. نصبح نباتات قوية الاحتمال إلى أن نُقتلَع من جذورنا. حتى حينئذ لا نفنى. نستطيع أن نعيش مقلوبين رأساً على عقب. يمكننا أن ننموا بين الحجارة "

كان طوال ذلك الوقت يعتقد أني يهودي. وأخيراً بيَّنتُ له أني لست يهودياً، بل زوجتي هي كذلك.

" وتحوّلتْ إلى المسيحية؟ "

" لا، بل أنا الذي أصيرُ يهودياً "

كان خوان ينظر إليّ بعينين جاحظتين، مستفهمتين. ولم يكن السيد أيزنشتاين يعلم إن كنتُ أمزح أم لا.

قلت " حين آتي إلى هنا أشعر بالسعادة. لا أدري سببها، لكني هنا أشعر أني في بيتي. لعلَّ دماً يهودياً يجري في عروقي من دون علمي "

قال السيد أيزنشتاين " أخشى أنَّ هذا غير صحيح. إنك منجذب لأنك لست يهودياً. أنت تحب الشيء المختلف، لا أكثر. لعلّكَ كرهتَ اليهود ذات يوم. وهذا يحدث أحياناً. وفجأة يدرك الإنسان أنه مخطئ ومن ثم يصبح عاشقاً مدلّهاً لِما كان يكرهه سابقاً. ينتقل إلى النقيض

المقابل. أنا أعرف شخصاً غير يهودي تحوَّل إلى اليهودية. إننا، كما تعلم، لا نحاول أن نُهدي الناس. فإذا كنتَ مسيحياً صالحاً فمن الأفضل أن تبقى مسيحياً "

قلت " لكني لست مهتماً بالدين "

قال " إنَّ الدينَ هو كل شيء. فإذا كنتَ لا تستطيع أن تصبح مسيحياً صالحاً فلن تستطيع أن تصبح يهودياً صالحاً. نحن لسنا شعباً أو عرقاً – نحن دين "

"هذا رأيك أنت، لكني لا أصدقه. إنَّ الأمرَ أكثر من ذلك. إنكم أشبه بنوعٍ من البكتريا. لا شيء يمكن أن يفسِّر سرَّ بقائكم، إنه حتماً ليس إيمانكم. لهذا تراني شديد الفضول، وأشعر بالنشوة وأنا معكم. أودُّ لو أعرف سرَّكم"

قال " حسن، قُم بدراسة زوجتك "

" هذا ما أفعله لكني لا أفهمها. إنها لغز "

" ولكن ألا تحبها؟ "

قلت " نعم، أحبها بشغف "

" ولكن لماذا لست معها الآن؟ لماذا أرسلتَ لها الثوب؟ مَنْ الذي توفي؟ "

أجبت " والدها "، ثم أضفتُ بسرعة " لكني لم أقابله أبداً. لم أدخل بيتهم قط "

قال " هذا أمر سيئ. ثمة خطأ هنا. ينبغي أن تذهب إليها. لا يهم إن لم تكن قد طَلَبَتْ منك ذلك. اذهب إليها! لا تجعلها تشعر بالخجل من أبويها. لستَ مضطراً أن تنضم إلى الجنازة، ولكن يجب أن تبيِّن لها أنك

twitter @baghdad_library

مهتم بعائلتها. أنت مجرد حادث عارض في سياق حياتها. وعندما ستموت سوف تستمر العائلة. سوف يتشرَّب دمهم دمك. لقد شربنا دماء كل الأعراق. ونستمر كالنهر. يجب ألا تظن أنك تتزوج منها وحدها - إنك تتزوج السلالة اليهودية، الشعب اليهودي. إننا نمنحك الحياة والقوة. إننا نغذيك. وفي النهاية كل الشعوب سوف تجتمع معاً. وسيسود السلام. سوف نبني عالماً جديداً. وسيتوفَّر مكانٌ للجميع ... لا، لا تتركها وحدها الآن. وإذا تركتَها، سوف تندم. والسبب، أنها أبيّة. يجب أن تتصرَّف برقة ونعومة. يجب أن تتودَّد إليها كما يفعل الحَمام. لعلها تحبك حباً جنونياً. لا توجد امرأة يهودية تحب الرجل الذي وَهَبَتْه قلبها مثل هذا الحب. خاصة إذا كان يجري في عروقه دمٌ غير يهودي. إنه انتصارٌ كبير لها، والأفضل لك أن تستسلم على أن تكون السيد ... سوف تعذرني لأني تكلمت بهذا الأسلوب، لكني أعرف عمَّا أتكلم. وأنا أرى أنك لست مسيحياً عادياً. إنك أحد أولئك المسيحيين الضائعين - تبحث عن شيء ما ... ولا تعلم بالضبط ما هو. نحن نعرف أمثالك، ولسنا توَّاقين دائماً لنيل حبِّكم. لقد خُدِعنا كثيراً جداً. وأحياناً من الأفضل أن يكون لنا عدو جيد - عندئذ نعرف موطئ أقدامنا. مع أمثالك لا نعرف أبداً أين نقف. أنتم أشبه بالماء - ونحن الصخور. أنتم تأكلوننا شيئاً فشيئاً - ليس بخبث، بل برقة. تَثِبون علينا كأمواج البحر، ونحن نستطيع أن نواجه الأمواج العاتية - أما الأمواج الرقيقة، فستُهلكَ قوانا "

فَرِحتُ كثيراً بهذا الشرح المستفيض غير المتوقع حتى أني قاطعت خطابه.

قال " نعم، أعلم، أعلم كيف تشعر. إننا، في الواقع، نعلم كل شيء عنكم - أما أنتم فتجهلون كل شيء عنا. يمكنك أن تتزوج ألف مرة، من ألف امرأة يهودية، لكنك سوف تبقى جاهلاً لما نعلم. إننا نكمن داخلكم طوال الوقت. نعم، قد نكون بكتريا. إن كنتم أقوياء ندعمكم؛ وإذا كنتم ضعفاء ندمِّركم. إننا لا نعيش في العالم، كما يتراءى للمسيحيين، ولكن في الروح. إن العالم يفنى، أما الروح فأزلية. لقد فَهِمَ ولدي الصغير ذلك. أراد أن يبقى نقياً. لم يكن العالم صالحاً بما يكفي لأجله. وقد مات من شِدَّة إحساسه بالخجل - الخجل من العالم..."

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع عشر

بعد ذلك ببضع دقائق، بينما كنا نمشي بتؤدة في ضوء أوائل المساء البنفسجي، شاهدت حي الأقليات بعينين جديدتين. لقد مرَّت عليَّ ليالٍ صيفية في مدينة نيويورك بدت السماء خلالها بلون اللازورد النقي، والأبنية قريبة وملموسة، ليس فقط في مادتها بل وفي جوهرها. وذاك الضوء المضطرب القذر الذي لا يكشف إلا قبح المصانع والمنازل القذرة يختفي غالباً مع غروب الشمس، ويهمُدُ الغبارُ، وتصبح حدودُ الأبنيةِ أكثر وضوحاً، كقَسَمَات وجهِ غولٍ تحت بقعةِ ضوءٍ ساطع. يظهر الحَمَامُ في السماء، يطير مندفعاً فوق أسطح المنازل، وتبرز القِباب عالية، وأحياناً من حمَّامٍ تركي. تظهر دائماً في حي البويري بساطة كنيسة القديس مرقص المهيبة، والساحة الدخيلة الكبيرة المتاخمة للجادة (أ)، والأبنية الهولندية الواطئة التي تلوح فوقها صهاريج الغاز الضاربة إلى الحمرة، والشوارع الجانبية الحميمة بأسمائها الأميركية المتنافرة، والمثلثات التي تحمل آثار علامات قديمة، والواجهة المائية لشاطئ بروكلن شديدة القُرب حتى ليكاد المرء أن يميِّز الناسَ وهم يسيرون على الشاطئ الآخر. إنَّ بريقَ نيويورك كلها مُختَصَرٌ في هذه المنطقة المزدحمة التي تتميَّز برائحة الفورمالدهايد والعرق والدموع. لا شيء أشدُّ ألفة،

وحميمية، وإثارة للحنين لابن نيويورك من هذه المنطقة التي يزدريها وينبذها. إن نيويورك كلها كان ينبغي أن تكون حياً ضخماً للأقليات: كان ينبغي التخلُّص من السُّم، وتقسيم البؤس؛ وكان ينبغي بثُّ الفرح في كل عرق وشريان. أما باقي نيويورك فكان لوحة تجريدية؛ باردة، هندسية التكوين، ومتيبِّسة مثل الـ rigor mortis (تخشُّب الموتى)؛ ويمكنني أيضاً أن أضيف، مجنونة - إذا ما استطاع المرء أن يقف بعيداً وينظر إليها بشجاعة. فقط في خليّة نحل يمكن العثور على اللمسة الإنسانية، يمكن العثور على المدينة التي تعجُّ بالمشاهد، والأصوات، والروائح ويفتش المرء عنها عبثاً خلف تخوم حي الأقليات. وأن تعيش خارج الحظيرة معناه أن تذوي وتموت. خارج الحظيرة لا يوجد غير الجثث الأنيقة الملبس. إنها تُملأ في كل يوم، كما تُملأ ساعات المنبه. تقوم بألعاب بهلوانية مثل حيوان الفقمة، وتموت كالمبلَغْ المُستَلَم في شباك التذاكر. ولكن في قرص العسل الذي يضجُّ بالنشاط هناك نموّ كنمو النباتات، وحرارة حيوانية تكاد تخنق، وحيوية تنشأ نتيجة الحك واللصق معاً، وأملٌ جسديّ وروحيّ، وتلوُّثٌ خطِر ولكن مفيد. وربما أرواحٌ صغيرة، تحترق كالشموع، لكنها تحترق بثبات - وقادرة على إلقاء ظلال عملاقة على الجدران التي تطوِّقها.

امشِ في أي شارع تحت الضوء البنفسجي الباهت؛ اطرح كل الأفكار من ذهنك، وعلى الفور ينقضُّ عليك ألف إحساس من كل اتجاه. هنا رجل ما يزال مغطى بالفراء وبالريش؛ هنا المثانة والكوارتز ما زالا يتكلمان. وهناك أبنية مهذارة، مسموعة ذوات حواف من صفائح معدنية ونوافذ تتعرَّق؛ أماكن عبادة أيضاً، حيث يلتفُّ الأطفال حول أعمدة

twitter @baghdad_library

الأروقة كالبهلوانات؛ وشوارع متنقّلة، متدحرجة حيث لا شيء يقف ساكناً، لا شيء ثابتاً، لا شيء مفهوماً إلا من خلال عيني عقل إنسان حالم، وشوارع مهلوسة أيضاً، حيث الصمت يغمر كل شيء، وكل شيء قاحل، وكأنما مرَّ عليه الوباء. وشوارع تسعل، وشوارع تنبض كصدغ رجل مبجَّل، وشوارع يموت عليها الإنسان دون أن ينتبه إليه أحد. شوارع غريبة، يفوح منها عبق عطري، يمتزج فيها عطر الورد مع لسعة الكراث اللاذعة. وشوارع زلأقة، يتردد عليها صدى وقع وصفع أقدام كسلى. وشوارع إقليديّة، لا يمكن شرحها إلاّ بالمنطق والنظرية ...

العرَق الجنسي الثانوي - العانيّ[١١٤]، الأورفيّ، الثدييّ[١١٥] - يسود كل شيء، معلّق بين طبقات الجلد كقطارة [١١٦]دخان متورِّد، بخور قوي العبق هُرِّبَ ليلاً على دثار مخمليّ مضمَّخ بالمسك. لا أحد منيع، ولا حتى الأبله المنغولي. إنه يغمرك كثديين من تحت رداء نسويّ داخلي يمرَّان ويحفَّان بك. يتحوَّل في المطر الخفيف إلى طين أثيري خفي. إنه يفوح في كل ساعة، حتى عندما تُغلى الأرانب من أجل صنع يخني. إنه يتلألأ في القنوات، والجريبات [١١٧]، والحليمات[١١٨]. وبينما الأرض تدور ببطء، تدور أروقة الشرفات والدرابزينات ويدور الأطفال معها، وفي السديم الكثيف لليالي الشديدة الحرارة والرطوبة يدندن كل ما هو أرضيّ، وحسِّي، وتنبُّؤيّ، كآلة قانون. دولاب ثقيل مزوَّد بعلف وبأسرَّة من

---

١١٤ - العاني : صادر عن منطقة العانة . - المترجم .

١١٥ - الثدييّ : له صلة بالحيوانات الثديية . - المترجم .

١١٦ - القطارة : نتاج التقطير . - المترجم .

١١٧ - الجريبات : مفردها جُريب : كيس صغير . - المترجم .

١١٨ - الحليمات : جمع حَلَمة ، كحَلَمة الثدي . - المترجم .

الريش، بمصابيح صغيرة تعمل بالزيت الحلو وقطرات من العرق الحيواني النقيّ. كل شيء يدور ويدور، يصرُّ، يتذبذب، يقعقع، وأحياناً يئنُّ، لكنه يدور ويدور ويدور. ثم، إذا ما لزمتَ السكونَ التام، كأنْ تقف، مثلاً، على شرفة مدخل منزل، وتنفض عنك بعناية كل الأفكار، فإنَّ صفاءً بهيمياً، حسير النظر يكتنف بصيرتنا. وهناك دولاب، وهناك أشعة الدولاب، وهناك محور الدولاب. وفي مركز المحور هناك - بالضبط لا شيء. إنه حيث يكون الشحم، والمحور. وأنت هناك، في مركز العدم، حسّاس، تتمدَّد بشكلٍ كامل، تطنُّ مع طنين دواليب سيارة. كل شيء يصبح حيّاً وذا مغزى، حتى مخاط الأمس العالق بمقبض الباب. كل شيء يتدلّى ويرتخي، ويُكسى بالقلق والهمّ؛ كل شيء تمَّ النظرُ إليه آلاف المرات، ودُلِّك ودُوعِب بالعين القذالية ...

ثمة رجل من سلالة غابرة يقف في حالة نشوة متحجِّرة. يشمُّ رائحة الطعام الذي طبخه أسلافه في الماضي الألفيّ: الدجاج، وفطيرة الكبد، والسمك المحشو، وسمك الرنكة، وبط العيدر. لقد عاش معهم وعاش فيهم. ريشٌ يتطايرُ في الهواء، ريشُ مخلوقات ذات أجنحة محبوسة في أقفاص - كما كانت في أور، وبابل، ومصر وفلسطين. الحرائر اللامعة نفسها، السود يستحيلون خضراً مع التقدُّم في السن: حرائر عصور أخرى، مدن أخرى، أحياءُ أقليات أخرى، مذابح أخرى. بين حين وآخر مطحنة قهوة أو سماور، علبة خشبية صغيرة لحفظ البهارات، وصمغ المرّ وعصارة الألوة من الشرق. مساحات صغيرة طويلة من السجاد - من الأسواق والبازارات، من التجمُّعات التجارية في الشرق؛ قِطَعٌ من نسيج الاستراخان، والمخرَّمات، والشالات، وأردية أهل النوبة، وتنانير من

twitter @baghdad_library

الفلامنكو، المنتفض، والملتهب. البعض يحضر عصافيره، أو حيواناته الأليفة - مخلوقات رقيقة، دافئة تنبض بنبض مرتعش، لا تتعلم أي لغات جديدة؛ أو أي ألحان جديدة، بل تزداد هزالاً، ترتخي، واهنة، وتضعف في أقفاصها ذات التدفئة الممتازة والمعلّقة فوق سلالم النجاة. الشرفات الحديدية مزيّنة بأكاليل من اللحم وبعض الإضافات، بالنباتات والحيوانات الأليفة - حياة ساكنة زاحفة يتآكل فيها حتى الصدأ متهللاً. ومع حلول برودة المساء يتعرَّض الصغار لأحوال الجو كثمار الباذنجان، يستلقون تحت النجوم يهدهدهم هراءُ الشارع الأميركي الفاحش حتى يناموا ويحلموا. وفي الأسفل، تعوم المخلّلات في الماء الشديد الملوحة داخل براميل خشبية. فمن دون المخلّل، والبسكويت العقدي، والحلويات التركيّة، لا يكون لحيّ الأقليات أي نكهة. وخبز من كافة الأنواع، ببذور وبدونها. أبيض، وأسود، وأسمر، وحتى خبز رمادي - بأوزان وكثافات متنوعة ...

حي الأقليات؛ طاولة سطحها من الرخام عليها سلة من الخبز. وزجاجة من المياه المعدنية. ويفضّل أن تكون زرقاء اللون. يوضع صحن حساء بالبيض. ورجلان يتحدثان. يتحدثان، ويتحدثان، ويتحدثان، وسيجارتان تتدليان من شفاههما المتوازنة. وفي الجوار قبو تنبعث منه موسيقى: آلات غريبة، أزياء غريبة، أنغام غريبة. العصافير تبدأ بالتغريد، وتزداد حرارة الجو، ويتراكم الخبز، وزجاجات المياه المعدنية والدخان والعرق. وتخرج الكلمات تُجَرُّ جراً كالقاقوم[١١٩]. خلال النشارة الممزوجة بالبصاق؛ وكلاب تخربش الهواء، تزمجر، بقوة. نساء تتلألأ بالترتر مثقلةٌ بعُصابات رأس مرصَّعة بالجواهر تغرق في نومٍ ثقيل في

١١٩ - القاقوم : حيوان يشبه ابن عرس . - المترجم

أكداس اللحم الغزيرة. والشبق الضاري المغناطيسي يتركّز في عيونٍ سوداء ضاربة إلى الحُمرة.

في قبو آخر رجلٌ عجوز يجلس مرتدياً معطفه على كومة من الأخشاب، يعدُّ لحيته. حياته كلها فحم وخشب، ورحلات قصيرة من الظلام إلى النور. ولا يزال يتردَّد في أذنيه وقْعُ الحوافر على بلاط الشوارع، وصَخَبُ الزعيق والصراخ، وقرقعة السيوف، وفرقعة طلقات الرصاص على جدار عارٍ. وفي دار السينما، في الكنيس، في المقهى، أينما يجلس المرء، يُعزَف نوعان من الموسيقى - واحد مرير، والآخر عذب؛ يجلس في وسط نهرٍ يدعى الحنين؛ نهر مملوء بتذكارات صغيرة جُمِعَتْ من حطام العالم؛ تذكارات للمشرَّدين، لطيور لاجئة تبني أعشاشها باستمرار بالعيدان والغصينات. في كل مكان تجد أعشاشاً، وقشور بيض، وأفراخاً بأعناقٍ ملويّة وعيونٍ ميتة تحدِّق إلى الفراغ. أحلام نهر الحنين تحت أفاريز مائلة من القصدير، تحت سقيفات صدئة، تحت قوارب مقلوبة. عالم الآمال المبتورة، والطموحات المخنوقة، والجوع المضاد لطلقات الرصاص. عالمٌ فيه يجب تهريب حتى نسمة الحياة الحارة ، حيث دُررٌ بحجم قلوبِ الحمام تقايَض ببياردة من الأرض، أو أونصة من الحرية. كل هذا بشكّل فطيرة كبد مألوفة تزدرد مع رقاقة بسكويت لا طعم لها. بلقمة واحدة تبتلع خمسة آلاف عام من المرارة، خمسة آلاف عام من الرماد، خمسة آلاف عام من الغصينات المكسورة، وقشور البيض المسحوقة، والأفراخ المخنوقة ...

في عمق أعماق القلب الإنساني يضجُّ الرنين الحزين لأوتار قيثارة من حديد.

twitter @baghdad_library

ابنوا مدنكم متغطرسة وشامخة. احفروا مجاريكم. مدُّوا الجسور عبر أنهاركم. اعملوا بنشاطٍ محموم. ناموا ولا تحلموا. غنُّوا كالمجانين، كالبلابل. في الأسفل، تحت أعمق الأساسات، تعيش سلالة أخرى من البشر؛ متجهّمون، كئيبون، انفعاليون، يشقّون طريقهم بعنفٍ إلى أحشاء الأرض، ينتظرون بصبر مرعب. إنهم الكاسحون، المفترسون، المنتقمون. يخرجون عندما يستحيل كل شيء إلى غبار.

twitter @baghdad_library

الفصل العشرون.

طوال سبعة أيام وسبع ليالٍ بقيتُ وحيداً. وبدأتُ أعتقد أنها قد تركتني. اتّصلتْ هاتفياً بي مرتين، لكنها بدت بعيدة جداً، وضائعة، ومغمورة بالحزن. وتذكَّرتُ كلمات السيد أيزنشتاين. وتساءلتُ، تساءلتُ إن كانت قد استعادت صوابها.

وذات يوم، قرابة وقت إغلاق المحال، خرجتْ من المصعد ووقفت أمامي: مسربلة بالسواد ما عدا العمامة ذات اللون الخبازي التي أضفت عليها لمسة أجنبية. وثمة تحوُّل قد طرأ. العينان أضحتا أكثر رقة، والبشرة أكثر شفافية. قامتها أصبحت هيفاء بشكلٍ مغرٍ، وهيئتها أكثر فخامة. بدت كالمسرنمة.

للوهلة الأولى لم أكد أصدِّق عينيَّ. كان النوم يجلِّلها. كانت تشعُّ طاقة، مغناطيسيّة، وسحراً. كانت كإحدى تلك الإيطاليات من عصر النهضة الذين يحدِّقون إليك بنظرة ثابتة مع ابتسامة غامضة تطلُّ من لوحةٍ وتتراجع نحو اللانهاية. في تلك الخطوات الواسعة التي خطتها قبل أن ترتمي بين ذراعيّ شعرت أنَّ هاويةً، كما لم أعرف من قبل أنها انشقَّت بين اثنين، تنغلق. وكأنَّ الأرضَ انشقَّت بيننا، وكأنها، بجهدٍ خارق وسحريّ من الإرادة، قفزت عبر الهوة وانضمَّت إليّ. والأرض التي كانت

تقف عليها قبل لحظة ارتدَّت، انزلقت كلها إلى ماضٍ أجهله، تماماً كما ينزلق رفٌ صخريّ لقارة إلى البحر. لا شيء أشدُّ وضوحاً وواقعية مما تشكَّلَ عندئذ في ذهني؛ ولم أفهم طبيعة لمٍّ شملنا إلا بعد ذلك، لأني تدرَّبت على تلك اللحظة لاحقاً مراراً وتكراراً.

حين شددتُها إليّ بدا شعوري بجسدها كله مختلفاً اختلافاً غريباً. كان جسدَ مخلوقٍ وُلدَ من جديد. كان الجسد الذي سلَّمته لي جديداً بكل معنى الكلمة، جديداً لأنه احتوى على عنصر كان مفقوداً حتى ذلك الحين. وربما من الغريب أن أقول إنها بدت وكأنها عادت مع روحها - ليس روحها الخاصة، الفردية، بل روح سلالتها كلها. وكأنها كانت تهبها لي كطلسم.

صعدَتْ الكلمات إلى شفاهنا بصعوبة. لم نلفظ غير قرقرة وتبادلنا التحديق. ثم رأيت نظرتها تتجول في أرجاء المكان، مستوعبة كل شيء بعينٍ وحشية، وأخيراً استقرت على طاولة مكتبي وعليّ. وكأنها تقول " ماذا تفعل هنا ؟ ". ومن ثم، بعد أن هدأت، وهي تلمّني بين تضاعيف القبيلة - " ما الذي فعلوه بك؟ ". نعم. شعرت بقوة شعبها وكبريائه. كأنها تقول لقد اخترتك لتجلس بين المتواضعين. سوف آخذك بعيداً عن هذا العالم. سوف أتوِّجك ملكاً.

تلك كانت مونا، مونا التي أتت إليّ من قلب حلبة الرقص ووهبت نفسها لي، كما كانت قد وهبتها للمئات وربما للآلاف غيري من قبلي. أي زهرة غريبة، عجائبية هو الكائن البشري! إنك تحملها بيدك وأثناء نومك تنمو، تتحول، يستنشق عطراً مخدّراً.

في غضون بضع لحظات أصبحت مترعاً بالتبجيل. كدت لا أحتمل النظر إليها بثبات. لم أصدِّق أنها ستتبعني إلى المنزل، وتقبل الحياة التي وهبتها إياها. لقد طلبتُ امرأةً فأعطيتُ ملِكة.

twitter @baghdad_library

ما حدث على مائدة العشاء لا أذكر منه أي شيء. لابد أننا تناولنا الطعام في مطعم، لابد أننا تحدثنا، لابد أن نكون قد وضعنا خططاً. إنني لا أذكر أي شيء من هذا كله. أذكر وجهها، ونظرتها الجديدة العاطفية، وتلألؤ العينين ومغناطيسيّتهما، والطبيعة الشفّانية للحمها.

أذكر أننا مشينا بعض الوقت خلال شوارع مقفرة. ولعلها أخبرتني، وأنا أصغي إلى صوتها، كل شيء، كل ما تقتُ إلى معرفته منها. إنني لا أذكر أي كلمة منه. لا شيء كانت له أي أهمية أو معنى غير المستقبل. أمسكتُ بيدها، أطبقتُ عليها بحزم، تشابكت الأصابع، ومشيت معها وولجنا المستقبل الفائق الوفرة. كان من المستحيل أن يبقى أي شيء على حاله. كانت الأرض قد انشقَّت، والماضي انجرف بعيداً، غرق إلى عمق قارة ضائعة. وكالمعجزة - وبأي معجزة أدركت هذا مع تطاول اللحظات! - نجت، وعادت إليّ. كان واجبي، مهمتي، وقدري في هذه الحياة أن أرعاها وأحميها. وبينما كنت أفكر في كل ما ينتظرني بدأت أنمو، من داخلي، وكأنما من بذرة صغيرة. ارتفعت بضعة إنشات خلال سير مسافة قصيرة. في قلبي شعرت بالبذرة تتفتَّق.

ومن ثم، عندما توقفنا عند أحد المفترقات. اقتربت حافلة منا. فقفزنا إليها وصعدنا إلى الطابق العلوي. جلسنا على المقعد الأول الأمامي. وحالما دفعنا الأجرة أخذتها بين ذراعيّ وغمرتها بالقبلات. كنا وحدنا وكانت الحافلة منطلقة بسرعة على أرض الشارع الكثيرة المطبّات.

فجأة رأيتها ترمي نظرات ضارية حولها، ثم رفعت ثوبها بحركةٍ محمومة، وفي اللحظة التالية كانت تمتطيني. ونكحنا بجنون خلال مسافة قصيرة ثملى. وحتى بعد أن انتهينا بقيت جالسة على حجري، تداعبني بولَه.

حين دخلنا منزل آرثر ريموند كان المكان متوهجاً. وكأنهم كانوا يتوقعون عودتنا. كان كرونسكي موجوداً وأختا آرثر، وريبيكا، وبعض أصدقائها. حيّوا مونا بأقصى حب وحرارة، وذرفوا الدموع لمرآها.

كانت لحظة تستحق الاحتفاء بها. فُتِحَتْ الزجاجات، ومُدَّت المائدة، وأُدير الفونوغراف. وبدا كأن لسان حال الجميع يقول " نعم، نعم دعونا نبتهج! ". وكنا بلا مبالغة يثب كلٌ منا على الآخر. رقصنا، غنينا، تحدثنا، أكلنا وشربنا. وازداد الجو مرحاً باطراد. الجميع يحب الجميع. التئامات والتئامات. وبقينا هكذا طوال الليل، حتى كرونسكي غنًّى بأعلى ما في استطاعة رئتيه. كان أشبه باحتفال عرس. لقد عادت العروس من بين الموتى، عادت العروس صبيّة من جديد، وأزهرت.

نعم، كان زواجاً. في تلك الليلة علمت أننا ارتبطنا فوق رماد الماضي.

غمغمت، ونحن نغرق في النوم" زوجتي، زوجتي! "

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي والعشرون.

بعد وفاة والدها أضحت مونا ممسوسة أكثر فأكثر بفكرة الارتباط بالزواج. لعلها قطعت له وعداً وهو على فراش الموت وتحاول أن تفي به. وكلما فتح الموضوع يتبع ذلك شجارٌ صغير (يبدو أني كنت أتناول الموضوع باستهتار). وذات يوم، بعد إحدى تلك المشاحنات بدأت تحزم أمتعتها. لن تمكث معي بعد الآن. ولما لم يكن في حوزتنا حقائب للأمتعة اضطرت إلى لف أغراضها بورق أسمر. وتشكّلت حزمة ضخمة جداً، لا شكل لها.

قلت " سوف تبدين كمهاجرة وأنت تحملين هذا الشيء وتمشين في الشارع ". كنت جالساً على السرير وأراقب مناوراتها مدة نصف ساعة أو أكثر. وبشكلٍ ما لم أقتنع بأنها سترحل. كنت أنتظر حدوث انهيار الدقيقة الأخيرة - نوبة غضب عارم، وأخرى من الدموع، ثم مصالحة رقيقة، تدفئ القلب.

غير أنها في هذه المرة بدت مصممة على أن تستمر في العرض. كنت ما أزال جالساً على السرير حين أخذتْ تجرُّ الحزمة عبر الصالة، وتفتح باب الخروج. ولم نتبادل حتى كلمة وداع.

بعد أن صُفِعَ الباب، تقدَّم آرثر ريموند من عتبة الباب وقال " أتتركها ترحل هكذا ببساطة؟ ألا ترى أنه تصرُّفٌ غير إنساني؟ "

أجبت " أحقاً؟ ". ابتسمت له ابتسامة واهنة وبائسة.

قال " أنا لا أفهمك أبداً ". تكلّم وكأنه يكظم غضبه.

قلت " قد تعود غداً "

" لو أني مكانك لما كنت واثقاً كثيراً من ذلك. إنها فتاة حسّاسة... وأنت ابن حرام دمك بارد "

كان آرثر ريموند يدخل في نوبة أخلاقيّة. والحقيقة هي أنه كان قد أصبح شديد الولع بمونا. ولو أنه كان صادقاً مع نفسه لاعترف بأنه يعشقها.

فجأة قال، بعد برهة صمت مرتبك، " لمَ لا تلحق بها؟ أنا مستعد أن ألحق بها على عجل، إن شئت. يا إلهي، كيف يمكنك أن تدعها ترحل هكذا؟ "

لم أدلِ بجواب. مال آرثر ريموند عليّ ووضع يداً على كتفي. قال " هيا، هيا، هذا تصرُّف أحمق. ابقَ أنت هنا ... أنا سأسرع وأدركها وأعيدها "

اندفع عبر الصالة وفتح باب الخروج. سمعته يهتف " حسن، حسن! كنت خارجاً لتوي لأعيدك. عظيم! ادخلي. هاتي، دعيني أحمل عنك هذا. رائع ". سمعته يضحك، تلك الضحكة المرحة، المجلجلة التي تزعج الأعصاب أحياناً. " عودي إلى هنا ... إنه ينتظرك. طبعاً، نحن جميعاً في انتظارك. لمَ فعلتِ ذلك؟ ينبغي ألا تهربي هكذا. ألسنا جميعاً أصدقاءك؟ لا يمكنك أن تخرجي وتتركينا ... "

من نبرة صوته تعتقد أن آرثر ريموند هو الزوج، وليس أنا. وكأنه كان يعلّمني كيف أتصرّف.

twitter @baghdad_library

كل ذلك لم يستغرق أكثر من بضع ثوان، ولكن خلال تلك الفترة الوجيزة رأيت آرثر ريموند من جديد كما كنت قد رأيته للمرة الأولى. كان إد غافارني قد أخذني إلى بيته. وكان منذ أسابيع قبلها يخبرني عن صديقه آرثر ريموند وعن مدى عبقريته. بدا أنه يعتقد أنه قد وُهبَ امتياز نادر هو الجمع ما بيننا، ذلك أني في رأي إد غافارني أنا أيضاً عبقري. كان آرثر ريموند جالساً هناك، في كآبة الطابق التحتي في أحد تلك المنازل المبنية بحجارة بنّية والرصينة المظهر في منطقة حديقة بروسبكت العامة. كان أقصر قامة بكثير مما توقعت، غير أن صوته كان قوياً، صادراً من القلب، ومرحاً، يشبه المصافحة باليد، يشبه شخصيته برمّتها. كان نبعاً من الحيوية.

وعلى الفور تكوّن لدي انطباع بأني أواجه شخصاً غير عادي. وكان أيضاً في أسوأ حالاته، كما اكتشفت لاحقاً. كان قد بقي ساهراً طوال الليل، ثم نام وهو بملابسه، وكان يغلب عليه التوتّر والعصبية. عاد إلى الجلوس أمام آلة البيانو، بعد أن تبادلنا بضع كلمات، وعقب سيجارة محترقة يتدلّى من بين شفتيه؛ وأثناء تحدّثه كان يضرب بعصبية بضع نغمات في العدّاد العلوي. كان يجبر نفسه على التدرُّب لأن الوقت ضيق - ففي خلال بضعة أيام سوف يحيي حفلاً موسيقياً، يمكن القول إنها أول حفل بعد طول غياب. وشرح لي إد غافارني قائلاً إن آرثر ريموند كان طفلاً معجزة، وأنَّ أمه كانت تلبسه لكي يبدو أشبه بلورد فونتليروي[١٢٠] وجالت به القارة كلها، منتقلة من قاعة موسيقى إلى أخرى. وذات يوم حرن

١٢٠ - لورد فونتليروي : إشارة إلى رواية فرانسيس اليزا هدسجسون برنت (١٨٤٩ - ١٩٢٤)، التي عنوانها " لورد فونتليروي الصغير " ، وتتحدث عن طفل يعمل بدون قصد منه ، وبأسلوبه الطفولي البريء ، على المصالحة بين أمه وجدّه القاسي القلب والواسع الثراء والأرستقراطي ، ولم يكن هذا الأخير قد وافق على زواج ولده المتوفى من أم الطفل بسبب مستواها الاجتماعي المتواضع . - المترجم

آرثر ريموند ورفض أن يستمر في لعب دور القرد. لقد نشأ لديه رهاب العزف أمام الجمهور. أراد أن يدير حياته بنفسه. وقد فعل. وأصبح مسعوراً. فعل كل ما من شأنه أن يدمرٍ العازف الماهر الذي جعلَتْه أمه منه.

أنصتَ آرثر ريموند إلى هذا بصدرٍ ضيّق. وأخيراً قاطعه، ودار حول نفسه على مقعده، وأخذ يعزف بكلتيّ يديه وهو يتكلّم. كان قد وضع سيجارة جديدة في فمه وبينما هو يُجري أصابعه على البيانو صعوداً وهبوطاً كان الدخان يتصاعد في حلقات ويدخل عينيه. كان يحاول أن يتخلّص من ارتباكه. في الوقت نفسه شعرت أنه ينتظر أن يسمع تعليقي. وحين أخبره إد غافاني أني أنا أيضاً موسيقي قفز واقفاً وناشدني أن أعزف له شيئاً. قال، بشبه نبرة وحشية " هيا، هيا ... أودٌ أن أسمع عزفك. يا إلهي، كم سئمت الاستماع إلى عزفي "

جلست، على مضض مني، وعزفت مقطوعة صغيرة. وأدركت أكثر من أي وقت مضى مدى رداءة عزفي. بل شعرت بالخجل من نفسي واعتذرت بشدة لسوء عزفي.

قال، مع قهقهة خفيضة،، تدل على السرور، " لا أبداً، لا أبداً! يجب أن تستمر ... أنت موهوب "

اعترفت " الحقيقة هي أنني لم أعد أعزف أبداً "

" كيف ذاك؟ ولم لا ؟ ماذا تفعل إذن؟ "

تبرَّعَ إد غافاني بتقديم التفسيرات المعتادة، وانتهى إلى القول " إنه كاتب بحق "

تلألأت عينا آرثر ريموند " كاتب! يا سلام، يا سلام ... " ، وبهذا عاد إلى الجلوس إلى البيانو وبدأ يعزف. رسم تعبيراً جاداً ليس فقط

twitter @baghdad_library

أحببته بل ولازَمَ ذاكرتي طوال حياتي. وفتنني عزفه. كان عزفاً نقياً، يضجُّ بالحيوية، والانفعال، والذكاء. هاجم الآلة بكل كيانه. اغتصبها. كانت سوناتة لبرامز، إن كانت ذاكرتي لم تخنّي، ولم أكن مولعاً كثيراً ببرامز. وبعد بضع دقائق توقف فجأة، وقبل أن نتمكّن من النطق بأي كلمة كان قد باشر عزف مقطوعة لديبوسي، ومنها انتقل إلى رافيل ثم إلى شوبان. وأثناء عزفه بريلود شوبان غمز إد غافاني لي. وبعد أن انتهى حثَّ آرثر ريموند على عزف " دراسة الثوري[١٢١] ". " أوه، ذاك الشيء! هراء! يا إلهي، كيف يعجبك هذا! ". وعزف بضع نغمات، وتخلّى عنها، وعاد إلى الجزء الأوسط، وتوقف، ثم انتزع السيجارة من بين شفتيه، وانطلق في مقطوعة موتسارتيّة.

في تلك الأثناء كانت تحدُثُ داخلي ثورات. أدركتُ وأنا أستمعُ إلى عزف آرثر ريموند أنه إذا ما قُدِّرَ لي أن أصبح عازف بيانو فسيكون عليَّ أن أبدأ من البداية. شعرت أني لم أعزف على آلة البيانو قط - بل عبثتُ عليه. وشيئاً مشابهاً حدث لي في أول مرة قرأت دوستويفسكي. لقد جعلني أطرح جانباً كلَّ أدبٍ آخر. (قلت في نفسي " الآن أنا أنصت حقاً إلى مخلوقات بشرية تتكلّم! ") هذا ما حدث مع عزف آرثر ريموند - فللمرة الأولى بدا أني أفهمُ ما يقوله المؤلفون الموسيقيون. كنتُ حين ينطلق ليكرر جملة موسيقية مرة بعد أخرى أشعر كأني أسمعها تتكلّم، تتكلّم بلغته الصوتية المألوفة لدى الجميع لكنها مبهمة لأغلبنا. تذكّرت فجأة كيف كان أستاذ اللغة اللاتينية ينتزع الكتاب فجأة من أيدينا، بعد أن ينصت إلى قراءاتنا المريعة، ويباشر بالقراءة بصوتٍ عالٍ على

---

١٢١ - " دراسة الثوري " : مقطوعة على البيانو من أعمال شوبان . مقام دو . مصنَّف ١٠ ، رقم ١٢ . - المترجم .

مسامعنا - باللاتينية. كان يقرأها وكأنها تعني شيئاً له، أما نحن، ومهما بَلَغَتْ جودة إلقائنا، فإنها تبقى لغة لاتينية، واللاتينية لغة ميتة والذين كتبوا باللاتينية كانوا بالنسبة إلينا أكثر مواتاً من اللغة التي كتبوا بها. نعم، عند الإنصات إلى تأويل آرثر ريموند، سواء أكان لموسيقى باخ، أم برامز أم شوبان، لا تجد هناك مساحات فارغة بين الفقرات. كل شيء يتَّخذ شكلاً، وبُعداً، ومعنى. لا وجود لأجزاءٍ مملّة، ولا تباطؤ، ولا تمهيدات.

كان هناك شيء آخر في تلك الزيارة التي لمعت ذكراها في خاطري - إنها إرما. وإرما هي زوجته، وكانت فائقة الظرف، والجمال، وأشبه بالدمية؛ أشبه بقطعة خزف صنع دريسدن منها بزوجة. وحالما تمَّ التعارف بيننا عرفت أنَّ علاقتهما ليست على ما يرام. كان صوتها بالغ الخشونة، وإيماءاتها شديدة الفظاظة؛ وكانت تجفل منه منكمشة كأنما مخافة أن يهشِّمها إلى قطعٍ إذا ما قامت بحركة غير مقصودة. ولاحظت، ونحن نتصافح، أنَّ راحة يدها رطبة - رطبة وحارة. وكانت تعي ذلك أيضاً، وعلَّقت على هذا وقد احمرَّت خجلاً بالقول إنَّ ثمة اضطراباً في غددها. ولكني استشفَّيت من كلامها أنَّ السببَ الحقيقي وراء تشوُّشها هو آرثر ريموند، وأن " عبقريته " هي سبب اضطراب حالها. لقد كان أومارا محقّاً فيما قاله عنها - كانت ماكرة تماماً، وتحب أن تداعَب وتُدَلَّل. وكان واضحاً أن آرثر ريموند لم يبدِّد أي وقت في مثل ذاك العبث. تجلَّى فوراً أنه من النوع الذي يتوجَّه مباشرة إلى الهدف. كان يغتصبها، هذا كان شعوري. وكنت محقّاً. اعترفتْ لي بذلك لاحقاً.

ثم هناك إد غافاني. كان يمكن الاستدلال من طريقة آرثر ريموند في مخاطبته إلى أنه تعوَّدَ على استخدام هذا النوع من التزلُّف. كان

twitter @baghdad_library

أصدقاؤه كلهم من المتملِّقين. كان دون شك يشعر بالاشمئزاز منهم ومع ذلك كان بحاجة إلى التزلُّف. لقد بدأت معه أمه بداية سيئة - بل كادت تحطِّمه. فمع كل حفل قدَّمه كانت ثقته بنفسه تقلُّ. كان يؤدي عروضه كمن أفاق من نومٍ مغناطيسي، وقد نجح لأن أمه أرادت ذلك. وكره أمه. كان بحاجة إلى امرأة تؤمن به - كرجل، وكإنسان - وليس كعجل بحر مدرَّب.

إرما أيضاً كانت تكره أمه. وقد كان لهذا أثر مدمِّر على آرثر ريموند. لقد شعر بحاجة إلى الدفاع عن أمه ضد هجمات زوجته. مسكينة إرما! كانت بين نارين. وفي أعماقها لم تكن تهتم كثيراً بالموسيقى. في أعماقها لم تكن تهتم بأي شيء. كانت رقيقة، طيِّعة، مهذَّبة، سهلة القياد: جوابها الوحيد هو الخرخرة. أعتقد أنها لم تكن تهتم أيضاً بالنكاح. لا بأس إنْ حدَثَ بين حين وآخر، حين ترتفع حرارة شوقها، ولكن في العموم كانت تجده أمراً شديد المباشرة، والوحشية، والإذلال. ولو كان في إمكان المرء أن ينضمَّ معاً كزهرة الزنبق، نعم، لاختلفَ الأمر. أما ما كانت تحبه فالاحتكاك معاً، وبتضامٍ رقيق، لطيف، مداعب. كان في الأير المتصلِّب شيء يثير قليلاً من التقزُّز في نفسها، وخاصة في قطر المني. والأوضاع التي يضطر المرء إلى اتخاذها! كانت أحياناً تشعر بحقٍّ أنها فاسقة بهذا العمل. وكان لآرثر ريموند أير قصير، وعنيد - من برج الحمل: يدقّها بعنف، وكأنه يقطِّع اللحم بساطور على الوَضَم. وينتهي الأمر قبل أن يتاح لها أن تشعر بأي شيء. طعنات قصيرة، سريعة، أحياناً على الأرض، وفي أي مكان، وأي وقت، وكلما تصادف أن تنتابه الشهوة. لم يكن حتى يمنحها الوقت

لتخلع ملابسها. كان يرفع طرف ثوبها ويقحمه فيها. لا، لقد كان بالفعل أمراً " فظيعاً ". وتلك إحدى كلماتها المحبَّبة إليها - " فظيع ".

من ناحية أخرى كان أومارا أشبه بأفعى مدرَّبة. كان له قضيب طويل ومنحنٍ يلج منزلقاً كبرقٍ مشحَّم ويفتح باب الرحم. كان يعرف كيف يتحكَّم فيه. لكنها لم تكن تحب أسلوبه أيضاً في الممارسة. كان يستخدم قضيبه وكأنه أداة يمكن فصلها. كان يبهجه أن يقف فوقها وهي مستلقية على السرير وساقاها منفرجان، وتلهث شبقاً للفعل، ويجبرها على إبداء إعجابها به، وأن تتناوله بفمها أو تقحمه تحت إبطها. كان يجعلها تشعر أنها تحت رحمته - أو بالأحرى تحت رحمة ذاك الشيء الطويل اللزج الذي يحمله بين ساقيه. كان في إمكانه أن يحصل على انتصابٍ في أي وقت - أقصد، في أي ساعة. لم يكن يتأثَّر بالهيام - هيامه كان متمركزاً في أيره. ومع ذلك كان قادراً على إظهار الرقة، على الرغم من طبيعة ممارسته، وبصورة ما لم تكن الرقّة هي التي أثَّرت فيها - كانت مدروسة، وجزءاً من تقنيته. لم يكن " ورومانسياً " - حسب تعبيرها. كان شديد الفخر ببراعته الجنسية الفائقة. ومع ذلك، لأنه كان أيراً غير عادي، ولأنه طويل ومنحنٍ، لأنه قادر على الصمود بلا حدود، ولأنه قادر على جعلها تفقد صوابها، كانت عاجزة عن المقاومة. كان يكفيه أن يخرجه ويضعه في يدها حتى تنهار. ومما يثير الاشمئزاز في النفس أيضاً أنه عندما كان أحياناً يخرجه يكون فقط نصف منتصب. وحتى حينئذ يكون أكبر حجماً، وأنعم ملمساً، وأقرب شبهاً بالثعبان من أير آرثر ريموند، حتى وهو في ذروة إثارته. أير أومارا كان من النوع العنيد. وهو من برج العقرب؛ أشبه بأحد المخلوقات البدائية

twitter @baghdad_library

التي تكمن وتنتظر لتهاجم؛ حيوان زاحف، ضخم، وصبور، يختبئ في المستنقعات؛ وكان بارداً وغزير الإنتاج؛ يعيش فقط لينكح، لكنه ينتهز فرصته الملائمة، وإذا لزم الأمر يستطيع أن ينتظر سنوات قبل أن ينكح في المرة التالية. ومن ثم، حين يَقبُض عليك، حين يُطبق أنيابه عليك، يلتهمك شيئاً فشيئاً. هكذا كان أومارا ...

رفعتُ بصري لأرى مونا واقفة عند عتبة الباب ووجهها ملطَّخ بالدموع. كان آرثر ريموند واقفاً خلفها، يحمل الصرَّة الضخمة، العديمة الشكل بين يديه، وقد انتشرت ابتسامة واسعة على صفحة وجهه. كان مسروراً بنفسه، مسروراً إلى أقصى حد.

لم يكن من شِيَمي أن أنهض وأؤدي عَرْضاً عاطفياً، خاصة في حضور آرثر ريموند.

قالت مونا " حسن، أليس لديكَ ما تقوله؟ ألستَ نادماً؟ "

قال آرثر ريموند، خشية أن تندفع خارجة من جديد، " طبعاً نادم "

قالت بنبرة لاذعة " أنا لا أسألك أنت، أنا أسأله هو "

نهضتُ من السرير واقتربت منها. تابع آرثر النظر بارتباك. كان مستعداً للتخلي عن أي شيء مقابل أن يكون في مكاني - كنت متأكداً من ذلك. أثناء تعانقنا، أدارت مونا رأسها وتمتمت له عبر كتفي " لمَ لا تغادر؟ ". احمرَّ وجهه حتى أصبح بلون الشوندر. حاول أن يتلعثم باعتذارٍ ما لكنَّ الكلماتِ علقَتْ في حنجرته. وحين استدار ورحل صفعَتْ مونا الباب. قالت " أحمق! كم سئمت هذا المكان! "

بينما هي تضغط جسدها على جسدي شعرتُ لديها نَهَماً ويأساً من نوعٍ جديد. كان الفراق، على رغم فترته الوجيزة، حقيقياً بالنسبة إليها.

وقد أخافها أيضاً. لا أحد سمحَ لها أن ترحل هكذا. وهي ليس فقط أهينَتْ، بل أصبحت فضولية.

من المثير للاهتمام أن نلاحظ كيف يكون سلوك المرأة مكرراً في مثل تلك المواقف. فدائماً تقريباً تطرح السؤال التالي - " لمَ فعلتَ ذلك؟ " أو - " كيف تعاملني هكذا؟ ". وإذا كان الرجل هو المتكلم يقول: " دعينا من هذا الحديث ... دعينا ننسى الأمر! ". لكن ردَّة فعل المرأة تكون كَمَنْ صُعقَت في مراكزها الحيوية، وكأنَّها لن تبرأ من أثر طعنة مميتة. معها كل شيء يقوم على أساس شخصيّ بحت. تتحدث من منطلق ذاتي، ولكن ليس الذات هي التي تثير تأنيباتها - بل كونها امرأة. وكون الرجل الذي تحب، الرجل الذي ارتبطت به، الرجل الذي تخلقه على صورتها، أفلَتَ فجأة من سيطرتها هو أمرٌ لا يُصَدَّق. لو أنَّ المسألةَ تتعلّق بوجود امرأة أخرى، لو أنَّ هناك غريمة، نعم، لتفهَّمَ الوضع. أما أن يتحرَّر بدون أي سبب، أن يتخلّى بسهولة شديدة - فقط بسبب خدعة أنثوية صغيرة! - فهذا ما لا تفهمه. إذن لابد أنَّ كل شيء كان مبنيّاً على الرمال ... إذن لم يكن هناك أي حزم.

قالت " كنت تعلم أني لن أرحل، أليس كذلك؟ "، بين الابتسام والبكاء.

لو أني أجبت بنعم أو لا لكانت الإجابة توفيقيّة في كلا الحالين. ففي كلا الحالين كنت سأجلب على نفسي شجاراً طويلاً. لذا قلت: " هو الذي رأى أنك ستعودين. أنا لم أكن أعلم. أنا اعتقدت أني ربما فقدتُك"

العبارة الأخيرة أعجبتها كثيراً. " أن أفقدها " - ذلك يعني أنها عزيزة. وكانت أيضاً توحي بأنها بعودتها بإرادتها إنما تهب نفسها؛ أنفس هِبة يمكن أن تقدِّمها.

twitter @baghdad_library

قالت بنعومة، وهي تسلِّط عليَّ نظرة مُذيبة، " كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ كل ما أردته هو أن أعرف أنك تحبني. أحياناً أقوم بتصرفات سخيفة ... أشعر كأني بحاجة إلى براهين على حبك ... إنه تصرُّف سخيف ". أمسكَتْ بي بقبضةٍ مُحكمة، وهي تلتصق بي. وفي الحال شبَّت شهوتها، وأخذت يدها تعبث بفتحة بنطالي. قالت متمتمة، وهي تحرِّر أيري من أسره وتضعه على كسّها الحار " ألم تكن تريدني أن أعود؟ قُلها! أريد أن أسمعها منك! "

قلتها. قلتها بأشدّ ما أمكنني من اقتناع.

همست، وفمها يتلوى بشبق " والآن انكحني! ". استلقت بشكل مستعرض على السرير، ورفعت طرف ثوبها حتى عنقها. قالت متوسلة، وكانت من فرط الشهوة حتى أنها لم تجد الكلمات الحادّة المناسبة، " افعل! أريدك أن تنكحني وكأنك لم تنكحني من قبل "

قلت وأنا أبتعد " انتظري لحظة، سأنزع هذه الملابس اللعينة أولاً "

ناشدتني " أسرع، أسرع! ادخله مباشرة. يا إلهي، فال، ما كان يمكن أن أعيش بدونك ... نعم، جيد جيد ... هذا هو ". كانت تتلوّى كالحنكليز. " أوه فال، يجب ألاّ تتركني أرحل. شُدّ، شدَّني بقوة! أوه يا الله، إنني أقذف ... شدني، شدني ". انتظرت حتى خمدت الفورة. قالت " أنت لم تقذف، أليس كذلك؟ لا تقذف الآن. اتركه في الداخل. لا تتحرك ". فعلتُ كما أرادت؛ كان معشَّقاً بإحكام وكنت أشعر برايات النصر ترفرف داخلها مثل طيورٍ جائعة. " انتظر قليلاً، يا عزيزي ... انتظر ". كانت تحشد قواتها استعداداً للانفجار التالي. كانت عيناها قد اتّسعتا وترطَّبتا، وتراختا. ومع اقتراب الرعشة تركَّزتا، وأخذتا تتحركان

بعنف من زاوية إلى أخرى، وكأنهما تبحثان بجنون عن شيء ما تثبتان عليه. توسّلت إليّ بصوتٍ أجشّ، " افعل، افعل الآن، هاته! ". ومرة أخرى التوى فمها ذاك الالتواء المتوحش، تلك النظرة الشذراء الفاسقة، التي تطلق، أكثر من أشد حركات الجسد عنفاً، رعشَةَ الذكَر. بينما كنت أقذف المني الحار فيها أخذت تمرُّ بتشنجات. كانت أشبه بفنان الأرجوحة البهلوانية الذي يقذف وهو بالقرب من السقف. وكما يحدث لها غالباً أخذت الرعشات تتوالى بتسلسلٍ متسارع. وكدت أهمُّ بصفعها على وجهها، لأغيِّر الوضع كله.

الشيء التالي كان طبعاً تدخين سيجارة. استلقت على ظهرها تحت الملاءة وراحت تستنشق الدخان بعمق، وكأنها تستخدم منفاساً[١٢٢].

" أحياناً أعتقد أن قلبي سيتوقّف عن الخفقان ... أني سأموت في وسط العملية ". استرخت استرخاء نمر، وساقاها متباعدتان واسعاً، كأنما لتدع المني يخرج منها. قالت، وهي تضع يدها بين ساقيها " يا إلهي، ما زال يسيل ... أعطني منشفة، من فضلك "

حين ملت فوقها لأعطيها المنشفة، أدخلتُ أصابعي في كسّها. كنت أحبُّ أن أتحسَّسه بعد النكاح مباشرة. يكون مثيراً ولذيذاً.

توسّلت قائلة بوهن " لا تفعل هذا وإلا سأبدأ من جديد ". كانت وهي تتكلّم تحرِّك حوضها بفسق. " لا تكن خشناً جداً، فال ... أنا رقيقة. نعم هكذا "، ووضعت يدها على رسغي وأبقتها هناك، لتوجِّه حركاتي بضغطٍ رشيق ومرهف من الأصابع. وأخيراً نجحت في سحب يدي وأسرعت بإلصاق فمي على شقّها. تأوّهت، " هذا رائع ". كانت قد

١٢٢ – المنفاس : أداة ميكانيكية للتنفُّس الاصطناعي . – المترجم

twitter @baghdad_library

أغمضت عينيها، وانكفأت عائدة إلى فجوة كيانها السوداء.

كنا مستلقيين على جنبينا، وساقاها يتدليان حول عنقي. وللتو شعرت بشفتيها تلمسان أيري. كنت أشدّ وجنتيها وأباعد ما بينهما بكلتيّ يديّ، وإحدى عينيّ مسمَّرة على الزر الصغير الذي يعلو كسّها. قلت لنفسي " هذا ثقب طيزها ". منظره ممتع. صغير جداً، وشديد الانكماش، وكأنما لا يخرج منه غير بعر غنم أسود اللون وصغير.

بعد أن ملأنا بطنينا واستلقينا بين الأغطية لنغفو بهدوء سمعنا طرقاً قاطعاً على الباب. إنها ريبيكا. تريد أن تعرف إن كنا قد انتهينا - ستضع الشاي وتريد منا أن ننضم إليهم.

أخبرتها أننا نأخذ غفوة، ولا نعرف متى سننهض.

" هل لي أن أدخل لحظة؟ "، قالت هذا ودفعت الباب قليلاً ليكون موارباً.

ثقلت، وأنا أرميها بنظرة شذراء من عينٍ واحدة، " طبعاً، تفضّلي! "

قالت، وهي تطلق قهقهة منخفضة، ممتعة، وفظة. " يا إلهي، أنتما الاثنان حتماً عصفوران من عصافير الحب. ألا تملان أبداً؟ صوتكما مسموع حتى الأسفل في الناحية البعيدة من الصالة. إنكما تثيران غيرتي "

كانت واقفة بجانب السرير تنظر إلينا. وكانت مونا تضع يدها على أيري، إيماءة غريزية بمثابة الدفاع عن النفس. وبدت عينا ريبيكا متركِّزتين على تلك النقطة.

قالت " إكراماً لله، هلاّ توقفت عن العبث به فأنا أتحدث إليك؟ "

قالت مونا " لم لا تدعينا وشأننا؟ أعتقد أننا لا نقتحم عليك غرفة

نومك، أليس كذلك؟ ألا نستطيع أن نحصل على بعض الخصوصية هنا؟"

أطلقت ريبيكا ضحكة عميقة، من القلب " إن غرفتنا لا تتمتَّع بجاذبية غرفتكما، هذا هو السبب. إنكما أشبه بزوج من العرسان الجدد: تُشيعان جواً محموماً في المنزل كله "

قالت مونا " قريباً سنرحل من هنا؛ أريد مكاناً خاصاً بي. هذا المنزل بالنسبة إليّ مفعماً بالجو السفاحيّ. يا إلهي، لا يمكن للمرأة منا حتى أن تحيض دون أن يعلم الجميع بأمرها "

شعرت أني ملزم بأن أقول شيئاً يهدِّئ الجو. فإذا ما أثيرت ريبيكا تستطيع أن تلوي مونا وتجعلها عقدة.

قلت " سنتزوج في الأسبوع القادم. وقد ننتقل إلى بروكلن، إلى مكان هادئ ومريح. إن هذا بعيد عن المدينة "

قالت ريبيكا " فهمت. طبعاً أنتما تتزوجان منذ أن أتيتما إلى هنا. أنا متأكدة من أننا لم نمنعكما من ذلك - أم أننا فعلناه؟ ". تكلمت وكأنها تأذّت.

بعد أن أضافت بضع كلمات أخرى غادرت. ومرة أخرى استغرقنا في النوم واستيقظنا في وقت متأخر. كنا جائعين كذئبين . وبعدما خرجنا إلى الشارع استقلينا سيارة أجرة وتوجَّهنا إلى مخزن البقالة الفرنسي- الإيطالي. كانت الساعة قد بلغت العاشرة والمكان ما يزال مزدحماً. كان على أحد جانبينا ملازم في الشرطة وعلى الطرف الآخر بوليس سري. جلسنا على الطاولة الطويلة. قبالتنا كان هناك قراب وفيه مسدس، معلَّق على مسمار في الجدار. وإلى اليسار كان المطبخ المفتوح حيث أخو

twitter @baghdad_library

صاحب المحل الضخم السمين يسيطر على الموقف. كان دباً هائلاً أخرس يقطرُ شحماً وعَرَقاً. وبدا أنه دائما يرتجل. ولاحقاً، بعد أن امتلأنا بالطعام، دعانا لتناول مشروب معه. أما أخوه، الذي يقدم الطعام ويجمع الأطباق، فكان من نمط مختلف تماماً. كان وسيماً، ومهذباً، ودمثاً ويتكلّم الإنكليزية بطلاقة. وحين يخفُّ الزحام كان غالباً ما يجلس ليتسامر معنا، ويتحدث في أغلب الأحيان عن أوروبا، فكم الجو مختلفٌ هناك، و"متحضرٌ"، وكم الحياة ممتعة. أحياناً كان يشرع في التحدث عن شقراوات شمال إيطاليا المكان الذي جاء منه. كان يصفهن وصفاً دقيقاً - لون شعورهن وعيونهن، وميزات بشراتهن، وأفواههن الشهواني، الفاسقة، والحركة الخليعة لأوراكهن حين يمشين، وما إلى ذلك. قال إنه لم يشاهد مثيلاً لهن في أميركا أبداً. كان يتحدث عن الأميركيات باشمئزاز، واحتقار، وبشفتين ملتويتين. كان يقول " لا أدري ما الذي يدعوك إلى البقاء هنا، يا سيد ميللر. إن زوجتك آية في الجمال... لم لا تذهبان إلى إيطاليا؟ فقط بضعة أشهر. وأؤكِّد لكما أنكما لن تعودا "، ومن ثم يطلب لنا مشروباً آخر ويطلب منا أن نطيل مكوثنا ... وقد يأتي صديق له... مغنٍّ من دار الأوبرا المتروبوليتانية.

وسرعان ما انخرطنا في حديثٍ مع رجل وامرأة يجلسان قبالتنا. كانا في مزاجٍ مرح وقد انتقلا لتوهما إلى شرب القهوة ومشروبات أخرى. واستنتجت من تعليقاتهما أنهما من أهل المسرح.

كان صعباً مواصلة الحديث نظراً لوجود سفاحَين على الجانب الآخر من مكان جلوسنا. فقط شعرا أنهما مُزدَرَيَان، فقط لأننا كنا نتحدث عن أمور تتجاوز فهمهما لها. وكان الملازم يلقي بين حين وآخر ملاحظة

حمقاء حول " خشبة المسرح ". وكان الآخر، البوليس السري، ثملاً وبدأ يسيء التصرُّف. شعرت بالامتعاض منهما وأظهرت ذلك علانية بتجاهل ملاحظاتهما تجاهلاً تاماً. وأخيراً، لما خلا وفاضهما، بدءا يضايقاننا بشكل متواصل.

قلت، مشيراً إلى صاحب المحل، " دعنا ننتقل إلى الغرفة الأخرى. هل تستطيع أن تفرد طاولة لنا هناك؟ "

قال " ما الأمر؟ أثمة خطب؟ "

قلت " لا، المكان لا يعجبنا، هذا كل شيء "

قال البوليس السري مزمجراً " تقصد أننا لا نعجبك "

قلت، بزمجرة مقابلة " بالضبط "

" لسنا بمستواك الراقي، هه؟ مَنْ تظن نفسك بحق الجحيم؟ "

" أنا رئيس الجمهورية ماكنلي[١٢٣] – وأنت؟ "

التفت إلى صاحب المحل وقال " يتذاكى، هه؟ مَنْ يكون هذا الرجل، بالمناسبة ... ماذا يريد؟ أيحاول أن يُظهِرَني كمغفَّل؟ "

قال صاحب المحل " اخرس! أنت سكران "

" سكران! مَنْ يقول أنا سكران؟ "، وبدأ يترنَّح وهو ينهض على قدميه، لكنه عاد فجلس على كرسيه.

" الأفضل أن تخرج من هنا ... إنك تسبب مشاكل. وأنا لا أريد أي مشاكل في محلي، أتفهم؟ "

" ماذا فعلت حتى تصرخ بي هكذا؟ "، وبدأ يتصرَّف كطفل مُهان.

---

١٢٣ – وليم ماكنلي (١٨٤٨ – ١٩٠١) : الرئيس الخامس والعشرون للولايات المتحدة الأميركية ، من ١٨٩٧ إلى ١٩٠١، قُتِل . – المترجم

twitter @baghdad_library

قال صاحب المحل " لا أريد أن تتسبَّب في إبعاد زبائني "

" مَنْ الذي يبعد زبائنك؟ ألسنا في بلدٍ حر؟ وأستطيع أن أتكلَّم كما أشاء، ألا أستطيع؟ ماذا قلت ... أخبرني! أنا لم أقل أي شيء مهين. أنا أيضاً أستطيع أن أكون جنتلماناً: ولو أردت ... "

قال صاحب المحل " لن تكون جنتلماناً أبداً. هيا، اجمع أشياءك واخرج من هنا. اذهب إلى بيتكم ونم! "، والتفت إلى الملازم ورماه بنظرة ذات مغزى، وكأنه يقول - هذا هو عملك، أخرجه من هنا!

ثم أمسكنا من ذراعينا وقادنا إلى الغرفة الأخرى. وتبعنا الرجل والمرأة الجالسان قبالتنا. وقال، وهو يرافقنا إلى مقعدينا " سأتخلَّص من هذين السكِّيرين فوراً. أنا شديد الأسف، يا سيد ميللر. هذا ما أنا مضطر إلى تحمّله بسبب قانون التحريم ذاك. في إيطاليا ليس لدينا مثل هذا الشيء. كل إنسان يهتم بشأنه ... ماذا ستشربان؟ انتظرا، سأحضر لكما شيئاً جيداً ... "

الغرفة التي انتقلنا إليها كانت غرفة ولائم خاصة لمجموعةٍ من الفنانين - أغلبهم من أهل المسرح، وإن كان هناك عدد من الموسيقيين، والنحاتين والرسامين. اقترب منا أحد أفراد المجموعة، وبعد أن قدَّم نفسه، قدَّمنا إلى الأعضاء الآخرين. بدوا مسرورين لوجودنا بينهم. وسرعان ما أقنعونا بترك طاولتنا والانضمام إلى المجموعة على المائدة الكبرى المملوءة بالأباريق الزجاجية، وزجاجات المياه المعدنية، والأجبان، والمعجنات، وأواني القهوة وما إلى ذلك.

عاد صاحب المحل يشعُّ بهجة. قال " الجو أفضل هنا، أليس كذلك؟ "، وكان يحمل زجاجتين من الكحول على ذراعيه. ثم قال وهو يجلس

على المائدة، " لمَ لا تعزفون لنا بعض الموسيقى؟ آرتورو، هات غيتارك... هيا، اعزف شيئاً! وربما تغني السيدة لك "

وسرعان ما اندمجنا جميعاً في الغناء - أغان إيطالية، وألمانية، وفرنسية، وروسية. ودخل الأخ الأبله، رئيس الطهاة، مع طبقٍ كبير من شرائح اللحم البارد والجبن والفاكهة والجوز. أخذ يتنقَّل في أنحاء الغرفة باضطراب، أشبه بدب متقلقل الحركات، ينخر، ويطلق صوتاً حاداً، ويضحك لنفسه. ولم يكن لديه مثقال ذرة من المادة السنجابية[١٢٤] في مخه، لكنه كان طباخاً رائعاً. أظن أنه لم يخرج دهره ليتمشّى. حياته كلها أمضاها في المطبخ. كان تعامله فقط مع مواد الطعام - وأبداً ليس مع النقود. فما حاجته إلى النقود؟ لا يمكنه أن يطبخ بالنقود. التلاعب بالنقود كان عمل أخيه. ظلَّ اهتمامه متمركزاً على ما يأكله الناس ويشربونه - لم يكن يهتم بما يتقاضاه أخوه مقابل ذلك. " هل أعجبك؟ " - هذا ما يهمّه أن يعرفه. أما ما كان عليهما أن يأكلاه فليس لديه إلا فكرة واهية، مبهمة عنه. كان سهلَ الانخداع، إذا ما خطر لك أن تخدعه. ولكن لا أحد فعل ذلك أبداً. كان سهلاً القول " لا مال معي... سأدفع لك في المرة التالية "، فيجيب " حتماً، في المرة التالية! "، دون أن يُظهِر أدنى أثر لخوف أو قلق على قسماته المزيّنة. " في المرة القادمة اجلب صديقك معك، هه؟ "، ثم يصفعك على ظهرك بمخلبه الكثيف الشعر - ضربة مدوِّية تجعل عظامك تهتزّ كحجر النرد. لقد كان حيواناً ضخماً، وزوجته مخلوقة ضئيلة هشّة، ذات عينين واسعتين، توحي بالثقة بالآخرين، مخلوقة لا تصدر أي صوت، تتكلم وتنصت بعينين كبيرتين حزينتين.

---

١٢٤ - المادة السنجابية : المسؤولة عن نسبة الذكاء عند الإنسان . - المترجم

twitter @baghdad_library

كان اسمه لويس، وكان يناسبه تماماً. لويس البدين! واسم أخيه جو - جو ساباتيني. وكان جو يُعامِلُ أخاه الأبله كما يعامل صبي إسطبل حصانه المفضَّل؛ يربت عليه بحبٍ عندما يريده أن يستحضر وجبة سمك لذيذة لزبون دائم. فيجيب لويس بنخرةٍ أو بصهيل، معبراً عن سروره كأي فرس حسّاسة إذا ما داعبت ردفها الحريري. بل إنه كان يتصرَّف بشيء من الغنج، وكأنَّ مداعبة أخيه تُحرِّر داخله غريزة أنثوية حبيسة. وعلى الرغم من قوته الحيوانية لا يخطر في بال المرء أن يفكر في ميول لويس الجنسية. كان حيادياً وخنثوياً. وإن كان له أير فهو للتبوُّل، لا أكثر. إن المرء ليشعر حيال لويس أنه عند الضرورة يمكن أن يضحِّي بأيره لتوفير كمية زائدة من شرائح الـ saucisson (السجق). إنه يفضِّل أن يخسر أيره على أن يقدِّم لك طبقاً مشهِّياً سقيماً.

كان جو يشرح لي ولمونا " في إيطاليا تأكل طعاماً أفضل من هذا. لحماً أفضل، خضروات أفضل، وفاكهة أفضل. في إيطاليا تسطع الشمس طوال النهار. والموسيقى! الكل يغنّي. هنا يبدو الحزن على الجميع. أنا لا أفهم. هناك الكثير من المال، والكثير من الوظائف، لكن الجميع حزين. هنا البلد لا يصلح للعيش فيه ... لا يصلح إلا لتوظيف المال. بعد سنتين أو ثلاث سأعود إلى إيطاليا. سأصحب لويس معي وسوف نفتتح مطعماً صغيراً هناك. ليس لجمع المال ... فقط للعمل. في إيطاليا لا أحد يكسب نقوداً. الكل فقير. ولكن اللعنة، يا سيد ميللر... سامحني... إننا نمضي وقتاً ممتعاً! وهناك الكثير من النساء الجميلات ... الكثير! أنت محظوظ بحصولك على زوجة بمثل هذا الجمال. زوجتك تشبه الإيطاليات. الإيطاليون طيبون جداً. الكل يعاملك

معاملة حسنة. الجميع يعقد صداقات معك دون مقدمات ... "

في تلك الليلة، ونحن في السرير، بدأنا نتحدث عن أوروبا. كانت مونا تقول " يجب أن نذهب إلى أوروبا "

" نعم، ولكن كيف؟ "

" لا أدري، فال، ولكن سنجد سبيلاً إلى ذلك "

" أتعلمين كم يلزم من النقود للذهاب إلى أوروبا؟ "

" لا يهم. إذا أردنا أن نذهب فسوف نجد طريقة لجمع المال ... "

كنا مستلقيين على ظهرينا، وأيدينا متشابكة خلف رأسينا، ننظر فوقنا مباشرة إلى قلب الظلمة - نرتحل كالمجانين. كنت قد استقلت متن قطار الشرق أبغي مدينة بغداد. وكانت تلك بالنسبة إليّ رحلة مألوفة لأنني كنت قد قرأت عن تلك الرحلة في أحد كتب دوس باسوس[١٢٥]. فيينا، بودابست، صوفيا، بلغراد، أثينا، القسطنطينية ... ربما إذا ما وصلنا إلى ذلك الحد فقد نتمكّن أيضاً من الوصول إلى تمبكتو. أنا أيضاً أعرف الكثير عن تمبكتو - من الكتب. يجب ألا ننسى تاورمينا [١٢٦]! وتلك المقبرة في اسطنبول التي كتب عنها بيير لوتي[١٢٧]. والقدس ...

سألتها، وأنا ألكزها برفق " بمَ تفكرين الآن؟ "

" كنت أقوم بزيارة أهلي في رومانيا "

" في رومانيا؟ وأين في رومانيا؟ "

" لا أعلم أين بالضبط. في مكانٍ ما من الجبال الكرباتية "

---

١٢٥ - جون دوس باسوس (١٨٩٦ - ١٩٧٠)؛ روائي أميركي. له ثلاثية " الولايات المتحدة الأميركية ". - المترجم

١٢٦ - تاورمينا: منتجع شتوي إيطالي، يقع في مقاطعة ميسينا، شرقي جزيرة صقلية. - المترجم

١٢٧ - بيير لوتي (١٨٥٠ - ١٩٢٣): اسمه الأصلي جوليان فيو. روائي وضابط فرنسي. له "صياد أيسلندا" و"زواج لوتي". - المترجم

twitter @baghdad_library

" كـان عـندي ذات يوم سـاعٍ، هولندي مـجنون، وقـد تعـوّدَ على أن يكتب لي رسـائل طويلة من الجـبـال الكرباتيـة. كـان يسكن قـصـر الملكة..."

" ألا ترغب في الذهاب إلى أفـريقـيـا أيضـاً - ومـراكش، والجـزائر، ومصر؟ "

" هذا بالضبط ما كنت أحلم به قبل قليل "

" لطالما رغبت في التوغُّل في الصحراء ... وأضيع هناك "

" هذا غريب. أنا أيضاً أردت ذلك. إنني مجنون بالصحراء "

صمت. ضياعٌ في الصحراء ...

هناك مَنْ يتحدَّث إليّ. لقد كنا نتبادل حديثاً مطولاً. وأنا لم أعد موجوداً في الصـحـراء ولكن في الجـادة الســادســة أسـيـر تحت مـحطة مرفوعة. صديقي ألريك يضع يده على كتفي ويبتسم لي مطمئناً. إنه يكرر على مسـمعي ما قـاله قبل قليل - من أنني سأكـون سعيداً في أوروبا. يتحدث من جديد عن جبل إتنا، عن كروم العنب، ووقت الفراغ، والكسل، والطعام الطيّب، والشمس الساطعة. إنه يزرع بذرة فيَّ.

بعـد ذلك بستّ عـشـرة سنة في صـبـاحِ يومِ أحـد أجـدني أتمشّى باستمتاعٍ، بصحبة شخصٍ أرجنتيني وعاهرة من مونمارتر، في أرجاء كاتدرائية في نابولي. أشعر أني قد عثرت أخيراً على أحد بيوت العبادة التي يمكن أن أستمتع بالصلاة فيه. إنه لا يخصُّ الله أو البابا، بل يخصُّ الشعب الإيطالي؛ إنه مكان ضخم، أشبه بمخزن حبوب، مفروش بشكلٍ ينمُّ عن أسوأ ذوق، بكل الزخارف العزيزة على القلب الكاثوليكي. هناك الكثير من المساحة الأرضية، اقصد المساحة الأرضية الفارغة. يلجها

الناس من بوابات عدة ويتمشّون فيها بحرّية تامة. يبدون وكأنهم في عطلة. الأطفال يثبون في المكان كالحملان، بعضهم يحمل باقات زهر صغيرة في يده. ويتقابل الناس ويتبادلون التحيات، تماماً كما لو أنهم في الشوارع. وعلى طول الجدران اصطفّت تماثيل قديسين بأوضاعٍ مختلفة؛ ينضحون بالمعاناة. لدي رغبة قوية في أن أمرِّر يدي على الرخام البارد، وكأنما لأنبِّههم لكي لا يبالغوا في إظهار المعاناة، فذلك غير لائق. ولدى اقترابي من أحد التماثيل لاحظت من طرف عيني امرأة مسربلة بالسواد راكعة أمام شيء مقدَّس. إنها مثال للتقوى. لكن لا يسعني إلا أن ألاحظ أنها أيضاً صاحبة طيز رائعة، بل يمكنني القول، إنها طيز موسيقية. (الطيز تقول لك كل شيء عن المرأة، وعن شخصيتها، ومزاجها، وعمّا إذا كانت حارة الدماء، أم كئيبة، أم مرحة، أم متقلِّبة، وما إذا كانت سريعة الاستجابة أم عديمة الاستجابة، وما إذا كانت تحمل صفات الأم أم هي محبَّة للمتعة، ما إذا كانت صادقة أم كاذبة، بالفطرة)

أثارت تلك الطيز اهتمامي، وأيضاً التقوى التي تخنقها. أمعنت النظر فيها حتى أن صاحبتها استدارت أخيراً، ويداها ما تزالان ترفعان الصلاة، وشفتاها تتحركان وكأنها تمضغ الشوفان في نومها. رمتني بنظرة تأنيب، واحمرَّت من الخجل، ثم أعادت نظرتها ثانية إلى موضوع العبادة، الذي لاحظت آنئذٍ أنه يمثِّل أحد القديسين، شهيد معاق ومكتئب بدا وكأنه يتسلَّق هضبة وظهره مكسور.

ابتعدتُ باحترامٍ عن مرافقي. ذكَّرني نشاط الزحام ببهو فندق أستور- وبلوحات أوتشيللو[128] (عالم المنظور المبهر ذاك!). ذكَّرني أيضاً

---

١٢٨ – باولو أوتشيللو (١٣٩٦ – ١٤٧٥) ؛ رسام فلورانسي . – المترجم

twitter @baghdad_library

بالسوق الكاليدونية في لندن، بركام بهرجتها الهائلة. وبدأ يذكّرني بأشياء كثيرة، بكل شيء، في الحقيقة، ماعدا ببيت العبادة الذي هو أصله. توقّعت أن أرى مالفوليو[١٢٩] أو مركوشيو[١٣٠] يدخلان المكان وهما بلباسهما الكامل. رأيت رجلاً واحداً، من الواضح أنه حلاق، ذكّرني بقوة بفرنر كراوس في مسرحية " عطيل ". ولمحت عازف أرغن يدويّ جوّال من نيويورك اقتفيت أثره ذات مرة حتى عرينه الذي يقع خلف مبنى البلدية.

أشدُّ ما فتنني رؤوس رجال نابولي العجائز الضخمة والشبيهة برؤوس الغرغونات[١٣١]. كأنها خارجة للتو من عصر النهضة: ثمار كرنب ضخمة مُهلكة على جبينها جمرٌ مشتعل. أشبه بعمالقة اليورازن[١٣٢] الذين تخيّلهم وليم بليك في أشعاره. تتنقّل تلك الرؤوس بحيوية فائقة بتنازل، وكأنها تتعالى على الألغاز الشائنة للكنيسة الدنيوية وإفرازها من القوّادين المتلفعين بالأردية القرمزية.

شعرت بألفة شديدة. كانت بازاراً مفهوماً، يتّصف بسمة أوبرالية، متقلّبة، حلاّقيّة. الطنين الصادر عن المذبح كان كتوماً وأنيقاً، أشبه بجو مخدع نسائي مستتر فيه يقوم كاهن، يساعده قندلفتاته المخصيُّون، بغسل جوربه بالماء المقدس. وخلف المدْرَعات[١٣٣] المتألقة كانت أبوابٌ صغيرةٌ شبكيّة، كالتي استخدمها الدجّالون في العروض الشعبية التي

---

١٢٩ – مالفوليو : شخصية شيكسبيرية من مسرحية " الليلة الثانية عشرة " . – المترجم

١٣٠ – مركوشيو : شخصية شيكسبيرية من مسرحية " روميو وجولييت " . – المترجم

١٣١ – الغرغونة : في الأساطير الإغريقية ، مخلوقات بشعة تحوّل الناظر إليها إلى حجر . – المترجم

١٣٢ – عملاق اليورازن : في قصائد وليم بليك (١٧٥٧ – ١٨٢٧) الصوفيّة ، هو عملاق عجوز متجهّم ، يرمز إلى الأخلاق المتزمتة والصارمة . – المترجم

١٣٣ – المدْرَعة : رداء خاص بالقندلفت ، أو مساعد الكاهن في الكنيسة . – المترجم

كانت تُقام في الشوارع في العصور الوسطى. أي شيء يمكن أن يُقذَف في وجهك من تلك الأبواب الصغيرة الغامضة. فهنا كان مذبحٌ تعيثُ فيه الفوضى، من أشياء رخيصة مزخرفة وورقيّة، تفوح منها رائحة دهان زيتي، وبخور، وعَرَق وإهمال. كان أشبه بالفصل الأخير من مسرحية هزلية فاقعة، مسرحية مبتذلة تعالج موضوع الدعارة وتنتهي بموانع الحمل. الممثلون يستجلبون الحب والعطف، ليسوا خطاة، بل متشردون. ألفان من السنين من الخداع والاحتيال تراكمت في هذا الجانب من العرض. كله شقلبات ومنوعات خفيفة، مهرجان من الفسق والابتذال يتّخذ فيه المخلِّص، المصنوع من جصّ باريس، مظهر خصيّ يلبس تنورة. النساء يصلِّينَ ليحصلن على أطفال والرجال يصلُّون ليحصلوا على طعام ليشبعوا به الأفواه الجائعة. وفي الخارج، على الرصيف، أكوامٌ من الخضروات، والفاكهة، والأزهار والسكاكر. دكاكين الحلاقين مفتوحة أبوابها واسعاً وأولاد صغار، يشبهون ما أنتجه فرا أنجيليكو[١٣٤]، يقفون حاملين مراوح كبيرة يطردون بواسطتها الذباب. مدينة جميلة، تضجُّ بالحياة، ومنقوعة بأشعة الشمس. في الخلفية بركان فيزوف، مخروط ناعس ينفث حلقات كسلى من الدخان. لقد كنت في إيطاليا - أنا واثق من ذلك. إنها تماماً كما تخيَّلتُها. وفجأة أدركتُ أنها[١٣٥] ليست برفقتي، ويغلبني الحزن برهة. ثم تساءلت ... تساءلت حول البذرة وإثمارها. أما بالنسبة إلى تلك الليلة، حين أوينا إلى السرير مع توق نَهِمٍ لزيارة أوروبا، دبّت الحياة في شيءٍ ما داخلي. وكرَّتْ السنون ... قصيرة،

---

١٣٤ - فرا أنجيليكو (١٣٨٧ - ١٤٥٥ ؟) : راهب ورسام إيطالي ، لوحاته تمثّل مواضيع دينية . - المترجم

١٣٥ - يقصد مونا . - المترجم

twitter @baghdad_library

فظيعة، بدت خلالها كل بذرة نمت كأنما سحقت وجُعِلَتْ عجينة. كان إيقاعنا قد تسارع، إيقاعها بطريقة ماديّة، وإيقاعي بطريقة أكثر رهافة. وهي التي انطلقت إلى الأمام بسرعة محمومة، مبدِّلة مشيها إلى وثب غزال. أما أنا فكأنما وقفت ثابتاً في مكاني، لا أحرز أي تقدُّم، وإنما أدور لولبياً كذروة. هي وضَعَتْ هدفاً نُصبَ عينيها، ولكن كلما أسرعَتْ في حركتها ابتعدَتْ أكثر عن الهدف. أما أنا فعلمتُ أني لا يمكن أن أصل إلى الهدف بتلك الطريقة. حرَّكتُ جسدي برضوخ، لكن عيني كانت دائماً على البذرة التي في داخلي. أوروبا، أوروبا ... كانت معي دائماً، حتى ونحن نتشاجر، ويصرخ كلٌّ منا في وجه الآخر كمهووسَين. وكرجلٍ ممسوس بفكرة، كنت أعيد مجرى الحديث إلى الموضوع الوحيد الذي يثير اهتمامي: أوروبا. في ليالٍ جسنا خلالها المدينة، ونحن نبحث كالقطط الضالة عن بقايا طعام، كانت مدنُ وشعوبُ أوروبا في بالي. كنت كعبدٍ يحلم بالحرية، كيانه كله مغمور بفكرة واحدة: الهروب. ما كان يمكن لأي إنسان أن يقنعني حينئذ بأنَّه لو خُيِّرت بينها وبين حلمي بأوروبا لاخترتُ هذا الأخير. كان سيبدو أمراً لا يصدَّق، حينئذ، أن أفترض أنها هي التي ستقدِّم لي هذا الخيار. والأمر الأشدّ بُعداً عن التصديق هو أني في اليوم الذي سأبحر فيه متوجهاً إلى أوروبا سوف أطلب من صديقي ألريك مبلغ عشرة دولارات ليكون في جيبي بعض المال عندما أطأ ترابي الأوروبي الحبيب.

ذلك الحلم شبه المُعلَنْ في الظلام، تلك الليلة وأنا وحدي في الصحراء، وصوتُ ألريك يواسيني، والجبال الكارباتية تتعالى من تحت القمر، وتمبكتو، وأجراس الجمال، ورائحة الجلد والروث الجاف، المسفوع

(" بمَ تفكِّر؟ "، " أنا أيضـاً! ")، والصـمت المُطبِقْ، الممـتلئ بغنى، والجدران الجرداء، الميتة للمنزل المقابل، وكون آرثر ريموند نائماً، وأنه في الصباح سيتابع تمارينه، دائماً وأبداً، ولكن أنّي تغيَّرت، وأنَّ هناك مخارجَ، وفتحات للرمي، وإن كان ذلك فقط في الخيال، هذا كله عَمل عَمَلَ الخميرة وقَوّى حبي لها. دفعني إلى الإيمان بأنَّ ما لا أستطيع أَن أنجزه وحدي أستطيع أن أنجزه معها، ولأجلها، ومن خلالها، وبسببها. لقد أصبحَتْ هي مِرشّة الماء، المُخصِبَة، المستنبت الزجاجي، حِمل البغل، المستكشفة، المُعيلة، أداة التوازن، الفيتامين المُضَاعف، قاذفة اللهب، المقتحمة.

منذ ذلك اليوم فصاعداً تحرَّكتْ الأمور بسرعةٍ فائقة. أتريد أن تتزوج؟ طبعاً، ولمَ لا؟ فوراً. ألديك المال اللازم للحصول على الرخصة؟ لا، ولكن سأقترضها. عظيم. أقابلك عند مفترق الطرق ...

نحن في أنفاق سكة حديد هدسن في طريقنا إلى هوبوكن. سنتزوج هناك. لماذا هوبوكن؟ لا أذكر. ربما لأخفي حقيقة أني كنت متزوجاً من قبل، ربما لأننا كنا متقدّمَين قليلاً على البرنامج المقرَّر. على أي حال، كانت هوبوكن.

في القطار حصلت بيننا مشادة صغيرة. القصة القديمة نفسها - إنها ليست واثقة من أني أريد أن أتزوج منها. تعتقد أني أفعل ذلك فقط لأرضيها.

قبل بلوغ هوبوكن بمحطة واحدة قفزت مترجِّلة من القطار، فقفزتُ بدوري وركضت خلفها.

" ماذا دهاكِ - أجننتِ؟ "

twitter @baghdad_library

" أنت لا تحبني. لن أتزوجك "

" إنك تبالغين، وحقُّ الله! "

أمسكتُها بإحكامٍ وأعدتُها إلى حافة الرصيف. وحين دخل القطار التالي المحطة أحطتُها بذراعيَّ وعانقتها.

" أنت واثق يا فال؟ أنت واثق من رغبتك في الزواج مني؟ "

قبَّلتها مرة أخرى، " هيا بنا، وكفى! أنت تعلمين جيداً أننا سنتزوج"، وقفزنا إليه.

هوبوكن. مكان حزين، موحش. مدينةٌ بالنسبة إليّ أجنبية أكثر من بكين أو لاسا[١٣٦]. عثرنا دار البلدية. ووجدنا اثنين من المشردين ليكونا مشاهدين.

المراسم. ما اسمك؟ واسمك أنت؟ واسمه هو؟ وما إلى ذلك. منذ متى وأنت تعرفين هذا الرجل؟ وهذا الرجل صديقٌ لكما؟ نعم يا سيدي. من أين التقطته؟ - من برميل الزبالة؟ أوكيه. وقّعا هنا. بانغ، بانغ! ارفع يدك اليمنى! أقسم بشرفي ...الخ، الخ. تزوجنا. خمسة دولارات، من فضلك. قبِّل العروس. اللّي بعدو، من فضلكم ...

الكلّ سعيد؟

أرغب في أن أبصق.

في القطار ... أحمل يدها في يدي. كلانا منقبض النفس، ومُهَان.

" أنا آسف، مونا ... ما كان يتعيَّن أن نتزوج بهذه الطريقة "

قالت بهدوء شديد هذه المرة، " لا عليك، فال "، وكأننا قمنا للتو بدفن أحدهم.

---

١٣٦ - لاسا : عاصمة التبت . - المترجم

" لكنَّ الأمـرَ ليس على مـا يرام. اللعنة. أنا مـتـألِّم. أشـعـر بالاشمئزاز. هذه ليست طريقة سليمة للزواج. أبداً لن ... "

كبحتُ نفسي. نظرتُ إليّ وعلى وجهها تعبير ذاهل.

" ماذا كنتَ توشك أن تقول؟ "

كذبت. قلت: " لن أسامح نفسي لأني أتممتُ الأمر بهذا الأسلوب "

ثم صَمَتُّ. ارتعشت شفتاها.

قالت " لا أريد أن أعود إلى المنزل الآن "

" ولا أنا "

صمتُ.

قلت " سـأتَّصل هاتفيـاً بألـريك. سنتناول طعـام العـشـاء مـعـه. مـا رأيك؟ "

قالت، بشبه خنوع، " نعم "

دخلنا حجيرة هاتف معاً لنتَّصِل بألريك. أحطتها بذراعي. قلت " الآن أنت السيدة ميللر، فما هو شعورك؟ "

بدأت تبكي. " ألو، ألو؟ أهذا أنت، ألريك؟ "

" لا، هذا أنا، ند "

ألريك غير موجود – ذهب إلى مكان ما وسيغيب طوال النهار.

" اسمع، ند. لقد تزوجنا "

قال " مَنْ الذي تزوج؟ "

" مونا وأنا، طبعاً ... ماذا تظن؟ "

كان يحاول أن يحوِّل إلى مزاح، وكأنه يريد أن يقول إنه ليس واثقاً ممَّن سأتزوج.

twitter @baghdad_library

" اسمع، ند، الأمر جادّ. ربما لأنك لم تتزوج قط. نحن مكتئبان. مونا تبكي. وأنا بدوري أوشك أن أبكي. هل يمكننا أن نأتي إليك، ونمكث بعض الوقت؟ إننا ضجران. وقد نشاركك في شرب كأس، ما رأيك؟ "

عاد ند يضحك من جديد. طبعاً يمكننا أن نأتي - فوراً. كان ينتظر قدوم عاهرته، مارسيل. لكن ذلك لا يهمّ. لقد بدأ يملّها. إنها أفضل منه بكثير. إنها ترهقه حتى الهلاك. نعم تعالا فوراً ... سوف نُغرِق أحزاننا.

" حسن، لا تقلق. سيكون مع ند بعض النقود. سندفعه إلى إطعامنا. أعتقد أنه لا أحد سيفكّر في أن يقدِّم لنا هدية عرس. هذه هي نتيجة الزواج بهذا الشكل غير التقليدي. تعلمين، حين تزوجتُ مود رهنًا بعض هدايا العرس في اليوم التالي. ولم أستعدها أبداً. إنَّ المرءَ لا يحتاج إلى الكثير من السكاكين والشوك الفضيّة، أليس كذلك؟ "

" أرجوك كفاكَ كلاماً بهذه الطريقة يا فال "

" أنا آسف. أعتقد أني اليوم أتصرَّف بشيء من الحمق. إن تلك المراسم أحبطتني. كنت مستعداً أن أقتل ذلك الرجل "

" فال، كفى، أتوسَّل إليك! "

" حسن، سنكفُّ عن التحدُّث عن هذا الأمر. فلنستَعِدْ مرحنا الآن، ما رأيك؟ هيا نضحك ... "

كان لند ابتسامة وديّة. كنت أحبه. كان إنساناً ضعيفاً. ضعيف ومحبوب. أناني في أعماقه. بل شديد الأنانية. لهذا لم يتمكّن من الزواج أبداً. وكان صاحب مواهب أيضاً، الكثير من المواهب، لكنه ليس عبقرياً. ولا يتمتّع بأي قُدُرات ثابتة. كان فناناً عَثَرَ على أداته. والأداة

المفضَّلة لديه كانت الشربُ. وحين يشرب يتخلَّى عن تحفُّظه. في مظهره الخارجي كان يذكِّرني بجون باريمور[١٣٧] في أفضل أيامه. كان دوره هو دون خوان، خاصة وهو يرتدي بذلة فينشلي مع ربطة عنق عريضة الطرفين تحيط بعنقه. له صوت يمتع الأسماع. صوت جهير فخيم، ثري بالتبدلات الفاتنة. كل ما يقوله يبدو دمثاً وهاماً، على الرغم من أنه لم يكن ينطق أبداً أي كلمة تستحق التذكُّر. لكنه وهو يتكلَّمُ يُخيّلُ إليك أنه يداعبك بلسانه، يلعقك في كل مكان من جسمك، ككلب سعيد.

قال، وهو يرسم ابتسامة تمتد من الأذن إلى الأذن، ورأيت للتو أنها مرتجلة، " هكذا، هكذا، إذن ذهبتَ وفعلتها؟ حسن، ادخلا. مرحباً مونا، كيف حالك؟ تهانينا! مارسيل لم تصل بعد. آمل ألا تأتي. لا أشعر بحيوية كبيرة اليوم "

كان ما يزال يبتسم حين جلس على كرسي كبير كالعرش يقع بالقرب من حامل اللوحات.

قال " سوف يأسف ألريك حتماً لأنه لم يكن حاضراً. ما رأيكما بقدر من الويسكي – أم ترغبان بالجِن؟ "

" جِن "

" حسن، احكِ لي كل شيء. متى حدث الأمر ... الآن فقط؟ لماذا لن تُعلِمني – كنت ساندتك ... "، ثم التفتَ إلى مونا. " أتُراكِ حبلى؟ "

قالت مونا " يا إلهي، دعونا نتحدث في أمر آخر. أقسم أني لن أتزوج مرة أخرى ... إنه أمر فظيع "

" اسمع، ند، قبل أن تسكر، قُل لي ... كم معك من نقود؟ "

---

١٣٧ – جون باريمور (١٨٨٢ – ١٩٤٢) : ممثل أميركي. – المترجم

twitter @baghdad_library

أخرَجَ من جيبه ستة بنسات. قال " أوه، لا عليك، مارسيل سيكون معها"

" هذا إذا أتت "

" أوه، ستأتي، لا تقلق. هذا أسوأ ما في الأمر. لا أدري أيُّهما الأسوأ - أن أكون مفلساً أم أن يكون لي واحدة مثل مارسيل "

قلت " لم أكن أظن أنها سيئة إلى هذه الدرجة "

قال ند " كلا، هي ليست كذلك في الواقع. إنها فتاة لطيفة جداً لكنها مفرطة التعلُّق بي. تلتصق، كما تعرف. إنني لم أخلق للسعادة الزوجية. أشعر بالضجر من مشاهدة الوجه نفسه، حتى وإن كان وجه السيدة العذراء. أنا إنسان متقلِّب. وهي مخلصة. إنها تدعمني طوال الوقت. أنا لا أريد مَنْ يدعمني - ليس طوال الوقت "

قالت مونا " إنك لا تعرف ما تريد؟ لا تعرف متى تكون في أحسن حالاتك "

قال ند " أعتقد أنك على حق. ألريك مثلي. أعتقدُ أننا من المازوشيين "، وابتسم ابتسامته العريضة. كان خجلاً قليلاً من استخدام كلمة كتلك بسهولة هكذا. كانت كلمة تدل على الثقافة وند لم يكن يلجأ إلى الأشياء الثقافية.

رنَّ جرس الباب. إنها مارسيل. سمعتُها تقبِّله قبلة مفرقعة.

" تعرفين هنري ومونا، أليس كذلك؟ "

قالت مارسيل بإشراق، " نعم طبعاً أعرفهما. لقد ضبطتُك وأنت عارٍ ... أتذكر؟ حدث ذلك منذ مدة طويلة "

قال ند " اسمعي، خمِّني ماذا فعلا؟ لقد تزوَّجا ... نعم، قبل وقت قصير ... في هوبوكن "

قالت مارسيل " هذا رائع! "، وتقدَّمت من مونا وقبَّلتها. وقبَّلتني أنا أيضاً.

قال ند " ألا يبدوان حزينين؟ "

قالت مارسيل " لا، لا أظن أنهما يبدوان حزينين. ولمَ يكونان كذلك؟ ". صَبَّ لها ند كأساً. وبينما هو يناولها إياه، قال:

" أمعك نقود؟ "

" طبعاً معي. لماذا؟ أتريد مبلغاً؟ "

" كلا، ولكن هما يحتاجان إلى مبلغ صغير. إنهما مفلسان "

قالت مارسيل " أنا آسفة جداً. طبعاً معي نقود. كم تريدان - عشرة، عشرين؟ تحت أمركما. ولا تردّاها - اعتبراها هدية عرس "

اقتربت مونا منها وأمسكت بيدها. " هذا لطفٌ بالغ منك، مارسيل. شكراً لك "

قلت، محاولاً أن أعبِّر عن استحساني، " إذن سنأخذك لنتناول طعام العشاء "

قالت مارسيل " لا، لن تفعلا. سوف نُعِدُّ العشاء هنا. دعونا نجلس ونرتاح. أنا لا أؤمن بالاحتفال خارج البيت ... حقاً. أنا سعيدة جداً. أحب أن أرى الناس يتزوجون - ويستمرون في زواجهم. لعلّي دقّة قديمة، لكني أؤمن بالحب، وأريد أن أبقى عاشقة طوال حياتي "

قلت " مارسيل، مِنْ أين أتيتِ بحق الجحيم؟ "

" من يوتا. لماذا؟ "

" لا أدري، لكني معجبٌ بك. إنكِ تُنعشين النَفْس. أحبُّ أيضاً الطريقة التي سلَّمتِ بها النقود "

twitter @baghdad_library

" أنت تهزأ بي؟ "

" لا، لا أهزأ. أنا جادّ. أنتِ امرأة طيبة. بل أطيب من أن تصلُحي لذاك المتشرِّد. لمَ لا تتزوّجينه؟ هيا! سوف تخيفينه حتى الموت، لكن ذلك قد يفيده أيّما إفادة "

قالت، ملتفتة إلى ند وهي تقهقه، " أتسمع ما يقول؟ أليس هذا ما أقوله لك طوال الوقت؟ أنت كسول، هذا هو السبب. أنت تجهل قيمتي "

هنا أصيبت مونا بنوبة من الضحك. ضحكت حتى حسبت أن جنبيها سينفجران. قالت " لا أستطيع أن أتحكَّم في نفسي. هذا مضحك جداً "

قال ند " أسكرتِ بهذه السرعة؟ "

قلت " كلا، الأمر ليس كذلك. إنها تسترخي. هذه مجرد ردّة فعل. لقد أجّلناها أطول مما ينبغي، هذا هو تفسيرها. أليس كذلك، مونا؟ "

ونوبة أخرى من الضحك.

قلت " ثم إنها دائماً ترتبك حين أقترض نقوداً. أليس كذلك، مونا؟"

لا جواب – فقط نوبة أخرى.

اقتربت مارسيل منها، كلّمتها بصوت منخفض، مهدهِد. قالت " دعوها لي. وأنتما اشربا حتى تسكران. سوف نخرج ونتناول بعض الطعام، ما رأيك، مونا؟ "

قال ند، بعد مغادرة الاثنتين، " ما الذي أثار هياجها؟ "

قلت " فتّشني. أعتقد أنها ليست معتادة على الزواج "

قال ند " قل لي، ما الذي دفعك إلى الزواج؟ أليست هذه خطوة متهوّرة؟ "

قلت " اجلس، واسمع ما سأقول. هل أنت سكران إلى درجة تمنعك من سماعي؟ "

قال، وقد بدا عليه شيء من الارتباك، " هل ستلقي عليّ محاضرة؟"

" سأكلّمك بصراحة. والآن أنصت إليّ ... لقد تزوجنا للتو، أليس كذلك؟ أتظن أنها غلطة، هه؟ إذن سأخبرك ما يلي ... إنني لم أقم في حياتي كلها بعملٍ أفضل من هذا. أنا أحبها. أحبها إلى درجةٍ تجعلني أنفِّذ كل ما تطلبه مني. ولو كان أن أحزَّ عنقك ... لو أرى أنَّ ذلك سيسعدها ... لفعلتُ. أتسألني لماذا تضحك بتلك الصورة الهسترية؟ يا لك من ابن حرام مسكين. لا أدري ماذا ألمَّ بك.لم تعد " تشعر " بأي شيء. أنت فقط تحاول أن تحمي نفسك. حسن، أنا لا أريد أن أحمي نفسي. أريد أن أقوم بأعمالٍ حمقاء، أعمالٍ صغيرة، أعمالٍ عادية، أي شيء وكل ما من شأنه أن يُسعِد امرأة. أتفهم ما أقول؟ أنت، وألريك أيضاً، اعتقدتما أن الحبَ مجردُ مُزاح. قلتما إنَّ هنري لن يتزوج مرة أخرى. أوه، كلا! إنه مجرد افتتان، وسوف ينتهي بعد فترة من الزمن. هكذا نظرتما إلى الأمر. حسن، لقد أخطأتما. إن ما أكنُّه لها كبير جداً حتى لأعجز عن التعبير عنه. إن مونا ألان في الشارع. قد تدهسها شاحنة؛ قد يحدث لها أي شيء. إنني أرتعد حين أفكر فيما يمكن أن يسبِّبه لي سماعي أنَّ خطباً قد ألمَّ بها. أعتقد أني سأُصاب بجنون مسعور ... أول ما سأفعله أن أقتلك فوراً ... أظن أنكما لا تدركان معنى أن أحب بهذه الطريقة. أنتما لا تفكِّران إلا في الوجه نفسه الذي سيواجهكما على مائدة الإفطار في كل يوم. أما أنا فأتأمَّل في روعة

twitter @baghdad_library

جمال وجهها، وكيف يتبدَّل في كل دقيقة. إنني لا أراها بالصورة نفسها مرتين. أرى فقط هياماً لا ينتهي. هذه كلمة جيدة لك - هيام . أراهن على أنكما لم تستخدمانها قط. ها قد خرجنا عن الموضوع الآن ... أنا أهيم بها. سأقولها ثانية أهيم بها ! يا يسوع، ما أروع التلفُّظ بها. إنني أهيم بها وأسجد عند قدميها. أعبدها. أتوجه بصلواتي إليها. أبجِّلها ... ما رأيك في هذا ؟ عندما جلبتُها إلى هنا أول مرة لم يخطر ببالك أنه سيأتي يوم وأتكلَّم فيها هكذا، أليس كذلك؟ ومع ذلك لقد حذَّرتكما أنتما الاثنان. قلت لكما إنَّ أمراً ما قد حدث، فضحكتما. حسبتما أنكما أعلَمْ مني بنفسي. حسن، إنكما لا تعرفان أي شيء، أنتما الاثنان. لا تعرفان مَنْ أنا أو مِنْ أين أتيتُ. تريان فقط ما أعرضه عليكما. ولا تنظران أبداً إلى ما تحت ثوبي. إذا ضحكتُ تظنان أني فرح. لا تعرفان أني حين أضحك أحياناً من أعماقي أكون على شفا اليأس. على الأقل هكذا كان حالي. ولم يعد كذلك الآن. الآن حين أضحك فإني أضحك، لا أبكي من الداخل وأضحك من الخارج. لقد تكاملتُ من جديد؛ عدتُ قطعةً واحدةً؛ رجلٌ عاشق؛ رجل تزوَّجَ بملْء إرادته؛ رجل لم يتزوج حقاً من قبل؛ رجل عرف نساءً، ولكن لم يعرف الحب ... الآن سأغنّي لك، أو أرتِّل، إن شئت. شبيك لبيك، اطلب ما تشاء وسيصبح ملك يديك ... اسمع، حين تعود - ويا الله، ما أروع أن أعرف أنها ستعود حتماً، أنها لم تخرج من ذلك الباب وتختفي - حين تعود أريد منك أن تكون مرحاً ... أريد منك أن تكون " مرِحاً مَرَحاً طبيعياً ". قُل لها كلاماً لطيفاً ... أشياءَ لذيذة ... تكون صادقاً فيها ... أشياء تجد أن من الصعب عادة أن تقولها. اقطع لها وعوداً بتنفيذ

أعمالٍ ما. قُل لها إنك ستشتري لها هدية عرس. قُل لها إنك تأمل في أن تنجب أطفالاً. اكذب عليها، إذا اضطُررتَ. ولكن أسعدها. لا تدعها تضحك بتلك الطريقة مرة أخرى. أتسمع؟ لا أريد أن أسمعها تضحك بتلك الطريقة ... أبداً! أتضحك، يا ابن الحرام! كن بهلواناً، كن أحمقَ. ولكن دعها تعتقد أنكَ ترى أنَّ كل شيء على ما يرام ... لوز وسُكَّر... وأنَّ السعادة ستدوم إلى الأبد ... "

سكتُّ برهة لأستردَّ أنفاسي وتناولت جرعة أخرى من الجِن. كان ند يتابعني بفمٍ فاغر.

قال " تابع! ابقَ محلِّقاً! "

" يعجبك هذا، أليس كذلك؟ "

قال " إنه رائع، يوجد شغفُ حقيقي هنا. إنني مستعد أن أهبَ أي شيء مقابل أن أشبَّ هكذا على تلك الشرموطة ... تابع، قُل كل ما تريد. لا تخشَ أن تؤذي مشاعري، أنا نكرة... "

" إكراماً لله، لا تتكلم هكذا - إنك تثير حنقي، أنا لا أمثِّل ... أنا جادّ "

" أعلم أنك كذلك - لهذا تراني أستحثّك على المتابعة. لا أحد يتكلم بهذه الطريقة هذه الأيام ... على الأقل ليس الأناس الذين أعرفهم "

نهض واقفاً، وشبك ذراعه بذراعي، ثم ابتسم لي ابتسامته المبهرة والفاتنة. كانت عيناه واسعتين وبراقتين: الجفنان أشبه بكسرتين من صحنين. مذهلٌ وهمُ الدفءِ والفهمِ الذي كان في إمكانه أن يمنحه. وتساءلت برهة إن كان قد استخفّ بي. ينبغي ألا يُزدَرى أو يُنبَذ مَنْ يمنح

twitter @baghdad_library

حتى وَهْمَ شعور. كيف أعبِّر عن الجهود المضنية التي بذَلَها، ولعله كان ما يزال يبذلها، ليرتفع إلى السطح؟ بأي حقٍّ أحكم عليه - أو على أي إنسان؟ إذا ابتسم الناس في وجهك، وأمسكوا بذراعك وأشرقوا في وجهك، فلا شك في أنَّ هناك شيئاً فيهم استجابَ لك. لا أحد معدوم الحسّ تماماً.

قال، بذاك الصوت الريفي، العميق، " لا عليك مما أفكِّر فيه، إنني فقط أتمنّى لو أنَّ ألريك كان حاضراً ... كان سيُبدي إعجاباً يفوق إعجابي "

" إكراماً لله، لا تقل هذا يا ند! ليس ما أطلبه إبداء الإعجاب ... بل الاستجابة. وأقول لك الحق، لا أدري ما أريده منك، أو من أي إنسان، في هذا المجال. أنا أريد أكثر مما أحصل عليه، هذا كل ما أعرف. أريد منك أن تخرج من جلدك. أريد من الجميع أن يتعرَّوا، ليس فقط من اللحم، بل من الروح. أحياناً أصل إلى درجة من الجوع، والجشع، حتى لأكاد ألتهمُ الناس التهاماً. لا أستطيع أن أنتظرهم حتى يُفضوا بما لديهم ... ويعبِّروا عن مشاعرهم ... ورغباتهم ... وما إلى ذلك؛ أريد أن أمضغهم أحياءً ... أن أفتِّش بنفسي ... بسرعة، فوراً. اسمع ... "

التقطتُ إحدى رسومات ألريك الملقاة على طاولته، " أترى هذه؟ والآن ماذا لو أكلتُها "، وبدأتُ أمضغ الورقة.

" يا يسوع، هنري، لا تفعل هذا! إنه يعمل عليها منذ ثلاثة أيام. هذا عمل "، وانتزع الرسم من يدي.

قلت " حسن، أعطني شيئاً آخر إذن. أعطني معطفاً ... أي شيء.

هات، ناولني يدك!"، وقبضتُ على يده ورفعتها إلى فمي. فسحبها بعنف.

قال " إنك تجنّ. اسمع، شُدَّ براغيك. الفتاتان ستعودان قريباً ... حينئذ ستحصل على طعامٍ حقيقي "

قلت " سآكل أي شيء. أنا لست جائعاً، أنا محلِّق. أريد فقط أن أبيِّن لك حقيقة شعوري. ألم يحدث لك مثل هذا قط؟ "

قال، كاشفاً عن نابه، " لا والله! يا يسوع، إذا كان الأمر بهذا السوء فسألجأ إلى طبيب. سوف أعتقد أني مُصابٌ بهذيان ارتعاشي[١٣٨]، أو ما شابه. يُستحسَن أن تترك هذا الكأس ... هذا الجزء لا يواتيك "

" أتظن أن الجن هو السبب؟ حسن، سأترك الكأس "، ومشيت إلى النافذة ورميتُ به إلى الفناء. " هاك! والآن أعطني كأساً من الماء. سأريك ... أراك لم تر أحداً من قبل يسكر بالماء، هه؟ حسن، راقبني! "

ثم أردفت، وأنا أنضمُّ إليه في الحمَّام، " والآن قبل أن أسكر بالماء أريد منك أن تلاحظ الفرق بين السمو والثمالة. الفتاتان قادمتان قريباً. عندئذ سأكون قد سكرت. راقب. انظر ماذا سيحدث "

قال " سأفعل حتماً. إذا كان في إمكاني أن أسكر بالماء فإن ذلك سيوفِّر عليَّ الكثير من الصداع. هاك، خذ كأساً الآن. سأحضر الإبريق "

أخذت الكأس وازدردت محتواه دفعة واحدة. ولدى عودته جرعتُ محتوى آخر بالطريقة نفسها. نظر إليَّ مشدوهاً كأني فلتة من فلتات السيرك"

قلت " بعد أن أشرب خمسة أو ستة من هذا سوف تبدأ بملاحظة الأثر"

---

١٣٨ – الهذيان الارتعاشي : ينتج عادة عن إدمان شرب الخمر . – المترجم

twitter @baghdad_library

" هل أنت متأكد من أنك لا ترغب في إضافة قدرٍ قليلٍ من الجِن إليه؟ لن أتَّهِمَكَ بالغش. إنَّ الماء تَفِهُ المذاق جداً ولا طعم له "

" الماء إكسير الحياة، يا عزيزي ند. لو كنتُ حاكم هذا العالم لجعلتُ المبدعين يتَّبعون حِمية من الخبز والماء. أما للحمقى فسأعطيهم كل ما يشتهون من طعام وشراب. سأسمِّمهم بإشباع رغباتهم. فالطعام هو سمٌّ الروح. الطعام لا يُشبِعُ جوعاً، ولا يروي الشراب ظمأً. القوت، أجنسياً كان أم غير ذلك، لا يُشبِعُ إلا الشهوات. أما الجوع فهو شيء آخر. لا أحد يستطيع أن يسدّ الجوع. الجوع هو مقياس الروح. النشوة هي المعيار. والصفاء هو التحرر من تقلُّبات الجو - المناخ الدائم للستراتوسفير. إلى هناك نتوجَّه جميعاً ... إلى طبقة الستراتوسفير. لقد بدأت أسكر قليلاً، ألا ترى؟ ذلك أنك حين تستطيع أن تفكِّر بصفاء يعني أنك تجاوزت سمت السموّ. بعد الساعة الثانية عشرة ظهراً بدقيقة واحدة يبدأ منتصف الليل، كما يقول الصينيون. ولكن عند السمت والنظير[١٣٩] تقف بلا حِراك لحظة أو اثنتين. عند القطبين يمنحك الله الفرصة لتقفز بعيداً عن آليّة الساعة، وعند النظير، وهو ثمالةٌ ماديِّةٌ، تفوز بميزة الإصابة بالجنون - أو الانتحار. عند السمت، وهي حالة من النشوة، يمكنك أن تنتقل وأنت مكتمل إلى الصفاء والنعيم. الساعة الآن الثانية عشرة. عشر دقائق حسب توقيت الساعة الروحية. لقد حلَّ الليل. لم أعد جائعاً. لدي فقط رغبةٌ مجنونة في أن أكون سعيداً. هذا يعني أني أريد أن أتقاسم ثمالتي معك ومع الجميع. هذه ثمالة جيّاشة. حين سآتي على محتوى إبريق الماء سأبدأ بالإيمان بأن الجميع طيّبون دون

١٣٩ - النظير : عكس السمت : أو الحضيض . - المترجم

استثناء: سأفقدُ كلَّ حسٍّ بالقيم. تلك هي الطريقة الوحيدة المتوفرة لنا لنعرف كيف نكون سعداء - لنؤمن بأننا متكيّفون. إنه ضلال الفقراء في الروح. إنه أشبه بمَطْهَر مزوَّد بمراوح كهربائية وأثاث وثير. إنه تصويرٌ ساخر للفرح. الفرح يعني الوحدة؛ السعادة تعني التعدّدية "

قال ند " ألديك مانع إذا ذهبتُ لأتبوّل؟ أعتقد أنكَ بدأتَ تصل إلى نتيجة هامة. أشعر بسعادة معتدلة "

" إن هذا يعكس السعادة. أنت تعيش على سطح القمر. وحالما أتوقف عن الإشعاع ستنطفئ "

" كما قلت يا هنري. يا إلهي، إن وجودك معنا أشبه بالحصول على الدعم "

كاد الإبريق أن يفرغ من محتواه. قلت " املأه ثانية، لقد صفا ذهني لكني لم أسكر بعد. ليت الفتاتين تعودان. إنني بحاجة إلى محرِّك. آمل ألاّ تكون سيارةٌ قد دهستهما "

سأل ند " هل تغنّي حين تسكر؟ "

" هل أغني؟ أتريد أن تسمعني؟ "، وبدأت أغني مقدمة أوبرا " المهرِّج "[١٤٠].

وسط هذا عادت الفتاتان، محمَّلتان باللفائف. كنت ما أزال أغني.

قالت مارسيل، وهي تنقِّل بصرها بيننا، " واضح أنكما سعيدان "

قال ند " إنه يسكر، بالماء "

كرَّرتا " بالماء؟ "

---

١٤٠ - " المهرِّج " : أوبرا للموسيقي الإيطالي روجييرو ليونكافيللي (١٨٥٨ - ١٩١٩) ، وهي أشهر أعماله وأهمّها . - المترجم

twitter @baghdad_library

" نعم، بالماء. إنه عكس النشوة، كما يقول "

قالت مارسيل " أنا لا أفهمك. دعني أشمُّ أنفاسك "

" لا تشمّي أنفاسي أنا ... شمّي أنفاسه هو. أنا مكتفٍ بالسُكر من شرب الكحول. يقول هنري، إنه بعد تجاوز الساعة الثانية عشرة بدقيقتين يحلُّ الليل. والسعادة ليست أكثر من نوعٍ من المَطْهَر المكيَّف الهواء - أليس كذلك، هنري؟ "

قالت مارسيل " اسمع، هنري ليس سكرانَ، أنت السكران "

" الفرح وِحدةٌ؛ والسعادةُ دائماً توجدُ بين الجماهير، أو ما شابه. كان يجب أن تكونا هنا قبل قليل؛ كان يريد أن يأكل يدي. وحين رفضتُ أن أتفضَّل عليه طلب مني معطفاً. تعاليا إلى هنا ... سأريكما ماذا فعل بلوحة ألريك "

نظرتا إلى اللوحة، كانت إحدى زواياها قد مُضغَت حتى الاهتراء.

شرحَ ند قائلاً " هذا بسبب جوعه إليكِ. إنه لا يعني الجوع العادي - بل الجوع الروحي. والهدف هو طبقة الستراتوسفير حيث المناخ دائماً رائق. أليس كذلك، هنري؟ "

قلت، وأنا أرسم ابتسامة جادّة، " هو كذلك. والآن يا ند، أخبر مونا ما كنت تقوله لي قبل قليل ... ". نظرتُ إليه وأنا أطرف بعينيّ كالمنوَّم مغناطيسياً ورفعت كأساً آخر إلى شفتيّ.

قال ند، مناشداً مونا، " أظن أنه ينبغي ألا تدعيه يشرب كل هذا المقدار من الماء. لقد أتى لتوه على ملء إبريق، وأخشى أن يصابَ بالاستسقاء - أو استسقاء الرأس "

رمتني مونا بنظرة ثاقبة، وكأنها تقول - " ما معنى هذا المشهد التمثيلي؟ "

وضعت يدي بخفّة على ذراعها، وكأني أضع عصا استنباء[١٤١] عليها ". " لديه ما يقوله لك: اسمعي بهدوء. سيسعدك كلامه "

تركّزت العيون كلها على ند. فاحمرّ خجلاً وتلعثم.

قالت مارسيل " ما الأمر؟ ما الكلام الرائع الذي قاله؟ "

قلت، وأنا أضمُّ كلتا يديّ مونا في يديّ وأنظر في عينيها، " أعتقد أنه يجب أن أقوله نيابة عنه. وإليك ما قاله، يا مونا: ... [لم أكن أعرف أن كائناً بشرياً واحداً يمكنه أن يحوِّل كائناً بشرياً آخر كما فعلَتْ مونا معك. بعض الناس يحصلون على الدين؛ وأنت حصلت على الحب. أنت أوفر الناس حظاً في العالم ... "]

مونا: " أحقاً قلت هذا، ند؟ "

مارسيل: " كيف لم أنجح في تحويلك أنت؟ "

بدأ ند يتمتم بكلام مختلط.

قالت مارسيل " أعتقد أنه بحاجة إلى كأس أخرى "

قال ند " لا، الشراب لا يشبع غير الشهوات الدنيا. أنا أفتِّش عن إكسير الحياة، الذي هو الماء، وفقاً لهنري "

ابتهجت مارسيل وقالت " سوف أعطيك إكسيرك لاحقاً. ما رأيكم الآن ببعض الدجاج البارد؟ "

سألتُ " ألديكِ أي عِظام؟ "

بدت الحيرة على مارسيل.

قلت " أريد أن آكلها. العظام تمدُّ بالفوسفور واليود. مونا دائماً تغذِّيني بالعظام حين أكون منتشياً. إذ حين أكون شديد الانفعال أطلق

---

١٤١ – عصا الاستنباء : العصا التي يُستَعَانُ بها للتعرُّف على مكان وجود الماء أو المعادن في باطن الأرض . – المترجم

twitter @baghdad_library

طاقة حيوية. أنت لا تحتاجين إلى العظام - أنت بحاجة إلى عصائر كونيّة. إن غلافك السماوي رقيق جداً. وأنت تشعّين من الكوكب الجنسي"

" وما معنى هذا باللغة البسيطة؟ "

" يعني أنك تتغذّين على البذور بدل أطايب الطعام، وأن هرموناتك الروحية فقيرة، وأنك تحبِّين آبيس[١٤٢] العجل بدل كريشنا[١٤٣] قائد العربة. سوف تجدين جنّتك، لكنها ستكون في الدَرْك الأسفل. حينئذ يكون المهرب الوحيد هو الجنون "

قالت مارسيل " هذا واضح وضوح الطين "

ثم تبرَّعَ ند بالقول " لا تتورَّطي في آليّة الساعة، هذا ما يقصده "

" وما آليّة الساعة هذه؟عمَّ تتحدثان أنتما الاثنان بحق الجحيم؟ "

قلت " ألا تفهمين يا مارسيل؟ ماذا يمكن للحب أن يمنحك وليس لديك منه للتو؟ "

قالت مارسيل " ليس لدي غير مسؤوليات جمّة. هو الذي يحصل على كل شيء "

" بالضبط، ولهذا تشعرين بالانتعاش "

" أنا لم أقل هذا! ... اسمع، عمَّ تتحدث؟ أنت متأكد من أنك على ما يرام؟ "

قلت " أنا أتحدث عن روحك، لقد كنتِ تجوِّعين روحك. أنتِ بحاجة لى عصائر كونيَّة، كما قلت سابقاً "

---

١٤٢ - آبيس : العجل المقدّس عند المصريين القدماء . - المترجم

١٤٣ - كريشنا : الإله الأكبر عند الهندوس . - المترجم

" أيوه، ومن أين تشتريها ؟ "

" إنها لا تُشتَرَى ... بل تصلّين لتحصلي عليها. ألم تسمعي قط بالمنّ الذي يسقط من السماء؟ صلّي هذا المساء لتنالي المنّ: سوف يُضفي روحاً على روابطك النجميّة ... "

قالت مارسيل " أنا لا أعرف شيئاً عن مسألة النجوم تلك، لكني أعرف شيئاً عن الطيز. إذا أردتَ رأيي، أعتقد أنك تكلّمني بالـ double-entendre (تورية). لمَ لا تذهب إلى الحمّام قليلاً وتلعب بنفسك؟ إن للزواج تأثيراً غريباً عليك "

تَدَخَّلَ ند قائلاً " أترى يا هنري، هكذا يُنْزِلنَ الأشياء إلى الأرض. إنها دائماً قلقة حول كسّها، أليس كذلك يا عزيزتي؟ "، وداعبها تحت ذقنها، ثم أردف، " كنت أفكّر في أنه ربما علينا أن نرتاد مسرح المنوعات هذه الليلة. على سبيل الاحتفال بالمناسبة، ما رأيك؟ في الواقع، إنه يمدّك بالأفكار "

نظرت مارسيل إلى مونا. كان جلياً أنهما لا تريان أنها فكرة مثيرة.

اقترحتُ " فلنأكل أولاً. أحضر ذاك المعطف، أو الوسادة ... وقد أرغب في طبقٍ جانبي "، ثم قلت " وبمناسبة الكلام عن الطيز، هل سبق لك أن أخذت عضّة جيدة ... كما تعلم، عضّة حقيقية؟ خذ عندك مارسيل، مثلاً ... هذه ما أسمّيه بالطيز المغرية "

بدأت مارسيل تضحك بصوت مكبوت. ووضعت يديها خلفها بحركة غريزية.

"لا تقلقي، أنا لم أعضّك بعد. أولاً هناك الدجاج وأشياء أخرى. ولكن صدقاً، أحياناً يشعر المرء برغبة في اقتطاع قطعة كبيرة. أما

twitter @baghdad_library

الحلمتـان فأمر آخر. لم أتمكَّن مرة من عضّ حلمتيّ امرأة - أقصد، عضّة حقيقيـة. دائماً أخشى أن يبخّ الحليب في وجهي. وكل تلك العروق ... أعوذ بالله، شنيعة جداً. لكن الطيز جميلة ... لسبب ما تعتقد أن طيز المرأة لا يجري فيـها دم. إنهـا مـجرد لحم أبيض صـرف. وهناك قطعـة شـهيّـة أخرى تحت الشق مباشرة، في الداخل. وهذه حتى أشدّ طراوة من قطعةٍ من طيز صرف. لا أدري، لعلي أغالي. على أي حال، أنا جائع... انتظروا حتى أفرغُ بعضاً من هذا البول مني. إنه يُسبِّب لي انتصاباً، ولا أستطيع أن آكل وأنا لدي انتصاب. وفِّروا بعض اللحم الأحمر لي، مع الجلد. أنا أحب الجلد. يصلح شطيـرة كسّ لذيذة، وفوقـهـا مسحـة من صلصة مَرَق اللحم. يا الله، إن ريقي يسيل ... "

قال ند، بعد عودتي من الحمَّام " أتشعر أنك أفضل الآن؟ "

" أنا شـديد الجـوع. مـا ذاك القيء الجـمـيـل هناك - في الطاس الكبير؟ "

" هذا خراء سلحفاة مع بيض فاسد وقليل من الصلصة الحيضية. هل يثير هذا شهيتك؟" قال ند.

قالت مارسيل " ليتكم تغيّرون الموضوع. أنا لست مفرطة الرهافة، لكن القيء ليس المادة التي أرغب في التفكير فيها وأنا آكل. إذا كان لابد من أن تتحدَّثوا أفضِّل أن يكون ذلك حول الجنس "

قال ند " ماذا تقصدين، هل الجنس قذارة؟ ما رأيك بهذا يا هنري، هل الجنس قذارة؟"

أجبت " الجنس هو أحد تسعة أسباب للتقمُّص. الثمانية الأخرى غير هامة. ولو كنا جميعاً من الملائكة لما مارسنا الجنس أبداً - لكانت

لدينا أجنحة. والطائرة ليس لها جنس؛ وكذا الله. الجنس يوفِّر التكاثر والتكاثر يؤدي إلى الفشل. وأشد الرجال فحولة جنسياً في العالم، كما يقال، هم المجانين. إنهم يعيشون في الجنة، لكنهم فقدوا براءتهم "

قالت مارسيل " بالنسبة إلى إنسان عاقل أنت تتفوَّه بالكثير من الهراء. لمَ لا تتحدَّث عن أشياء نفهمها؟ لمَ ترمينا بكل هذا الخراء عن الملائكة والله ومستشفى المجانين؟ لو كنت سكران لاختلف الأمر، لكنك لست كذلك ... إنك حتى لا تتظاهر بأنك سكران ... أنت متعجرف ومتغطرس، وتستعرض نفسك "

" جيد، يا مارسيل، جيد جداً! أتريدين سماع الحقيقة؟ أنا ضجر. سئم. أتيت إلى هنا لأحصل على وجبة وأقترض مبلغاً من المال. نعم، فلنتكلم عن أمور بسيطة، وعادية. كيف كانت عمليتك الجراحية الأخيرة؟ أتحبين اللحم الأبيض أم الأحمر؟ فلنتحدث عن أي شيء يمنعنا من التفكير أو الشعور. طبعاً، كرم شديد منك أن تعطينا عشرين دولاراً هكذا من تلقاء نفسك. طيبة بلا حدود منك. ولكن حين أسمعك تتكلمين تثور حفيظتي. أريد أن أسمع أحداً يقول شيئاً مهماً ... شيئاً جديداً. أعلم أن لديك قلباً طيباً، وأنك لم تؤذي أحداً قط. وأعتقد أنك لا تتدخّلين فيما لا يعنيك أيضاً. لكن هذا لا يهمني في شيء. لقد سئمت الناس الطيبين، والسمحين، والكرماء. أريد عرضاً من الشخصيات والأمزجة المختلفة. يا إلهي، إني حتى عاجز عم السُكر - في " هذا " الجو. أشهر كأني اليهودي التائه. أودُّ لو أضرم النار في المنزل، أو ما شابه. ربما إذا نزعتِ سروالكِ التحتي وغمستِهِ في القهوة قد أشعر بتحسُّن. أو إذا أخذتِ قطعة سجق وداعبتِ نفسك بها ...

twitter @baghdad_library

تقولين فلنتكلم ببساطة. عظيم. هل تستطيعين أن تطلقي ضرطة عالية؟ اسمعي، ذات يوم كان لدي أفكارٌ عادية، وأحلام عادية، ورغبات عادية، حتى كدت أفقد عقلي. إنني أمقت العادي. يصيبني بالإمساك. الموت عادي - إنه يحدث لكل إنسان. أرفض أن أموت. وقد صمّمت على أن أعيش إلى الأبد. الموت سهل: إنه أشبه بمستشفى المجانين ماعدا أنه لا يعود في إمكان المرء أن يستمني. يقول ند إنكِ تُحبين كسّك. طبعاً، هذا حال الجميع. ثم ماذا؟ في غضون عشر سنوات تتغضّن طيزك ويتدلّى كسّك مثل الأكياس المطاطية الفارغة. عشر سنوات ... عشرون سنة ... ما الفرق؟ تحصلين على بضع نكاحات جيدة ومن ثم ينضب مَعينُك. وماذا في ذلك؟ فحالما تكفّين عن الاستمتاع تستولي الكآبة عليك. إنك لا تنظّمين حياتك - تتركين أمر هذا لكسّك، أنت واقعة تحت رحمة أير منتصب ... "

سكتُّ برهة لألتقط أنفاسي، وقد أدهشني أني لم أتلقَّ لكمة. كانت عينا ند تومضان بشكل يمكن تأويله بأنه ودّي ومشجِّع - أو قاتل. كنت آمل في أن يُطلق أحدهم شيئاً، أن يرمي زجاجة، أو يهشِّم أشياء، أو يصرخ، أو يزعق، أي شيء غير أن يبقى جالساً ويتلقّى كلامي كبومٍ مذهول. لم أدرِ لماذا كنت أزعج مارسيل، فهي لم تزعجني. كنت فقط أستخدمها كأداة. كان ينبغي على مونا أن تقاطعني ... بصورة ما كنت أعتمد عليها لتفعل ذلك. ولكن لا، لقد لزمتْ هدوءاً غريباً، وحياداً غريباً.

استأنفتُ قائلاً " والآن بعد أن أزحت هذا عن صدري، اقبلي اعتذاري، يا مارسيل. لا أدري ماذا أقول لك. أنت حتماً لا تستحقين ذلك "

قالت بمرح " لا بأس، أعلم أنَّ ثمة ما يقلقك. ما كنت لأستطيع أن أقول ما قلتَ لأنه ... حسن، إنَّ مَنْ يعرفني لا يكلّمني هكذا أبداً. لمَ لا تنتقل إلى شرب الجِن؟ ها قد رأيتَ ما يفعله الماء. هاكَ، خذ جرعة كبيرة ... ". شربت مقدار نصف كأس صرف فشاهدتُ حدوات أحصنة تطلق شرراً. " أترى ... إنه يجعلك تشعر بإنسانيتك، أليس كذلك؟ تناول المزيد من الدجاج - وشيئاً من سلطة البطاطا. مشكلتك هي أنك فائق الحساسية. والدي كان هكذا. أراد أن يصبح كاهناً لكنه بدل ذلك أصبح كاتب حسابات وبعدما استُنزِفَ نفسياً بدأتْ أمي تدفعه إلى السُكر. حينئذ كان يوسعنا وإياها ضرباً. لكنه بعد ذلك كان يرتاح. كلنا كنا نشعر بالارتياح. من الأفضل كثيراً أن تضرب الناس على أن تحمل أفكاراً سيئة عنهم. ما كان ليؤول إلى حال أفضل لو أنه أصبح كاهناً: لقد ولد حاملاً حقداً على العالم. لم يكن يسعد إلا إذا انتقد الأشياء. لهذا تراني لا أستطيع أن أحقد على الناس ... لقد رأيت ماذا سبّبه له. طبعاً أحب كسّي. ومن لا يحبه؟ على حد قولك. أحب أن تكون الأمور سهلة وسلسة. أحب أن أسعد الناس، إن استطعْتُ. لعل هذا حماقة لكنه يريح. لقد كان والدي يعتقد أنه ينبغي تدمير كل شيء قبل أن نبدأ بالعيش حياة صحيحة. أما فلسفتي، إن كان يمكن أن تسمّيها فلسفة، هي العكس تماماً. أنا لا أرى حاجة إلى تدمير أي شيء. إنني أضمر الخير وأترك الشرّ وشأنه. هذه طريقة أنثوية في النظر إلى الحياة. أنا محافظة. أعتقد أنَّ على النساء أن يتظاهرن بالخرس لكي لا يجعلن الرجال يشعرون بأنهم حمقى ... "

هتف ند " اللعنة! أنا لم أسمعك قط تتكلّمين هكذا "

twitter @baghdad_library

" طبعاً لم تسمعني يا عزيزي. إنك لم تعترف قط بأني أتحلّى حتى بذرّة من الذكاء، أليس كذلك؟ إنك تحصل على نكاحك ومن ثم تستغرق في النوم. منذ عام وأنا أطلب منك أن تتزوجني لكنك لست مستعداً لذلك بعد. لديك مشاكل أخرى. حسن، ذات يوم ستكتشف أنه لا توجد إلا مشكلة واحدة بين يديك - هي أنت "

" عظيم، أحسنتِ يا مارسيل! ". كانت مونا هي التي انفجرت بهذا القول.

قال ند " إلى الجحيم! ما هذا - أمؤامرة؟ "

قالت مارسيل، وكأنها تحدّث نفسها " أتعلمون، أحياناً أعتقد بحق أني حمقاء. ها أنا أنتظر هذا الرجل ليتزوجني. ولنفرض أنه تزوجني - ثم ماذا؟ إنه لن يعرفني بعد الزواج بصورة أفضل مما فعل قبله. إنه ليس عاشقاً. إذا كان المرء عاشقاً لا يعبأ بالمستقبل. الحب مقامرة، وليس وظيفة مضمونة. أعتقد أني بدأت أعي ذاتي ... ند، سوف أكفُّ عن القلق بشأنك. سأدعك تقلق بشأني. أنت من النوع الذي يقلق - ولا شفاء لهذا المرض. لقد جعلتني أقلق بعض الوقت - أقصد، أقلق بشأنك. كفاني قلقاً. أريد الحب - لا الحماية "

قال ند، وقد حيَّره التحوُّل الغريب الذي طرأ على الحديث، " يا إلهي، ألا ترون أننا نزداد جدّية؟ "

قالت مارسيل متهكّمة، " جدّية؟ إنني أتخلّى عنك. تستطيع أن تبقى عازباً حتى آخر حياتك - وتشبع كل المشاكل الثقيلة التي تقضُّ مضجعك درساً وتقليباً. أشعر كأن همّاً ثقيلاً انزاح عن كاهلي "، ثم التفتت إليّ ومدت يدها، " شكراً، هنري، لأنك صدمتني. على أي حال، أعتقد أن كلامك لم يكن هراءً ... "

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني والعشرون.

كانت كليو ما تزال تلقى إقبالاً ساحقاً في مسرح المنوعات في شارع هيوستن. كانت قد أضحت تقليداً، مثل مستنغت Mistingeuette. ومن السهل أن نفهم سبب سحرها للجمهور الذي كان يجمعه الأخَوان مينسكي المقدامان في كل ليلة تحت سقف حديقتهما المغلق. كان يكفي أن يقف المرء خارج شباك التذاكر للحفلة الصباحية، في أي يوم من أيام الأسبوع، ويراقبه يتوافد تدريجياً. في المساء يكون الجمهور أكثر تنوّعاً، يتجمَّع من كافة أنحاء مانهاتن، وبروكلن، وكوينز، والبرونكس، وستيشن آيلند ونيو جرزي. حتى بارك آفنيو تساهم في إمداده بالزبائن في حفلة المساء. ولكن في وضح النهار الساطع كنت دائماً ترى الكاهن واقفاً على الدرج، وسرادق المدخل يبدو أشبه بندوب الجدري، والكنيسة الكاثوليكية المجاورة شديدة القذارة والكآبة، كأنها تستجدي، يهرش طيزه على سبيل تسجيل اشمئزازه واستهجانه. كان ذلك يشبه لوحة للواقع كالتي يستحضرها العقل الصليبي[١٤٤] لإنسانٍ شكوكي حين يحاول أن يشرح لماذا الله غير موجود.

كم من مرة تسكَّعتُ حول المدخل المؤدي إلى المسرح، أمعنُ النظر بحثاً عمَّن يقرضني بضعة بنسات لجمع ثمن تذكرة الدخول. فحين تكون

١٤٤ – الصليبي : أي له علاقة بالصلبة أي بغشاء العين الخارجي الصلب الأبيض . – المترجم .

عـاطلاً عن العـمل، أو، من فـرط الشـعـور بالاشـمـئزاز بـحيث تـأنف من البـحث عن عـمل، من الأفـضل إلى أقـصى درجـة أن تجلس في بؤرة آسنة على أن تقف في مـرحـاضٍ عـام طوال سـاعـات - فـقـط لأنَّ المكـان هناك دافئ. إن الجنس والفقر يسيران يداً بيد.

يا للعبق النتن الذي ينبعث من دار مسرح المنوعات! ذاك المزيج من رائحـة المراحـيـض والبـول المشـبَّع بكُرات الكافـور! ومـزيـج نـتـانة العـرق، والأقدام الفاسدة، والأنفاس الكريهة، والعلكة والمطهِّرات! ومزيل الروائح الكريهة الذي يثير تقزُّز النفس المنبعث من المسدسات البخارية المصوَّبة إليك مباشرة، وكأنك كتلة من الذباب الضخم الأزرق! أتجد كلامي مثيراً للاشمئزاز؟ لا شك في هذا وإلى أقصى حد. أونان[١٤٥] نفسه ما كان يمكن أن تفوح منه رائحة أسوأ.

الـ décor نفسه كان مميّزاً؛ فيه أثر من رينوار في مراحل الغنغرينا الأخيرة؛ ممزوجاً بشكل مثالي مع آثار ماردي غرا المنير - دفقُ سلسلةٍ من الأضواء الحمراء ينير رحماً عفناً. ثمة شيء مُرضٍ بصورة مشينة في الجلوس هناك مع البلهاء المنغوليين عند غروب عمُّورة، وأنت تعلم جيداً أنك بعد انتهاء العرض سيكون عليك أن تعود إلى المنزل سيراً على قدميك تجرّهما جراً. وحده رجلٌ متحرِّرٌ من القيود يستطيع أن يقدِّر دفء قرحة كبيرة ونتانتها حقَّ قدرها والتي يحملها مئاتٌ آخرون مثله ويجلسون وينتظرون رفع الستارة. ومن حولك حمقى ضخام يقشّرون الفول السوداني، ويقضمون ألواح الشوكولاة، أو يشربون من زجاجات المشروبات الغازية من الشاروقات. إنهم البروليتاريا السفلى؛ الرعاع الكونيون.

---

١٤٥ - أونان : ابن يهوذا ، وله قصة بهذا الشأن وردت في سفر التكوين : ٣٨ / ٩ ، وإليه يُنسَبُ الاستمناء. - المترجم

twitter @baghdad_library

كان الجو فاسداً جداً وأشبه بضرطة واحدة كبرى متخثِّرة. وعلى ستارة الحرير الصخري أسماء أدوية لمعالجة الأمراض التناسليّة، وإعلانات عن الملابس، وصائدي الفرو، ومزايا معجون الأسنان، وساعات لتخبرك بالوقت - وكأنَّ للوقتِ أي أهمية في حياتنا! وأين يمكن الذهاب لتناول وجبة سريعة بعد انتهاء العرض المسرحي - وكأنَّ مع المرء نقوداً يريد أن يحرقها وكأننا بعد انتهاء العرض سوف نقصد جميعاً محل لوي أو أوغست ونتفحَّص الفتيات، ونغرق طيازهن بالنقود ونشاهد الشفق القطبي الشمالي أو الأحمر والأبيض والأزرق.

والمرشدون إلى المقاعد ... من أصحاب السوابق النزقين، إذا كانوا من الذكور، وخراءات فارغات وقحبات، إذا كنَّ من الجنس الآخر. وبين حين وآخر تصادف بولونية جذابة شقراء الشعر وذات مظهر متحدٍّ ووقح. إحدى البولونيات البلهاوات اللواتي يفضّلن أن يكسبن قرشاً شريفاً على أن تكشف الواحدة منهن عن كسّها وتنال نكاحاً سريعاً. ويمكن أن تشم رائحة ملابسهن الداخلية القذرة، شتاءً وصيفاً ...

على أي حال، كل شيء يجري على أساس ادفع واحمل - حسب خطة آل منسكي. وقد نجحت فعلاً. بلا أي إخفاق، مهما كان العرض رديئاً. وإذا كنت من المترددين المواظبين إلى هناك فإنك تعرف الوجوه جيداً، ليس فقط وجوه الممثلين بل والجمهور أيضاً، حتى أنَّ الأمر كان أشبه بالتئام شمل عائلة واحدة. فإذا شعرت بالاشمئزاز لا تحتاج إلى مرآة لترى كيف تبدو صورتك - يكفيك أن تلقي نظرة سريعة إلى جارك. كان ينبغي أن يسمًى " دار التطابق ". كان devachan مقلوباً.

لم يكن هناك أي شيء أصيل، لا شيء مما لم تَرَه ألف مرة من قبل.

كان أشبه بكسّ سئمت النظر إليه - فأنت تعرف كل غضن كئيب وتجعُّد؛ وسئمته إلى أقصى حد حتى أنك ترغب في أن تبصق فيه، أو أن تغطس فيه وتُخرِج منه كل قذارة عالقة في الحنجرة، أه، نعم، يخطر ببال المرء كثيراً أن يضرم النار فيه - أن يوجّه نيران رشاشه إليهم، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويضربهم في أحشائهم مباشرة. أحياناً يصيبك شيء من الدوار؛ تشعر وكأنك تنزلق إلى الأرض وتبقى هناك بين قشور الفول السوداني. وتترك الناس يعبرون من فوقك بأحذيتهم الملوَّنة بالشحم والخراء وتفوح بالقذارة.

وهناك دائماً النبرة الوطنية أيضاً. كان في إمكان أي شرموطة نخرة أن تخرج وتقف في مركز المقدمة متلفعة بالعلم الأميركي وتغني لحناً آزاً يقوِّض أركان المسرح. وإذا كنتَ تجلس على مقعدٍ مناسب تستطيع أن تلمحها وهي تمسح أنفها بالعلم أثناء وقوفها بين الأجنحة. ثم الأغاني العاطفية ... كم كانوا يحبون أغاني الأمهات!

يا للبُلَهاء البؤساء، المغفَّلين، المساكين! حين كان الأمر يتعلّق بالمنزل والأم كانوا يريّلون كفئران نادبة. وكانت هناك البَلْهاء البيضاء الشعر العاملة في مرحاض السيدات التي كانوا يدفعون بها لتقدُّم مثل تلك العروض، وكمكافأة لها على جلوسها طوال النهار والليل تحصل على استجابة بكائيّة مفرطة خلال أحد العروض العاطفية. كانت ضخمة الحجم - مع رحمٍ هابط بدون أدنى شك - كامدة العينين. كان يمكن أن تكون أمَّ الجميع، وكانت شديدة الحمق وسهلة الانقياد. الصورة المُثلى للأمومة - بعد خمسٍ وثلاثين سنة من إنجاب الأطفال، وتَلَقِّي الضرب من الزوجِ، وعمليات الإجهاض، والنزيف، والقرحة، والأورام، والفتاق. وتوسُّع

twitter @baghdad_library

الأوردة وغيرها من تعويضات الأمومة. ولطالما دُهِشْتُ لأن أحداً لم يفكر في إطلاق رصاصة عليها وإنهاء أمرها.

لا يمكنني أنّ أنكر أنّ الأخوين منسكي قد فكّرا في كل شيء، كل شيء يذكّر المرء بالأشياء التي يرغب في أن يهرب منها. كانا يعرفان كيف يقدّمان كل ما هو مهترئ وباهت، بما فيه القمل الذي في رأسك - وهما يمرران هذه التركيبة تحت أنفك كخرقة قذرة. لقد كانا مغامرّين، ولا شك في ذلك. ولعلهما كانا أيضاً يساريين، على الرغم من مساهمتهما في دعم الكنيسة الكاثوليكية المجاورة. وكانا موحّدَين، بالمعنى العملي للكلمة؛ قلباهما كبيرين، ومُمَوِّلَين منفتحَين للتسلية للفقراء في القلب. ولا ريب في ذلك. وأنا واثق من أنهما كانا يرتادان الحمامات التركية في كل ليلة (بعد عدّ النقود)، وربما الكنيس أيضاً، إذا ما أتيح لهما الوقت.

ولنعد إلى كليو. كان عرض كليو من جديد في تلك الليلة، كما كان الحال في الماضي: تظهر مرتين، مرة قبل فترة الاستراحة ومرة ثانية في نهاية العرض.

لا مارسيل ولا مونا كانت قد ارتادت مسرح المنوعات قبل ذلك: ظلّتا يقظتين من البداية وحتى النهاية. أعجبهما الممثلون؛ أما الناحية القذرة فلم تكونا مستعدتين لها. لقد كان الممثلون يبذلون جهداً مضنياً، وكل ما كان ينقصهم بناطيل فضفاضة، وعاء للبول، وجهاز هاتف أو مشجب للقبعات لخلق وهم عالم يهيمن فيه اللاوعي. وكل ممثل في مسرح المنوعات يحمل صفة بطوليّة، إذا كان ذا قيمة. وفي كل عرض مسرحي يذبح المراقب الذي يقف كالشبح على عتبة الذات غير المُدركة.

وهو ليس فقط يذبحه حياً لأجلنا، بل يتبولّ عليه ويُميتُ الجسد.

على أي حال، كليو! حين تظهر كليو إلى الخشبة يكون الجميع مستعدين لحلبه. (وهذا خلاف ما يحدث في الهند حيث يشتري الثري نصف دزينة من صفوف المقاعد لكي يستمني بهدوء) هنا الجميع يفعلون ذلك تحت قبعاتهم. عربدة من الحليب المكثّف. نُطَفٌ تتطاير بحرية كالبنزين. حتى الأعمى كان يمكنه أن يرى أنَّ مَنْ تظهر أمامه ليست غير شرموطة. والمذهل في الأمر أنَّه لم يحدث قط أي فرار جماعيّ. أحياناً كان يحدث أن يتوجَّه أحدهم إلى بيته ويبتر خصيتيه بموسى صدئ، لكن مثل تلك المآثر الصغيرة لا تقرأ عنها أبداً في الصحف.

أحد الأشياء التي كانت تجعل رقص كليو رائعاً البمبونة[146] الصغيرة التي تضعها في مركز حزامها - تزرعها مباشرة فوق شعر عانتها. كانت وظيفتها أن تثبِّت عينيك على تلك البقعة. وكان في إمكانها أن تدوِّرها حول محورها مثل دولاب الهواء أو أن تجعلها تقفز وتهتز برعشات صغيرة متذبذبة. أحياناً كانت[147] تخمد مع شهقاتٍ خافتة، كبجعة ترتاح بعد رعشة جنسية عميقة. وأحياناً تتصرَّف بوقاحة وصفاقة، وأحياناً تكون متجهِّمة ونكدة المزاج. كانت تبدو وكأنها جزء منها؛ كرة صغيرة من الزغب نَمَتْ من مثلث العانة. لعلها حصلت عليها في ماخور جزائري، من بحَّارٍ فرنسي. كانت تُغري وتتمنَّع، خاصة بالنسبة إلى ابن السادسة عشرة الذي ما زال أمامه أن يتعرَّف إلى إحساسه حين يقبض على كثّة شعر عانة امرأة.

---

١٤٦ - البمبونة : كتلة من ريش أو حرير يُزيَّن بها ثوب أو قبعة ، الخ . - المترجم

١٤٧ - أي البمبونة . - المترجم

twitter @baghdad_library

لم أعد أذكر أي شيء من ملامح وجهها. لكنني أذكر بشكل غامض أن أنفها كان مرتفعَ الأرنبة. وعندما ترتدي ملابس لا أحد يتعرَّف عليها، حتماً. ذلك لأنَّ التركيز يكون على الجذع، الذي في مركزه سُرَّة بطنٍ كبيرة وملونة باللون القرمزي. كانت تلك السرّة أشبه بفمٍ فاغر من الجوع، كفمِ سمكةٍ أصيب فجأة بالشلل. وأنا واثق من أن كسّها لم يكن، إذا ما نظرت إليه، يعادلها في الإثارة. لعله كان قطعة ذات لون أزرق باهت من اللحم يأنف حتى كلب أن يشمَّها. لقد كانت حيَّة عند خصرها، عند تلك الأجاصة اللحيمة المتلوّية التي يبدأ بموديلات الخياط اللواتي تنتهي أفخاذهن بهيكلٍ من أضلاع مظلّة. وفي طفولتي كنت أحب أن أمرِّر يدي على الانتفاخ السّرِّي. كان ملمسه رائعاً. وكون الموديلات بلا أذرع أو سيقان عزَّز الجمال الناتئ للجذع. أحياناً لم يكن يوجد هيكل قفصي من تحت - مجرد شكل مبتور ذو ياقة صغيرة على رقبة دائماً تكون مدهونة باللون الأسود البرّاق. كانت آسرة، وجديرة بأن تُحَب. وذات ليلة أثناء عَرْضٍ ثانوي قابلتُ موديلاً حياً، يشبه موديلات آلة الخياطة في المنزل. كانت تتنقَّل على الرصيف بيديها، وكأنها تجتنبَّ الغرق بهما. اقتربتُ كثيراً منها واندمجتُ معها في محادثة. كان لها رأس جميل، أشبه بالصور الشمعيّة التي تشاهدها في مؤسسات تصفيف الشعر في الأحياء الراقية في مدينة كبيرة. وعلِمْتُ أنها من البندقية؛ وُلِدَتْ دون ساقين. لكنني أخرج عن سياق الموضوع ... إنَّ ما فتنني بها أنها تمتلك الانتفاخ المبهج للحواس نفسه، ذلك التموُّج والنتوء الشبيه بالأجاصة. وقفت جانباً على الرصيف الذي تسير عليه فترة طويلة فقط لكي أعاينها من الزوايا كافة. كان مدى تقارب ساقيها معاً

وتلامسهما مذهلاً. كان يكفي أن ينقصَ مقدارٌ صغير وتصبح بدون كس. وكنت كلما درستُها ازدادَتْ رغبتي في أن أطرحها. وتخيّلت ذراعيَّ يحيطان بخصرها النحيل الهفهاف، وتخيّلتني ألتقطها، وأدلّيها من تحت ذراعي وأنطلق بها لكي أغتصبها في أرضٍ خلاء.

خلال فترة الاستراحة، بينما ذهبت الفتاتان إلى المرحاض لمشاهدة الأم العجوز العزيزة، وقفت مع ند على الدرج الحديدي الذي يزيِّن مدخل المسرح. وكان يمكن للمرء أن يلقي نظرة من الدرجة العليا إلى المنازل الواقعة على الطرف المقابل من الشارع، حيث ترغي الأمهات العزيزات وتزبد كصراصير غاضبة. كانت شققاً صغيرة مريحة، إذا كانت معدتك قوية وتتذوَّق أحلام شاغال فوق البنفسجية، حيث الطعام وترتيب الأسرة هي الدوافع السائدة. أحياناً يأتلفون بدون تمييز والأب الذي يبيع أعواد الثقاب طوال النهار مع نوبات السلّ يجد نفسه يعضّ الفراش. وبين الفقراء لا يقدَّم إلا ما يستغرق ساعات طويلة في إعداده. إن الخبير في اختيار أصناف الطعام والشراب يجب أن يتناول الطعام في مطعم تفوح منه الروائح المختلفة؛ الفقير تشمئز نفسه من الأعماق حين يرتقي الدرج وتهبُّ عليه نفحة مما هو مُقدمٍ على تناوله. الغني يحب أن ينزِّه الكلب في الجوار - ليثير لديه شهية معتدلة. الفقير ينظر إلى الكلبة المريضة الممدَّدة تحت مزراب الماء ويشعر أنه سيرحمها إذا ما سدَّدَ إليها ضربة في أحشائها. لا شيء يثير شهيته. إنه جائع، جائع على الدوام لأشياء يتوق إليها. حتى نفخة من الهواء المنعش يعتبرها ترفاً. غير أنه ليس كلباً، لذا لا أحد يأخذه ليستنشق الهواء، يا حرام ويا حسرتاه. لقد شاهدت الفقراء المُعتَّرين يميلون من النوافذ معتمدين على مرافقتهم؛ رؤوسهم

twitter @baghdad_library

مدلاّة ترتكز على أيديهم مثل قرعة محفورة ومُضاءة: لا يتطلّب الأمر قارئ أفكار لمعرفة ما يدور في أذهانهم. وبين حين وآخر كان يدمَّرُ صفٌّ من المنازل من أجل فتح منافذ للتهوية. وأثناء مروري بتلك المساحات الفارغة، المفتوحة مثل مكان سن مفقود، كنت دائماً أتخيَّل المعتَّرين المساكين المنفطرة قلوبهم ما يزالون هناك عند حافة النوافذ يميلون منها، والمنازل مهدَّمة لكنهم ما يزالون معلَّقين في الهواء، مدعومين بحزنهم وبؤسهم، مثل مناطيد مراقبة تتحدى قانون الجاذبية. مَنْ يلاحظ تلك الأشباح الجوّية؟ مَنْ يأبه إن كانت معلّقة في الهواء أم مدفونة على عمق ستة أقدام؟ إنَّ العرض هو المهم، كما يقول شيكسبير. مرتان في اليوم، وحتى في يوم الأحد، يستمر تقديم العرض. فإذا كان الطعام ينقصك، فلماذا تطبخ جورباً عتيقاً. إن الأخوين منسكي مكرَّسان لمنح التسلية. وحانات هرشي آلموند دائماً مفتوحة، جيدة قبل أن تحلبه وبعد. هناك عرض جديد في كل أسبوع - مع مجموعة الممثلين القديمة ذاتها والنكات ذاتها. والكارثة التي كان يمكن أن تقع على رأسيّ الأخوين منسكي هي أن تُصَابَ كليو بفتقٍ مضاعف. أو أن تحبل. ومن الصعب القول أي المصيبتين أفدح. كان يمكن لها أن تُصابَ بالكزاز أو بالتهاب الأمعاء أو برهاب الاحتجاز، كل هذا لا يهمُّ. وكان يمكن أيضاً أن تنجو من سن اليأس. أو بالأحرى، يمكن أن يحصل ذلك لآل منسكي. أما الفتق فحدوثه أشبه بالموت - لا رجعَةَ فيه.

كان في استطاعتي أن أخمِّن فقط بما كان يدور في خَلَد ند خلال فترة الاستراحة الوجيزة. قال معلّقاً " عرضٌ فظيع، أليس كذلك؟ " ، مقاطعاً ملاحظة كنت أدلي بها. وقد قالها بتجرُّد جدير بأن يشرِّف سليل

بارك آفنيو. وكان يقصد بكلامه، أنه لا أمل يُرجى منه. في سن الخامسة والعشرين كان يعمل مديراً فنيّاً في مؤسسة إعلانيّة؛ وكان ذلك قبل خمس سنوات أو ست. ومنذ ذلك الحين وهو مفلس، إلا أن الشدِّة لم تبدِّل شيئاً من وجهات نظره عن الحياة، بل أكَّدت فكرته الأساسية عن أنه ينبغي تجنُّب الفقر. وبمجيء حظ سعيد يعود من جديد إلى القمة، ويُملي أوامره على الذين يتملَّقهم الآن.

كان يحكي لي عن مسألة يحتفظ بها لنفسه، فكرة " فريدة " أخرى من أجل إعدادِ حملةٍ دعائيةٍ (كيف نجعل الناس يدخّنون أكثر - دون أن يضرُّوا أنفسهم). والمشكلة كانت أنه الآن بعد أن انتقل إلى الجانب المقابل للسياج لن يُنصتَ أحدٌ إليه. ولو أنه كان ما يزال مديراً فنياً لقَبِلَ الجميع الفكرة فوراً باعتبارها فكرةً لامعة. لقد كان ند لا يرى إلا الجانب الساخر من الوضع. كان يعتقد أنَّ الأمرَ له علاقة بمظهره الخارجي - فلعلّه لم يعد يبدو واثقاً من نفسه كعهده سابقاً. لو أنَّ لديه ملابسَ أفضل، لو يستطيع أن يُقلِعَ عن السُكر فترة من الوقت، لو يستطيع أن يثير الحماس المناسب ... الخ. ثم إنَّ مارسيل تثير قلقه: إنها تفرغه. فمع كل نكاح يقوم به معها تجعله يشعر أنَّ فكرةً لامعةً أخرى قد ذُبِحَتْ. أراد أن ينفرد بنفسه بعض الوقت لكي يُخرج ما لديه. لو أنَّ مارسيل تحضر فقط حين يحتاج إليها وليس في كل الساعات غير المناسبة - أي عندما يكون منهمكاً في إخراج شيء ما - لكان ذلك رائعاً.

قلت " أنت تريد فتّاحة علب، وليس امرأة "

ضحك، وكأنه قد أُحرِجَ قليلاً.

twitter @baghdad_library

قال " أنت تعرف كيف هو الأمر. يا إلهي، إنها تعجبني حقاً ... إنها رائعة. امرأةٌ غيرها كانت نَبَذَتني منذ زمن بعيد. ولكن - "

" نعم، أعلم. المشكلة هي أنها تلتصق بك "

" أليس شيئاً كريهاً؟ "

قلت " هو كريه فعلاً. اسمع، هل خطر ببالك مرة أنك ربما لن تعود مديراً فنياً أبداً، أنك حصلتَ على فرصتك وأفسدتَها؟ ها قد سنحَتْ لك فرصة أخرى، وها أنت تُفسِدها مرة أخرى. يمكنك أن تتزوج وتصبح ... في الواقع، لا أدري ماذا ... أي شيء لعين ... ما الفرق؟ لقد توفَّرتْ لك فرصةٌ لتعيش حياةً طبيعية، سعيدة - في ظرفٍ مريح. أرى أنه لا يبدو لك ممكناً أنَّ من الأفضل لك أن تجرَّ عربة حليب؟ إنه عملٌ يبعث على الملل، أليس كذلك؟ أمرٌ مؤسف جداً! كنت سأحترمك أكثر وأنت حفَّار خنادق منك وأنت رئيس شركة صابون بالموليف. أنت لا تمور بالأفكار الجديدة، كما تتخيَّل، بل فقط تحاول أن تستردَّ شيئاً ضاع منك. إن ما يقضُّ مضجعك هو الكبرياء، لا الطموح. ولو أنَّكَ تتَّصف بأي قدرٍ من الأصالة لكنتَ أكثر مرونة: كنتَ برهنتَ عليها بمائة طريقة وطريقة. إن ما يقلقك هو فشلك. ولعلَّ هذا هو أفضل ما حدث لك في حياتك كلها. لكنك لا تعرف كيف تستغل الفرص التي تُتَاح لك. لعلك خُلقتَ لأمرٍ مختلف كل الاختلاف، لكنك لا تعطي نفسك فرصة لتعرف ما هو، بل تلفّ وتدور حول هَوَسَكَ كجرذٍ في مصيدة. في رأيي، هذا أمرٌ فظيع ... أشدُّ فظاعةً من مشهدِ أولاد الحرام المسحوقين الفقراء المتدلِّين من النوافذ أولئك. إنهم مستعدون لفعل أي شيء؛ بينما أنت لا ترغب في رفع إصبعك الصغير. إنك تريد أن تعود إلى عرشك لتصبح ملكَ

عـالمِ الدعـاية. فـإذا لم يتـحـقَّق لك ذلك فـسـوف تنغِّص حياة كل المحيطين بك. سوف تُخصي نفسك ومن ثم تقول إنَّ أحدهم بَتَرَ لك خصيتيك ... "

كان الموسـيقيـون يدوزنون آلاتهم؛ وتوجَّبَ علينا أن نُسرِع في العودة إلى مـقـاعـدنا. كـانت مونا ومـارسـيل قـد عـادتا لتـوهمـا إلى مـقـعـديهـمـا، وانهـمكتـا في حديثٍ عـمـيق. وفـجـأة صـدَرَ هديرٌ من حفـرة الأوركسـتـرا، كـزمـجـرةِ حـامضِ البروسـيك حين يُسكَبُ على قـمـاشٍ مـشـمَّعٍ مـتين. وكـان الرجل ذو الشـعـر الأحمر الجالس عند آلة البيـانو مـتـرهِّلاً كله وخـاليـاً من العِظام، وأصـابعـه تسـقط كـالهـوابط على لوحة المفـاتيح. كـان النـاس مـا يزالون يتـوافـدون عـائدين من المراحـيض. أخـذت الموسـيـقى تزداد توتُّراً باطراد، مع سيطرةِ الآلات النحاسية وآلة النقر. وهنا وهناك كانت تومض أضواءٌ وكـأنَّ هناك سلسلةً من البـوم المكهـرب يفـتح عـيـونه ويغـمـضـهـا. وأمـامـنا كـان هناك فـتـى صـغـيـر يحـمل عـود ثقـاب مـشـتـعل ويقـرِّبه من خلفـيـة بطاقـة بريدية، أمـلاً في أن يكتـشـف عـاهرة بـابل - أو التـوأم السيامي وهما يتلوّيان في رعشةٍ جنسية مزدوجة.

مع ارتفـاع السـتـارة بدأت المصريـات الجـمـيـلات من ضواحي شارع ريفنغـتن تسـتـعـد للعـمـل: رحن ينتـشـرن باندفاعٍ على الخشبـة كـأسـمـاك الشبـوط التي حُرِّرَت لتـوها مـن الصنارة. قـامت بهلوانة عـجـفـاء بحـركـةِ دولاب الهـواء، ثم انطوت على نفسهـا مثـل سكين الجيب، وبعـد أن أدَّت بعض الحركات المتقلقلة والمترجرجة، حاولت أن تبوس طيزها. وأصبحت الموسيقى مـفـرطة العـاطفة، تتناوب فـيـهـا الإيقـاعـات بدون أن تخلص إلى أي غــاية. وفي اللحظة الـتي أخـذ كل شيء يبـدو على شـفـا الانهـيــار اختـفت الراقـصات المتـخبطات. ولملمتْ البـهلوانة شتـات نفسـهـا ومشت

twitter @baghdad_library

تعرجُ كمجذوم، ثم دخل مهرِّجان متنافران يتظاهران بأنهما فاسقان بكل معنى الكلمة. انهمرت الستارة الخلفية وإذا بهما يقفان في وسط شارعٍ في مدينة إركوتسك[١٤٨]. أحدهما بحاجة ماسّة إلى امرأة بحيث أن لسانه كان يتدلّى. والآخر خبير في لحم الخيول، يحمل أداة صغيرة، أشبه بإفتح يا سمسم. سوف يبيعها لصديقه مقابل تسعمائة وأربعة وستين دولاراً واثنين وثلاثين سنتاً. توصّلا إلى سعرٍ وسط هو دولار ونصف. عظيم. ثم تقترب امرأة تسير في الشارع. هي من الجادة (أ). الذي اشترى الأداة يتحدث معها بالفرنسية، فتجيبه باللغة العالمية. كل ما عليه أن يفعله هو أن يفتح صنبور العصير وهي تطوّقه بذراعيها. يستمر هذا طوال اثنين وتسعين تنويعاً، كما كان قد استمرَّ في الأسبوع الفائت والأسبوع الذي قبله - بل منذ أيام بوب فيتزسيمنز[١٤٩]، في الواقع. وتنسدل الستارة ويتقدَّم شابٌ مشرق يحمل مذياعاً خارجاً من بين الأجنحة ويصدح بأغنية عاطفية تدور حول طائرة تنقل رسالة إلى حبيبته في كاليدونيا.

الآن تدخل الراقصات المتخبّطات من جديد، هذه المرة متخفّيات بزي هنود أميركا الشمالية. يَدُرن في المكان حول نار مخيَّم كهربائية، وتصدح الموسيقى بألحانٍ تنقّلت من " الفارس الصغير " و " أغنية من كشمير " إلى " يسقط المطر على وجهي ". تقف فتاة من لاتفيا تضع ريشة في شعرها مثل الزعيم هياواثا، تمدُّ بصرها نحو أرض الشمس الغاربة. ينبغي أن تقف على أطراف أصابع قدميها إلى أن يُنهي بنغ كروسبي الابن أربع عشرة رباعية من الفولكلور الأرمني، ألّفها كاوبوي

١٤٨ - إركوتسك : تقع في سيبيريا . أكبر تجمُّع صناعي هناك . - المترجم

١٤٩ - بوب فيتزسيمنز (١٨٦٢ - ١٩١٧) : ملاكم نيوزيلندي . ولد في إنكلترا . بطل العالم للأوزان المتوسط، والثقيل، والثقيل الخفيف (١٨٩١ - ١٩٠٥) . - المترجم

من شارع هستر. ثم يُطلَقُ عيارٌ من مسدس، فتصيح الراقصات بصخبٍ، ويُنشَرُ العلم الأميركي، وتتشقلب البهلوانة في أرجاء المعقل، ويؤدي الزعيم هياواثا رقصة أسبانية، وتصاب الأوركسترا بداء السكتة. وحين تعود الأضواء تظهر الأم البيضاء الشعر العاملة في المرحاض وتقف بجوار الكرسي الكهربائي في انتظار أن تشاهد ابنها يُحرَق. هذا المشهد الذي تنفطر له القلوب مصحوب بأداءٍ لأغنية " خيوطٌ فضية بين الخيوط الذهبية " بصوتٍ عالي الطبقة. وضحية العدالة هو أحد المهرجين وسيظهر بين لحظة وأخرى حاملاً وعاءً للبول بيده. سوف يقوم بأخذ قياسات المرأة التي تؤدي الدور الرئيسي ليصنع لها ثوباً للسباحة. وسوف تضطر إلى الانحناء ومدّ طيزها بحيث يستطيع أن يحصل على القياسات الصحيحة تماماً. بعد انتهاء هذا الإجراء سوف تصبح ممرضة في مصحة للأمراض العقلية، مسلّحة بحقنة مملوءة ماءً سوف تبخّه في سرواله الداخلي. ثم ستكون هناك امرأتان تقومان بأدوارٍ رئيسية ترتديان مبذلين. تجلسان في شقة ذات أثاث مريح تنتظران وصول عشيقيهما. بعد قليل يصل الشابان وسرعان ما يبدءان بخلع بنطاليهما. ثم يعود الزوج فيأخذ الشابان يحجلان في أرجاء المكان ملابسهما، مثل عصفورين أعرجين من عصافير الدوري.

كل شيء محسوب بدقة. ومع دقات الساعة العاشرة وثلاث وعشرين دقيقة باتت كليو جاهزة لتقدِّم نمرتها الثانية والأخيرة. لم يتبقَّ لها من الوقت إلا نحو ثماني دقائق ونصف، وفقاً لشروط العقد. بعد ذلك سوف تضطر إلى التواري في الأجنحة مدة اثنتي عشرة دقيقة وتتخذ موقعها بين مجموع الممثلين لتقديم المشهد الختامي. الدقائق الاثنتي عشرة تلك كانت

twitter @baghdad_library

تحرق أعصابها. إنها دقائق ثمينة ضائعة تماماً. وهي لا تستطيع حتى أن ترتدي ملابس مشهدها الخاص؛ يجب أن تظهر بأبهى رونقها وتتلوى مرة أو مرتين قبل هبوط الستارة. إنها تحرق أعصابها.

الساعة العاشرة واثنين وعشرين دقيقة ونصف؛ انخفاضٌ مشؤوم تنازليٌ في صوت الموسيقى، ثم قرعُ اثنين - بأربعة مكتوم من الطبول. أطفئت الأنوار كلها ماعدا تلك التي فوق " المخارج ". تركَّزت بقعةٌ من الضوء على أجنحة الخشبة وعند الساعة العاشرة وثلاثٍ وعشرين دقيقة تماماً ظهرت أولاً يدٌ، ثم ساقٌ، ثم صدرٌ. ثم تَبِعَ الجسدَ رأسٌ، كما تتبع الهالة القديس. الرأس ملفوفٌ بنجارةٍ مع أوراقِ ملفوفٍ لإخفاء العينين؛ يتحرَّك كقنفذ بحرٍ يتصارعُ مع أسماكِ الحنكليز. ثمة عامل لاسلكي مخبَّأ في فم سُرَّة البطن القرمزي اللون: إنه متكلِّم من بطنه يستخدم إشارات الصُم والبُكم.

قبل أن تبدأ الحركات التشنجية العظمى للجذع بما يشبه قرع الطبل، تدور كليو حول خشبة المسرح بيسرٍ وتراخٍ منوِّمين جديرين بحيّة كوبرا. الساقان اللدنتان والبيضاوان بياض الحليب مستترتان خلف حجاب من الخرز يحيط بالخصر؛ والحلمتان الورديتا اللون مكسوتان بشاشٍ شفّاف. إنها خالية من العظام، حليبيّة البياض، مخدَّرة: ميدوزا تضعُ شعراً مُستعاراً من القَشْ تتماوجُ في بحيرةٍ من الخرز الزجاجي.

بينما هي تطرح عنها الرداء الرنَّان يتناوب القرع بين بوم-بوم و توم-توم و بوم-بوم و توم-توم.

هنا أصبحنا في قلب مجاهل أفريقيا، حيث يتدفق نهر أوبانغي. الأفاعي مشتبكة في قتالٍ مميت. الكبرى بينها، وهي الحيّة العاصرة،

تبتلع ببطء الصغرى - بدءاً بالذيل. والصغرى تبلغ من الطول نحو اثني عشر قدماً - وهي سامّة. وتظل تكافح حتى الرمق الأخير؛ أنيابها ما تزال تبصق سمّاً، حتى بعد إطباق فكّي الحيّة الكبرى على رأسها. تتبع ذلك قيلولة في الظل لإفساح المجال كاملاً لإتمام عملية الهضم. والقتال الصامت، الغريب، لا ينتج عن كراهية بل عن جوع. أفريقيا هي قارةُ الوفرة الهيمنةُ المطلقةُ فيها للجوع. والضبع والصقر هما الحَكَمان. وأرض فترات الصمت الذي يُشيعُ البرودةَ في الأوصال تمزِّقُها زمجراتٌ حانقةٌ وصرخاتٌ موجَّهة. كل شيء يؤكل حياً وبلا طبخ. والحياة الشديدة الوفرة تشحذ شهية الموت. لا كراهية، بل جوع. الجوع هو قلب الوفرة والموت يأتي سريعاً. وحالما يعجز المرء عن الكفاح تبدأ عملية الالتهام. أسماكٌ صغيرة جداً، يُصيبها الجوعُ بالجنون، تستطيع أن تلتهمَ عملاقاً وتتركه هيكلاً عظمياً في غضون دقائق قليلة. ويُمتَصُّ الدمُ كما الماء. والشعر والجلد يتمُّ الاستيلاء عليهما. وتستخدم المخالب والأنياب كأسلحة أو كعملة للتبادل. لا شيء يُهدَر. كل شيء يؤكَل حياً وسط زئير وزعيق يخثِّر الدم في العروق. والموتُ يضربُ كالصاعقة في الغابة والنهر. والمخلوقات الضخمة ليست أكثر مَناعةً من المخلوقات الصغيرة. الكلُّ فرائس.

وسط هذا الصراع الدائم تقدِّم بقايا المملكة الإنسانية رقصاتها. الجوعُ هو الجسدُ الشمسيّ إلى أفريقيا، والرقص هو جسدها القَمَريّ. الرقص هو التعبير عن جوعٍ ثانويّ: هو الجنس. الجوع والجنس حيَّتان مشتبكتان في قتالٍ حتى الموت. لا بداية هناك ولا نهاية. واحد يبتلع آخر لكي يولد ثالث: تصبح الآلة لحماً، آلة تعملُ من تلقاء ذاتها وبلا

twitter @baghdad_library

أي هدف، إلا إذا كـان المزيد فـالمزيد من التكاثر. وهكذا يقلُّ الخلق باطراد. والحكماء، الناكرون لذواتهم، يبدون كالغوريلات. يعيشون في عزلة: يسكنون الأشجار. إنهم الأشدّ ضراوة قاطبة - بل أشدّ بثّاً للرعب من وحيد القرن أو اللبوءة. يطلقون صرخاتٍ حادة، تخرق الآذان. يتحدَّون مَنْ يقترب منهم.

الرقص يجري في كل أرجاء القارة. إنها القصة الأبدية للسيطرة على قِوى الطبيعة الغامضة. الروح تعمل من خلال الغريزة، وأفريقيا الراقصة هي أفريقيا تحاول أن ترتفع فوق مستوى فوضى مجرد التكاثر.

في أفريقيا الرقصُ مجرَّدٌ، ومقدَّسٌ وفاحشٌ. حين ينتصب القضيب ويُعَامل كموزة فليس ما نراه " انتصاباً شخصياً " بل انتصابٌ قَبَليّ. إنه " انتصابٌ دينيّ "، ليس موجَّهاً إلى امرأة، بل إلى كل أنثى في القبيلة. إنها أرواحُ جماعيّةٌ تؤدي نكاحاً جماعياً. رجلٌ يرتفع خارجَ عالمِ الحيوان من خلال طقسٍ من ابتكاره الخاص. إنه يبيِّن من خلال محاكاته الساخرة أنه يتعالى على عملية النكاح الصِرْف.

الراقصة المتهتِّكة في المدينة الكبرى ترقص وحدها - وهذه حقيقة تنطوي على مغزى مذهل. فالقانون يحرِّم الاستجابة، ويحرِّم المشاركة. لم يتبقَّ أي شيء من الطقس البدائي غير الحركات " الموحية " للجسد. وما توحي به يختلف مع اختلاف المراقب الفرد. أما الأغلبية، فقد لا تجد فيها أكثر من نكاح خارق يتم في الظلام. نكاحٌ في الحلم، إذا توخَّينا الدقة.

ولكن أي قانون هذا الذي يحكُمُ بأن يجْمَدْ المراقبُ في مقعده، وكأنَّه مغلول ومقيَّد؟ إنه قانون الموافقة الشاملة الصامت الذي جعل الجنس عملاً قذراً، مختلساً، لا يمارَس إلا بموافقة الكنيسة.

أتابعُ كليو، فتعود إلى ذاكرتي صورةُ ذلك التمثال الفينيسي الذي ظهر في العَرْض الجانبي. ألم تكن كليو معزولة عن المجتمع الإنساني كتلك الفلتة المغرية المولودة بدون ساقين؟ لا أحد يجرؤ على الوثب على كليو إلا بقدر جرأتهِ على وضع مخلبه على الجميلة الكسيحة في كوني آيلند. وعلى الرغم من أن كل حركة من جسمها قائمة على أساس تفاصيل الجماع الجسدي فلا أحد حتى يفكّرٌ في تلبية دعوتها. والاقتراب من كليو وهي في وسط رقصتها كان سيُعتَبَر جريمة لا تُغتَفَر تماماً كاغتصاب الفلتة العاجزة في العرض الجانبي.

أفكر في دمية موديل الخياط الذي كان ذات يوم رمزاً للغواية الأنثوية. أفكر في صورة المتعة الجسدية التي تنتهي تحت منطقة الجذع بتنورة من أضلاع مظلّة.

هاكَ ما يدور في ذهني ...

نحن مجتمع تعدادنا سبعة ملايين أو ثمانية، أحرارٌ ومتساوون ديموقراطياً، مُسخَّرون لتحقيق حياةِ، وحريةِ، وسعادةِ الجميع - نظرياً. ونحن نمثِّل تقريباً سلالات شعوب العالم كلها في ذروة إنجازاتها الحضارية - نظرياً. نتمتع بحق العبادة كما نشاء، ونصوِّت لمن نشاء، ونضع قوانيننا الخاصة، وما إلى ذلك - نظرياً.

نظرياً كلٌّ شيءٍ مثاليٌّ، وعادلٌ، ومنصفٌ. وأفريقيا ما زالت قارةً غامضةً بالكاد بدأ الإنسان الأبيض ينيرها بالكتاب المقدَّس وبالسيف. ومع ذلك، وبواسطة اتّفاقٍ غريب، ومبهم، تؤدِّي امرأة اسمها كليو رقصةً فاحشة في مكانٍ معتم مجاور للكنيسة. ولو أنها رقصت بتلك الطريقة في الشارع لألقيَ القبض عليها؛ لو أنها رقصت هكذا في مكانٍ خاص

twitter @baghdad_library

لاغتُصِبَتْ ومُـثِّلَ بها؛ لو أنها رقصت هكذا في كارنيغي هول لسبَّبَت اندلاعَ ثورة، لأنَّ رقصَها هو انتهاكُ لدستورِ الولايات المتَّحدة. إنه رقصٌ قديم، بدائي وفاحش، يرمي إلى إثارة شهوات الرجال والنساء السافلة وإلهابها. وليس له إلا هدفٌ شريفٌ منظورٌ واحد - زيادةُ إيراداتِ شباك التذاكر لصالح الأخوين منسكي. هذا مسموح. وهناك على المرء أن يكفَّ عن التفكير في الموضوع أو أن يُجَنّ.

لكني لا أستطيع أن أكفّ عن التفكير ... أرى عارضة أزياء اتّخذت، تحت تأثير تحديق العين العالمية الشبقة، لحماً ودماً. أراها تستنزفُ شهواتِ جمهورٍ من المفترض أنه متحضِّر في ثاني أكبر مدينة في العالم. لقد تلبَّسَتْ لحمَهم، وأفكارَهم، وشهواتِهم، وأحلامَهم ورغباتِهم الفاسقة، وبفعلِها هذا إنما بترَتْهم، تركَتْهم بجذوعٍ محشوَّة وبأضلاعٍ مظلة. وأعتقد أنها حتى سلبَتْهم أعضاءهم الجنسية، ذلك إذا كانوا ما يزالون رجالاً ونساءً، ما الذي يبقيهم جالسين على مقاعدهم؟ إنني أرى العَرْض السريع برمّته كنوعٍ من جلسةِ تحضير أرواحٍ يقوم بها الدكتور كاليغاري، مشهدٌ من التحوُّل النفسي البارع والرشيق. وأشكُّ في أني أجلس في دار مسرح. أشكُّ في كل شيء، ماعدا في قوة الإيحاء. وفي استطاعتي أن أصدِّق بسهولة أننا في بازار ناغازاكي، حيث تُباعُ أدواتٌ جنسية؛ وأننا جالسون هناك في الظلام نحمل في أيدينا فؤوساً من المطاط، ونستمني كالمهووسين. أستطيع أن أصدِّق أننا في عالم النسيان، وسط دخانِ عوالم وهمية، وأن ما يمرُّ من أمام العين هو سرابٌ من عالمِ الألمِ والصَلْب الاستثنائي. يمكنني أن أصدِّق أننا جميعاً مشنوقون، وأنها اللحظة الفاصلة بين ظهور الفخ فجأة وفرقعة

الحبل المخيشوكي[١٥٠]، مما يُحدث القذف الأخير والأشدّ روعة، وأصدِّق أننا موجودون في أي مكان في مدينةٍ تعداد سكانها يبلغ سبعة ملايين نسمة أو ثمانية، أحرار كلهم ومتساوون، ومثقفون ومتحضِّرون، ومكرَّسون لتحقيق الحياة، والحرية والسعادة. وفوق ذلك كله، أكاد لا أصدِّق أني في هذا اليوم بالذات ارتبطتُ برباطِ الزواجِ المقدسِ للمرةِ الثالثةِ، وأننا جالسين جنباً إلى جنب في الظلام كزوجٍ وزوجة، وأننا نحتفل بطقوسِ الربيع بمشاعر مطاطية.

أجد ذلك لا يُصَدَّق بأي حال. هناك أوضاعٌ تتحدَّى قوانين الذكاء. وهناك لحظات ينتجُ خلالها المزيج الشاذ لثمانية ملايين إنسانٍ نماذج من أشد أنواع الجنون تطرفاً. والمركيز دو ساد بالمقارنة يبدو غاية في العقلانية والاتِّزان؛ وزاخر مازوخ[١٥١] درَّة الاتزان؛ وذو اللحية الزرقاء ناعمٌ كاليمامة.

كليو تزداد ضياءً باطِّراد وسطَ الإشعاع البارِد لبقعةِ الضوء. وبطنها أصبح بحراً متجهِّماً، مرتفعُ الموجةِ يتقاذف السُرَّة ذات اللون القرمزي البراق كفمٍ لاهث لـ naufrage (ضحية حُطام سفينة)، ورأسُ كسّها ينشر أزهاراً إلى الأوركسترا. ويتحول البوم-بوم إلى توم-توم والتوم-توم إلى بوم-بوم. دماءُ المستمني يجري في عروقها. حلمتاها عروقٌ متراكزة من الأرجواني المكتظ. فمها يلمع كاللسين[١٥٢] الأحمر لنابٍ يمزِّق طرفاً دافئاً. الذراعان حيَّتا كوبرا، والساقان مصنوعان من جلد مدبوغ. وجهها أشدُّ شحوباً من العاج، وتعابيره ثابتة، كما في وجوه

١٥٠ – المخيشوكي : أي له صلة بالنخاع الشوكي وبالمخ . – المترجم

١٥١ – ليوبولد فون زاخر مازوخ (١٨٣٦ – ١٨٩٥) : روائي نمساوي . – المترجم

١٥٢ – اللسّين : قطعة الأمان في بندقية . – المترجم

twitter @baghdad_library

الشياطين الغضارية في يوكاتان. الشَبَق المتركِّز للرعاع يجتاحها بالإيقاع الضبابي لجسمٍ شمسيّ يتجسَّد. وكقمرٍ انتُزِعَ من سطح الأرض الناري، تتقيّأ قِطَعاً من لحم مشبعٍ بالدم. إنها تتنقَّل بدون قدمين، كما تحلم الضحايا المبتورة حديثاً في ساحة القتال. تتلوى على جدعتيها الليِّنتين المتخيّلتين، مُصدِرَةً تأوهاتٍ خافتةٍ من النشوة المؤلمة.

الرعشة الجنسية تحدث ببطء، كآخر لطخاتٍ من الدماء تنبع من حِمَّةٍ تتألم. إنها وحيدة في المدينة ذات الثمانية ملايين نسمة، مبتورة، ومعزولة؛ تضع اللمسات الأخيرة على عرضٍ للشهوة الجنسية جدير بأن يُحيي الموتى. إنها تحت حماية آباء المدينة وتحظى ببركات الأخوين منسكي. وفي مدينة مينسك، التي رحلا إليها من مدينة بنسك، خطط هذان الشابان البعيدا النظر لكل شيء. وحدث، كما في الأحلام، أنهما افتتحا حديقتهما الشُتويّة الجميلة بجوار الكنيسة الكاثوليكية. كل شيء يسيرُ حسبَ الخطَّة الموضوعة، بما فيه الأم الشائبة الشعر العاملة في المرحاض.

التشنُّجات القليلة الأخيرة ... لماذا يبدو كل شيء شديد الهدوء؟ القطع المزهرة السوداء تقطر مع حليب مكثَّف. رجل اسمه سيلفربرغ يمضغ شفتيّ فرس. وآخر اسمه فيتوريو يمتطي نعجة. امرأة دون اسم تُقشِّر الفول السوداني وتحشره بين ساقيها.

في تلك الساعة بالذات، وبالضبط، ثمة رجل اسمر، مصقول، يرتدي ثياباً صوفية استوائية أنيقة مع ربطة عنق بلون أصفر براقاً ويضع زهرة قرنفل بيضاء في عروته، يقف أمام فندق أستور على الدرجة الثالثة، مرتكزاً بثقلِهِ بخفَّةٍ على عصا الخيزران التي يتباهى بها في مثل تلك الساعة من كل يوم.

اسمه عصملّلي، ومن الواضح أنه اسمُ مُختَلَق يحمل في جيبه لفافة من الأوراق المالية من فئات العشرة والعشرين والخمسين دولاراً. وتفوح من منديله الحريري، الذي يبرزه بحذر من جيب صدره، شذا عطر الزينة الغالي الثمن. إنه طلْقٌ كزهرة الربيع، ونشيط، وهادئ، ومتغطرس – ممتاز من كل النواحي. حين تنظر إليه لا تشكُّ لحظة واحدة في أنَّه مأجور لمنظمة كنسيّة، وأنَّ مهمته الوحيدة في الحياة هي أن ينفث السُم، والحقد، والافتراء، وأنَّه يستمتع بعمله هذا، وينام هانئ البال، ويتفتّح كالوردة.

في ظهيرة الغد سيكون في مكانه المعتاد في ساحة الاتحاد، يعتلي صندوقاً من الصابون، يظلّله العلم الأميركي؛ والزَبَدُ يسيلُ من بين شفتيه، وفتحتا أنفه ترتعشان من فرط الحنق، وصوته يخرج أجشاً ومبحوحاً. إن الحِجَجَ التي لفَّقها الإنسان ليدمِّر جاذبية النظام الشيوعي هي رهنُ إشارته، يستطيع أن يُخرِجها من قبعته بما يشبه السحر الرخيص. إنه موجود هناك ليس فقط ليقدِّم الحِجَّة، ولينفث السُمّ، والافتراء، وإنما ليثير المشاكل: إنَّه هناك ليُثيرَ الشغب، ليستفزّ رجال الشرطة، وليمثُل أمام المحكمة ويتَّهم أناساً أبرياء، بالتهجُّم على العَلَم الأميركي.

عندما يزداد الجو حرارة في ساحة الاتحاد ينتقل إلى بوسطن وبروفيدنس، أو إلى أي مدينة أميركية، وهو دائماً متلفِّعٌ بالعَلَم الأميركي، ودائماً مُحاطٌ بحاشيته المدرَّبة من مثيري الشغب، ودائماً يستظلُ بحمايةِ الكنيسة. إنه رجل مجهول الأصل تماماً، غيَّر اسمه مرات عديدة، خدَمَ الأَحزابَ كلَّها، الحمراءَ، والبيضاءَ، والزرقاءَ، على فترات. رجلٌ لا ينتمي إلى أي بلدٍ، أو مبدأ، أو معتقد، ولا يحمل أي وساوس.

twitter @baghdad_library

هو خادم لبعلزبوب[١٥٣]، وأداة، وجاسوس، وخائن، ومرتدّ. وهو أستاذ في تشويش عقول الناس، وخبير البلاك لودج.

ليس لديه أصدقاء مقربون، أو عشيقة، أو أي ارتباط من أي نوع. حين يختفي لا يترك خلفه أي أثر. ثمة خيط خفي يربطه بالذين يخدمهم. فوق صندوق الصابون يبدو كرجلٍ ممسوس، كمتعصّبٍ يهذي. على دَرَجِ فندق أستور، حيث يقف في كل ليلة بضع دقائق، وكأنه يستعرض حشداً غفيراً، وكأنه شارد الذهن قليلاً، يبدو مثالاً لرباطة الجأش، واللامبالاة الهادئة، الدمثة. كان قد استحمَّ، وتدلَّك، وشذب أظافره، ولمّع حذاءه؛ وأخذ غفوة طويلة أيضاً، وبعد ذلك تناولَ وجبةً دسمة في أحد تلك المطاعم الاستثنائية، الهادئة التي تُقدِّم الطعامَ فقط للذواقة. وكثيراً ما يتمشّى قليلاً في الحديقة العامة لكي يهضم وجبته. ويتفحَّص ما حوله بعينٍ ذكية، مُستحسنَة، مدركاً لمفاتن اللحم، ولجمال الأرض والسماء. ولما كان حَسَنَ الاطلاع، كثيرَ الأسفار، ومتذوقاً للموسيقى ومولعاً بالزهور، فهو غالباً ما يفكِّر أثناء سيره في حماقات الإنسان. إنه يحب نكهة الكلمات ومذاقها؛ يديرها على لسانه، كما يدير لقمة لذيذة من الطعام. وهو يعرف أنَّ لديه القدرة على التأثير على الناس، على إثارة أهوائهم، واستفزازهم وإرباكهم على هواه. غير أنَّ مقدرته هذه بالذات جعلته مُحتَقَراً، ومُزرياً وساخراً من أخيه الإنسان.

الآن هو على دَرَجْ فندق أستور، متخفّياً بمظهر المتسكع boulevar-dier، والمتبطِّل flaneur، والمتأنِّق. يحدِّق متأمِّلاً عبر رؤوس الجماهير لا تشوِّشه أضواء الإعلان عن العلكة، واللحم المعروض للإيجار، وقرقعة

---

١٥٣ - بعلزبوب : سيد الشياطين . – المترجم

عِـدةٌ الحرب المخيـفـة، ونظرة الشـرود المجنون في عـيـون المارة. لقـد نأى بنفسـه عن كل الأحزاب، والعـبادات والمذاهب، والأيديولوجيات. إنه ذات حرة، محصَّنة ضد المعتقدات، والولاءات، والمبادئ كافة. يستطيع أن يشتري كل ما يحتاج إليه ليغذّي توهّمه بأنه لا يحتاج إلى أي شيء، أو أحد. هذا المساء يبدو حراً ومنفصلاً، أكثر من أي وقت سابق. إنه يعترف لنفسه بأنه يشعر أنه أشبه بشخصية في رواية روسية، ويتساءل بإبهام عن سبب انغماسه في مثل تلك العواطف. يلاحظ أنه طرح لتوه فكرة الانتحار؛ وهو مذهول قليلاً لاكتشافه أنه كان يضمر مثل تلك الأفكار. كان يتناقش مع ذاته، والآن وهو يتتبَّع مسار أفكاره يرى أنها كانت قضية طويلة جداً. وأشد أفكاره إزعاجاً هي عجزه عن إدراك الذات التي ناقش معها مسألة الانتحار تلك. هذه الذات المستترة لم تُظهِر حاجاتها من قبل. لطالما كان هناك فراغ بُنيَ حوله كاتدرائية حقيقية من الشخصيات المتبدِّلة. ولما كان دائماً ينسحب خلف الواجهة كان دائماً يجد نفسه وحيداً. ومن ثم، قبل لحظة فقط، اكتشف أنه ليس وحيداً؛ وعلى الرغم من عملية تبديل الأقنعة، والتمويه المعماري، فلا يزال هناك شخص يعيش معه، شخص عرفه فوراً، وهو يلحُّ الآن عليه أن يضع حداً للأمر.

إن الجزء الأكثر إثارة للعجب في هذا أنه كان يلحُّ عليه أن يفعل ذلك فوراً، بدون إضاعة أي وقت. وهذا محال، ذلك أنه على الرغم من اعترافه بأن الفكرة مغرية وجذابة، إلا أنه شعر بالرغبة الإنسانية جداً في الاستمتاع بميزة العيش خارج موته الخاص في مخيلته، على الأقل مدة ساعة أو نحوها. لقد بدا أنه يستجدي وقتاً، وهذا أمر غريب، لأنه لم

twitter @baghdad_library

يضمر مرة في حياته فكرة الانتحار. كان ينبغي عليه أن يطرد الفكرة بدل أن يستجدي مهلة بضع لحظات، كأي مجرم مُدان. لكن هذا الخواء، هذه العزلة التي ينسحب إليها عادة، بدأت الآن تتخذ شكل الضغط والانفجار اللذين يتّصف بهما الفراغ. كان يدرك أن الفقاعة توشك أن تنفجر، وأن لا حيلة له في إبقائها على حالها. هبط درج فندق أستور وغاص بين الجمهور. ظنَّ للوهلة الأولى أنه ربما سيذوب بين كل تلك الأجساد، ولكن لا، لقد كان يزداد باطراد صفاءً، ووعياً بذاته، وتصميماً على إطاعة الصوت الملحّ الذي يستحثه على المضي قُدَماً. لقد كان أشبه بعاشق في طريقه إلى لقاء محبوبته. لم يكن يفكِّر إلا في: دماره. كانت الفكرة تحرقه كما النار، وتضيء دربه.

حالما انعطف إلى شارع جانبي، لكي يسرع بالعودة إلى شقته، أدرك بوضوح تام أنه قد غُمِرَ، إن صحّ التعبير، وأنه لم يبق له غير أن يتبع أنفه. لم يكن يعاني من أي مشاكل، أو صراعات. كان يقوم بإيماءات آليّة معيّنة دون حتى أن يخفِّف من سرعة خطواته. فمثلاً، لدى مروره بحاوية قمامة رمى إليها لفافة الأوراق المالية وكأنه يتخلّص من قشرة موز؛ وعند المنعطف أفرغ محتويات جيب معطفه الداخلي في المجرور، ولقيَتْ ساعة يده والسلسلة، والخاتم، وسكين الجيب، المصير نفسه. وتلمّسَ نفسه في كل مكان، أثناء سيره، ليتأكد من أنه تجرّدَ من ممتلكاته الشخصية كلها. حتى منديله، وبعد أن تمخَّطَ للمرة الأخيرة، رماه إلى المجرور. شعر أنه خفيف كما الريشة وبدأ يتنقَّل بين الشوارع بخفَّة مطردة. وفي لحظة محدَّدة سوف تُعطى الإشارة وسيستسلم. وبدل سيل الأفكار المصطخبة، ومخاوف، ورغبات، وآمال، وندامات اللحظة

الأخيرة، كالتي نتخيَّل أنها تَغيرُ على المحكوم بالإعدام، وعى فقط وجودَ فجوةٍ وحيدةٍ تتَّسعُ باستمرار. كان قلبُهُ سماءً زرقاءَ صافيةً لا أثرَ فيها لأي غيمة. وقد يظن المرء أنه عَبَرَ حدودَ العالم الآخر، بحيث أنه قد دخل لتوه، وقبل موته الجسدي الفعلي، في حالة غيبوبة تامة، وأنه لدى انتقاله إلى الجانب الآخر سوف يُدهَش إذ يجد أنه يمشي بسرعة كبيرة. وربما عندئذ فقط سوف يتمكَّن من لَمِّ شتات أفكارِهِ؛ وعندئذ فقط سوف يتمكَّن من التساؤل عن سبب فعلِهِ ذلك.

فوق الرؤوس حرفا EL يقرقعَان ويهدران. يمرُّ به رجل يركض بأقصى سرعة في إثره ضابط شرطة يشهر مسدسه. ويبدأ بدوره يركض. الآن الثلاثة معاً يركضون. إنه لا يعرف السبب، لا يعرف حتى أنَّ هناك مَنْ يجري في إثره. ولكن حين تخترق رصاصةٌ مؤخَّرَ جمجمته ويقع مبطوحاً على وجهه يتردد ومضٌ من الصفاءِ المُبهرِ في أرجاء كيانه كله.

بعد أن يلقاه الموت يبطحه على الرصيف، ويبدأ العشب ينمو في أذنيه، يعود عصملّلي مرة جديدة فيهبط درج فندق أستور، ولكن بدل أن يعود فينضم إلى الحشد يتسلل من الباب الخلفي لمنزلٍ صغير متواضع في قرية حيث يتكلَّم لغةً مختلفة، يجلس على مائدة المطبخ ويرشفُ من كأسٍ من مخيض اللبن. ويبدو كأنَّه بالأمس القريب كان يجلسُ على هذه الطاولة نفسها، حين أخبرَتْه زوجته أنها ستتركه. وقد صعَقَه النبأ إلى درجةِ أنه عجِزَ عن النطق بأي كلمة؛ وتابعها بنظره وهي ترحل دون أن يُبدي أقلّ اعتراض. كان يجلس هناك بهدوء يشرب كأسه من مخيض اللبن وأخبرته بصراحة مباشرة، وحشية، أنها لم تحبه قط. ثم أضافَتْ بضع كلمات أخرى لا تقلُّ قسوة ورحلتْ. خلال تلك الدقائق القليلة تحوَّلَ

twitter @baghdad_library

إلى رجلٍ مـختـلفٍ تماماً. وبعـد أن برأ من الصعْقَة، شـعَرَ بنشوةٍ بالغـةٍ مذهلة. وكأنها قـالت له " أنتَ الآن حرٌ في أن تفعل ما تشـاء! ". انتـابه شعورٌ غامض بالحرية حتى أنه تسـاءل إنْ لم تكن حياته حتى تلك اللحظة مجـرد حلم. حرُ التـصرُّف! عـبـارة غـاية في البسـاطة. وخرج إلى الفنـاء وتوجه، بالتلقـائيـة ذاتهـا، إلى وجار الكـلب. وصفَّر للحـيـوان، وحين أبرز رأسـه قطعـه بضربة واحدة. هذا هو معنـى - أن يتصرَّف بحرية! كـان من فرطِ البسـاطةِ حتى أنَّه أخذ يضحك. حـينئذ عَلمَ أنَّ في إمكانه أن يفـعلَ مـا يشـاء. ولج إلى الداخل ونادى على الخـادمـة. أراد أن ينظرَ إليـهـا بتـينك العـينين الجديدتين. لم يكن في ذهنه غيـر ذلك. بعـد مرور سـاعـةٍ من الزمن، وبعـد أن اغـتـصـبهـا، توجه مـباشـرة إلى المصـرف ومن هناك انتقل إلى محطة القطار حيث استقلَّ أول قطار دخل السكة.

منذ ذلك الحين وحيـاته تتخذ نمطاً مـتبدِّل الألوان. جرائم القـتل التي ارتكبهـا نفَّذها بذهن شارد، بلا ضغينة، أو حقد أو طمع. ومارس الجنس بالطريقة ذاتها. لم يعرف الخوف، ولا الجبن، ولا الحَذَر.

بهـذا الشـكل مرت عـشـرُ سنواتٍ في غـضـونِ بضع دقـائق. السـلاسل التي كانت تُوثق الرجل العادي فكَّت عنه، وطافَ العـالمَ على هواه، وذاق طعْمَ الحـريَّة والمناعـة، ومن ثم في لحظة ارتخـاء تام، وهو مـسـتـسـلم للمخيّلة، انتهى بمنطق صـارم إلى أنَّ الموتَ هو الترفُ الوحيدُ الذي أنكره على نفسـه. وهكذا هبط درج فندق أسـتور بعد ذلك بقليل، وحين سقط ميتـاً منبطحـاً أدرك أنه لم يخطئ حين تفهَّمَ قـولهـا له أنها لـم تحبـه أبداً. كانت تلك أول مرة يعـيد التفكير في ذلك، وعلى الرغـم من أنـها ستكون آخر مرة يفكر فـيه فإنه لم يفهم كنهـه حينئذ أكثـر من فـهمه له حين سمعه

للمرة الأولى قبل ذلك بعشر سنين. فلم يكن له أي معنى آنئذ كما ليس له معنى الآن. كان ما يزال يرشف مخيض اللبن. وقد مات لتوه. كان عاجزاً، ولهذا شعر بحرية تامة. غير أنه لم يكن حراً في الواقع، كما تخيل نفسه. كان ذلك مجرد هلوسة. فأولاً، هو لم يقطع رأس الكلب، وإلا لَمَا كان الآن ينبحُ مبتهجاً. لو أنه يستطيع أن يقف على قدميه وينظر بأم عينيه لعرفَ معرفةً يقينيّة إنْ كان كل شيء حقيقي أم هو مجرد هلوسة. لكن القُدرةَ على التحرُّكِ سُلِبَتْ منه. فمنذ أن تفوَّهت بتلك الكلمات القليلة الشديدة الأثر أدرك أنه لن يقوى على التزحزح من مكانه. لماذا اختارَتْ تلك اللحظة بالذات أثناء شُربِهِ مخيض اللبن، لماذا انتظرَتْ كل ذلك الوقت الطويل لتكاشفه. لم يفهم ولن يفهم. بل لن يحاول أن يفهم. لقد سمعها بوضوح تام، كأنها وضعَتْ فمها على أذنه وصرخت بالكلمات فيها. انتقلت بسرعة قصوى وتوزَّعت في كل أجزاء جسمه وكأنَّ رصاصةً انفجرت في دماغه. ثم - أحدَثَ ذلك بعد بضع لحظات أم بعد أبدٍ؟ - خرج من سجنِ ذاتهِ القديمةِ تماماً كما تخرج فراشة من طور الخادرة. ثم الكلب، فالخادمة، فهذا، فذاك - حوادثُ لا حصرَ لها تتكرَّر وكأنما وِفقَ خطةٍ مُعدَّة مسبقاً. كل شيء مرسوم، حتى جرائم القتل العَرَضيّة الثلاث أو الأربع.

كما يحدث في الأساطير حيث تخبرنا أن مَنْ يتخلّى عن رؤياه يسقط في متاهةٍ لا مخرجَ منها إلا إلى الموت، وتوضِّح من خلال الرمز والمجاز أن تلافيفَ الدماغ، تلافيفَ المتاهة، تلافيفَ الأفاعي التي تلتفُّ حول العمود الفقري هي عمليةُ الخنقِ نفسها، عمليةُ إغلاق الأبواب خلف ظهر المرء، وحَبْسُ اللحم، والتوجُّه بلا هوادة نحو التحجُّر، هكذا كان

twitter @baghdad_library

الحال مع عصملّلي، التركي الغامض، الذي وقع أسير المخيّلة على دَرَج فندق أستور في أشد لحظات إحساسه بالحرية والانفصال وهماً. لقد تراءت له وهو ينظر عبر رؤوس الجماهير ذكرى أشاعت القشعريرة في جسمه، صورةُ زوجته الحبيبة، ورأسها الشبيه برأس كلب يتحوّل إلى حجر. وقد انتهَتْ رغبته المثيرة للشفقة في تجاوز حزنه بمواجهة القناع. وسَدَّ جنينُ الفشلِ البشع كلَّ منفذ. بدا وهو منكفِئُ الوجهِ على الرصيف كأنه يقبِّل القسمات المتحجِّرة للمرأة التي فقدها. وفراره، الذي لوحق بموارية بارعة، جعله وجهاً لوجه مع الصورة البراقة للرعب المنعكس على الحجاب الواقي لغريزة الدفاع عن النفس. وبمقتلهِ هو قَتَلَ العالم. نال هويته بالموت.

كانت كليو تختم رقصتها. وتزامنت الحركة المتشنِّجة الأخيرة مع استعراضِ حادثةِ موت عصملّلي الغريبة ...

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث والعشرون.

إنَّ الشيء الذي لا يُصدَّق في أمرِ تلك الهلوسات هو أنَّ لها وجوداً في الواقع. فحين انبطح عصملِّلي على الرصيف كان فقط يمثِّل مشهداً من حياتي مقدَّماً. دعنا نقفز بضع سنين - إلى وعاء الرعب.

الملعونون لديهم دائماً طاولة ليجلسوا حولها، ليعتمدوا بمرافقهم عليها وليدعموا الأوزان الثقيلة لأدمغتهم. الملعونون دائماً عميان، يحدِّقون إلى العالم بعيونٍ خاوية. الملعونون دائماً متحجِّرون، وفي قلب تحجُّرهم فراغٌ هائل. الملعونون لديهم دائماً العذر نفسه - فقدان مَنْ يحبون.

الوقت ليلٌ وأنا جالس في قبو. هذا هو منزلنا. انتظر عودتها ليلة بعد أخرى، كسجين مغلول إلى أرض زنزانته. ثمة امرأة ومعها مَنْ تسمِّيها صديقتها. لقد تآمرا على خيانتي ودَحْري. يتركاني بلا طعام، ولا تدفئة، ولا ضوء. يطلبان مني أن أتسلَّى إلى حين عودتهما.

على مدى شهور طويلة من الشعور بالعار والمذلَّة أصبحتُ أعانق عزلتي. لم أعد أطلب المساعدة من العالم الخارجي. لم أعد أجيب على جرس الباب. أعيش وحدي، وسط اصطخاب مخاوفي الخاصة. سجينُ أشباحي. أنتظر أن يرتفع الفيضان ويُغرِقَني.

حين تعودان لتعذّباني أتصرّفُ كالحيوان الذي إلتُ إليه. أثبُ على الطعام بجوعٍ ضارٍ. آكل بأصابعي. وبينما ألتهم الطعام أكشّر في وجهيهما بلا رحمة، كقيصرٍ مجنونٍ، غيور. أتظاهرُ بالغضب: أكيلُ لهما الإهانات، وأهدِّدهما هازاً قبضتيّ يديّ، وأزمجرُ وأبصقُ وأُظهِرُ حنقي.

أفعلُ هذا ليلةً بعد ليلة، لكي أحفِّز انفعالاتي الخامدة. لقد فقدتُ القدرة على الشعور. ولكي أخفي هذا النقص أستفزُّ انفعالي العارم. وهناك ليالٍ كنتُ أسلّيهما خلالها إلى أقصى حد بالزمجرة كأسدٍ جريح. أحياناً أطرحهما أرضاً بضربةِ مخلبٍ بصوتٍ مكتوم كالمخمل. بل لقد تبولّت عليهما وهما تتدحرجان على الأرض مع تشنجات من الضحك الهستيري.

تقولان إني أملك مواصفات المهرِّج. تقولان إنهما ستحضران ذات ليلة بعض أصدقائهما لأهرِّج أمامهم. فأكشِّر كاشفاً عن أسناني وأحرِّك فروة رأسي خلفاً وأماماً دلالة على موافقتي. إنني أتعلّم كل خِدَع حديقة الحيوان.

أشدُّ إنجازاتي براعةً هو التظاهر بالغيرة. خاصة مِنْ أشياء صغيرة. لا أسألها أبداً إنْ كانت قد ضاجعَتْ هذا الرجل أو ذاك، بل أكتفي بطلب معرفةِ إنْ كان قد قبَّل يدها. يمكنني أن أثور غضباً بسبب إيماءة صغيرة كهذه. أستطيع أن أشهِرَ السكين وأهدِّد بحزِّ عنقها. وأحياناً أتمادى وأسدِّد لصديقتها اللصيقة بها رفسةً رقيقةً على عجزها. ثم أحضِرُ اليود ولزقة جرح وأبوس طيز صديقتها التي لا تفارقها.

لنفرض أنهما عادتا ذات ليلة إلى المنزل ووجدتا أنَّ نارَ الموقد قد خمدت. ولنفرض أني في تلك الليلة أكون في مزاجٍ ممتاز، بعد أن تغلَّبت

twitter @baghdad_library

على قرص الجوع بإرادة من حديد، وتحدَّيتُ انقضاض الجنون وحدي في الظلام، وأقنعتُ نفسي بأنَّ الأنانية وحدهما يمكن أن تسبب الحزن والبؤس. ولنفرض زيادة على ذلك أنهما، لدى دخولهما زنزانة السجن، بدتا غير مكترثتين بالنصر الذي أحرزْتُهُ ولا تشعران إلا بخطرِ برودةِ الغرفة. ولا تسألان إن كنتُ أشعرُ بالبرد، وتكتفيان بالقول - الجو بارد هنا.

تقولان الدنيا برد، يا ملكتيَّ العزيزتين؟ إذن سأضرم لكما ناراً متأججة. وأتناول الكرسي وأهشّمه على الجدار الحجري. ثم أهجم عليه وأكسِّره تكسيراً، وأقدح ناراً صغيرة في الموقد بالأوراق وشظايا الأخشاب. وأشوي الكرسي قطعة بعد قطعة.

تريان في ذلك لفتةً رائعة. إلى هنا وكل شيء جيد. ثم قليلٌ من الطعام، وزجاجة من البيرة الباردة. إذن فقد قضيتما أمسية ممتعة هذا المساء؟ ألم يكن الجوُ بارداً في الخارج؟ ألم تجمعي مبلغاً من المال؟ عظيم، إذن أودعيه غداً مصرف توفير القروش! أنتِ، يا هيغوروبيرو، اذهبي بسرعة واشتري دورقاً من الرم! أنا مسافر غداً ... سأباشر جولة.

النار تخبو. أتناول كرسياً شاغراً وأضرب رأسه على الجدار. اللهب يتلظّى. تعود هيغوروبورو مع تكشيرة وتمدُّ يدها بالزجاجة. يتم فتحها فوراً، وأشرب جرعة كبيرة. يتصاعد اللهب في حلقي. أزعقُ، انهضي! أعطني الكرسي الآخر! احتجاجات، وصياح، وصراخ. هذا تمادٍ مفرط. ألم تقولا إنَّ الجوَّ باردٌ في الخارج؟ إذن نحن بحاجة إلى المزيد من الحرارة. ابعدي عني! وأُطيحُ بالأطباق إلى الأرض بضربةٍ واحدةٍ وأقبض على الطاولة. تحاولان أن تبعداني. أخرج إلى صندوق القمامة وأعثر

على فأس. أبدأ بالتقطيع، أحطِّم الطاولة إلى قطعٍ صغيرةٍ، ثم الخزانة ذات الأدراج، وأنثرها على الأرض. سأحطِّم كل شيء إرباً، أحذِّرهما، حتى الأواني الفخارية. سوف ندفأ كما لم ندفأ من قبل.

نُمضي ليلةً على الأرض، وثلاثتنا نتقلَّب كفلِّين يحترق. ونتبادل تعابير السخرية والاستهزاء.

" لن يرحل ... إنه فقط يمثِّل "

يهمسُ صوتٌ في أذني " هل سترحل حقاً؟ "

" نعم، أعدك بأني سأفعل "

" لكني لا أريدكَ أن ترحل "

" لم يعد يهمني ما تريدين "

" لكني أحبك "

" لا أصدِّق "

" ولكن يجب أن تصدِّقني "

" أنا لا أصدِّق أحداً، أو شيئاً "

" أنت مريض، لا تدري ما تفعل. لن أدعك ترحل "

" كيف ستمنعيني؟ "

" أرجوك، أرجوك يا فال، لا تكلِّمني بهذا الأسلوب ... أنت تثير قلقي "

صمتٌ.

همسٌ رعديد. " كيف ستعيش بدوني؟ "

" لا أعلم، ولا يهمّني "

" لكنك بحاجة إليّ. أنت لا تعرف كيف تُعنى بنفسك "

twitter @baghdad_library

" لا أحتاج إلى أحد "

" أنا خائفة، قال. أخشى أن يحدث لك مكروه "

في الصباح أغادر خِلسةً أثناء نومهما بسلام. وببضعة بنسات سرقتها من بائع صحف أعمى أصلُ إلى ساحلِ جرزي وأنطلق أبغي الطريق العامة. ينتابني شعور رائع بالخفّة وبالحرية. في فيلادلفيا أتسكع وكأني في سياحة. أشعر بالجوع. أستجدي قرشاً من أحد المارة وأحصل عليه. أحاولُ مع آخر وآخر - فقط من باب التسلية. أدخل إلى حانة، وأتناول وجبة غداء مجانية مع كأس كبيرة من البيرة، ثم أنطلق إلى الشارع العام من جديد.

أحصل على توصيلةٍ على الطريق إلى بتسبرغ. السائق صموت. كذلك أنا. وكأنه سائقي الخاص. بعد فترة من الوقت أتساءل إلى أين أنا ذاهب. هل أريد عملاً؟ كلا. هل أريد أن أبدأ الحياة من بدايتها ؟ كلا. هل أريد إجازة؟ كلا. لا أريد أي شيء.

إذن، ما الذي تريده فعلاً؟ أتساءل، فأجد الجواب هو دائماً ذاته: لا شيء.

حسن، هذا بالضبط ما لديك: لا شيء.

انتهى الحوار الثنائي. توجّه انتباهي إلى ولاعة السجائر المثبّتة في لوحة أجهزة القياس. ظهرت في ذهني كلمة " مَرْبَط ". عبثتُ بها فترة طويلة، ثم تخلّيت عنها نهائياً، كما يصرف المرء عنه طفلاً يرغب في اللعب بالكرة معه طوال النهار.

الدروب والطرق الرئيسية تتفرّع في كل الاتجاهات. كيف كان حال الأرض دون طرق؟ محيطٌ غير مطروق. غابة. لابد أنَّ الطريقَ الأولى

التي اخترقت البرية كانت بمثابة الإنجاز الهائل. اتجاه، توجيه، اتصال. ثم طريقان، ثلاث طرق ... ثم ملايين الطرق. شبكة عنكبوت وفي مركزها الإنسان، مبتكرُها، عالقاً كذبابة.

إننا تسير بسرعة سبعين ميلاً في الساعة، أو لعلي أتخيَّل ذلك. لا نتبادل كلمة واحدة. ربما يخشى أن يسمعني أقول إني جائع أو أنَّ لا مكان لي أبيت فيه. قد يفكِّر في التخلُّص مني إذا ما بدأتُ أتصرَّف بطريقة مريبة. بين حين وآخرُ يشعِلُ سيجارة على المشواة الكهربائية. الأداة تفتنني. إنها تشبه قليلاً الكرسي الكهربائي.

فجأة يقول السائق " أنا سأنعطف هنا. إلى أين أنت ذاهب؟ "

" تستطيع أن تنزلني هنا ... شكراً لك "

ترجَّلتُ تحت رذاذٍ خفيفٍ من المطر. الظلام يزدادُ حِلكةً. الطرق تؤدي إلى كل مكان. يجب أن أقرر وجهتي. يجب أن يكون لي هدف.

أقف وأنا غارق في حالة نشوة حتى أني تركت مائة سيارة تمرّ دون أن أرفع بصري. لم يكن معي حتى منديل إضافي،كما اكتشفت. كنتُ أنوي أن أمسح نظارتي ولكن، ما الفائدة؟ لا داعي لأن يكون نظري وشعوري وتفكيري في أحسن حال؛ ليست لي وجهة معيَّنة. وحين ينالني التعب يمكن أن أنهارَ وأستغرقَ في النوم. الحيواناتُ تنام تحت المطر، فلِمَ لا يفعلُ الإنسانُ ذلك؟ لو أنَّ في إمكاني أن أصبح حيواناً لكانت لي وجهة.

توقفَتْ سيارةٌ شاحنة تجري بقربي؛ السائق يبحث عن عود ثقاب.

يسألني " هل تريد توصيلة؟ "

أقفز بدون أن أسأل عن وجهته. يتحدث مطوَّلاً عن عيدان الثقاب،

twitter @baghdad_library

وعن مدى أهميتها عندما نحتاج إليها، وكيف أنَّ من السهل أن نضيّعها، إلى ما هنالك. إنه يُحوِّل أي شيء إلى محادثة. يبدو غريباً أن يتحدث المرءُ بجدّية صارمة عن لا شيء على الإطلاق في حين توجد بحقّ مشاكلُ على جانبٍ هائلٍ من الأهمية تنتظر إيجادَ حلٍّ لها. ولولا أننا نتحدث في أمورٍ مادية تافهة فإنَّ مثل هذا الحديث يصلح أن يجري في صالون فرنسي. إنَّ الطرقَ تصل بين كل شيء بصورة رائعة بحيث أنه حتى الفراغ يمكن أن يُنقَل بسهولة.

بينما نحن نقترب من ضواحي مدينة كبيرة سألتُهُ أين نحن.

قال " وَلَوْ، هذه فيلي. أين ظننتَ نفسك؟ "

قلت " لا أدري. لم تكن لدي أي فكرة ... أتراكَ ذاهبٌ إلى نيويورك؟ "

نخَرَ. ثم أضاف " يبدو أنكَ لا تأبه كثيراً بوجهتك. تتصرَّف وكأنك تتنزّه بالسيارة في الظلام "

استرخيتُ في المقعد وأصغيتُ إليه وهو يحكي لي عن شبانٍ يتجولون في الظلام بحثاً عن مكانٍ ينامون فيه. تحدَّثَ عنهم تماماً كخبيرٍ في فن البستنة يتحدث عن أنواعٍ معيّنة من الشجيرات. كان " يطوي الفضاء "، على حدّ قول كوزيبسكي، رجلاً يطوي الشوارع الرئيسية والفرعية مع عزلته. على كِلا جانبيّ الطرقات المزدحمة كانت المروج، والمخلوقات التي تشغَلُ ذلك الخلاء كانت من المشرَّدين الذين يستجدون بنَهَمٍ توصيلة.

كان كلما تكلَّمَ فكَّرتُ بكآبة أكثر في معنى المأوى. فبعد كل شيء، لم يكن القبو سيئاً كثيراً. وخارجاً في العالم كان الناس مُعوَزين بائسين

كعهدهم دائماً. الفرقُ الوحيد بينهم وبيني هو أنَّهم خرجوا ونالوا ما احتاجوا إليه؛ كَدَحوا للحصول عليه، خَدَعَ أحدهم الآخر، وتقاتلوا بضراوة. أنا ليس لدي أيٌّ من هذه المشاكل. مشكلتي الوحيدة هي كيف أتعايش مع نفسي على مرّ الزمن.

رحت أفكِّر: كم سيبدو أمراً سخيفاً ويدعو إلى الرثاء أن أتسلَّل عائداً إلى القبو وأجد لنفسي ركناً صغيراً ألتفُّ فيه حول نفسي وأشدُّ السقف فوقي وحتى أذنيّ. كان في استطاعتي أن أزحفَ إليه ككلبٍ يجرُّ ذيله بين قائميه الخلفيتين. لن أزعجهما بعد الآن بمظاهر الغيرة. سأكون ممتناً لأي كسرة خبز تُعطى لي. إذا شاءت أن تُحضِرَ عشّاقها وتضاجعهم في حضوري فلا بأس على الإطلاق. إنَّ الإنسانَ لا يَعَضّ اليدَ التي تُطعمهُ. الآن بعد أن شاهدتُ العالمَ لن أشتكي ثانية. إنَّ أي شيءٍ أفضلُ من البقاءِ واقفاً وحيداً تحت المطر لا أدري كيف أتجه. ولكن، ما زال لدي عقل، وأستطيع أن أستلقي في الظلام وأفكِّر، أفكِّر قدر ما أشاء. سيكون الناس في تلك الأثناء في الخارج يتراكضون هنا وهناك، ينقلون الأشياء، يشترون، ويبيعون، ويُودِعون النقود في المصرف ويستردّونها. كان ذلك شيئاً رهيباً. ما كنت حتى لأرغب في القيام بذلك. كنت سأفضِّل ألف مرة أن أتظاهر بأني حيوان، كلب مثلاً، وأحصل بين وقت وآخر على عَظْمة تُرمى إليّ. وإذا ما أحسنت التصرُّف فسأدلَّل وأغنَّج. وقد أعثر على سيد يأخذني في نزهةٍ مربوطاً برَسَنٍ ويتركني لأتبوَّل في كل مكان. وقد أقابل كلباً آخر، من الجنس الآخر، وأضاجعها مضاجعة سريعة بين حين وآخر. أوه، بتُّ أعرف الآن كيف أكون هادئاً ومطيعاً. لقد حفظت درسي الصغير. سوف ألتفّ حول نفسي

twitter @baghdad_library

في الركن القريب من الموقد، هادئاً ولطيفاً، كما تشاء. إذا ما أظهَرْتُ عدم حاجتي إلى أي شيء، أو أي معروف، إذا تركتهما تتصرفان وكأنهما وحدهما، فما المانع في تخصيصِ مكانٍ صغيرٍ لي في الركن؟

المهم في الأمر أن أدخل متسللاً أثناء غيابهما، وذلك لكي لا يُتاح لهما أن توصدا البوابة الخارجية في وجهي.

هنا وبينما أنا في غمرة أحلامي النهارية تلبَّستني فكرة سبَّبت لي أشد القلق. ماذا لو أنهما هربتا؟ ماذا لو أنَّ المنزل مهجور؟

في مكان قريب من مدينة اليزابث توقفنا. تعطَّلَ المحرِّك. الأفضل أن أخرج وأستوقف سيارة على أن أنتظر طوال الليل. مشيتُ إلى أقرب محطة للتزوّد بالوقود وتسكَّعت في انتظار وصول سيارة لتقلَّني إلى داخل نيويورك. انتظرت أكثر من ساعة ومن ثم نفدَ صبري فانطلقتُ في الزقاق الكئيب على قدميّ. كان المطر قد خفَّ هطله؛ تحوَّلَ إلى مجرد رذاذ خفيف. وبين حين وآخر كنت أقول لنفسي، ما أمتع أن أزحف إلى وجارِ الكلب، ثم أحثّ خطاي. كان موقع أليزابث يبعد مسافة خمسة عشر ميلاً.

وفي لحظة ما غمرتني البهجة حتى أني انفجرت أغني بصوتٍ يعلو ويعلو، وكأنما لأُعلِمَهما بأني قادم. طبعاً لن ألجَ المنزلَ وأنا أغني – سوف يُخيفهما هذا حتى الموت.

الغناء جعلني أشعر بالجوع، فاشتريت قطعة شوكولاة هيرشي باللوز من الكشك الصغير القائم على جانب الطريق. كان طعمها لذيذاً. قلت لنفسي، أترى، إنك لستَ شديدَ العَوَزْ، ولم تصل بعد إلى مرحلةِ أكلِ العظامِ، والنفاياتِ. وقد تحصل على بعض الوجبات اللذيذة قبل أن

تموت. بماذا تفكّر - في يخني لحم الحَمَل؟ ينبغي ألاّ تفكّر في أشياء لذيذة المذاق ... فكِّر فقط في العظام والنفاية. ومن الآن فصاعداً ستعيش حياة كلب.

كنت جالساً على صخرة كبيرة في مكانٍ ما من مدينة أليزابث حين شاهدت سيارة شاحنة كبيرة تقترب. كان سائقها هو الرجل الذي كنت قد تركته قبل مسافة بعيدة. قفزت إليها. وبدأ بالحديث عن المحركات، وما يعطبها، وما يحسّن أداءها، الخ. وفجأة قال، بدون مقدمات " سنصل قريباً ".

سألته " إلى أين؟ "

" إلى نيويورك، طبعاً ... إلى أين تظن؟ "

" أوه، نيويورك، نعم، نسيت "

" قل لي، ما الذي ستفعله في نيويورك بحق الجحيم، إذا لم يكن سؤالي تدخُّلاً شخصياً؟ "

" سأنضمُّ إلى عائلتي "

" أكنتَ غائباً منذ فترة طويلة؟ "

قلت، وأنا ألفظ الكلام بشكلٍ تأمُّليّ، " منذ نحو عشر سنوات "

" عشر سنوات! هذه فترة طويلة جداً. ماذا كنت تفعل، أكنتَ فقط تتسكّع؟ "

" نعم، فقط أتسكّع "

" أعتقد أنهم مشتاقون لرؤيتك ... أقصد أهلك "

" أعتقد ذلك "

قال، وهو يرميني بنظرة فضوليّة، " يبدو أنك لست متأكداً كثيراً "

twitter @baghdad_library

" هذا صحيح. أنت تعلم كيف يكون الأمر "

أجاب " أظن ذلك. إنني أقابل كثيرين من أمثالك. ودائماً يعودون إلى أعشاشهم في يوم من الأيام "

هو قال عشّ وأنا قلت وِجار - بيني وبين نفسي طبعاً. كلمة وجار تعجبني أكثر. العش هو للديوك، للحمام، للطيور التي تضع بيضاً. أنا لم أكن أنوي أن أضع أي بيض، بل عظاماً ونفاية، عظاماً ونفاية، عظاماً ونفاية. وبقيت أكررها مراراً، لأستمدّ منها القوة المعنوية لأزحف عائداً ككلبٍ مضروب.

ابتززت نكلة منه لدى مغادرتي له وغُصتُ في القطار النفقي. شعرت أني مُتعب، وجائع، ومهترئ. بدا لي الركابُ كالمرضى. وكأنهم خرجوا للتو من السجن أو من مأوى الفقراء. لقد كنت قد خرجت إلى العالم، بعيداً، بعيداً جداً. طوال عشر سنوات وأنا أضرب خبط عشواء وها قد عدت إلى موطني. أهلاً بك في موطنك، أيها الابن المعجزة! أهلاً بك في وطنك! يا إلهي، كم سمعتُ من حكايات، وكم شاهدت من مدن! وأي مغامرات خضت! عشر سنوات من الحياة، استغرقتْ فقط من الصباح وحتى منتصف الليل. تُرى أما زال الأهل هناك؟

مشيتُ على رؤوس أصابع قدميّ وأنا ألج فناء المنزل وبحثتُ عن بصيص ضوء. لا أثر لحياة. على أي حال، إنهما لا تعودان إلى المنزل باكراً أبداً. سوف أصعدُ إلى الطابق العلوي عن طريق شُرفةِ المدخل. لعلهما موجودتان في خلفيّة المنزل. أحياناً تجلسان في غرفة نوم هيغوروبورو الصغيرة بعيداً عن الردهة حيث يسيل الماء في مقعد المرحاض ليلاً ونهاراً.

فتحت الباب بهدوء، ومشيت حتى أعلى الدرج، وكان مطوَّقاً، فبدأت أهبط، بهدوء، بهدوء شديد، درجة درجة. كان هناك باب في أسفل الدرج. كنت غارقاً في الظلام.

بالقرب من الأسفل سمعت غمغمةَ حديثٍ خافتة. إنهما في المنزل! شعرت بسعادة ممزوجة بالرعب، بنشوة. أردتُ أن أندفعَ إلى الداخل وأنا أهزُّ ذيلي الصغير وأرتمي عند قدميهما. غير أنَّ ذلك لم يكن البرنامج الذي قررت أن أتقيَّد به.

بعد أن وقفتُ وأذني على لوحِ الباب بضع دقائق وضعْتُ يدي على مقبض الباب وأدرته ببطء شديد ودون أي ضجيج. حينئذ وصلتني الأصوات بوضوحٍ أشدّ بكثير حتى أني فتحت الباب بمقدار إنش أو نحوه. الكبرى بينهما، هيغوروبورو، كانت تتكلَّم. بدا كلامها مشحوناً بالعاطفة، هستيرياً، وكأنَّها تشرب الخمر. الصوت الآخر كان منخفضَ النبرة. وأشدّ هدوءاً ونعومة مما سبق أن سمعته. بدت أنها تناشدُ الكبرى. ثم سادَ صمتٌ غريب، كأنهما كانتا تتعانقان. وأقسم أن الكبرى كانت تطلق بين حين وآخر نخراً، وكأنَّها تفركُ بشرةَ الأخرى. وفجأة صرخَتْ من فرطِ الاستمتاع، لكنها صرخة انتقام. ثم زعقت:

" إذن ما زلتِ تحبّينه؟ كنت تكذبين عليّ! "

" لا، لا! أقسم أني لا أحبه. يجب أن تصدقيني، أرجوك. أنا لم أحبه أبداً "

" تكذبين! "

" أقسم لك ... أقسم أني لم أحبه أبداً. لقد كان بالنسبة إليّ بمثابة الطفل "

twitter @baghdad_library

تبعَ ذلك قصفُ صارخٌ من الضحك. ثم هياج، وكأنهما كانتا تتعاركان. ثم صمتٌ تام، وكأنَّ شفاههما التصقت معاً. ثم بدا كأنَّ كُلاً منهما تُجرِّدُ الأخرى من ملابسها، وتلعَقُ الأخرى في كلِّ جزء من جسمها، كما تفعل العجول في المرج. صرَّ السرير. إنهما تفسدان العش، هذا ما يحدث. لقد تخلَّصتا مني وكأني مجذوم وها هما الآن تحاولان أن تقوما بفعل الزوج والزوجة. الحمد لله أني لم أكن مستلقياً في الركن أراقب ورأسي مرتكز بين مخلبيّ. كنت سأنبح بغضبٍ، وربما عضضتهما. وحينئذ كانتا سترفساني وأنا أهرول في المكان ككلب هجين قذر.

لم أرغب في سماع المزيد. أغلقتُ البابَ برفقٍ وجلستُ على الدَرَج في الظلام الحالك. كان التعبُ والجوعُ قد تلاشيا، وكنت يقظاً يقظة خارقة. كان في استطاعتي أن أمشي إلى سان فرانسيسكو في غضون ثلاث ساعات.

الآن يجب أن ألجأ إلى مكانٍ ما! يجب أن أكونَ حازماً - وإلاَّ أصبتُ بالجنون. أعرفُ أني لستُ مجرَدَ طفل. ولا أدري إن كنتُ أريدُ أن أكونَ رجلاً - أشعر كمَنْ تلقَّى رضوضاً وضرباً مبرحاً - لكني حتماً لست طفلاً!

ثم حدثَتْ مهزلةٌ فيزيولوجية غريبة: لقد بدأتُ أطمَثُ. طمثتُ من كل سُمٍّ في جسمي.

حين يطمثُ الرجلُ فإنَّ ذلك ينتهي في غضون بضع دقائق. وهو لا يترك خلفه أي فوضى قذرة.

زحفتُ إلى الطابق العلوي على أربعٍ وغادرتُ المنزلَ بصمتٍ كما دخلته. كان المطر قد انقطع، وسطعت النجوم بكامل تلألؤها. وكانت تهبُّ ريحٌ خفيفة. والكنيسة، القائمة عبر الشارع، والتي تحت ضوء

النهار تبدو بلون خراء الطفل، كانت حينئذ قد تلبّست ظلاً من أصفر المغرة الخفيف الممتزج بصفاء مع سواد الإسفلت. كان المستقبل ما يزال غير محدّد في ذهني. وقفت عند المنعطف بضع دقائق، أزرع الشارع بنظري وكأني أستوعبه للمرة الأولى.

حين تكونَ قد عانيتَ الكثير في مكانٍ معيّن فإن ذلك يترك لديك انطباعاً بأن سجلّه مطبوع في الشارع. ولكن إذا انتبهتَ فستجد أنَّ الشوارع لا تتأثّر أبداً بآلام الأفراد. فإذا خرجتَ من المنزل ليلاً، بعد أن فقدْتَ صديقاً عزيزاً، يبدو لك الشارع بحق كتوماً تماماً. لو أنَّ الخارج يصبح كما الداخل لأصبح الوضع لا يُحتَمَل. إنَّ الشوارعَ أماكنُ تتنفّس...

وأتابع السيرَ، محاولاً أن أصبحَ حازماً بدون أن أكوِّنَ فكرة ثابتة. أمرُّ بصناديق قمامة مترعة بالعظام والزبالة. البعض وضع أحذية عتيقة، وأخفافاً مضروبة، وقبعات وحمالات بنطال، ومواداً أخرى بالية، أمام منازلهم. لاشك في أني تعوّدت على الطواف ليلاً لاستطعت أن أعيش حياة طيبة من البقايا المرميّة.

لقد انتهت حياتي في الوجار، هذا قرارٌ نهائي. على أي حال لم أعد أشعر بأني كلب ... أشعر أني أقرب شبهاً بقطٍ. القط يميل إلى الاستقلال، وفوضوي، وحر. القط هو الذي يهيمن على المسكن ليلاً.

عاودني الإحساس بالجوع. أتمشّى حتى أصل إلى الأضواء البراقة لبورو هول حيث تتوهّج المقاهي. أنظر من خلال الواجهات الكبيرة لأرى إنْ كان في استطاعتي أن أتبيَّن وجهاً ودوداً. وأتابع طريقي، منتقلاً من واجهة محل إلى أخرى، أتفحّص الأحذية، والملابس الرجالية، وتبغ

twitter @baghdad_library

الغلايين وما إلى ذلك. ثم أتوقف برهة عند مدخل القطار النفقي يحدوني أملٌ يائس في أن يُسقِط أحدهم نكلة بدون انتباه. ألقي نظرة متفحِّصة إلى كشك بيع الصحف لأرى إن كان هناك أي رجال عميان أستطيع أن أسرق منهم بضعة بنسات.

بعد فسحة من الوقت أجدني أسير على منحدر عند مرتفعات كولومبيا. أمرُّ بمنزل رصين المظهر ذي حجارة بنّية تذكَّرت أني كنت قد دخلته قبل سنين وسنين لأسلِّم لفافة من الملابس إلى أحد زبائن والدي. أذكر أني وقفت في الغرفة الخلفية الكبيرة ذات المشربيات التي تطل على النهر. كان يوماً شمسه ساطعة براقة عند أول المساء، والغرفة تبدو وكأنها أخذت من لوحة لفرمير[١٥٤]. وكان لابد لي من أن أساعدَ الرجلَ العجوز في ارتداء ملابسه. كان مصاباً بالفتق. بدا وهو واقف في وسط الغرفة بملابسه الداخلية القطنية فاسقاً بما لا يرقى إليه الشك.

تحت المنحدر امتدَّ شارعُ يزدحم ببيوت الدعارة. وكانت مصطبات المنازل الثرية أشبه بالحدائق المعلّقة، تنتهي بسرعة بعد مسافة عشرين أو ثلاثين قدم فوق ذاك الشارع الموحش بنوافذه الميتة ومداخل منازله المقنطرة المتجهِّمة والمؤدي إلى رصيف المرفأ. وعند آخر الشارع وقفتُ أمام جدار لأتبوّل. اقتربَ رجلُ سكِّير ووقف بجواري. تبوَّلَ. لوَّثَ نفسه تماماً وفجأة انطوى على نفسه وبدأ يتقيَّأ. وبينما أنا أمشي مبتعداً سمعت طرطشة القيء على حذائه.

هبطتُ بسرعة مجموعة كبيرة من الدَرَج المؤدِّي إلى الرصيف فوجدتني وجهاً لوجه مع رجل يرتدي زياً رسمياً ويؤرجح عصا كبيرة. أراد أن يعرف

---

١٥٤ - يان فرمير (١٦٣٢ - ١٦٧٥) : رسام هولندي . -المترجم

ماذا أريد، وقبل أن أجيب بدأ يدفعني ويلوح بعصاه مهدِّداً.

عدت أرتقي الدَرَج الطويل وجلستُ على أحدِ المقاعد. كان ينهض أمامي فندقٌ عتيقُ الطراز تقيم فيه معلِّمة مدرسة كانت تعاملني معاملة رقيقة. وفي آخر مقابلة لي معها صحبتُها لنتناول طعام العشاء وعند افتراقنا اضطررت إلى استجداء نكلة منها. أعطتنيها - نكلة واحدة فقط - ورمتني بنظرة لن أنساها ما حييت. لقد كانت قد عَقَدَتْ عليَّ آمالاً عريضة وأنا تلميذ عندها. لكنَّ نظرتها تلك أخبرتني بوضوح لا لبْسَ فيه أنها حتماً قد غيَّرت رأيها فيَّ. وكان في إمكانها أيضاً أن تقول: " لن تستطيع أبداً أن تواجه مشاكل العالم! "

كانت النجوم في أبهى تلألؤها. تمدَّدت على المقعد ورحت أحدِّق إليها بإمعان. عندها كانت أعمالي الفاشلة كلها موثقة بشدّة داخلي، كانت جنيناً حقيقياً من الفشل. كل ما كان قد حدث لي حينئذ بدا بعيداً نائياً. لم يبق أمامي إلا أن أعربد وسط انفصالي. وبدأت أرحل متنقِّلاً من نجمٍ إلى نجم ...

بعد ذلك بساعة أو نحوها، نهضتُ واقفاً على قدميّ، وقد سَرَى الصقيع إلى عظامي، وانطلقت أسير برشاقة، تملأني رغبة مجنونة في المرور من جديد بالمنزل الذي طُرِدتُ من. كدت أموت توقاً لمعرفة إن كانتا ما تزالان تعبثان.

كانت الظِلال قد ظهرت جزئياً وألقى الضوء المنبعث من الشمعة الموضوعة بالقرب من السرير وهجاً هادئاً. تسلَّلت مقترباً من النافذة ووضعت أذني عليها. كانتا تغنيان أغنية روسية كانت الكبرى بينهما مولعة بها. كان واضحاً أن النعيم يسود في الداخل.

twitter @baghdad_library

خـرجت من الفناء على رؤوس أصـابعي وهبطت إلى زقـاق الحب، القريب. وكان قد سُمِّيَ بزقاق الحب خلال " الثورة " في الغالب؛ غير أنه كان زقاقاً خلفياً مزروعاً بالمرائب وورش التصليح.

عدت أدراجي إلى النهر، إلى الشارع الكئيب، المتجهِّم الذي يمتدُّ كمجرى بول متغضِّن تحت مصطبات منازل الأغنياء. لا أحد أبداً يسير في هذا الشارع في وقت متأخر من الليل - لأنه يكون شديد الخطورة.

لا أثرَ لبشرٍ فيه. الممرات التي تخترق المخازن كانت تمنح لمحات مذهلة من حياة النهر - مراكبُ تقف بلا حراك، زوارقُ قَطْرٍ تمرُّ بانسياب كأشباح من دخان، والظلال الجانبية لناطحات السحاب على خلفية شاطئ نيويورك، ودعائم حديدية ضخمة تتدلّى منها كابلات ضخمة لشدِّ السفن، وأكوامٌ من القرميد وسَقْط المتاع، وأكياسٌ من القهوة. والمشهد الأشد تأثيراً في المشاعر كان مشهد السماء ذاتها. كانت نقية لا تشوبها أي غيمة ومرصَّعة بحُفَنٍ من النجوم، تتلألأ كرداء كبار الكهنة الأقدمين.

أخيراً مررت من المدخل المقنطر. وفي منتصف الطريق إلى ذلك شعرت بجرذ ضخم يعبر بسرعة فوق قدمي. ثم تلبَّسني رعبٌ فهرعت عائداً إلى الشارع. على الجانب المقابل من الشارع بالقرب من الجدار، كان هناك رجل واقف. جمدت في مكاني، لا أدري كيف أتَّجه، آملاً في أن يقوم ذاك الشخص الصامت بالحركة الأولى. لكنه بقي بلا حراك، يراقبني كالصقر. ومرة أخرى تولاني الرعب، لكني في هذه المرة قوَّيتُ من عزمي لأتابع طريقي، مَخافةَ أني إذا ركضتُ أن يركضَ في إثري. مشيت بأشدّ ما استطعت من هدوء، وأذناي تنتصبان بانتباه لالتقاط أوهى صوت لوقع خطاه. لم أجرؤ على الالتفات. مشيت بخطى بطيئة، متأنية، بالكاد كنت أضع كعبيَّ على الأرض.

لم أكن قد قطعْتُ أكثرَ من بضعِ ياردات حين انتابني إحساسٌ معيَّن بأنه يتبعني، ليس على الجانب الآخر من الشارع وإنما كان مباشرة ورائي، ربما لا يبعد عني أكثر من بضع ياردات. فحثثت خطاي، إلا أني كنت ما أزال لا أصدرُ أي صوت. وبدا لي أنه يتحرك بسرعة أكبر من سرعتي، بحيث أنه كان يقترب مني. وكدتُ أشعر بأنفاسه تلفحُ عنقي. وفجأة قمت بالتفات سريع. هاهو، يكاد يقبض عليَّ. وأدركت أنه ما عاد في إمكاني أن أتفاداه. وخمَّنت أنه مسلَّح وأنه سيلجأ إلى استخدام سلاحه، سكيناً كان أم مسدساً، حالما أحاول أن أطلق ساقيَّ للريح.

استدرت غريزياً بسرعة البرق وغصتُ إلى أسفل أبغي الإمساك بقدميه. سقط على ظهري وارتطم رأسه بالرصيف. كنت أعلم أني لا أملك القدرة على مصارعته .,ومن جديد كان لابد لي أن أتقدَّم بسرعة. كان يتدحرج، وبدا مذهولاً قليلاً حين قفزت واقفاً على قدميَّ. وكانت يده تمتد إلى جيبه. سدَّدت إليه رفسةً فتلقاها مباشرة في بطنه.

أنَّ وتدحرجَ. اندفعتُ منطلقاً. ركضتُ بأقصى ما أوتيتُ من قوة. لكنَّ الشارعَ كان شديدَ الانحدار، وقبل أن أصلَ إلى نهايتِه بمسافةٍ طويلةٍ اضطررتُ إلى العودةِ إلى السير العادي. ومن جديد استدرتُ وأصغيتُ. كانت الظُّلمة حالكة فلم أميِّز إنْ كان قد نهض واقفاً على قدميه أم أنه كان ما يزال مستلقياً هناك على الرصيف. لم أسمع غير وجيب قلبي المضطرب، وطَرْق صدغيّ. اتَّكأت على الجدار لألتقط أنفاسي. كنت أشعر بتعبٍ شديد، وكدت أفقد وعيي. تساءلت إن كنت سأقوى على ارتقاء أعلى التلّ.

بالكاد كنت بدأت أهنِّئ نفسي على نجاتي على آخر رمق حين شاهدتُ ظلاً يزحفُ على الجدار حيث تركته. هذه المرة حوَّلَ الخوف ساقيَّ

twitter @baghdad_library

إلى رصاص. شُللتُ تماماً. راقبته يزحف مقترباً باطِّراد، وأنا عاجز عن تحريك عضلة واحدة. بدا أنه كان يتكهَّن بما حدث. ولم يُسرِّع خطاه.

عندما أصبح على مبعدة قدم مني شَهَرَ مسدساً. هنا رفعتُ يدي غريزياً. اقترب مني وأخذ يفتّشني. ثم أعاد مسدسه إلى جيبه. لم ينطق بأي كلمة. فتَّشَ جيبيَّ، لم يعثر على شيء، فلطمني على فكّي بظاهر يده ومن ثم تراجع إلى حمأته.

قال، بصوت منخفض ومتوتِّر، "أنزل يديك "

أسقطتهما كمِدْرَسَين. تجمَّدتُ من شدة الخوف.

مرة أخرى شهر مسدسه، وصوَّبه إليَّ، وقال بالصوت المتوتر المنخفض نفسه: " سأدكَّك في بطنك، أيها الكلب القذر! ". هنا انهرتُ. حالما سقطت سمعت طلقة الرصاص تضرب الجدار. إنها النهاية. وتوقعت وابلاً من إطلاق الرصاص. وأذكر أني حاولت أن أنضمَّ على نفسي كالجنين، طاوياً ذراعي فوق عينيَّ لأحميهما. ثم جاء وابل الرصاص. ثم سمعته يركض مبتعداً.

كنت متأكداً من أني أحتضر، لكني لم أشعر بأي ألم.

فجأة أدركت أني لم أُصَبْ حتى بخدش. انتصبتُ في جلستي فشاهدت رجلاً يجري خلف المهاجم الفارّ الذي يشهر مسدساً. أطلق بضعةَ عيارات نارية أثناء هروبه ولكن يبدو أنها طاشت بعيداً عن هدفها.

نهضت واقفاً على قدميّ وأنا أترنَّح، وتحسَّست نفسي من جديد في كل مكان لأتأكد من أنَّ أي أذى لم ينلني، وانتظرت عودة الحارس.

ناشدته " هلاَّ ساعدتني، إني ضعيف "

نظرَ إليّ مرتاباً، والمسدس ما يزال في يده.

" ماذا تفعل هنا بحق الجحيم في مثل هذه الساعة من الليل "

غمغمت " إنني ضعيف كقطة، سأخبرك لاحقاً. ساعدني لأصلَ إلى منزلي، من فضلك"

أخبرته عن مكان سكني، وأني كاتب، وقد خرجت لأستنشق هواءً نقياً. ثم أضفت " لقد جرَّدني من كل ما معي. من حسن حظي أنك ظهرت ... "

بعد المزيد من مثل هذه اللغة الغريبة لانَ وقال " هاكَ، خذ هذا وجِدْ لنفسك سيارة أجرة. أظنك أصبحتَ على ما يرام "، وأقحمَ ورقةً بقيمة دولار في يدي.

عثرت على سيارة أجرة أمام أحد الفنادق وأمرت السائق أن يوصلني إلى زقاق الحب. وفي الطريق توقفت لأشتري علبةً من السجائر.

هذه المرة كانت الأضواء مطفأة. دخلت من الشرفة وتسللت بخفّة إلى الرواق. لا صوت. وضعت أذني على باب الغرفة الأمامية وأصغيتُ بانتباه. ثم عدت خلسة وبهدوء إلى الزنزانة الصغيرة الواقعة في آخر الرواق حيث كانت الكبرى بينهما تنام عادة. وانتابني إحساس بأن الغرفة مهجورة. أدرت مقبض الباب ببطء. بعد أن فتحت الباب بمقدارٍ كافٍ غصت على أربع وزحفت على يديّ وركبتيّ، متلمِّساً طريقي بحذرٍ إلى السرير. وهناك رفعت يدي وتحسست السرير. كان خالياً. خلعت ملابسي على عجل واندسست فيه. كانت هناك بعض أعقاب السجائر عند قدميّ السرير - تخيلتها خنافس ميتة.

سرعان ما غصت في نوم عميق. حلمت أني مستلقٍ في زاوية الموقد، مرتدياً معطفاً من الفرو، ولي مخالب مبطَّنة وأذنان طويلتان.

twitter @baghdad_library

وبين مخالبي عظمة لعقتها حتى النظافة. كنت أحرسها بحرص، حتى في نومي. ويدخل رجلٌ ويسدِّد ضربة إلى أضلعي. أتظاهر بأني لم أشعر بها. فيرفسني من جديد، وكأنما ليدفعني إلى الصراخ - أو ربما لكي أتخلى عن العظمة.

قال، ملوحاً بسوطٍ كان يخفيه وراء ظهره، " انهض! "

كنت أشدُّ ضعفاً من أن أتحرَّك. رفعت إليه نظرة بعينين مرهقتين، تثيران الشفقة، في توسُّلٍ أبكم لكي يدعني بسلام.

تمتم، وهو يرفع طرف السوط كأنما ليضرب، " هيا، اخرج من هنا! "

ترنَّحتُ وأنا أرتكز على أربع وحاولت أن أعرج مبتعداً. خيِّل إليّ أنَّ عمودي الفقري سينكسر. سقطتُ، وتداعيتُ كحقيبةٍ مثقوبة.

رفع الرجل من جديد السوط ببرود وفرقع طرفه فوق رأسي. أطلقت صرخة ألم. فاستشاط غضبه لهذا، وشدَّ على السوط من طرفه وبدأ يسوطني بلا رحمة. حاولتُ أن أنهض ولكن دون فائدة - لقد انكسر عمودي الفقري. رحت أتلوّى على الأرض كأخطبوطٍ، وأنا أتلقى السوط إثر السوط. واستنفذ عنف الضربات أنفاسي. ثم ظنَّ أني قد فارقت الحياة، فتركني ورحل. بعد ذلك بدأت أنفِّس عن كربي. أولاً نشجت، ثم، بعد أن استعدت قواي، أخذت أصرخ وأولول. كان الدم ينز مني وكأني إسفنج. كان يتدفق بكل الاتجاهات، مشكلاً بقعة داكنة كبيرة، كما نرى في أفلام الكرتون. وأخذ صوتي يزداد وَهَناً على وهن. وكنت بين حين وآخر أصدر عواءً.

حين فتحت عينيّ كانت المرأتان منحنيتين فوقي، تهزاني.

كانت الكبرى تقول " كفى، إكراماً لله، كفى! "

وكانت الأخرى تقول " يا إلهي، فال، ماذا حدث؟ استيقظ، استيقظ! "

اعتدلتُ في جلستي ونظرتُ إليهما وعلى وجهي تعبير الذهول. كنتُ عارياً وجسدي مغطى بالدماء وبالرضوض.

" أين كنت؟ ماذا حدث؟ ". عندئذ أصبح صوتاهما منسجمين.

حاولتُ أن أبتسم لكنَّ الابتسامة تلاشت لتتحول إلى تكشيرٍ مشوَّه.

" أعتقد أني كنت أحلم "، ثم ناشدتهما " انظرا إلى ظهري من فضلكما؛ أشعر أنه قد انكسر "

مدَّدتاني من جديد على السرير وقلبتاني، وكأنه مكتوب عليَّ " قابل للكسر ".

" إنك مملوء بالرضوض. لا شك في أنك قد تلقَّيتَ ضرباً مبرحاً "

أغمضت عينيّ وحاولت أن أتذكّر ما حدث. كل ما استطعت أن أتذكّره كان حلماً، ذاك المتوحش يقف فوقي وينهال عليّ ضرباً بالسوط. لقد رفسني في أضلعي، وكأني كلبٌ أجرب (" سأدكُّك في أحشائك، أيها الكلب القذر! ") وتذكرت بجلاء، لقد انكسر ظهري فعلاً. وسقطت وتمددت على الأرض كأخطبوط. وتابع سوطي وأنا في ذلك الوضع العاجز بعنف لا إنساني.

سمعت الكبيرة تقول " دعيه ينام "

قالت الأخرى " سوف أستدعي الإسعاف "

وبدأتا تتجادلان.

تمتمت " اذهبا، اتركاني وحدي "

عاد السكون من جديد. واستغرقت في النوم. حلمت بأني في عرضٍ

twitter @baghdad_library

للكلاب؛ كنت كلب تشاو[١٥٥] أحيطَ عنقي بشريطٍ أزرق. وفي الحجيرة التالية كان هناك تشاو آخر، يحيط عنقه بشريطٍ ورديّ. كان فوز أحدنا بالجائزة يحكمه الحظ.

المرأتان اللتان ميَّزت وجودهما كانتا تتشاجران حول ميزاتنا وعيوبنا الشخصية. وأخيراً اقترب الحَكَم ووضع يده على عنقي. فابتعدت المرأة الكبيرة بخطى واسعة غاضبة، وهي تبصق باشمئزاز. لكن المرأة التي كنتُ أثيراً لديها مالت عليَّ، وأمسكت بي من أذنيَّ، ورفعت رأسي وقبَّلتني على خطمي. همست " كنت أعلم أنك ستفوز بالجائزة لأجلي. أنت مخلوق ظريف، ظريف "، وبدأت تداعب فروي. " انتظر لحظة، يا عزيزي، وسأحضر لك شيئاً لذيذاً. انتظر لحظة ... "

لدى عودتها كانت تحمل رزمة صغيرة بيدها؛ كانت ملفوفة بمنديلٍ من الورق ومربوطة بشريطٍ جميل. قربَّتها مني فوقفت على قائميَّ الخلفيين، ونبحت " ووف ووف! ووف ووف! "

قالت، وهي تحلُّ الرزمة ببطء، " على مهلك، يا عزيزي. الماما أحضرت لك هدية صغيرة جميلة "

" ووف ووف! ووف ووف! "

" هذا هو حبيبي ... هذا هو ... على مهلك الآن ... على مهلك "

كنت توّاقاً بقوة إلى تلقِّي الهدية. لم أفهم لماذا كانت تستغرق وقتاً طويلاً. كانت شيئاً ثميناً جداً بالنسبة إليّ.

كانت الرزمة قد فُكَّت. وكانت تحمل الهدية الصغيرة خلف ظهرها.

" انهض، انهض! نعم هكذا ... انهض! "

---

١٥٥ – كلب تشاو : كلب من أصل صيني .– المترجم .

وقفت على قائميّ الخلفيين وبدأت أطفر وألتفّ حول نفسي.

" والآن توسَّل إليّ! توسّل لتحصل عليها! "

" ووف ووف! ووف ووف! ". كنت مستعداً أن أقفز خارج جلدي من فرط الابتهاج.

فجأة دلّتها أمام عينيّ. كانت عظمةَ سلامي رائعة. مملوءة بالنقي، ومحاطة بخاتم زواج ذهبي. كنت شديد التوق لحيازتها، لكنها حملتها عالياً فوق رأسها، وهي تعذّبني بها بلا رحمة. وأخيراً كم كان مبلغ دهشتي حين مدَّت لسانها وبدأت تمصّ النقي بفمها. ثم أدارتها حول محورها ومصَّتها من الطرف الآخر. وبعدما أفرغتها تماماً أمسكت بي وراحت تداعبني. فعلت ذلك ببراعة شديدة حتى أني في غضون بضع لحظات انتصبت كاللفت الفج. ثم تناولت العظمة (وخاتم الزواج ما يزال يحيط بها) ومرّرتُها فوق اللفت الفج. " والآن أيها الحبيب الصغير، سأصحبك إلى المنزل وأودِعُكَ السرير ". وبهذا رفعَتْني وانطلقَتْ، وكان الجميع يضحكون ويصفقون. ما أنْ وصلنا إلى الباب حتى انزلقت العظمة ووقعتْ على الأرض. حاولتُ أن أتملّص من بين ذراعيها، لكنها شدَّتني إلى صدرها. فأنَّيت متذمراً.

قالت " هسس، هسس! "، ثم مدَّت لسانها ولعقت وجهي. " أيها المخلوق الصغير، العزيز، اللذيذ! "

نبحتُ " ووف ووف! ووف ووف! ووف! ووف، ووف، ووف! "

— انتهى —

twitter @baghdad_library

تصميم الغلاف : نزيه ابو عفش

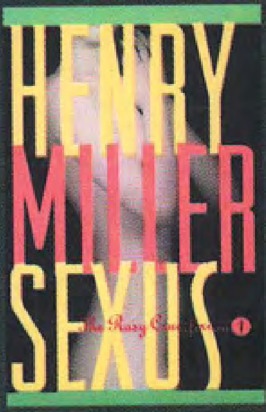

" إنها سردٌ مُسهَبٌ لحياة ميللر في مدينة نيويورك . . . يصلُ إلى أوجه بقصفٍ مُعربد رائع بوصفه لقُدُرات المؤلّف على ممارسة الجنس لا يقلُّ روعةً عن تنوّع جوانبها . . . إنها حيويّة فريدة . . . لا يمكنُ لميللر أنْ يكونَ طنّاناً ، وهذه فضيلة نادرة ، وصدقُه لا حدود له "

صحيفة " سبكتاتر "

" إنَّ عملَ هنري ميللر هو مصارعةٌ طويلة أساسها السيرة الذاتيّة مع العـالم ، والجسد ، والشيطان والملاك "

صحيفة " الديلي تلغراف "

" إنَّ الأدبَ الأميركيَ يبدأ وينتهي مع مغزى ما أنجزه ميللر "

الكاتب لورانس دريل .

على الرغم من أنَّ " سكسـوس " هي الرواية الأولى ، إلاّ أنهـا آخر جزء نُشِرَ في المملكة المتحدة من ثلاثيّة " الصَّلْب الورديّ " ، التي أساسها سيرة حياته الخاصة . و " بليكسوس " هي الرواية الثانية ، و " نكسوس " هي الأخيرة .

ISBN:2-84305-630-X
9 782843 056307

twitter @baghdad_library